لَيْتَ هذه الغريزة . كانت عند القوم فى مسارها الطبيعى ، بمعنى غريزة الرجل نحو المرأة ، إنما كانت غريزة جنسية منحرفة لم يسبق لها مثيل من قبل وهى علاقة الرجل بالرجل ، لذلك جاءت منهم جريمة وفعلة نكراء مبتكرة لم يسبق إليها أحدٌ غيرهم ، كما قال تعالى على لسان سيدنا لوط : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ [الأعراف]

قلنا سابقاً : إن كل إنسان منَّا له فى ذاته الخاصة حرية ، فإذا انتقلتْ إلى غيره جاءتْ قيود لهذه الحرية ، إذن : فلى حرية مع نفسى، ولى حرية مع أهلى ، ولى حرية مع الناس عموماً فى الشارع، ولكلٍّ حدود والتزامات ، فالإنسان مثلاً حين يغلق على نفسه حجرته الخاصة تكون حريته أوسعَ ، حيث لا أحدَ معه يحدُّ من حريته .

فإذا خرج من حجرته الخاصة إلى الصالة مثلاً تصبح حريته مُقيَّدة بعض الشىء لوجود أهله وأولاده ، فإذا خرج إلى الشارع حيث عامة الناس قُيِّدتْ حريته أكثر ؛ لأن لكل مَنْ يتعامل معهم فى الشارع حرية ، وحريةُ الآخرين تُقيِّد حريتك ، فإذا ما ذهبتَ إلى النادى مثلاً حيث الأحبة والأصدقاء ، فإنك تذهب بهندامك الكامل وأدبك الجمّ .. الخ .

لذلك ظهر تبجُّح قوم لوط بفاحشتهم ، لدرجة أنهم كانوا يأتونها فى ناديهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ (٢٩) ﴾ [العنكبوت] يعنى : الفعل الذى لا ينبغى لكم فى الخَلْوة تفعلونه فى النادى علانيةً ، وهذه الفعْلة ممنوعة شرعاً ، حتى لو كانت فى المحلَّلة لك وهى الزوجة ؛ لأنَ إتيان الزوجة لا يكون إلا فى منبت الولد .

لذلك لما نادى البعض بحرية الرجل فى الاستمتاع بالمرأة حيثما

يشاء ، وفَهم هذه الحرية من قوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ (٢٢٣) ﴾ [البقرة] نقول لهم : لقد غفلتم عن معنى الحرث هنا ، فالحرث هو الأرض المعدَّة للإنبات ، كذلك يكون إتيان الزوجة فى موضع الإنبات حيث يأتى الولد ، فإنْ كان فى الموضع الآخر الذى لا إنبات فيه فهو حرام . فإذا كان الإسلام يُحرِّم هذه الفِعْلة مع الزوجة ، فما بالك لو فعلها مع رجل مثله ؟

وكما حرَّم الشرع فعْلة قوم لوط ، وهو إتيان الرجل للرجل حرَّم كذلك أنْ تفعل المرأة بالمَرأة ، وهو ما يُسمَّى بالسِّحاق والعياذ بالله ، وهذا التحريم بالقياس على الرجل .

إذن : فالشرع عدَّل الغرائز المنحرفة فى علاقة الرجل بالرجل ، وفى علاقة المرأة بالمرأة ، وفى العلاقة الزوجية بين الزوج وزوجته، ووضع الضوابط الرادعة فى هذه المسألة ، لماذا ؟ لأن هذا الانحراف سيسىء إلى النسل وإلى عمارة الكون ، والحق سبحانه يريد لخليفته فى الأرض أنْ يأتى طاهراً شريفاً ، ليكون أهلاً لهذه الخلافة .

لذلك ذُكر سيدنا لوط عليه السلام سبعاً وعشرين مرة لِثقَل المهمة التى كُلِّف بها ، فى حين ذكر سيدنا عيسى عليه السلام رغم أهميته فى موكب الرسالات ، ورغم طبيعة خَلْقه العجيبة ، إلا أنه ذُكر خمساً وعشرين مرة .

وأنا شخصياً أخذتُ على كثيرين من الكُتَّاب والعلماء أنهم ينسبون هذه الجريمة ، وينسبون فاعلها إلى نبى الله لوط - عليه السلام - فيقولون عن الفعلة النكراء لواط ومرتكبها (لوطى) ، وهذا خطأ فادح وعيب كبير أن ننسب القبح والفاحشة لنبى الله ، الذى جاء ليحاربها ،

وليُعدِّل سلوكَ الناس فيها : قالوا : نحن نسير فى ذلك على مُقْتضى الكلام العربى فى النسب ، كما قال الناظم[(١)] :

وَالوَاحِدَ اذْكُرْ نَاسِباً لِلْجمْعِ إنْ لم يُشَابِهْ وَاحِداً بِالوضْعِ[(٢)]

يعنى : هم قوم لوط بالإضافة ، لكن فى اللغة مَا يُسمَّى بالنحت ، ويمكن أنْ ننحت من الكلمة ما يفيد أن القوم هم أصحاب هذه الفعلة ، بعيداً عن لوط - عليه السلام - فعيْبٌ أنْ نجعله عُنْواناً لهذه الفاحشة.

وهذه الآيات التى معنا تذكر قصة سيدنا لوط مع قومه ، فهى لقطة موجزة لآخر القصة ولنهايتها ، حيث نجَّى اللهُ المؤمنين وأهلكَ الكافرين ، وبداية قصة لوط حينما تقابل مع عمه سيدنا إبراهيم عليهما السلام ، كما قال تعالى :﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت]

فهذه لقطة من القصة ، وليس تكْرَاراً لها كما يدعى البعض ، فالقَصَص فى القرآن لا يأتى سَرْداً جملة واحدة ، إنما يأتى لقطات مختلفة يذكرها فى مناسبتها .

وقد وقف السطحيون كثيراً فى مسألة عصا موسى يتهمون القرآن بالتكرار ، وهذا نتيجة قصورهم فى فَهْم كتاب الله ، فالأمر الأول بإلقاء العصا كان فى مجال الإيناس ، حيث أراد الحق سبحانه أنْ يُجرى لموسى هذه التجربة بينه وبين ربه ، بدليل سؤال الإيناس . ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) ﴾ [طه] فالله يعلم ما فى يمينه ، لكن أراد

---

(١) هو ابن مالك صاحب الألفية فى النحو أبو عبد الله جمال الدين ، أحد أئمة العلوم العربية ، ولد فى جيان بالأندلس عام ٦٠٠ هـ ، وانتقل إلى دمشق فتوفى بها عام ٦٧٢ هـ عن ٧٢ عاماً ، له مصنفات كثيرة فى علم العربية

(٢) هو البيت رقم ٨٧٨ فى الألفية ، وهى من بحر الرجز وعدد أبياتها ١٠٠٢ بيتاً .

سبحانه أنْ يُؤنسه ؛ لذلك أطال سيدنا موسى فى الجواب ، فقال : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ[1] أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] ثم أمره الله أنْ يُلقيها :﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه]

إذن : أراد الحق سبحانه أنْ يدرِّب موسى ، حتى إذا جاء لقاؤه مع فرعون ورأى العصا حَيَّة على الحقيقة ، كان لديه دُرْبة ولا يخاف. ثم كان الأمر بإلقاء العصا فى المرة الأخرى فى موقف آخر أمام فرعون والسحرة . إذن : هذا موقف ، وهذا موقف آخر .

وإنْ شاء سبحانه أورد القصة كاملة ، كما فى قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - ربما ليتحقق لها الحبكة الفنية كما يقول نقاد الأدب ، وربما لأن العبرة والعظة لا تتم إلا بتمام القصة ؛ لأن القصة فى القرآن ليستْ سَرْداً لتاريخ ، ولا مجالاً للتسلية ، إنما تُساق للعبرة والعظة ، وتُساق لتسلية سيدنا رسول الله .

فمهمة رسول الله أمام مجابهة قومه له باللَّدد والخصومة والعناد والكفر كانت تقتضى أنْ يُثبته الله فى كل آونة ، فكلما احتاج إلى تثبيت نزلتْ عليه الآيات تحمل لقطة مناسبة من موكب الرسالات ، ثم يُسلِّى الله رسوله فيقول له : لأنك سيد الرُّسُل وخاتم الرسل ومبعوث إلى الناس كافة إلى آخر الزمان ، فلا بُدَّ أنْ تتضاعف لك المتاعبُ من قومك .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك ، وقلنا : إننا شاهدنا مثلاً ثورة يوليو ١٩٥٢ وما زلنا نشهد الاحتفال بذكراها كل عام ، ونستمع إلى

---

(١) مآرب أخرى : أى حاجات وأغراض كثيرة أخرى . [القاموس القويم١/١٧] .

قصتها وما دار فيها ، لكن كل سنة نستدرك عليها شيئاً جديداً ، ونستخلص منها دروساً .

إذن : نقول جاء القصصُ القرآنى كل لقطة فى مناسبتها لتثبيت رسول الله كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) ﴾ [الفرقان]

يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) ﴾ [الصافات] أى : بالقصف والرَّجْم .

كلمة (وأهله) الأهل تُطلَق على عشيرة الرجل الأقربين ، وتُطلق على الزوجة ، والحق سبحانه وتعالى أخبر هنا أنه نجَّى لوطاً وأهله أجمعين ، واستثنى منهم امرأته ﴿ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ﴾ [الصافات] ، وفى آية أخرى قال : ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت] والغابرون جمع : غابر ويطلق الغابر على معنيين متقابلين . الغابر : يعنى الشىء الذى مضى وانتهى ، والغابر الباقى ، وقد اجتمع لامرأة لوط المعنيان معاً ، فهى من الغابرين الذين تركناهم للهلاك ، أو من الغابرين يعنى الباقين أيضاً للعذاب حتى يأتى .

ثم يُذكّرنا الحق سبحانه بأن القصة فى القرآن لا تُساق للتسلية ، إنما تُساق للعبرة والعظة ، فيقول : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم (١٣٧) ﴾ [الصافات] أى : على آثارهم فى سدوم ﴿ مُّصْبِحِينَ (١٣٧) ﴾ [الصافات] فى الصباح ﴿ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] نعم ، يمرون عليهم فى رحلاتهم وأسفارهم وفى تجارتهم فى رحلة الشتاء والصيف ، ويشاهدون آثارهم وما تبقَّى من ديارهم .

كانت هذه لقطة موجزة ، وبرقية عاجلة لقصة سيدنا لوط مع قومه ومثلها تماماً قصة سيدنا يونس :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

أولاً : أثبت الحق سبحانه لسيدنا يونس -- عليه السلام -- أنه مُرْسَل ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الصافات] فلنأخذ هذه الفكرة فى الاعتبار قبل الدخول فى قصته ، ولنفهم القصة فى هذا الإطار ، حتى إذا ما حدث منه شىء لا يليق برسول فى نظرك ، فاعلم أنه لا يطعن فى منزلته كرسول ، فالذى أرسله شهد له بالرسالة ولم يعزله منها ، ولم يُجرِّده من منزلته بعد ما حدث .

إذن : حين تسمع قصته لا تَقُلْ أن هذا الفعل لا يليقُ برسول ؛ لأنك لست أغيرَ على الله من الله .

وتأمل قول الله فيه ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الصافات]معنى أبق : هرب وليس الهروب المطلق ، إنما هروب العبد من سيده ، لا هروبه من مستأجره ، ولا هروب ابنى منى ، فهذا لا يُعَدُّ أُبُوقاً . فكلمة (أبق) فيها ملحظ العبودية المطلقة للسيد الأعلى ، فالله سيده وهو عبده .

لأن العبد مملوك بملك اليمين فهو بذاته مِلْك لى حين آخذه أسيراً ، نعم بذاته ، لأن الله حقن بهذا المِلْك دمه ، فبدل أنْ أقتله فى

الحرب أسرْتُه واستعبدته ، فهو لا يصير عبداً إلا إذا أسرْته ، وما دُمْت أسرْته وقدرْت عليه تستطيع قتله ، إذن : ملّكك اللهُ رقبته ، لأنه حمى دمه أنْ يُرَاق .

فلا داعى إذن للمقارنة بين الرقِّ والحرية ، وإنْ أردتَ المقارنة ، فقارن بين رِقٍّ وقتل ، ولو خيَّرْتَ العبد نفسه بين أن يعيش عند سيد يخدمه ، وبين القتل لاختار العبودية . إذن : العبودية هنا ليست سُبَّة فى الإسلام ، إنما هى جميل أسْداه الإسلام إلى هؤلاء العبيد .

ومحمد ﷺ ما جاء ليشرِّع للرقِّ ، ويزيد من أعداد الرقيق إنما جاء ليقضى على الرِّق ، وليجفِّف منابعه ، ورسول الله ﷺ جاء والرق موجود فى المجتمع وبكثرة ، حيث كان له ثلاثة وعشرون مصدراً يأتى الرقُّ منها ، فماذا فعل الإسلام ؟

سَدَّ كل هذه المصادر ، ولم يَبْقَ منها إلا الأسير فى حرب شرعية ، ثم أخذ يُعدِّد مصارف الرق ويفتح الأبواب لتحرير الرقيق كما رأينا فى الكفَّارات وفى التطوع بتحرير الرقاب . فإنْ لم ترتكب ذنباً يستدعى كفارةً وعتْقَ رقبة ولا حاجةَ لك فى التطوع بعتق رقبة واحتفظتَ بما لديك من الرقيق فلتكرمه .

وقد وضع لنا النبى ﷺ دستوراً نسير عليه فى معاملة الرقيق ، حين قال : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلَّفه ما يغلبه فليُعنه عليه »[1] .

هكذا أمر الإسلام فى مسألة العبيد ، والإسلام أبقى على الرقِّ

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٥٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٦١) كتاب الأيمان - باب إطعام المملوك مما يأكل .

من الحرب المشروعة ؛ لأن لى عدواً كافراً يحاصرنى ويحاربنى ، ويأخذ أولادى أَسْرى عنده ، فلا بُدَّ من المعاملة بالمثل ، أسَرُوا منّا نأسر منهم ، فَدوْا أسْراهم نفدى أسْرانا ، أطلقوا السراح نطلق .. وهكذا ، إذن : المتأمل فى هذه المسألة يجد أن محمداً ﷺ ما جاء لِيُشرِّع للرقِّ ، إنما جاء لِيُشرِّع للعتق .

وقوله تعالى فى شأن سيدنا يونس ﴿إِذْ أَبَقَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات] ليس مأخذاً على نبى الله يونس ، لأن (أَبَقَ) تعنى أنه معترفٌ بأنه عبد لربه ، هذه اللقطة لم يأتِ لها تفصيل هنا ، إنما جاء فى سورة أخرى لنعرف أن المسألة ليستْ (ميكانيكا) ، المسألة مرادات حَقٍّ تأتى فى موضعها لحكمة ، ولسيدنا يونس سورة باسمه ، ولن يُذكر اسمه إلا مرة واحدة ، ثم يذكر فى غير السورة المسمَّاة باسمه كل تاريخه .

فمعنى (أَبَقَ) هرب من سيده أو ترك قومه دون إذن من ربه ، وهذه المسألة فُصِّلَتْ فى قوله تعالى ﴿وَذَا النُّونِ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء] أى : صاحب الحوت ، وهو سيدنا يونس ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء] والمغاضب غير الغاضب ، المغاضب : فيها مفاعلة ومشاركة ، فهو غاضب ، والمقابل له أيضاً غاضب ، فهى مثل شارك محمد علياً ، فهى شارك علىّ مُحمداً ، أما غاضب فيعنى من ناحيته هو فحسب .

لكن مُغَاضباً لمن ؟ الطرف الآخر هنا هم القوم لما كذبوه وآذوه لم يُطقْ ، فهو ليس مُغَاضباً لربه ، إنما مغاضباً لقومه وعنده أمل ، وظن فى ربه أن يسامحه فى هذا التصرف ؛ لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] البعض[1] فهم (نقدر) من القدرة، وحاشا لله أن يظن نبى الله أن الله لن يقدر عليه ، ولن يعيده إلى قومه .

إنما معنى (نقدر) هنا أى : نُضيِّق عليه[2] ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ (٧) ﴾ [الطلاق] فهى ثقة منه فى رحمة من أرسله ، وأنه سبحانه لن يُضيِّق عليه أنْ يُنفِّس عن عواطفه حين ترك قومه دون إذن من ربه .

ومعنى (الفُلْك) السفينة (المشْحُون) المملوء ، وهذا يدلُّنا على أن للسفينة حملاً خاصاً ، لا ينبغى أنْ يزيد ، وإلاَّ تعرضت السفينةُ للغرق حسب قاعدة أرشميدس ، وبهذه القاعدة تطفو الأشياء ، وعليها قامتْ فكرة الغوَّاصات ، معنى غواصة يعنى : تغوص تحت الماء ، لأن وزنها أثقلُ من إزاحة الماء ؛ لذلك يقولون : خفْ تعوم .

وما دام أن الفلك مشحون ، والعدد أزيد من حمْل السفينة فقرر القبطان أن يُلقى بأحد الركاب ليَخفَّ الحملُ ، فأجروا القرعة ، فخرج سهم سيدنا يونس ، فألقَوْا به فى البحر فالتقمه الحوت ، هذا معنى ﴿ فَسَاهَمَ .. (١٤١) ﴾ [الصافات] أى : دخل معهم فى القرعة ، وألقى بسهمه مع سهامهم ، ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) ﴾ [الصافات] معنى ﴿ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) ﴾ [الصافات] المدْحَض الخاسر فى الصفقة ، والمراد القرعة حيث كان من نصيبه أنْ يُلْقى هو فى البحر .

والقرعة طريقة للاختيار ، تبرىء مالك السفينة من أنْ يُتَّهم

(١) رواه عوف عن الحسن البصرى . وتقدير المعنى : أفظن أن لن نقدر عليه . قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية :« فعلى هذا الوجه يكون استفهاماً قد حذفت ألفه ، وهذا الوجه يدل على أنه من القدرة ، ولا يتصور إلا مع تقدير الاستفهام ، ولا أعلم له وجهاً إلا أن يكون استفهام إنكار » .

(٢) قاله عطاء فيما ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير .

بالتحيز أو المحاباة ، وعملية إلقاء السهام مسألة قدرية خالصة ، لا دَخْلَ فيها للهوى ، وهى دليلٌ على عدالة الحكم ؛ لذلك كثيراً ما نلجأ فى إجراء القرعة إلى طفل صغير ، يختار الأوراق الملقاة مثلاً ، لماذا ؟ لأنه لا يستطيع التمييز بينها ؛ لذلك يأتى اختياره قَدَراً مُنزَّهاً عن الهوى .

فقوله تعالى ﴿فَسَاهَمَ (١٤١)﴾ [الصافات] يعنى : دخل معهم فى القرعة يعطينا لقطة اجتماعية تعفينا من الحرج والضغائن ، لأنه إذا وُجد شىء لا يتسع للطالبين له ، لا يصح أنْ يميزَ القائمُ عليه بين هؤلاء الطالبين ؛ لأن تمييزَ واحد على الآخر يُورث فى النفس شيئاً ، وإجراء القرعة اختيار قدرى لا دخْلَ لأحد فيه[1] .

وهذه المسألة لجأ إليها سيدنا رسول الله ﷺ ، حينما دخل المدينة والتفَّ الناس حوله ، كُلٌّ يريد أنْ يأخذ بزمام ناقته ﷺ ليذهب برسول الله إلى بيته ، فكيف يفعل رسول الله وهو يريد ألاَّ يكسرَ خاطر أحد منهم ؟ لقد حسم رسول الله هذا الموقف ، حين قال : « دعوها فإنها مأمورة » فأخرج نفسه من الاختيار ، وتركه لله تعالى ولقدره ، وسارتْ الناقة حتى بركتْ عند ديار بنى النجار[2] .

---

(١) يذكر القرطبى عند تفسيره لهذه الآية (٨/٥٧٦٥) أمراً هاماً وهو أنه لا يجوز الاحتجاج بهذه الآية على جواز الاقتراع على إلقاء الآدمى فى البحر ، ويقول : « إنما كان ذلك فى يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه وزيادة فى إيمانه فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يُقتل ولا يرمى به فى النار أو البحر ، وإنما تجرى عليه الحدود والتعازير على مقدار جنايته » ونصَّ أبو بكر الجصاص على خصوصية هذا بيونس عليه السلام فى « أحكام القرآن » (٣/٤٩٧) طبعة دار الكتب العلمية .

(٢) أورد هذه القصة ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/١١٢ ، ١١٣) أن كلاً من بنى عوف وبنى بياضة وبنى ساعدة وبنى الحارث أرادوا الأخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ ، وهو يقول لهم : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » حتى بركت الناقة فى أرض لبنى عدى بن النجار.

قد يقول قائل : هل تنجو السفينة أو تغرق بسبب شخص واحد خَفَّ من وزنها أو زادَ عليه ؟ نقول : نعم ألم تسمع عن القشَّة التى قصمتْ ظهر البعير ، فأنت حين تُحمِّل الجمل يتحمَّل على قدر طاقته، حتى إذا زدْتَ عليه عوداً واحداً برك بحمله ، والحقيقة أن العود الواحد أو القشة لا تقصم ظهر البعير ، إنما مجموع العيدان والقشة الأخيرة هى فقط التى رجَّحتْ الوزن ووصلتْ به إلى درجة عدم التحمُّل ، كذلك الحال فى سفينة سيدنا يونس ، حيث توقف نجاتها من الغرق على إلقاء واحد من ركابها ، وهلاك واحد خير من هلاك الجميع .

ونتعلم من هذه المسألة أنه لا مانعَ حين يحل الخطر بالجماعة أنْ يدفعه عنهم أحدهم ، والقرعة هى التى تحدد هذا الواحد .

ثم يقول سبحانه ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات] أى : ابتلعه الحوت ، وقد فعل عليه السلام ما يُلاَم عليه ، واللوم نوع من العتاب ، وفَرْق بين ما تُلاَم عليه وما تُعَاقب عليه ، سيدنا يونس فعل ما يُعاتَبُ عليه من ربه - عز وجل - وكأن الله يقول له : لقد تسرعتَ حين تركتَ قومك وضقْتَ بهم لأول إيذاء تتعرَّض له ، وكان عليك أنْ تصبر ، وأنْ تتحمل الأذى فى سبيل دعوتك . فاللوم ضَرْب من العتاب ، لا يصل إلى درجة العقاب ، وغالباً ما ينشأ العتاب بين الأحبة لاستبقاء المودة ، لذلك قال الشاعر :

أمّا العتَابُ فَبالأَحِبَّةِ أَخْلَقُ والحبُّ يَصلُحُ بالعِتَاب وَيَصْدُقُ[1]

---

(١) البيت من قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقى ، توفى ١٩٣٢م عن ٦٦ عاماً . وهو مطلع قصيدة عدد أبياتها ١٢ بيتاً من بحر الكامل . [الموسوعة الشعرية] .

ومعلـوم أنك لا تعاتب إلا مَنْ تحرص عليه ليظل فى صحبتك .

إذن : يشـفع لسيـدنا يونـس هنـا عـدة أشـياء أولـهـا ﴿إِذْ أَبَقَ (١٤٠)﴾ [الصافات] يعنى : كان عبـداً لله تعالى ، ثم ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ (٨٧)﴾ [الأنبياء] أى : لا نُضيِّق عليه ، وهذا حُسْن ظن بالله ، ثم ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)﴾ [الصافات] فالله عاتبه ولامـه مجرد لَوْمٍ ، على أمر لا يصحُّ من نبى ، والعتاب دليل المحبة .

وقوله تعالى : ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [الصافات] التـسـبيح يعنـى : التنـزيه المطلق لله تعالى فكوْنه من المسبحين جـعله موضعاً للَّوْم والعتاب ، لا للإيذاء والعـذاب ، فلـولا إيمـانه وتسـبيحـه لَظَلَّ فى بطن الحـوت إلى يوم يُبْعَثُون.

مسألة عتـاب الحق سبحانه لنبيه يونس على تركـه لقومه وتخلِّيه عنهم ، لمجرد أنهم عاندوه وكذَّبوه يُذكِّرنا بسنة الله تعالى فى رسُله ، وهى النُّصْرة والتأييد ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١)﴾ [غافر]

لكن قد يتأخر هذا النـصر ، مع أن الله قادر أنْ ينصرهم من أول وهلة ، لكن الحق سبحانه يريد بذلك أمرين :

أولاً : أنْ يسـتـشـرىَ الفـسـادُ ويعُمَّ ، حـتى يـضـيق الناس به فيتطلَّعون إلى الحق وإلى الخير ، ويَسعَوْنَ هم إليه .

ثانياً : ليُـمحِّص اللهُ المـؤمنين بالرسل ، ويميـز منهم أصـحاب

الثبات والقدرة على تحمُّل مشاقٍّ الدعوة فيما بعد . إذن : تأخُّر النَّصْرة ليس خُذْلاناً للرسل ، ولا تخلياً عنهم ، فما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ويتخلَّى عنه .

﴿ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

نلحظ فى الأَخْذ ، قال ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات] فنسب الفعل للحوت ، لكن هنا فى النجاة نسب الفعل إلى الله ، فقال ﴿ فَنَبَذْنَاهُ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الصافات] أى : ألقيناه وطرحناه ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الصافات] أى : فى أرض فضاء واسعة ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : مريض أو مُتْعب من الضيق الذى عاناه فى بطن الحوت ، أو سقيم من التفكير فيما حدثَ من قومه ، وفيما حدث منه ، فهى تحتمل السقم المادى والمعنوى .

ثم لم يتركه ربه بهذا العراء ، بعد أنْ ألقاه الحوت فى هذه الأرض الفضاء وهو مُتْعَب ، وأشبه ما يكون بالطفل بعد ولادته ، فأنبتَ اللهُ له شجرةَ اليقطين ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الصافات] وهى شجرة عريضة الأوراق قالوا : هى شجرة القرع تستره وتُظلُّه وتحميه من الذباب والحشرات ؛ لأنه خرج وحوله إفرازات من بطن الحوت تعوق تنفُّس جلده ، وتعوق حالته الصحية ، وتجعله لزقَ المزاج .

لذلك لما سُئِل سيدنا رسول الله ﷺ عن شجرة اليقطين[1]، قال : « هى شجرة أخى يونس »[2] .

والهاء فى (عَلَيهِ) تعود إلى سيدنا يونس ، وهذا يعنى أن إنبات هذه الشجرة حدث بعد أنْ ألقاه الحوت فى العراء ، ولم تكُنْ شجرة اليقطين موجودةً فى هذا المكان من قبل .

إذن : فالتقام الحوت لسيدنا يونس - عليه السلام - كان رحمةً له من الله بدلَ أنْ يضيعَ فى البحر الواسع وتتقاذفه الأمواج لا ندرى أين تذهب به ، أما الحوت فله إرادة ويمكنه الاحتفاظ به وإلقاؤه على البرِّ . فنحن أمام سلسلة من رحمات الله ليونس عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾ [الصافات] كأن الحق سبحانه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أن ما حدث من يونس يقدح فى رسالته ، أو يجعلنا نغير رأينا فيه كرسول ، فهو مرسل إلى ﴿ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) ﴾ [الصافات] والمائة ألف هنا قد تكون كناية عن العدد الكثير ؛ لأن الألف قديماً كان منتهى ما يُعرف من العدد عند الناس .

---

(١) كل شجرة لا تقوم على ساق كالدّباء والبطيخ والحنظل ونحو ذلك ، فهى عند العرب يقطين. [قاله ابن جرير الطبري فى تفسيره للآية (الجزء ٢٣)] . قال الزجاج : اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان . أى : أقام به فهو يفعيل . وقيل : هو اسم أعجمى . [فتح القدير للشوكانى (ج ٦) فى تفسير آية الصافات ١٤٦] .

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (كتاب الأطعمة) (حديث ٥٠٦٤) أن مسلماً أخرجه بلفظ : « وكان يعجبه القرع » وللنسائى : « كان يحب القرع ويقول إنها شجرة أخى يونس » قال ابن جزى : « إنما خصَّ القرع بالذكر لأنه يجمع كبر الورق وبرد الظل ، والذباب لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب ، وكان هذا من تدبير الله ولطفه».

لذلك لما أرادوا أنْ يفدوا بنت كسرى (أظن) حين وقعت فى الأسْر عرضوا على مَنْ جُعلَتْ فى سهمه من المسلمين كذا ألف فوافق ، فقال له أصحابه بعد أنْ عقد هذه الصفقة : لماذا لم تطلب أكثر من ذلك ، فهم قادرون على أنْ يفدوها بالمال الكثير ؟ قال : والله لو أعلم أن وراء الألف عدداً لَقُلْتُ .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات] هل الحق سبحانه لا يعرف عدد هؤلاء القوم على وجه التحديد ؟ نعم يعرفهم سبحانه وتعالى ، ولو أراد لَذكَرهم لنا تحديداً ، إنما قوله ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات] ليس للدلالة على الزيادة ، إنما لتأكيد العدد السابق المائة ألف ، كما أعطيت فلاناً حقه ويزيد ، فأنت لا تتحدثُ عن الزيادة إنما تؤكد على العدد ، وأنه غَيْرُ ناقص ؛ لأن الألفَ يُطلَق أيضاً على ما يقرب الألف مثل تسعمائة وتسعة وتسعين ، إذن : فالزيادة هنا تؤكد تمام العدد .

وقوله تعالى : ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات] وما دام المتاعُ موقوتاً بزمن ينتهى عنده ، فهو متاع الدنيا ، ومُتعة الدنيا للمؤمن تنتهى إلى خير منها ، فلا تَقُلْ إذن : أنهى اللهُ متعةَ المؤمن ؛ لأن انقطاع متعة الدنيا يُوصِّلك بمتعة الآخرة وتمتُّعك فى الدنيا موقوت بعمرك فيها ، ومحدود بحدود إمكانياتك وقدراتك ، أما متعة الآخرة فباقية وتأتى على قدر إمكانيات المنعِم سبحانه .

إذن : هذا إكرام أنْ تُنقل من نعيم الدنيا إلى نعيم الآخرة ، فقوله ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات] يُعَد جميلاً من الله .

بعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى قضية أخرى :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ[1] لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) ﴾

قوله : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ (١٤٩) ﴾ [الصافات] كلمة استفتى أى : طلب الفُتْيا ، مثل استخرج طلب الإخراج ، واستفهم طلب الفهم ، والفتية تعنى منتهى القوّة ، ومنها الفتى والفتوة . فمعنى : استفتى طلب ما يُقوِّيه فى جهة الفتوى ، فالذى لا يعرف قضيةً دينية مثلاً يسأل عنها ويستفتى يعنى : بعد أنْ كان ضعيفاً فى الدين ، يطلب أنْ يصيرَ قوياً فى أمر دينه ، ومن ذلك قوله تعالى فى سيدنا إبراهيم : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ﴾ [الأنبياء]

وفى أهل الكهف : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ (١٣) ﴾ [الكهف]

يعنى : لم يكونوا شيوخاً ، وعجيبٌ أنْ يأتى الإيمانُ مع فتوة الشباب وعنفوانه ، وهو مَظنَّة الشهوات والرغبات ؛ لذلك ورد فى الحديث : « عَجِبَ ربُّكَ من شاب ليستْ له صَبْوة[2] »[3]

---

(١) الإفك : الكذب . وأفك يأفك : كذب وافترى باطلاً . وأفاّك : صيغة مبالغة أى كثير الكذب . [القاموس القويم ١/٢٢] .

(٢) الصبوة : جَهْلة الفتوة واللهو من الغزل . ومنه التَّصابى . يقال : تصابى وصبا يصبو صَبْوةً . أى : مال إلى الجهل والفتوة . فالصبوة : الميل إلى الهوى . [لسان العرب - مادة : صبا] .

(٣) أخرج أحمد فى مسنده (٤/١٥١) عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة » .

والحق سبحانه بيَّن لنا فى مقاييس المجتمعات أنها لا تخلو عن اثنى عشر نوعاً ، ستٌّ منها فى المحبوبية ، وستٌّ فى المبغضين والعياذ بالله ، المحبوبون منهم المحبوب والأشدّ حباً ، والمبغضون كذلك منهم المبغَض والأشدّ بُغْضاً .

يقول تعالى فى الحديث القدسى : « أحب ثلاثاً وحُبى لثلاث أشدّ : أحبُّ الشيخ الطائع ، وحُبِّى للشاب الطائع أشدّ ، وأحب الغنى الكريم وحُبى للفقير الكريم أشدّ ، وأحب الفقير المتواضع وحُبى للغنى المتواضع أشدّ »

هؤلاء الستة المحبوبون ، وتستطيع أنت أنْ تأتى بالمقابل لهؤلاء ، وهم المبغوضون والعياذ بالله .

إذن : الشاب الطائع أكثر محبةً عند الله ؛ لأن عنده دواعىَ الشهوة ومبرراتها وعنفوانها ، ومع ذلك تغلّب عليها وسلك طريق الطاعة على خلاف الشيخ الذى ذهبتْ شهوته وقلَّتْ دواعيها عنده ، كذلك الحال فى الغنى الكريم وفى الفقير المتواضع .

هؤلاء الثلاثة يُمثِّلون قمة الرقى فى المجتمعات ، وقمة الخلافة فى الأرض ، وتصوَّر مجتمعاً شبابه طائعون ، وفقراؤه كرماء ، وأغنياؤه متواضعون . تحت هذا درجةٌ مجتمع شيوخه طائعون ، وأغنياؤه كرماء متواضعون ودون هؤلاء المبغضون ، والعياذ بالله .

فالمعنى ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : اطلب منهم الفتوى التى تُقوِّيك فى أمرك الجدلى ؛ لذلك نقول للمفتى الذى يقصده الناس للفتوى

الناس يريدون أنْ تُقوِّيهم برأيك ، فلا تذهب بهم ناحية المياسير ؛ لأنك بذلك تشجعهم على المياسير ، فأنت إذن لا تُقويهم إنما تضعفهم ، بل أعطهم الحكم الصحيح فهو القوة الحقيقية .

لكن ، لماذا يطلب الحق سبحانه من النبى أنْ يستفتىَ القَوْمَ ؟ قالوا : لأن القضية حين تكون معلومة الحكم عند المتكلم يقول : أنا لا أقضى فيها ، إنما خَصْمى هو الذى يقضى ، لماذا ؟ لأنك واثق أنه إذا أدار المسألة فى ذهنه لن يجدَ إلا أن يقولَ ما تريده أنت ، كما تقول لمن ينكر جميلك : أنا راض حكمك ، ألم أقفْ بجانبك يوم كذا وكذا ؟ هكذا على سبيل السؤال لأنك واثق من الجواب .

أما لو جاء الكلام منك خبراً ، فالخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ؛ لذلك ناقش الحق هذه القضية بهذا الاستفهام ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) ﴾ [الصافات] هذا استفهام يحمل معنى الإنكار والتعجب ، يعنى : كيف تقولون ذلك ؛ لأنهم قالوا : الملائكة بنات الله ثم نسبوا لله سبحانه الولد .

لذلك يرد القرآن عليهم ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) ﴾ [الصافات] كيف ؟ مَن الذى خلق ؟ إنه الله خالق الذكر وخالق الأنثى ، فكيف تختارون لأنفسكم الجنسَ الأفضل وهم الذكور ، وتجعلوا لله تعالى البنات ؟

كيف وأنتم إذا بُشِّر أحدكم بالأنثى ظلَّ وجهه مُسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سُوء ما بُشِّر به ، ثم يفكر : ﴿ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ[1] أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ (٥٩) ﴾ [النحل]

(١) الهُون : الخزى والذل والضعف . قال الفراء : الهون فى لغة قريش الهوان . [لسان العرب - مادة : هون] .

كلمة ﴿ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ (٥٩) ﴾ [النحل] يعنى : حياً ؛ لأن عاطفة الأبوة لا تتحمل أنْ يرى الوالدُ ولده وهو يموت ، أو أنْ يخنقه بيده ؛ لذلك يتخلص منه بدفنه فى التراب حتى لا يراه .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾ [الزخرف] يعنى : أتجعلون لله مَنْ يُربَّى فى النعمة والزينة ، وهم البنات ، وتجعلون لأنفسكم البنين القادرين على العمل والسعى وتحمُّل المشاق ، لذلك حكم سبحانه على هذه المسألة بأنها قِسْمة ظالمة جائرة .

فقال سبحانه : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم] تأمل كلمة (ضيزى) ، والله لو كان فى غير القرآن لكانَ ثقيلاً غيرَ مستساغ ، لكنه يأتى فى سياقه من كلام الله طبيعياً سلسبيلاً ، لماذا ؟ لأنه وُضِع فى مكانه ليعبر عن هذه القسمة الجائرة العجيبة ، التى لا يعبر عنها إلا هذا اللفظ العجيب بما يحمله من جَرْس يرنّ فى الأذن .

ثم يقولَ الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) ﴾ [الصافات]

إذن : أنتم مخطئون ، بل جهلة أغبياء فى قضيتين : لأولى : أنكم جعلتم الملائكة إناثاً ، والأخرى : أنكم أخذتم الذكور لأنفسكم وتركتم لله البنات ، فمَنْ قال لكم إن الملائكة بنات ، فكلمة بنت وولد منشؤها الزوجية والتناسل ، والملائكة لا يتزوجون ولا يتناسلون ، ولا يتصفون بذكورة ولا أنوثة .

ثم إن الذى يحكم على الملائكة بأنهم إناثٌ لا بُدَّ أنْ يكون قد شهد خلْقهم ، والله يقول : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف]

وقال فى سورة الكهف : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] الحق سبحانه يخبرنا بهذه الحقيقة ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : معاونين ومساعدين فى عملية الخَلْق ، فهو يفضح هؤلاء الذين سيأتون ويتحدّثون فى مسألة الخلق كأنهم رأوْهَا ، فيقولون : الملائكة إناث . ويقولون : الإنسان أصله قرد إلى آخر هذه الادعاءات.

الحق يُحذِّرنا منهم ليعطينا المناعة اللازمة لمواجهتهم ، ويكفى أنْ نعلم أنّ هذه مسألة غيبية لا علْمَ لهم بها ، إلا ما أخبرنا به الخالق سبحانه ، ومع ذلك ترك لنا فى الكون ما يُبيِّن صدْقه فيما لم نشهد .

والحق سبحانه ينقض هذه الأباطيل بقوله سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات] . فكل جنس من الأجناس قائم بذاته ، وليس هناك شىء متطور عن شىء آخر . كذلك قال سبحانه :﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس]

أما الملائكة فَلَهُمْ طبيعة خاصة لا تصلح للزوجية ؛ لأنهم لا يتصفون بذكورة ولا أنوثة ، كما أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامونَ .. الخ وإنْ كانت هذه مسألة مخالفة للعقل ، فخُذْها هى الأخرى ضمن الأشياء المخالفة للعقل ، والتى يختبر بها إيمانك بالمغيَّبات التى أخبرك بها ربُّكَ ، وهذه المغيَّبات التى أخبرك الله بها رصيدها أنك آمنتَ بالقائل المخْبِر بها .

ثم ينتقل الحق سبحانه إلى قضية أخرى فيقول :﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢)﴾ [الصافات] إذن : فجُرأتهم على الله لم تَنْتَه عند حدٍّ وصفهم الملائكة بأنهم إناث ، ولا عند نسبتهم البنات لله تعالى ، بل وصلتْ جُرْأتهم إلى ذات الله سبحانه ، فقالوا : ﴿وَلَدَ اللَّهُ (١٥٢)﴾ [الصافات]

وكأن الحق سبحانه يُفسح للمكابر ويُرخي له العنان حتى يقول كلمة تكشف كذبه ، وتفضح ادعاءه ، وتُظهر أن المكابر فى أمر الدين أحمقُ غبىٌّ ، لأنهم قالوا ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (١١٦)﴾ [البقرة] والآن يقولون (وَلَدَ اَللهُ) وفَرْق كبير بين القولين : (وَلَدَ اللهُ) نسبوا لله الولد مباشرة إنما (اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً) يعنى : لم يلد إنما تبنَّى ولداً ، فالأصل أنه ليس له ولد ، لذلك اتخذ ولداً . وقد ردَّ الله على قولهم (وَلَدَ اللهُ) فقال : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص]

وردَّ على قولهم : ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (١١٦)﴾ [البقرة] فقال : ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)﴾ [الجن]

ولنبحث نحن مسألة اتخاذ الولد من خلال واقعنا : لماذا نسعى للولد ونطلبه ؟ لماذا نحزن حين يمتنع الإنجاب ونقلق حين يتأخر الولد ؟ قالوا : لأن الولد ذكْرى وامتداد لأبيه ؛ لذلك يفرح الرجل بابنه ويفرح أكثر بحفيده ؛ لأنه بالولد ضمن ذكْراه جيلاً ، وبالحفيد ضمن ذكْراه جيلين ، عجيب أمْرُنا مع الدنيا ، كيف نتمحك فيها ونتشبَّث بها ولو بالذكرى ، وإذا لم تَدُمْ لك الدنيا فما انتفاعُك بدُنْيا غيرك ؟

ولما تحدَّثَ شوقى - رحمه الله - فى هذه المسألة لما جاءه حفيد وفرح به قال :

فَاضْمَنْ لنفْسِكَ بَعْدَ مَوتِكَ ذِكْرهَا فَالذِّكْرُ للإنْسَانِ عُمْر ثَانِ

ولا شكَّ أن شوقى لا يعنى بالذكْر الولد ، إنما يعنى العمل الصالح والأثر الطيب الذى يُخلِّد ذكْرى صاحبه ، إذن : تحتاج الولد لأنك ستموت وسيحمل ولدُك اسمكَ وذكْراك ، أما الحق سبحانه فباقٍ لا يموت ، وقد كان عبد المطلب لا يعيش له أولاد فنذرَ لله إذا رزقه أولاداً أنْ يذْبح واحداً منهم تقرُّباً لله تعالى ، فالإنسان يحتاج الأولاد ليكونوا عِزْوةً كما يقولون ، وآخر يقول إذا متُّ ، مَنْ يأخذ فىَّ العزاء ؟ سبحان الله إذن ضمنتَ أنك ستُعزى وولدك من بعدك سيُعزَّى . إذن المسألة فانٍ فى فانٍ .

نعم ، لهذه الأسباب نحتاج نحن الولد ونسعى إليه ، أما الحق سبحانه فباقٍ لا يموت ، فبماذا ينفعه الولد ولم يتخذه ، وله سبحانه مُلْك السموات والأرض ؟

لذلك يردُّ الحق عليهم : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزمر] لو أراد سبحانه لاختار ما يشاء ، فهو الذى يقول ، وهو الذى يختار لا أنتم ؛ لذلك كان رسول الله مؤدباً فى عبوديته مع ربه ، فقال : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : إنْ كان للرحمن ولد أخبر هو سبحانه به ، فأنا أول المؤمنين بوجوده .

وفى موضع آخر ، قال فى الردِّ عليهم : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم] فالحق سبحانه لم يتخذ ولداً ، ولا ينبغى له ذلك ،

ولا يناسـبه أبداً ، لأن مـعنى الوالدية أو المولودية مـفقـود فى حـقِّه تعـالى ، لأنه باقٍ لا يموت ، فـيحـتـاج إلى مَنْ يحمل ذكْـراه ، وهو الغنى عن خَلْقه ، وله مُلْك السـموات والأرض ، والعباد كلهم صَـنْعته وعياله ، فلا يحتاج إلى عِزْوة كما تحتاجون .

وقال سبحانه : ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ۝٣ ﴾ [الجن] يعنى : لم يكُنْ له صاحبة . يعنى : زوجـة حتى يكونَ له منها ولد . إذن : هذا كله إفْكٌ وافتراء على الله ؛ لذلك وصفـهم الله بالإفْك ، ثم بالكذب المؤكَّد فى ﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝١٥٢ ﴾ [الصافات]

لكن ، لماذا هذا الإفْـك وهذا الكذب ؟ قالوا : ليحـتفظوا لأنفـسهم بالسلطة الزمنيـة التى كانت لهم قـبل الإسـلام ، السلطة الزمنـية التى جعلتْ لهم الزعـامة والرياسة والجـاه ، ومعلوم أن اليهـودَ فى المدينة كانت لهم مكانتهم المالية والعلمية والحـربية ، وكانوا يستفتحون على الكافرين برسـول الله ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۝٨٩ ﴾ [البقرة] لماذا ؟ لأنهم يعرفون أنه سيسلب منهم هذه السلطة .

وسمَّى الله كـذبهم إفكاً ؛ لأن الإفك هو الكذب المتـعمَّد ، وافـتراء الكذب المتـعمد إنـما كان إفكاً لأنه يقلب الحـقائق ، ومن ذلك سُـمِّيتْ المؤتفكة ، وهى القرية التى قلبها الله بأهلها ، فجعل عاليها سافلها .

والكذب المتعمَّد قَلْبٌ للحقيـقة ؛ لأن الإنسان إذا قال قضية ، هذه القضية تُسمَّى نسبة كلاميـة ، فإنْ سبقها نسبة وجودية تُطابق الكلام فـالكلام صـدْق ، وإنْ كانت الـنسبـة لكلام لا واقع له فـهى كـذب ، والكذب على درجـات ، أعـلاها وأشـدها الافـتـراء على الله تعـالى فى قضية واضحة ، وفى أصـل من أصول العقيدة ، فليس الكذب هنا فى أمر هيِّن ، عدة جنيهات مثلاً ، بل الكذب هنا فى القمة العقدية .

﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ (١٥٢) ﴾ [الصافات] فنسبوا لله تعالى الولد مباشرة ، وليس مجرد اتخاذ الولد .

لذلك يحكم الله عليهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) ﴾ [الصافات] لكن هذا أسلوب خبرى ، والخبر من الله تعالى صادقٌ لا شكَّ ، لكنه فى العقل قضية تحتمل الصدق والكذب ، لذلك يُطوِّقهم الله بأسلوب آخر لا يجدون منه منفذاً ، يثبت كلامهم فى أذهان قارئيه أو سامعيه ، يُطوِّقهم بهذا الإقرار ، فيقول سبحانه :

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) ﴾

الهمزة فى ﴿ أَصْطَفَى (١٥٣) ﴾ [الصافات] همزة الاستفهام لأن الفعل ﴿ أَصْطَفَى (١٥٣) ﴾ [الصافات] مبدوء بهمزة وصل ، فلما دخلتْ عليه همزة الاستفهام حُذفَتْ همزة الوصل ، وأثبتت الهمزة التى جاءتْ لمعنى الاستفهام ، فأصله : أاصطفى . وهذا الاستفهام للتعجُّب والإنكار ؛ لأن الحق سبحانه هو خالق البنين والبنات ، فكيف يصطفى لنفسه سبحانه الجنسَ الأدنى ، وهو خالق الجنسين ؟

إذن : هذا كلام لا يُقبل حتى فى ميزان العقل فالمسألة واضحة ؛ لذلك يأتى بهذين الاستفهامين للتعجُّب من قولهم ، فيقول : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) ﴾ [الصافات] يعنى بعقولكم فالأمر واضح ، وسبق أنْ أوضحنا أن الحق سبحانه يستفهم منهم ، حتى يأتى الحكم منهم هم على سبيل الإقرار ولا يكون إخباراً ، والإقرار سيد الأدلة ، أما الخبر فيحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، فى العقل .

هذا دليل عقلى يبطل هذا الادعاء ، إلا أن الدليل العقلى قد تختلف

فيه العقول ، لذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الدليل النقلى ، فلعلَّ عندهم كتاباً يدرسون فى هذه المسألة :

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٥٧) ﴾

بعد أنْ أبطلَ اللهُ ادعاءهم بالدليل العقلى يبطله بالدليل النقلى ، فكلمة ﴿ سُلْطَانٌ (١٥٦) ﴾ [الصافات] إما سلطان حجة تقنع ، أو سلطان قهر وإجبار ، الفرق بينهما أن سلطان الحجة يقنع المقابل فيفعل طائعاً ، أما سلطان القهر فيجبره فيفعل كارهاً . والمعنى : ليس لديك سلطان حُجَّة ولا قَهْر.

ومثل ذلك قوله تعالى حكايةً عن إبليس يوم القيامة :﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] يعنى : لا قوة عندى أقهركم بها على طاعتى ، ولا حجة أقنعكم بها ، بل كنتم أنتم على (تشويرة) يعنى : على استعداد للضلال وللمعصية .

ومعنى ﴿ مُّبِينٌ (١٥٦) ﴾ [الصافات] بيِّن واضح .

وقوله تعالى ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) ﴾ [الصافات] يعنى : إنْ كان لكم سلطان فأتُوا بكتابكم ، أى : الذى نزل عليكم من الله يخبركم بهذا .

﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ[1] نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) ﴾

---

(١) أكثر أهل التفسير أن الجنَّة هاهنا الملائكة . وقال أهل الاشتقاق : قيل لهم الجنة لأنهم لا يُرَوْنَ . وقال أبو مالك : إنما قيل لهم جنَّة ، لأنهم خُزَّان على الجنان ، والملائكة كلهم جنة . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٧٧٤) .

كلمة (الجِنة) بالكسر وكذلك الجنة بالفتح ومنها الجن ومجنون كلها مادة (جَنَّ) وتفيد الاكتنان والستر و (الجنة) هنا هم الملائكة سُمُّوا بذلك لأنهم مستورون عَنّا فلا نراهم ، وكذلك الجنة لأنها تستر مَنْ يسير فيها بكثرة أشجارها ، أو تستر مَنْ فيها بتوفير كل احتياجاته ، فلا يحتاج أنْ يخرج منها ، وكذلك المجنون لأنه غاب عقلُه واستتر .

والمعنى أنهم جعلوا بين الله تعالى وبين الملائكة نَسَباً حين قالوا : الملائكة بنات الله ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) ﴾ [الصافات] يعني : علمتْ الملائكة أن هؤلاء المشركين بالله مُحضَرون للعذاب ، ومُحضَر اسم مفعول يعني : أُجبر على الحضور .

ثم يردُّ الله عليهم مُنزِّهاً نفسه سبحانه عن مشابهة الخَلْق : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) ﴾ [الصافات] فكلمة (سبحان الله) نراها دائماً في كل شيء ، يخرج الذات إلى مشابهة الخَلْق ، والسبحانية لله أي : التنزيه لله موجود وثابت لله تعالى قبل أنْ يُوجد المنزِّه .

فكلمة (سُبْحانَ) تعني : التنزيه المطلق لله قبل أنْ يخلق مَنْ يُنزهه ، فلما خلق الله الخَلْق سبَّحه ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾ [الحشر] وقال : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (١) ﴾ [التغابن] أي : ما يزال مُسبِّحاً في الحال والاستقبال إلى قيام الساعة .

وما دامت هذه السُّبْحانية ثابتةٌ لله تعالى قبل الخَلْق وبعده ودائمة في الماضي والحاضر والمستقبل ، فإياك يا أشرف الخَلْق وأكرمه ومَنْ جعل الخَلْق كله من أجله ألاَّ تكون مُسبِّحاً أو تشذّ عن هذه المنظومة المسبحة ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) ﴾ [الأعلى] فمعنى

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الصافات] يعني : تنزَّه الحقُّ سبحانه عن قَوْل هؤلاء المشركين وكذبهم ، وتعالى سبحانه أنْ يكونَ بينه وبين الجِنَّة نسبٌ .

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾

مناسبة قوله تعالى هنا ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الصافات] استثناء من قوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الصافات] فاستثنى اللهُ عباده المخلصين أنْ يدخلوا مع هؤلاء المحضرين للعذاب . وقوله : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الصافات] أى : من دون الله ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : أنتم وما تعبدون من دون الله لا تفتنوا خَلْقى علىَّ . يعنى : لا تُفْسِدوا الخَلْق على الله تعالى ، يُقَالُ : فتن فلان على فلان زوجته . يعنى : أفسدها عليه ، والمعنى : أنتم لا تستطيعون أنْ تفسدوا بينى وبين ملائكتى .

وكيف والملائكة أنفسهم ما خُلقوا إلا لعبادتى وحبى ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء] كيف تفسدونهم وهم بريئون منكم ومن عبادتكم لهم ، بل ويلعنونكم . إذن: كيف تفسدونهم على الله ؟

والحق سبحانه فى موضع آخر يردُّ عليهم :﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ..﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء] يعنى : هؤلاء الذين يعبدونهم من دون الله هم أنفسهم يبتغون إلى الله الوسيلة التى تُقرِّبهم إليه .

وفى موضع آخر قال :﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : ما أنتم بفاتنى هؤلاء المعبودين على ربهم ؛ لأنهم أخلصوا لله العبادة ويتنافسون فى التقرُّب إليه.

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) ﴾ [الصافات] أى : إلا مَنْ يرضى بالعبودية من البشر فمصيره النار ؛ لذلك لما أراد سبحانه أنْ يُبكِّتَ الذين عبدوا الحجارة قال : انظروا فلن تُعذَّبوا فى النار إلا بالحجارة لِتَرَوْا معبودكم معكم ومثلكم فى النار . فإنْ قُلْتَ : وما ذنبُ هذه الأَحجار التى عُبدت من دون الله ؟

يقول سبحانه :

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ﴾

إذن : هذه الحجارة حين يُحمَى عليها ليُعذَّب بها هؤلاء المشركون لا لأن لها ذنباً تُعاقَبُ عليه ، إنما لها مقام معلوم ، والتزام بتنفيذ أمر الله فى المخالف : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) ﴾ [الصافات]

يعنى : قَدْر ومرتبة ، فالملائكة درجات ومراتب ، لا يحقد الأدنى على الأعلى ولا يزدرى الأعلى الأدنى ؛ لأن المقام المعلوم الذى جعلهم الله فيه قدر لله تعالى ، وهم يحترمون قدر الله فى خَلْق الله ، وهذا درس ينبغى أنْ نتعلَّمه ، وأنْ يُراعى كل منَّا قدر الآخرين ومنزلتهم ، فأنا حين أحترم الأعلى منى إنما أحترم قدر الله الذى جعله أعلى منى ، وإنْ كان دونى فى يوم ما ، وقُلْنا إن العالم ليس مسألة (ميكانيكا) إنما خَلْق بقدر وبحكمة مرادة لله .

فكيف نكون بنات الله ؟ وكيف نُعبَد من دون الله ونحن مُسخَّرون لعبادته سبحانه ونحن جنود مصفوفون فى انتظار أوامره تعالى

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) ﴾ [الصافات] أي : نقف صفوفاً منتظمة ، والصف دليل الانتظام وعنوان الالتزام والانضباط ؛ لذلك ورد في الحديث : « إن الله لا ينظر إلى الصَّفِّ الأعوج »[1] لماذا ؟ لأنكم بين يدي الله سبحانه فأروا الله منكم ما يدل على المساواة والالتزام والترابط .

وفي الحرب كذلك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾ [الصف] وهذا التشبيه له دلالته ، لأن البنيان المرصوصَ يعني أن اللبنة فيه ليس لها إرادة في الخروج عن الأخرى ؛ لأنها محكومة بالبناء الذي وُضعَتْ فيه ؛ لذلك لما استعرض رسول الله ﷺ الصفوفَ في إحدى الغزوات رأى جندياً شَذَّ عن صَفه ، فأشار إليه بعصاه أنْ يستويَ بمثله ، وأن ينضبط في صَفه .

ثم يقولون : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ﴾ [الصافات] يعني كيف نرضى أنْ نُعبدَ من دون الله ، ونحن ما خُلقْنا إلا لتسبيحه تعالى :

﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾

قولهم : ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا (١٦٨) ﴾ [الصافات] أي : كتاباً ووَحْياً مُنزلاً ﴿ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٦٨) ﴾ [الصافات] كالذي أُنزل على الرسل السابقين ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) ﴾ [الصافات] وعجيبٌ منهم أنْ يبرروا شركهم .

---

(١) يستحب للإمام أن يأمر بتسوية الصفوف وسد الخلل قبل الدخول في الصلاة ، فعن أنس ابن مالك أن النبي ﷺ كان يقبل علينا بوجهه قبل أن يُكبِّر فيقول : « تراصوا واعتدلوا » رواه البخاري ومسلم . ورويا عنه أن النبي ﷺ قال : « سووا صفوفكم ، فإن تسوية الصف من تمام الصلاة » .

بهذه الحجة ، وقد جاءهم سيد المرسلين جميعاً ، فالرسل السابقون كانوا محدودى الرسالة زماناً ومكاناً ، وكانوا جميعاً قبل رسول الله مُكلَّفين بنقل حكم الله إلى الخَلْق ، أمَّا رسول الله : فهو الرسول الوحيد الذى فُوِّض من الله أنْ يُشرِّع للخلق ؛ لأن رسالته عامة فى الزمان وفى المكان إلى قيام الساعة .

إذن : كيف تريدون ذكْراً من الأولين ، ومعكم خاتم الرسل المشرِّع الذى تأتيه من الله القضية الكلية فيُبيِّنها ويشرحها ويُفصِّلها .

وقوله : ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ١٧٠ ﴾ [الصافات] يعنى : لما جاءهم الرسول الذى يطلبونه كفروا به . إذن : المسألة مسألة لَجَج وعناد وكبرياء فى قبول الحق والانقياد له ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠ ﴾ [الصافات] حرْفا (السين) و (سوف) يدلان على الاستقبال ، لكن سوف أبعد فى الزمن من السين .

فقوله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠ ﴾ [الصافات] احتياط زمنى من القرآن الكريم ، فالفعل ﴿ يَعْلَمُونَ ١٧٠ ﴾ [الصافات] مضارع للحال وللاستقبال ، أما سوف فهى للمستقبل البعيد عن مستقبل السين ؛ ذلك لأن المعاصرين لنزول القرآن منهم مَنْ سيموت قبل أنْ يرى عاقبة المشركين ، وقبل أنْ يشهد ظهور الإسلام وانتصاراته .

فإنْ كان قد مات قبل أنْ يعلمَ فسوف يعلم فى الآخرة ويرى العاقبة ، هذا لغير المؤمن ، أما المؤمن فليس فى حاجة إلى هذا العلم ؛ لأنه صدق الله فيما أخبر ، ومن ذلك قول الإمام على رضى الله عنه . لو كُشف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً .

لذلك لما نزل قول الله تعالى - وكان المسلمون فى كَرْب وشدة وضيق قبل الفتح : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ٤٥ ﴾ [القمر] والسين

تدل على المستقبل القريب تعجب سيدنا عمر وما أدراك ما عمر ، كان القرآن ينزل على مقتضى ما يرى ، ومع ذلك تعجَّب وقال : أىُّ جمعٍ هذا ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا وأهلنا ، فلما جاء الفتح وانتصر المسلمون وحدث ما حدث قال[1] : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]

فالمؤمن مُصدِّق بما أخبر الله به ، لأنه أمر قُضِى أزلاً فى علم الله، وما دام قُضِى بالفعل فى الأزل ، ولا توجد قوة معارضة تنقض ما قضى الله به ، وما دام الله تعالى لا يعتريه عجزٌ يمنعه أنْ ينفذ ما قضى فهو واقع لا محالة .

والمثال الواضح فى هذه المسألة قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴿١﴾﴾ [النحل] تعلمون أن علماء النحو يقولون : الفعل ماض وهو ما دلَّ على حدوث فعل فى زمن مضى وانتهى ، ومضارع : وهو ما يدل على الحال أو الاستقبال ، إذن : كيف نجمع بين ﴿أَتَىٰ﴾ الماضى و ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴿١﴾﴾ [النحل] . والنهى عن استعجاله يدل على المستقبل ، أى : أنه لم يأتِ بَعْدُ ؟

نقول : الذى يتكلم بهذا الكلام هو الله لا نحن ، والله تعالى لا يحكمه زمان ، فإذا أخبر بأمر فهو واقع لأنه لا رادَّ لما قضى أزلاً ، فأمْرُ الله أتى أزلاً فلا تستعجلوه واقعاً .

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يَثِبُ فى الدرع وهو يقول : « سيُهزم الجمع ويُولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٢٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (١٧٣) ﴾

معنى ﴿ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا (١٧١) ﴾ [الصافات] يعنى : قلناها قبل الكون كله ، وهذه الكلمة لها مترادفات : سبقتْ كلمتنا ووقعتْ وحقَّتْ ، سبقتْ أى : لتحديدها قبل الحدوث ، ووقعتْ ساعة الحدوث وحقَّتْ أى : هى حَقٌّ أنْ أقضى بقدرتى ، وحَقٌّ أنْ تقع على مَنْ أريد . إذن : فهى معَانٍ ملتقية معاً ومتكاملة .

فما هى هذه الكلمة التى سبقتْ من الله لعباده المرسلين ؟ هى قوله :﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

هاتان قضيتان : الرسل لا محالة منصورون ، والجند لا محالة غالبون ، هذه كلمة سبقتْ من الله وقضاءٌ لا يُرَدّ ، لذلك أخذ العلماء وأهل المعرفة من هذه الآيات أن للجندية شروطاً ، مَنِ استوفاها استحقَّ الغلبةَ ، ومَنْ أخلَّ بها استحق الهزيمة .

فحين ننظر فى نتيجة معركة بين مسلمين وكافرين ، فإنِ انتصر المسلمون فاعلم أنهم حققوا شروط الجندية لله ، وإنْ هُزِموا فعليهم أنْ ينظروا فى أنفسهم ويبحثوا عن أسباب الخلل ، ووجه المخالفة لقانون الجندية ؛ لأنهم لو ظلُّوا على جنديتهم لله لَتحقَّق لهم وَعْدُ الله بالغلبة .

وهذه المسألة واضحة فى معركة بدر وفى أُحُد ، ففى بدر انتصر المسلمون ؛ لأنهم لم يخالفوا قانون الجندية لله تعالى ، لكن فى أُحُد لم ينتصروا مع أن رسولَ الله بينهم ، ولا تتعجب لذلك فهذا

أمر طبيعى ، ألم يخالفوا أمر رسول الله ؟ بلى خالفوا ، فكيف لو انتصروا مع هذه المخالفة ؟ والله لو نصرهم اللهُ لَهانَ عليهم أمر رسول الله بعد ذلك ، ولَقالُوا خالفناه فى يوم كذا وانتصرنا ، إذن : النتيجة يوم أُحُد انهزم المسلمون المتخاذلون ، لكن انتصر الإسلام وعلَتْ قوانينه ومبادئه .

أما الرسل فهم واثقون من وَعْد الله لهم بالنصر ، وهذه مسألة عندهم لا تُناقَش ، والدليل على ذلك من قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ ، فلما خرج من مصر ببنى إسرائيل فأتبعه فرعون وجنوده ، حتى كاد أنْ يدركه عند شاطىء البحر ، وحتى قال قوم موسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] .

فبماذا ردَّ سيدنا موسى ؟ (قال كلا) هكذا بملء فيه يُكذِّب واقعاً يمكن أن يحدث بعد لحظة واحدة ، فالبحر من أمامهم والعدو من خلفهم ، لكنه يقول ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] .

هذه هى الثقة فى كلمة ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات] أى : الرسل .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ (١٧٤) ﴾ [الصافات]

أى : اتركهم الآن فى باطلهم وأعرض عنهم ، لماذا والحق سبحانه قادر على نُصْرة دينه من أول لحظة ؟ قالوا : الحق سبحانه

يريد أنْ يستشرى الباطل ، وأنْ يعلو حتى يعضّ الناس فيكرهونه ويضيقون به .

وأيضاً ليتدرب أهل الحق على المحن والشدائد ويَقْوَى عودهم ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : انظر إلى حالهم وعاقبة أمرهم ، وسوف يبصرون هم هذه العاقبة ، وما يحلُّ بهم من العذاب الذى يستعجلونه ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الصافات]

كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحقاف]

وهذا غباء منهم ، لأن هذا العذاب الذى يُكذِّبون به ويستبعدونه واقع لا محالة ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الصافات] والساحة هى المكان الواسع أو الفناء الذى يجد الناسُ فيه مُتَنفساً ومَنْفذاً يُروِّح عنهم ، و ﴿ نَزَلَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : حَلَّ ووقع وفاجأهم .

﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : قَبُحَ هذا الصباح ، وبئس هذا الصباح ، والصبح هو الميعاد الحق للمعركة لمفاجأة المحارب قبل أنْ يستعد ، أو يفاجئهم العذاب فى وضح النهار فلا يستطيعون أنْ يستتروا من الفضيحة ، و﴿ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الصافات] القوم الذين أنذرناهم وحذرناهم .

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [الصافات] يُراد به حين الدنيا ، كذلك ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [الصافات] أى : فى الدنيا

﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] أى : فى الدنيا وهذا الحين هو الذى قال الله فيه : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ (٧٧) ﴾ [غافر] أى : من العقاب فى الدنيا ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] فى الآخرة .

أما الحين هنا ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) ﴾ [الصافات] يراد به حين الآخرة ، فليس تكراراً للحين الأول ، كذلك ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾ [الصافات] فى الآخرة حين يُفاجئهم العذاب الذى أنكروه وكذَّبوا به ، فيقولون ساعتها : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١٢) ﴾ [السجدة]

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ(١) عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٢) ﴾

يختم الحق سبحانه السورة بالسُّبحانية التى تُثبت التنزيه لله تعالى فى ذات ليست كالذوات ، وفى صفات ليست كالصفات ، وفى أفعال ليست كالأفعال ، فكل شىء له سبحانه ولخَلْقه فيه نسبة نأخذه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى]

فالمعنى ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ (١٨٠) ﴾ [الصافات] أى : تنزَّه ربك عن كل نقص وعن كل مُشابهة ، فالخَلْق ذواتٌ ، لكن ليست كذاته سبحانه ، ولهم وجود ليس كوجوده سبحانه ، ولهم غِنىً ليس كغِنَاهُ ، وحكمة ليست كحكمته .. الخ .

---

(١) المعنى : رب العزة التى يتعازّ بها الخَلْق فيما بينهم فهى من خَلْق الله عز وجل ، وهى هنا صفة فعل . أما فى قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠) ﴾ [فاطر] فهى صفة ذات . ولذلك كان من فرائد القرآن أنه قال : رب العزة . ولم يقل رب العلم أو رب القدرة أو رب السمع أو غيره من صفات ذات الله عز وجل . وقد نقل القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٧٨٠) قول بعض العلماء : « من حلف بعزة الله ، فإن أراد عزته التى هى صفته فحنث فعليه الكفارة . وإن أراد التى جعلها الله بين عباده فلا كفارة عليه » .

ومعنى ﴿ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الصافات] كلمة رب تفيد التربية وهى تأهيل المربى لأن ينجح فى الغاية المنوطة به المطلوبة منه ، ولكى تعده لا بُدَّ أنْ تعرف أولاً الغاية التى وُجِد من أجلها ، بعد ذلك لا بُدَّ أنْ تكون لديك حكمة تحدد له المنهج الذى يوصله إلى هذه الغاية .

إذن : مَنْ يحدد الغاية من وجود الإنسان ؟ قلنا : إن الصانع من البشر هو الذى يحدد الغاية من صنعته أولاً ، وقبل أنْ يشرع فيها فهل مخترع التليفزيون مثلاً صنعه ثم قال لنا : انظروا فى أى شىء يمكن أن يُستعمل هذا الجهاز ؟ لا بل حدَّد الهدف وحدَّد الغاية أولاً ، كذلك غايتك أيها الإنسان لا يحددها لك إلا مَنْ خلقك . فصيانة الصنعة يقوم بها الصانع ، كذلك صيانة الخَلْق لا تكون إلا بمنهج الحق .

لذلك نقول : ما فسدت الدنيا إلا حين خرج الإنسان عن هذا الإطار ، فحدَّد لنفسه الغاية ، ووضع لنفسه منهج الحياة ونحَّى صانعه ومنهج صانعه جانباً ، وقلنا : إن منهج الخالق للخَلْق مثل (الكتالوج) الذى به تُصَان الصنعة ، وبه نصلح ما فيها من عطب ، ويُشترط فى واضع المنهج أن يكون من الدقة والحكمة بحيث لا يفوته شىء ولا يستدرك عليه ، ولا نضطر إلى تعديل ما وضع ، والخالق سبحانه هو الأعلم بعباده وصنعته ، وهو الأعلم بما يصلحهم فى الدنيا وفى الآخرة ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

وإلا فلماذا يستدعينا الخالق سبحانه إليه خمس مرات فى اليوم والليلة ، ويجعل الصلوات فرضاً لازماً لا يسقط عن الإنسان بحال

من الأحوال ، لذلك شُرِعَتْ صلاة السفر وصلاة المريض ، حتى أنه إذا اشتد عليه المرض صلَّى ولو بطرفة عينه أو بخاطر نفسه .

وسبق أنْ قلنا فى هذه المسألة : إنك حين تريد مثلاً مقابلة رئيس أو مسئول كبير ، فلابُدَّ لك من موعد مسبق وموافقة وإجراءات ، بل ويحدد لك ما تقوله ، ثم هو الذى يُنهى المقابلة .. الخ أما لقاؤك مع ربك فلقاء المحب الذى يترك لحبيبه أنْ يحدد وقت المقابلة ومكانها وموضوعها ، ويترك له أنْ ينهيها متى أحبَّ ، وأنْ يبدأها متى شاء ، فإنْ أردتَ لقاء ربك فما عليك إلا أنْ تستعد له وتكبِّر : الله أكبر ، كلمة تجعلك مباشرة فى حضرة ربك عز وجل .

وتصوَّر صنعة تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، أيبقى فيها عطب أو فساد ؟ لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر يُهْرَع إلى الصلاة ، وكان يقول : « أرحنا بها يا بلال »[1] نعم أرحنا بها ، لا أرحنا منها

إذن : ذكر سبحانه فى الختام السبحانية ، ثم الربوبية التى تربيك وتُعدك للمهمة المرادة منك ، هذه التربية تُربِّيك لماذا ؟ تربيك للعزة ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات] والعزة أنْ تغلب ولا يغلبك أحدٌ أبداً ، وقلنا - ولله تعالى المثل الأعلى - الولد الصغير حين يسير فى الشارع وحده يتجرأ عليه الآخرون ، ويتحرشون به ويضربونه ، أما إنْ سار فى صحبة والده وأخذه فى يده لا يجرؤ أحد على التعرُّض له ، كذلك أنت أيها المسلم كُنْ دائماً فى حضن ربك ، وفى يده ، وفى معيته ، وعندها لن يجرؤ أحد عليك .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

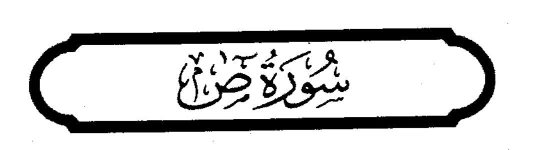
إذن : العزة التى يتصف بها الحق سبحانه ، ويفيض منها على عباده هى الغَلَبة التى لا تُقْهر ، والقدرة التى لا تحتاج إلى أحد ، وهناك عزَّة أخرى هى العزة بالإثم ، والتى قال الله عنها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة]

فالعزة هنا كبر بلا رصيد ولا سند .

ومنها أيضاً قوله تعالى حكايةً عن المنافقين : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون] نعم ، صدقوا والله ، لكن مَن الأعزُّ ومَن الأذل ؟

وقوله ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الصافات] أى : تنزَّه سبحانه عن قولهم وعن كذبهم ﴿ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾ [الصافات] أى : جميعاً لأنهم وإنْ كلَّفونا فى بعض الأحيان ما يشقُّ على النفس إلا أنهم أخذوا بأيدينا إلى برِّ الأمان والنجاة ، فعليهم منّا السلام كلما ذكرناهم نصلى ونُسلِّم عليهم ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات] الذى هدانا لاتباع المنهج بواسطة الرسل ، وأعاننا على هذا الاتباع ، والحمد لله على الجزاء الذى أعدَّه لنا من نعيمه وجناته فى الآخرة ، لذلك قال سبحانه : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس]

وقال العلماء روايةً عن سيدنا رسول الله ﷺ : « مَنْ أراد أنْ يُكَالَ له بالكيل الأوفى من الأجر يوم القيامة فليختم مجلسه بقوله : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات]


سُورَةُ صٓ



سورة ص[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ ﴾

سبق أنْ تكلمنا عن الحروف المقطعة فى فواتح السور ، وقلنا : إن الحق سبحانه بدأ بعضها بحرف واحد مثل : (ص) و (ن) و (ق) ، وبعضها بحرفين مثل : (طس) و (حم) وبعضها بثلاثة أحرف مثل : (الم) ، وبعضها بأربعة مثل : (المص) ، وبعضها بخمسة مثل (كهيعص) و (حم عسق) .

وقلنا : إن الحروف على قسمين : حروف مبنى وحروف معنى ، حروف مبنى هى التى تتكوَّن منها الكلمة مثل : كتب فهى مبنية من الحروف : الكاف والتاء والباء ، إنما الكاف وحدها أو التاء ليس لها معنى بمفردها . أما حروف المعنى مثل تاء الفاعل فى كتبتُ لأنها دلَّتْ على الفاعل المتكلم ، وكتبتَ الفاعل المخاطب ، وكتبتِ للمؤنثة المخاطبة .

---

(١) سورة ص سورة مكية فى قول الجميع . عدد آياتها ٨٨ آية . وهى السورة رقم ٣٨ فى ترتيب المصحف الشريف . فى الجزء الثالث والعشرين من القرآن . نزلت بعد سورة القمر ، وقبل سورة الأعراف ، ولذلك فهى السورة رقم ٣٧ فى ترتيب النزول . [راجع فى هذا الإتقان فى علوم القرآن ١/ ٢٧] .

وقلنا : إن حروف اللغة عبارة عن ثمانية وعشرين حرفاً ، جاء منها فى فواتح السور أربعة عشر حرفاً ، وأحسنُ ما قيل فيها إنها مادة كلمات القرآن ، ولَبنات بنائه ، ومع أن العرب يعرفون هذه الحروف وينطقونها إلا أنهم عجزوا عن محاكاة القرآن والإتيان بمثله ، مع أن هذه صنعتهم ومجال نبوغهم وتفوقهم ، نعم الحروف هى الحروف ، والكلمات هى الكلمات ، لكن المتكلِّم بالقرآن هو الله فلا بُدَّ أنْ يعجزوا .

وقوله تعالى ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ①﴾[ص] دليل على الإعجاز وحامل الإعجاز ، فكلمة (ص) حرف من مكونات القرآن ، والقرآن مُعجز ؛ لأن العرب عجزتْ عن الإتيان بمثله ولو آية واحدة من آياته ، وهى أمة بيان وكلام وفصاحة ، وهى الأمة الوحيدة التى جعلتْ للكلمة معرضاً ، وللبلاغة أسواقاً فى عكاظ ، والمربد وذى المجنة ، وقد بلغ بهم تقديس الكلمة إلى أنْ علَّقوا الجيد منها على أستار الكعبة .

لذلك جاءتْ معجزته ﷺ من جنس ما نبغ فيه قومه .

فالمعنى (ص) أى : حرف من حروفهم[1] ﴿وَالْقُرْآنِ ①﴾ [ص] الذى عجزوا عنه ، والقرآن مرة يُطلَق عليه الكتاب لأنه مكتوب ، ويُطلق عليه القرآن لأنه مقروء ، فهو مكتوب فى السطور ومقروء ، ومحفوظ فى الصدور .

---

(١) حاول العلماء أن يجتهدوا فى تأويل كلمة (ص) . فقال الضحاك : معناه صدق الله . وأنه قسم أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى . وقال محمد بن كعب القرظى : هو مفتاح أسماء الله تعالى صمد وصانع المصنوعات وصادق الوعد . وقال قتادة : هو اسم من أسماء القرآن . [نقل القرطبى فى تفسيره (٨/٥٧٨٤) هذه الأقوال] . ثم قال : وقيل : هو مما استأثر الله تعالى بعلمه .

ومعنى ﴿ذِى الذِّكْرِ ۝١﴾ [ص] أى : صاحب الذكر ، وكلمة الذكر تُطلَق على معان عدة مثل : كلمة عين تُطلق على عين الماء ، وعلى العين الباصرة ، وعلى الذهب والفضة ، وعلى الجاسوس ، وتُطلق على الوجيه من الناس ، والسياق وذكاء السامع هو الذى يُحدِّد المعنى ، فهذه المعانى بينها مشترك لفظى يجمعها ، وهذه من مميزات اللغة .

كذلك قلنا مثلاً : كلمة النجم تُطلَق على النجم فى السماء ، وتُطلَق على النبات الذى لا ساقَ له ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن]

ومن ذلك قول الشاعر :

أُرَاعِى النَّجْمَ فى سَيْرِى إليكُمُ ... وَيَرْعَاهُ مِنَ البَيْدَا جَوَادِى

فكلمة الذكر تطلق على القرآن الكريم ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر] ويُطلق الذكر على كتب الرسل السابقين ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل]

ويُطلق الذكر على الصِّيت والسمعة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف] أى : القرآن .

وفى قوله تعالى :﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ..۝١٠﴾ [الأنبياء] وما ارتفع العرب ولا علَتْ لغتهم إلا لأنها لغة القرآن .

ويُطلق الذكر أيضاً على التذكُّر ، كما فى قوله تعالى :﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ..۝٤٢﴾ [يوسف]

ويُطلق الذكر على التسبيح ، كما فى قوله تعالى :﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا

﴿... بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ (٣٧)﴾ [النور]

ويُطلق الذكر على معنى آخر ، هو العطاء الجيد من الله ، والعمل الطيِّع من العبد .

إذن : فلفظ الذكر أشبه في القرآن بالماسة تتلألأ في يدك ، كلما قلَّبتها وجدتَ لها بريقاً . فكلُّ هذه المعاني تدخل تحت قوله تعالى : ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١)﴾ [ص]

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)﴾

نعرف أن (بل) حرف يفيد الإضراب عما قبله أو نفي ما قبله وإثبات ما بعده ، فـ (بل) هنا تثبت أن الذين كفروا في عِزَّة وشقاق ، فما المنفي قبلها ؟ قبلها قوله تعالى ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١)﴾ [ص] هذه معجزة محمد ﷺ، وكان من الواجب أنْ يقتنعوا بها ، وأنْ يؤمنوا بها لكنهم كفروا ، فالمعنى : بل الذين كفروا ما صدَّقوه ، بل هم في عِزَّة وشِقاق .

بعض العلماء يرى أن ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١)﴾ [ص] قَسَمٌ جوابه جاء في آخر السورة في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)﴾ [ص] لا .. لا يصح أن نُقدِّر القسم ثم نبحث له عن جواب مناسب .

ومعنى : ﴿فِي عِزَّةٍ .. (٢)﴾ [ص] أي : عِزَّة الإثم ، وهي التعالي والاستكبار عن الحق ، وهي عزة بلا رصيد ﴿وَشِقَاقٍ (٢)﴾ [ص] من الشق ، وهو حدوث فاصل بين شيئين ، ولهذه معانٍ كثيرة في اللغة ، نقول : هذا في شق وذلك في شق . يعني : لا يلتقيان ، مثل

كلمة عدو ؛ لأن العدوَّان لا يتفقان ، وكلمة عدو أصلها فى لغة العرب، ومن بيئتهم حيث توجد الوديان ، والوادى له ناحيتان ، كل واحدة تُسمَّى عُدوة .

ومنه قوله تعالى :﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ [1] الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال] فعدو من العدوة . يعنى : كل واحد منا فى ناحية ، ومثلها كلمة جانب ، وكلمة حد كما فى قوله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ [2] اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿٥﴾ ﴾ [المجادلة]

ومثلها كلمة انحرف . يعنى : هذا فى حرف ، وهذا فى حرف يعنى : على طرف وهذا على الطرف الآخر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج] فهذه كلها ألفاظ تؤدى معنى عدم الالتقاء ، كما فى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [ص] عزة آثمة كاذبة وشقاق يعنى : اختلاف لا التقاءَ فيه ، والمراد بالشِّقاق عدم اتعاظهم من سوابق الأمم مع رسلهم ؛ لذلك القرآن لا يسرد لهم تاريخاً حين يقول لهم : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات] إنما يُذكِّرهم بما غفلوا عنه .

وهنا يقول :

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾

(كم) هنا خبرية تفيد الكثرة ، فكأن الحق سبحانه ترك

---

(١) العدوة : الناحية . قال الفراء : العدوة شاطىء الوادى ، الدنيا مما يلى المدينة ، والقصوى مما يلى مكة . [لسان العرب – مادة : عدا] .

(٢) حادَّه : عاداه ونازعه كأنه يريد أن يغلبه ويتعدَّى حدوده . أى : ينازعون ويشاقون الله ورسوله . [القاموس القويم ١/١٤٦].

للمخاطب أنْ يتصوَّر الكمية ويُحدِّد الكمية فى كم ، وأنت لا تستخدم هذا الأسلوبَ إلا وأنت واثق من هذه الكثرة ، كما تقول لمن يجحد فضلك : كم أعطيتُك أو كم صبرتُ عليك ، يعنى : مراراً كثيرة .

والقرن قلنا : إنه الفترة أو الطائفة من الزمن يحكمها مشخِّص واحد كالنبوة أو غيرها ، كما نقول قوم نوح أو قوم هود ، وقد اصطلح على أن القرن مائة سنة ، وسُمِّيتْ قرناً لأنها متقارنة بعضها ببعض .

وفى قوله تعالى ﴿ مِن قَبْلِهِم ﴿٣﴾ ﴾ [ص] احتياط جميل لأنه بعد بعثة سيدنا رسول الله ﷺ لم يهلك الله قوماً بالجملة كما حدث قبله ﷺ ؛ لذلك خاطب الحق سبحانه رسوله محمداً بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال]

فقوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِهِم ﴿٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : هذه مسألة سبقتْ ولن تتكرر فى أمة محمد ﷺ وهذه المسألة تجد لها نظيراً فى قوله تعالى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴿٩١﴾ ﴾ [البقرة]

لو لم يقُلْ الحق سبحانه (من قبل) لَظَنَّ سيدنا رسول الله أن قومه ربما قتلوه كما قتل الأنبياء قبله ، لكن الحق سبحانه يُطمئنُ رسوله بقوله ﴿ مِن قَبْلُ ﴿٩١﴾ ﴾ [البقرة] يعنى : اطمئن ، فهذه لن تتكرر، وفى هذا تثبيت لفؤاده ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا ﴿٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : ساعة حَلَّ بهم العذاب، ونزل بهم الهلاك العام نادوا نداءً عاماً لكل مَنْ يسمع ليُخلِّصهم ويُغيثهم وينقذهم ، لكن ينادون مَنْ ؟ لم يحدد القرآنُ المنادى ليدل على ما هم فيه من الفزع ؛ لذلك نجد أن المناداة للفزع إلى مَنْ يخلصك مما لا تقدر عليه لها مراحل على قَدْر الخطر الذى تتعرض له ، فلو رماك أحدٌ مثلاً بحجر تنادى ذاتك وتستدعى بعضك ، فتحرك يدك مثلاً أو رِجْلك لتتفادى الأذى .

فإنْ كان الخطر فوق استطاعتك تنادى أقربَ الناس إليك أباك ، أمك ، أخاك ، جارك ، مَنْ يسير معك فى الشارع .. الخ فإذا لم تجد مغيثاً فى هؤلاء تقول يا هوه . وقلنا : إنها تعنى يا هُوَ يعنى : يا الله ليس لى سواك أناديه وألجأ إليه .

وهؤلاء لما نزل بهم الهلاك نادوا نداءً عاماً لكل مَنْ يستطيع أنْ ينقذهم ويغيثهم ، لكن هيهات فمَنْ يغيثهم إنْ كان ما ينزل بهم من الله ؟ إذن : نداؤهم لا جدوى منه ﴿ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾ [ص] كلمة (لات) مكوَّنة من لا النافية زيدتْ عليها التاء ، لا للنفى عموماً فتنفى مرة المكين كما لو قلت : لا رجلَ فى الدار وتنفى المكان كما لو قلتَ : لا دارَ أسكنها ، فإذا زيدتْ عليها التاء نفتْ الزمن خاصة ؛ لذلك جاءتْ بعدها كلمة (حين) وهى مثل : ثَمَّ وثَمَّة ، قال الشاعر[1] :

ثُمَّتَ قُمْنَا إلَى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ أعْرافُهُنَّ لأَيدينَا مَنَاديلُ[2]

ومعنى (مناص) يعنى : مَفرّ ومَهْرب . فالمعنى ﴿ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : ليس الوقتُ وقتَ مفر ولا مهربَ .

﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾

---

(١) الشاعر هو عبدة بن يزيد الطبيب ، من تميم ، من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، كان أسود اللون شجاعاً شهد الفتوح وقتال الفرس من المثنى بن حارثة ، توفى عام ٢٥ هـ . له ١٨ قصيدة عدد أبياتها ١٥٦ بيتاً .

(٢) البيت من قصيدة عدد أبياتها ٨١ بيتاً من بحر البسيط أولها :

هَلْ حَبْلُ خَوْلَةَ بَعْدَ الهَجْرِ مَوْصولُ أَمْ أنتَ عنها بَعيدَ الدَّارِ مشْغُولُ

العجب هو الاستغراب ، إنهم يتعجبون وأمرهم أعجب ، يتعجَّبون ﴿أن جاءَهُم مُّنذرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ④﴾ [ص] والعجيب حقاً أنْ يأتيهم رسولٌ من جنس آخر غير جنسهم ، لذلك قال تعالى فى موضع آخر : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ⑨④﴾ [الإسراء]

كانوا يريدون الرسول ملَكاً ، ولو جاءهم ملَكٌ لجاءهم فى صورة رجل منهم ، ولو شخص لهم فى صورة رجل لَظلَّتْ الشبهة قائمة ، والحق سبحانه يردُّ عليهم : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ⑨⑤﴾ [الإسراء]

وقال سبحانه : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ⑨﴾ [الأنعام]

إذن : لابُدَّ أنْ يكون المرسَل من جنس المرسَل إليهم ، لأن الرسول حاملُ منهجٍ يُحققه ، الرسول أُسْوة وقُدوة لقومه ، وكيف تتحقق الأُسْوة بالملَك ؟ والله لو جاء الرسول ملَكاً لاعترضوا عليه ، ولقالوا إنه ملَك معصوم يقدر على ما لا نقدر نحن عليه ، ثم إن الملَك ليس له شهوة كشهوتنا .. الخ

إذن : العجب هو استغراب أنْ يكونَ الرسول واحداً منهم ومن جنسهم ، إن كَوْنَ الرسول من بينكم هو الحجة وبه تتم الأُسْوة ؛ لذلك حينما يمتنُّ الله على أمة محمد ﷺ يقول : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ①②⑧﴾ [التوبة] يعنى : من جنسكم وليس غريباً عنكم ، فهذه ميْزة لكم ، إذن : عجبكم ليس له مكان .

والجنس هنا ليس جنسَ الإنسان فحسب ، إنما من نوعهم من العرب ، بل من أوسطهم وهم قريش وأنـتم تعرفونه قبل بعـثته ، وتعـرفون أصله ونسبه ؛ لذلك يرد الله عليهم فيقول : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس] يعنى : واضحات لا تُنكر ﴿ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس]

نعم لقد عاش سـيدنا رسول الله ﷺ بين قومـه أربعين سنة قبل بعثـته ، وكانوا يعـرفون عنه كل شىء ، إذن : العـجب فى النقيض ، وليس فى الواقع الذى يتعجبون منه .

ثم يحكى الحق عنهم : ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص] الساحـر هو الذى يُخيِّل لنا الأشيـاء فنراها على غير حـقيقتـها ، لكنه لا يغير الحقيقة ، فـالسحر ليس فى الشىء إنما فى أعين الناس ، كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ.. ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف]

لذلك هناك فـرق بين السحـر وبين معـجزة سيـدنا موسى عـليه السلام ، وقـد كانت من جنس يقارب السحـر لأنه سيعانده سَـحَرة ، ولما ألقى موسى عـصاه فرآها السحرة تلقَفُ ما سـحروا قالوا : آمنَّا برب مـوسى ، وما ذلك منهم إلا لأنهم أيقنوا أن مـا جاء به مـوسى ليس من قبيل السحر ، فَهُم يعرفـون السحر جيداً ، ويعرفون الاعيب السحرة ، وليس هذا الذى يرونْهُ منها .

إنهم يرونَ العصا حيَّة تلقف مـا يأفكون ، والسـاحر يرى الأشياء على حقـيقتـها ، فيـرى الحبال حـبالاً ، فى حين يراهـا الناسُ ثعابين

تسعى وتتحرك ، إذن : ما فعله موسى أمامهم ليس من السحر .

ونردّ على هؤلاء الذين يتهمون رسول الله بالسحر . ونقول : لو سلَّمنا معكم أن محمداً ساحر وسحر مَنْ آمن به ، فكيف بكم لا تزالون على كفركم ؟ لماذا لم يسحركم محمد كما سحر المؤمنين به ، وتنتهى المسألة بينكم وبينه ؟

ثم يقولون : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ [ص] إنهم يتعجَّبون وينكرون أنْ يدعوَهم رسولُ الله إلى التوحيد ، وإلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وقد كانوا يعبدون آلهة عِدَّة ، فحول البيت أصنام كثيرة ، ومنهم مَنْ كان يعبد الشمس أو القمر أو الكواكب والنجوم ، ومنهم مَنْ عبد الملائكة .. الخ .

لكن من أين أتتهم هذه الشبهة ؟ جاءتْ هذه الشبهة من استعظامهم الوجود ، فهذا الكون البديع المحكم فيه أرض بها أنهار وجبال وزروع وثمار ، وفيه سماء فيها شمس وقمر ونجوم وكواكب وأفلاك .. الخ . فهذا الكون فى نظرهم لا يقدر على خَلْقه واحد بمفرده ، لا بد أن كثيرين اشتركوا فى خَلْقه .

إذن : فعظمة الوجود هى التى جعلتهم يقولون بآلهة متعددة ، وهنا لابُدَّ أن نقولَ سبحان الله ، فالعكس هو الصحيح فى هذه المسألة ، فعظمة الخَلْق دليل على أن الخالق واحد ، ولو كان الخالق متعدداً لما جاء الخَلْق على هذا النظام والتناسق ، ولو كان الخالق متعدداً لكان الحال كما وصفه الحق سبحانه : ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ۝٩١ ﴾ [المؤمنون]

فقولهم : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا .. ۝٥ ﴾ [ص] خطأ من ناحيتين :

الأولى ظنُّهم أن عظمة الصنعة دليلٌ على تعدُّد الصانع ، فى حين أن عظمة الصنعة دليل على أن الصانع واحد ، الأخرى : أنكم قُلْتم بتعدد الآلهة ، والإله يعنى المعبود المطاع فى أوامره ونواهيه فقولوا لنا : بماذا أمرتكُم هذه الآلهة ، وعَمَّ نهتكم ؟ بل ماذا أعدَّتْ لمن أطاعها من الجزاء ، وماذا أعدَّتْ لمن عصاها ؟

إذن : قولكم آلهة كذب وهراء تقولونه بألسنتكم ما أنزل الله به من سلطان ، ولو عرفتم معنى الآلهة ومعنى العبادة وأن المعبود لابُدَّ أن يكون له منهج يسير عليه العباد ، لو عرفتُم هذا لما قُلْتم بتعدُّد الآلهة.

لذلك الحق سبحانه يضرب لهم مثلاً ، فيقول : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ[1] وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

يعنى : هل يستوى فى العبودية عبد مملوك لسيد واحد وعبد مملوك لعدة أسياد ، وليتهم متفقون إنما متشاكسون مختلفون فيما بينهم ، كذلك لا يستوى مَنْ عبد الله وحده ومَنْ عبد آلهة متعددة .

وقولهم : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)﴾ [ص] فى الآية قبلها قال تعالى : ﴿وَعَجِبُوا (٤)﴾[ص] من الفعل عَجِبَ ومصدره عَجَباً . أما هنا فقال (عُجاب) وهذه الصيغة تدلُّ على المبالغة فى العجب والاستغراب، فأصل المصدر والبِنْية موجود فيها ، والزيادة دلَّتْ على المبالغة كما

---

(١) تشاكس القوم : تنازعوا واشتد خلافهم . [القاموس القويم ١/ ٣٥٤] . والشركاء المتشاكسون : العسرون المختلفون الذين لا يتفقون ، وأراد بالشركاء الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى . [لسان العرب - مادة : شكس]

نقول : طويل وطوال . ونقول : أمر غريب وغراب[1] .

﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧ ﴾

(الملأ) هم الذين يملأون العين مهابةً وزياً وهنْداماً ، ويملأون صدور المجالس . والمراد : الأعيان وزعماء القوم وصناديد الكفر فى قريش ، وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة ، وأبو جهل وأُبىّ بن خلف ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، والنضر بن الحارث ، وخصَّهم الله بالذكر لأنهم أهل السيادة ، ودعوته ﷺ ستسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ، فهم المضارُّون من دعوة رسول الله .

ولهذه المسألة قصة ، فهؤلاء الزعماء ذهبوا إلى أبى طالب عم رسول الله وقالوا له : لو كان ابنُ أخيك يريدُ مُلْكاً ملكْناه علينا ، وإنْ

---

(١) سبب نزول الآيات : ذكر الواحدى فى « أسباب النزول » (ص٢٠٩) : قال المفسرون : لما أسلم عمر بن الخطاب شق ذلك على قريش وفرح المؤمنون ، قال الوليد بن المغيرة لهلاص قريش وهم الصناديد والأشراف : امشوا إلى أبى طالب . فأتوه فقالوا له : أنت شيخنا وكبيرنا قد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، وإنَّا أتيناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك ، فأرسل أبو طالب إلى النبى ﷺ فدعاه فقال : يا بن أخى هؤلاء قومك يسألونك ذا السؤال فلا تملْ كل الميل على قومك ، قال : وماذا يسألونى ؟ قالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال النبى ﷺ : أتعطونى كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟ فقال أبو جهل : لله أبوك لنعطينكها وعشر أمثالها ، فقال النبى ﷺ : قولوا لا إله إلا الله . فنفروا من ذلك فقاموا فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۝٥ ﴾ [ص] كيف يسع الخلْقَ كلهم إله واحد ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ۝١٢ ﴾ [ص]

كان يريد مالاً جمعنا له من المال حتى يصير أغنانا .. الخ فكلَّم أبو طالب رسول الله وقال : يا ابن أخى ، ابْقِ علىَّ وعلى نفسك ، ولا تُحمِّلنى من الأمر مَا لا أطيق ، إن قومك جاءونى وقالوا كذا ، وكذا فقال ﷺ قولته المشهورة : « والله يا عَمِّ ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أتركَ هذا الأمر ما تركتهُ حتى يُظهره الله ، أو أهلكَ دونه »[1] .

فلما خاب سَعْيُهم ، وعلموا أن رسول الله لن يُهادنهم فى آلهتهم ، ولن يقبل عروضهم ومساوماتهم أسرعوا إلى القوم يحفزونهم على التمسك بآلهتهم والصبر عليها ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ ۝٦ ﴾ [ص] يعنى : إلى قومهم ﴿ أَنِ امْشُوا ۝٦ ﴾ [ص] يعنى : سيروا على ما أنتم عليه من عبادة الأصنام ، وابْقوا على طريقتكم وعبادتكم ﴿ وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۝٦ ﴾ [ص] يعنى : على عبادتها واحذروا أنْ يُضلّكم محمد عنها .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ ﴾ [ص] أى : مسألة مدبرة لها ما بعدها من العواقب ، لأن الآلهة إنْ كفرتُم بها ستغضب عليكم فيصيبكم الجَدْب والقحط ، أو الشىء يُرادُ بنا نحن الأعيان ، فنذل بعد أنْ كُنَّا سادة ، ونصير سواسية مع باقى القوم .

وقولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ۝٧ ﴾ [ص] أى : ما سمعنا

---

(١) أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » (٢/١٨٧) من طريق ابن إسحاق أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ : يا ابن أخى ، إن قومك قد جاءونى فقالوا : إنك تؤذيهم فى ناديهم ومسجدهم ، فابق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك . فقال ﷺ : يا عم ، لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فى طلبه. فما كان من أبى طالب إلا أن قال : امضِ على أمرك وافعل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً ».

بأن الإله واحد ، والملة الآخرة هى أقرب الملَل إليهم ، وهى اليهودية والنصرانية ، نعم اليهودية والنصرانية نزلتْ من السماء بتوحيد الله ، لكن الذى شجَّعهم على هذا القول أن اليهود قالوا : عزير ابن الله . والنصارى قالوا : المسيح ابن الله وقالوا : إن الله ثالث ثلاثة . لذلك قال كفار مكة : ما سمعنا بتوحيد الله فى الملة الآخرة ﴿إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ۝٧﴾ [ص] يعنى : ما هذا إلا كذب وافتراء ، ومعنى الاختلاق : خَلْق الشىء بلا واقع يسانده .

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾

هذه نَقْلة أخرى فى جدالهم وتكذيبهم لرسول الله ، فقبل ذلك كانوا يعترضون على بشرية الرسول ، ويطلبون أنْ يكون الرسول ملَكاً ، والآن يتنازلون عن هذا المبدأ ويتحوَّلون إلى الذات ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف]

يعنى : لماذا محمد بالذات ، وفينا أناس عظماء وسادة كانوا أَوْلَى منه بالرسالة ؟ وهنا قالوا : ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ۝٨﴾ [ص] لذلك الحق سبحانه يرد عليهم ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۝٣٢﴾[الزخرف] فجعل نبوته ﷺ رحمة بهم .

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۝٣٢﴾ [الزخرف]

يعنى : كيف تتدخلون فى هذه المسألة الهامة ، تريدون أنْ تقسموا رحمة الله ، والله هو الذى قَسَم لكم أمور الدنيا الهيِّنة ، فجعل منكم سادة وعبيداً وأغنياء وفقراء .. الخ إنْ كان الحق سبحانه هو الذى ينظم لكم أبسطَ أمور حياتكم ، فكيف تطمعون فى أنْ تقسموا أنتم فضل الله ورحمته ؟ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام] وذلك فَضْل الله يؤتيه مَنْ يشاء .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ﴿٨﴾ ﴾ [ص] الذكْر هنا يعنى القرآن ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسوله ويطيب خاطره ، كما خاطبه فى موضع آخر بقوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام]

والمعنى : لا تحزن يا محمد . فقومك لا يُكذِّبونك أنت إنما يُكذّبون ما جئتَ به من الذكر ، فأنت عندهم الصادق الأمين الذى لا غبارَ عليه ، يعنى المسألة ليست متعلقة بك وبشخصك أنت ، إنما متعلقة بى أنا ، فكأن الله تعالى حملها عن رسوله ليُطمئنه ويُسلِّيه ويُخفِّف عنه ما يلاقى من عناد قومه له .

وقوله سبحانه : ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ [ص] هذا لون من ألوان التهديد ، يعنى : لن يظلوا على هذه الحال من السلامة والنجاة فعذابهم قادم ؛ ذلك لأن (لما) تفيد نَفْى الحدث فى الماضى مع إثبات حدوثه فى المستقبل ، تقول : فلان لم يأتِ يعنى فى الماضى وقد لا يأتى فى الحاضر والمستقبل ، إنما فلانَ لمَّا يأتى يعنى : لم يأت فى الماضى ، وسوف يأتى فى الحاضر أو المستقبل ، فمعنى ﴿ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ [ص] يعنى : حتى الآن لم ينزل بهم عذاب الله ، لكن سوف ينزل لا محالة .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾

بعد أن نفى الحق سبحانه قدرتهم على أنْ يقسموا رحمته تعالى ينفى هنا أن تكون مفاتيح خزائن رحمته بأيديهم ، فأمْ هنا للتسوية ، والمعنى : أهُمْ يقسمون رحمة ربك ، أم عندهم خزائن رحمته ؟ لا هذا ولا ذاك ، لأن النبوة رحمة ، وخزائن الرحمة مملوكة للرحيم والله رحمن ، فليس لهم شىء من ذلك ؛ لأن الله تعالى لم يُملِّك مفاتيح خزائنه لأحد حتى أولياء الله المقربين الذين يعطيهم ومضات إشراقية غيبية ليثبت بها اليقين بالمسلك الذى سلكوه .

حتى هؤلاء لم يُملِّكهم مفاتيح خزائنه ، إنما يفتح لهم ما يشاء من فضله ، ويعطيهم ما يريدون من الكرامات ، وتظل مفاتيح خزائنه تعالى فى يده ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام] لا يسلمها لأحد . لذلك ذُيلت الآية بهذين الاسمين من أسمائه تعالى ﴿ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾ [ص]

فالعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، فالله غالب لا يُغْلَب على أمره ، ومَنْ كانت هذه صفته كيف يأخذون منه خزائن رحمته ، وهو سبحانه : ﴿ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾ [ص] الذى يهب مَنْ يشاء تفضُّلاً وتكرُّماً منه سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿١٠﴾ ﴾ [ص] يعنى : إنْ كان لهم مُلْكُ السموات والأرض وما بينهما ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِى الأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ ﴾ [ص] فليصعدوا هم إلى السماء ، وليعرجوا إليها ليتولَّوْا هم تدبير أمر الخَلْق ، والحق سبحانه يوضح هذه المسألة فى

آية أخرى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ[1] السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] أى : بسلطان منَّا .

لذلك لما وصل الإنسان واعتلى سطح القمر قال المتفلسفون : وصلوا بسلطان العلم ، كيف والله يقول بعدها : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[2] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥)﴾ [الرحمن] إذن : ليس السلطان المراد سلطان العلم كما يدَّعُون ، إنما سلطان من الله خالقها ، فهو سبحانه الذى يُنْفِذ مَنْ يشاء ، ويمنع من النفوذ مَنْ يشاء ، ولو لم تأتِ هذه الآيةُ لَكانَ الذين ينكرون معراج رسول الله على صواب .

وقوله سبحانه : ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ (١١)﴾ [ص] المراد كفار مكة ، وأنهم مهزومون لا محالة ، كما هُزِم مَنْ قبلهم من المكذِّبين للرسل .

ثم يُسلِّي الحق - سبحانه وتعالى - نبيه بذكْر ما كان من تكذيب السابقين لرسلهم ، يعنى : يا محمد لستَ بدعاً فى هذا الأمر ، ويبدأ بأطول الرسالات عمراً ، وهى رسالة سيدنا نوح -عليه السلام- فيقول سبحانه :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)﴾

---

(١) أقطار السماوات : نواحيها . [القاموس القويم ٢/ ١٢٤]

(٢) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/ ٣٦١].

معنى : ﴿ذُو الأَوْتَادِ ⑫﴾ [ص] صاحب الأوتاد وهى الأشياء المثبتة ، وقيل : المراد الأهرامات . أو كانت له أوتاد مثبتة عذَّب بها خصومه ، و ﴿الأَيْكَةِ ⑬﴾ [ص] هى الحديقة مُلتفّة الأشجار ، متشابكة الأغصان ، وأصحاب الأيكة هم قوم سيدنا شعيب ﴿أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ ⑬﴾ [ص] أى : الذين تحزَّبوا على رسلهم وصادموهم وعاندوهم .

﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ⑭﴾ [ص] ما أحد من هؤلاء إلا كذَّبَ رسوله ﴿فَحَقَّ ⑭﴾ [ص] أى : وجب له وحَقَّ عليه (عقَاب) إذن : فكيف يُقدِّرون لأنفسهم أنْ يقفوا منك يا محمد هذا الموقف ولا نعاقبهم ؟ كيف يفلتون منا وقد عاقبنا مَنْ هم أقوى منهم ؟

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ⑮﴾

أى : ما ينتظرون ، فعذابهم بالنسبة لنا أمر يسير لا يحتاج إلى علاج ، إنما هى مجرد صيحة واحدة أى : نفخة واحدة قالوا : هى النفخة الثانية التى بها يُبعث الخَلْق ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ⑮﴾ [ص] يعنى : لا إفاقةَ لهم بعدها .

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ⑯﴾

معنى ﴿قِطَّنَا ⑯﴾ [ص] أى : نصيبنا وجزاءنا ، وأصلها من القطعة كانوا يكتبون فيها الجائزة . يعنى : إنْ كنا مذنبين عَجِّل لنا العذاب الآن قبل يوم القيامة ، لكن كيف يأتيكم العذاب الآن فى الدنيا والدنيا فانية ، ينتهى العذاب بفَنَائها ، فكأن عذابهم فى الدنيا لا يكفى جزاءً لهم على كفرهم ؛ لذلك يُؤخِّره الله لهم إلى يوم القيامة ، وهى

دار بقاء وإقامة لا نهاية لها .

والحقيقة أن الصيحة ليست هى التى ستُعذِّبهم ، إنما هى مجرد جرس إيذاناً ببدء هذا اليوم .

والحق - سبحانه وتعالى - يشرح لنا هذا الموقف منهم ويُوضِّحه فى قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وهذا دليل غبائهم ، فهل يدعو عاقل بمثل هذا ؟ وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُدلِّل لنا على أن موقفهم فى العناد والتأبِّى على الرسالات ضد نفوسهم ، فبدل أنْ يقولوا فاهدنا إليه يقولون ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

لذلك الحق سبحانه يتعجب من استعجالهم العذاب : ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧)﴾ [الصافات]

وعجيبٌ من كفار مكة أن يقولوا ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)﴾ [ص] فهل يؤمنون بهذا اليوم ؟ إذن : لماذا ينطقون به ويعترفون بوجوده حتى يظهر فى فلتات ألسنتهم ؟ قالوا : إنه تنبُّه مواجيد الفطرة قبل أنْ يعمل العقل الماكر ، فالذى يكذب يُعمل عقله فى الكذب ، ولابُدَّ له أنْ يكون ذَكُوراً ؛ لأن الكذب ليس له واقع ثابت .

لذلك كثيراً ما يكذب الإنسانُ كذبةً اليوم ، ويكذب خلافها غداً ، فالصادق لا يتغير كلامه لأنه يحكى واقعاً ، أمَّا الكاذب فيحكى غير الواقع ؛ لذلك قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، مثل رجل كاذب يحكى ويقول : ذهبنا إلى (البندر) ليلة العيد الصغير ، وكانت الدنيا (قمر ضهر !!) كيف ؟

والمحقق الماهر هو الذى يستغل هذه المسألة ليعلم صدْقَ الأقوال من كذبها ، فالصادق يحكى واقعاً ، فلو سأله المحقِّق ألف مرة لجاءتْ أقواله واحدة ، أمَّا الكاذب فيحكى خيالاً لا بُدَّ أنْ تتضارب فيه الأقوال فينكشف زَيْفه ، الواقع يُملى نفسه عليك ، أمَّا الكذب فيُمليه الإفك والتلفيق ، فلا تدرى على أىِّ صورة يكون .

فقولهم : ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص] جاء منهم فَلْتَة لسان كشفتْ عمَّا يؤمنون به بين أنفسهم ، ومثلها قول المنافقين : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون]

فجعلوا النفعية هى المقياس ، فكأن أتباع محمد حين لا ينفق عليهم سينفضُّون من حوله ؛ ذلك لأن الأمور عندهم مادية ، وكل شىء عندهم له ثمن .

وقالوا : لما فَتَر الوَحْى عن رسول الله : إنَّ ربَّ محمد قَلاَه[1] ، هكذا تسرقهم المواجيد الفطرية ، ويظهر الحق فى فَلَتات الألسنة عندما تتنبه الغريزة والفطرة ، ويغيب العقل الماكر المدبر .

أو أنهم قالوا : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص] على سبيل الاستهزاء بالوعيد الذى توعَّدهم الله به ، فهم لا يؤمنون بهذا العذاب ولا يثقون فى وقوعه ، فاستعجالهم له استهزاء به ، فكأنهم قالوا : هات لنا العذاب فنحن مشتاقون لعذابك ، فلا تُؤخِّرْه إلى يوم الحساب ، وهذا التهكم لا يليق مع قولهم ﴿ رَبَّنَا ﴿١٦﴾ ﴾ [ص]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) من رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس سمع جندباً قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودَّع محمداً ربُّه . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحى] .

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ(١) إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا(٢) مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ(٣) ﴿٢٠﴾ ﴾

الصبر : استعلاء النفس على الأحداث بمعنى ألاَّ تنال الأحداثُ من النفس ومن قوتها ، لأن الذى يُصاب بمصيبة يحتاج إلى قوة إضافية فوق قوته الطبيعية ، فلا تجعل المصيبة أو الشدة تُضعف من قوتك على تحمُّل الحدث .

وإياك أنْ تجعل المصيبة مصيبتين ، حين تضعف أمام الأحداث فيجتمع عليك المصيبة والضعف عن تحملها ، ذلك لأن المصيبة بالنسبة للمؤمن على قسمين . الأول : مصيبة للإنسان دَخْلٌ فيها كالطالب المهمل الذى يرسب فى الامتحان ، فالرسوب نتيجة إهمالك وتهاونك ، فإنْ كنت ستغضب فاغضب من نفسك ولُمها وعنِّفها ، وحاول أن تصححَ خطأها ، وتصلح فسادها ، هذه هى الرجولة التى تواجه الواقع ولا تتنصَّل من المسئولية .

---

(١) ذا الأيْد : أى صاحب القوة . [القاموس القويم ١/ ٤٥] قال الزجاج : كانت قوته على العبادة أتم قوة ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وذلك أشد الصوم ، وكان يصلى نصف الليل ، وقيل : أيْده قوته على إلانة الحديد بإذن الله وتقويته إياه . [لسان العرب - مادة أيد] .

(٢) شددنا ملكه : قويّناه . [القاموس القويم ١/ ٣٤٤] قال ابن منظور فى لسان العرب - مادة شدد : كان من تقوية ملكه أنه كان يحرس محرابه فى كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألفاً من الرجال . هكذا جاء .

(٣) فصل الخطاب : القول الصائب المميِّز بين الحق والباطل . [القاموس القويم ٢/ ٨٣] .

الثانى : صبر على حَدَث ليس للإنسان دَخْل فيه ، وهذا هو الأمر القدرى يُجريه الله عليك ، ولا يريد لك منه إلا الخير ، وإنْ كنتَ تعتقد أنت أنه شَرٌّ .

لذلك قد يدعو الإنسان بما يراه خيراً له حَسْب قوانينه وفَهْمه للخير ، لكن لا يرى إجابة فيغضب ويقول : دعوتُ فلم يُستجب لى . وغفل أن ربه - عز وجل - أعلمُ بالخير أين هو ، لذلك لم يُجِبْهُ ، إذن : فإجابته لك ألاَّ يجيبك .

لذلك يُعلِّم الحق سبحانه المؤمنين الرّد على الذين كانوا يشمتون فى الأحداث تصيبهم ، فيقول : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (٥١) ﴾ [التوبة] نعم ، كتب الله لنا لا علينا ، لأن المصيبة لا تأتى المؤمنَ إلا بالخير ، فهى إما تمحيص لنا وإما عُلُو لمرتبتنا ، وإما ليعلم غيرُ المؤمنين أن لأهل الإيمان جلادةً أمام الأحداث ، وصلابةً لا تلين .

ومن ناحية أخرى ، نجد المصيبة التى تصيب الإنسانَ إما مصيبة له فيها غريم ، أو مصيبة لا غريمَ فيها ، فالمصيبة التى لك فيها غريم اعتدى عليك مثلاً تحتاج إلى صبر أقوى وجَلَد وتحمُّل أكثر ، لأنك كلما رأيتَ غريمك حرَّك فيك كوامن النفس ودواعى الانتقام . أما المصيبة التى ليس لك فيها غريم ، وهى المصيبة القدرية التى أصابتْك بقدر الله فهى أهون على النفس من الأولى لأنها من الله ، فلا تملك معها إلا أنْ تقول لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله وتصبر وتحتسب ، وإلا فماذا تفعل مثلاً أمام المرض أو الموت ؟

لذلك يقول سبحانه فى المصيبة التى لك فيها غريم : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] يعنى : تحتاج إلى عزيمة وقوة تحمُّل تعينك على الصبر ، أو تدعوك إلى المغفرة ، أما المصيبة القدرية التى لا غريمَ لك فيها ، فيقول الحق فيها : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا

أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] ولم يقُلْ هنا ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى] ، فآية لقمان فى المصيبة التى لا غريم فيها ، فأتت بدون اللام ، وآية الشورى لما فيها غريم فأتت فيها اللام .

هنا الحق سبحانه يريد أنْ يُسلِّى نبيه محمداً ﷺ ويُخفِّف عنه ما يُلاقى من قومه ، فقولهم عن رسول الله أنه ساحر وكاذب ومجنون .. الخ كل هذا يُحزن رسول الله ويشقُّ عليه ويُؤلمه ؛ لذلك مرَّتْ بنا آياتٌ كثيرة فى تسليته ﷺ ، كما فى قوله تعالى :﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام]

وهنا يخاطبه ربه : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص] ثم يعطيه مثلاً من موكب الرسالات السابقة ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص] لكن لماذا ذكر سيدنا داود بالذات فى هذا المقام ؟

قالوا : لأن قومَ سيدنا داود قالوا فى حقه ما هو أفظع مما قيل فى حَقِّ رسول الله ، فكفار مكة قالوا : ساحر ، وكاهن ، وكذاب . أما قوم داود فقد اتهموه فى شرفه وعفَّته وطهارته ، حين زعموا أنه بعث بأحد قادته إلى حرب خارج البلاد ؛ لأنه كان يحب زوجته ، ويريد أنْ يخلوَ له الجو وينفرد بها ، ومع ذلك صبر سيدنا داود .

والحق سبحانه يخاطب نبيه محمداً ويقول له : اصبر كما صبر داود . مع أن محمداً هو خاتم الرسل جميعاً ، فلا رسالةَ بعده وفوَّضَه الله فى أنْ يُشرِّع لأمته ، وهذه خصوصية لم تسبق لأحد غيره من الرسل ، وأرسل الله معه كتاباً خالداً مهيمناً على كل الكتب السابقة ومع ذلك يقول له ربه : اصبر كما صبر داود ، وكما صبر إخوانك من الرسل ليدلَّ على أن أمة الرسالة أمة واحدة ، كل منهم يُبلِّغ عن الله رسالة مناسبة لقومه ، فالرسل جميعاً كشخص واحد .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص]وبعد ذلك ذكر عدة

رسُل من موكب الرسـالات ولم يقُلْ عبادنا ، كأنهم تجمـعوا كلهم فى مهمة واحدة فلا تفرق بينهم ؛ لذلك يقول سبحانه :﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

وقال ﷺ : « لا تفضلونى على يونس بن متى »(1) .

لأنكم لا تعلمون مـقاييس المفـاضلة ، فدعوا المفـاضلة لله تعالى فهـو الذى يُفضِّل ، كمـا قال سبـحانه : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم .. (٢٥٣) ﴾ [البقرة]

وتأمَّل هذا الشرف الكبير الذى ناله سيدنا داود حين تحدَّث الحق عنه ، فقال ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ (١٧) ﴾ [ص] كذلك ناله سيـدنا محمد فى استهلال سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ (١) ﴾ [الإسراء] فليس للإسراء حـيثـية ، إلا أنه ﷺ عبـد أخلص العبـودية لله فاسـتحق هذا الشرف العظيم ؛ لذلك لمـا جَفتْ به الطائف واضطهدوه وشتـموه جاء العزاء من الله ، فإنْ كـانت الأرضُ لم تحتَفِ بك ، فسوف تـحتفى بك السماء .

وقـوله تعـالى : ﴿ ذَا الأَيْدِ (١٧) ﴾ [ص] يعنى : صـاحب القـوة فى العبادة ، والإيمان يحتاج فـعلاً إلى قوة تُعينك على الطاعة ، وتزجرك عن المعصيـة ، وتكبح جماحَ النفس حين تميل بك إلى المـخالفة ، أما الطاعة فتحتاج إلى قوة لأن الـطاعةَ غالباً ما تكون ثقيلة على النفس ، فتحتاج إلى قوة دافعة حافزة ؛ لذلك يقول تعالى عنها : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة]

---

(١) لفظ البخـارى من حديث عبـد الله بن مسعـود (٣٤١٢) : « لا يقولن أحدكم إنى خـير من يونس بن متى » . وكذا عن ابن عـباس (٣٤١٣) : « ما ينبغى لعبد أن يقـول إنى خير من يونس بن متى » .

أما المعصية فلها لذة وجاذبية وشهوات تُلح على النفس ، فتحتاج كذلك إلى عزيمة وقوة رادعة كابحة ؛ لذلك كثيراً ما يتكرر ذِكْر القوة فى كتاب الله ، فقال عن داود ﴿ذَا الأَيْدِ ﴿١٧﴾﴾ [ص] ، وقال ليحيى عليه السلام : ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴿١٢﴾﴾ [مريم]

فالمؤمن لا بُدَّ أنْ يكون قوياً قويَّ الإرادة والعزم ، لا بُدَّ له من قوة الدفع إلى الطاعات لأنه يكسل عنها ، وقوة الردع عن المعاصى لأنه يميلُ إليها ، والإنسان لا يكسل عن الطاعة ولا يرغب فى المعصية إلا حين يعزل العملَ عن الجزاء والعاقبة ، ولو استحضر الجزاء وتذكَّر العاقبة لَهانتْ عليه الطاعة وخَفَّتْ على نفسه وسَهُلَتْ ، ولَزهِدَ فى المعصية ، وفَرَّ منها فراره من الأسد .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثال قلنا : هَبْ أن شاباً طغتْ عليه الغريزة الجنسية ، وهى أعنف الغرائز فى الإنسان ، فقلنا له : تقضى ليلة مع فتاة جميلة لكن فى الصباح سنُدخلك هذا (الفرن) المتأجج لمدة ساعة ، فماذا يقول ؟ إذن : استحضار العقاب على المعصية عند المعصية يمنعك منها ، كذلك استحضار الثواب على الطاعة يدفعك إليها .

وهناك فى جبال الهملايا وعند قمة إفرست وجدوا ضحايا كثيرين مِمَّنْ يحاولون اعتلاء هذه القمة ، فبعضهم مَات بعد ثلث المسافة ، وبعضهم بعد الثلثين وهكذا ، فما الذى حملهم على تحمُّل هذه المصاعب والمخاطر ؟ إنها شهوة الاستعلاء على هذه القمة التى تُعَدُّ أعلى قمة فى العالم ، إنه حب الشهرة وتخليد الذكْر فى دوائر المعارف ، إذن : استهانوا بالأخطار ليصلوا إلى هذه الغاية التى يتطلَّعون إليها .

فالذى يجعل الإنسان يزهد فى الطاعات ويتكاسل عنها أنه لم يستحضر الثوابَ عليها ولو استحضر ثوابها لَسهُلَتْ عليه ، كما قال الشاعر :[1] .

تَهُونُ عَلَيْنا فى المعَالِى نُفُوسُنَا ... ومَنْ يخطُب الحَسْنَاءَ لم يُغْلِهَا المْهرُ[2]

والنبى ﷺ يشرح لنا هذه المسألة بقوله : « لا يزنى الزانى حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارقُ حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن » .

يعنى : ينتفى عنه وَصْفُ الإيمان فى لحظة وقوعه فى هذه المعصية ؛ لأنه غفل عن العاقبة ، وغفل عن الله ، ولو استحضر اللهَ فى ذهنه ما أقدم .

ثم يقول تعالى فى وصف سيدنا داود : ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص] من الفعل آب فهو آيب وأوَّاب صيغة مبالغة على وزن فعَّال . يعنى : كثير التوبة والأوْب إلى الله ، وهذه الكلمة فيها إشارة إلى أن الإنسانَ عُرْضة للمعصية ، وأنه مهما تاب فهو مُعرَّض للعود مرة أخرى ؛ لأنه ليس معصوماً ، المهم أنْ تحدثَ لكل ذنب توبةٌ ، وألاَّ تكون مُصراً على أنْ تعودَ .

لذلك تلحظ أن من أسماء الله تعالى الغفار ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ

---

(١) هو أبو فراس الحمدانى : شاعر أمير ، ابن عم سيف الدولة ، ولد ٣٢٠ هـ وتوفى ٣٥٧ هـ عن ٣٧ عاماً ، كان سيف الدولة يحبّه ويستصحبه فى غزواته ، جرح فى معركة مع الروم فأسروه عدة أعوام ، حتى فداه سيف الدولة ، قتله رجال خاله سعد الدولة . له ٢٨٤ قصيدة من العصر العباسى ، عدد أبياتها ٢٧٧٦ بيتاً .

(٢) البيت من قصيدة من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٥٤ بيتاً .

وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه] ولم يقل غافر ، لماذا ؟ لأن الخَلْق فيهم غفلة ، وفيهم معصية تتكرر ، وتكرُّر المعصيه يحتاج إلى تكرُّر المغفرة ؛ لذلك من رحمة الله بنا أنه غفَّار أى : كثير المغفرة.

وقوله تعالى فى حَقِّ سيدنا داود : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص] تشرح لنا فيما بَعْدُ معنى ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص]

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] معنى : ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] الوقت بعد الظهر إلى المغرب ﴿ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] بعد شروق الشمس وهو وقت الضحى ، ومعلوم أن الجبال جماد ، والجماد هو أدْنى الأجناس فى الكون ، فالإنسان هو سيد هذا الكون ، وهو أعلى الأجناس ، يليه الحيوان ، ثم النبات ، ثم الجماد .

الحق سبحانه يخبرنا أن الجماد يُسبِّح ، وأن للجماد حياةً فى حين يظن الإنسان أن جماد يعنى جامد لا حياةَ فيه ، نعم لا حياةَ فيه بمقياسك أنت ، لكن له حياة أخرى غير حياتك ، أنت تسعى وتجرى فى طول الدنيا وعرضها ، أما الجماد فثابت لا يتحرك .

لكن لكل جنس حياة تناسبه ، فأنت أيها الإنسان لك حياتان : حياة فى حال اليقظة ، وحياة أخرى فى حال النوم ، أقانونك وأنت نائم هو قانونك وأنت مستيقظ ؟ إنك ترى فى النوم الأشخاص والأشكال ، وتُميِّز بين الألوان ، وتعيش قصة طويلة وتَعِى تفاصيلها ، كل هذا وأنت نائم مُغْمضَ العينين ، فبأىِّ حاسة رأَيتَ ما رأيت ؟ بعد ذلك لك حياة أخرى مناسبة للموت ، وحياة أخرى مناسبة للبعث .

وإنْ أردت أنْ تستدلَّ على أن كل شىء فى الوجود له حياة

تناسبه ، فاقرأ إنْ شئتَ : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤)﴾ [الإسراء] بعض العلماء قال - ليخرج من هذا المطب - التسبيح هنا يعنى تسبيح دلالة . يعنى : هذه المخلوقات تدل على خالقها ، وليس المراد تسبيح المقال ، ولو كان التسبيح المراد تسبيح دلالة كما يقول ما قال الحق بعدها : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (٤٤) ﴾ [الإسراء] لأننا نفهم تسبيحَ الدلالة . إذن : لا بُدَّ أنْ لها تسبيحاً آخر ، لا نعلمه نحن .

كذلك فى قوله تعالى فى الطير : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ (٤١) ﴾ [النور] فليس لنا أن نبحث فى كيفية صلاة الطير ، فكل جنس يعلم كيف يصلى لله خالقه ، ألم تَرَ النملةُ جنودَ سليمانَ فتسرع لتحذر قومها : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل] وتأمل هذا الاحتياط فى قولها وعدالة الحكم فى ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل] فهم ليسوا ظلمة ولا جبارين ، وإنْ مرُّوا عليكم سيحطمونكم من حيث لا يدرون ولا يشعرون بكم .

ألم يعلم هدهدُ سليمانَ قضيةَ التوحيد ؟ ألم يكُنْ سبباً فى هداية قوم ضلُّوا وعبدوا الشمس من دون الله حين عاد إلى سليمان ، يقول ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] .

والذى أغاظ الهدهد وأثَّر فى نفسه أنْ يراهم يسجدون للشمس من دون الله : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل]

إن الهدهد يفهم القضية كاملة ، بل ويجيد فى ذلك ما لا يجيده الإنسانُ العاقل .

والإنسان الذى يُدلُّ على الكون بعقله وفهمه ، ألم يُعلِّمه الغراب كيف يُوارى سَوْأةَ أخيه وجثته : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ..(٣١)﴾ [المائدة]

إذن : فكل كَوْن له عالمه ، وله لغته ، وله صلاته لله وخشوعه ، فلا تفرض قانوناً لتسحبه على قانون آخر ، فتحيل كثيراً من الأشياء. وإنْ أردتَ سنداً لهذا من نفس القرآن فاقرأ قوله تعالى : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ (٤٢)﴾ [الأنفال] فالهلاك نقيض الحياة . واقرأ : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ (٨٨)﴾ [القصص]

إذن : حين نجمع بين الآيتين نرى أن كل شىء له حياة خاصة به ، وإنْ كنا لا ندرك نحن كُنْه هذه الحياة لكنها موجودة ، بدليل أن كل شىء هالك . والآن بدأ العلماء يُسجِّلون لغة الطير ولغة الحيوان ويتوصَّلون إلى حَلِّ شفرة هذه اللغات .

ومن العجائب التى جعلها الله لتشرح لنا قدرته تعالى فى كونه أنهم لما صنعوا الصاروخ (ديسكافرى) ، وأرادوا إطلاقه إلى الفضاء ووزنه ١١٠ أطنان ، وجدوا به عُطْلاً يمنع انطلاقه ، فلما بحثوا عن العطل وجدوا طائراً وزنه أربعة جرامات اسمه نقار الخشب نقر فى الجدار العازل لخزان الوقود فى الصاروخ اثنين وأربعين ثقباً فعطَّل الصاروخ عن الانطلاق ، وهكذا سُخِّر طائر وزنه أربعة جرامات وبنى عُشَّه على هذا الصاروخ العملاق فعطَّل حركته .

وكأن الطيورَ أرادتْ أنْ تثأر لنفسها لما رأت الإنسان يزاحمها فى عالم الطيران ؛ لذلك وجدوا أن أكبر شىء يهدد الطيران هو عالم

الطيور ، وأن جماعات منها تعترض الطائرات ، وتحوم حول المطارات وكأن هناك عداوةً بينها وبين هذه المخلوقات التى تنازعها الطيران .

لذلك فكَّر علماء الطيران فى فكرة تطرد الطيور عن المطارات ، فأخذوا فكرة أصوات الطيور التى تصدرها كإنذار لغيرها عند حدوث خطر وسجَّلوا هذه الأصوات وأذاعوها حول المطارات ، لكن الطير تنبَّه إلى هذه الخدعة ، ولم تَعُدْ تزعجه هذه الأصوات ، لذلك لجأوا إلى وسيلة أخرى فقالوا : إن الطيور تخاف من الصقور ، فصنعوا لها مُجسَّمات من البلاستيك وعلَّقوها ، لكن هذه الخدعة عرفها الطير ، وسَخر منها حين وضعتْ بعض الطيور أعشاشها على أجنحة هذه الصقور .

إذن : للطير عالمه ومملكته وأسراره ، عرفنا منها شيئاً ، وغابت عنا منها أشياء .

فإذا قرأتَ عن سيدنا داود : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] فاعلم أن الجبال تسبح على الحقيقة تسبيحاً لا يعلمه إلا ربها وخالقها . والميزة هنا لسيدنا داود ليست فى تسبيح الجبال ؛ لأن الجبال مُسبِّحة دائماً ، إنما المعجزة هنا أنها تُسبِّح معه وتردد معه نشيداً واحداً ، فالكلام فى (معه) أى تُسبِّح مع تسبيحه .

لذلك قلنا فى قولهم : سبَّح الحصى فى يد رسول الله ، قلنا : عدِّلوا العبارة ، لأن الحصى يسبح حتى فى يد أبى جهل ، فالصواب والمعجز أن نقول : سمع رسول الله تسبيحَ الحصى فى يده . هذه هى العظمة .

ومعنى ﴿ بِالْعَشِيِّ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] العَشِيُّ : الفترة بعد الظهر إلى المغرب ﴿ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] أى : شروق الشمس ، وقد أخذ بعض الأئمة من هذه الآية دليلاً على مشروعية صلاة الضحى التى صلاها النبى ﷺ ، وبعضهم يقول عن هذه الصلاة : صلاة الإشراق[1] . لكن أىّ عشى ؟ وأىّ إشراق ؟ هذا وقت وكل مكان له عَشِىٌّ وله إشراق يخالف الآخر .

إذن : فهو وقت ممتد فى كل الوقت كما أوضحنا فى الصلاة ، فهى دائمة ممتدة لا تنقطع أبداً ، ففى مكان يُصلَّى الصبح ، وفى آخر يُصلَّى الظهر ، وفى آخر يُصلَّى العصر وهكذا . فكأن الخالق سبحانه أراد بهذه الدورة الزمنية أنْ يُعبَد سبحانه فى كل جزئيات الزمان عبادة لا تنقطع فى وقت من الأوقات .

ومن ذلك قوله ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوبَ مسىء النهار ، ويبسطُ يده بالنهار ليتوبَ مسئ الليل »[2] ولا يخلو الزمن أبداً من ليل أو نهار ، إذن : فالمعنى أنه سبحانه يده مبسوطة دائماً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [ص] معنى محشورة أى : مجتمعة حول سيدنا داود ، لأنه عليه السلام كان جميل الصوت حين يقرأ المزامير ويتغنى بها ، فكانت الطيرُ تجتمع

---

(١) روى عن ابن عباس أنه قال : كنت أمر بهذه الآية ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] ولا أدرى ما هى . حتى حدثتنى أم هانئ . أن رسول الله ﷺ دخل عليها ، فدعا بوضوء فتوضأ ، ثم صلى صلاة الضحى . وقال : « يا أم هانئ ، هذه صلاة الإشراق » ذكره القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٨٠٠) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ١٥٠) للطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن ابن عباس .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) ، وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٥ ، ٤٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

عليه وتُردِّد معه وتُرجِّع ما يقول ، إذن : كانت منظومة إيمانيةٌ مُكوَّنة من سيدنا داود والجبال والطير ، جميعهم يرددون تسبيحاً واحداً ، وكأنهم كما قلنا : (كورس) واحد .

لذلك قالوا فى ﴿ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [ص] أى : داود والجبال والطير ، كل منهم أواب لله خاضع له راجع إليه[1] .

وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص] أى : قوَّيناه وساندناه بالنصر والهيبة ، النصر فى كل شىء ، والهيبة أقوى أسباب القوة ؛ لذلك إذا أراد اللهُ أنْ يضعف الملك نزع الهيبةَ منه من القلوب ، وحين لا يهابه الناس يتجرأون عليه .

﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص] الحكمة : وَضْع الشىء فى موضعه المناسب له ، والذى تأتى منه الثمرة المرجوة من أقصر الطرق وأيسرها ، والحق سبحانه حين يأتى بلفظ من الألفاظ يأخذ أنْسَه بما فى اللغة ، فالحكمة مأخوذة من الحَكمة ، وهى اللجام الذى يُوضَع فى حَنَك الجواد ، فيسهل التحكم فيه وضبط حركته كما أريد، فأرخى له ليسرع ، وأجذبه فيقف .

وقالوا : الحكمة أى النبوة وسداد الرأى فى الأمور ، وقد امتاز كل من سيدنا داود وسيدنا سليمان بالذات بأنْ جمعَ اللهُ لهما الملْكَ والنبوة ؛ لذلك رأينا المخالفين لهما (فطسانين) لا وجودَ لهم ، ولا أثر ؛ لأن الملك يطمس عُنْف المخالف .

---

(١) هذا على قول من قال إن الهاء فى (له) عائدة على الله عز وجل ، أما القائلون بعودها على داود فقالوا : (أوَّابٌ) أى مطيع لداود . فتأتيه الطير وتسبح معه . وهو قول قتادة ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٥٣/٧) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وانظر ابن كثير (٣٠/٤) ، والقرطبى فى تفسيره (٥٨٠٢/٨)

ومعنى ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) ﴾ [ص] أى : علم الفَصْل فى الخصومات ، والفصل لا يكون إلا فى متجادلين ، يأتى هذا بحجة وهذا بحجة ، وعلى الحكَمِ بينهما أنْ يفصلَ بينهما ، بأنْ يُنصِفَ الحق ويبطل الباطل .

وإنْ كانت مسألة فصْل الخطاب هذه اعترض عليها ؛ لأن سيدنا سليمان فيما بعد عدّل حكماً لأبيه ، وهذه تحسب أيضاً لسيدنا داود ؛ لأن الذى عدل حكمه هو ولده ، والإنسان لا يحب لأحد أنْ يتفوَّق عليه إلا ولده ؛ لذلك سُرَّ بها سيدنا داود .

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟[1] ٱلْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ (٢٢) ﴾

حين يستفهم منك بقوله ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ (٢١) ﴾ [ص] فاعلم أنه دليلٌ على أن هذا الشىء كان يجب أنْ تعلمه ، تقول : هل أتاك كذا وكذا يعنى : أتاك ومثله قوله تعالى :﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) ﴾ [الإنسان]

المعنى : أتى على الإنسان وقت من الدهر لم يكُنْ شيئاً مذكوراً إنما أتى الأسلوبُ بصيغة الاستفهام لتأتى أنت بالمراد ، فيكون إقراراً منك ، والإقرار لا يُكذَّب على خلاف الإخبار بالمراد فالإخبار يحتمل

---

(١) جاءت (تسوروا) هنا معبرة عن الجمع تبعاً للفظ (الخَصْم) الذى يطلق على الواحد والاثنين والجماعة .

عقلاً الصدقَ ويحتمل الكذبَ .

أو : أن هذا الأسلوب للتشويق للنبأ . والنبأ ليس هو مطلق الخبر إنما هو الخبر العظيم الذى ينبغى أنْ يُعلم لذلك يُهتم به ، فليس من قبيل النبأ أنْ تقول مثلاً : أكلتُ اليوم كذا وكذا . لذلك حين يخبرنا الحق سبحانه عن أمر القيامة يقول : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ② الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ③ ﴾ [النبأ]

وكلمة ﴿ الْخَصْمِ ㉑ ﴾ [ص] تطلق على المفرد والمثنى والجمع بنوعيه تقول : هذا خصم وهذه خصم ، وهؤلاء خَصْمٌ .. الخ وقد تُثنَّى مع المثنى كما فى : ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ⑲ ﴾[الحج] لذلك جاءت بعدها ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ㉑ ﴾ [ص] بصيغة الجمع .

ومعنى تسوروا : تسلقوا ، لأنهم لم يدخلوا من الباب ، إنما دخلوا من أعلى السور ، وهذا دليل على أن هؤلاء الخَصْم لم يأتوا من جهة الأرض ، إنما من جهة السماء ، فكانوا جماعة من الملائكة فى صورة بشر ، والمحراب : هو المكان المقدَّس الذى يجعله الإنسان لخُلْوته ومناجاته لربه ، ومن ذلك قوله تعالى فى السيدة مريم : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ..㊲ ﴾ [آل عمران] ونحن نُسميه الآن القبلة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ㉒ ﴾ [ص] الإشكال هنا كيف يفزع سيدنا داود لرؤية هؤلاء وهو فى حضرة الله وفى حضانته ، وبين يديه يصلى ويتعبَّد ويُسبِّح ؟ وكيف أن الحق سبحانه يُفزع عبده ونبيه ، وهو بين يديه ؟!!

قالوا : الفزع على قسمين : فزع يُحرِّك قلبك بالجزع ولكن قالبك سليم لم يتأثر . وفزع آخر ينضح من القلب على القالب فيتأثر حتى

تظهر عليه علامات الفزع .

وقد كان فزع سيدنا داود من النوع الثانى ، لماذا ؟ قالوا : لأن الملائكة حين رأوْه على هذه الحال قالوا له ﴿لا تَخَفْ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] ولا يقولون له ذلك إلا إذا انفعلَ قالبُه انفعالاً يدلُّ على الخوف ، فهذا دليل على أن الفزع تجاوز قلبه إلى قالبه .

ونفهم أيضاً من قولهم له ﴿لا تَخَفْ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] أنهم ليسوا من رعيته ، وليسوا من البشر ؛ لأن واحداً من الرعية لا يجرؤ أنْ يقول للملك : لا تخف .

وقولهم : ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] يدلُّ على اتفاقهم رغم خصومتهم ، فقد تكلَّموا جميعاً فى نَفَس واحد ، أو تكلَّموا بالترتيب ، أو تكلم واحد منهم وأمَّن الباقون ، والمُؤمِّن أحد الداعين ، فكونهم تكلموا بهذه الصورة المنظمة وأيديهم فى أيدى بعض ، فهذا يدلنا على أنه لا خلافَ بينهم ، ولا يطمع أحد منهم فى الآخر ، إذن : ما المسألة ؟ وما حقيقة مجىء هؤلاء على هذه الصورة ؟ لا بُدَّ أن لهم هدفاً آخر .

ومعنى (بغى) حاول أنْ يطغى وأنْ يظلم ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] هذا القول منهم دلَّ على جراءتهم ، ودلَّ على أنهم من ملأ آخر غير البشر من الملائكة . ومعنى ﴿وَلا تُشْطِطْ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] يعنى : لا تبتعد عن الحق ولا تَجُرْ.

﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] اهدنا أى جميعاً دون تمييز بين واحد وآخر ، فهم خصم لكن سواء بدل قولهم ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] دون أن يميزوا الباغى من الذى بُغِى عليه ، والصراط هو الطريق المستقيم ، وسواء الصراط يعنى وسطه ، والمعنى : دُلَّنا على

الحق أو عين الحق ، ثم أخذوا فى عرض قضيتهم :

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾

نلحظ فى كلمة (أخى) لَوْناً من التحنين ، فمع وجود الخصومة لكن هو أخى كما فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء] وفى أعنف ألوان العداوة ، وهى الثأر يقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة] يريد أنْ يُحنِّن قلب وليِّ الدم على القاتل .

القضية : ﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص] كلمة نعجة تطلق فى اللغة ثلاثة إطلاقات : أنثى الضأن ، أو الشاة الجبلية ، أو البقرة الوحشية ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : اجعلها لى أكفلها أنا فعندى غنم كثيرة ، فاجعلها ترعى مع غنمى ، فيكفينا راعٍ واحدٌ بدل أنْ تكلف نفسك راعياً لها ، والمعنى أن كفالتها سهلة علىَّ لا تكلفنى شيئاً .

﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : غلبنى بالحجة والجدال ، ومعلوم أن القاضى يحكم بالحجة والبرهان ، وسيدنا رسول الله ﷺ يقول : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، فلعلَّ أحدكم أن يكون ألحنَ بحجته فأقضى له ، فمَنْ قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أُقطع له قطعةً من النار »[1] .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧١٣) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » .

فالمعنى أن أخى غلبنى بحديثه وتمكُّنه من حجته ، وأنا أشعر بالظلم ونفسى غير راضية ؛ لذلك جئتُكَ أرفع أمرى إليك لتحكم فيه ، وهكذا سمع داود - عليه السلام - دَعْوى الأول ولم يسمع الطرف الآخر ، وهذه زلة من زلات القاضى .

لذلك قال أهل المعرفة فى هذه المسألة : إذا جاءك صاحب دَعْوى وقد فُقِئت عينه فلا تحكم له حتى تسمعَ من الآخر ، فلعله قد فُقِئت عيناه .لقد بادر سيدنا داود بالحكم ، فقال :

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٢٥) ﴾

قوله : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ (٢٤) ﴾ [ص] نسب واحداً إلى الظلم ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ (٢٤) ﴾ [ص] أدخل شيئاً فى حيثية الحكم وليس من حيثية الحكم ، فهل لو لم يكُنْ له تسع وتسعون نعجة ، أكان يحلُّ له أنْ يقول لأخيه : اعطنى نعجتك ؟

إذن : هذه المسألة لا دخلَ لها فى القضية لأنه ظالم ، وإنْ لم يكن له تسعة وتسعون . إذن : سيدنا داود أولاً حكم قبل أنْ يسمع من الطرف الآخر ، ثم أدخل فى حيثية الحكم ما ليس له دَخْل فيه ، وهو قوله : ﴿ إِلَىٰ نِعَاجِهِ (٢٤) ﴾ [ص] فربما هم حاقدون عليه أن يكون عنده تسع وتسعون .

وقولـه تعـالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] أى : الشركـاء ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] المعنى : أن هذه القضية ليستْ قضية فذَّة ولا مفردة ، إنما هى ظاهرة كثيرة الحدوث بين الشركاء ، فكثيراً ما يبغى شريكٌ على شريكه ويظلمه مع أنهم ما تشاركوا إلا لمحبة بينهما واتفاق وتفاهم ، لكن هذا كله لا يمنع ميل الإنسان إلى أنْ يظلم ، وما أشبه هؤلاء بالمقامرين تراهم فى الظاهر أحبَّة وأصدقاء ، فى حين أن كلاً منهم حريصَ على أخْذ ما فى جيب الآخر .

ثم يلفتنا الحق سبحانه إلى أن هذه المسألة ليستْ على إطلاقها ، إنما هناك نوع آخر من الشركاء لا يظلم ، فمَنْ هم ؟ هم الذين استثناهم الله بقوله : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] لكنهم قليلون ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] أى : أقلّ من القليل أو قليل جداً .

والنبى ﷺ يحكى عن ربه عز وجل فى الحديث القدسى : « أنا ثَالثُ الشَّريكيْنِ مَالم يخُنْ أحدهما صاحبه ، فإنْ خان خرجتُ من بينهما »[(١)] .

يعنى : إنْ تسَرَّب الظلم والخيانة إلى الشركة خرج الله تعالى منها ، فمُحقَتْ بركتها ، وحَلَّ بها الخراب والخسران .

---

(١) أخرجه أبو داود بهذا اللفظ فى سننه (٣٣٨١) كتاب البيوع . باب فى الشركة عن أبى هريرة . قال شمس الحق فى شرحه (عون العبود ٩/ ١٧٠) « شركة الله تعالى إياهما على الاستعارة ، كأنه تعالى جعل البركة والفضل والربح بمنزلة المال المخلوط ، فسمى ذاته تعالى ثالثهما ، وجعل خيانة الشيطان ومحقه البركة بمنزلة المال المخلوط وجعله ثالثهما » ، أخرجه الدارقطنى فى سننه (كتاب البيوع - حديث ١٣٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه . وفى لفظ أبى حيان التيمى (حديث ١٤٠) : « يد الله على الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خان أحدهما صاحبه رفعها عنهما » .

ثم يقول تعالى مبيناً حال سيدنا داود بعد أنْ مَرَّ بهذه القضية : ﴿ **وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] يعنى : اختبرناه وابتليناه ، وظن هنا بمعنى علم وأيقن ، وكأن الحق سبحانه يُعلِّم داود علم القضاء وأصوله فامتحنه بهذه المسألة ، فكانت بالنسبة له (مطب) فى أمور ثلاثة : **الأول** : أنه خاف وفزع وهو فى حضرة ربه من خَلْق مثله يقبلون عليه ، وظن أنهم سيقتلونه . **الثانى** : أنه حكم للأول قبل أنْ يسمع من الآخر . **الثالث** : أنه أدخل فى حكمه حيثية لا دخلَ لها فى المسألة .

وكلمة ﴿ **فَتَنَّاهُ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] أى : اختبرناه من قولهم : فتن الذهب على النار ليُخلِّصه من العناصر الخبيثة فيه .

فلما علم سيدنا داود بذلك لم يتأبَّ ، إنما استغفر ربه من كل ذلك ﴿ **فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ..** ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] أى : سقط على الأرض سقوطاً لا إرادياً ، والسقوط هنا يناسب السجود لا الركوع ؛ لذلك قال تعالى: ﴿ **يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا** ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء] فكلمة خر أعطتنا المعنيين يعنى : خرَّ ساجداً حالة كونه راكعاً قبل أنْ يسجد ومعنى ﴿ **وَأَنَابَ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] رجع إلى الله بالتوبة .

ثم تأتى النتيجة : ﴿ **فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ** ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص] أى : ما كان منه ﴿ **وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ** ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص] قُرْبَى ومنزلة ، ويكفى أنْ تُسبِّح معه الجبال ، ويُردِّد معه الطير ﴿ **وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص] حُسْن مرجع ومردّ .

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾

كلمة ﴿خَلِيفَةً (٢٦)﴾ [ص] هنا إما خليفة لله فى الأرض خلافة عامة لأن الإنسان كله خليفة لكنه عليه السلام عمدة على الخليفة ، أو خليفة الأنبياء فى حَمْل رسالاتهم إلى الناس ، وما دام هو مستخلفاً فهو موظف إنْ أحسنَ الوظيفة دامتْ له ، وإنْ لم يحسن نُزِعَتْ منه .

فآفة الإنسان أنه إذا ما استجابتْ له الأشياء وطاوعتْه الأسباب يظن أنه صار أصيلاً فى الكون ، ونسى أنه مُسْتخلف غير أصيل ، إنما لو ظَلَّ على ذكْر لخلافته فى الأرض ، وأنه من الممكن أنْ يُعزلَ عن الخلافة فى أيِّ وقت لَظلَّ مؤدباً مع ربه الذى استخلفه : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

وقوله تعالى ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (٢٦)﴾ [ص] يعنى : ما دُمْتَ خليفة لله فى الأرض تعمرها بالأحكام وتقيم فيها الحق ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ (٢٦)﴾ [ص] وهذه نصيحة غالية لكل مَنْ يحكم بين الناس ، فالحق أمامك نبراس يهديك ، فضعْهُ فى موضعه أياً كان ، ولا تتبع هواك لأن الرأى يُفسده الهوى .

لذلك وقف بعض المفكرين أمام قول الله تعالى عن سيدنا رسول الله ﷺ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم]

قالوا : ما دام هو وَحْى يُوحَى ، فلماذا يُعدِّل الله له كما فى قوله سبحانه : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣)﴾ [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ (١)﴾ [التحريم]

وقوله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ (٢)﴾ [عبس]

قالوا : إن الحق سبحانه لا يعدل لرسوله ، إنما يخبر أنه لا هوى له يجعله يميل عند الحكم ، فهو ﷺ يدخل على المسألة بدون هوى ، سواء أكان الأمر من عند الله أو من المفوَّض له أنْ يشرع فيه .

والحق سبحانه حينما أراد أنْ يحدد مهمة رسوله ﷺ حدَّد مهمة كتابه بأنه كتاب مُعجز ، ويحمل أصول المنهج لا فروعه ، وأنه مهيمن على غيره من الكتب السابقة ، لأن الكتب السابقة عليه أثبتَ الله أنها بُدِّلَتْ وحُرِّفت ، فلم يأمن عليها المؤمنين بها كما قال سبحانه : ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة]

ومعنى استحفظوا : طُلب منهم حفظه وحفظ منهجه ، فحفْظ الكتاب المنزَّل كان تكليفاً والتكليف عُرْضة أَنْ يُطاع وأنْ يُعصَى ، وهؤلاء عَصَوْا وبدَّلوا وحرَّفوا ، كما قال الله ﴿وَنَسُوا حَظًّا[1] مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة] والذين لم ينسوا حرَّفوا ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة] ومنهم مَنْ جاء بكلام من عند نفسه ، وأدخله في كلام الله ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران]

إذن : مثل هؤلاء لا يُؤتَمنون على حفظ كتاب الله ، وقد ثبت ذلك بهذه التجربة ، لذلك لم يجعل الحق سبحانه حفْظ القرآن إلى المؤمنين به ، إنما تكفَّل سبحانه بحفظ القرآن ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]

ولأن الحق سبحانه جعل لنبيه محمد هذه المنزلة أراد أنْ يُبينها ،

---

(١) الحظ : النصيب . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص] أى : صاحب نصيب عظيم من الخير . [القاموس القويم ١/١٦١] .

فقال : « مَثَلى ومثَل الأنبياء من قَبْلى كَمَثَل رجل بنى بيتاً فحسَّنه وأجمله ، إلا موضعَ لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هَلاَّ وُضِعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[١] .

والحق سبحانه يُبيِّن منزلة رسوله فى إكمال الأديان ، فيقول ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي .. (٣) ﴾ [المائدة] ليس هذا فحسب ، إنما يعطيه مهمة أخرى ، هى صيانة هذه الأديان به وبالعلماء الذين يخلفون مَنْ بعده ، لذلك قال سبحانه : ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

فالرسول يشهد أنه بلغنا ، وعلينا نحن أنْ نمد رسالة رسول الله ، فنشهد أننا بلغنا الناس من بعده . لذلك يحذرنا رسول الله ﷺ من طائفة تأتى ممَّن لا يؤمنون بسنته يقولون : علينا بكتاب الله فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه .

وحين تتتبع لفظ الطاعة فى القرآن تجد أنه أتى على صور متعددة.

فمرة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (١٢) ﴾ [التغابن] بتكرار الأمر بالطاعة .

ومرة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ (١٣٢) ﴾ [آل عمران] بدون تكرار لفعل الأمر .

ومرة يقول : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ (٢٠) ﴾ [الأنفال]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فتكرار الأمر بالطاعة مـرة لله ومرة لرسول الله حين يكون لله أمر فى القضية الإجمالية مثل الـصلاة مثلاً ، ولرسول الله أمر فى تفصيل كيفية الصلاة . فإنْ توارد أمر رسول الله مع أمر الله جاء الأمرَ واحداً بدون تكرار ، فإنْ كان الأمر خاصاً برسول الله ، ولم يردْ فيه من الله شىء قال : أطيعوا الرسول .

لذلك تلحظ العظمة فى الأداء فى قـوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩)﴾ [النسـاء] ولـم يقل : وأطيعوا أولى الأمر ، لماذا ؟ ليلفتنا إلى أن طاعة أُولى الأمر من باطن طاعة الله ، وطاعـة رسول الله يعنى ليس لهم طاعة خـاصة بهم ؛ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وقوله تعالى ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (٢٦)﴾ [ص]

أى : حكماً عـاماً للناس جمـيعاً ليس خـاصاً بك ، وهنا لا بُدَّ أنْ نذكر قولـه تعالى لنبيه مـحمد ﷺ : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء]

ولهذه الآية قصة ، فقـد نزلت فى كل من زيد بن السمين ، وكان رجلاً أميناً مع أنه يهودى ، وفى قتادة بـن النعمان وطعمة بن أبيرق، فـقد كـان لقـتـادة دِرْع سرقـه ابن أبيـرق واتهم فـيه الـيهـودى ابن السمين ، وبعد استقـصاء الأمر وجدوا الدرع عند ابن أبيرق[1] المسلم وظهرت براءة اليهودى .

---

(١) ذكره ابن حـجر العسقـلانى فى « الإصابة فى تميـيز الصحابة » (ترجـمة رقم ٤٢٣٨) : طعمـة بن أبيـرق بن عمرو الأنصارى . ذكـره أبو إسحاق المـستملى فى الصحـابة وقال : شهـد المشاهد كلهـا إلا بدراً ، وقال أبو مـوسى (أظنه المدينى) : « قد تُـكلم فى إيمان طعمة » .

وهنا أسرع الناس إلى رسول الله حتى لا يحكم على المسلم ، فتكون سبة فى حق المسلمين أمام اليهود ، فتردَّد رسولُ الله فى المسألة ، فأنزل الله عليه : ﴿إِنَّا أنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ (١٠٥)﴾ [النساء] أى : الناس جميعاً اليهود والنصارى والمسلمين وفعلاً حكم رسول الله على المسلم وبرَّأ ساحة اليهودى ولم يُبَال أحد لا رسولُ الله ولا المسلمون بأنْ ينتصر اليهودى على المسلم ؛ لأن الحق أعزُّ من هذا ومن ذاك .

وحين رأى اليهودُ رسولَ الله يحكم لليهودى ويدين المسلم أقبلوا على الإسلام ، وأسلم منهم كثيرون على رأسهم (مخيريق)[1] الذى أعلن إسلامه ، ووهب كل ماله لرسول الله ، ثم خرج للغزو لما أعجله النفير قبل أن يصلى لله ركعة واحدة ، وقُتل (مخيريق) فى هذه الغزوة شهيداً ، فقال رسول الله ﷺ عنه : « نِعْمَ مُخيريق ، دخل الجنة ولم يُصلِّ لله ركعة » .

هذا معنى ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ .. (٢٦)﴾ [ص]

ومعنى ﴿خَلِيفَةً .. (٢٦)﴾ [ص] أن الله استخلفنا جميعاً فى الأرض ، وجعل للمستخلفين خليفة يدبر أمرهم ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بمنهج من استخلف الكُلَّ . أو خليفة للرسل الذين سبقوه يُنبه إلى ما انطمس من مواكب الحق فى الخَلْق ، والحكومة بين الناس

---

(١) هو : مخيريق النضرى الإسرائيلى من بنى النضر ، وقيل : من بنى قينقاع . كان عالماً أسلم واستشهد بأحد . كان أوصى بأمواله للنبى ﷺ فجعلها النبى صدقة . وقال عنه ﷺ : « مخيريق سائق يهود ، وسلمان سائق فارس ، وبلال سائق الحبشة » انظر تمييز الصحابة لابن حجر (ترجمة رقم ٧٨٤٣) .

لا تكون إلا عن اختلاف بينهم ؛ لأنهم لو لم يختلفوا ما تحاكموا ، وما لم يختلف فيه الناس فلا دَخْلَ للحاكم فيه إلا أنْ يكونوا قد اختلفوا مع الحق الأعلى ، فعندها لا بُدَّ أنْ يتدخَّل .

وكلمة ﴿ بِالْحَقِّ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص] الحق يعنى : الشيء الثابت الذى لا يتغير ، وهذا لله تعالى ، أما الإنسان فأموره تتغير ولا تستقر على حال ، ونحن منها أغيار ، لكن الحكم الذى يحكم حركة الإنسان ما دام من الله فهو ثابت لا يتغير ، وما دام الله تعالى قد أتمَّ النعمة وأكمل الدين ورضى الإسلام ، فلا استدراك لأحد عليه فى شىء من الأشياء ؛ لأن الاستدراك طَعْنٌ فى استقصاء الله لحكمة الحكم .

والحق يقابله الباطل ، وقد يعلو الباطل فى بعض الأحيان ، لكن يظل الحق هو الحق حتى يعلوَ فى نهاية المطاف . والحق سبحانه يترك الباطلَ يعلو فى بعض الأحيان لحكمة ، هى أن يعضَّ الباطلُ الناسَ ، ويكويهم بناره لتظهر لهم حلاوة الحق ، فإذا لَذَعهم مُرُّ الباطل فزعوا هم إلى طلب الحق .

إذن : فإنْ عَلاَ الباطل فالحق أعْلَى ، وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً يوضح هذه المسألة ، فقال سبحانه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[1] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

---

(١) أى : لا يُنتفع به ويُلْقى بعيداً ، أو يذهب ضياعاً كالجُفاء . [القاموس القويم ١/ ١٢٤] . والجفاء هو : ما نفاه السيل من الحطام . والجفاء : الباطل أيضاً . [لسان العرب ـ مادة : جفأ] .

إذن : فالحق ثابت ، وبهذا الثباتِ نفهم أن المناهج الإلهية ما جاءت لتجعل كلمة الله هى العليا ، إنما جاءت لتجعلَ كلمة الذين كفروا السفلى ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. (٤٠)﴾ [التوبة] فلم يعطف الثانية على الأولى ، ولم يقل : وكلمة الله هى العليا . لأن كلمة الله ليستْ جعلاً ، وإنما هى شىء ثابت ، وهى حَقٌّ أزلاً .

ثم يقول سبحانه مخاطباً سيدنا داود : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٦)﴾ [ص] الهوى : مَيْلُ النفس إلى شىء تهواه بغَضِّ النظر عن منهج يحكمه ، والهوى يختلف باختلاف الناس ، حتى الأصدقاء الحميمون المتلازمون فى المأكل والمشرب والميول إذا ذهبوا لشراء شىء اشتروا أشياء مختلفة وألواناً متباينة .

نعم ، هناك جامعة تجمعهم هى الصداقة ، لكن الأهواء مختلفة ، فإذا كان هواى يخالف هواك ، فلا بُدَّ أنْ نرجع إلى شىء لا نختلف فيه ، فإنْ كان هذا الشىء الذى لا نختلف فيه من أعلى منّا فلا غضاضة ، الغضاضة تأتى حين تخضع لمن يساويك وتحكّمه ، وتنتهى إلى رأيه .

لذلك الحق سبحانه يحكم هذه المسألة بقوله تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

ونحن نفهم أن اختلاف الأهواء يفسد الحياة على الأرض ، لكن كيف يفسد السماء ؟ ولماذا بدأ بفساد السموات قبل الأرض ؟

قالوا : نعم ، لأن الفساد سيتعدَّى فسادَ الأرض ، ويفسد أيضاً السماء ، بمعنى أنه سيفسد حكم الله المنزَّل من السماء ، وما دام سيفسد حكم الله المنزَّل من السماء وهو الحق ، وهذا فساد سابق

لفساد ما على الأرض .

لذلك لم يقولوا : ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. (٩٢)﴾ [الإسراء] هذا هوى ، ولو أجابهم الله فيما طلبوا لَفسدتْ فعلاً السموات والأرض ، فمن رحمة الله بالخَلْق أنْ عَصَمَ أهواءهم فى المناهج النظرية التى تحكم الناس فيما يختلفون فيه ، أما الشيء الذى لا يُختلف فيه فتركه لكم تربعون فيه كما تشاءون .

فإنْ قلتَ : فلماذا ترك لهم الأمور التى لا اختلاف فيها ؟ نقول : لأنهم سينتهون فيها إلى حَقٍّ واحد مجْمع عليه ، وهذا ما نراه مثلاً فى العلوم المادية التجريبية ، فهى مجال مفتوح للجميع ، الروس مثل الأمريكان ، بل نراهم يجعلون على هذه العلوم حواجز حديدية حتى لا تصل إلى غيرهم ، والبعض يتلصَّص ويسرق ما وصل إليه الآخرون .

إذن : فالشيء الذى سنتفق فيه لا تتدخَّل فيه السماء ، وهذه المسألة حكمها سيدنا رسول الله ، وأعطانا مثالاً فى نفسه ﷺ فى مسألة تأبير[1] النخل ، فلما اقترح عليهم عدم تأبير النخل فسد فى هذا العام ولم يثمر ، فقال ﷺ : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[2] .

لماذا ؟ لأنكم ستصلون بالتجربة إلى شيء واحد ، تتفقون عليه وتسرقونه من الآخرين ، أما فى الأهواء فهى مختلفة من واحد لآخر ، ويحصل منها الصدام باردًا كان أو حاراً .

---

(١) تأبير النخل : تلقيحه وإصلاحه . والنخل لا تُؤَبَّر إلا بعد ظهور ثمرتها وانشقاق طلعها وكوافرها من غضيضها . [لسان العرب ـ مادة : أبر . بتصرف] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٢) من حديث رافع بن خديج أنه قال حين أسقطت النخل ثمرها : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيى فإنما أنا بشر » . وفى حديث أنس (٢٣٦٣) : « أنتم أعلم بأمر دنياكم».

ثم يُبيِّن الحقُّ سبحانه العلَّة من النهى عن اتباع الهوى ، فيقول : ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص] يعنى : لا تتبع الهوى ، لأن اتباع الهوى يُضلّك عن سبيل الله ، وقد أوضح لنا النبى ﷺ هذه المسألة حين خَطَّ للصحابة خطاً مستقيماً ، وخَطَّ حوله خطوطاً متعددة ، ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام]

وتفرُّق السُّبُل ينشأ من الاختلاف مهما كان يسيراً ، (فالمللى) الواحد يُفرِّق السبل ، ولو رسمتَ خطَّيْن من مركز واحد ومال أحدهما عن الآخر (مللى) واحد لـنتج عن ذلك تباعدهما بالتدريج كلما بَعُدَا عن المركز ، أرأيتَ مثلاً المحولجى الذى يقوم بتحويل مسار القطار ماذا يفعل ؟ إنه يحرك طرف القضيب الذى لا يتجاوز سمكه خمسة (مللى) متر ، فينتج عن هذه الحركة تحويل مسار القطار من الإسكندرية إلى أسوان .

وهكذا تتفرق السبل ، وينشأ عن الاختلاف اليسير اختلاف عظيم ، فالتباعدِ الهيِّن البسيط عند المركز ينتج عنه تباعد واسع كلما طالتْ المسافة ، وكما يكون التفرُّق فى السُّبُل المتعددة يكون التفرق كذلك فى الطريق الواحد حين يكون واسعاً يسمح بالتفرق .

فمثلاً الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية طريق واسع من اتجاهين ، ويمكنك أنْ تسير فى أحدهما بطريقة ملتوية تميل مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار ، فينشأ عن ذلك طول الطريق ؛ لذلك قالوا سواء السبيل يعنى : أن تجعل الجانبين على سواء .

ثم يوضح الحق سبحانه عاقبة الضلال والانحراف عن جادة الطريق ، فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا

نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص]

إذن : فالغفلة عن هذا اليوم ونسيان العاقبة هو سبب الوقوع فى العذاب الشديد ، فلو ذكر الإنسانُ الجزاءَ على السيئة ما فعلها ، ولو ذكر ثوابَ الحسنة مَا غفل عنها ، ولا تكاسل عن أدائها .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا(١) ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾

يعنى : ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، بل خلقناهما بالحق ، لذلك تجدها ثابتة لا تتغير ، كما قال سبحانه : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس] ولو كان هذا الخَلْق على غير ذلك لحدثَ صدام فى كل دقيقة وفى كل لحظة بين هذه الأجرام والأفلاك .

ومعنى ﴿ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص] أى : أنهم يظنون أنها خُلقَتْ باطلاً ، ذلك ظَنُّهم وهو مجرد ظن ، ولو جاء الخَلْق كما يظنون ما كان خَلْقاً ، لأن الخَلْق لا بُدَّ أن يكون له غاية عند الخالق قبل أنْ يخلق ، كما قلنا أن الذى اخترع الغسالة أو الثلاجة قبل أنْ يخلقها حدَّدَ لها مهمتها ، لا أنه خلقها. وقال : انظروا فيما تصلح هذه الآلة .

فالذى صنع هو الذى يحدد الغاية ، وهو الذى يضع قانون الصيانة لصناعته . لذلك نقول : إن ضلالَ العالم كله ناشىء من أنهم يريدون أنْ يقننوا بأنفسهم غاية ما صنع الله ، ويريدون أنْ يضعوا

---

(١) الباطل : هو العبث الذى لا فائدة منه ، وهو ضد الحق . ولا خير فيه . [القاموس القويم ١/ ٧٢] .

لخَلْق الله قانون صيانته ، وأنْ يتجاهلوا ما وضع الله ، لا رد الأمر إلى صاحبه كما تفعل فى أمور الدنيا ، فكل صانع أعلم بما يُصلح صَنْعته .

ثم يأتى هذا التهديد : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص] كثيراً ما يُهدِّد الخالق سبحانه خَلْقه بالنار ، ويتوعَّدهم بالعذاب ، والبعض يرى فى ذلك لوناً من القسوة ، والحقيقة أنها لونٌ من ألوان الرحمة لا القسوة ، فمن رحمة الله بنا أنْ يعظم الذنب ، وأنْ يُظهر العقوبة ، ومن رحمته بنا أنْ يضعَ الجزاء قبل أنْ يقع الذنْب ؛ لأنك حين تستحضر الجزاء ترتدع ولا تفعل .

إذن : التهديد والوعيد لحكمة .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه جزاءَ الكافرين فى النار أراد سبحانه أنْ يذكر المقابل ، وبضدِّها تتميز الأشياء ، أراد سبحانه أنْ يعقد لنا هذه المقارنة بين الكافرين والمؤمنين الذين استقاموا على منهج الحق ، وساروا على الصراط ، وسلِم الناسُ من أيديهم ومن ألسنتهم ، وأشاعوا الأمن وأشاعوا المحبة ، كيف إذن نسوِّيهم بالكافرين المفسدين ؟

وفى هذا إشارة من الحق سبحانه كأنه يقول لنا : إياكم أنْ تُسووا بين هؤلاء وهؤلاء ، إياكم أنْ تأخذكم بالمفسدين الظالمين رحمةٌ ؛ لأنكم إنْ رأفتم بهم فقد سوَّيتُم بينهم وبين المؤمنين .

لذلك كنا نردُّ على الشيوعيين ونقول لهم : نعم لقد انتقمتم من خصومكم الرأسماليين والإقطاعيين ، وفعلتم بهم الأفاعيل ، لكن ما بال الذين ماتوا منهم قبل أنْ تدركوهم وتنتقموا منهم ؟ لا شكَّ أنهم ظلموا ثم ذهبوا دون أنْ يُعاقبُوا .

إذن : كان لا بُدَّ أنْ تعترفوا بيوم آخر يُقتصّ فيه من هؤلاء الذين لم يُقتص منهم فى الدنيا ، وإلاَّ سوَّيْنَا بين المحسن والمسيء .

وقال : ﴿ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ .. (٢٨) ﴾ [ص] لأن الله تعالى خلق الأرضَ على هيئة الصلاح ، فإنْ لم تُزِدْها صلاحاً يريح الناس ويسعدهم ، فلا أقلَّ من أنْ تُبقى عليها كما هى لا تفسدها ، وأوجه الإصلاح فى الكون كثيرة ، ومثَّلْنا لذلك ببئر الماء ، إما أنْ تتركه على حال يستفيد منه الناسُ كما هو ، وإما أنْ تزيده حسناً ، كأن تبنى حولَه سوراً يحميه ، أو تجعل عليه آلة لرفع الماء .. الخ .

أما أنْ نلقى فيه بالقاذورات فهذا هو الفساد .

وقلنا : لو دخلت بستاناً أُنُفاً أى : لم يدخلْه أحد قبلك تجده على طبيعته ، لا ترى فيه شجرة كُسِرت ، ولا تشُم فيه رائحة كريهة ، رغم أن فيه حشرات وحيوانات وفضلات .. إلخ لكن إنْ دخلها الإنسان ظهر فيها الخَلَل والفساد ، لماذا ؟

لأنه لا يبقى على الصلاح الذى خلق اللهُ الطبيعة عليه ؛ لأنه دخلها بغير منهج الله ، ولو دخل بمنهج الله لاستقامتْ الأمور .

ثم يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى فيقول : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) ﴾ [ص] الفاجر هو الفاسق الذى يفسق عن القانون الذى يحميه ويحمى المجتمع كما تفسق الرطبة من قشرتها ، والحق

سبحانه قبل أنْ يحمى المجتمع من الفاسق حَمَى الفاسق من المجتمع ، والفاسق واحد ، والمجتمع كثير .

إذن : فالفرد هو المستفيد من منهج الحق وهو الرابح .

وأيضاً ، الإنسان حين تمرّ المسألة بخاصة نفسه يلتفت إلى الحق قَصْراً عنه ، لأنه لن يجد حمايةً إلا فى الحق ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً لطلاب الجامعة قلنا : هَبْ أن ثلاثةً من الشباب فى دور المراهقة اثنان منهم ساروا - كما نقول - على حَلِّ شعرهم . والآخر استقام على المنهج حتى أنهما كانا يسْخران منه ، ويقولان عنه : فلان هذا صللى فلان جردل .. قفل .. إلخ ما نسمع من هذه الكلمات .

وصادف أنْ كان عند أحدهما أخت ، بالله لمن يُزوِّجها ؟ لصاحبه المنحلّ ؟ أم لصاحبه الملتزم المستقيم ؟ لا شكَّ أنه يفضل الثانى ، لأنه يأمنه ويطمئن إليه ، إذن : لا بُدَّ أنْ يظلَّ الحق حقاً ، والفضيلةُ فضيلة ، ولا يمكن أنْ يستوى التَّقىُّ والفاجرُ .

ثم يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ليسليه ؛ لأن قصصَ القرآن جاء تسلية له ﷺ ، وتثبيتاً لفؤاده :

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾

الكتاب هو القرآن ، والمبارك هو الشىء الذى يعطى من الفائدة والخير فوق ما يُتصوَّر منه ، تقول : هذا الشىء نأخذ منه ولا ينقص ، نسميه مبروك كرجل يعيش على راتب محدود ، ومع ذلك تراه يُربِّى أولاده أحسن تربية ويعيش بين الناس عيشة الأغنياء ، فيقولون : إنه

رجل مبارك ، وأن الله يبارك فى راتبه القليل فيصير كثيراً ، لكن كيف يبارك الله في القليل ؟

قالوا : ينزل على القليل ، القناعة أولاً فيرضى صاحبها ، ثم يسلب المصارف فلا ينفق منها إلاَّ فى المفيد ، الناس يظنون أنَّ الرزق هو المال ، ولا يدرون أن سَلْبَ المصارف لونٌ من ألوان الرزق ، وقلنا : إن الرزق رزقُ إيجابٍ بأنْ يزيد الدَّخْل ، ورزقُ سَلْب بأنْ تقلَّ المصارف .

ومثَّلْنا لذلك بالرجل يعيش من الحلال ، وحين يمرض ولده مثلاً يكفيه كوبٌ من الشاى وقرص أسبرين ، أما الذى يعيش من الحرام ويكثُر المال فى يده حين يمرض ولده لا بُدَّ أنْ يذهبَ به إلى أفضل الأطباء ، وينفق على شفائه أضعاف ما يُنفق الأول .

والقرآن مباركٌ ، وآياته مباركة من حيث الأحكام الظاهرية ، لأنه سيربى النفس على استقامة ، هذه الاستقامة لو نظرتَ إليها اقتصادياً تجد أنها لا تُكلِّفك شيئاً ، نعم الاستقامة لا تكلفك ، أمَّا الانحراف فهو الذى يُكلِّف ، لذلك قال ﷺ : « المؤمن يأكل فى مِعَىً واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »[1] .

نعم الكافر يأكل كثيراً ليشبع ، أما المؤمن فتكفيه لُقيمات يُقمْنَ صُلْبه ، ثم هو لا يأكل إلا إذا جاع ، وإذا جاع صار أيُّ طعام بالنسبة له لذيذاً ، ولو كان الخبز الجاف والملح ، لذلك قال العربى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٦٠) (١٨٤) كتاب الأشربة ، من حديث جابر وابن عمر رضى الله عنهما . قال النووى فى شرحه لمسلم : « فى الرواية الأخرى أنه ﷺ قال هذا بعد أن ضافه كافراً فشرب حلابَ سبع شياه ثم أسلم من الغد فشرب حلاب شاة ولم يستتم حلاب الثانية . ومقصود الحديث التقليل من الدنيا والحث على الزهد فيها والقناعة ».

الحكيم : طعام الجائع هنيء . أما الآن فنراهم يجهزون قبل الطعام السَّلَطات والمشَهِّيات والمقبِّلات ، لماذا ؟ ليأكل الإنسان كثيراً ، يأكل حتى التخمة ، ثم بعد ذلك يحتاج إلى المسهِّلات والمهضمات .. إلخ .

وهذا ليس من صفات المؤمن ؛ لأن سيدنا رسول الله وضع لنا المنهج فى ذلك ، فقال : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »(١) فهذا المنهج يراعى الناحية الاقتصادية ، ويوفر الخير والسعادة للكل : اقتصادياً ، واجتماعياً ، وسياسياً ، وأمنياً بدون تكلفة.

ثم إن القرآن مُبَاركٌ من ناحية أخرى ، فحين تتفاعل مع المنهج ، وحين تعشقه يُبيِّن لك الحق سبحانه ألواناً من الأسرار يتعجَّب منها غيرك ، ويفتح عليك فُتُوحات عجيبة ، ألم يتعجَّبْ موسى - عليه السلام - وهو نبىّ الله من عمل العبد الصالح ، والعبد الصالح عبد الله على منهج موسى ، ومع ذلك أمر الله موسى أنْ يتبعَ العبد الصالح ، وأن يتعلَّم منه ، لكن يتبعه بإخلاص وبعشق ، فلما اتبعه موسى بعشق وإخلاص تعلَّم منه الأعاجيب ، وهذا المعنى ورد فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾ [الأنفال]

الفرقان هنا ليس هو القرآن ، بل هو فرقانٌ خاصٌّ لمن يتبع الفرقان الأول وهو القرآن ، ويصل به إلى درجة التقوى ، يعطيه الحق سبحانه فرقاناً خاصاً لأنه اتبع القرآن بإخلاص وبعشق .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) من حديث المقدام بن معد يكرب عن رسول الله : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان ولا بُدَّ فاعلاً ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

ومعنى ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ .. (٢٩)﴾ [ص] والتدبُّر هو ألاَّ ننظر إلى الوسيلة نظرةً سطحية ، إنما ننظر بتفكُّر وتمعُّن وحساب للعاقبة ، ننظر إلى الخلفيات واللوازم لنستنبط ما فى الشىء من العِبَر ، لذلك لما خرقَ الخضْر السفينة اعترض موسى ؛ لأنه نظر إلى سطحية المسألة والمَنطق . يقول : إن السفينة السليمة أفضل من المعيبة ، إنما للعبد الصالح مقياسٌ آخر ، فهو لا يقارن بين سفينة سليمة وأخرى مخروقة ، إنما يُقارن بين سفينة مخروقة ولا سفينة أصلاً أيهما أفضل ؟ لأن الرجل الظالم كان سيأخذ السفينة ، إنْ كانت سليمة فَخُرقها هو الذى نجَّاها من هذا الظالم ، وبقيتْ السفينةُ لأصحابها ، هذا هو علم الملكوتيات والغيبيات التى يفيض الله بها على مَنْ يشاء من عباده الذين أخلصوا له سبحانه .

وقوله : ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩)﴾ [ص] أى : أصحاب العقول الواعية ، وتأمل هنا أن الحق سبحانه يُنبِّه العقول ، ويُحرِّك الفهم إلى تأمُّل آياته فى الكون ، والمقابل لك أو الذى بينك وبينه صفقة لا ينبهك إليها ، إلا لأنه واثق أنك ستُقبل عليها وإلا أخفاها ودلَّسَ عليك ، كالذى يبيع لك سلعة جيدة تراه يشرح لك مزاياها ، ويدعوك إلى اختبارها ، والتأكد من جودتها ويُنبِّه عقلك إلى ما خَفِى عنك منها .

أما صاحب السلعة الرديئة فإنه يصرف نظرك عن عيوبها ، ويشغل عقلك بأمور أخرى ، حتى لا تتنبه إلى عيوب السلعة ، فمثلاً تدخل المحل لشراء حذاء مثلاً ، فإنْ كان ضيقاً يقول لك البائع : إنه يتسع بالمشى فيه ، وإنْ كان واسعاً سبقك هو بقول : أنا أرى أنه ضيق عليك قليلاً ، المهم عنده أن (يلف) عقلك حتى تشتريه .

فالحق - سبحانه وتعالى - يدعونا إلى تأمُّل آياته وتدبُّرها

والبحث فيها ، لأنه سبحانه واثق أننا حين ننظر وحين نبحث ونتأمل سنقتنع بها ، وسنصل من خلالها إلى الحق والصواب . ومع ذلك نرى البعض يقف أمام بعض المسائل الدينية يقول : هذه مسألة فوق البحث ولا عملَ للعقل فيها ، ونقول : لكن أمرنا بالتدبُّر والتفكّر والتأمّل فى الكون ، فلا مانع أنْ نبحث .

ثم يعود بنا السياق القرآنى مرة أخرى إلى سيدنا داود ، لا ليقصَّ علينا قصته ، إنما لأنه سيكون أباً لنبى آخر ، هو سيدنا سليمان عليهما السلام :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ[1] الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾

من عجائب السياق القرآنى فى ذكر داود وسليمان أنهما يشتركان فى مسألة واحدة ، فلو نظرتَ إلى أول آية ذكرت سيدنا داود تجدها فى سورة البقرة فى قوله تعالى : **﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ .. (٢٥١) ﴾** [البقرة]

وآخر ذكر له هنا فى سورة (ص) : **﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ .. (٣٠) ﴾** [ص]

كذلك أول ذكْر لسيدنا سليمان ورد فى سورة البقرة فى قوله تعالى : **﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ .. (١٠٢) ﴾** [البقرة]

---

(١) صفن الجواد : قام على ثلاث أرجل وثنى الرابعة . وقد يراد به مطلق القيام والاصطفاف .

وآخر ذكر له في سورة (ص) في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ص]

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص] الوهْب : عطاءٌ بلا مقابل ، فإنْ قُلْتَ : فالإنجاب كله يُعَدُّ عطاءً بلا مقابل ، نعم لكن الخالق سبحانه يهبك ذاتاً ، ثم يزيد عليها هبة أخرى هي الصفات التي تتوفر للذات ، مثل : الملك والحكمة وغيرها ؛ لذلك الذين يطلبون الأشياء على غير مَظانِّها من الأسباب يطلبونها بالهبة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص]

وقوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم]

فسيدنا زكريا حين طلب من الله الولد كان شيخاً كبيراً ، وكانت امرأته عاقراً ، فالأسباب كلها ليست مُواتية وليست صالحة للإنجاب ، لذلك طلبها على سبيل الهبة من الله ، لا بالقانون والأسباب . وإنْ كانت الأسبابُ في ذاتها هبةً إلا أنها هبة عامة ، لكن ما يلحق الذات من الصفات الخاصة تُعَدُّ هبة خاصة .

وقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص] نعرف أن نِعْم تُقَالُ للمدح ، والمدح هنا بالصفة العقدية ، وهي العبودية لله تعالى . وسبق أنْ قلنا : إن كلمة عبد وعبودية كلمة ممقوتة عند الناس ولهم الحق في مَقْتها ، لأن العبودية للبشر يأخذ فيها السيدُ خَيْر عبده ، لكن العبودية لله تعالى يأخذ العبد من خير سيده ، فهذه هي العبودية الحقة التي تُعَدُّ عِزاً للعبد ورفعة .

لذلك لما تجلى الحق سبحانه على نبيه محمد ﷺ بنعمة الإسراء والمعراج ، قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] فكأن

عبوديته لربه هى التى أوصلتْه إلى هذه المنزلة .

لذلك - ولله المثل الأعلى - الرجل صاحب الصنعة (أسطى) أو معلم وتحت يده صبيان ، يُقرِّب منهم المخلص الذى يُحسن صنعته ، ويجيد الخضوع له والطاعة والخدمة ، لذلك يختصه بمواهبه ، ولا يضنُّ عليه بخفايا الصَّنْعة ودقائقها ، ويعطيه خصوصيات لا يعطيها لغيره .

ومع أنه - عليه السلام - كان ملَكاً إلا أن ربه مدحه بصفة العبودية ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ .. ٣٠ ﴾ [ص] ثم بيَّن لنا مَناط المدح بالعبودية ، فقال ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ٣٠ ﴾ [ص] يعنى : رجَّاع إلى الله إنْ هفت نفسه هفوة أنَّبَ نفسه عليها ، ورجع إلى ربه ، ويتوب إليه ، لذلك يقول تعالى فى بيان التوبة : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. ١٧ ﴾ [النساء]

معنى ﴿ بِجَهَالَةٍ .. ١٧ ﴾ [النساء] يعنى : لم يخطط لها ولم يرتب للمعصية ، وإذا حدثتْ منه لا يفرح بها ولا يجاهر ، بل يحزن ويلوم نفسه ﴿ فَأُوْلَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨ ﴾ [النساء]

وضربنا مثلاً لهذين النوعين بطلاب العلم الذين كانوا يسافرون فى بعثات علمية إلى فرنسا ، فكان منهم المستقيم الملتزم بمنهج الله، لكن تفاجئه إحدى الفتيات المنحرفات ليلاً ، وتعرض نفسها عليه ، وتظل تغريه حتى يرتكبَ معها الفاحشة ، هذا فعلها بجهالة ودون قَصْد أو تدبير ، على خلاف الآخر الذى يسعى إلى الفاحشة ويتتبع عناوين أصحابها ، وهذا هو الذى يقصد المعصية ويسعى إليها .

وكلمة ﴿ أَوَّابٌ ٣٠ ﴾ [ص] يعنى : كثير الأَوْبة والرجوع ، فهى

صيغة مبالغة بمعنى رجَّاع إلى الحق ، فهو لم يفرح بالمعصية ، وإنما ندم عليها وتدارك خطأه وصوَّب طريقه ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) ﴾ [ص]

العشيّ : ما بعد الظهر إلى المغرب ، وعرض عليه مثل العرض العسكرى الذى يستعرض فيه القائد جنوده وقواته . ومعنى ﴿ الصَّافِنَاتُ .. (٣١) ﴾ [ص] جمع صَافِن ، وهو الجَواد العريق الأصيل ، وتستطيع أنْ تلاحظ الجواد الأصيل من وقفته ، فهو لا يقف على أربع ، إنما على ثلاث فى رشاقة ، وكأنه على أُهْبة الاستعداد .

ومعنى ﴿ الْجِيَادُ (٣١) ﴾ جمع : جَوَاد وهو القوى السريع ، فلما عُرِضَتْ على سيدنا سليمان الصافناتُ الجيادُ من خَيْله وقواته ، قال ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) ﴾ [ص] قالوا : الخير هنا يُرَاد به الخيل ؛ لأن النبى ﷺ قال : « الخيل مَعْقُود بنواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة »[1] .

وقال : « خَيْر ما ربيت فرس تُمسك عَنَانه ، حتى تسمع كل صيحة تطير إليها »[2] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٩٨٧) كتاب الزكاة (رواية ٢٦) أن رسول الله قال : « الخيل فى نواصيها - أو قال : الخيل معقود فى نواصيها - الخير إلى يوم القيامة » من حديث أبى هريرة . وأخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٥٠) من حديث عروة بن الجعد .

(٢) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « من خير معاش الناس لهم ، رجل ممسك عناق فرسه فى سبيل الله ، يطير على متنه ، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه ، يبتغى القتل والموت مظانَّهُ ، أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف ، أو بطن واد من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا فى خير » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٨٩) كتاب الإمارة - باب فضل الجهاد والرباط (١٢٥) ، وكذا ابن ماجه فى سننه (٣٩٧٧) كتاب الفتن - باب العزلة بنحوه .

لذلك لما أمرنا ربنا أنْ نستعدَّ لأعداء الدين والمنهج ، قال : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ .. (٦٠)﴾ [الأنفال] أى : قوة عامة . ثم خَصَّ الخيل ، فقال : ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. (٦٠)﴾ [الأنفال]

فلما عُرِضَتْ الخيل على سليمان قال ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي .. (٣٢)﴾ [ص] يعنى : حباً ليس للتباهى والخيلاء ، كالذين يُربُّون الخيل للمظهر ودخول السباق وذياع الصيت ، إنما أحببتها حباً صادراً عن ذِكْر ربى وذكر منهج ربى ، الذى أمر بإعداد الخيل والرباط والقوة التى تستطيع أنْ تفرض منهج الله فى الأرض .

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ [ص] الفاعل هنا مستتر ، والفاعل حين يأتى مستتراً لابد أنْ يكون له مرجع كما تقول : جاءنى رجل فأكرمتهُ يعنى : أكرمتُ الرجل المذكور .

وقوله : ﴿تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ [ص] مشهود فى الشمس حين تغيب ، فالمعنى حتى توارت الشمس وغابت .

وقالوا[1] : إنه فاتته صلاة العشى لانشغاله باستعراض الخيل ، فلما فاتَتْه الصلاة ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ .. (٣٣)﴾ أى : الخيل ، أرجعوها إلىَّ ﴿فَطَفِقَ .. (٣٣)﴾ شرع ﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾ [ص]

---

(١) قاله الحسن البصرى والكلبى ومقاتل ، وقال القشيرى : قيل ما كان فى ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر ، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٨٣٧/٨] وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن على رضى الله عنه قال : الصلاة التى فرَّط فيها سليمان عليه السلام صلاة العصر . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٧٧/٧] .

يعنى : يمسح على سُوق الخيل وأعناقها دلالةً على إكرامها والاهتمام بها ، وخصَّ السُّوق والأعناق من الخيل لأنها أكرمُ ما فيها ، فالأعناق بها الأعراف ، والسُّوق أداة الحَمْل والجرى ، والمعنى أنه سُرَّ منها فمسح بيده على السُّوق والأعناق .

بعض المفسرين[1] لهم رأى آخر ، قالوا : المسح هنا يُراد به أنه أراد قَتْلها وذبْحها ؛ لأنها أَلْهَتْهُ عن الصلاة ، وهذا الكلام أقربُ إلى الإسرائيليات ؛ لأن الخيل لم تشغله ، بل هو الذى شغلها وشغل الدنيا كلها من حوله ، فما ذنب الخيل ؟

والعجيب أن فى الإسرائيليات أشياء كثيرة تقدح فى نبوة الأنبياء فى بنى إسرائيل ، وكثيراً ما نراهم يتهمون أنبياءهم بما لا يليق أبداً بالأنبياء ، والعلة فى ذلك أن الذى يسرف على نفسه وهو تابع لدين يريد أنْ يلتمس فيمن جاءه بهذا الدين شيئاً من النقيصة ليبرر إسرافه هو على نفسه ، من هنا اتهموا أنبياءهم وخاضوا فى أعراضهم .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا[2] ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾

---

(١) فى هذا الأمر قولان :
- جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها . قاله ابن عباس . أخرجه ابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم .
- قطع سوقها وأعناقها بالسيف . قاله أُبىّ بن كعب . أخرجه الطبرانى فى الأوسط والإسماعيلى فى معجمه وابن مردويه بسند حسن .

وفى المسألة تفصيل ، انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤) ، والقرطبى (٨/ ٥٨٣٧ - ٥٨٤٠) .

(٢) أكثر المفسرين على أن هذا الجسد هو شيطان ألقى الله شبه سليمان عليه واسمه صخر بن حرب صاحب البحر . قال ابن عباس : كان مارداً لا يقوى عليه جميع الشياطين ، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٨٤١) . وراجع مناقشته لباقى الأقوال (٨/ ٥٨٤١ - ٥٨٤٥) . وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣٤) أن القائلين بهذا القول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم . وقد روى فى هذه القصة روايات كثيرة مطولة ، قال ابن كثير : « أرى هذه كلها من الإسرائيليات » .

الفتنة معناها الاختبار ، والفتنة فى ذاتها ليست مكروهة ، إنما المكروه أنْ تُخفق فيها وتفشل فى خوضها ، فماذا عليك لو فتناك . يعنى : اختبرناك ونجحتَ فى الاختبار ؟ وأصل الفتنة من فتنة الذهب لتنقيته ، فالذهب منه المخلوط بمواد أخرى ، ونريده ذهباً إبريزاً صافياً فماذا نفعل ؟ نصهر الذهب فى النار ليخرج منه الخبث إلى أن يصير خالصاً نقياً ، كذلك تفعل الفتنة بالناس تمحِّصهم لتبين الجيد من الردئ . وقد فتن الله سليمان كما فتن من قَبْل أباه داود - عليهما السلام - فى مسألة المحراب .

ومعنى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤) ﴾ [ص] الكرسى هو العرش الذى يجلس عليه الملك ، والجسد هو قالب الكائن الحى . ويقال لهذا القالب (جسد) إذا كان خالياً من الروح ، وللمفسرين فى هذه الآية عدة أقوال :

قالوا : إن سيدنا داود كان له ولد آخر غير سليمان ، إلا أنه كان ولداً فاسداً مثل ولد نوح ، فاحتال هذا الولدُ وقام بانقلاب على سليمان ، حتى أخذ المُلْكَ منه ، وظل ملكاً مدة طويلة ، فلما أراد الحق سبحانه أنْ يعيد سليمان إلى مُلْكه ألقى هذا الولد الفاسد على كرسى عرشه جسداً هامداً لا حركة فيه ، يعنى : بعد أنْ كان ملكاً مُطاعاً مُسيطراً صار لا يسيطر حتى على نفسه وجوارحه . بعد ذلك خرجتْ عليه رعيته فقتلوه ، وجاء بعده سليمان .

وقالوا : إن سيدنا سليمان كان لديه جَوارٍ كثيرات . فقال : سأطوف الليلة على سبعين جارية ، وآت من كل واحدة بولد فارس

يركب فرسه فـى سبيل الله[1] ، يعنى : المسألة كلهـا كانت فى الخير وفى الله ، إلا أنه لم يقـدم المشيـئة ولم يقُلْ : إنْ شـاء الله ، فلم تَلدْ منهن إلا جارية واحدة ، ولـدتْ له جسداً لا حركةَ فـيه ولا تصرُّفَ ؛ لأن المـؤمن مُطالب بأنْ يقـدم مـشـيـئـة الله إذا عـزم على شىء فى المستقبل ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

لأنك حين تقـول : سأفعل غداً كـذا وكذا ، فقـد حكمتَ على فعل لا تملك عنصراً واحـداً من عناصره ، فأنت لا تضمن بقـاء نفسك إلى أنْ تفعل ، ولا تضمن تغيُّر الأحوال وتغيُّر الأسباب ، فحين تعلِّق فعلَك على مشـيئة الله إنمـا تحفظ كرامـتك وتبرىء نفسك من الكذب ، فـقد شئتَ ولكن الله لم يَشَأْ .

ويبـدو أن المُلْكَ أغـرى سليمـان ، فـداخله شىء من الزَّهْو ؛ لأنه متحكم فى عوالم الإنس والجن والطير والحيوان ومُطَاع من الكون كله من حوله ، لذلك لم يقُلْ إنْ شاء الله ، فجازاه الله بذلك .

وقال آخرون[2] : إن سليمـان ـ عليه السـلام ـ أنجب ولداً ، وأن

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٨٢/٧) ، قال : قال ابن سعد : أخبرنا الواقدى حدثنا معـشر عن المـقبرى : إن سليـمان بن داود قال : لأطـوفن الليلة بمائة امـرأة من نسائى ، فتأتى كـل امرأة منهن بفارس يجاهد فى سـبيل الله ولم يَسْتَثن ولو اسـتثنى لكان ، فطاف على مائة امرأة فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، حملت بشق إنسان .

(٢) ذكر القرطبى هذا القـول فى تفسيره (٥٨٤٣/٨) وعزاه للشعبى ، ومـحصله أنه لما وُلد ولدٌ لسليمان اجـتمعت الشياطين وقـالوا : إنْ عاش له ابن لم ننفك مما نحن فـيه من البلاء والسخرة ، فـتعالوا نقتـل ولده أو نخبله . فعلم سليمـان بذلك فأمر الريح حتى حـملته إلى السحـاب ، وغدا ابنه فـى السحاب خـوفاً من مضرة الشـياطين ، فـعاقـبه الله بخـوفه من الشياطين ، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتاً .

الجن أرادتْ به سوءاً ؛ لأنها خافت أنْ يفعل بها كما يفعل سليمان ، فأرادوا قتله ، فما كان من سليمان إلا أنْ رفعه فوق السحاب يرضع من المزْن ، فكأنه ـ عليه السلام ـ أراد أنْ يفر من قدر الله .

وقالوا[1] : إن الجسد هو سليمان نفسه ؛ لأن الإنسان العادى ، جعله الله يتحكَّم فى جوارح نفسه حين يريد اللهُ ذلك ، فيقوم بمجرد أنْ يريد القيام ، ويتحرك بمجرد أنْ يريدَ الحركةَ دون أنْ يعرفَ هو نفسه ماذا يجرى فى أعضائه ومفاصله ، فكأن الله تعالى يعطى الإنسان مثلاً فى نفسه ؛ ليقرب له المسائل المتعلقة بالحق فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

فإذا كنتَ أنت أيها المخلوق تفعل ما تشاء ، وتنفعل لك جوارحك وتطاوعك بمجرد الإرادة ، ودون أنْ تأمرها بشىء فهل تستبعد هذا فى حقِّ الخالق سبحانه ، حين يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]

إن الحق سبحانه يقول للشىء : كُنْ . أما أنت فلا تقول : كُنْ وقد أراحك الله منها ، وجعل الأعضاء تطاوعك دون أمر منك ، لأنك لو أمرتَها ما استجابتْ لك ، هى تستجيب للخالق سبحانه ، فإذا أراد الخالق سبحانه سلبك هذه القدرة ، فتريد أنْ تحرك يدك فلا تستطيع؛ لينبهك إلى أنها موهوبة لك ، ليستْ ذاتية فيك .

الحق سبحانه وهب سيدنا سليمان القدرةَ على السيطرة على جوارح ذاته ، ثم عدَّى هذه القدرة إلى السيطرة على الآخرين من جنسه ومن غير جنسه ، وجعل له سيطرةً على الكون كله ، ينفعل له

---

(١) ذكر هذا القول القرطبى فى تفسيره (٨/٥٨٤٤) ولم يعزه لقائل : « قيل : إن الجسد كان سليمان نفسه ، وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً . وقد يُوصف به المريض المضنى . فيقال : كالجسد الملقى » .

ويجاوبه ، يعنى : المسألةُ كانت استعلاءً فى التسلُّط والسيطرة على جنود الله .

ويبدو أن سليمان - عليه السلام - داخله شىء فى نفسه ، فأراد الحق سبحانه أنْ يلفته إلى أن هذه القدرة ليستْ ذاتية فيك ، إنما هى موهوبة لك ، أسلبها حين أشاء ، فلا تستطيع السيطرة على جوارحك ولا السيطرة على الآخرين ، وألقاه الله فترة جسداً على كرسيه لا يقدر على شىء ، ولا يأمر بشىء .

فما دامتْ هذه النعمة موهوبةً من الله الذى أعطاك مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعدك ، فلا بُدَّ أنْ تظل مُتمسِّكاً بحبله ، لاجئاً دائماً إلى مَنْ ملَّكَكَ هذا الملْكَ .

لذلك ، يُرْوَى أنه - عليه السلام - ركب مرة البساط ، وسارتْ به الريح كما يشاء ، وفجأة مال به البساط ، وكاد أنْ يُوقعه فأمره أنْ يستوى به . فقال له البساط : أُمِرْنَا أنْ نطيعك ما أطعْتَ الله .

إذن : فتناه لأننا ملَّكناه مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، لكن لا نريد له أنْ يطغى أو يتعالى ، والحق سبحانه لا يكذب كلامه ، وقد قال سبحانه : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

وسليمان - عليه السلام - إنسان ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُثبت لنا أن الإنسان تملّك فى جوارحه ، وتملَّك فيمن حوله ، وتملَّك فى جنس آخر غير جنسه ، لكن هذا كله ليس ذاتياً فيه ، بل هو موهوب له ؛ بدليل أن الله سلبه هذا المُلْك فى لحظة ما ، وألقاه على كُرسيه جسداً لا أمرَ له ولا نهىَ ولا سلطانَ على شىء .

فلما فهم سليمان المسألة آبَ ورجع ﴿ ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) ﴾[ص] يعنى :

رجع إلى ما كان عليه قبل التجربة التى مَرَّ بها .

يعنى : رجع وعاد إلى الجسد الذى فيه روح ، أو أناب ورجع إلى الله وعرف السبب فالمعنى يحتمل المعنيين : أناب فى السبب ، أو أناب فى المسبب . والجسد هو الجِرْم والهيكل الظاهرى الذى لا روحَ فيه ، والذى قال الله عنه ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر] أى : الجسد ، ومنه قوله تعالى فى قصة السامرى : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [طه] يعنى : هيكل العجل وصورته الظاهرية ، لكن بدون روح .

فإنْ قُلْتَ : فهل يحدث هذا من الرسل ؟ يعنى : هل يخطىء الرسول ويُصحِّح له ؟ نعم ، العيب أنْ يصحح لك المسَاوى لك ، إنما ليس عيباً أنْ يصحح لك الأعلى ، فماذا فيها إنْ كان الذى يُصحِّح لسليمان ربه عز وجل لا أنت . إذن : من الشرف أنَّ الله يُعدِّل لسليمان ، لذلك لما عَدَّلَ الحق سبحانه الحكم لنبيه محمد ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. ﴿١﴾ ﴾ [التحريم]

وقال : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [عبس] فهل استنكف رسول الله أنْ يُعدِّل له ربه ؟ لا لم يستنكف بدليل أنه ﷺ هو الذى أبلغ هذا التعديل وأخبرنا به ، وأنا لا أخبر إلا بما فيه شَرَفٌ لى .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾

هذه الآية تعطينا لقطةً من لقطات قصة سيدنا سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ولسيدنا سليمان فى قَصَصه لقطات متعددة ، كل

لقطة تمثل عبرةً من العبر ، وعظةً من العظات ، وموقفاً من مواقف سيدنا سليمان فى أمر دعوته . وأول لقطة فى القصة مع أبيه داود ـ عليه السلام ـ حينما حكم فى الحرث أى : الزرع ، وكان الزرع لرجل فجاءت غنم رجل آخر فأكلت الزرع ، وقد حكى لنا الحق سبحانه قصة الحكم الذى حكمه داود ، والأمر الذى انتهى إليه الحكم من استدراك على حكم داود من كلام ولده سليمان .

وصوَّبَ الله الحكمين ، وقال سبحانه : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

معنى ﴿ نَفَشَتْ فِيهِ .. (٧٨) ﴾ [الأنبياء] يعنى : انتشرت فيه الغنم وأكلته ، فلمَّا عُرِض الأمر على داود قضى بأنْ يأخذَ صاحبُ الزرع الغنَم .

فلما علم سليمان بهذا الحكم ردَّه . وقال : بل نعطى الأرض لصاحب الغنم ليزرعها حتى تعود كما كانت ، ونعطى الغنم لصاحب الأرض يستفيد منها ، ثم يعود كل حَقٍّ إلى صاحبه ، فكأن الله تعالى ألهم سليمان صحة الحكم ليستدرك على أبيه داود ، فانظر كيف كانت قداسة كلمة السماء مع كلمة أهل الأرض ، وبعد ذلك صوَّب الله تعالى الحكمين ، وقال ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

إذن : فاستدراك هيئة تحكم على هيئة حكمت ليس عيباً فى الأولى ، وإنما هذا فهم فَهْماً حكم بمقتضاه ، وذاك فَهِم فَهْماً آخر حكم بمقتضاه ، لذلك نجد فى المحاكم الحكم الابتدائى والاستئنافى ، وبعد ذلك حكم النقض ، فهل حكم الاستئناف يطعن فى الحكم الابتدائى ، أو حكم النقض يطعن فى حكم الاستئناف ؟ لا ، لأن

الحكم الأعلى يراعى شيئاً فاتَ صاحب الحكم الأدنى ، فلا غضاضةَ فى هذا .

ونحن حين نستعرض القصة نجد المفسرين لم يُظهروا لنا حجة داود فى الحكم الذى قضى به ، ولا حجة سليمان فى الحكم الذى قضى به ، وبالاستقراء . قلنا : الزرع قديماً لم يكُنْ فى أرض محكرة مملوكة للناس ، إنما كانت الأرض على المشاع ، ففى أى مكان تبذر الحب وتسقيه السماء حتى يثمر فتأخذ ثمره دون أنْ تمتلك أرضه ، يعنى : من سبق إلى أيِّ حقل زرعه .

إذن : الملكية كانت للزرع فحسب لا للأرض ، فعلى هذا قام حكم سيدنا داود ، وما دامت الأرض ليست مملوكة لصاحب الزرع فالمسألة زرع وغنم . أما سيدنا سليمان فرأى أن الزرع يمثل كما نقول وَضْع يد على الأرض ، ووَضْع اليد يبيح الملكية ، فأبقى لصاحب الملك ملكه فى الأرض ، فحكم بأنْ يأخذ صاحبُ الأرض الغنم ينتفع بها وأن يأخذ صاحب الغنم الأرض يزرعها إلى أنْ تعود كما كانت ، ثم يأخذ كل منهما ماله .

إذن : كان لكل منهما ملْحظ ، وبناءً عليه حكم لذلك ؛ فقال تعالى فى حقهما : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

اللقطة الأخرى هى الفتنة التى وقعتْ لسيدنا سليمان ، وقلنا : إن الأصل فى كلمة الفتنة هى صَهْر المعدن وإحراقه فى النار ليخرج منه الخَبَث والشوائب ، فيصير نقياً وتزداد صلابته ، ثم أُطلقَتْ الفتنة على مطلق الامتحان الذى يُميِّز الجيد من الردئ فى البشر ، فهى بمعنى الابتلاء .

ولو نظرتَ إلى الفتنة لوجدتها شائعة فى خَلْق الله جميعاً ، فكل واحد من الخَلْق فاتن ومفتون ، بمعنى أن الغنى فتنة للفقير ، والفقير

فتنة وابتلاء للغنى ، فالغنى يُبتلَى بالفقير ، أيضنّ عليه بالنعمة أم يعطيه منها ؟ أيحتقره لفقره أم يحترم قدر الله فيه ؟

كذلك يبتلى الفقير بالغنى ، أيحسده لغناه ويعترض على قدر الله بالفقر ؟ أم يصبر ويتمنى الزيادة لغيره . كذلك الحال فى القوى والضعيف ، وفى الصحيح والسقيم ، وفى الجاهل والمتعلم .. إلخ ، إذن : كلٌّ منَّا فاتنٌ ومفتون ، المهم مَنْ يفوز ، ومن ينجح فى هذا الابتلاء ؟

وهذا المعنى أوضحه الحق سبحانه فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] قالوا : كلمة بعض هنا ليست تحديداً لشخص بعينه ، إنما هى جزء من كل مُتساو ، لكن مُبْهم فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فأيُّنا مرفوع وأيُّنا مرفوع عليه ؟ قالوا : كل منَّا مرفوع فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر ، فالناس كلهم إذن سواء ، أنت لك مجال تجيده وتبدع فيه ، فأنت مرفوع فى هذا المجال ، ولك مجال آخر لا تجيده ولا تعرف فيه شيئاً ، فغيرك مرفوع عليك فيه ، لأنه يُجيد ما لا تجيده أنت .

وهذه المسألة تأتى من استطراق المواهب فى الخَلْق ، لأنهم جميعاً عباد الله ، وليس منهم مَنْ هو ابن الله ، ولا مَنْ بينه وبين الله قرابة أو نسب ، لذلك نثر الحق سبحانه فضله على عباده جميعاً ، ووزَّع بينهم المواهب بالتساوى ؛ لأن الله تعالى لو جعل إنساناً مجمعَ خير وفضائل ما احتاجَ أحدٌ إلى أحد .

والله يريد للعباد أن تتشابك أيديهم ، وأنْ يتعاونوا فى حركة

الحياة ، فالقوى يحتاج للضعيف ، والضعيف يحتاج للقوى ، العَالم يحتاج للجاهل ، والجاهل يحتاج للمتعلم . وهكذا يرتبط الناس ارتباطَ حاجةٍ ، لا ارتباطَ تفضُّل .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالباشا أو العظيم الذى يعود من عمله ، فيجد مجارى البيت مسدودة ، ويشم فى بيته رائحة كريهة ، فيسرع إلى عامل المجارى لينقذ الموقف ، وربما ركب سيارته وذهب إليه فى مكان عمله ، بل وترجاه أنْ يأتى معه ، فالعامل فى هذه الحالة مرفوع ، والباشا مرفوع عليه .

وأذكر زمان عندنا فى ميت غمر فى (بورصة) مقهى اسمها (باباه) ، العمال هناك عملوا ثورة وقالوا : لا يصح أن العامل يخدم غيره ، ولا يصح أنْ يمسح أحذية الخَلْق ، لماذا يا ناس ؟ قالوا : لأن فى ذلك مهانةً ومَذَّلةً فقلنا لهم : إذن نمسح نحن لأنفسنا ، وفعلاً عملنا إضراباً واشترى كل منا علبة ورنيش ، وصار يمسح الحذاء لنفسه ، وبعد فترة جاء هؤلاء إلى البورصة وضَجُّوا من البطالة وقِلَّة الرزق ، وراحوا يرجُونَ الناس العودة إلى ما كانوا عليه .

بعدها ناقشناهم . وقال بعض الإخوان لأحدهم : بالله أنت حين تسألنى سؤالاً وأجيبك عليه : هل آخذ منك جُعْلاً على الإجابة ؟ قال : لا ، قال : لو عرفت كم كلفنى هذا الجواب من عمرى وجدِّى واجتهادى ، ومن تعب أهلى فى تربيتى لعرفت أننى كنتُ أيامها مُسخّراً لك كما أنك مُسخَّر لى الآن ، لكنكم نظرتُمْ لنا فى وقت راحتنا ، ونظرتم إلى أنفسكم وقت عملكم ، إذن : القسمة متساوية وكُلٌّ منا مُسخَّر للآخر ، والمسألة ليس فيها إهانة ولا مَذَّلة ، بل هو التكامل فى حركة الحياة .

لذلك قال الحق سبحانه بعدها : ﴿ أَتَصْبِرُونَ.. (٢٠) ﴾ [الفرقان]

يعنى : أتصبرون على فتنة بعضكم ببعض ، حتى الرسل فُتنوا بالكفار يؤذونهم ويضطهدونهم ، وفُتن الكفار بالرسل .

إذن : من النعم أن الله تعالى وزَّع المواهب في الكون كله ، ووزَّع فضله على الخَلْق ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ .. (٧١)﴾ [النحل]

نعود إلى سيدنا سليمان ونقول : ما يدرينا أن المُلْك والنبوة معاً أغرت سليمان ، فوجد فى نفسه شيئاً من ذلك ، فأراد الله أنْ يُصحح له خواطره فى نفسه ، لأنه يريده لمهمة أعلى مما هو فيه الآن ؛ لذلك مَرَّ بهذه التجربة ، ووجد نفسه على كرسيه جسداً لا يستطيع الحركة .

لذلك سيدنا رسول الله ﷺ كان دائماً مُؤدَّباً مع ربه ومع الخَلْق ، فقد قال ﷺ : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

معنى هذا أن الأنبياء يمكن أنْ يخالطهم شىء ، وأنهم يمكن أنْ يُبْتلُوا ، لكن ممن يكون الابتلاء من الله الذى أرسلهم ، والابتلاء يكون تصحيحاً لمسار المبتلَى ، وليس كرهاً له لا سمحَ الله . كذلك ابتلى اللهُ سيدنا سليمان ، لأنه يعده لأمر أسمى من هذا ، هو مُلْك فى ظاهر الملك ، إنما ربه يريد أن يُعدَّه ليعطيه شيئاً من الملكوت .

لما عاد سليمان ـ عليه السلام ـ وأناب إلى ربه ، قال ﴿رَبِّ اغْفِرْ

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جوامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ، ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِى لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص]

يعنى : استغفر ربه مما وقع فيه من الغرور . يعنى : ربِّ اغفر لى ما سبَّب أن تجعلنى جسداً . وكأنه قال : يا رب ، لقد ابتليتنى بالملك والنبوة ، وهذه مسألة لم تحدث لأحد من قبلى فاغتررت بها ، فهَبْ لى مُلْكاً أعظم منه لا ينبغى لأحد من بعدى وسوف أوفى هذه المرة ولن أغتر ، وكأنه يقول لربه : يا ربِّ جربنى وأعطنى فرصة أخرى ، فلما دعا سليمان هذا الدعاء أجابه ربه وأعطاه ما طلب .

لذلك احترم سيدنا رسول الله ﷺ دعوة أخيه سليمان ، فقد ورد فى الحديث الشريف أن الشيطان عَرض لرسول الله وهو يصلى ليشغله عن صلاة ، فأمسك به رسول الله وهَمَّ أنْ يربطه فى سارية المسجد يلهو به صبيان المدينة ، لكنه ﷺ تذكَّر دعاء أخيه سليمان ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِى لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِى.. ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص] فلم يفعل تقديراً لسليمان عليه السلام[1] .

ومعنى ﴿ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص] صيغة مبالغة ، تدل على كثرة الوهب وقلنا : الهبة عطاء بلا مقابل ، والمعنى أن منْ ضمن ما تهبه يا رب الملك ، وهذا يعنى أن الملْك لا يناله أحد بمجهوده ومهارته ، إنما هو هبة من الله ، فالله هو الذى يهَبُ الملْك ووهبه حتى للكافر الذى حَاجّ إبرَاهيم فى ربه ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٤١) كتاب المساجد (باب ٨ حديث ٣٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن عفريتاً من الجن جعل يفتك علىَّ البارحة ليقطع علىَّ الصلاة ، وإن الله أمكننى منه فذعته ، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد ، حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون ثم ذكرت قول أخى سليمان : رب اغفر لى وهَبْ لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى ، فرده الله خاسئاً » .

إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]

وقال سبحانه : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩)﴾

قال سبحانه : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ .. (٣٦)﴾ [ص] وكان تسخير الريح لسليمان أول نعمة أضيفتْ إلى ملكه لم تكُنْ موجودة من قبل ، ومعنى ﴿رُخَاء .. (٣٦)﴾ [ص] أى : لينة ناعمة كالمطية التى تمشى براكبها مَشْياً هادئاً لا تزعجه ولا توقعه . إلا أن بعض المفسرين قالوا إن كلمة رخاء تتعارض مع قوله تعالى فى نفس القصة : ﴿الرِّيحَ عَاصِفَةً .. (٨١)﴾ [الأنبياء] ونقول : هى بالفعل عاصفة ، لكن فى موقف آخر ؛ لأن الريح فى القصة لها عدة استعمالات ، فالريح إنْ كانت تحمله للنزهة فهى رُخاء لينة ، وإنْ كانت لحمل الأشياء فهى عاصفة ، إذن : فالجهة فى الوصف مُنفكَّة .

وقلنا : إن الريح إنْ جاءت هكذا مفردة فهى للعذاب ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات] فإنْ كانت جَمْعاً فهى للخير كما فى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢)﴾ [الحجر]

ومعلوم أن الهواء هو الذى يحفظ توازن الأشياء ، بدليل أننا لو فرَّغْنَا الهواء من جهة من جهات عمارة مثلاً ، فإنها تنهار فى نفس

الجهـة ، لأن الهواء هو الذى يسنـدها ويحفظ توازنهـا . فإذا أراد الله تعالى أن يدمر بـالريح أتى به من جهة واحدة . فكأن الحق سـبحانه يقـول : الريح المـفروض أنه لا يأتـى إلا فى العذاب والنقـمـة ، لكن سخـرته لسليمان بحـيث لا يأتى معه إلا بالخـير ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)﴾ [ص]

وقوله : ﴿حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)﴾ [ص] حيث قصد وأنّى ذهب.

وهذا يعنى أن سليـمان خـاطب الريح التى لا لغةَ لهـا لكن فهـمه الله ، فكأنه أصـبح آمراً والريح مـأمـورة ، إذن : فهـمتْ عنه الريح ، فالحق سبحانه جعل لكـل جنس من الأجـناس لغتـه التى يتخاطب بها فى بنى جنسه ، فإذا فَهَّم الله إنساناً هذه اللغة فهمها وتخاطب بها مع هذه الأجناس .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦)﴾ [النمل]

لذلك حـدثونا عن التـمـاسيح فى أعـالى النيل ، وعن الانـسجـام والتكامل بينـها وبين الطـيور التى تـتغـذّى على الفـضـلات التى بين أسنان التمسـاح ، فالتمسـاح بعد تناول طعامه يخرج إلـى اليابسة ثم يفتح فمـه ، فيأتى الطير وينقر مـا بين أسنان التمساح فـيتظفها له ، فإذا أحسَّ الطير بقدوم الصياد صوّت صـوتاً خاصاً يعرفه التمساح ، فيـسرع إلى الماء وينجـو من الصياد ، وهكذا يكون التـمساح مُـقوِّمَ حيـاة للطير ، والطير مُـبقى حياة بـالنسبة للتمـساح ، فتـأمل الجزاء الأوْفى ، كيف يوجد فى عالم الطير والحيوان ؟

ولا يصل إلى مرتبـة الفهم عن الطير والحـيوان إلا مَنْ أعطاه الله هذه الخصوصيـة ، وقد أعطى الله هذه الخصوصية لسـيدنا سليمان ، ففهم لغة الطير ولغة النمل : ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ

لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل]

إذن : فهم عنها سليمان ، وأحسَّ أن هذه نعمة اختصَّه الله بها وتستوجب الشكر ، كذلك فهم عن الهدهد وخاطبه ودار بينهما حوار ، وقصة الهدهد مع سليمان تدلنا على أن كلّ مَنْ يلى أمراً عليه أن يتابعه متابعةً ، يعرف بها الملتزم من غير الملتزم .

ولولا أن سليمان تفقَّد الطير ما عرف بغياب الهدهد . وقوله : ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [النمل] كأنه تصوَّر أن الهدهد موجود ، لكن المانع عنده هو أنْ يراه ؛ لذلك قال : ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النمل] لأنه نظر فلم يَرَهُ ، ثم جاء الهدهد وقال : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل]

والذى أثَّر فى نفسه أن تعبد هى وقومها الشمسَ من دون الله ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل]

وهذه اللقطة من القصة تعلمنا أن الذى يلى أمراً لا يرد مَنْ وُلِّىَ عليه فى أمر يشير به ، بل ينتظر حتى يسمع منه ، ويحترم رأيه لا يصادره ، ونتعلم أيضاً أن الهدهد كان يعلم قضية التوحيد وقضية الإيمان بالله .

ثم يُعلِّمنا الهدهد أن كل إنسان عليه أنْ يحافظ على مُقوِّم حياته ، وأنْ يظل دائماً على باله إنْ أراد أنْ يعيش عيشةً كريمة ، فمُقوِّم

الحياة هو الأَوْلَى قبل التخطيط ورسم الأهداف ، نفهم هذا من قول الهدهد : ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)﴾ [النمل]

لكن لماذا خَصَّ الخبأ ، وهو المخبوء تحت الأرض ؟ قالوا : لأن غالب غذاء الهدهد مما خُبِىء فى الأرض ، لذلك جعل الله له منقاراً طويلاً ينقر به الأرض ، ويُخرِج به غذاءه .

وقوله تعالى : ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧)﴾ [ص] أى : وسخَّرنا أيضاً له الشياطين ، منهم البَنَّاء وهو الذى يعمل ويجهد طاقته فى يابسة الأرض ويعمرها . والغواص مَنْ يجهد طاقته فى البحر ليخرج نفائسه ﴿وَآخَرِينَ .. (٣٨)﴾ [ص] أى : من الشياطين ﴿مُقَرَّنِينَ فِى الأَصْفَادِ (٣٨)﴾ [ص] أى : مقيدين ومكبَّلين بالسلاسل . والأصفاد جمع : صفد وهو السلسلة .

فهؤلاء مقيدون ليسوا مُطلقين كالبنَّاء والغوَّاص ، لكن لماذا قيَّد اللهُ هؤلاء ، وأطلق هؤلاء ؟ قالوا : لأن منهم الصالحين الطائعين ، ومنهم العصاة الذين تأبَّوْا على منهج الله ، ومن الممكن أنْ يتأبَّى أيضاً على رسول الله ، وهؤلاء هم الذين يُقيَّدون بالسلاسل ، فكأن الصالحين يخدمونه بتوجيه الإيمان ، وغير الصالحين يخدمونه بتوجيه القيود والسلاسل ، يعنى هؤلاء بالرغبة وهؤلاء بالرهبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿هَـٰذَا عَطَاؤُنَا .. (٣٩)﴾ [ص] فالعطاء مناسب

---

(١) الخَبْءُ : ما خُبِىءَ . والخبء : كل ما غاب ، وهو كل شىء غائب مستور . وقيل : الخبء الذى فى السماوات هو المطر ، والخبء الذى فى الأرض هو النبات . [لسان العرب - مادة : خبأ بتصرف] .

لطلب سليمان حين طلب من الله مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، قال : ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص] فردَّ الله عليه ﴿هَـٰذَا عَطَاؤُنَا .. ﴿٣٩﴾﴾ [ص] وما دمت قد وهبتك فسوف أجعلك تتصرف فيما وهبته لك لأننى أمَّنتك ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص] يعنى : أنت حر فى أنْ تعطى أو أنْ تمسكَ وتمنع .

والحق سبحانه لم يجعل لسليمان طلاقة التصرُّف ، إلا لأنه ضمن منه عدالة التصرف ، لأن سليمان حين طلب الملْك الواسع تعهَّد لله تعالى بهذه العدالة ، لذلك قالوا عنه - عليه السلام - إنه كان لا يأكل إلا خشكار الحب يعنى الردَّة أو النخالة ، ويترك الصافى للعبيد ولعامة الناس .

فكأنه لم يطلب النعمة والملْك الواسع ليتنعم هو به ، أو يتباهى ، إنما طلبه ليسخره فى خدمة الدعوة إلى الله ، ولأنه سيجابه قوةً كانت أعظمَ القُوَى فى هذا الوقت ، ويكفى أن الله تعالى وصف هذه القوة بقوله : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل] أى : بلقيس .

وهنا وفى هذه المواجهة سيظهر أثر الملْك وقيمته ، فلما أغرتْه بلقيس بالمال قال : ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النمل]

وهنا تظهر الحكمة فى أن سليمان حين طلب ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، طلبه حتى لا يتميَّز عليه أحد ، ولا يحاول أحد أنْ يُغريه أو يرشيه ، أو يستميله بالمال ، كما حاولت بلقيس بملْكها الواسع فى اليمن السعيد فى ذلك الوقت .

والذى دَلَّ على حصافة بلقيس فى هذا الموقف أنها استشارتْ أعيان القوم وأشرافهم وذوى الرأى عندها : ﴿قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي

أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ[1] ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل]

أولاً : كيف عرفتْ أنه كتاب كريم ؟ قالوا : لأنها وجدته في مخدعها دون أنْ يأتي به رسول ، أو يدخل به أحد ، ولم يمنعه حراس ، ولم يطلب استئذاناً عليها ، لذلك علمتْ أنه من جهة أعلى منها ، ولا بُدَّ أن حركة صاحب الكتاب في الحياة أقوى من حركتها ، بدليل أن الكتاب وصلها بهذه الطريقة ، لذلك استشارت القوم ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل]

وانتهت القصة بقولها : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل]

إذن : دَلّ قوله تعالى ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص] على أن عطاء الله للأنبياء ليس للتباهي والتفاخر ، إنما هو عطاء لخدم الدعوة إلى الله ؛ لذلك نرى الذين ملّكهم اللهُ بعضَ مفاتيح الغيب لم يستغلوا معرفة الغيب لصالحهم ، وربما جَرَتْ المعجزةُ على أيديهم أو على ألسنتهم ، وهم لا يدرون بها ، وتظهر منهم الكرامات وهم أنفسهم لا يعرفونها ولا يشعرون بها .

ذلك لأن سرَّ الله وهبه لهم ، لا ليتعالوْا به على الناس ، إنما ليزدادوا هم عبودية واستطراقاً في العبودية لله تعالى ، وليكونوا نماذج لهداية الخلْق والأخذ بأيديهم إلى طريق الحق .

لذلك يُرْوى أن سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ لما امتنع الغيثُ

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٣٦١) : « تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره كون طائر جاء به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدباً ، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك » .

وأجدبت الأرضُ خرج يستسقى ، وأخرج الضعفاء من الأطفال والشيوخ والنساء حتى أخرج البهائم وكأنه يقول يا رب إنْ كنتَ قد منعت عنَّا المطر لذنوبنا فاسْقنَا لأجل هؤلاء ، لكن لم تمطر السماء وَهمَّ عمر بالانصراف ، وبينما هو قافل إذ وجد عبداً واقفاً بين الصخور يرفع يديه ويشخص ببصره إلى السماء ، قال عمر : فو الله ما وضع يديه حتى أمطرت السماء كأفواه القِرَب .

وعندها تعجب سيدنا عمر كيف أن السماء لم تستجبْ له واستجابتْ لهذا العبد ، وتأمل عمر وجه العبد حتى عرفَه ، وذهب إلى النخَّاس ، وقال له : اعرض علىَّ عبيدك ، فظن النخَّاس أنه يريد الشراء ، فعرض عليه أفضل ما عنده من أصحاب العضلات المفتولة والقوام السليم ، لكن لم يلتفت عمر إلى واحد من هؤلاء ، فقال الرجل : والله ما عندى غير هذا العبد وهو كَلٌّ[1] على مولاه أينما توجَّه لا يأتى بخير .

فلما جاء العبد عرفه عمر ، وقال له : أهذا أنت ؟ فنظر إليه العبد ورفع بصره إلى السماء وقال : اللهم كما فضحتنى بين خَلْقك فخُذْنى غير مفتون ومضى لحاله . هكذا حال مَنْ تظهر منه الوَلاية والكرامة ، لا يرضى بها ولا يحب أنْ تنكشف أمام الناس ، فهو لا يريدها ويكفيه وُدُّ الله له بها .

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ (٤٠)

(لَزُلفَى) يعنى : قُرْبى ، ودَلَّ على هذه القربى أن الله تعالى أعطاه مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، وأعطاه حرية التصرف فى هذا

---

(١) الكَلّ : العاجز الثقيل لا خير فيه . فهو عبء ثقيل على سيده لا خير فيه ولا انتفاع منه . [القاموس القويم ٢/١٦٩] .

الملْك ، يعطى مَنْ يشاء ، ويمنع مَنْ يشاء ، وقد أعطاه الله هذا العطاء مقابل أنه علم أنه لن يصرفه في طغيان ولا في جبروت ، ولا في إدلال على الناس ، لكن سيضعه في موضعه الذي يريده الله ، فأصبح مأموناً على عطاء الله .

ومعنى ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ص] أي : حُسْن مرجع ومَردّ إلى الله يوم القيامة .

ثم ينتقل بنا السياق إلى قصة نبي آخر هو سيدنا أيوب عليه السلام :

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ(١) وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [ص] أي : بالحمد والثناء ﴿ عَبْدَنَا أَيُّوبَ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [ص] الوصف بالعبودية هنا شرف ، لأنه دلَّ على إعزاز الربوبية لمرتبة العبودية ، وقلنا : إن العبودية كلمة ممقوتة عند البشر ، لأن العبودية للبشر إهانة وتسخير ، يأخذ فيها السيد خير عبده وثمرة حركته في الحياة ، أما العبوديّة لله تعالى فوَصْفٌ محبوب ، وكلمة محمودة ، لأن العبد فيها يأخذ خير سيده .

لذلك لما امتنَّ الله تعالى على سيدنا رسول الله ﷺ في حادثة الإسراء والمعراج جعل حيثية ذلك العبودية له سبحانه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] فلما ضاقتْ به حفاوة الأرض في الطائف أراد ربه أنْ يُريَهُ حفاوة السماء به ، فالصفة التي رفعتْ محمداً إلى هذه المنزلة هي صفة إخلاصه في العبودية لربه .

---

(١) النصب : الداء والبلاء والشر. [لسان العرب ـ مادة : نصب] .

ومعنى ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص] المسُّ : هو الالتقاء الهيِّن الخفيف ، يعنى هو دون اللمس ، قالوا : لأنه مرض مرضاً شديداً أثَّر فى إهابه ، فكان الشيطان يحوم حوله بخواطر السوء يقول له : كيف يفعل الله بك هذا وأنت رسول ، كيف يتركك هكذا دون أنْ يشفيك .

وهكذا اجتمع على سيدنا أيوب ألم الجلد وعذابه الجسدى ، وهواجس الشيطان فى خواطره النفسية ، لذلك قال : ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص] ونُصْب بالضم مثل نَصَب بالفتح والنَّصَّب التعب ، فهى مثل بُخْل وبَخَل ، الاثنان بمعنى واحد .

وقالوا فى مسِّ الشيطان : إن الفعل على الحقيقة لله تعالى ، فالله هو الذى يفعل ، والشيطان بوسوسته سبب ، والله تعالى هو المسبِّب ، فمَسُّ الشيطان يعنى وسوسته التى شغلتْ خاطر سيدنا أيوب ، فكأن الحق سبحانه أراد من أيوب أنْ يتنبه إلى أن هذه الوسوسة ما كان يصح أنْ تمرَّ بخاطره .

وسيدنا أيوب لما اجتمع عليه المرض ووسوسة الشيطان ضَعُفَ فتوجَّه إلى ربه يدعوه أنْ يقطعَ عن نفسه وسوسة الشيطان ؛ لأنها تحتاج إلى مدافعة ، والمدافعة تحتاج إلى قوة ، والقوة عنده موهونة بالمرض ، ولذلك دعا الله حتى لا يزدادَ ضعفه بوسوسة الشيطان ، فلما دعا الله أجابه :

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾

فكأن الحق سبحانه يقول له : أنا لا أبتليك كراهةً فيك ، ولا مشقَّةً عليك ، إنما أريد أنْ أسمع منك أنك تكره مَنْ يجيل لك بخاطرك

شيئاً يبعدك عنى ، ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص] يعنى : المسألة عندى سهلة يسيرة كما تقول : يا فلان الأمر هيِّن فهو تحت رجْلَيْك .

والركْض هو القذف بشدة وسرعة ، تقول : ركضتُ الفرسَ . يعنى : غمزتُه برجلى هكذا من تحت ليسرع[1] ، ثم يتجاوز السياق مسألة الركض إلى النتيجة مباشرة ﴿ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص] ولم يقل : فركض فخرج الماء كذا ،كذا ، إنما انطوى هذا كله ، واكتفى بالأمر (ارْكُضْ) .

والمعنى : أن فى هذا الماء مغتسلاً لك وشراباً ، لأن المرض الذى أصاب سيدنا أيوب يبدو أنه كان مرضاً جلدياً يترك على بشرته بُثوراً تشوِّه جلده . والآن نرى الأطباء الذين يعالجون الأمراض الجلدية يعالجونها بالمراهم الظاهرية التى تعالج ظاهر المرض ، لكن لا تتغلغل إلى علاج سبب المرض الداخلى

فكان من رحمة الله بسيدنا أيوب أنْ جعل شفاءه الظاهرى والباطنى فى ركضة واحدة تخرج الماء ، فيغتسل منه مُغْتسلاً بارداً ، يشفى ظاهر مرضه وشراب يشفى أسباب المرض فى داخل جسمه .

ثم يتحدث الحق سبحانه عن بعض نعمه على نبيه أيوب :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

---

(١) قال الأصمعى : يقال رُكضت الدابة ولا يقال رَكَضتْ هى ؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لها فى ذلك . [تفسير القرطبى ٨/٥٨٥٣] .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ .. (٤٣) ﴾ [ص] يبدو أن بعض أهله بعدوا عنه لما أصابه المرض ، فلما شفاه الله وعاد إلى حال السلامة عادوا إليه ﴿ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ .. (٤٣) ﴾ [ص] يعنى : وهبنا له مثل أهله أى : من الذرية والأتباع ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) ﴾ [ص] الذكرى هى الخاطر الذى يمرُّ بك ليصرفك إلى متعلق الذِّكْرى ؛ لأنك بصدد ما يبعدك عن سبب الذكرى .

ومضمون الذكرى هنا أنه لما صبر جاءه الفرج من الله ، فعاد جسمه مُعَافاً سليماً بعد أنْ برىء من المرض ومن أسبابه ، ثم عاد إليه أهله بزيادة مثلهم عليهم رفقاً بعواطفه . وهذا هو المراد بالرحمة فى قوله ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا .. (٤٣) ﴾ [ص] ، فهذه عطاءات متعددة جاءت ثمرة ونتيجة لصبره عليه السلام ورضائه بما قضى الله به .

إذن : الذكرى التى نذكرها فى هذه القصة أن الإنسان حين ينزل به الكرب يلجأ إلى الله ، ويفزع إليه فى كربه ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢) ﴾ [النمل]

والله يحب من عبده هذا اللجوء لذلك يبتليه ، وقد ورد أن الملائكة تقول : يا ربّ عبدُكَ ضَجَّ من الدعاء لك ، ولم تُجبْه ، فقال سبحانه : إن من عبادى مَنْ أحب دعاءهم ، فأنا أبتليهم لأسمع أصواتهم .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾

الضغث : حزمة الحشيش أو حزمة من شماريخ البلح ، وقوله : ﴿ وَلَا تَحْنَثْ .. (٤٤) ﴾ [ص] دلَّ على أن المسألة كان فيها يمين يريد

الله تعالى لأيوب ألاَّ يحنث فيه ، وهذه الآية تلفتنا إلى قصة بيَّنتها السنة ، قالوا[١] : إن الشيطان ذهب إلى إحدى زوجات سيدنا أيوب ، وقال لها : اطلبى من أيوب أنْ يلجأ إلىَّ وأنا أشفيه حالاً ، بشرط أنْ يقول : إن الذى شفانى الشيطان ، ولأنها كانت مُستْشرفة لأنْ يبرأ قالت له : والله جاءنى خاطر قال لى كذا وكذا ، قال : إنه الشيطان استمعت إليه وتريدين أنْ أطيعه ، والله الذى لا إله إلا هو لأجلدنك مائة . هذا هو اليمين الذى أراد الله لأيوب ألاَّ يحنث فيه ، فقال له :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص]

والنبى ﷺ صنع مثل هذا حينما جاءه الرجل الأَحْبَن ، أحبن من (حَ بَ نَ) يعنى : كبير البطن ، أو فى بطنه استسقاء ، وقد زنى بامرأة هزيلة مريضة ، فلما اعترف بجريمته خاف عليه الرسول أنْ يموتَ لو أقام عليه الحد ، فأمر بأنْ يُضْربَ بحزمة من الحشيش ، أو مائة عود من شماريخ النخل يُضرب بها مرة واحدة[٢] .

ومعنى ﴿ فَاضْرِب بِّهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص] أى : من آليت على نفسك أنْ تجلده ﴿ وَلَا تَحْنَثْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص] أى : فى يمينك ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى كتاب « الزهد » ، وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : إن إبليس قعد على الطريق ، فاتخذ تابوتاً يداوى الناس ، فقالت امرأة أيوب : يا عبد الله إن ههنا مبتلى من أمره كذا وكذا .. فهل لك أن تداويه ؟ قال : نعم . بشرط إن أنا شفيته أن يقول أنت شفيتنى لا أريد منه اجراً غيره . فأتت أيوب فذكرت ذلك له فقال : ويحك . ذاك شيطان لله علىَّ إن شفانى الله تعالى أن أجلدك مائة جلدة ، فلما شفاه الله تعالى أمره أن يأخذ ضغثاً فأخذ عذقاً فيه مائة شمراخ فضرب بها ضربة واحدة .

(٢) عن سعيد بن سعد بن عبادة قال : كان بين أبياتنا إنسان مخدج ضعيف لم يرع أهل الدار إلا وهو على أمة من إماء الدار يخبث بها وكان مسلماً ، فرفع شأنه سعد إلى رسول الله ﷺ فقال : اضربوه حده . قالوا : يا رسول الله ، إنه أضعف من ذلك ، إن ضربناه مائة قتلناه . قال : فخذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة واحدة وخلوا سبيله . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٢٢) ، وابن ماجه فى سننه (٢٥٧٤) .

.. ﴿٤٤﴾ [ص] فكأن هذا التيسير جزاءٌ له على صبره وعلى رجوعه إلى ربه ، فجعل الله له شيئاً يُرضيه بأنْ خفَّفَ عنه حتى الألم الذى يورثه فى الغير ، لأنه أقسم أنْ يجلد ، فكان ينبغى عليه أنْ يُجلد على الحقيقة حتى لا يحنث ، لكن خفَّفَ الله عليه حتى لا يؤلمه فى أهله .

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾

هنا أيضاً (واذكر) أى : بالحمد والثناء (عبادنا) جمع عبد وقلنا : إن العبودية ممقوتة إنْ كانت للبشر ، لكن العبودية لله عزٌّ وشرف (إبراهيم) هو أبو الأنبياء (وإسحق) وهبه الله لإبراهيم بعد أنْ أسلم الحكم لله حين أمره بذبح ولده إسماعيل (ويعقوب) هو ابن إسحاق .

وقد وقفنا على قصة هؤلاء الأنبياء فى قوله تعالى على لسان إبراهيم يقول لولده إسماعيل : ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات] فلم يشأ إبراهيم أنْ يقبل على ذَبْح ولده قبل أنْ يُبيِّن له الأمر الذى صدر إليه ، ذلك لأنه أشفق عليه أنْ يأخذه على غِرَّة فيمتلىء قلب الولد على أبيه حقداً ؛ لأنه لا يعرف الحكمة من قَتْل أبيه له ، ثم أراد أن يشرك ولده معه فى التسليم لله وألاَّ يحرمه الأجر .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَٰإِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ

الرُّؤْيَا .. ﴿١٠٥﴾ [الصافات] أى : استسلمتَ واستسلم ولدك ، إذن ارفع يدك ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات]

إذن : جاء إسحق وجاء من بعده يعقوب نتيجة لتسليم إبراهيم وانصياعه لأمر ربه فى ذبح إسماعيل ، فأبقى على إسماعيل ، ووهب إسحاق ويعقوب زيادةً وفضلاً من الله ؛ لأن الحق سبحانه لا يريد بالابتلاء أنْ يعذِّب الناس .

لذلك قلنا : إن لسيدنا إبراهيم فضلاً على كل مسلم ، وجميلاً فى عنق كل مؤمن ، لماذا ؟ لأن مسألة الذبح لو نُفِّذت فى إسماعيل لصارتْ ابتلاءً من الله للإنسان بأنْ يتقرَّب إلى الله بذبح ولده ، لكن سيدنا إبراهيم بإيمانه وتسليمه الأمر والحكم لله تحمل عنّا هذه المسألة ، ورفع عنا هذا الحكم ، وإلا صارتْ المسألة نُسُكاً وعبادة لازمة لكل مؤمن من بعده ، وصدق القائل(١) :

سَلِّمْ لربِّك حكْمَهُ فَلحكْمَة يَقْضيه حتَّى تَسْتَريحَ وتغْنَما
وَاذْكُرْ خليلَ الله فى ذَبْحِ ابْنِه إذْ قالَ خالقُهُ فَلَمَّا أسْلَمَا

ونتعلم من هذه المسألة أن كل أمر أو حدث يُسيء الإنسان فى ظاهره ويتعبه ويعتبره الإنسان مصيبةً لا ينبغى أنْ ننظر إليه مُنفصلاً عن فاعله ، لكن يجب أنْ نأخذَ الحدث بضميمة مَنْ أحدثه ؛ لأن الحكم على الحدث يتغير بالنظر إلى الفاعل .

وأوضحنا هذه المسألة وقلنا : هَبْ أن ولدك دخل عليك ، والدم

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه وأرضاه .

يسيل من وجهه ، فإنك لا تهتم بالإصابة بقدر ما تهتم بالفاعل ، فأول سؤال تسأله : مَنْ فعل بك هذا ؟ ثم تنتظر أن تسمع اسم الفاعل ، فإنْ قال الولد : عمى ضربنى فإنك ستهدأ وتقول : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً استوجبَ أنْ يضربك عمك ، لكن إنْ قال لك : فلان خاصة إنْ كان عدواً لك ، فإنك تقيم الدنيا ولا تقعدها .

إذن : لا يمكن أنْ تحكم على الفعل بالخير أو الشر إلا بنسبته إلى فاعله ؛ لأنه بنسبة الفعل إلى فاعل تتمحض الخيرية فيه أو يتمحَّض الشرُّ فيه .

ومعنى ﴿ أُوْلِي الأَيْدِى وَالأَبْصَارِ (٤٥) ﴾ [ص] أصحاب الأيدى وهى جمع يد ، وتُطلَق اليد على الجارحة المعروفة ، وتُطلَق على ما تأتى به الجارحة من فعل ، تقول : فلان له يد علىَّ يعنى : فضل وجميل ، ولأن أغلب الأفعال تُزَاوَلُ باليد سُمِّيَتْ النعمة التى تصل بطريق اليد باسم هذه الجارحة الفاعلة ، ومن ذلك قوْل القائل[1] :

له أيادٍ علىَّ سابغة أعدّ منها ولا أعددها

وفَرْق بين الحركة الفاعلة التى تقوم بالفعل ، ومعنى آخر فى الحركة الفاعلة هو ما يُوجب عليك الحركة ، مثلاً حين نريد البَذْل والعطاء ، فمَنْ عنده مال يبذل ويعطى بيده ، أما المعدم فلا يعطى إنما ينصح مَنْ عنده المال بأنْ يبذلَ منه .

يقول تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١) ﴾ [التوبة]

فالعمل هنا ليس باليد إنما باللسان ، لكن لما كانتْ اليد هى الآلة التى نباشر بها أكثر الأعمال نسبنا كلَّ خير يتعدَّى منك إلى غيرك

(١) المتنبى .

نسبناه إلى اليد ؛ لذلك يقول سبحانه :

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح]

فإذا كان الإنسان غير واجد للمال ، وغير قادر على النصح باللسان ، فإن الله تعالى لا يحرمه أبداً من العمل الصالح فى البذل ، ويكتفى منه بأنْ يفرح بمَنْ يبذل ويسعده العطاء من غيره .

ومثال ذلك : الرجل الذى سمعوه يدعو عند الكعبة يقول : اللهم إنك تعلم أنِّى عاصيك ، لكنى أحب مَنْ يطيعك . والأصمعى يسمع رجلاً عند الملتزم يدعو ويقول : يا رب أنا أعلم أنى عاصيك وأستحى وأنا عاصيك أنْ أطلب منك ، لكن لا إله إلا أنت ، فلمن أذهب ؛ فقال له : يا هذا ، إن ربك يغفر لك لحُسْن مسألتك .

ومعلوم أن المؤمن يجتهد فى الدعاء خاصة عند الملتزم ، ويحاول أن يُحسِن الدعاء ، ويُحسِن المسألة فى هذا الموقف .

مرتبة أخرى يجعلها الله لغير الواجد حتى لا يُحْرم الأجر فى العطاء ، هى أنْ يحزن لأنه لا يجد ما يبذله ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ[1] إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[التوبة]

---

(١) قال محمد بن كعب القرظى : كانوا سبعة نفر : من بنى عمرو بن عوف سالم بن عوف ، ومن بنى واقف حرمى بن عمرو ، ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ، ومن بنى المعلَّى فضل الله ، ومن بنى سلمة عمرو بن عتبة ، وعبد الله بن عمرو المزنى . تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨١) وذكر السيوطى فى كتابه « أسباب النزول » أن ابن أبى حاتم أخرج من طريق العوفى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن معقل المزنى ، فقال : يا رسول الله احملنا . فقال : والله لا أجد ما أحملكم عليه ، فولَّوْا ولهم بكاء ، وعزَّ عليهم أن يُحبسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة].

فالحق سبحانه لا يحرم مؤمناً أنْ يكون له موقف فى البذل ، ولو كان بَذْلاً سلبياً .

ومن معانى اليد : القوة كما فى قوله تعالى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. ⑩﴾ [الفتح] فالمراد ﴿أُولِي الْأَيْدِي.. ㊺﴾ [ص] أى : أصحاب القوة فى طاعة الله .

و﴿الْأَبْصَارِ ㊺﴾ [ص] أى : البصائر فى العلم والدين والحكمة ، أما الأبصار بمعنى حَاسَّة البصر ، فهى موجودة فى الجميع المؤمن وغير المؤمن ، إذن : المراد الأبصار التى ترى ثم تؤدى مهمة أخرى فوق البصر ، وتزيده نوراً على نور .

إذن : البصر وحده لا يكفى لأن آيات الله فى الكون هى المعطيات ، كما نقول فى المسألة الرياضية ، وهذه المعطيات تحتاج إلى بصيرة واعية لتصل بالمعطيات إلى المطلوب ، وهو الإيمان بمَنْ أعطى هذه المعطيات .

فالأبصار حينما تنظر فى الكون ، وترى معطياته ، وترى آيات الله فيه ، ثم لا تتأثر عقلياً ولا وجدانياً بها ، ولا تلتفت إلى صانعها ومبدعها ، فلا قيمة لهذه الأبصار .

فالمعنى ﴿الْأَبْصَارِ ㊺﴾ [ص] أى : أصحاب البصائر التى شغلتْ العقول والوجدان ، بما تراه من الآيات ، وعلمت أن هذا الكون لا يمكن أنْ يُنسَب إلا إلى قوة قادرة ظاهرة مسيطرة ، لا يوجد لها شريك ، وإلا لو كان له شريك لظهر أثره ، ولدافع عن حقه فى هذا الملْك ، وما دام لم يظهر هذا المعارض ولم يدَّعِ أحد أنه خلق ، فالقضية تَسْلَم لمن ادعاها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وقدَّم الأيدى على الأبصار ، لأن عمل الأيدى نتيجة نهائية للبصر ، لأنك تبصر آيات الله فى كونه ، وتعرف أنه ربُّ الجميع ، وخالق الجميع ، ورازق الجميع ، فيرقّ قلبك للفقير وتعطيه ، لعلَّك تصبح مثله فى يوم ما فتجد من يعطيك ، ولا تحقد على واجد وأنت معدم ، لأن خير الواجد سينالك بأىٍّ حال .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء]

ولنعتبر بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) ﴾ [ص]

أخلصناهم يعنى : أعطيناهم شيئاً خالصاً لهم ، والخالصة التى خصصناهم بها هى التى تلفتهم دائماً إلى دار الجزاء وهى الآخرة ، وبهذه الذكْرى يظل الإنسان دائماً مُسْتحضراً ثوابَ الطاعة وعقابَ المعصية ، وإذا استحضر الإنسان هذه العاقبة استقام على الطاعة وابتعد عن المعصية .

لذلك يقول ﷺ فى بيان هذه المسألة : « .. لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] .

لماذا نفى عنه الإيمان فى هذه اللحظة ؟ قالوا : لأنه غفل عن

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

عاقبة فعْله غفل عن الجزاء ، فالغفلة هى التى تكسلنا عَن الطاعة ، وتُوقعنا فى المعصية ، وتُغرينا بها ، ولو استحضر الإنسانُ العقوبة على المعصية ما وقع فيها .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً فقلنا : لو أن شاباً عنده شرهٌ جنسى . وقلنا له : سنوفر لك ما تريد ، لكن بعد أنْ تقضى ليلتك سنأخذك إلى هذا الفرن المسجور ، ونضعك فيه لمدة ساعة واحدة ، مثل هذا الشاب ما ظنكم به ؟ لا بُدَّ أنه سيفر من هذه المعصية ، ويهرب منها ، ويزهد فيها ، لماذا ؟ لأنه عاين العاقبة واستحضر الجزاء .

كذلك الطالب الذى يجتهد فى دروسه ، حتى أنه يهمل فى أكله وشربه ، لماذا يفعل ذلك ؟ لأنه استحضر لذة النجاح وشرف التفوق وعُلُوّ المنزلة بين أهله وزملائه ، وفى المقابل الطالب المهمل لا يهمل إلا لأنه غفل عن عاقبة الإهمال وذلّة الفشل يوم أنْ تظهر نتيجته .

فمعنى ﴿ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [ص] أى : يظل دائماً على ذِكْر لها يستحضر الثواب على الطاعة ، فيقبل عليها ، ويستحضر العقاب على المَعصية فيفرّ منها .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص]

أى : الذين اصطفيناهم ، ولله تعالى فى الخَلْق اصطفاءات يصطفى من الأماكن ، ويصطفى من الأزمنة ما يشاء ، كما اصطفى من الأمكنة الكعبة وبيتَ المقدس ، واصطفى من الأزمنة شهر رمضان كذلك يصطفى من الناس رسلاً ، ويصطفى من الملائكة رسلاً .

والاصطفاء ليس تدليلاً للمصطفى ولا محاباة له ، إنما ائتمان المصطفَى على ما يريده من اصطفاه أى المصْطفِى من إشاعة الخير

فى جنسه ، فاصطفاء الرسل ليس تدليلاً لهم ، إنما الاصطفاء يُحمِّلهم أعباء جسيمة فى ذواتهم وأنفسهم وفى أموالهم وأهليهم .

كذلك اصطفى رمضان لا لنعبد الله ونطيعه فى رمضان وحده ، إنما ليشيع الطاعة فى الزمان كله بأنْ تأخذ من رمضان الطاقة اللازمة للعام كله ، إذن : فاصطفاء الزمان أو المكان أو الإنسان أو الملائكة ليس تدليلاً لخَلْق على خَلْق ، إنما لإشاعة الخير فى كل الخَلْق للخَلْق .

ومعنى ﴿ الأَخْيَارِ (٤٧) ﴾ [ص] جمع خيِّر . والمعنى : اصطفيناهم لما فيهم من الخيرية ، التى تُؤهِّلهم لهذا الاصطفاء .

﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٨) ﴾

سيدنا إسماعيل معروف لنا جميعاً من خلال قصته مع أبيه إبراهيم ، والخلاف هنا بين العلماء فى سيدنا ذى الكفل ، لأن من الرسل مَنْ عدَّهم الله فى موكب الرسالات ، لكن لم يذكر لنا إلا أسماءهم وأوصافهم ، وذو الكفل ذُكر هنا بهذا الوصف .

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧) ﴾ [ص] فاليسع لا نعرف عنه إلا اسمه ، ولم يذكر القرآن مَنْ هو ، ولا متى بُعث ، ولا إلى مَنْ أرسل ، ولا المنهج الذى جاء به ، كذلك فى ذى الكفل لم يذكر عنه القرآن إلا اسمه ، ووصفه هنا بأنه من المصطفين الأخيار ، وفى سورة الأنبياء قال عنه الحق سبحانه : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) ﴾ [الأنبياء]

فوُصِف مرةً بأنه من الأخيـار ، ومرة بأنه من الصابرين ، ومرة من الصالحين ، ولهذا أدخله الله فى رحمته ، وهذه التى جعلت العلماء يختلفون فى ذى الكفل ، أهو رسـول أم غير رسـول ؟ لكن جمهور العلمـاء[1] على أنه رسـول ، بدليل أن الله تعـالى سلكه ضـمن هؤلاء الرسل .

ومما قيل فى ذى الكفل أنه فى فترة اليسع وفى رسالته أراد أن يستخلفَ على الناس رجلاً بعـده ، وأراد أنْ يرى سيرته فى الرعية ، وكيف سيتصرف هذا فى أخريات حياته ؟ وحين رأى أن قوته عجزتْ عن القيـام بأمر الدعوة . وكـان من حرصه على الدعـوة من بعده أنْ يختبر مَنْ يستخلفه وينظر ما يفعل .

فلما جلس اليسع فـى قومه قال : مَنْ يتقـبل منى بثلاث ؟ والباء عادة كما فى هذه العبارة تدخل على الثمن ، كما تقول : اشتريتُ كذا بكذا ، والمعنى : مَنْ يتكفل لى بثـلاثة أشياء وأستخـلفه على القوم ، ثم قال فى بـيان هذه الثلاث : أنْ يصـومَ النهار ، ويقـومَ الليل ، ولا يغضبَ . فقام رجل من القوم تزدريه العين وقال : أنا ، فأعاد عليه : أنت تصـوم النهار ، وتقوم الليل ، ولا تغضب ؟ قال : نعم ، فردَّه .

وفى الغد ، جلس اليسع فى مجلسه ، وعرض على القوم مقالته ،

---

(١) يرى بعض العلمـاء أنه ليس بنبى ، وإنمـا هو رجل من الصالحـين من بنى إسرائيـل وقد رجَّح ابن كثير نبـوته لأن الله تعالى قرنه مع الأنبياء ، فقال جل وعـلا فى سورة الأنبياء : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبـياء] . قـال ابن كـثـير فى البـداية والنهـاية (١/٢٢٧) : « فالظاهر من ذكـره فى القرآن العظيـم بالثناء عليه مقـروناً مع هؤلاء السادة الأنبـياء أنه نبى عليـه من ربه الصلاة والسلام ، وهذا هو المشهور » .

فقام الرجل بعينه وقال : أنا ، فعرف اليسع أن الرجل عنده عزيمة وإصرار على القيام بهذه المهمة ، فاستخلفه على القوم[(١)] .

وقد تكلم العلماء فى هذه الشروط الثلاثة التى جعلها سيدنا اليسع - عليه السلام - حيثيات الاستخلاف ، قالوا : لأن الذى يصوم النهار يصوم عما أحله الله فى غير الصوم ، والذى يصوم عَمَّا أحله الله يصوم من باب أَوْلَى عما حرَّمه الله ، فضمن بذلك بُعْده عن المحرمات . والذى يقوم الليل ترك راحته وترك التنعُّم ليأنس بربه ، ومَنْ كانت فيه هذه الصفة لا يتخذ الاستخلاف للنعمة والرفاهية إنما يتخذه للقيام بأعبائه ، وإلا لو أراد التنعُّم لَنام الليل مِلْء جفونه .

أما عدم الغضب فهى صفة لا بُدَّ أنْ تتوافر فى كل مَنْ يسوس الرعية ، أو يجلس فى مجلس حكم بين الناس ، ومعلوم أن للرعية أخلاقاً شتى وصفات متباينة ، فلا بُدَّ لمن يتولّى أمرهم أنْ يكون حليماً لا يغضب ؛ لأن الغضب يستر العقل ، فلا يختار بين البدائل ، ولا يُحسن التصرف فى الحكومة .

لذلك قالوا للقاضى حين يغضب : ردَّ نفسك ، يعنى : أنت لا تصلح لمنصب القضاء . إذن : قال ولا تغضب لأن العقل يتأثر بالغضب ، فتختلف موازينه فى الحكم ، وتختلف كذلك مَلَكات النفس فلا يصح الحكم .

---

(١) أورد السيوطى هذا الخبر عن ذى الكفل مع نبى الله اليسع فى الدر المنثور (٥/٦٦١) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد (٥/٦٦٣) ، وعزاه لعبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى ذم الغضب وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الله بن الحارث (٥/٦٦٣) وعزاه لابن سعيد النقاش فى كتاب القضاة عن ابن عباس .

قالوا فى مسألة عدم الغضب : إن الشيطان لم يستطع التدخُّل فى صيام النهار وقيام الليل ، فأراد أنْ يدخل إليه من ناحية عدم الغضب ، فأرسل إليه ذريته ليُغضبوه فلم يغضب ذو الكفل - عليه السلام - فقال لهم : ارفعوا أيديكم عنه وسأتولى أنا هذا الأمر ، وكان ذو الكفل لا ينام إلا نومةً واحدة فى القيلولة ، هى كل ما ينام فى الليل والنهار ، وكان يأمر خادمه ألاَّ يدخل أحد عليه فى هذا الوقت ، فكان الشيطان يتحيَّن هذا الوقت ، ويطرق على ذى الكفل الباب ، ويُحدث عنده ضجة يقول : أنا رجل ظلمنى قومى وفعلوا بى كيت وكيت وأريد أنْ تنصفنى منهم .

فقال ذو الكفل : ألاَ تعلم أن هذا الوقت هو الوقت الذى أستريح فيه ، اذهب وتعالَ فى وقت أجلس فيه للحكم بينكم ، وأنا أقضى فى أمرك .

وفى اليوم التالى ، جاء الشيطان وفعل كما فعل بالأمس ، وفى اليوم الثالث وجد الباب مغلقاً فنفذ إلى ذى الكفل بطريقته الخاصة ، قالوا : دخل من كوة فى البيت فى غفلة من الحارس ، وطرق على ذى الكفل باب مخْدعه ، فلما رآه قال : كيف دخلتَ ؟ فتلعثم . قال : إذن : أنت هو . أى الشيطان قال : والله لقد احتلنا كثيراً على أنْ نغضبك فلم نفلح ، ثم تركه وانصرف[1] .

أما عن خلاف العلماء فى رسالة ذى الكفل ، فأنا أريد أنْ أُجلَّ العلماء عن الخلاف فى شىء يصح أن نلتقى فيه . قالوا : الكفل من التكفُّل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

---

(١) أورد السيوطى هذه القصة فى كتاب الدر المنثور (٥/٦٦١) عن مجاهد وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم .

والكفْل : هو النصير .

والذين قالوا برسالته استدلوا على ذلك بأمرين : الأول أن الله ذكره فى عداد الرسل ، الآخر : أن اليسع - عليه السلام - استخلفه . والحق سبحانه وتعالى سكت على هذا الاستخلاف ولم يُغيِّره ، وهذا إقرار للاستخلاف وموافقة عليه ، كما وافق الحق سبحانه لموسى - عليه السلام - لما طلب من ربه أن يُؤيِّده بأخيه هارون ، فقال :

﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِي .. (٣٤) ﴾ [القصص]

قال آخرون : بل هو رجل متطوع بالدعوة ، فَسَد الناس فى زمانه ، ورأى أن هذا الفساد لا يصلحه إلا رجلٌ له عدالة فى الحكم ، ونزاهة فى القضاء بين الناس ، ورأى فى نفسه هذه المواهب ، فعرض على قومه أن يقوم بأمرهم ، وأنْ يسيرَ فيهم بالعدل فوافقوا عليه . إذن : ذو الكفل فى رأى هؤلاء أنه ليس رسولاً ، بل رجل متطوع بمنهج كمنهج الرسل .

﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٩) جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ (٥٠) مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَا ﴾ أى : ما تقدم من موكب الرسل ﴿ذِكْرٌ﴾ تذكير كما فى قوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا

---

(١) الردء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

الأُخْرَىٰ.. ﴿٢٨٢﴾ [البقرة]

يعنى : هذا الذى ذكرناه من موكب الرسل ومن موقف الأمم معهم ، وكيف أنهم تحمَّلوا تفاهة القوم وقلَّة أدبهم مع أنبيائهم ، وتحمَّلوا الاجتراء باللسان وبالجوارح ، نذكر هذا لمحمد الذى يلْقى من قومه ما يلْقى من الأذى لنذكره أنه ليس بدْعاً فى الرسل ، وأن ما جرى لإخوانه المرسلين لا بُدَّ أنْ يجرى له ، وإذا كنا نقيس الابتلاء بمقدار الرسالة فنصيبُ محمد ﷺ فى هذا الإيذاء أكبر من نصيب الرسل أجمعين .

فقوله تعالى : ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ ..﴿٤٩﴾﴾ [ص] تسليةٌ لسيدنا رسول الله حتى يعلم أنه ليس بدْعاً فى ذلك ، وأن عظمته فى أنْ يتلقَّى سفاهة القوم ؛ لأن القومَ حين يسفهون على الرسول يدلُّ ذلك على أنهم منتفعون بالفساد الشائع فى قومهم ، وما جاء الرسول إلا ليقضى على هذا الفساد ، إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الرسولُ خَصْماً لهؤلاء ، وكلما تصدَّى لفسادهم اشتدتْ عداوتهم له ، وإيذاؤهم وسخريتهم منه ، واتهامهم له بالكذب والسحر والجنون .. إلخ .

فهذه إذن سنة الله تعالى فى كل مَنْ يتصدَّى للدعوة ويجابه الفساد فى المجتمع ، لا بُدَّ أنْ يجد مَنْ يجترىء عليه ويتهمه بالباطل ، ويحاول النَّيْل منه والتشكيك فى قصده ، هذا ردُّ فعل طبيعى إذا وجده الداعية ينبغى أنْ يُسَرَّ به ، فهو إشارة وعلامة تدلّ على نجاحه فى مسعاه ، وأنه نال منهم وغاظهم .

وقوله سبحانه : ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾ [ص] أى : مرجع حسن إلى الله يوم القيامة ، فهى تتحدث عن الآخرة وما ينتظره ﷺ من الجزاء الحسن ، ففى الآية عطاءان لرسول الله :

الأولى : تسليته ﷺ فى قوله : ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [ص] ثم ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [ص] كأنه تعالى يقول : هذا الذى ذكرناه ذِكْر لمحمد كى نُسَلِّيه ، لكن الأهمّ من ذلك ما ينتظره من الجزاء الَحسن فى الآخرة ، الواو هنا عطفت ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [ص] على ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [ص]

والمتقون مادتها : وَقَى يعنى حال بين شىء يصيبه ، وبين نفسه ، واتقى الشىء جعل بينه وبين الشىء وقايةً تحميه . وإذا نظرنا إلى هذه المادة فى القرآن نجد الحق سبحانه يأمر بالتقوى تكليفاً يكلف الإنسان أنْ يقى نفسه مما يعُود عليه بالشر ، وقد أتتْ هذه المادة بلفظ : اتقوا الله ، واتقوا ربكم ، واتقونى ، واتقوا النار ، واتقوا الفتنة.

وكلها تلتقى فى معنى واحد ، لأن لله تعالى كما قلنا صفات جلال وصفات جمال ، فمعنى اتقوا الله: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال لله وقاية ، مثل : المنتقم الجبار القهار .. إلخ .

وهذه الصفات هى التى ترهب المخالف وتردعه ، فاتقوا صفات الجلال من الله ، لأنه سبحانه قادر أنْ يبطش بكم وليس لكم جَلَد على انتقام الله أو التعرُّض لأثر هذه الصفات .

وبنفس المعنى : اتقوا النار لأنها جُنْد من جُنْد الله ، وأثر من آثار صفات الجلال .

وفى موضع واحد من القرآن وردتْ التقوى بلفظ (واتقوا) دون ذكر للمتقَى ، وكأن هذا اللفظ جاء ليدلّ على شمول التقوى أو مطلق التقوى ، فهى تعنى : اتقوا الله ، واتقوا النار ، واتقوا الفتنة .. إلخ .

ومعنى ﴿ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [ص] يعنى : حُسْن مرجع ، لكن أىّ

مرجع ؟ للعلماء فى المرجع كلام فلسفى يقولون : أى مرجع الروح ومردّها إلى الأجساد يوم القيامة ، وهذا كلام لا وزنَ له ؛ لأننا نفهم المرجع والمردَّ إذا لاحظنا الخَلْق الأول ، والخالق سبحانه قبل أنْ يخلق الخَلْق أخذ عليهم العهد ، وهم ما يزالون فى مرحلة الذَّرِّ .

كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : إيمان الفطرة فى عالم الذرِّ والشهادة لله تعالى بأنه الربُّ الخالق المُربِّى تستدعى أن يكون المرجع إليه سبحانه والمردّ إليه للحساب ، هل قابلتم هذه الشهادة بالطاعة أم بالعصيان ؟ فمن أدّى العهد القديم واستصحبه إلى العهد الجديد فقد فاز وله حُسْن مآب ، وأما مَنْ ظلم نفسه وخالف العهد الذى أخذه على نفسه فقد خاب وخسر ، وله فى الآخرة مآب الشرِّ والسُّوء .

ولما كان حُسْن المآب كلمة عامة مُجْملة أراد الحق سبحانه أن يُفصِّلها وأنْ يوضحها لنا ، فقال : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) ﴾ [ص] فكلمة جنات عدن بدل من حُسْن مآب ، فكأن الحق سبحانه حصر حُسْن المآب فى جنات عدن ، والجنات جمع جنة ، وهى المكان الملىء بالأشجار المتشابكة التى تستر مَنْ يسير تحتها ، أو لأنها تجنّ مَنْ يسير فيها وتحبسه عن الخروج فيها أو الحاجة لغيره ؛ لأن فيها كلّ ما يحتاجه ، وهذا هو معنى الجنة فى الدنيا أيضاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

ومثَلُ الجنة التى دخلها آدم ـ عليه السلام ـ ليتلقَّى فيها من الله التجربة التكليفية بافعل ولا تفعل ، لكن نسمع مَنْ يقول أن آدم كان فى جنة الآخرة ، وأخرجه الله منها إلى الدنيا ، وهذا لا يستقيم لأن أول إخبار من الله عن آدم لم يقُلْ أنِّى خلقته للجنة ، إنما قال : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة]

أما مسألة دخوله الجنةَ أى جنة الدنيا ، فذلك لأنك حين تريد أنْ تدرِّب شخصاً على عمل ما فإنك لا بُدَّ أنْ تتكفَّل له بالإقامة والنفقة ، وتوفر له مُقوِّمات حياته بالطريقة التى تتيح له التدريب والقيام بالمهمة التى كلف بها ، وهكذا فعل الله تعالى لآدم ، فلما نسى ما أمره الله به واتبع الشيطان تغيَّرتْ طبيعته ، ولم يَعُدْ صالحاً للإقامة فى هذه الجنة ، كما قال سبحانه : ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا .. (٢٢)﴾ [الأعراف]

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يشعر فيها آدم بسوأته لأنه خالف أمر ربه ، كذلك إذا رأيتَ عورة ظهرتْ فى الأرض إلى أنْ تقوم الساعة فاعلم أنها نتيجة مخالفة لمنهج الله أو تعطيلٍ لحكم من أحكامه ، وإلا ما الذى جعل هذه الفتحة فى آدم عورة ، وهى لا تختلف عن أىِّ فتحة مثلها فى الجسم ، ما الفرق بينها وبين فتحة الفم مثلاً ؟ إذن : متى كانت عورة ؟

كانت عورة حين أصبح لها مُسْتقذرات ينفر منها طبْع الإنسان ، وكيف تكونتْ هذه المستقذرات ؟ تكوَّنت لأنه أكل على خلاف منهج ربه ، بدليل أنه لما أكل وفْق ما أمره الله لم تكُنْ له فضلات ، كان يأكل من طهى الله ، يأكل على قَدْر استبقاء الحياة .

لكن لما خالف وأكل من الشجرة تكوَّنتْ الفضلات وظهر أثرها المستقذر ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (٢٢) ﴾ [الأعراف] يريد أنْ يستر هذه العورة وأنْ يداريها ، لكنها أصبحتْ عادة لازمة للإنسان إلى الأبد ، سوأة لا تُستر ولا تُدفع ، إذن : صارت سوأة بالمخالفة .

لذلك نجدهم فى الحروب وميادين القتال يعطون الجنود أقراصاً مغذية تفيد الجسم ، ولا تترك فضلات ، ولا تزحم المعدة .

ولو تنبَّه آدمُ لوسوسة الشيطان ما طاوعه وما أكل من الشجرة ؛ لأنه أغواهما بقوله : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ [الأعراف] فى حين أنه يطلب من الله أنْ يُنظره إلى يوم يُبعثون ، ولو علم أن هذه الشجرة تبقيه وتُخلده لأكل هو منها ، أليس هو القائل :

﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) ﴾ [ص]

إذن : كان الشيطان كذاباً ، لكن لم يتنبه آدم لكذبه ، قال تعالى :
﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه]

لكن لماذا يقع آدم ـ عليه السلام ـ فى هذا الابتلاء ؟ قالوا : لأن آدم سيكون أباً للبشر جميعاً ، وسيكون ممثلاً لصنفيْن منهم ، صنف معصوم من الخطأ وهم الأنبياء والرسل ، وصنف يخطىء وهم عامة الناس ، إذن : لا بُدَّ أنْ تتمثل فى حياته هاتان الصورتان ، وقد وقع منه العصيان وهو فى الجنة فى فترة الاختبار التكليفى كما قلنا ، وعصيانه هذا لا ينافى عصمة الأنبياء ، لأنه لم يكُن قد نُبِّىء بعد ، لكن تاب آدم فتاب الله عليه ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ .. (٣٧) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه]

إذن : كان الاجتباء والاختيار للنبوة بعد المحنة التى وقع فيها ، وبعد الاجتباء عصم آدم عصمة الأنبياء . وكلمة ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ .. ﴿١٢٢﴾﴾ [طه] دلتْ على التعقيب ووجود مدة بين عصيان آدم واجتبائه.

إذن : قوله تعالى : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ .. ﴿٥٠﴾﴾ [ص] أى : فى دار الجزاء ومعنى ﴿عَدْن﴾ يعنى : إقامة دائمة لا تزول ولا تنتهى ، وقال (عَدْن) لأن جنات الدنيا ينتفع بها صاحبها مدة ثم تزول ، فإما أنْ تصيبها جائحة ، كما فى قوله تعالى فى قصة أصحاب الجنة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ[2] مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ[3] ﴿٢٠﴾﴾ [القلم] وإما أن يموت هو ويتركها لغيره .

لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُطمئن أهل طاعته بأن الجنة التى أعدَّها لهم باقية دائمة لا تزول ، جنات إقامة دائمة خالدة ، لا يفوتك نعيمها ولا تفوته .

وقوله سبحانه : ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾﴾ [ص] مُفتحة اسم مفعول يدل على المبالغة وكثرة تفتيح الأبواب ، فمَن الذى يفتحها ؟

---

(١) يصرمنها : يقطعون ثمارها . والصرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار ، ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

(٢) أى : أحاط بها دمار وهلاك سلطه الله عليها . والطائف هنا العذاب المحيط . [القاموس القويم ١/٤٠٩] .

(٣) كالصريم : أى أصبحت حديقتهم بعد احتراقها كالليل المسودّ ، أو صارت كالأرض التى قُطعت أشجارها ولا نبات فيها . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

يجوز فتحها الخزنة ساعة يرونَ أهل الجنة قادمين يفتحونَ لهم ويحيونهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر]

كما نرى مثلاً فى الفنادق الكبيرة ، يقف الحراس والحُجَّاب على الباب ، وساعةَ يأتى الزائر يفتحون له الباب ، لكن لما ارتقوا بهذه المسألة رأينا الأبواب تُفتح وحدها أتوماتيكياً بمجرد الاقتراب منها ، فإنْ دخل الزائر تُغلق أيضاً تلقائياً . فيجوز أن الأبواب تُفتح بفعل الملائكة ، أو تُفتح بمجرد إرادة أهل الجنة ، فساعةَ يريد أنْ يدخل تُفتح له دون تدخُّل من أحد .

فإذا كان البشر قد توصَّلوا إلى هذه الدرجة فى مسألة فَتْح الأبواب ، فهذا التقدُّم يؤيد ما جاء به القرآن ، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ(١) عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

لقد رأينا هذه السُّقف وهذه المعارج ، وقد يُراد بها السلالم والأسانسيرات التى نصعد فيها الآن ، وقد نزل هذا الكلام منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان على أمة أمية مُتبدية ، لا تعرف المبانى ، إنما تسكن الخيام وبيوت الشَّعر والوَبَر .

إذن : فى القرآن لقطات تدلُّك على أن فى كتاب الله رصيداً لكل ما يجدُّ فى حياة الناس ، فإنْ تعجبتَ لشىء فى كتاب الله فاعلم أن الواقع يؤيده ، وأنكم أيها الخَلْق ستصلون فى علومكم وارتقاءاتكم إلى

---

(١) المعارج : المصاعد والدَّرَج . والمعراج : السُّلَّم [لسان العرب ـ مادة : عرج] . ويظهرون فى الآية : يعلون .

مثْل ما تتعـجبون منه ، فإذا كنتم قدرتم أنْ تفعلوا ذلك فـاسمحوا لله تَعالى أنْ يفعله من باب أوْلَى .

ثم يقول سبحانه فى وصف أهل الجنة ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا .. (٥١) ﴾ [ص] المتكىء هو ما بين النائم والجالس ، أو ما بين النائم والقاعد ؛ لأن هناك فَرْقاً بين قعد وجلس - وإنْ كان المعنى واحداً - لأن قعد تكون عن قيام ، كان قائماً فقعد ، أما جلس فمن الاضطجاع ، يعنى كان مضطجعاً فجلس .

والإنسان حين يكون قائماً يحمل وزنه كله على القدمين ، فإنْ تعب من القيام قعد ، وفى القعود يكون ثقل الجسم على المقعدة ، فإنْ تعب من القعود اتكأ على جنبه .. وهذا وَضْع بين الجلوس والاضطجاع على الأرض ، ويُوزع فيه ثقل الجسم فيكون أكثر راحة للإنسان .

لذلك اختاره الله لأهل الجنة ، واختارته امرأة العزيز للنسوة اللاتى استضافتهن . قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ..(٣١) ﴾ [يوسف] فالمتكأ دَلَّ على أن المجلس لا يُمَلُّ ، وأن الاتكاء هو الوضع الذى يأخذ فيه الإنسان راحته .

وقال تعالى فى أهل الجنة : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ[1] وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) ﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً فى سورة الرحمن : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ[2] خُضْرٍ

(١) الإستبرق : الديباج الغليظ ، وهو من الحرير الطبيعى ، ويصلح للشتاء لأنه مدفىء وللملابس الخارجية . [القاموس القويم ١/١٨] .
(٢) الرفرف : الرقيق من الديباج (الحرير) تبسط ويُجلس عليها فى المجالس .

وَعَبْقَرِيٍّ[1] حِسَانٍ (٧٦) ﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً في بيان مُتكأ أهل الجنة : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ .. (٣١) ﴾ [الكهف]

إذن : أهل الجنة يتكئون إما على الفرش المُبطَّنة بالإستبرق ، وهو الحرير السميك الغليظ ، وهو يشبه ما نسميه الآن (الستان) ، وإذا كانت هذه الفرش حشوها وبطانتها من إستبرق ، فما بالك بظاهرها ؟

ومعنى (رَفْرَف) هو ما نسميه الآن الكرانيش الموجود مثلاً في الستائر . ومعنى (الأرائك) مفردها أريكة ، وهي السرير الذي تُوضع عليه الحليات والستائر أشبه (بالنموسية) مثلاً . هذه هي مُتكاءات أهل الجنة .

لكن ماذا بعد أنْ يتكيء ؟ لابُدَّ لتمام النعيم من الطعام والشراب فهو لا يتكيء ويصوم ، إنما ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ﴾ [ص] فكأن التحية التي تُقدَّم لهم هي ما تشتهيه نفوسهم . يعني : لا يقدم لهم شيئاً على غير مرادهم ، إنما حسب ما يرغبون وما يشتهون ، فالتحية ليستْ مُلزِمة للجميع ؛ لأنها قد لا تصادف هَوىً في النفس ، وقدَّم الفاكهة مع أنها تفكُّه ورفاهية بعد القوت الطبيعي والضروري ، قالوا : وجود الفاكهة أو التفكُّه دليل على وجود الضروريات من باب أَوْلَى .

وقوله ﴿ وَشَرَابٍ (٥١) ﴾ [ص] المراد الشراب المستخرج من العنب ، وخَصَّ الفاكهة والشراب لأنها لم تكُنْ موجودة في البيئة التي نزل فيها القرآن ، فكان لها لذة عندهم ، فهم لا يعرفون في طعامهم

---

(١) عبقر : اسم موضع يزعم العرب أنه مسكن الجن ، ولذا نسبوا إليه كل شيء عجيب . وقيل: عبقر بلدة باليمن تُصنع فيها البُسط الموشَّاة وإليها يُنسب كل شيء حسن عجيب الصنعة . [القاموس القويم ٢/ ٥] .

إلا التمر والبُرّ والشعير ، فذكر لهم ما يشتهونه من الطعام والشراب .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) ﴾ [الواقعة]

وفى سورة البقرة يُبيِّن لهم أن فاكهة الآخرة تختلف عما يعرفونه من فاكهة الدنيا وإنْ تشابه الاثنان ، فالشكل واللون واحد ، لكن المذاق مختلف ، قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴾ [البقرة]

إذن : الثمرة هى الثمرة ، تفاح مثل التفاح ، حتى أنك تقول : هذا الذى أكلتُه فى الدنيا ، والحقيقة أنه مختلف تماماً لأنه مُعَدٌّ لك بطلاقة القدرة .

وفى مواضع أخرى يوضح لنا القرآن الكريم مجلسَ أهل الجنة فيحدثنا مرة عن الفُرُش والمتكأ ، فيقول : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) ﴾ [الغاشية]

النمارق جمع نمرقة ، وهى التكاية التى نتكىء عليها . والزرابى : جمع زربية ، وهى البساط المنقوش . وإذا حدَّثنا عن أدوات الشراب يقول مرة (أكواب) ومرة (أباريق) ومرة (كأس) .

هذه كلها أوعية للشراب ، لكن هناك فرقاً بين هذه الثلاثة : فالكوب هو الإناء الذى ليس له عُرْوة ولا خرطوم ، عروة يعنى يد يُمسك منها . والخرطوم هو الذى نسميه (البزبوز) الذى يُصَبُّ منه الماء ، فإنْ كان له عروة أو خرطوم سُمِّى إبريقاً ، فإنْ كان فى الكوب شرابٌ سُمِّى كأساً ، يعنى : الكأس هو الكوب إنْ كان ممتلئاً ، وإن كان فارغاً فهو كوب .

ومن عـادات العرب فـى الكاسات أن الواحـد منهم لا يشـرب كلَّ ما فيها ، إنما يُبقى فيـها كمية من الشراب ، ثم يريقها على الأرض ، وفى هذا دلالة على عـدم الشَّرَه وعـدم الطمع ، أو دلالة على امـتلاء العين والاستغناء .

وقد عَبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى بقوله :

وِللأرْضِ مِنْ كَأْسِ الكِرَامِ نَصِيبُ[2]

وكنا قبل أن نذهب إلى طعـام أحد الإخوان حـين نُدْعَى إليه نأكل أكلةً خـفيـفة ، أو طبـقاً نسـميـه طبقَ الكرامة ، حـتى لا نجلس على الطعام ونحن متلهفون للطعام ، فلا يليق بالكريم أنْ يُقبلَ على الطعام بشَرَهٍ ، كأنه لم يَرَ طعاماً من قبل .

ومن عادات العـرب أيضاً فى شرابهم أنهم لا يـملئون الكأس إلى آخـرها ، حتـى يستطيـع الشارب أنْ يُمـيـز الشـراب من الكأس التى وُضِعت فيه ، وهذا يدل على صفاء الشراب أو صفاء الكأس .

لذلك قال شاعرهم :

لَوْلاَ انْتِصَافُ الكأْسِ خِلْنَا أنَّهَا ... فِى كَفِّ سَاقِيهَا تقوم بِذَاتِها

يعنى : لو مُلِئت الكأس لَـخِلْتَ أنها كـأس بلا شراب ، أو شـرابٌ بلا كأس .

---

(١) الشاعر هـو : عبد الغنى النابُلسى ، شاعـر عالم بالدين والأدب متصـوف ، ولد فى دمشق عـام ١٦٤١ م ونشـأ بها ورحل إلى بـغداد وفلسطـين ولبنان ومـصر والحـجـاز ، وتوفى بدمشق ١٧٣٠م عن ٨٩ عاماً ، له مصنفات كثيرة جداً منها تعطير الأنام فى تعبير المنام .

(٢) تمام البيت : شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة ... وللأرض من كأس الكرام نصيب

وهو بيت من قصيدة من بحر الطويل ، عدد أبياتها ثلاثة أبيات .

لكن ماذا يطلب أهل الجنة بعد الاتكاء وبعد الأكل والشرب مما تشتهيه أنفسهم ، قالوا : الإنسان بعد أن تتوافر له هذه النعم يتطلع إلى حسناء يداعبها تكون له وحده لا يشاركه فيها غيره ، لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

معنى ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [ص] أى : تقصر الواحدة منهن عينيها فلا تمتد إلى غير مالكها فلا يطمع أحد أن ينظر إليها ، والطرف أو العين لها أثر ولها كلام ولغة ، ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف] إلى أن قال سبحانه حكاية عن يوسف : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[يوسف]

فالقصة كانت مع امرأة واحدة هى امرأة العزيز ، فكيف يقول هنا ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف] و ﴿ كَيْدَهُنَّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف] و ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف] هكذا بصيغة الجمع .

إذن : لا بُدَّ أنهن ساعةَ رأيْنَهُ نظرتْ إليه كُلٌّ منهن نظرة استدل منها على أنها تهواه ، فالنظرة إذن لغة تحمل كلاماً ، وتُعبِّر عما فى نفس صاحبها ، لذلك تكلم يوسف عنهن جميعاً ، لا عن امرأة العزيز وحدها . لذلك لما أراد العزيز أنْ يستدعيه قال : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَة

اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ .. ﴿٥٠﴾ [يوسف] والكلام كان فى البداية عن امرأة العزيز .

ومن النظرات التى كانت لها دلالاتٌ فى أدبنا العربى ما حُكِى عن أبى دلامة[1] لما دخل على الخليفة[2] وحوله الأعيان ، وأراد الخليفة أنْ يداعبَ أبا دلامة فقال له : يا أبا دُلاَمة ، لتهجونَّ واحداً منا أو لأقتلنَّكَ ، فوقف أبو دلامة يفكر فيما يقوله ، وجعل الحاضرون ينظرون إليه ، كُلٌّ يقول له بالنظرة لا تَهْجُنى ، ولك ما تشاء من العطاء ، فواحد يُرغِّبه وواحد يُرهِّبه .

وأخيراً ، رأى أبو دلامة أنْ يُرضِىَ الخليفة ويهجو نفسه طمعاً فيما ينتظره من عطاء هؤلاء الأعيان ، وفوجىء الجميع بأبى دلامة يقول[3] :

أَلاَ أبلغ لديْكَ أَبَا دُلاَمَةَ ... فَلَيْسَ مِنَ الكرام وَلاَ كَرَامَه

إذَا لَبِسَ العِمَامَةَ كَانَ قِرْداً ... وَخِنْزِيراً إذَا نَـزَعَ العِمَامَه

واغتنى أبو دلامة من جراء هذه الدعابة .

فمعنى ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ [ص] أى : تَغضّ طرفها

---

(١) أبو دلامة هو : زند بن الجون الأسدى ، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون جسيم وسيم ، كان أبوه عبداً لرجل من أسد وأعتقه ، نشأ فى الكوفة ، واتصل بالخلفاء من بنى العباس فكانوا يستلطفونه ويغدقون عليه أعطياتهم ، وله فى بعضهم مدائح . كان يُتهم بالزندقة لتهتكه . وأخباره كثيرة متفرقة . توفى عام ١٦١ هجرية .

(٢) هو : الخليفة المهدى العباسى ، محمد بن عبد الله أبو عبد الله ، المهدى بالله ، ولد ١٢٧ هـ وتوفى ١٦٩ عن ٤٢ عاماً ، أقام فى الخلافة ١٠ سنين ، كان محمود السيرة ، حسن الخُلُق والخَلْق ، كريماً ، بانى جامع الرصافة . (الأعلام للزركلى) .

(٣) البيتان من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤ أبيات .. وذكرهما أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى ، وابن عبد ربه فى العقد الفريد ، والنويرى فى « نهاية الأرب فى فنون الأدب».

عن غير مالكها ، وهذه للخصوصية المطلوبة فى المرأة بالذات ؛ لأنك تجد الرجل مهما كان سَمْحاً كريماً يجود بكل ما يملك على مَنْ يحب إلا المرأة ، فإنه لا يطيق مجرد أنْ ينظر أحد غيره إليها ، فهذه صفة للمؤمن فى الدنيا ، وهى أيضاً صفته فى الآخرة .

لذلك نقول : إن من عجائب ما يفعله الإيمان بأهله ومن مزاياه ، أنه لا يخلع العقائد من القلوب ولا الاختيار من العقول فحسب ، بل يخلع الاتجاه من العاطفة أيضاً ، وقد رأينا ذلك فى قصة المهاجرين والأنصار ، فالإيمان خلع من القلوب الكفرَ ، وخلع من العقول حُبَّ العناد فى الاختيار ، ثم خلع أقوى العواطف وهى عاطفة الرجل نحو امرأته .

ألم يَقُل الأنصاريُّ لأخيه المهاجر الذى جاء بغير أهله : انظر إلى زوجاتى ، فأيّهنّ أعجبتْكَ أطلقها لتتزوجها أنت[(١)] . إلى هذه الدرجة فعل الإيمانُ بالمؤمنين الأوائل .

ومعنى ﴿ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [ص] أى : متساويات فى الحُسْن أو فى السنِّ بحيث لا تميز منهن واحدة عن الأخرى ، فكُلُّهن جميلات فى

(١) آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة إلى المدينة ، فكان أن آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصارى ، فقال له سعد : أخى أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالى فخذه . وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك . فقال عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دُلونى على السوق ، فدلوه على السوق فاشترى وباع فربح فجاء بشىء من أقط وسمن ، ثم لبث ما شاء الله أن يابث فجاء وعليه رَدْع من زعفران ، فقال رسول الله ﷺ : مهيم ؟ فقال : يا رسول الله تزوجت امرأة . قال : فما أصدقتها ؟ قال : وزن نواة من ذهب . قال : أولم ولو بشاة . قال عبد الرحمن : فلقد رأيتنى ولو رفعت حجراً رجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة » . أخرجه ابن سعد فى كتاب « الطبقات الكبير» (٣/١١٦ ، ١١٧) ، وكذا الذهبى فى « سير أعلام النبلاء » (١/٩٢) .

سنٍّ واحدة ، وحُسْن واحد ، وقَوَام واحـد ؛ لماذا ؟ قالوا : حتى تظل الأَعْيُنُ مـقصورةً علـى ما تملك لا يطمع أحدٌ فى الأُخْـريات ولا ينظر وتزوغ عينه على مَا ليـس له ، فلو كانت النساء جميـعهن على درجة واحدة ، فلمَ النظر إذن ؟

أو ﴿أَتْرَابٌ (٥٢)﴾ [ص] يعنى : مـثله ومناسـبة له تتـقلب له فى الصورة التى يحبها .

وقـوله سبـحـانه : ﴿هَـٰذَا .. (٥٣)﴾ [ص] أى : ما ذكـرناه من الجنة ونعيمهـا ، هذا المذكور كله ﴿مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣)﴾ [ص] لكن نوعد مـمن ؟ نوعد مـمَّنْ يملك إنفاذَ ما وعـد به ، نعم لأنه سـبحـانه القادر الـعزيز الغـالب ، ليس هناك قـوة تعانده ، ولا قـوة تعارضه فيما يريد .

فأنت تَعد الوعد وفى نيتك الوفاء به ، هذا عند التحمل ، لكن أنت لا تملك عنصـراً واحداً من عنـاصر الوفـاء بما وعـدتَ ، فيـأتى وقت الوفاء فـلا تُوف ؛ لأنه عَرَض لك عـارضٌ حال بينك وبين الوفـاء بما وعدتَ ، أما الحق سبحَانه فوَعْده حق ، لأن له طلاقةَ القدرة .

وقوله : ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣)﴾ [ص] أى : حساب المـتقين ؛ لأن الحساب مطلقـاً يشمل المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، فـالحساب هنا أى حساب أهل الإيمان ، كمـا قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)﴾ [ص]

ثم يقول سـبحانه : ﴿إِنَّ هَـٰذَا .. (٥٤)﴾ [ص] أى : الذى ذكرناه ﴿لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤)﴾ [ص] فلم يَقُلْ لرزقكم إنمـا ﴿لَرِزْقُنَا .. (٥٤)﴾ [ص] فكأنهم هم الذين يقولون ، وهم الذين يـقرءون أن ما شم

فيه من النعيم باقٍ لا ينفد ، لماذا ؟ لأنهم عاينوا صدْق الوعد ، وأن الله أدخلهم الجنة علَى الوَصْف الذى أخبرهم به ، فعلموا أن وعد الله حَقٌّ ، وأن نعيمه خالد بَاقٍ لا يزول .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن المتقين الأخيار يتكلم بعدها عن الأشرار ، فالصورة الأولى ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) ﴾ [ص] يقابلها :

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ (٥٨) ﴾

قال هنا أيضاً (هذا) أى : الكلام السابق عن جزاء المتقين فى الجنة . وفى مقابله ﴿ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) ﴾ [ص] لشرّ مصير وأسوأ منقلب ومرجع ، والمآب هنا أيضاً كالمآب السابق ، مآب إلى مَنْ أخذ عليهم العهد الأول ومنحهم إيمانَ الفطرة ، فكلُّ مولود يُولَد على الفطرة ، لكن هؤلاء لم يُوفوا بالعهد الذى أخذوه على أنفسهم ، إنما خالفوا ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وكما فَصَّلَ الحق سبحانه حُسْن المآب يُفصِّل هنا أيضاً شر المآب ، فيقول ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا .. (٥٦) ﴾ [ص] أى : يصطلون بنارها ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) ﴾ [ص] أى : ساء . والمهاد : هو فراش الطفل الذى يمهد له لينام فيه نَوْمةً مريحة ، لكن ليس للطفل دَخْل فى إعداده إنما يُعدُّه له وليُّه الذى يتولى أمره ، كذلك هؤلاء الطاغون لا دَخْلَ لهم فى المهد الذى سيُلْقون فيه .

إذن : استخدام المهد هنا على سبيل الاستهزاء والسخرية منهم . ﴿هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧)﴾ [ص] أى : يذوقوا العذاب (حَمِيم) هو الشيء الحار الذى تناهتْ حرارته ، و (غَسَّاق) هو صديد أهل النار الذى يسيل منهم فى جهنم والعياذ بالله ، تقول : غسقتْ عينه أى : سال دمعها .

لكن هل ينتهى العذاب بالحميم والغساق ؟ لا ، بل لهم ألوان أخرى من العذاب ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨)﴾ [ص] آخر : يعنى عذاب آخر غير هذا ينتظرهم ﴿مِن شَكْلِهِ .. (٥٨)﴾ [ص] من مثله ومن جنسه ومن نوعه وتكوينه ﴿أَزْوَاجٌ (٥٨)﴾ [ص] أنواع وأصناف مختلفة ، وإلاَّ فأين المُهْل[1] ؟ وأين شجرة الزقوم التى طَلْعها كأنه رؤوس الشياطين ، وغيرها من ألوان العذاب الذى أعدَّه الله لهؤلاء الطاغين ؟

وبعد أن أعطانا الحق سبحانه هذه المقابلَة التوضيحية بين جزاء أهل الأخيار المتقين ، ومصير الأشرار الطاغين ، أراد سبحانه أنْ يُفرِّق بين صحبة الأخيار وصحبة الأشرار ، فصحبة الأخيار تعينك على الطاعة وتعينك على الخير ، وصحبة الأشرار تجرُّك إلى الشر وتدعوك إلى المعصية .

ففى المدارس مثلاً ، كم من تلميذ تفوق لأنه مَاشَى زميلاً له من أهل الخير أعانه على دروسه وحَثَّه على المذاكرة وخَوَّفه من سوء العاقبة آخر العام إنْ أهمل ، وفى المقابل كم من تلميذ فشل لأنه صاحبَ الأشرار الذين أغروْه بالهروب من الحصص ، وأخذوه إلى

---

(١) المهل : المعدن المذاب والقطران وعكر الزيت المغلىّ والقيح ، قال تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

الشارع ، وإلى السلوك غير المستقيم .

وفى النهاية ، لا بُدَّ أنْ يحمد المتفوق زميله الذى أخذ بيده إلى الخير ، ولا بدّ أن يذم الفاشل زميله الذى أغراه وأضلّه وضيَّع عليه الفرصة .

أراد الحق سبحانه أنْ يعطينا هذه الصورة ، فقال سبحانه :

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) ﴾

هذه الآيات تصور لنا موقفاً من مواقف القيامة دار بين أهل الشر الذين تعاونوا عليه واجتمعوا من أجله، بين الأخلاء على الشر ، وهذا الحوار عناصره ثلاثة ، هم : الملائكة خَزَنة النار ، وزعماء الكفر الذين سبقوا إلى النار ، ثم أتباعهم من الذين أضلوهم ، يقول الملائكة لزعماء الكفر : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ (٥٩) ﴾ [ص] يُنبهون أهل النار أن جماعة من أتباعكم قادمة إليكم .

ومعنى ﴿ مُّقْتَحِمٌ .. (٥٩) ﴾ [ص] يعنى : داخل النار بشدة وبسرعة ، لكن كيف يسرع الداخل وهو داخل إلى النار ؟ قالوا : لأنه لا يسير بإرادته ، إنما يُجبر على الحضور ويُدفع إلى الدخول رَغْماً عنه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور]

والفوج هو الجماعة أو الطائفة كما نقول : فوج الحجاج ، أو فوج المسافرين .

فماذا قال زعماء الكفر الذين هم فى النار ؟ قالوا : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ

﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ [ص] يعنى : لا سعةَ ولا تحيةَ ولا تكريم ، هكذا حال الأخلاء على شَرٍّ ، ففى الآخرة تنقلب هذه الخُلَّة وهذه الصداقة إلى عداء ، ويلعن كل منهم صاحبه ، المتبوع يلعن التابع ، والتابع يلعن المتبوع ، وها هم المتبوعون يقولون لأتباعهم : ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ .. ﴿٥٩﴾﴾ [ص] وعلام نرحب بهم ؟ أجاءوا لينقذونا مما نحن فيه ؟ أو حتى ليخففوا عنا ؟ إنهم جاءوا للنار وللاصطلاء بحرِّها.

فردَّ الفوج المقتحم الداخل على قادته وزعمائه الذين أضلوه : ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا .. ﴿٦٠﴾﴾ [ص] أى : الكفر والضلال ، يعنى : أنتم غَشَشْتُمونا وأضللتمونا وأخذتم بأيدينا إلى هذا المصير السيء ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾[المجادلة] الذى صرْتم وصرْنا إليه ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [ص]

وفى موضع آخر ، يُصوِّر القرآنُ هذا الموقفَ ، فيقول حكايةً عن الكافرين : ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب]

فطلبوا لهم ضعفين من العذاب ، لأنهم ضلُّوا فى أنفسهم ، ثم أضلُّوا غيرهم فاستوجب كل ضلال جزاءً ، إذن : لا بُدَّ أنْ يكونَ المتبوعُ أشدَّ عذاباً من تابعه ، والحق سبحانه لا يُعذِّب عبده بأكثر مما يستحق ، لكن هؤلاء يُضَاعَف لهم العذابُ ضعْفين من ناحية انفكاك الجهة ، فضعْف لأنه ضَلَّ فى ذاته ، وضعْف لأنه أضلَّ غيره .

ومعنى : ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا .. ﴿٦٠﴾﴾ [ص] أى : بالإغواء والتزيين وتحسين الضلال وتيسير سُبُله .

وفى موضع آخر فى سورة البقرة يُبيِّن الحق سبحانه أن الأخلاء

على الشر سيتبرأ كل منهم من الآخر : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[1] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة]

وما أشبه موقفهم هذا بموقف الشيطان حين يقول لأتباعه يوم القيامة : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[2] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

هذا إذن مصير الأخلاء على الشر ، تنتهى خُلَّتهم بالعداوة واللعن أما الأخلاَّء على الخير فهم أخلاء فى الدنيا أخلاء فى الآخرة ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

كلمة أخلاء جمع خليل ، والخُلَّة تعنى أنهما تحابَّا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه ، تحابًا حُباً تعدَّى مرحلة اللقاء والعناق إلى أن ذوَّب كلاً منهما فى الآخر ، وكأنه أحدث بينهما تداخلَ ذرات من جسم إلى جسم ، وهذا الذى عَبَّر عنه إسماعيل صبرى[3] رحمة الله عليه حين قال :

---

(١) الكرّ : الرجوع . والكرَّة : البعث وتجديد الخَلْق بعد الفناء . [لسان العرب ـ مادة : كرر].

(٢) المصرخ : المغيث المنقذ مَنْ يستصرخه . والمصرخ : الذى يُزيل سبب الصَّريخ وسبب الصُّراخ . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤] .

(٣) من شعراء الطبقة الأولى فى العصر الحديث ، امتاز بجمال مقطوعاته وعذوبة أسلوبه ، درس الحقوق بفرنسا ، وتدرج فى مناصب القضاء بمصر ، كان يكتب شعره على هوامش الكتب والمجلات ، وينشره أصدقاؤه خلسة ، رفض مقابلة كرومر وقال : لن أكون رئيساً للوزارة وأخسر ضميرى . ولد ١٨٥٤ م ، وتوفى ١٩٢٣ م عن ٦٩ عاماً .

وَلَمَّا التقَيْنا قَرَّبَ الشَّوْقُ جُهْدُهُ ... خَليلَيْنِ فَاضَا لَوْعةً وَعتَابَا
كَأنَّ حَبِيباً فى خَلال حَبيبِه ... تَسرَّبَ أَثْنَاءَ العِنَاقِ وَغَابَا[1]

لكن كيف يكون تحسين الضلال ؟ وكيف يقبل الناسُ الإغواءَ بالباطل ؟ قالوا : لأن أيَّ منهج من السماء لا بُدَّ أنْ يصادمَ شهوات النفس ونزواتها ، فحين تتغلب الشهواتُ والنزوات على الإنسان يلجأ إلى إله لا منهجَ له ولا أوامرَ ولا نواهيَ ، ومن هنا ضَلَّ الناسُ ، فعبدوا الأصنام والجمادات ، لأن عبادة مثل هذه الآلهة تُشعِرهم بالتديُّن الذى يميل إليه الإنسان بطبعه ، فهو إذن متدين .

وفى نفس الوقت ، ينفلت من قيود المنهج ، لأن إلهه لا يأمره بشىء ، ولا ينهاه عن شىء ؛ لأن العبادة كما قلنا : طاعة العابد للمعبود فى أمره ونَهْيه ، فالذين عبدوا الأصنام مثلاً أو الشمس أو القمر ، بماذا أمرتْهم هذه الآلهة ، وعَمَّ نَهتم ؟ ماذا أعدَّتْ هذه الآلهة لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمن كفر بها ؟

إذن : فهى آلهة باطلة ؛ لأن المعبود بحق له منهج افعل ولا تفعل ، عنده الثواب لمَن أطاع ، والعقاب لمن يعصى .

ثم يلتفت أهل النار لفتة أخرى :

﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

---

(١) البيتان من بحر الطويل ، وفى الموسوعة الشعرية شجيَّين بدلاً من خليلين .

﴿ وَقَالُوا (٦٢) ﴾ [ص] أى : أهل النار ﴿ مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً .. (٦٢) ﴾ [ص] يعنون أصحاب محمد الذين ﴿ كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) ﴾ [ص] ، كما قال الكفار لسيدنا نوح عليه السلام : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾ [هود] كذلك قال كفار مكة لأتباع محمد من العبيد أمثال بلال وخبّاب وغيرهم .

فزعماء الكفر فى النار ينظرون حولهم ، فلا يجدون هؤلاء الأشرار - معهم - فيتعجَّبون ﴿ مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) ﴾ [ص] أين هم ؟ فالحال أنَّا لا نراهم ، ثم يعودون إلى أنفسهم فيقولون : ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا .. (٦٣) ﴾ [ص] يعنى : سخرنا منهم ، وقلنا : إنهم أشرار وهم ليسوا أشراراً ، فمصيرهم غير مصيرنا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) ﴾ [ص] يعنى : هم موجودون معنا ، لكن زاغتْ أبصارنا فلا نراهم .

وكلمة (سِخْرِيّاً) من السخرية والاستهزاء ، أما سُخرياً بالضم فهى بمعنى الاستغلال والاستذلال من التسخير فى الأعمال . ومعنى ﴿ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) ﴾ [ص] يعنى : مالتْ عنهم ، وقولهم ﴿ مَا لَنَا لا نَرَىٰ .. (٦٢) ﴾ [ص] مثل قول سيدنا سليمان فى قصة الهدهد : ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ .. (٢٠) ﴾ [النمل] فالمعنى أن الهدهد لا بُدَّ أنْ يكونَ موجوداً ، لكن المانع عندى فى أنْ أراه ، ثم استدرك فقال : ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) ﴾ [النمل]

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾ [ص] ولا بدَّ أنْ يتخاصمَ أهلُ النار لأنهم إما ضَالٌّ وإما مُضِلٌّ فيُلْقى كل

منهم اللومَ على الآخر ساعةَ يرى المصير الذى صاروا إليه ، ثم مَن الذى أخبرنا بهذا التخاصم ، أخبرنا به القرآن الكريم ، والقرآن لم يَقُلْ قضية وخالَفها الواقع .

ولك أنْ تلاحظ هذه الحقيقة من واقع القرآن مع المجتمع منذ بَعْث محمد ﷺ إلى عصرنا الحالى ، أأخبر الحق سبحانه بقضية ، وجاء الواقع مخالفاً لها ؟ ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** .. (٤٣) ﴾ [فاطر]

فمثلاً فى بدر انتصرنا عليهم وقتلنا منهم قَتْلى وأخذنا أسْرى ، ولم يمر عام واحد حتى جاءتْ أُحُد ، وفيها سار الكفار من مكة إلى مقربة من المدينة ، وكانت المؤشرات تدل على انتصار المسلمين ، لكنهم خالفوا منهج الله فى عدم طاعتهم أمر رسولهم .

وقد كان رسول الله قد أمر الرُّماة ألاّ يتركوا أماكنهم مهما حدث.

فلما رأى الرماة تفوُّق المسلمين وشاهدوا بوادر النصر سالَ لعابهم على الأسْلاب والغنائم ، فنزلوا إليها ، وتركوا أماكنهم ، فاستغلَّ الكفارُ الفرصةَ ، والتفُّوا حول المسلمين ، وفعلاً (ماعت) المعركة وإنْ كنا لم نُهزم ، إلا أننا لم ننتصر ، مع أن الله تعالى وعد رسله بالنصر ووعد جنده بالغلبة ، فقال سبحانه : ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)** ﴾ [الصافات]

ومع ذلك كان عدم النصر فى أُحُد ظاهرة صحية فى الإيمان ؛ لأن المسلمين لو انتصروا مع المخالفة لأمر الرسول لَهَان عليهم أمره بعد ذلك ، ولقالوا : خالفناه فى أُحُد وانتصرنا ، فإذا رأيتَ جندياً للإسلام يُهزم فاعلم أنه خالف التوجيه ، إما خالف توجيه الرسول ، أو خالف توجيه القائد الموكَّل من الرسول .

إذن : سنة الله فى النصر لم تتخلف ، إنما تخلفتْ الجندية لله تعالى ؛ لذلك قُلْنا فى أُحُد لم ينتصر المسلمون ، لكن انتصر الإسلام وانتصرتْ أوامره .

كذلك حذَّرنا الحق سبحانه من الغرور والزَّهْو بالقوة وكثرة العدد ، لأن النصر فى الحقيقة ليس بكثرة عددكم ، إنما النصر من الله ، وهذا الدرس أخذناه فى غزوة حنين ، فأبو بكر نفسه داخله شىء من ذلك حين رأى أعداد المسلمين مقارنةً بأعداد الكافرين ، فقال : لن نُهزم اليوم من قلَّة[1] ، فأعطاهم الله درساً لا يُنْسَى ، وكاد النصر أنْ يكون للكفار ، لكن أدركتهم رحمة الله ، وحَنَّ الله عليهم فى نهاية المعركة وحُسِمتْ لصالح الإسلام .

---

(١) قال تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا .. (٢٥)﴾ [التوبة] . وقد ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٧٣) أن محمد بن إسحاق قال : حدثنى بعض أهل مكة أن رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة إلى حنين ، ورأى كثرة مَنْ معه من جنود الله : « لن نُغلب اليوم من قلة » وزعم بعض الناس أن رجلاً من بنى بكر قالها .

إذن : فالزَّهْو والغرور مخالف لقواعد الجندية فالنصر ليس بالعدد ولا بالعُدَّة ، إنما النصر من الله كما قال سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التوبة]

وقال : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. (١٧) ﴾ [الأنفال]

إذن : نقول ما دام أن الله أخبرنا بتخاصم أهل النار فهو حَقٌّ واقع نؤمن بصدقه .

ثم أراد الحق سبحانه أن يعطى نبيه ﷺ حجَّة ، فقال :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ (٦٦) ﴾

نفهم هذه الآيات فى ضوء ما حكاه القرآن فى أول السورة من تكذيب الكافرين لرسول الله ، ففى الآيات الأولى من السورة قال تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) ﴾ [ص] إلى أنْ قالوا : ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) ﴾ [ص]

إذن : الآيات فى صدر السورة تبين أن هؤلاء القوم عندهم خَلَل فى قضيتين الأولى فى قضية التوحيد ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا .. (٥) ﴾ [ص] والأخرى : قضية النبوة ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا .. (٨) ﴾ [ص]

فجاءت هذه الآيات لتردَّ عليهم ولتصحح هذا الخلل ، فقال هنا :

(قل) يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ .. (٦٥)﴾ [ص] واختار هنا الإنذار مع أن الرسول ﷺ جاء بشيراً ونذيراً ، لأن الكلام هنا فى مواجهة الكافرين ، فناسبهم الإنذار ، وفى القضية الأخرى يقول سبحانه : ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦)﴾ [ص]

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠)﴾

معنى (نَبأ) هو الخبر الهام الذى وراءه حقائق لا يُكذِّبها الواقع.

وقال فى سورة (النبأ) : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ] ووصف بأنه عظيم لأنه سيترتب عليه أمران يتعلقان بالدنيا والآخرة . فإنْ كنتَ أخذت حظك فى اتباع شهواتك فى الدنيا ، والدنيا لها نهاية ، فستصلَى فى الآخرة ناراً لا نهاية لها .

وكان عليك أنْ تتنبه لهذه المسألة ؛ لأن الإنسان لا بُدَّ له أنْ يحدد غايته فى الوجود ، والغاية الحقيقية هى التى ليس بعدها بَعْد ، أما الغاية التى بعدها بَعْد فليست بُغاية ، بل هى مرحلة تؤدى إلى ما بعدها ، كالتلميذ ينجح فى القبول مثلاً ، فيؤدى به النجاح إلى الإعدادية ، والنجاح فى الإعدادية يؤدى به إلى الثانوية ، والثانوية إلى الجامعة .

وهكذا حتى لو أخذ الدكتوراه فإنه ينتقل إلى ما بعدها من مراحل ثم الموت ، حتى الموت ليس هو نهايةَ المطاف إنما بعده ، إما إلى

نار وإما إلى جنة ، وهذه هى الغاية التى ليس بعدها بعد ، لأنها باقية خالدة لا نهاية لها .

لذلك الحق سبحانه يُنبهنا إلى هذه الغاية (قل) يا محمد ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص]

وكلمة مُعرِض يعنى : منصرف هى التى نقول عنها : فلان أعطانى عرض أكتافه يعنى : مال عنى وانصرف ، وهذه الكلمة تمثيل لواقع الناس حين يُدْعَوْنَ للإنفاق ، وحين يُدْعَوْنَ لعمل الخير ، فمنهم مَنْ يُعرِض عنه ، ويكون الإعراض على مراحل : أولاً يميل عنك بوجهه ويلوى رقبته ، ثم يعطيك جنبه ، ثم يبالغ فيدير لك ظهره .

وقد صور لنا القرآن هذا المشهد ، فقال سبحانه فى وصف عاقبة الإعراض عن الإنفاق فى سبيل الله : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ .. ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة]

هكذا يكون الجزاء من جنس العمل ، وبنفس ترتيب الإعراض فى الدنيا ، يكون الكى فى الآخرة ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة]

إذن : الأعضاء التى اشتركتْ فى الإعراض هى التى ستُكْوى ، وعلى قَدْر الإعراض يتسع الكَىّ .

ثم أراد الحق سبحانه أن يُدلل على أن محمداً لا يعلم الغيب ، فقال : ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [ص] لأنه سبحانه سبق أنْ تكلم عن تَخاصُم أهل النار ، فقال : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص] وقد أوضح سبحانه تخاصم الملأ الأعلى

من الملائكة فى المبدأ ، حين قالوا للحق سبحانه : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ .. (٣٠)﴾[البقرة] هذا هو خصامهم ، لا أنهم يتخاصمون كما يتخاصم البشر ؛ لأن الله قال عنهم : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾ [الأنبياء]

إنما سمَّى الحوار الذى دار بينه سبحانه وبين الملائكة (تخاصم) ، فكأنهم يغارون على الله أنْ يخلق خَلْقاً آخر هم البشر يعصونه ويفسدون فى الأرض ، كما أفسدتْ الجنُّ من قبل .

ثم يُبيِّن سبحانه أن محمداً لا يعلم الغيب ، إنما يخبره اللهُ به وَحْياً : ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠)﴾ [ص] فالذى أعلمنى بما سبق يعلمنى بما هو آتٍ ، وهذا تَرقٍّ فى علم الغيب .

والغيب له ستار يحجبه عنا ستار يحجب الماضى وستار يحجب المستقبل ، يحجب الماضى الزمن لأن الزمن القديم مثلاً لم يكن فيه تدوين لأحداثه ، ولو كان فيه تدوين فهو تدوين مزيف ، لأنه رأى البشر فيما حدث ، وآراء البشر لا بُدَّ أن تختلف .

كذلك يحجب المستقبل زمنَ المستقبل ، فأنت لا تعلم ما سيحدث مستقبلاً ، أما الحاضر الذى نعيشه فزمنه واحد لكن مكانه مختلف ، فحجابه المكان ، فأنت تعلم الآن ما يحدث فى مكانك ، لكنك لا تعلم ما يحدث فى الأماكن الأخرى .

فالمعنى أن الذى أخبرنى أولاً بأن الملائكة قالت كذا وكذا هو الذى أخبرنى بتخاصم أهل النار ، إذن : فهو حق .

وقال هنا أيضاً ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠)﴾ [ص] أى : واضح ، لأن

الحديث ليس للمؤمنين أهل البشارة ، إنما للمخالفين فناسبهم ﴿أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ⑦⓪﴾ [ص]

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ⑦① فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ⑦② فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ⑦③ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ⑦④﴾

هذا الكلام جاء من الحق - سبحانه وتعالى - للملائكة على سبيل الإخبار ، لكن فهموا هم أنه استشارة ، وأن الخالق سبحانه يستشيرهم فى مسألة خَلْق الإنسان ؛ لذلك قالوا ما قالوه ، وكان عليهم أنْ يتنبهوا إلى أن المسألة مبتوتٌ فيها ، وأنها قضية منتهية ؛ لأن الله أخبر بها بقوله : ﴿إِنِّى خَالِقٌ .. ⑦①﴾ [ص] هكذا بلفظ التوكيد.

وهنا لا بُدَّ أنْ نشيرَ إلى أن البعض يحاول الاستدراك على كلام الله فى مسألة خَلقْ الإنسان من طين ، يقولون : إن القرآن قال مرة : من طين. ومرة : من ماء . ومرة : من حمأ مسنون . ومرة : من صلصال ، والواقع أن هذه مراحل للشيء الواحد وليست اختلاف بدايات مأخوذ منها ، فالتراب حين يوضع على الماء يصير طيناً ، فإذا تُركَ الطين حتى عطن وتغيَّرت رائحته ، فهو الحمأ المسنون ، فإذا جَفَّ وتصلَّب فهو صلْصَال كالفخار .

ولما خلق الله الإنسان خلقه من الطين ، بمعنى أنه جامع لكل عناصر التربة السوداء والصفراء والرملية .. إلخ وقد توصَّل العلماء

إلى أن هذه التربة هى الصالحة للزراعة ، لأن الطينة أو التربة إنْ كانت متماسكة تمسك الماء تحت الجذر فيمور ويذبل النبات ، وإن كانت رملية تسرب فيها الماء قبل أنْ يمتصَّه النبات .

إذن : نحتاج إلى تربة بين بين ، بحيث تمسك الماء بالقدر الذى يتيح للنبات أنْ يستفيد منه ويمتص عناصر الغذاء ، ثم يتسرَّب الباقى فلا يضر بالجذور.

كما توصل العلماء إلى أن عناصر جسم الإنسان عبارة عن ١٦ عنصراً ، تبدأ بالاكسوجين بنسبة ٦٧٪ وهى أعلى نسبة وتنتهى بالمنجنيز . وأن الطين يحتوى على نفس هذه العناصر الستة عشر ، وهذا يثبت صدْق الحق سبحانه فى خلْق الإنسان من الطين .

ومعنى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ .. (٧٢) ﴾ [ص] يعنى : صوَّرْتُ قالبه وشكله ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٧٢) ﴾ [ص] يعنى يصير مخلوقاً كاملاً تدبّ فيه الحياة ويتحرك ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص] أى : خرّوا ساجدين، ليس سجودَ عبادة ، إنما سجود طاعة لصاحب الأمر بالسجود .

إذن : سجود الملائكة لم يكن لآدم ذاته ، إنما كان لله الذى خلق آدم وأمر الملائكة أنْ تسجدَ له ، ومعنى تسجد له كما تقول : أنا أسجد للقبْلة ، فالسجود ليس للقبلة ذاتها إنما ناحيتها . ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [ص]

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ (٧٥) ﴾

المتتبع لهذه القصة يجد أن القرآن استوعبها فى سبع سور ، لكن بأسلوب مختلف فى كل منها ، فمرة قال : ﴿ أَبَىٰ .. (٣١) ﴾ [الحجر]

ومرة قال : ﴿ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ .. (٣٤) ﴾ [البقرة]

المسألة الأولى التى أردنا توضيحها فى هذه القصة أن الحق سبحانه لم يجعل الجنة التى خرج منها آدم إلى الأرض هى جنة المأوى ، لأنه لم يُخلق للجنة ثم خرج منها بمعصيته ، إنما خُلق آدم للخلافة فى الأرض ، وفى أول بلاغ عنه من الله قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة]

إذن : هو مخلوق للأرض ، ونظراً لأنه أبو البشر جميعاً ، والبشر على صنفين : صنف معصوم هم الرسل ، وصنف غير معصوم هم عامة الناس ، فكان ولا بُدَّ أنْ يتمثّل فى آدم ما ثبت للصنفين ، عصى آدم أولاً ، ثم اجتباه ربه وتاب عليه وعصمه الله بعدها ، إذن : لم يَعْص آدم وهو نبى ، إنما عصى قبل النبوة .

والحق - سبحانه وتعالى - لما عرض هذه المسألة وقال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة] لم يشأ سبحانه بعدالته ورحمته أنْ يُنزلَ آدم إلى الأرض ليعمرها بغير منهج من المناهج التى تُصلح حركةَ الحياة ، ولم يشأ أنْ يُجرِّب فيه التكليف الأول ، فصنع له قطعة من الأرض فيها كل مقومات الحياة وترفها ، وأسكنه إياها ليدربه على التوجيه والتكليف بافعل ولا تفعل .

فأباح له أنْ يأكل من كل ما فى هذا البستان إلا شجرة واحدة نهاه عن مجرد الاقتراب منها ، ليمثل له الإباحة فيما أحل والحظر فيما منع ، ثم ذكَّره بعداوة الشيطان له وحذَّر منه ومن وسوسته .

لكن أغوى الشيطانُ آدمَ ، فأكل من الشجرة التى نُهِى عنها ، وحدثتْ منه المخالفة التى ترتب عليها ظهور عورته لأول مرة ، وهنا إشارة رمزية إلى أن العورات لا تظهر فى المجتمع إلا بمخالفة منهج الله .

ثم نقف أيضاً عند ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] فلم يقل سبحانه : ولا تأكلا من هذه الشجرة ، بل نهى عن مجرد قربها ، لأن من حام حول الحِمَى يُوشك أنْ يواقعه .

لذلك تجد الحق سبحانه حين يحدثنا عن الحدود التى أحلها الله لنا يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩) ﴾ [البقرة] أما فى الحدود التى حرّمها فيقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا (١٨٧) ﴾ [البقرة]

ونلحظ فى الآية التى معنا قوله تعالى : ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] وفى الأعراف قال : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف] فمرة بالإثبات ومرة بالنفى . والمعنى واحد ، لأن المتكلم بهذا الكلام هو الله رَبُّ العالمين ، معنى ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] يعنى : أردتَ أنْ تسجد ، فعرض لك عارض ، أما ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف] يعنى : أمَنعكَ مانع فلم تسجد قهراً عنك؟

وقوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥) ﴾ [ص] بيان لشرف هذا المخلوق ، ويكفى فى شرفه أن الله تعالى نسب خَلْقه إليه سبحانه مباشرة ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص] يعنى : السبب الذى دعاك إلى عدم السجود إما استكبارك أنْ تسجدَ لآدم ، أم كنتَ من العالين ؟

وقد اختلف العلماء فى معنى العالين ، بعضهم[1] قال : من الطاغين المتكبّرين الذين أعرضوا عن أحكام الله ومنهجه استكباراً ،

---

(١) قاله القرطبى فى تفسيره (٨ / ٥٨٧١) : « أى : المتكبرين على ربك » . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (تفسير سورة ص) : « أى من قوم يتكبرون فتكبرت عن السجود لكونك من قوم يتكبرون » . وقد قال الطبرى فى تفسير الآية : « أتعظمت عن السجود لآدم فتركت السجود له استكباراً عليه ولم تكن من المتكبرين العالين قبل ذلك أم كنت من العالين يقول : أم كنت كذلك من قبل ذا علو وتكبر على ربك » .

ومن ذلك قوله تعالى فى فرعون : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾ [يونس] وقال سبحانه : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص] أى : عُلُواً على أحكام الله ، وعلى أوامر الله .

وقال آخرون : معنى العالين هم نوع من الملائكة ، والذين لم يشملهم الأمر بالسجود لآدم ، فالمأمور بالسجود هم الملائكة الذين لهم علاقة بهذا المخلوق وهم المدبِّرات الذين قال اللهُ عنهم ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) ﴾ [النازعات] والمعقِّبات الذين قال الله فيهم ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ .. (١١) ﴾ [الرعد] هؤلاء هم الذين أمروا بالسجود . أما العَالُون فهم ملائكة لا عملَ لهم إلا تسبيح الله ، ولا صلةَ لهم بهذا الكون ، ولا يدرون عنه شيئاً .

فالمعنى ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص] أى الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ، وهذا المعنى أقرب للصواب ، لأن الله تعالى قال قبلها : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ .. (٧٥) ﴾ [ص] فلا نفسر العالين بعدها بمعنى المتكبرين ، لأنها تؤدى نفس المعنى الأول .

وهنا ينبغى أنْ نشيرَ إلى اختلافِ[1] العلماء حول طبيعة إبليس ، حيث قال بعضهم : إنه من الملائكة . وقال آخرون : من الجن . أصحاب الرأى الأول يعتمدون على قوله تعالى :﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص] فقالوا : إذن إبليس من الملائكة لأن الأمر وُجِّه إليهم ، والدليل على ذلك أنه لما خالف وامتنع عن السجود عُوقب ، فهو إذن

(١) ذكر الطبرى فى تفسير الآية ٥٠ من سورة الكهف أقوال واختلافات العلماء فى طبيعة إبليس وأنه كان من قبيلة يقال لهم الجن . وآخرون قالوا : كان من خزان الجنة . وآخرون قالوا : سمى جناً لأنه استجن عن أعين بنى آدم .

داخل في الأمر ، والله سبحانه لم يأمر إلا الملائكة ، فلو لم يكُنْ من الملائكة لم يُعاقَب .

ونقول في الرد على أصحاب هذا الرأي : لا بُدَّ أنْ نُفرِّق بين الدليل بالالتزام أو الاستنباط ، وبين دليل النص ، فإذا وُجِدَ نَصٌّ فلا مجالَ لدليل الالتزام أو الاستنباط ، وقد قال الحق سبحانه في سورة الكهف : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف] فكيف تُصرِّح الآية بأنه من الجن ونقول نحن : إنه من الملائكة ؟

أما لماذا آخذه الله على عدم السجود إنْ كان من الجن ؟ نقول : لأن الملائكة مقهورون على الطاعة ، فهي غريزة فيهم ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم] أما الإنس والجن فهم مُخيَّرون بين الإيمان أو الكفر ، وبين الطاعة أو المعصية ، فإذا جاء منهم مَنْ ألزم نفسه بالطاعة بحيث لا يعصي فهو أفضل من الملائكة ، لأن الملائكة مقهورون على الطاعة أما هو فطائع باختياره وهو قادر على المعصية .

إذن : أخذ هذه الأفضلية ، لأنه حمل نفسه على أن يطيع ، وقد كان إبليس في هذه المنزلة حتى قيل : إنه طاووس[1] الملائكة لأفضليته عليهم ، فلما صدر الأمر للملائكة شمله أيضاً ، لأنه إنْ كان أعلى منزلة من الملائكة وحالة الطاعة ، فكان عليه أنْ يطيعَ الأمر ، وإنْ كان أقلَّ من الملائكة ، فالأمر للأعلى يستلزم الأمر للأدنى .

ومثَّلْنا لهذه المسألة قلنا : إذا دخل رئيس الجمهورية فوقف له الوزراء ، فوقوف وكلاء الوزراء من باب أَوْلَى ، وبذلك نحسم هذا

---

(١) ذكر الطبري في تأويل (الكهف : ٥٠) عن ابن عباس أن إبليس كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازناً على الجنان وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض . أما الحسن البصري فقد قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس .

الخلاف بعيداً عن الجدل الذى لا طائل منه .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [ص] دليل على أنه مخلوق مختار ، كالإنسان يطيع ويعصى ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... (٢٩) ﴾ [الكهف]

ثم يحكى الحق سبحانه قولَ إبليس فى الردِّ على ربه عز وجل :

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (٧٦) ﴾

نعم ، خُلق آدم من الطين ، وخُلق إبليس من النار ، لكن مَنْ قال إن الطين أقلُّ من النار ، أو أن النار أعلى من الطين ، لأن المخلوق لا يأخذ منزلة وميزة بجنسه ، إنما يأخذ ميْزته ممَّن خلقه ، إذن : ليس هناك جنس أعلى من جنس ، لأن الله خلق الجميع ، وجعل لكل منهم مهمة فى الحياة ، فهم فى الخَلْق لله سواء .

لذلك قلنا : إن الله تعالى جعل الأسبابَ للمؤمن وللكافر عطاء ربوبية ، لكن لما آمن المؤمن خَصَّه الله بعطاء آخر ، هو عطاء الألوهية فى العبادة .

فإبليس لما خالف أمر الله ، وادَّعى هذه الخيرية على آدم :

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٧٨) ﴾

الرجيم : المطرود من رحمة الله ، المحروم من كل خير ، ثم تأكد هذا المعنى فى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) ﴾ [ص] إلى يوم القيامة . فردَّ إبليس بعد أنْ لعنه الله وطرده من رحمته :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول إبليس لرب العزة : ﴿ فَأَنظِرْنِي .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [ص] أى : أخِّر أجلى، إذن : فهو يعلم أن لكلٍّ أجلاً محدداً لا يتجاوزه ، وقولْ إبليس لربه : ﴿ فَأَنظِرْنِي .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [ص] يفضح قوله لآدم لما أراد أنْ يُغويه بالأكل من الشجرة ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه] فلو كانت شجرة الخلد حقاً ، فلماذا تطلب من ربك أنْ يُؤخِّر أجلك ؟ ودلَّ ذلك أيضاً على غفلة آدم ، فلو تنبَّه إلى هذه المسألة ما أكل من الشجرة .

ونفهم أيضاً من ذلك أن إبليس نفسه (المعلم الكبير) هو الذى تولَّى غواية آدم ، ولم يترك هذه المهمة لواحد من ذريته ، لماذا ؟ قالوا : لأن آدم أصبح فى صَفِّ الملائكة ، فلا يناسبه شيطان صغير من الذرية ، إنما الكبير إبليس .

ثم يجيب الحق - سبحانه وتعالى - إبليسَ فيما طلب ، فيقول له: ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [ص] المؤخَّرين ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ [ص] أى : إلى يوم القيامة .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

دلَّتْ هذه الآية على أن العداوة ليست بين إبليس وربه ، إنما بين إبليس وبنى آدم ، ودلَّتْ على أن إبليس عرف كيف يُقسم حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص] أى : بعزتك يا رب عن خَلْقك وغنَاك عنهم

وعن طاعتهم وإيمانهم ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

فمن هذا الباب دخلتُ إليهم ، ومن هذا الباب لأغوينهم أجمعين ، فأنا لا آخذهم منك يا رب ، ومَنْ تريده منهم لا أستطيع الاقترابَ منه ، بدليل قوله بعدها : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] إذن : عِزّتك عنهم هى التى أطمعتنى فيهم .

﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾

الكلام هنا لله عز وجل ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ .. (٨٤) ﴾ [ص] أى : ما نصنع لك هو الحق ﴿ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) ﴾ [ص] أى : أنا لا أقول إلا الحق ، ولا يُطلب منى إلا الحق لأنِّى أنا الحق ، ثم يُبيِّن سبحانه الحقَّ المراد الذى قاله الله وقضى به : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾ [ص] أى : منك ومن ذريتك ومِمَّنْ تبعك منهم ، أى : من أمة محمد أى : أمة الدعوة ، وهى من آمن أو كفر .

قالوا : أهذا حكم مُسْبق من الله تعالى على الخَلْق الذين سيجيئون بعد؟ ولو كان الأمر كذلك فالمسألة قهر وإجبار ، والحقيقة أن الله تعالى كتب عليهم هذا بعلمه بما سيكون منهم باختيارهم لا بقهره لهم على أنْ يفعلوا ، فلعلمه بما سيكون كتب ، وليس فى المسألة قهر ولا إجبار .

وقد مَثَّلْنَا لهذه القضية - ولله تعالى المثل الأعلى - قلنا : إن المعلم فى الفصل يستطيع من خلال علمه بمستوى التلاميذ أن يحدد نتائجهم فيقول : فلان سينجح وفلان سيرسب ، فلعلمه بمستواهم الدراسى حكم عليهم ، ولا دخل له فى الامتحان ولا فى تصحيحه .

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾

(قُلْ) أمر لرسول الله ﷺ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ..(٨٦)﴾ [ص] ولو قال : مـا أسألكم عليه أجراً لاسـتقام المعنى أيضـاً ، لكن قوله : ﴿ مِنْ أَجْرٍ..(٨٦)﴾ [ص] من هنا دلَّتْ على أقل ما يُقَال له أجر ولو كان جنيهاً واحداً ، أو قرشاً واحـداً ، فمن هنا نفت مطلق الأجر ، أما كلمة أجر فـهى تعنى أجراً مُجْـزياً يُعْتَدُّ به ولا تمنع وجـود الأجر القليل ، كما تقول : ما عندى مال ، وما عندى من مال أى : من بداية ما يُقال له مال . ولو كان قرشاً واحداً .

وكَوْنُ الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : قُلْ لهم يا محمد ما أسألكم عليه من أجر ، كـأنه يقول لهم : يا قوم إنَّ ما جاءكم به محـمد عمل نافع لكم فى دينكم وفى دنياكم ، وكان الواجب عليكم أنْ تُعطوه أجراً عليه ، إذن : هو يسـتحق الأجر لكـن لن يسألكم إياه لأن ما يقـدمه لكم لا يستطيع بشـر أنْ يُؤدّىَ حقه أو يدفع ثمنه ، فأجـره لا يأخذه إلا من الله ، فهو وحده القادر على أنْ يجازيه ، وأنْ يُعوِّضه عما قدَّم.

إذن : محمـد ﷺ يستحق على هداية القوم وتبليـغهم منهج ربهم أجراً ، وهو غـير زاهد فى هذا الأجر ، إنما يريد أنْ يُقـوِّم هذا العمل بتقويم الذى أرسله بهذه الرسالة .

وهذه العبارة ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ..(٨٦)﴾ [ص] سنة لازمة لجمـيع الأنبياء ، فكلهم قـالوها لأقوامهم عـدا سيدنا إبراهيم وسـيدنا موسى عليهما السلام ، لماذا ؟

قالوا : لأن سيدنا إبراهيم أول ما دعا إلى الإيمان بالله ووحدانيته دعا أباه آزر ، ولا ينبغى له أن يطلب أجراً من أبيه ، كذلك سيدنا موسى أول ما دعا إلى الإيمان دعا فرعون الذى ربَّاه وأحسن إليه ، فكيف يقول له : أعطنى أجرى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص] المتكلِّف : هو المتصنِّع الذى يُظهر شيئاً فوق قَدْره المنوط به ، ومن ذلك قول النبى ﷺ : « لا تتكلفوا للضيف فتبغضوه »[1] يعنى : لا تُحمِّلوا أنفسكم فوق طاقتها ، كالذى يقترض ليقوم بواجب الضيافة ، ثم يذهب الضيف ويبقى عليه الدين وهذا يجعله يكره الضيف بعد ذلك ويتأذى أنْ ينزل به .

إذن : كُنْ على طبيعتك ، وقُمْ بواجب الضيافة على قَدْر طاقتك . ولِمَ لا وقدوتك ﷺ يقول : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص] لأن الأمر الذى جئتُ به لا يحتاج إلى تكلُّف إقناع لأنه أمر موافق للطبيعة .

ولك أنْ تستعرضَ أحكام الشرع ، وأنْ تنظرَ فيها ، أهى صالحة فى ذاتها أم لا ؟ الدين يقول لك : لا تكذب . فمَنْ يقول إن الخير فى الكذب ؟ الدين يقول لك لا تغش فمن يقول : إن الصلاح فى الغش ؟ الدين نهاك عن شرب الخمر فمَنْ يقول إنها تصلح ؟ ومَنْ ينكر أنها تفسد العقلَ الذى ما كُرِّم الإنسان إلا به ؟ .

إذن : كلها أحكام واضحة لا تحتاج إلى تكلُّف فى الإقناع بها ، لأنها توافق الفطرة السليمة .

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى فى الإحياء (٢/ ١٢) قال الحافظ العراقى : أخرجه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث سلمان « لا يتكلفن أحد لضيفه ما لا يقدر عليه » وفيه محمد بن الفرج الأزرق مُتكلَّم فيه . قال الذهبى عنه فى ميزان الاعتدال (٨٠٥١) : « معروف صدوق تكلم فيه الحاكم لمجرد صحبته الحسين الكرابيسى ، وهذا تعنت زائد » . قال الخطيب البغدادى (٣/ ١٥٩) : « أحاديثه صحاح ورواياته مستقيمة لا أعلم له فيها ما يُستنكر » .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [ص] أى : ما هو أى القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [ص] والذكر والتذكير لا ينشأ إلا من نسيان شىء سابق ونريد أنْ نُذكِّرك به ، فالقرآن ذكْر بمعنى أنْ يُذكِّرك بما نسيته من العهد الأول عهد الفطرة الذى أخذه الله عليك وأنت فى طوْر الذَّرِّ ، فقال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف] فأقر الجميع ﴿ قَالُوا بَلَىٰ .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]

فقال الله تعالى : إذن احفظوا هذا العهد وتذكروا هذا الإقرار ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ .. ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف]

إذن : الحق سبحانه لا يُكلِّفك بهذا الإقرار إنما يُذكِّرك به ، لأن التكليف أُخِذَ عليك يوم أنْ كنتَ ذرةً فى ظهر أبيك آدم ، ولم تكُنْ لك شهوة .

فقوله تعالى عن القرآن : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [ص] دلَّ على أن ما جاء به محمد ﷺ من قمة توحيد الله والإيمان به إلى فرعيات التكليف وجزئياته أمر كان فى القديم ، عرفه الجميع وأقرُّوا به ، والقرآن فقط مُذكِّر بهذا العهد الأول .

ثم تختم السورة بقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص] أى : الذين كذَّبوا القرآن سيعلمون عاقبة هذا التكذيب ، وسيعلمون أنه خبر صادق ، سيعلمون ذلك ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص] قالوا : الحين يُراد به ظهور الإسلام وانتصاره على الكفر ، بداية من معركة بدر إلى أنْ قال القائل : عجبتُ لهذا الأُمىِّ ، كيف يفتح نصف الدنيا فى نصف قرن ، نعم هذه عجيبة ولا تزال حتى الآن.

وقد شاهد هؤلاء المكذِّبون بأعينهم انتصارَ الإسلام واندحار الكفر ، وشاهدوا نقصان رقعة أرض الكفر ، وازدياد رقعة أرض

الإيمان ، كما قال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا (٤١) ﴾ [الرعد] ومع ذلك لم يأخذوا من فتوحات الإسلام عبرة .

وقالوا : الحين يراد به القيامة حين يدخل هؤلاء المكذبون النارَ ، عندها سيعلمون صدْق هذا الكلام الذى أخبرهم الله به فى قرآنه .

وكلمة النبأ لا تقال إلا للخبر العظيم الهام ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ﴾ [ص]

فما بالك بنبأ الذى وصفه بأنه عظيم هو الله ؟ وعظمة الخبر تأتى بمقدار ما يُهييء من الخير للإنسان ، فالخبر بأنك نجحت فى القبول، غير الخبر بنجاحك فى التوجيهية ، غير الخبر بأنك أصبحت وزيراً ، فعظَم الخبر بمقدار ما يحمل لك من الخير المرجو منه للإنسان .

إذن : ما بالك بالخير الذى ينتظرك بعد قيامك بالتكاليف الربانية ، إنه خير لا يسعدك فى دنياك المنقضية فحسب ، إنما يسعدك فى آخرتك الباقية الخالدة ، فعظَم هذا الخبر أنه ضَمن لك الحياتين الدنيا والآخرة .

وأسأل الله فى آخر السورة أنْ يجعل لنا حظاً من قوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾ [ص]




سُورَةُ الزُّمَرِ



سورة الزمر(١)

بسم الله الرحمن الرحيم



فَرْق بين تنزيل وإنزال ونزول ، النزول هو الحدث الذى يأتى بشىء من أعلى إلى أدنى ، والإنزال يدل على أن الذى أنزل أعلى من المُنزل إليه ، أما التنزيل فيدل على النزول على فترات بحسب الأحوال .

فقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر] يعنى : أنزلناه جملةً واحدة فى أول رسالة محمد ، ليباشر القرآنُ مهمته فى الوجود ، ثم نُزِّل بعد ذلك مُنجَّماً حَسْب الحاجة .

قال تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥﴾ [الإسراء]

(١) سورة الزمر هى السورة رقم (٣٩) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٧٥ آية . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد . وقال ابن عباس : إلا آيتين نزلتا بالمدينة إحداهما ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ والأخرى ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ . انظر القرطبى فى تفسيره (٥٨٧٥/٨) وسورة الزمر تسمى أيضاً سورة الغرف لقوله تعالى فيها : ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. ۝٢٠﴾ [الزمر]

يعنى : أنزلناه بالحق بداية ، وظلَّ على الحق لم يستطع أحد أنْ يُغيِّره أو يُفسده ؛ لأنه حقٌّ .

وهذه المادة نزل أو نـزَّل أو أنزل ، تدل كلها على عُلُو المنزِّل ودُنُو المنزل إليه ، وتدل على أن شرف المنزَّل من شرف مَنْ أنزله ، وتدل أيضاً على أن مَنْ أنزل المنهج القويم للمخلوق يريد أنْ يكرمه وأنْ يعلوَ به . إذن : دَلَّ الإنزال على شرف المنزِّل وعلو مكانته ، وعلى شرف ما أُنزل وعلى شرف مَن اختاره الله ، وجعله أهلاً لأنْ يُوجه إليه هذا الخير .

ومن ذلك قوله تعالى فى أمة محمد : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (١١٠) ﴾ [آل عمران]

ولما تتبعنا مادة (نزل) فى القرآن الكريم وجدناها كلها تدل على العُلو ، إلا فى عدة مواضع لم يكُن الإنزالُ فيها من العلو ، وهو قوله تعالى فى سورة الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (٢٥) ﴾ [الحديد] فالحديد لا ينزل من عُلو إنما يُستخرج من الأرض ، فلماذا قال الله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ (٢٥) ﴾ [الحديد] ؟

قالوا : نعم الحديد من الأرض ، لكن مَنْ جعله فيها ؟ الخالق سبحانه ، إذن : فهو أيضاً إنزال أى : جعل له فى الأرض ، فلا تنظر إلى جهة الإنزال ، إنما إلى مَنْ أنزل .

ثم إن إنزال الحديد تتميمٌ لرسالات الرسل لهداية الخلق إلى منهج السماء ، لأن الله تعالى قال بعدها : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ (٢٥) ﴾ [الحديد] فمن الحديد سنصنع السيوف والرماح وعُدَّة الحرب .

كذلك فى : ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ . . ⦗٦⦘﴾ [الزمر]
وقوله : ﴿يَـٰبَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ⦗٢٦⦘﴾ [الأعراف]

وفى مسألة الإنزال هذه نلحظ لفتة جميلة فى أسلوب القرآن الكريم ، فى استخدام حرف الجر المتعلق بالفعل أنزل ، وكيف أنه يأتى مناسباً للمعنى المراد من الإنزال ، ففى خطاب النبى ﷺ يقول له ربُّه عز وجل : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ⦗٣⦘﴾ [آل عمران] قال (عليك) مع أن الكتاب نزل للناس جميعاً ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ⦗٢٩⦘﴾ [ص]

لكن رُوعى هنا المخاطب المستقبل المبلِّغ عن الله ، لكن لما يتكلم على النعم التى ينتفع الناس بها مباشرة يقول (عليكم) ثم نلحظ دقة التعبير فى استخدام حرف الجر ، قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ⦗٦⦘﴾ [الزمر] وفى اللباس قال : ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ⦗٢٦⦘﴾ [الأعراف] قالوا : لأن اللباس الساتر للبدن يكون على الجسم يلفه ويستره ، فناسبه الحرف (على) . أما الأنعام فهى شىء مستقل منفصل عن الإنسان .

الحق سبحانه وتعالى يعطى من علوٍ ، ولكن الذى يعطى له هو من صنعته أيضاً ، فعلو فى خَلْق آدم الخليفة ، وعُلو فى المنهج الذى يصونه ، حتى أن بعضهم قال : إن الإنسان خليفة لله فى الأرض ، بمعنى أنه مُفَوَّض من الله بالقيام بما أراده الله ، بدليل لو كان هناك محتاج ضَنَّ الناس عليه يقول الله لهم : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا⦗٢٤٥⦘﴾ [البقرة]

فسمَّى هذا الإعطاء للفقير قرضاً ، مع أنه سبحانه المعطى الواهب

لهذا المال ، لكن لما كان الحق سبحانه هو الخالق ، وهو الذى استدعى الإنسان للوجود وتكفَّل له برزقه ، فاعتبر المال ماله وحقه ، فإنْ بذله فهو قرض لله .

ومثَّلنا لذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - قلنا : حين تعطى ولدك مصروفه فيجعله فى حصالة مثلاً ، ومرَّتْ بك ظروف احتجتَ لما فى حصالة الولد فقلت له : سلِّفنى ما فى حصالتك لحين ميسرة ، مع أنك صاحب هذا المال .

فكأن الحق سبحانه يحترم ملكية العبد ، مع أنها من فضله ، فإنْ طلبها منه طلبها على سبيل القرض .

و(الكتاب) أى : القرآن . فمرة يقول : الكتاب . ومرة : القرآن ، دليل على أنه سيأخذ الوَصْفين معاً ، فهو كتاب بمعنى مسجل ومكتوب يعنى لا يُنكر ، وهو قرآن بمعنى مقروء ، فهو مُسجَّل فى السطور ومحفوظ فى الصدور ، وهذه ستكون حجة علينا .

وقد علمنا الدقة التى اتبعها الصَّحابة فى جمع القرآن من صدور الحفظة ، فكانوا لايكتبون آية إلا إذا قرأها اثنان من الحفظة واتفقا على صحتها ، كذلك يشهد على صحتها اثنان بعد الكتابة ، فدلَّت هذه الدقة على حيثيات قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ⑨ ﴾ [الحجر]

وكلمة (الكتاب) هكذا بأل التعريفية تدل على أنه الكتاب الكامل فى الكتب ، ولا تنصرف هذه الكلمة إلا إلى القرآن الكريم .

وقوله تعالى : ﴿ مِنَ اللَّهِ ① ﴾ [الزمر] دل على أن التنزيل من أعلى لأدنى ، لكن لماذا قال ﴿ مِنَ اللَّهِ ① ﴾ [الزمر] ولم يُقْل : من

الرب؟ لأن هذا الكتاب جاء بمنهج للتربية ، والرب هو المتولى للخَلْق وللتربية . قالوا : لأن الربوبية عطاء يشمل الجميع المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، فالرب خلق الجميع الخَلْق المادى وأمدَّ الجميع ، فالكل فى عطاء الربوبية سواء .

أما المنهج الذى نزل به الكتاب ، فهو منهج إيمانى وخُلُقى وتعبُّدى من عطاء الألوهية ، لا من عطاء الربوبية ، لذلك قال فى الكتاب: ﴿ مِنَ اللَّهِ ① ﴾ [الزمر]

والله علَم على واجب الوجود ، أما الأسماء الحسنى فهى أوصاف بلغت العظمة ؛ لأنها لله تعالى وغلبتْ عليه ، فصارت أسماء قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ⑱⓪﴾ [الأعراف] والجامع لها كلها لفظ الجلالة الله ، فحين تقول الله كأنك ناديتَ الله بجميع أسمائه الحسنى ؛ لذلك أمرنا أنْ نبدأ العمل بقول باسم الله ، والعمل يحتاج إلى قوة وإلى علم وإلى حكمة وإلى عزة . . الخ .

فلو كنتَ مُقبلاً على عمل يحتاج إلى عشرين صفة مثلاً فهل تقول : باسم القوى ، باسم العليم ، باسم الحكيم . . لا لأن فى وُسْعك أن تجمع كلَّ هذه الصفات فى قولك باسم الله ؛ لأن لفظ الجلالة هى الكلمة الجامعة لكل صفات الكمال ، وتناسب كل ما يحتاجه العمل ، وكل ما يتعلق بالفعل ، مما تعرفه أنت ومما لا تعرفه .

لذلك قالوا : إياك أنْ تدعَ هذه الكلمة فى بداية العمل ، حتى لو كنتَ عاصياً فلا تَخْزَ من ربك ولا تخجل أنْ تقولها ، ولا تستبعد أنَّ الله يعاونك حتى وأنت عاصيه ، لأن ربك الذى تدعوه وتبدأ عملك باسمه رحمن رحيم ، وهو الذى أمرك أنْ تقولها .

إذن : قال سبحانه : ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ①﴾ [الزمر] لأن الكتاب

نزل بمنهج وقيم ، ولم يقل : من الرب لأن الربَّ وصفٌ خاص بالمادة وبالقالب .

وقوله : ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ①﴾ [الزمر] العزيز هو : الغنى عن الخَلْق الذى لا تنفعه طاعتهم ، ولا تضره معصيتهم ، وجاء هذا الوصف بعد ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ①﴾ [الزمر] لمناسبة . فكأن الحق سبحانه يقول لنا : اعلموا أننى متطوع بهذا المنهج الذى أنزلته عليكم ، أريد به سعادتكم فى الدنيا ونعيمكم فى الآخرة ، أما طاعتكم لمنهجى فلا تزيد فى ملكى شيئاً ، لأننى الغنى عنكم ، فأنا العزيز عن خَلْقى .

لذلك فى مسألة الشرك بالله قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ④⑧﴾ [النساء]

وقال فى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيره تركته وشركه»[(١)] .

يعنى: أنا متنازل لهذا الشريك عن العمل كله ، لأنى عزيز عن خَلْقى ، لا مصلحة لى من طاعتهم ، إنما المصلحة تعود عليهم هم . إذن : فربُّك خلقك وأنزل عليك ما يصلحك ، فإن أطعْتَهُ أثابك ، لأن لله تعالى صفات ، وهذه الصفات تحتاج إلى متعلقات ، فحين تؤدى هذه المتعلقات لله يجازيكَ عليها .

إذن : قُلْ باسم الله واعلم أنه عزيز عن هذه ، وتذكَّر قوله سبحانه فى الحديث القدسى : « ياعبادى ، لو أنَّ أولكم وآخركم

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) ، واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه .

وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وشاهدكم وغائبكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من مُلكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كلٌّ واحد مسألته فأعطيتُها له ما نقص ذلك من مُلكى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدْخلَ فى البحر ، ذلك أنى جوَادٌ ماجد واجد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقولَ له : كُنْ فيكون»[(١)] .

فالحق سبحانه هو العزيز الذى يَغْلب ولا يُغلب ، وهو سبحانه يخلع من هذه الصفة على مَنْ يؤمن به ، فللمؤمن عزة من عزة الله ، أما غير المؤمن فيبحث عن عزة بالإثم استكباراً بلا رصيد ، ومن ذلك قول المنافقين[(٢)] .

﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ . .(٨)﴾ [المنافقون]

قال الله لهم : صدقتم فى هذه المقولة : ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ ، لكن مَن الأعز ؟ ومن الأذل ؟ ثم حكم الحق سبحانه أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ(٨)﴾ [المنافقون]

إذن : أنتم الأذل ، وأنتم الذين ستخرجون من المدينة لا رسول الله ، وقد تم ذلك لرسول الله ، وقد كان .

والحق سبحانه مع أنه ﴿الْعَزِيزِ . .(١)﴾ [الزمر] الذى يغلب ولا يُغلب ، فهو سبحانه ﴿الْحَكِيمِ(١)﴾ [الزمر] أى : الذى يضع الشىء

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه بنحوه ، وكذا الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) وحسَّنه ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) .

(٢) قائل هذا القول هو عبد الله بن أُبىّ بن سلول رأس المنافقين فى المدينة ، قالها فى غزوة بنى المصطلق . ذكره الواحدى فى أسباب نزول الآية ٨ من سورة المنافقين .

فى موضعه . ومن هذه الحكمة أنه سبحانه لا يطبع المؤمنَ على العزة الدائمة ، ولا على الذِّلة الدائمة ، كذلك لا يطبعه على الرحمة الدائمة ، ولا على الشدة الدائمة ، بل ينفعل للأحداث الإيمانية ، كما قال سبحانه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ (٢٩) ﴾ [الفتح] وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٤) ﴾[المائدة]

ومع أن هذه طباع فى النفس إلا أنها مُعدَّلة بمنهج مَنْ خلقها ، فإنْ كان الموقف يحتاج إلى رحمة فالمؤمن رحيم ، وإنْ كان الموقف يحتاج إلى شدة . فالمؤمن شديد . إذن : هذا مظهر من مظاهر حكمة الخالق سبحانه ، فإنْ قلتَ: هذه طباع ، نعم طباع لكن مُعدَّلة بمنهج مَنْ خلقها .

والحكمة مأخوذة من شيء حسيٍّ ، مأخوذة من الحكَمة التى تُوضع فى فم الفرس ، والتى نسميها اللجام ، وهو الأداة التى بها نتحكَّم فى حركة الفرس ، وفى سرعته واتجاه سَيْره ، وبها نكبح جماحه إنْ جمح .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ(١) إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ (٣) ﴾

(١) الزلفى : القرب والمنزلة والدرجة . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

الحق هو الأمر الثابت الذى لا تأتى أغيار الزمن فتنقضه ، وما دام الحق ثابتاً لا يتغير فلا يغرنك عُلُوٌّ الباطل إنْ علا يوماً من الأيام ؛ لأن عُلُو الباطل من ثبات الحق ، فالباطل حين يعلو يعضُّ الناسَ ، ويشقى به الخَلْقُ ، ويكتوون بناره ، وعندها يتطلعون للحق ويتشوَّقون إليه .

فكأن الباطل جندى من جنود الحق ، والكفر جندى من جنود الإيمان . فالله تعالى لا يسلم الحق أبداً ، ولكن يتركه فترة حتى يعلوَ الباطلُ عليه ليبلوَ غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه غار هو عليه .

﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر] يعنى: ما دُمْنا قد أنزلنا إليك الكتاب بالحق فانظر ماذا فى الكتاب ، فيه منهج افعل كذا ولا تفعل كذا ، فيه تكليفٌ للجوارح ، ولابُدَّ أنْ يسبق العمل بالتكليف اقتناعُ القلب بالمكلف والإيمان به .

فأنت حين تقف أمام قضية صعبة تعجز عن التفكير فيها ، أو أخذ قرار تذهب إلى مَنْ شُهد له بالحكمة أو العلم والرأى ليفكر لك ويُعينك على أمرك ، فمثل هذا الرجل تأتمنه وتسلم له زمام أمرك ؛ لأن رأيه يصلحك .

إذن : لابُدَّ قبل العمل بافعل ولا تفعل أنْ تثقَ وتتيقن بمن كلَّفك ، وهذا هو الإيمان الذى ينبغى أنْ يسبق العملَ . لذلك نقول : لا ينفع إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان ، واقرأ قول الله تعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات]

لذلك قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ ﴾ [الزمر] فشرْطُ العبادة الإخلاص ، والعبادة تعنى طاعة العابد لأمر معبوده ونَهيه ، وهذا التحديد لمعنى العبادة يُبطل عبادةَ كلِّ ما سوَى الله تعالى ، فالذين عبدوا غير الله من شمس أو قمر أو نجوم أو أَشجار أو أحجار عبدوا آلهة - كما يزعمون - بلا منهج وبلا تكاليف .

إذن : فكلمة العبادة هنا خطأ وهى باطلة ، فماذا قالت لهم هذه الآلهة ؟ بِمَ أمرتْهُمْ وعَمَّ نَهتْهم ؟ ماذا أعدَّتْ هذه الآلهة لمن عبدها ؟ وماذا أعدت لمن كفر بها ؟ فأول ما يُبطل عبادة غير الله أنها آلهة بلا منهج وبلا تكاليف .

أما الذين قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ۝٣ ﴾ [الزمر] فالله سبحانه نهى عن هذه الزُّلْفى ، ونهى أنْ يكون بينه وبين عباده واسطة أو وسيلة .

ثم إن الحق سبحانه أراد أنْ ينبه الخَلْقَ إلى بديع صُنْعه ، وإلى هذا الكون المكتمل ، وهذه الهندسة الدقيقة فى كل جزئياته ، وأن هذا الكون فيه كل مُقوِّمات الحياة وكل الأنواع الواهبة للخير ، فهل ادعاه أحد لنفسه ؟

هل قالَ أحد : إنى خلقتُ هذا الكون مع كثرة الملحدين والمنكرين لوجود الله ؟ لم يحدث أبداً شيء من هذا . إذن : الدعوة تثبت لمدعيها طالما لم يقم لها معارض ، فالله تعالى هو الخالق وحده ، وهو المستحق للعبادة وحده ، وما دونه ضلال وباطل .

لذلك قال سبحانه : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ۝٤٢ ﴾ [الإسراء] يعنى : ذهبوا إليه ليناقشوه كيف أخذ الخَلْق منهم ؟ وكيف ادعاه لنفسه ؟

ومعنى﴿ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ ﴾ [الزمر] يعنى : اجعل الدينَ خالصاً

لوجه الله ، وامنع الرياء لأن الذى ترائيه لا يملك لك من ثواب العمل شيئاً ، فالمرائى الذى يرائى مثلاً فى صدقته ينفع المحتاج بالصدقة ، وهو لا ينتفع بها ؛ لأن الله تركه يأخذ أجره ممَّن يرائيه ، والعبد مثلك لايملك لك شيئاً .

وفَرْق فى المعنى بين مُخْلِص بالكسر ، ومُخْلَص بالفتح : المخلَص هو مَنْ يسبق عطاء الله لَه بالإخلاص فيخلص ، أما المخلص فيصل بعطاء إخلاصه إلى عطاء الله . قلنا زمان : من الناس مَنْ يَصل بطاعة الله إلى كرامة الله يعنى : ألحَّ فى الطاعة وداوم طَرْق الباب حتى فُتِح له .

وآخر يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، يعنى : ربه يختاره للطاعة ويخطفه من الخلق أو من المعصية إلى الطاعة ، مثل كثيرين من المتصوفة ، ومثال ذلك القاضى عياض[(١)] رحمه الله ، فقد كان فى بداية أمره قاطعَ طريق ، وفى يوم خرج كعادته يقطع الطريق على الناس ، فسمعهم يقولون : لا تمروا من هنا فعياض على هذا الطريق، نزلت هذه الكلمات على عياض نزولَ الصاعقة ، فكيف يهابه الناس ويخافونه لهذه الدرجة ، فأخذ يُؤنِّب نفسه وعزم على التوبة ، وقال: ياربّ تُبْ علىَّ حتى يأمنَ هؤلاء . فتاب الله عليه[(٢)] .

---

(١) القاضى عياض هو عياض بن موسى أبو الفضل ، عالم المغرب وإمام أهل الحديث فى وقته ، ولد فى سبتة عام ٤٧٦ هـ وتوفى بمراكش مسموماً عام ٥٤٤ هـ عن ٦٨ عاماً ، ولى قضاء سبتة ثم غرناطة . له تصانيف عدة أشهرها : الشفا بتعريف حقوق المصطفى . الأعلام للزركلى (٥/٩٩) .

(٢) ذكره ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » فى ترجمته ، وقال : « كان فى أول أمره شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تالياً يتلو قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ .. ﴿١٦﴾﴾ [الحديد] فقال : يا رب قد آن ، فرجع ، وآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة ، فقال بعضهم : نرتحل . وقال بعضهم : حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا ، فتاب الفضيل وآمنهم .

فلما استقام سأله الناس الذين يعرفون حقيقته : ما جرى لك يا عياض ، يعنى : كيف صِرْتَ من الأولياء ، بعد أن كنتَ قاطع طريق ؟ .

قال : والله إنى لأعرف سببها ، لقد مررتُ يوماً بسوق البطيخ - أظن فى بغداد - فوجدت ورقة من المصحف ملقاةً على الأرض يدوسها الناس فأخذتها ونظفتُ ما بها من الأذى ، ثم طيَّبتها بدرهم لم يكُنْ معى غيره ، ثم وضعتها فى شق عال ، قال: والذى نفسى بيده لقد سمعتُ بعدها منادياً ينادى : لأطيبنَّ اسمك كما طيبتَ اسمى[1] وكانت هذه الحادثة أول عهد عياض بالولاية .

لذلك ورد أن النبى ﷺ قال : « إن الله أخفى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى رضاه فى طاعته » فلا تحقرن طاعةً أبداً ، واعلم أن الله غفر لرجل لأنه سقى كلباً يلهث من العطش[2] ، وهذا العمل يدل على محبة طاعة الله وإلا فماذا يأخذ الرجل من الكلب ؟ أم تراه ينافقه ؟ إذن : ليس إلا حب الطاعة .

« وأخفى غضبه فى معصيته » فلا تحقِرنَّ معصية أبداً ، وقد دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها وسقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض[3] .

(١) هذه القصة ذكرها ابن خلكان فى وفيات الأعيان والصفدى فى الوافى بالوفيات ، وابن الملقن فى طبقات الأولياء ، واليافعى فى مرآة الجنان أنها حدثت مع بشر الحافى وليس القاضى عياض ، ولكن لابد أن نذكر أنه كان مصاحباً له .

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب بدء الخلق - باب صفة النار) حديث (٣١٤٠) عن ابن عمر وكذا مسلم (كتاب التوبة - باب الحض على التوبة) حديث (٢٦١٩) عن أبى هريرة.

«وأخفى أسراره فى خلقه » كما أخفى أمر عياض وتاب عليه .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ③﴾ [الزمر] بعد أنْ خاطب الحق سبحانه نبيه بقوله : ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ②﴾ [الزمر] أراد سبحانه أنْ ينبه الأذهان إلى أهمية الإخلاص لله تعالى ، فجاء بهذا الحرف الدال على الاستفتاح (ألا) .

وهذا الأسلوب يتبعه العربى فى كلامه ، لأن المتكلم أمير نفسه يتكلم فى أىِّ وقت شاء ، وهو يعى ما يقول وله خيار فيما يقول أمَّا السامع فليس له خيار فربما كان مشغولاً عن المتكلم فيفوته بعض الكلام ؛ لذلك على المتكلم أنْ ينبهه من غفلته ، وأنْ يُهيِّئه لأنْ يسمع، لاسيما إنْ كان الكلام مهماً أو نفيساً لاينبغى أن يفوتك منه شىء ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ③﴾ [الزمر]

ونلحظ أيضاً هنا أسلوبَ القصر فى تقديم الجار والمجرور ﴿لِلَّهِ ③﴾ [الزمر] على المبتدأ الدين الخالص ، فلم يَقُلْ سبحانه الدين الخالص لله ، لأنها تحتمل أن نقول : ولغيره ، أمَّا قوله ﴿لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ③﴾ [الزمر] أى : له وحده ، فقصرت إخلاص الدين على الله تعالى دون غيره ، تقول: هذا المال لزيد . ولزيد هذا المال .

لكن ، لماذا لله الدين الخالص ؟ قالوا : لأن الدينَ شرعُ الله هو الذى شرعه ، وهو سبحانه الذى يُجازى عليه ، فاحذر إذن أنْ يكون عملك بمنهج الله مقصوداً به غير الله ؛ لأن غير الله لم يشرع لك ، ولا يستطيع أنْ يعطيك أجر العمل . فكأن الله تعالى يريد أنْ يُحَصِّن حركة الإنسان فى كل شىء ، بحيث تعود عليه كل حركاته بالخير ؛ لذلك دلَّهُ على الطريق الذى يؤدى به إلى الخير ، وهو طريق إخلاص العبادة لله وحده .

ثم يذكر سبحانه مقابل إخلاص العبادة لله ، فيقول : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ③﴾ [الزمر] قائلين ومبررين موقفهم حين تبيَّن لهم كذبهم فى عبادة ما دون الله ، وحين تقول لهم إن هذه الآلهة لا ترى ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ، وحين تضيق عليهم الخناق يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى③﴾ [الزمر]

والذى يُقرِّبك إلى الله لابُدَّ أنْ يكون مشهوداً بالتبعية لله تعالى ، وهذه الآلهة التى تعبدونها ليست مشهودة بالتبعية لله تعالى ، بل هى من صُنْعكم أنتم ومن نَحْت أيديكم ، وإذا أطاحت به الريح أقمتموه فى مكانه ، وإذا كسر ذراعه أصلحتموه .

إذن : فعبادتكم لها باطلة ، وأنتم كاذبون فى هذه العبادة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ③﴾ [الزمر] كلمة الحكم لله كلمة ترهب ، لأن حكمَ الله هو الحق الذى لا يُحابى أحداً ، فالمؤمن حين يسمع هذه الكلمة يطمئن ، لأنه سيأتى يوم لا يكون الحكم فيه إلا لله كما قال سبحانه : (إن الحكم إلا لله) أى : لله وحده لا لغيره ، لذلك أنت لا تقول لخصمك : أنا حكَّمت الله بينى وبينك إلا وأنت واثق أن الحق معك .

لذلك يغضب بعض الناس لو قلت لأحدهم : الله وكيل بينى وبينك . ولو كان على الحق لا يخاف شيئاً لقال وأنا رضيتُ هذه الوكالة وقبلتُ بها ، لكن كونه يغضب حين نُحكِّم الله فيما بينكما ، فهذا دليل على أنه يخاف هذا الحكم لأنه على باطل .

ثم إن حكم الله سيأتى فى وقت لا حكمَ فيه إلا لله ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ⑤⑦﴾ [الأنعام] .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③﴾ [الزمر]

نعم لا يهديه الله ، لأن الكاذب الكفَّار ليس أهلاً لعطاء الهداية ؛ لأن الله تعالى هدى الكل هدايةَ الدلالة والإرشاد ، فمَنْ آمن منهم زاده هداية المعونة والتوفيق ، قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك قلنا : إن رجل المرور الذى يقف على مفترق الطرق ينظم المرور ويرشد الناس ، فحين تسأله أين الطريق إلى الأسكندرية مثلاً يقول لك من هنا ، فتتوجه إلى حيث أرشدك ، وقبل أنْ تفارقه قلت له : جزاك الله خيراً ، لقد كدتُ أضلّ الطريق ، وأذهب من هنا ومن هنا ، لولا أن الله يسَّر لى أنْ أقابلك ، فقال لك : والله أنت رجل طيب تستحق كل خير ، لكن فى هذا الطريق منطقة خطر سأركب معك حتى أساعدك فى المرور منها .

إذن : لما أطعتَهُ فى الإرشاد الأول زادكَ بالمعونة والمساعدة ، كذلك الحق - سبحانه وتعالى - مَنْ يستجيب لهداية الدلالة والإرشاد فيؤمن يزيده هداية أخرى ، هى هداية التوفيق والمعونة .

والكاذب الكفَّار هو الشديد الكفر الذى لا ينتفع بإرشاد ، ولا هداية .

﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) ﴾

تحدثنا هذه الآية عن نوع آخر من الشرك ، فهؤلاء لم يعبدوا الأصنام ولا الشمس ولا القمر ، إنما اتخذوا أشياء أخرى يروْنَ بينها وبين الله تعالى صلة ، كما نقول (من ريحته) ، ورأوا أن ذلك أخفّ

وأهونُ من عبادة الأصنام ، هؤلاء كالذين قالوا عزير ابن الله ، والذين قالوا المسيح ابن الله ، أو الملائكة بنات الله . . الخ فردّ الله عليهم :

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر]

يعنى : هذه مسألة لا دَخْلَ لكم فيها ولا اختيار ، لا تختاروا أنتم لله ولداً ؛ لأن الله تعالى لو أراد ذلك - على فرض - لاختار من خَلْقه ما يشاء هو ، لا ما تختارون أنتم .

لذلك خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف] أى : من اختياره ويخبر هو به ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[الزخرف] يعنى : أول المصدِّقين المؤمنين به ، فهو على العين والرأس ، إنما هذا أمر لم يخبر الله به ، وإنما نفاه عن نفسه سبحانه .

وقد ورد فى الحديث : « الخَلْق كلهم عيال الله ، فأحبُّهم إليه أرأفهم بعياله»[1] إذن : فالبنوة ليست لله تعالى ، وحتى فى بنوة الرسل لم يجعلها الله بنوةَ دم ، ولا بنوةَ أبدان ، إنما بنوة أديان ، وأوضح مثال على ذلك سيدنا نوح - عليه السلام - وولده .

لما أبَى الولد وعصى أمر أبيه أيقَن الوالد أنه من الهالكين ، فدعا الله : ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود] لكن عدل الله له معنى البنوة ، فقال سبحانه : ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٤٦﴾﴾ [هود] فسيدنا نوح ظن

---

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٦ / حديث ٣٣١٥) عن أنس بن مالك رضى الله عنه بلفظ: « الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » وأخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (٦ /٣٣٢) عن عبد الله بن مسعود بلفظ آخر : « الخلق عيال الله فأحب الناس إلى الله من أحسن إلى عياله » .

أن البنوة بنوة نسب ، لكن بنوة الأنبياء بنوة اتباع .

والحرف (لو) فى ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ④﴾ [الزمر] حرف امتناع لامتناع ، وهو من أدوات الشرط يفيد امتناعَ وقوع الجواب لامتناع وقوع الشرط ، فالحق سبحانه لم يتخذ ولداً لأنه لم يُرِدْ ذلك ، ولو أراده لكانَ ما يريد .

وفى موضع آخر ، يناقش الحق سبحانه أصحاب هذا الافتراء ، يقول لهم بالمنطق ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ١٠١﴾ [الأنعام] .

ثم لماذا يُتخذ الولد ؟ يتخذ الولد ليكون عزوةً لأبيه أو امتداداً له بعد موته ، والحق - تبارك وتعالى - هو الغنى العزيز عن خَلْقه ، وهو الدائم الباقى فلماذا يُتخذ الولد ؟ والذين نَسبوا لله تعالى الولدَ فى العصور المتأخرة من الديانات ، كالذين قالوا : المسيح ابن الله ، فهل كان الله تعالى منذ خلق هذا الكون بلا ولد إلى أنْ جاء عيسى فاتخذه الله ولداً .

وبعد أنْ أخذ عيسى من الوجود أظلَّ الله تعالى هكذا (غلبان مقطوع من شجرة) بلا ولد ؟ كيف يستقيم لكم هذا الادعاء ؟ إنها مسألة لا تصح أبداً فى حق الله تعالى ، فالله لا يحتاج إلى عزوة ، ولا يحتاج لمعونة الولد ، لأن الله تعالى خلق الخَلْق كله من ألفه إلى يائه ، خلقه بكامل قدرته ، وبصفات الكمال فيه ، فلم يزده الخَلْق شيئاً ولا صفة لم تكُنْ له من قبل .

لذلك يقول بعض أهل الشطح فى هذه الآية : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ④﴾ [الزمر] يقول : لو كان للرحمن ولد كنتُ أنا أَوْلَى أنْ أكونَ ولده ؛ لأننى أول العابدين .

ثم يُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بما يُنزِّه الله عن هذا الافتراء :

﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ (٤) ﴾ [الزمر] يعنى : سبِّحه ونزِّهه عن هذه المسألة ، فإنها لا تليق به سبحانه ، ونزهه أنْ يشابه شيئاً من خلقه ، حتى لو وقفت أمام مسألة لا يدركها عقلك قُلْ سبحان الله كما قال الله :

﴿ سبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا (٣٦) ﴾ [يس]

وقال : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم]

وقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً (١) ﴾ [الإسراء]

فالحق سبحانه فى مثل هذه المواقف يُعلِّمنا أنْ نُنزِّه الله ، لأن العقل سيقف أمام هذه الأحداث حائراً ، لكن الحدث هنا منسوب إلى الله فلا عجبَ إذن ، لأن زمنَ الحدث يتناسب مع القوة الفاعلة تناسباً عكسياً ، فكلما زادتْ القوة قَلَّ الزمن ، فإذا نسبتَ الفعل إلى قوة القوى تجد لا زمن .

إذن : نزّهوا الله عن اتخاذ الولد لأنه ﴿ هُوَ اللَّهُ (٤) ﴾ [الزمر] الذى له كُلُّ صفات الكمال (الوَاحدُ) الذى ليس معه غيره (القَهَّارُ) أى : الذى لا يحتاج إلى عزْوة ، ولا يحتاج إلى مُعين .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ (٥) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ (٥) ﴾ [الزمر] أى : لم يخلقهما عبثاً إنما خلقهما بالحق ، والحق كما قلنا : هو الشىء

الثابت الذى لا يتغير ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) ﴾ [الدخان]

بل خلقهما الله بالحق وبالحكمة وبحساب دقيق وهندسة بديعة لتؤدى مهمتها التى أرادها الخالق سبحانه ، بدليل أنها لا تزال منذ خلقها الله تؤدى مهمتها دون عَطَب فيها ، أو خلاف بين أجزائها .

وقوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ (٥) ﴾ [الزمر] تقول : كوَّرْتُ العمامة يعنى لَفَفتها على رأسى ، فصارت مثل الكرة مكورة ، وفى لَفِّ العمامة تغطى اللفَّةُ اللفَّةَ التى تحتها . كذلك الليل والنهار ، جزء من الليل يغطى جزءاً من النهار فيزيد الليل ، أو جزء من النهار يغطى جزءاً من الليل فيزيد النهار .

هذا هو واقع الليل والنهار ، فهل الليل والنهار يقتسمان الأربعة والعشرين ساعةً بالتساوى ، كل منهما اثنتا عشرة ساعة ؟

لا ، بل يزيد الليل فينقص من النهار فى فصل الشتاء ، ويزيد النهار فينقص من الليل فى فصل الصيف .

هذا يدل على أن الكون ليس محكوماً بقوانين ميكانيكية جامدة كما يدَّعُون ، بل محكوم بقدرة الخالق سبحانه وحكمته .

ولو تأملتَ طول الليل في الشتاء وقِصَره فى الصيف لَوجدتَ أن أمور الكون لا تسير هكذا حسبما اتفق ، إنما لكل حركة فيها حكمة ، فحين يقصر النهار فى الشتاء يحتاج العامل لأنْ يُجهد نفسه لينهى مهمته فى هذا الوقت القصير ، فيتعب نفسه ويُجهدها .

ومن الحكمة أن نعطيه فترة أطول يستريح فيها من تعب النهار ، ولا بدّ أنْ تتناسب فترة الراحة مع فترة الجهد المبذول .

أما فى فصل الصيف فيطول النهار ويوزع العمل على هذا الوقت

الطويل ، فيؤدى الإنسان مهمته بأقلّ مجهود ، بالإضافة إلى راحته فى وقت القيلولة ، فلا يحتاج إلى ليل طويل للراحة ، لذلك يأتى ليلُ الصيف قصيراً . إذن : فالخالق سبحانه يُكوِّر الليل على النهار ، ويُكوِّر النهارَ على الليل لحكمة فى حركة الحياة .

وفى موضع آخر عبَّر القرآن عن هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : يُدخِل كلاً منهما فى الآخر ؛ لذلك لا يتساوى الليلُ والنهار إلا فى فترة قصيرة من العام تقتضيها الحركةُ بينهما .

ونفهم أيضاً من قوله تعالى (يُكوِّر) أن الأرض كروية ، لأن الليل والنهارَ ظاهرةٌ تحدث على سطح الأرض ، وقد أثبتَ العلم هذه الحقيقةَ بالصور التى التقطوها للأرض من الفضاء ، وصدق الله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٥﴾ ﴾ [الزمر]

الأجل : هو يوم القيامة ، فالحق سبحانه يُطمئن الناسَ أن الشمسَ والقمر آيتان لله تعالى باقيتان خالدتان بقاءَ الدنيا وخلودها ، إلى أنْ ينتهيا معها ، ومع ذلك فكل منهما قائم بذاته بقدرة خالقه ، لا يحتاج إلى وقود ، ولا يحتاج إلى صيانة ، ولا قطعة غيار .. الخ .

﴿ أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ ﴾ [الزمر] قلنا : (ألا) استفتاحية تفيد تنبيه السامع لما بعدها ، فكأن الله تعالى يقول لقد خلقتُ لكم هذا الكونَ المحكمَ البديع ، ووفرتُ لكم مقومات حياتكم ، وأنا الغنى عنكم ، العزيز الذى يغلب ولا يُغلب ، ولا يحتاج لأحد . لكن ما مناسبة (الغفار) هنا ؟

قالوا : لأن الله تفضّل على خَلْقه بهذه الآيات الشمس والقمر والليل والنهار ، وأعطاهم مُقوِّمات حياتهم ، ومع ذلك لا ينظر إلى ذنوبهم وتقصيرهم فى حقه تعالى لأنه الغفار ، ويعفو عن كثير .

وهذا المعنى أوضحه الحق سبحانه فى موضع آخر ، حين نتأمله نجد فيه عجباً ، إنه قول الله تعالى ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** (٣٤)﴾ [إبراهيم] ورد هذا اللفظ فى موضعين بصدر واحد وعجز مختلف ، فواحدة :﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** (٣٤)﴾ [إبراهيم] .

والأخرى :﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١٨)﴾ [النحل]

أولاً : يُلفت أنظارنا هنا فى مسألة عَدِّ نعمة الله استخدام (إن) الدالة على الشك ، لأن عَدَّ نعمة الله مسألة لن تكون ولن تحدث ؛ لأن الإقبال على عَدِّ الشىء ناتج عن إمكانية ذلك والقدرة عليه ، أما نعمة الله فمع تقدم علم الإحصاء ودخوله فى شتى المجالات ، إلا أن نعمة الله فوق مظنة العَدِّ لكثرتها ، كما أننا لا نفكر أبداً فى عَدِّ رمال الصحراء مثلاً .

فمعنى ﴿**وَإِن تَعُدُّوا** (٣٤)﴾ [إبراهيم] يعنى : على فرض أنكم ستُقبلون على عَدِّها ﴿**لا تُحْصُوهَا** (٣٤)﴾ [إبراهيم]

ثانياً : كلمة (نعمة) جاءت هكذا بصيغة المفرد ، والعَدُّ لا يكون إلا للجمع الذى له أجزاء تعدّ : واحد ، اثنان ، ثلاث ، أربع .. الخ فكيف تُعَد النعمة وهى واحدة ؟ قالوا : نعم هى فى ظاهرها نعمة واحدة لكن مطمور فيها حين تتأملها نِعَم كثيرة ، فالتفاحة مثلاً ترى فى الظاهر أنها نعمة واحدة ، لكن حين تُحللها تجد فيها لوناً وشكلاً

وطَعْماً ومـذاقاً وعناصر مكونة ومواد غـذائية متعـددة ، كلها نِعْم من الله.

ثالثاً : حين تـتأمل عَجُـزَ الآيتين - وهو مـرادنا من الكلام - تجد فى الآية الأولى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم] أى : جاحد لنعمة الله ، منكر لها ، غافل عنها ، مُقصِّر فى شكرها . فهى إذن تتحـدث عن حال الـمنعم مع المنعَـم عليـه ، وكـيف أنه قـابل النعمة بالكفران ، ولو جازاه المنعم بما يستحق لحرمه النعمة ، لكن يأتى عَجُزُ الآية الأخرى :﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل] يعنى : يغـفر لكم جـحودكم للنعـمة ونكـرانكم للجمـيل ؛ ثم بعد المـغفـرة الرحمة .

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ(١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾

تبين الآيةُ طبيعة خَلْق الإنسان الذى أراده الله خليفة فى الأرض ،

---

(١) المقصـود بالظلمات الثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظـلمة المشيمة قـاله ابن عباس وعكرمة ومـجاهد وقتادة والضـحاك . وقال أبو عـبيدة : ظلمـة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ، وظلمة الرحم . ذكرهما القرطبى فى تفسيره (٥٨٧٩/٨) .

فقال : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر] هو آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر] أى : حواء ، ومنهما كانت الذرية وجاء التناسل.

وما دام الله تعالى خلق هذا المخلوق ليكون خليفةً يعمر الأرض فلا بُدَّ أنْ يكونوا من جنس واحد ليتم لهم الإلْف والانسجام وتجمعهم حركة الحياة .

وإلا لو كان هذا الخليفة من أجناس متعددة ، فمجموعة مثلاً من الإنس ، وأخرى من الجن ، وأخرى من الحيوان ما استقامتْ بهم الحياة ، ولا تساندتْ حركتهم . إذن : الجنس الواحد تتوفر فيه المودة والإلْف والمحبة والانسجام بين عناصره لأن لكل جنس قانونَهُ ونظامه والتقاءاته ومعاشرته ، ولو أن الإنسان خُلِق من أجناس مختلفة لتعذَّر عليه الائتلاف واتحاد الحركة والأنس فى المعيشة .

وأيضاً ، فإن الخالق سبحانه خلق الإنسان من جنس واحد ليثبت التساوى فى الأصل ، فلا يكون لأحد مَزِيّة على أحد ، لأنه خلق من جنس أعلى ، وإنما ليكون التفاضل والمزية بمقدار توافق هذا المخلوق مع منهج الله ، وهذه القضية أوضحها النبى ﷺ فى الحديث : « لا فضلَ لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى »[(١)] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] يعنى : لا فضلَ لأحدكم على الآخر إلا بحسنه فيما يستقبل عن ربه .

---

(١) خطب رسول الله فى وسط أيام التشريق فقال : « أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٤١١) عمن سمع رسول الله ، وفى حلية الأولياء (٣/١٠٠) أنه جابر بن عبد الله .

وإنما تأتى الألوان والأشكال مختلفة لتناسب بيئة المعيشة ، فالبيئات الحارة مثلاً يميل أهلها إلى السواد ، والبيئات الباردة إلى البياض ، كذلك الحال فى اختلاف الألسنة بحسب البيئات أيضاً . أما الأصل فنحن جميعاً نُرَدُّ إلى آدم ، وآدم خُلِق من تراب ، وذريته خُلِقَتْ من بعده بالتكاثر .

حتى فى الرسالة قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ (١٢٨)﴾ [التوبة] يعنى : ليس غريباً عنكم ، وليس من جنس غير جنسكم ، فلم يكُنْ من الملائكة مثلاً مع أنها أعلى درجة إلا أن الرسول الملك لا تتحقق فيه القدوة والأسوة المرادة من الرسول ، كذلك لم يأتِ فارسياً ولا رومياً يختلف لسانه عن لسانكم ، إنما جاء عربياً من أوسطكم ، ومن أعظم قبائلكم.

إذن : البشر جميعاً فى هذا الكون يعودون إلى نفس واحدة هى آدم عليه السلام ، وقد أوضح لنا الحق سبحانه كيف خلق آدم بالشكل المعروف .وقال سبحانه :﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ [الحجر]

لكن لم يذكر شيئاً عن خلق حواء ، إلا أن العلماء قالوا : خلقها الله كما خلق آدم ، وقال آخرون : بل خُلِقَتْ من ضلع من أضلاع آدم ، فهى مطمورة فى خَلْق آدم ، مما يدلُّ على أن المرأة تابعة للرجل ، محجوبة فيه ، حتى في مسألة الخَلْق .

وأصحاب هذا الرأى يعتمدون على معنى : ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا (٦)﴾[الزمر] منها أى : من جزء من أجزائه ، أو من جنسه ؛ لأن جعل لا تدل على اختلاف العنصر كما فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩)﴾ [السجدة] . يعنى : قطعة

منا صارتْ السمع ، وقطعة صارتْ البصر ، وأخرى الأفئدة .

كذلك حين يتحدث القرآن عن العمل تأتى المرأة مستورة فى الرجل ، فيقول تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾ [العصر] وفى مواضع كثيرة يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ .. ۝ ﴾ [المائدة] ولم يُوجِّه الخطاب إلى النسوة مباشرةً إلا فى الأمور الخاصة بهن .

ثم يقول تعالى ، وهو يُعدِّد بعض نعَمه على خَلْقه : ﴿ وَأَنزَلَ[1] لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۝ ﴾ [الزمر] وسبق أن قلنا فى صدر هذه السورة : إن الإنزال لا تنظر فيه إلى جهة العلو فحسب كما فى إنزال المنهج والقيم ، إنما ينظر أيضاً إلى المنزل سبحانه ، فالإنزال يكون بمعنى الإيجاد ، والأنعام من النعم الموجودة فى الأرض لكنها من عند مَنْ ؟ من عند الله فكأنه أنزلها ، والإنزال هنا ناسبه حرف الجر ﴿ لَكُم ﴾ ولم يقُلْ : عليكم لأن الأنعام شىء منفصل عن الإنسان .

وقد ورد تفصيل هذه الثمانية فى سورة الأنعام ، ومع أن نِعَم

---

(١) لفظة أنزل هنا تعنى معانى كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥٨٧٨/٨) :
- نسبة إلى نزول الماء الذى خُلقت منه هذه الأنعام .
- أنزل : أنشأ وجعل .
- أنزل : خلق . قاله سعيد بن جبير .
- خلق الله هذه الأنعام فى الجنة ثم أنزلها إلى الأرض .
- أنزل لكم : أعطاكم .
- جعل الخلق إنزالاً ، لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء . فالمعنى : خلق لكم كذا بأمره النازل .

وهذه الأقوال لا تتعارض بل تتكامل فى قول واحد : أن الله خلق وأنشأ هذه الأنعام عطاءً منه لعباده بأمره النازل من السماء بأن ينزل الماء لتنبت الأرض فتحيا هذه الأنعام .

الله علينا كثيرة إلا أنه خَصَّ هنا الأنعام بالذات ، لأنها الجنسُ القريب من الإنسان من حيث الخَلْق ، بعدها النبات ثم الجماد . وكلمة الزوج . البعض يظن أنها تعنى اثنين معاً ، وهذا خطأ لأن الزوج تعنى : واحد ومعه مثله ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ (٤٩)﴾ [الذاريات] ومثلها كلمة توأم.

وقوله : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ (٦)﴾ [الزمر] معنى ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ (٦)﴾ [الزمر] بيان لأطوار الخلق التى يمر بها الجنين فى بطن أمه ، فهو يتقلب فى بطنها بين ماء مَهين ، يستقر فى الرحم نطفةً ، ثم علقة ثم مضعة ، ثم يتكوَّن منها العظام ، ثم يكسو العظام لحماً ، هذه أطوار الخَلْق المرادة فى قوله تعالى : ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ (٦)﴾ [الزمر]

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً[1] فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

هذه هى الأطوار التى يمرُّ بها الإنسان منذ أنْ يصلَ إلى رَحِم الأم ، وهذا يعنى أن هناك طَوْراً يسبق هذه الأطوار ، هو طَوْر التقاء عنصر الذكورة بعنصر الأنوثة ، أو التقاء الحيوان المنوى بالبويضة

---

(١) النطفة : الماء الصافى ، وتطلق فى القرآن على ماء الرجل أو المرأة الذى يُخلق منه الولد .
العلقة : الدم الجامد الغليظ الذى يعلق بما يمسُّه .
المضغة : القطعة من اللحم تُمضغ لتماسكها ، ومنها مضغة مخلقة أى مصورة على هيئة طفل ، ومنها غير مخلقة أى غير مُشكَّلة أى غير تامة التصوير وتكون سقطاً .

وتلقيحها ؛ لأنه لا يصل إلى الرحم إلا بويضة مُلقَّحة دخلها ميكروب الذكورة .

وفى سورة الحج بيَّن سبحانه أن المضغة منها مُخلَّقة وغير مُخلَّقة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ⑤ ﴾ [الحج]

فالمضغة المخلّقة هى الجزء الذى خُلِّقتْ منه الأعضاء والجوارح ، وغير المخلَّقة هى الجزء الذى استقر فى الجسم بدون تخليق ليظل احتياطياً للجسم ، وكأنه (ريزْرف) أو صيدلية صيانة ، فإذا ما حدث فى الجسم عطب قامتْ المضغة غير المخلَّقة بإصلاحه ، كما نرى مثلاً فى الجروح ، فالجرح بعد فترة يندمل وتبنى فيه أنسجته حتى تعودَ كما كانت ، من أين ؟ من المضغة غير المخلَّقة .

والعجيب أن الجسم حين تتركه على طبيعته ولا تتدخّل فى الجرح بمواد كيماوية يلتئم ويعود دون أنْ يتركَ أثراً ، إنما حين نتدخل بأدوية ومواد كيماوية لا بُدَّ أنْ تؤثر على الخلايا والأنسجة ، وتترك فيها أثراً .

لذلك أثبت العلم أن فى الإنسان مخزنين للقوت ، مخزناً لقوته اليومى ، ومخزوناً آخر احتياطياً ، نأخذ منه القوت حين ينفد ما فى المخزن الأول ، لأن الإنسان يأكل على قَدْر الطاقة ثم يزيد عليها ، فتتحول هذه الزيادةُ إلى دهون فى الجسم ، وحين يجوع الإنسانُ أو يعطش يستمد قوته من الدهن الموجود فى جسمه ، ومن العجيب أن هذه المادة الدهنية تتحول إلى أىِّ مادة يحتاجها الجسم .

ولوجود هذا المخزن رأينا الإنسانَ يصبر على الجوع شهراً ، فى حين لا يصبر على العطش أكثر من عشرة أيام ، لماذا ؟ لأنه حين يجوع ولا يجد طعاماً يستمد طعامه من المخزون الاحتياطى فى جسمه .

فقوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۝٦ ﴾[الزمر] أى : الخلق الثانى ، فالخَلْق الأول خلق آدم عليه السلام من تراب ، وقد أخبرنا الله به ، لأن أحداً لم يره ، كما قال سبحانه :

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] ۝٥١﴾ [الكهف]

فإذا طلع علينا مَنْ يقول إن الإنسان أصله قرد تطوَّر إلى إنسان نعلم أنه من المضلِّين الذين أخبرنا الله عنهم ، ولا بُدَّ أن نعلم كذبه ، والرد على هذا الهراء ميسور ، لأن الإنسان إنْ كان متطوراً عن قرد ، فلماذا لم تتطور باقى القرود ؟ ولماذا على مَرِّ التاريخ كله لم نَرَ قرداً تطور وارتقى حتى إلى ما يقرب من الإنسان .

إذن : هذا كذب وباطل ، لأن الخالق سبحانه خلق الأجناس كلها ، وجعل من كُلٍّ زوجين اثنين ، يتم التكاثر وليتم الانفصال ، قال تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات]

وقوله سبحانه :﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ۝٦﴾[الزمر] بيان للقرار المكين الذى يستقر فيه الإنسان فى بطن أمه ، قال تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢﴾ [المرسلات] والمكين هو المستقرّ فى

---

(١) عضداً . أى : أعواناً مساعدين . [القاموس القويم ٢/ ٢٤] . قال الزبيدى فى تاج العروس (مادة عضد) : من المجاز : العضد : الناصر والمعين . وعضد الرجل : أنصاره وأعوانه .

المكان ، فبطن الأم مكان ، والجنين فى البطن مكين .

ولما تكلم العلماء فى معنى الظلمات الثلاث قالوا : هى : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة . وكلمة الظلمة نفهم منها عدة أمور .

أولاً : الظلمة تعنى عدم وجود النور ، وهى مرتبطة بالليل .

ثانياً : الليل دائماً رطب عن النهار ؛ لأن النهار فيه حرارةُ الشمس وحرارةُ الأنفاس الناشئة عن الحركة ، أما الأنفاس فى الليل فهادئة ، لأنها لمجرد استبقاء الحياة ، وليست ناشئة عن حركة العمل والجهد المبذول .

ثالثاً : كذلك فى الظلمة سكون ، وهدوء لا يتوفر فى النهار .

إذن : فى الظلمة عدم نور ، وفيها برودة ، وفيها سكون ، وهذه الأمور الثلاثة ضرورية لنمو الجنين ، وتكوُّن أعضائه فى بطن أمه ، لأنه فى بطن أمه خلْقٌ ضعيف غير مكتمل الأعضاء والجوارح ، لا يَقْوى على تحمُّل الحرارة ، ولا تحمُّل الضوء ، ولا تحمُّل الأصوات المزعجة ، لذلك جعل له الخالق سبحانه عوازلَ تقيه هذه الأشياء ، لذلك قال سبحانه : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر]

والأقرب للصواب أن هذه الظلمات الثلاثة فى الرحم وليس منها ظلمة البطن ؛ لأن الحق سبحانه يُحدِّثنا عن القرار المكين الخاص بالجنين ، فيقول : ﴿ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر] بيان للظرف العام الذى يقع فيه الظرف الخاص بالجنين وهو الرحم ، فالبطن ظرف كبير يحوى الرحم والأمعاء والمعدة والكبد والطحال والبنكرياس .. الخ لذلك حدد الظرف الخاص بالجنين فقال بعدها : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر]

إذن : الظلمات الثلاث عبارة عن عوازل وأغشية تحمى الطفل ، وكلها داخل الرحم ، وإذا كان الإنسان المكتمل الناضج تزعجه الأصوات ، وربما أتلفت طبلة أذنه مثلاً ، وتؤذيه الأضواء العالية ، حتى لا يَقْوى نظره على مواجهتها ، فهل يطيق الجنين مثل هذه الأشياء ، وهو لم تكتمل أعضاؤه بعد ؟

ومعلوم أن الطفل يُولد بجلد رقيق لا يتحمل الحرارة ، ويُولد ولم تكتمل فيه بعض الأعضاء والجوارح ، فالجهاز العصبى مثلاً لا يكتمل إلا بعد عدة سنوات ، والجهاز العقلى لا ينضج إلا بعد سِنِّ البلوغ ، والعين لا تؤدى مهمتها فى الرؤية إلا بعد ثلاثة أيام .

فالجنين يحتاج إلى حماية ؛ لذلك جعله الله فى ظرف داخل ظرف داخل ظرف ، كما أنك تجعل أوراقك المهمة مثلاً فى ملف ، والملف فى الخزينة ، والخزينة فى غرفة ، فقوله ﴿ فِى ﴾ دليل على العناية بهذا المخلوق ، وتوفير ما يناسبه من الظروف المحيطة به .

وقوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۝٦ ﴾[الزمر] كلمة ﴿ ذَٰلِكُمُ ۝٦ ﴾[الزمر] عبارة عن اسم الإشارة (ذا) وضمير المخاطبين ، والإشارة هنا للحق - تبارك وتعالى - فلو أشرتَ لخطاب المفرد تقول : ذلك ، وللمثنى ذلكما كما فى : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ۝٣٧ ﴾ [يوسف] ولجمع المذكر (ذلكُمْ) ولجمع المؤنث (ذلكُنَّ) كما فى : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۝٣٢ ﴾ [يوسف]

وجاءت هذه الإشارة إلى الحق سبحانه بعد أنْ تكلم عن بعض أسراره فى خَلْق الإنسان ، وعن الظلمات الثلاث فى رحم الأم ، وكلها فى مجال الخَلْق والتربية والتكوين الأول للإنسان ، وهذه المسألة يناسبها صفة الربوبية التى تتولى الخَلْق والتربية ، فالربُّ هو الخالق

وهو المربّى ، أما كلمة الله فهى للألوهية ، والألوهية تكليف ، لأن الله يعنى المعبود بطاعة أوامره واجتناب نواهيه ، والجنين فى بطن الأم بعيد عن مسألة التكليف ، فلماذا اختار هنا وفى هذا المقام لفظ الألوهية (الله) فقال : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر]

ولم يقل : ذلكم ربكم الله - كما يقول بعض المستشرقين ؟

قالوا : لنفهم أنه سبحانه لا يخلقنا ولا يربينا لنكون مثل الدواب فى الكون ، إنما يخلقنا ويُربينا لهدف ولمنهج تكليفى نسير عليه ؛ ذلك ليجعلنا نأنس بكلمة الله قبل كلمة رب ، وفى هذا إشارة إلى أن الهدفَ من التكليف صلاح المجتمع وصلاحكم فيما بينكم ، فالخالق سبحانه لم يخلقنا عبثاً ولم يتركنا هَمَلاً وخلْقاً ضائعاً لا هدفَ له.

لذلك فى صدر سورة الرحمن يُبيِّن الحق سبحانه أن تعليمَ المنهج قبل تكوين الخَلْق ، وأن الخَلْق لا يُعَدُّ نعمة إلا إذا تَمَّ فى ظل منهج الخالق ، فصاحب الصنعة لا بُدَّ أنْ يحدد مهمتها قبل أنْ يصنعها ، قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن]

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر] مادة (ملك) منها المُلْك والملك والملكوت : المِلْك بالكسر هو ما تملكه ولو كان يسيراً ، والمُلْك بالضم أنْ تملكَ مَنْ يملك ، والمِلك والمُلك فى عالم المشاهدة ، أما الملكوت فهو ما لا نشاهده من مُلْك الله ، ولا يُطلع الله عليه إلا مَنْ اصطفاه من أنبيائه ورسله وأهل طاعته ممَّنْ صفَتْ فطرتهم الإيمانية وسلِمَ لهم جهاز الاستقبال عن الله ، هؤلاء يُطلعهم الله على بعض ملكوته ، لذلك لما وفَّى سيدنا إبراهيم وأذعن لأمر ربه أراه هذا الملكوت : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام]

ومثل مُلك وملكوت نقول : رحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت .

ومعنى ﴿لَهُ الْمُلْكُ .. ⑥﴾[الزمر] يعنى : إنْ كنتم قد شهدتم مُلْكاً واسعاً فاعلموا أنه لمن خلقكم ، ومن العجيب أنه مخلوق من أجلكم أنتم وقد خلقه الله لكم قبل أنْ يخلقكم ؛ لأن الإنسان الأول طرأ على كَوْن مُعَدٍّ لاستقباله بكل ما يلزمه من مُقوِّمات الحياة بدايةً من الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم إلى أصغر شىء فى الكون .

وقوله بعدها : ﴿لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ⑥﴾[الزمر] يعنى : أن هذا الخَلْق العجيب لله وحده ولم يَدَّعه أحد لنفسه ، وما دام أن أحداً لم يدَّع الخَلْقَ لنفسه فليس لأحد أنْ يدَّعى أنه واضع المنهج الذى يعيش به الإنسانُ فى الكون ؛ لأن الذى خلق هو الذى يضع المنهج ، والذى صنع هو الذى يضع قانون الصيانة لصنعته .

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ⑥﴾ [الزمر] أى : كيف تنصرفون عن عبادة الله الخالق إلى عبادة غيره ممن ليس لهم من الخَلْق شىء ؟ كيف تنصرفون عن ربٍّ خلق وربَّى ولا يزال فلم يتركنا ولم يسلم خَلْقه لأحد غيره ، وليس عنده استعداد لأنْ يسلمه أبداً .

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑦﴾

بعد أنْ حَنَّنَ الحق سبحانه الخَلْق بذكر الربوبية التى خلقت وربتْ ، وأمرتْ ، وبذكر الألوهية التى ضمنتْ صلاح البلاد والعباد ، بيَّن سبحانه أنه الغنى عن خَلْقه ، فقال تعالى : ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۝٧﴾ [الزمر] يعنى : غنى عن إيمانكم ولا تنفعه طاعاتكم .

فهو سبحانه جعل التكاليف لصلاح حالكم لا لمنفعة تعود عليه سبحانه ، فأنتم خَلْقه وصَنْعته ، والصانع يريد أنْ يرى صنعته على أحسن حال ، يرى العبد المؤمن فى المجتمع المؤمن الذى تتساند حركته لا تتعاند ، وتتفق توجهاته لا تتضارب ، الخالق سبحانه لا يحب أنْ يرى خَلْقه يتصارعون ، واحد يبنى والآخر يهدم .

إذن : هذا هو الهدف من الخَلْق ومن المنهج ؛ لأن الله تعالى بصفات الكمال فيه خلق الخَلْق ، ولم يُزدْه الخَلْق صفة واحدة لم تكُن له من قبل ، إذن : لا حاجة له إليكم . إنما أنتم صنعته ويريد لكم الخير ؛ لذلك لما عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبيْنَ أنْ يحملْنها وأشفقْنَ منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوماً جَهُولاً .

وإباء السماوات والأرض والجبال ليس امتناعاً على الله ، ولا اعتراضاً إنما تسليم ؛ لأن الله خيَّرهم فاختاروا أنْ يكونوا مُسيَّرين .

لكن الإنسان قَبلها فحكم الله عليه بأنه كان ظلوماً وجهولاً ، لكن كيف يُوصَف مَن قَبلَ كلام الله بأنه ظلوم وجهول ؟

قالوا : لأنه ظلم نفسه وجهل ما يكون منه ، لأنه مخلوق مختار له أنْ يؤمن ، وله أنْ يكفر ، وله أنْ يطيعَ وأنْ يعصى ، ولما عُرِضَتْ عليه الأمانة قبلها ؛ لأن الله هو الذى خيَّره . ووثق بنفسه وقدرته على الأداء ، لكنه جهل ما يطرأ عليه وما يَجدّ من أحداث وأهواء ، فظلم نفسه عند التحمُّل وجهل بوقت الأداء ، وأسرع فى وقت الرضا

والقبول ، وكان ينبغى عليه أنْ يحسب حسابَ الإنجاز والأداء .

وفَرْق بين التحمُّل والأداء فى مسألة الأمانة ، لأن الأمانة موكولة إلى ذمة المؤتمن ، ولو كتب بها (إيصالاً) أو كان عليها شهود ما سُمِّيتْ أمانة ، والإنسان عادة يُقبل على تحمُّل الأمانة وفى نيته أداؤها ، كما لو أنك أعطيتَ صديقاً لك مبلغاً من المال يحفظه لك ، لحين عودتك من السفر مثلاً ، فتراه يرحب ويقبل لكن تعنّ له ظروف ، وتمتد يده إلى هذا المال ، وربما جئت فلم تجده ، وعندها إما ينكر أو يماطل .

إذن : ظلم نفسه ، وجهل وقت الأداء ، وجهل أنه ابنُ أغيار ، ونفسه متغيرة ، أما السموات والأرض والجبال لما خُيِّرتْ اختارت أنْ تكونَ مُسيَّرة ، لا دخْلَ لها بهذه المسألة فأخذت الأمر من قصيره .

ومعنى قوله تعالى :﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴿٧﴾﴾ [الزمر] واضح فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كل واحد مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص المخْيَط إذا أُدخل البحر ، ذلك أنِّى جَوَاد ماجد واجد ، عطائى كلام ، وعَذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقول له كُنْ فيكون »[1] .

وقوله سبحانه : ﴿وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴿٧﴾﴾ [الزمر] دليل على

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) ، والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

محبته سبحانه لخَلْقه ، فكأنه تعالى يقول : أنا غنى عنكم ، لكن لا أحب أنْ تكونوا كافرين ؛ لأننى أريد أن أباهى بكم ملائكتى الذين قالوا عنكم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ (٣٠) ﴾ [البقرة]

وورد أن الحق سبحانه يقول لملائكته : أعلمتم أن عبيدى أطاعونى ؟ فيقولون : أطاعوك لنعمتك عليهم ، فقال : ولو سلبتُ نعمتى لأطاعونى .

لذلك يُمرضهم ويطيعونه ، ويُفقرهم ويطيعونه ، ويهزمهم ويطيعونه ، وينصرهم ويطيعونه . إذن : عبادى يطيعوننى لذاتى ؛ لأنى أستحق أنْ أُحبّ ، وأنْ أُطاع بصرف النظر عن نعمى عليهم .

لذلك يقول الحق سبحانه عتاباً للخَلْق الذين يعبدونه خوفاً من ناره ، أو طمعاً فى جنته : أو لو لم أخلق جنة وناراً أما كنتُ أهلاً لأنْ أُعبد ؟

وضربنا مثلاً بالرجل الذى يعمل معه خادم يخدمه مقابل مائة جنيه فى الشهر ، لكن ضاقتْ حالُ هذا الرجل وأصبحتْ لا تتسع لهذا المبلغ ، فقال لخادمه : والله أنا لم أَعُدْ قادراً على دفع هذا المبلغ ، ولا أقدر إلا على خمسين جنيهاً ، فانظر أنت فى أمرك أو ابحث لك عن فرصة عمل أخرى ، فقال الخادم : أنا موافق على الخمسين ، لكن اشتدتْ الحالُ بالرجل مرة أخرى ، حتى أنه لم يَعُدْ قادراً على دَفْع أكثر من عشرين جنيهاً ، فرضى بها خادمه ثم عشرة فرضى بها ، إلى أنْ قال له : والله حالك معى جعلك تستحق أنْ تُخدم ، ولو بلا أجر ، هكذا أَمْر الله معنا .

فالحق سبحانه لا يرضى لعباده الكفر لأنهم خَلْقه وصَنْعته ، وهو سبحانه حريص على ما يُصلحهم ، حريص على أنْ يكونوا مؤمنين لتستقيم أمورهم ، وتمتد نِعَمه عليهم من الدنيا إلى الآخرة ، فكما أنعم عليهم فى الدنيا بنِعم موقوتة يريد أنْ يُنعم عليهم فى الآخرة ونِعَم الآخرة باقية خالدة .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : « قالت الأرض : يا رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طعمَ خيركَ ، ومنع شكرك ، وقالت السماءُ : ياربّ ائذن لى أنْ أسقط كِسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك إلى أنْ قال الحق سبحانه لهذه المخلوقات التى أظهرت غيرتها على ربها عز وجل : دَعُونى وخَلْقى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[1] .

﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۝٧ ﴾ [الزمر] فإن تشكروا يرضى لكم الشكر ، ويعجبه منكم ، ويحبه لكم ، ويجزيكم عليه خيراً ، وإنما رضى لهم سبحانه الشكر لأنه سبب سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. ۝٧ ﴾ [إبراهيم] ، فالشكر على النعمة يعطينا مزيداً من النعمة ، فنشكر عليها فتعطينا المزيد ، وهكذا يظل الشكر دائماً والنعمة دائمة .

---

(١) أورده الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ، ولفظ : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كفّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

وقوله : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ⟨٧⟩ ﴾ [الزمر] أى : لا تحمل نفسٌ مذنبةٌ ذنوبَ نفس أخرى ، يعنى : سأكون عادلاً بألاَّ أحمل أحداً ذنب غيره ، فكلٌّ مُعلّقٌ من عرقوبه .

وهذه الآية وقف عندها بعض المستشرقين يقول : إنها تتعارض وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ⟨١٣⟩ ﴾ [العنكبوت] نعم ظاهر الآيتين التعارض ، لكن أنت لم تفهم مَناط الوزر .

فالقاعدة العامة أنه لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحد ، أما هؤلاء فيحملون أوزارهم وأوزار الآخرين ، لأن الآية هنا تتحدث عن رؤوس الضلال وقادة الكفر الذين ضلوا فى أنفسهم ، وأضلّوا غيرهم ، فالوزر الأول وِزْر ضلالهم فى أنفسهم وأوزار الآخرين الذين أضلوهم وأغووهم وزينوا لهم الضلال . إذن : فالمعنى مختلف .

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ⟨٧⟩ ﴾[الزمر] يعنى : إنْ كنتُ قد بدأتُ خَلْقكم بالإكرام لكم ، وقابلتم هذا الإكرام بالجحود ، ولم تؤدوا حَقّه بالإيمان بى والطاعة لمنهجى ، فاعلموا أنكم سترجعون إلىَّ ولن تفلتوا منى ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⟨٧⟩ ﴾ [الزمر] أى : يخبركم بما كان منكم .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⟨٧⟩ ﴾ [الزمر] إذن : تذكروا دائماً هذه المسألة ، واحسبوا حسابها قبل فوات الأوان .

وهذه الآية تحذير من الحق سبحانه ، وبيان للعقوبة من شأنه أنْ يردع الناسَ عن الجرائم ، فلا تقع ولا تحدث العقوبة أصلاً ، وهذا من رحمة الخالق بالخَلْق ، فهو سبحانه يريد لهم الخير ، ويريد لهم أنْ ينعموا بنعمه فى الآخرة ، كما نَعِموا بنعمه فى الدنيا .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ[1] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا[2] لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾

(الضُّر) هو ما يُخرِج الإنسان عن سلامته فى نفسه ، أو فيمَنْ يعول أو فيما يملك ، والإنسان حينما يصيبه الضُّر يُفقده ركيزة التعالى ، و (العنطزة) ؛ لأنه لا يسلِّم نفسه بلا ثمن ، ويعرف أنه لا أحدَ يرفع عنه ضُرَّه إلا الله ، فيتوجه إليه وحده ولا يغشُّ نفسه .

وقد أوضحنا هذه المسألة بحلاق الصحة زمان ، وكان يقوم بدور الطبيب فى البلدة ، فلما انتشر التعليم وتخرَّج بعض الأطباء من كلية الطب خاف صاحبنا على (أكل عيشه) ، وخاف أنْ يسحب هؤلاء البساطَ من تحت قدميه ، فراح الحلاق يُهوِّن من شأن الطبيب الجديد الذى عُيِّن فى البلدة يقول : إنه لا يعرف شيئاً وو ، يريد أنْ يصرف الناسَ عنه ، لكن لما مرض ولده ماذا فعل ؟ هل غَشّ نفسه ؟

لا بل (لفَّ) الولد بالليل ، وأخذه إلى الطبيب الذى طالما تكلم فى حقه وقلَّل من قدراته أمام الناس ، أما الآن والمريض ولده فإنه

---

(١) خَوَّله كذا : ملّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] .

(٢) الند : المثل والنظير . وجمعه أنداد . قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا .. ﴿٣٠﴾﴾ [إبراهيم] أى : أمثالاً شركاء . [القاموس القويم ٢/ ٢٥٧] .

يعود إلى الحق ولا يخدع نفسه .

كذلك الإنسان إذا مسَّه الضر وعـزَّتْ عليه أسبابه لا يلجأ إلا إلى ربه بعد أنْ انهدَّتْ فيـه حيثية ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾ [العلق] وبعد أنْ سقط عنه قناع التعالى والغطرسة .

وقلنا : إن هذه القضية يستطيع كلٌّ منّا أن يلمسـها فى نفسه فأنت مثلاً تعطى ولدك مصـروفه كل يوم عندما يذهب إلى المدرسة ، وفى يوم ما نسيت تعـطيه المصروف ، ماذا يفـعل ؟ يتعرَّض هو لك ويحاول أنْ يمر من أمـامك وكأنه يُذكِّرك بما نسيتـه ، فيسـلم عليـك أو يقول : أنا رايح الـمدرسة يا بابا ، ولو أنك تعطـيه مصـروفه كل شهر ما فعل ذلك طوال التسـعة وعشرين يوماً ، نعم ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾ [العلق]

فالإنسان ســاعةَ يصيبه الضر ، وهو يعلم أن الضـر لا يرفعه إلا الله ، ولا يصـرفه إلا خـالق السـموات والأرض ، فـإنه لا يتوجـه إلا إليه ، لمن تعتقد مواجيده أنه قادر على رَفْع هذا الضر ، حتى لو كان كـافراً بالله ، غـيـرَ مؤمن به فـإنه إذا مـسَّه الـضر يقـول : يا رب ، والعجـيب أن الله يقبله ويغيـثه ولا يرده ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ۝٦٢﴾ [النمل]

ويكفـــيك أنك لم تـجـد إلا أنا ولا تقـــول إلا يارب . لذلك قـــال ســبحـانه : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ۝٦٧﴾ [الإسراء] يعنى : إنْ دعـوتَ غـيـر الله لا يسـتطيع الوصـول ، ويضل الطريق إليك ، ولا يجيبك إلا الله .

ومعنى ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ ۝٨﴾ [الزمر] راجعـاً إليه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ ۝٨﴾ [الزمر] يعنى : أعطاه ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ۝٨﴾ [الزمر] أثار العلماءُ ضجـة ومعركة حول الاسم الموصول (ما) هنا

وقالوا : لماذا لم يقل نسى مَنْ لأن مَنْ تدل على العاقل ، أما (مَا) فلغير العاقل ، على معنى أن (مَا) هنا تعود إلى الله تعالى .

ونقول : القرآن يسير على غير هذا ، واقرأ : ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ ﴾ [الكافرون] فـ (ما) أطلقت على الله تعالى . إذن : (ما) هنا فى معناها الصحيح ، وإنْ غابت عنكم حكمة ذلك ، نعم مَنْ للعاقل ، وما لغير العاقل ، لكن الحق سبحانه لم يصف نفسه بالعقل ؛ لأن العقل صفتك أنت ، فجاء بالصفة التى لا تمنع عدم وجود العقل ، ولو قال مَنْ لأدخل الحق سبحانه فيمن يعقل ، وهو سبحانه لم يصِف نفسه بأنه عاقل ، إنما عالم وعلاَّم .

ويمكن تفادى هذا الإشكال لو وجَّهنا (ما) توجيهاً آخر ، فيكون المعنى : نسى الضر الذى كان سبباً فى رجوعه إلى الله ، لا نسى مَنْ أنقذه ، وكشف عنه ضُرَّه ، وتكون مَا بمعناها اللغوى لغير العاقل .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ⑧ ﴾ [الزمر] أنداد : جمع ند ، وهو الشبيه أو المثيل والنظير ، وهؤلاء الكفار رجعوا لله تعالى أنداداً مع علمهم أنه الإله الحق سبحانه ، ومع علمهم أنه ضَلَّ مَنْ تدعون إلا إياه ، ليرضوا فى أنفسهم مواجيد الفطرة الإيمانية ، فالواحد منهم يريد أنْ يكون له إله يعبده ، لكن إله على هواه ، إله ليس له تكاليف ، وليس فى عبادته مشقة على النفس ، إله بلا منهج : لا افعل ، ولا لا تفعل .

وقوله ﴿ لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ⑧ ﴾ [الزمر] البعض[1] قرأها بالفتح (ليَضل) ونقول : هو لم يفعل ذلك إلا لأنه ضَالٌّ فى نفسه ، فالأقرب بالضم (ليُضل) أى : يُضل غيره .

---

(١) قرأها بفتح الياء الدورى عن أبى عمرو ، أما رواية حفص عن عاصم فهى بضم الياء .

ثم يقول سبحانه (قُلْ) أى : رُدّ يا محمد . وقُلْ : ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ⑧ ﴾ [الزمر] لكن ما وجه التمتُّع بالكفر ؟ قلنا : أن يعبدَ إلهاً بلا منهج وبلا تكاليف ، إلهاً لا يمنعه من شُرْب الخمر ولا يقيد شهوات نفسه إلهاً لا يأمره بالصدق ولا بالأمانة .. الخ بل يتركه يربع فى الكون يتمتع به كما يشاء .

وقال ﴿ قَلِيلاً ⑧ ﴾[الزمر] لأن التمتُّع هنا موقوت بالدنيا ومدة بقائه فيها ، وقلنا : إن الدنيا بالنسبة للإنسان هى مدة بقائه فيها لا مدتها منذ خَلْق آدم إلى قيام الساعة .

وكلمة ﴿ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ⑧ ﴾[الزمر] الصحبة هنا تدل على التعارف والمودة الحميمة بين النار وأهلها ؛ لذلك يقول تعالى فى خطاب النار :﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ㉚ ﴾ [ق] يعنى : هاتوا أحبابى وأصحابى ، وإلىَّ بالمزيد منهم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ[2] ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ⑨ ﴾

---

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢١٠) : « قال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وقال ابن عمر : نزلت فى عثمان بن عفان . وقال مقاتل : نزلت فى عمار بن ياسر » . وذكر السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٢١٤) عدة روايات .

(٢) قنت فى صلاته : خشع واطمأن . وقنت : دعا وأطال الدعاء . والقنوت : الطاعة والدعاء . [القاموس القويم ٢/ ١٣٤] .

كلمة (أم) تفيد التخيير بين أمرين ، تقول هذا أم هذا ، فلا بُدَّ أن يكون لها مقابل ، فما مقابل ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ .. (٩)﴾[الزمر] المقابل لذلك فى قوله تعالى قبلها : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ .. (٨)﴾ [الزمر]

فالمعنى أيهما أحسن من صفته إذا مسَّه الضر يضرع إلى الله ، فإذا كشف عنه الضر جعل لله أنداداً ، أمَّنْ هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه .

ومعنى : ﴿قَانِتٌ .. (٩)﴾ [الزمر] دائم الخضوع والعبادة (آنَاءَ) جمع (إِنْو) مثل حِمْل وأحمال ، فكلمة (إِنْو) أى : جزء من الليل ، وهى من حيث التصريف أأناو وقُلبتْ الهمزة إلى مَدٍّ والواو إلى همزة لأنها وقعتْ بعد الألف الزائدة ، فصارت (آناء) .

وقوله : ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ (٩)﴾ [الزمر] يعنى : يخاف منها ومن القهر فيها ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ (٩)﴾ [الزمر] لأن رحمته سبقت غضبه ، لم يقل يأمن مقابل يحذر إنما ذكر أولاً ما يُخوِّف من الآخرة إنْ عصى ، والمراد يحذر النار فى الآخرة ، لكن لما تكلّم عن رحمة الله جعلها مباشرة ، فقال ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ (٩)﴾ [الزمر] ولم يقل : ويرجو الجنة .

والمؤمن حين يرجو لا يرجو عمله وسَعْيه فى الدنيا ، إنما يرجو وينتظر رحمة الله ، لأنه لا ينجو بعمله ، لأن أىَّ إنسان مهما كان صالحاً حين تحاسبه حساباً دقيقاً لا بُدَّ أنْ يخرج بذنوب وإدانة .

إذن : فالكفيل فينا جميعاً والذى يسعنا رحمة الله ، كما جاء فى الحديث الشريف : « لا يدخل أحدٌ الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت

يا رسولَ الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله برحمته »[1] .

فإياك إذن أنْ تغترَّ بعملك ، لأن التكاليف كلها لصالحك أنت ، ولا يعود على الله منها شيء ، فحين يجازيك عليها فى الآخرة فهو تفضُّل من الله ونعمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ⑨ ﴾[الزمر] بعد أن عقد الحق سبحانه مقارنة بين الإنسان إذا مسَّه ضُر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوَّله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، ومَنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه .

أراد سبحانه أن يؤكد هذا المعنى ، وأنْ يبين لنا أن أصحاب العلم الحقيقى لا يستوون ، وأصحاب العلم غير الحقيقى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ⑨ ﴾[الزمر] فالذى رجع إلى الكفر بعد أنْ كشف الله عنه ضُره لم يعلم العلم الحقيقى ، لأنه لو علمه ما رجع إلى الكفر ولاستقلَّ المطلوب منه فى الدنيا إذا قارنه بما أعدّ له من جزاء فى الآخرة .

أما الذى هو قانتٌ آناءَ الليل ساجداً وقائماً ، يحذَرُ الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، فقد علم العلم الحقيقى ، فالقنوت بالليل فيه مسائل كثيرة : أولاً : أنه أبعد عن الرياء والسمعة ، ثانياً : أن كل جوارحه تفرغتْ للقاء ربه ، فالعين مثلاً فى ظلمة الليل تستريح من المرائى التى تشغل الإنسان وتأخذ انتباهه ؛ لأن كل مرءًى يأخذ جزءاً

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة . ومعنى تغمده الله برحمته ، أى : أدخله فيها وغمره بها .

من خواطرك ، فهذا راح وهذا جاء وهذا قال وهذا ..

أما الليل فسكونٌ لا انشغال فيه ، فالجوارح كلها خالصة لوجه الله، لا تشغلها المرائى والأصوات . وهذا الجو يوفر لك وقفة حقيقية وخاشعة بين يدى الله .

وفى القنوت تترك النوم وتحرم نفسك راحتها ، لتقوم بين يدَىْ ربك ساجداً أو قائماً ؛ لذلك يقول الشاعر :

خَلَوْتُ إلى رَبِّى فَهِمْتُ بِقُرْبه ... وَصِرْتُ خَفِيفَ النفْسِ كَأَنِّى بِلاَ جِسْمِ

تَلَوْتُ كِتَابَ الله فيا نعمَ ... ما عُوِّضْتُ مِنْ نعمة النَّوْمِ

تَمنَّيتُ ليْلى أنْ يطُولَ لأنتهى ... إلى السِّين مِنْ والنّاسِ موصُولة باسْمِ

هذه صفة أهل القنوت الذين يقضون الليل فى مناجاة ربهم ، وهذا هو حال المرتحل فى كتاب الله الذى لا ينتهى إلى السين من والناس حتى يبدأ فى بسم الله الرحمن الرحيم فى أوله ؛ لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن القرآن كله مبنى على الوصْل ، لا على الوقف .

فهل يستوى مَنْ هذا حاله مع مَنْ كفر بالله ؟ هذا علم وعمل ، وذلك لم يعلم أو علم ولم يُوظِّف علمه فيما ينفعه . ثم إن العبد حينما يعلم ويعمل بعلمه يُفيض الله عليه بالمزيد ، فيعطيه علمَ المكاشفة ، وعلمَ الفيض ، رحمةً منه سبحانه وفضلاً ، كما رأينا فى قصة العبد الصالح الذى صاحبه سيدنا موسى - عليه السلام - قال تعالى فى شأنه :

﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف] كذلك الرحمة هنا فى ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر] أى : الفيوضات الخاصة التى يفيض الله بها على مَنْ ظل فى معيته ، ونحن نشاهد

هذا فى عالم البشر ، فحين يكون لك صديق يلازمك ويسير فى معيتك لا بُدَّ أنْ تخصَّه بفضلك وخصوصياتك ، فما بالك بمَنْ ظل فى معية ربه ؟ أيعطيك بلا خصوصية ؟ أيُسوِّيك بمَنْ يؤدى الفرض وحده ؟

لذلك قال سبحانه فى الحديث القدسى : « ما تقرب إلىَّ عبدى بمثل ما افترضتُه عليه ، ولا يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورِجْلَه التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأُعطينه »[1] .

وهكذا يدخل العبد فى الربانية التى تقول للشىء كُنْ فيكون ، وهذه من الفيوضات لمن كان لله ساجداً أو قائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، يعبده بلا رياء ولا سمعة ، ويمنع نفسه النومَ والراحة ؛ لأنه أنِسَ بربه ، واستراح فى قربه .

فقوله تعالى ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [الزمر] دلّ على أن هناك علماً اسمه علم المكاشفة ، يُفيض الله به على مَنْ يشاء من عباده الصالحين ، الذين استحقوا هذه المنزلة ، فالعبد الصالح صاحب موسى وعبد الله على منهج موسى ، وليس برسول ، ومع ذلك فاق الرسول ؛ لأن موسى - عليه السلام - أوصله بربه فتقرَّب إليه ، حتى صار من أهل المكاشفة واتصل هو بالله مباشرة ، وأطلعه الله على ما لم يُطلِع عليه نبيه موسى عليه السلام .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) ، وأبى نعيم فى حلية الأولياء (١ / ٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أوله : « إن الله قال : من آذى لى ولياً فقد آذنته بالحرب . » وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٦ / ٢٥٦) من حديث عائشة ، أوله : « من أذل لى ولياً فقد استحل محاربتى » .

لذلك فى آخر قصته مع سيدنا موسى قال : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى (٨٢)﴾ [الكهف] إذن : فمهمة الرسل أنْ يُوصلُوا الخَلْق بالخالق ، فإذا ما اتصلوا به كان الخط بينهما مباشراً ، وكُلٌّ بحسب قُرْبه من ربه .

وقوله سبحانه ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (٩)﴾ [الزمر]

أى : أصحاب العقول المفكرة التى تبحث فى المحسَّات ، وتتأمل فى الآيات ؛ لأن للإنسان حواسَّ تدرك ، وعقلاً يرجح ويختار ، فيأخذ هذه بالسمع ، وهذه بالبصر ، وهذه بالأنف ثم يعرضها على العقل لينظرَ ما فيها من الخير وما فيها من الشر ، فإنْ كان العقل صحيحاً رجح الخير ، واختار من البدائل أجداها فائدة ، وأهمها نفعاً .

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)﴾

التقوى أنْ تحترز من المعاصى ، وأنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال من الله وقاية ، فالله جبار قهار ذو انتقام ، فاجعل بينك وبين هذه الصفات وقاية تحميك .

وقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا (١٠)﴾[الزمر] للعقائد ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ (١٠)﴾ [الزمر] أى : فى التكاليف ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ (١٠)﴾ [الزمر] أى : حسنة فى الآخرة ، فلم يقل : للذين أحسنوا حسنةٌ فى هذه الدنيا ؛ لأن الكفار يتمتعون فى الدنيا بحسنات كثيرة من المال والجاه والعلم .. الخ .

فإنْ فسَّرنا الحسنة على أنها النعيم ، فالنعيم الذى يكون سبباً فى صَرْف الإنسان عن ربه لا يُعَدُّ حسنة إنما سيئة ، إذن : فالحسنة المرادة هنا فى الآخرة ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ⑩ ﴾ [الزمر] لكن ما علاقة ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ .. ⑩ ﴾ [الزمر] بقوله ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ⑩ ﴾ [الزمر]

قالوا : يعنى : إنْ صادفتَ متاعبَ فى أرضك التى تعيش فيها ، فإنَّ أرضَ الله واسعةٌ ، فالتمس حمايةَ نفسك ودينك فى أرض أخرى ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا[1] كَثِيرًا وَسَعَةً ⑩⓪ ﴾ [النساء]

وقال فى نفس المعنى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ⑨⑦ ﴾ [النساء]

إذن : حين تضيق بك أرضك ، وحين يضيق عليك الخناق بها ، فالتمس أرضاً أخرى تأمن فيها على نفسك وعلى دينك ، وعلى تطبيق منهج الله دون معاند ، ودون معارض .

ولو تنبهنا إلى آية فى سورة الرحمن لوجدنا فيها حلاً لكل مشاكل الدنيا المعاصرة ، هى قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ⑩ ﴾ [الرحمن]

يعنى : جعل الأرض كل الأرض دون تحديد تحت تصرف كل الأنام دون تحديد أيضاً ، فكلُّ إنسان له فى أرض الله نصيب ، فإذا ضاق به مكان فله حَقٌّ فى مكان آخر . لكن قوانين البشر ومصالحهم غيَّرَتْ هذه الصورة ، ووضعت العقبات والعراقيل والإجراءات المعقدة

(١) أى : يجد مكاناً متسعاً يراغم فيه القوم الذين راغموه واضطروه إلى الهجرة ، أو يجد مكاناً يصلح لمراغمة أعدائه أو اتقاء شرهم . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] .

فى طريق هذه الحرية التى كفلها الخالق سبحانه للحركة على أرضه .

لذلك وجدنا أن مشكلة العالم الاقتصادية تكمن فى وجود أرض بلا رجال ، أو رجال بلا أرض ، ولو تركنا الأرض لله كما خلقها الله لعباده ، لو جعلنا الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام لقضيْنَا على كل مشاكل الدنيا .

وانظر مثلاً إلى السودان جارتنا من الجنوب ، بها ملايين الأفدنة لا يُستْفاد منها ، وعندنا فى مصر ملايين من الأيدى العاملة العاطلة ، ولولا الحدود التى قيدنا أنفسنا بها لَحلَّتْ السودانُ مشكلة الغذاء فى العالم العربى كله . بل والأدهى من ذلك والأمرّ أن نختلف على الحدود ، ونتزاحم على شبر واحد ، وتنشب الحروب والأزمات بين الدول بسبب هذه المسألة ، إنها النتيجة الطبيعية لمخالفة أمر الله وسنته فى الخَلْق .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر] الحث على الصبر بعد قوله ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۝١٠﴾ [الزمر] دلَّ على أنه لا بُدَّ أنْ تُوجَد فى الحياة صِعَاب ومشاكل ومتاعب تحتاج إلى صبر ، والشاعر يقول :

لعمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بلادٌ بأهلها وَلَكِنَّ أَخْلاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ[1]

فالحق سبحانه يريد منا أنْ نتحمل منهج الله ، وأن نقوم به لنسعد أنفسنا ، ثم نتسامى فى الإيمان ، ونحاول أن نسعد غيرنا ليحدث استطراقٌ للخير فى المجتمع ؛ لذلك قال ﷺ : « نَضَّرَ اللهُ

(١) البيت من قصيدة لابن الرومى من بحر الطويل ، وعدد أبياتها ٤ أبيات ، وابن الرومى هو على بن العباس بن جريج ، شاعر كبير من طبقة بشار بن برد والمتنبى ، ولد ببغداد (٢٢١ هـ) ونشأ بها ومات بها مسموماً (٢٨٣ هـ) عن ٦٢ عاماً .

امرءاً سمع مَقالتى فوَعاهَا ، ثُمَّ أدَّاها إلى مَنْ لم يَسْمَعْها ، فَرُبَّ مُبلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » .

إذن : فنقْلُ الخير إلى الغير فيه خير لك أنت ، وسوف يعود عليك نفعه ، لأنه حين تحجب علْم الخير عن الغير سيكون هذا الغير فى شَرٍّ ، وسوف يتعبك هذا الشر وينالك شىء منه ، فمن مصلحتك أنت أنْ يعمَّ الخيرُ الآخرين ، ومن مصلحتك أنْ يكون غيرك خَيِّراً ، لا يسرق ولا يَسُبّ ولا يخون ، ولا يعتدى على الآخرين ، فنقْل علم الخير إلى الغير مُفيد لناقله ، ليكفّ شرَّ ذى الشر عنه على الأقل .

والصابر هو الذى يصبر على الشدائد والمحن التى تُخرجه عن : سلامة الجوارح ، وسلامة المال ، وسلامة الأهل ، والصابر واثق بأن إيلاَمه وإيذاءه يعطيه خيراً من النعيم الذى فقده قبل الإيلام والإيذاء ، لأن الله قال : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر]

وإذا كانت التكاليفُ لها حساب عند الله ، فالصلاة لها حساب ، والزكاة لها حساب .. الخ أما الصبر فإن أجره بغير حساب يعنى : غير معلوم ، حتى قالوا أنه فى الجنة حين يرون منازل لم يكُنْ أهلها معروفين بالعمل الصالح ، ومع ذلك منازلهم فى الجنة عالية ، فلما سألوا عن ذلك قالوا : إنهم كانوا من أهل الصبر على البلاء وعلى الشدائد والمحن ، فنالوا هذه المنزلة بصبرهم .

والصبر عدم تشكيك فى رحمة الله ، وعدم اعتراض على حكمه وقضائه ، فمثلاً نرى بعض أهل البلاء يعرضون آفاتهم وبلواهم على المجتمع فى موسم الحج ، فبعض هؤلاء يذهب للحج وهناك يكشف بلواه أمام الناس ، ويظهر عاهته فى رِجْله أو فى يده يستجدى بها الخلق ، وكأنه يشكو الخالق لخَلْقه ، ولو أنه ستر بلاءه ورضى به

لطرق الرزقُ بابه ، ولَسَاقه الله إليه دون جهد .

لذلك يقـول النبى ﷺ : « إذا بُليتُمْ فـاسـتـتروا »[١] لأن مَنْ يظهر بَلْواه للخَلْق كأنه يفضح الخالق ، كأنه يقول للناس : انظروا ماذا فعل الله بى .

وفى سير الصـحابة وسلف الأمة رأينا امرأة لا تقـبل من زوجها أن يشكو الفـقر لرسـول الله ، وكانا لا يملكان إلا ثوباً واحـداً يلبـسه الرجل ، ويذهب به فى أول الصـلاة خلف رسـول الله ثم يسرع بعـد الصلاة وينصرف إلى بيته لتلبسه زوجته وتصلى هى أيضاً فيه .

وقـد لاحظ سـيـدنا رسـول الله أنه يرى هذا الـرجل فى أول الصلاة ، ولا يراه بعدها ، فتحـيَّن رسولُ الله الفراغَ من الصلاة ، ثم التفت إليه سريعاً فوجده خـارجاً من المسجد ، فناداه وقال له : أراك أول الصـلاة ثم لا أراك بعـدها أَزُهْداً فينـا ؟ قال : لا يا رسـول الله ولكن لى امرأة بالبيت تنتظر ردائى هذا لتصلى فيه ، فدعا له بالخير .

فلما ذهب قالت امرأته : لقد تأخرتَ قَدْر كذا تسبيحة - هكذا كان حـساب الوقت عند هـؤلاء - فقـال لها : إن رسـول الله اسـتوقـفنى وسألنـى عن أمرى ، فلم أجد بُـدّاً أن أقول له : إن لى امرأة بالـبيت تنتظر ردائى هذا للصـلاة ، فقالـت له : يا هذا أتشكو ربك لمحـمد ؟ هكذا كان صـبر الـصـحـابة ، صـبـر لا يعـرف الجـزع ولا الشـكوى ولا الاعتراض على قضـاء الله .

---

(١) أورده العـجلونى فى كشف الخـفاء (حـديث ٢١١) بهذا اللفظ ، وقـد أخرج الحـاكم فى مستدركه (٤/٢٤٤) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قام بـعـد أن رجم الأسـلمى فقـال : « اجتنبوا هذه القاذورة التى نهى الله عنها فمن ألمَّ فليسـتتر بستر الله وليتب إلى الله ، فإنه من يبد لنا صـفحته نقم علـيه كتاب الله عـز وجل » وقال : هذا حديث صـحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

لذلك يقول بعض العارفين حين يرى حظ الصابرين فى الآخرة : لو علم الناسُ جزاءَ الصابرين لَتمنَّوْا أنْ يعودوا إلى الدنيا ، وتُقرض أجسادهم لينالوا هذه المنزلة .

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

نلحظ فى هذه الآية تكرارَ الفعل أمرت ، وهذا يدل على أننا أمام أمرين ، كل منهما مستقل عن الآخر ، فالأمر الأول ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمر] وهذا أمر ليقين الإيمان وليقين العبادة ، بحيث نتوجه بها خالصة لله .

والخلوص لله على مراحل ، فواحد يعبد الله لانتظار جزائه وطمعاً فى جنته ، وآخر يعبده خوفاً من ناره ، وآخر يعبده لذاته سبحانه ، ولأنه يستحق أنْ يُعبد ، وأنْ يُحبَّ لذاته .

لذلك قال سبحانه فى آخر سورة الكهف : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] لا جنة ربه ولا جزاء ربه ، إنما يريد اللقاء ، ويريد الأُنْس بالله ، فلا تشغله النعمة ، إنما تشغله معية المنعم سبحانه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] والجنة أحد .

إذن : الأمر الأول خاصٌّ بالعقائد ، أما الأمر الآخر : ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمر] فهو للتكاليف الإسلامية بافعل ولا تفعل ، لكن كيف يقول رسول الله ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمر] أليس هو أولهم بالفعل ؟ لأن أول تكليف كان له هو ساعةَ نزل عليه الوحى ، وقبل أنْ يُبلِّغه إلى أصحابه ، إذن : مرت

عليه فترة كـان هو ﷺ أول مَنْ أسلم لله ، أول مَنْ أسلم منهجه لله ، قبل أنْ يبلغ هذا المنهج ، هذا إنْ أردناها حقيقة أولية .

وأيضـاً له أولية فى تنـفيـذ الأحكام أمام النـاس بعد أنْ يبلغـهم المنهج ، حتى يعلموا أن الرسالة لم تكُنْ لتـدليل الرسل ، إنمـا كانـت لإقامة الأُسْـوة فيهم ، فإذا عمل الرسلُ أنفسـهم على منهج الله علّموا الناس جـميـعاً أن هذا المـنهج خيـر ، بدليل أنهم ألزمـوا أنفسـهم به تطبيـقاً قبل أنْ يلزمـوا النـاس ، كالذى قال : لم آمـركم أمراً أنا عنه بنَجْوة .

شىء آخـر : أن الله تعالى سلب الرســول ، وسلب أهل بيـته مـا أعطاه لعامة الـمسلمين ، فالميت يرثه أهـله ، ورسول الله لا يرثه أحد من أهله ، ولعـامـة فـقراء الـمسلـمين أن يأخـذوا من أمـوال الزكـاة والصدقة ، أما آل البيت فقد حرم عليهم الأخذ منها .

إذن : تحـمَّل رسولُ الله المـشاق فى سـبيل الرســالة ، ولم تكُنْ بالنسبـة له رفاهية ولا تدليلاً ، كـذلك تحمَّل معه أهل بيـته ، ونالهم جزء من هذه المشـاق ، ولولا أن إشراق الجزاء فى نفوسـهم يعطيهم الأمل والثقة فـى الجنة ، هذه الثقة التى جعلتـهم وكأنهم ينظرون إلى أهل الجنة فى الجنة ينعَّـمون وإلى أهل النار فى النار يـعذبون ، لولا هذا ما صبروا على هذه المتاعب والمشاق .

لذلك يقول سبحانه حينما يخاطب نساء النبى :﴿يَـٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب] فلأنكُنَّ نساء النبى فلا بُدَّ أنْ تكُنَّ أول مَنْ ينفذ منهج الرسول لتتحـقق بكُنَّ القدوة ، وليعلم الناس أن الرسول ما جاء جباراً يأمرهم بما لا يأتمر به ، أو ينهاهم عما لا ينتهى عنه ،

بل هو فى التنفيذ سابقهم وإمامهم وقدوتهم هو وأهل بيته ، إذن : كان ﷺ أول المسلمين بالفعل .

وللعلماء كلام طويل فى مسألة أوَّل المسلمين ؛ لأنها وردتْ أيضاً على لسان سيدنا موسى عليه السلام ، قال ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام] أى : مسلمي زمانه ، أما رسول الله فأول المسلمين فى زمنه وفى زمن غيره ، نقول لتقريب هذه المسألة : إن الأولية هنا أولية تفوق ، والتفوق قد يكون تفوقاً إضافياً كما نقول : فلان الأول على كلية الحقوق هذا العام ، فالتفوق هنا خاص بالعام الذى نتحدث عنه ، وربما جاء فى أعوام أخرى مَنْ تفوق عليه ، وحصل على درجات أعلى منه ، وقد يكون التفوق عاماً كما لو قلنا : فلان الأول على كلية الحقوق منذ أنشئت .

إذن : قد تكون الأولية فى الزمن ، وقد تكون الأولية فى مقارنة الأزمان بعضها ببعض ، فإذا قال رسول من الرسل : أنا أول المسلمين ، فالمراد أول المسلمين فى زمانه ، وإذا قيل لمحمد ﷺ : أنا أول المسلمين فالمراد أول المسلمين من لدن آدم إلى قيام الساعة ، يعنى : أنا وإنْ تأخر زمنى إلا أننى الأول إذا أخذنا الرتبة ساعة التكليف ، ثم إن غيرى من الرسل بُعِثَ إلى زمن بعينه فى مكان بعينه ، وأنا بُعِثْتُ للناسِ كافة فى كل زمان ومكان ، ثم إننى خاتم الرسل ، فلا رسالة بعدى ولا معقبَ من الرسل على رسالتى ، هذه كلها حيثيات الأولية عند رسول الله ، وهى حيثيات ظاهرة لا تُنكَر .

لذلك نجد الأولية دائماً على لسان رسول الله كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف] يعني : أول مَنْ يُصدِّق هذه المسألة .

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾

سبحان الله ، أيقول رسول الله ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الزمر] فكأنه ﷺ يقول : أنا لم آخذ هذه المنزلة حكماً مطلقاً أنني نبي مُكرَّم ، بل أنا كعامة الناس إنْ عصيتُ ربي تعرضتُ للعقاب ، يعني تقديم الله لي أولاً واصطفاؤه لي لا يشفع لي إنْ حدثتْ مني معصية .

ثم يقول سبحانه على لسان رسوله ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ ﴾[الزمر] وهذه أيضاً للعقائد وليقين الإيمان ، وقد سبق قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزمر] وهنا ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزمر] فما الفرق بين (الله أعبد) و (أعبد الله) ؟

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴿١١﴾ ﴾[الزمر] جاء على الترتيب الطبيعي

للجملة : الفعل ، ثم الفاعل ، ثم المفعول . والجملة بهذا الترتيب لا تمنع من العطف على المفعول كما تقول : أطع فلاناً ، فإنها لا تمنع أن نقول وفلاناً ، أما إنْ قدَّمنا المفعول به على الفعل ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ ⑭ ﴾ [الزمر] فإنَّ تقديم المفعول أفاد القصر يعنى : قصر العبادة على الله وحده ، كما لو قلت : إلى الله أشكو يعنى : لا إلى غيره .

فالآية الأولى جاءتْ بالترتيب الطبيعى للجملة ، والأخرى جاءت بصيغة القصر ، كأنه قال : أنا لا أعبد غير الله ، وأنتم اعبدوا ما شئتم ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ⑮ ﴾ [الزمر]

ثم يُبيِّن سبحانه عاقبة الشرك فيقول :

﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ⑮ ﴾ [الزمر]

نفهم أن هؤلاء امشركين خسروا أنفسهم يوم القيامة ، لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وبالشرك ، لكن كيف يخسرون أهليهم أيضاً ؟ قالوا : لأن أهليهم هم أولادهم وذريتهم ؛ وهؤلاء إما أنْ يؤمنوا ، وإما أنْ يظلوا على كفرهم مع الآباء ، فإنْ ظلُّوا على كفرهم فهم خاسرون كآبائهم ، وإنْ آمنوا فلن يكونوا مع الآباء ، وسيحرمون رؤيتهم ، لأن هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار . إذن : الخسارة ملازمة لهم فى كلتا الحالتين .

وكلمة الخسارة هنا أكَّدها الحق سبحانه بالمفعول المطلق ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ⑮ ﴾ [الزمر] ثم وصف الخسران بأنه مبين أى :

بيِّن واضح ومحيط ؛ لأن التاجر متى يكون خاسراً ؟ إما أنْ يعود إليه رأس ماله دون زيادة ، وفى هذه الحالة يكون قد خسر جهده وتعبه فى تجارته ، وإما أنْ تتعدى الخسارة إلى رأس المال فيخسر تعبه وجهده ، ويخسر جزءاً من رأس المال ، وهذا هو الخسران المبين ، أى : المحيط بكل شيء فقوله تعالى : ﴿أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ⑮﴾ [الزمر] يعنى المحيط الذى أحاط بأهله وماله وتعبه وسَعْيه .

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ⑯﴾

يبين سبحانه عاقبة الكافرين ، فيقول :﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ⑯﴾ [الزمر] كلمة ظلل جمع ظلة ، وهى ما يُظِلُّ الإنسان ، ويقيه حرارة الشمس ، ففى الظل يلتمس الإنسانُ الراحة وطراوةَ الهواء ، أما هؤلاء فعليهم ظُلَل لا ظلة واحدة من النار ، والنار لا تكون أبداً ظلة .

إذن : هذا أسلوب تهكم بالكافرين ، وليت هذه الظلل من جهة واحدة ، إنما من فوقهم ، ومن تحتهم ، والإنسان عادة حينما يأتيه الشر من جهة ينأى إلى الجهة المقابلة ، وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ⑪﴾(1) [الأعراف]

---

(١) قال السيوطى فى الدر المنثور (٣/٤٥٧) : « أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قولهم ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ .. ⑪﴾ [الأعراف] قال : الفرش . ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ .. ⑪﴾ [الأعراف] . قال : اللحف . وأخرج هناد وابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى مثله » .

إذن : فالنار محيطة بهم لا مـهربَ منها ، ولا مفرَّ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر] تأمل رحمة الله بعباده ، حتى فى مقام ذكر النار والعذاب ، فالنار ليس المراد بها تعذيب الخَلْق ، إنما تخويفهم وزَجْرهم حتى لا يقفوا هذا الموقف ، ولا يتعرضوا لهذا العذاب ، وأنت لا تصنع ذلك إلا مع مَنْ تحب ، كما تُخوِّف ولدك من الرسوب ، وتبين له عاقبة الإهمال ، وما سيتعرض له من الذلة والإهانة والاحتقار ، إنْ هو فشل فى دراسته .

إذن : حظه تعالى من ذكر النار أنْ يُخوِّف بها ، حتى لا يقع الخَلْق فى الأسباب المؤدية إليها ، والعاقل ساعة تخوفه يخاف ، وساعة تزجره ينزجر ويرتدع ، ويُعد هذا التخويف نعمةٌ من أعظم نعم الله عليه .

وهذه المسألة واضحة فى سورة الرحمن ، فالذين يحاولون أنْ يستدركوا على كلام الله يقولون : من المناسب للمعنى أنْ تختم الآيات التى تذكر النعم بقوله تعالى :

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن]

كما فى قوله سبحانه ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾ [الرحمن] لكن ، ما النعمة التى لا ينبغى أن نكذب بها فى قوله : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ [الرحمن]

قالوا : هذا العذاب ليس هو الواقع إنما يذكره ليرهب به يعنى : إنْ حدث منكما كذا وكذا يُرْسَل عليكما شُوَاظ من نار ونحاس

فلا تنتصران ، وكونه يرهب ويخوف بالعذاب قبل أنْ يأتى حينه فإنه يحدث عندى مانع ووقاية فلا أقترف أسباب هذا العذاب ، بل ألزم جانب الخوف من الله والتقوى .

لذلك قال بعدها : ﴿يَـٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر] أى : اجعلوا تخويفى لكم رحمة بكم لا إرهاباً لكم ، والإنسان حين يوازن بين المسائل ويقارن بين حال أهل الجنة وحال أهل النار لا بُدَّ أنْ يرعوى ، وأنْ يرجع إلى الجادة ، وعندها يكون أهلاً لرحمة الله ومغفرته . إذن : من نعم الله علينا أنْ يُخوِّفنا ، وأنْ يُحذِّرنا الشر قبل وقوعه ، وألاَّ يأخذنا على غِرَّة ، أو يتركنا فى غفلة .

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ[1] أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾

كلمة الطاغوت مبالغة من طاغٍ ، والطاغوت هو الظالم الذى يزيده احترام الناس لظلمه ، أو خوفهم منه يزيده ظلماً وغطرسة ، والطاغوت

(١) الطاغوت : كبراء الظَّلمة من شياطين الإنس أو الأصنام ، وهو كل ما عُبد من دون الله . وهو من الطغيان أى : تجاوز الحد . [القاموس القويم ١/٤٠٢] .

لا بدّ أنْ يكون له توجيه وتعالٍ ، لذلك لا يقال للأصنام طواغيت ، لأنها لا تعلو بذاتها ، وليس لها توجيهات ، إنما يعلو بها عُبَّادها ، إذن : الطاغوت لا يكون إلا من البشر ، ولو كانوا حاكمين فقط ، وإلا فما وَجْه الطغيان في الأصنام ؟ الأصنام لا قالت ولا ظلمت .

وفي المثل الريفي يقولون : (يافرعون إيه فرعنك ؟ قال : ملقيتش حد يردني) إذن : لو وقف الناس في وجهه ، ولو ردوا ألوهيته عندما ألَّه نفسه لارتدع عن هذا .

ورحم الله أحمد الزين[1] ، ففي عهد الملك أرادوا وحدة وطنية تجمع كل الأحزاب تجتمع بالملك ليفكروا في حَلِّ مشاكل البلد ، ودَعَوا لذلك مصطفى النحاس[2]، لكنه لم يذهب ، فلما سأله أتباعه : لماذا لم تذهب لهذا الاجتماع ؟ قال : لأني سأكون فيه أقلية . يعني : لكثرة الموجودين ، فأخذ أحمد الزين هذا الموقف ، وقال فيه قصيدة أراد أنْ يغمز فيها الملك ، فقال[3]:

---

(١) أحمد الزين : شاعر مصري ، كفيف البصر ، كان يقال له « الراوية » لكثرة ما يحفظ ، ولد عام ١٩٠٠ م . تعلم في الأزهر واشتغل محامياً شرعياً ، ثم عمل موظفاً بدار الكتب نحو عشرين سنة . له « القطوف الدانية » شعراً ، و « قلائد الحكمة » رجزاً . توفي عام ١٩٤٧ م عن ٤٧ عاماً . (الأعلام ١/١٢٩) له ٨٤ قصيدة عدد أبياتها ٢٢٩٢ بيتاً .

(٢) مصطفى النحاس ، زعيم مصري ، ولد في سمنود عام ١٨٧٩ م ، وتعلم بها وبالقاهرة ، تخرج بمدرسة الحقوق عام ١٩٠٠ م ، عمل بالمحاماة إلى أن عين قاضياً وانتسب إلى وفد سعد زغلول وكان من طلائع شباب الاستقلال ، واعتقل مع سعد ، تولى رئاسة الوزارة خمس مرات ، لزم بيته مكرهاً بعد ثورة ١٩٥٢ حتى توفي عام ١٩٦٥ م عن ٨٦ عاماً (الأعلام للزركلي المجلد ٧) .

(٣) هذه الأبيات من قصيدة لأحمد الزين من بحر الخفيف ، عدد أبياتها ٥١ بيتاً أولها :

كلهم في الهوى يزين دينه ألف مُفْتٍ ومالك بالمدينة

أما البيتان الآخران فهما البيتان ٤٤ ، ٤٥ من القصيدة حسب الموسوعة الشعرية .

كُلُّهم بالهَوَى يُمجِّدُ دِينَهُ   أَلْف مُفْتٍ ومَالكٌ بالمدينه
كَمْ رئيس لَوْلاَ القَوانينُ   تَحْمِى جَهْلَهُ كانَ طرده قَانُونهْ
ذُو جُنُونٍ وَزَادَ فِيهِ جُنُوناً   أَنْ يَرىَ عَاقِلاً يُطِيعُ جُنُونَهُ

فالطاغوت ما صار طاغوتاً إلا لأن الناسَ خافوه ولم يَرُدُّوا طغيانه ، ولم يجابهوه ، بل وافقوه وداهنوه ، فاستشرى به الطغيان .

البعض يرى أن الطاغوت كل ما عُبد من دون الله ، لكن ينبغى أنْ نضيفَ إلى ذلك : وهو رَاضٍ بهذه العبادة ، وبناءً على هذا التعريف لا تُعَدُّ الأصنامُ طواغيتَ ، ولاَ يُعَدُّ عيسى - عليه السلام - طاغوتاً ، ولا يُعَدُّ أولياءُ الله طواغيتَ كما يدَّعى البعض ؛ لأن الناس فُتِنَوا فيهم ، ولا ذنب لهم فى ذلك .

وقوله :﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ .. (١٧) ﴾ [الزمر] أى : رجعوا إلى عبادته وحده لا شريك له ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ (١٧) ﴾ [الزمر] أى : بالجنة لأنهم وقفوا فى وجه الطغيان ، وردُّوا الظلم ولم يقبلوه ، والله تعالى يريد من المجتمع المسلم أنْ يقف فى وجه كل طاغية ، وأن يُعدِّل سلوك كل منحرف ، وأنْ يقاطع أهل الفساد ويعزلهم عن المجتمع وحركة الحياة فيه .

ومثَّلنا لذلك بالفتوة الذى يحمل السلاح ويهدد الناس فى نفوسهم وفى أرزاقهم وأعراضهم ، بل ومنهم مَنْ يتحدى القانون والسلطة والنظام ، إنه ما وصل إلى هذه الدرجة إلا لأن المجتمع تخلى عن دوره فى الإصلاح والتصدى لأهل الشر .

قبل أن أبدأ لقائى فى هذه الحلقة أذكر أنه وصلنى كتاب اليوم من أحد الإخوان يطلب منى أولاً أن أذكر له القصيدة التى قيلت فى قنوت الليل ، وأنا لا أقول مَنْ قالها ، وإنما أحيله إلى رجل حجة فى هذا الباب ، هو الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة عميد كلية اللغة العربية سابقاً ، وحجة رابطة الأدب فى مصر .

وسأل أيضاً عن اختلاف العلماء فى تحديد الليل والنهار اختلافاً ينفى بعض الليل من النهار ، وينفى بعض النهار من الليل ، وأقول وبالله التوفيق : إن اختلاف الناس فى الليل والنهار اختلاف بين الشرعيين والفلكيين ، فالشرعيون يروْنَ أن الليل يبدأ من غروب الشمس إلى مطلع الفجر ، والفلكيون يقولون : إن الليل يبدأ من غروب الشمس إلى شروق الشمس .

إذن : فهناك فترة مختلف عليها ، وهى من الفجر إلى الشروق ، فالذين نظروا إلى أنها ليستْ من الليل هم الشرعيون ، وذلك لأن المراد فى احتياط الصوم ألاَّ يجور الإنسان على شىء من الليل ، يدخل فيه شيئاً من النهار فاحتاطوا لذلك .

ووجه الاحتياط أن الشرعى نظر إلى النور الذى يبدو عند طلوع الفجر ، ولم ينظر إلى سبب النور وهو الشمس ، فنحن نرى نوراً قبل أن تطلع الشمس .

أما الفلكى فينظر إلى وجود النور ، هذا النور يكون من علامة الليل . الشرعى قال : لا ففرْقٌ بين النور يظهر وبين المنوِّر ، لأن نور الفجر إلى الشروق نور لا نرى فيه الشمس ، وهو مرتبط بغروب الشمس وشروقها ، والليل يقال فيه : ليل أَلْيَل أو ليلة لَيْلاء يعنى شديدة الظلمة وهى حينما يكون القمر فى المحاق ، أو يقال

ليلة ليلاء . يعنى : فيها تعب ومشقة .

وقد جعل المحبُّون من الليل مراحاً ومَغْدى لشعرهم ، فإن كانوا مع الأحبة تمنَّوْا أنْ يطول الليل ، وإنْ فارقوا الأحبة تمنَّوْا أن يقصرَ الليلُ .

ومن ذلك قول الشاعر[1]

طَالَ لَيْلِى ولَمْ أنَمْ   وَنَفَى عَنِّى الكَرَى طَيْفٌ ألَمّ[2]

وقال آخر لما اجتمع شمله بمَنْ يحب :

يَا لَيْلُ طُلْ يَا نَوْم زُلْ   يَا صُبْح قفْ لاَ تَطْلُعْ

والآخر جمع الحالين معاً ، أظنه البحترى[3] حين قال :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ ودَّعَكَ   ذائعٌ مِنْ سِرِّه مَا اسْتَوْدَعَكْ

يَقْرَعُ السِّنَّ علىَ أنْ لَمْ يكُنْ   زَادَ فِى تِلْكَ الخُطَى إذْ شيَّعَكْ

يَا أخَا البَدْرِ سَنَاءً وَسَنا   حفظ اللهُ زَمَاناً أطلعَكْ

---

(١) الشاعر هو بشار بن برد العقيلى أبو معاذ ، أشعر المولدين على الإطلاق ، ولد ٩٥ هـ ، أصله من طخارستان غربى نهر جيحون ، كان ضريراً ، نشأ فى البصرة وقدم بغداد ، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية ، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة عام ١٦٧ هـ عن ٧٢ عاماً .

(٢) البيت من قصيدة له عدد أبياتها ٧ أبيات من بحر الرمل ، وهو فى الموسوعة الشعرية :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم   ونفى عنى الكرى طيف ألم

والكرى هو النوم .

(٣) بل هو : ابن زيدون أحمد بن عبد الله الأندلسى أبو الوليد ، ولد ٣٩٤ هـ وزير كاتب وشاعر من أهل قرطبة ، وهناك من يلقبه بحترى المغرب انقطع إلى ابن جهور من ملوك الطوائف بالأندلس ، وله رسائل فى استعطافه . له قصة مع ولادة بنت المستكفى . توفى ٤٦٣ هـ عن ٦٩ عاماً .

إنْ يطُلْ بَعدَكَ لَيْلي فلَكَمْ ... بِتّ أشكُو قِصَرَ الليْلِ مَعَكْ[1]

والليل يقابله النهار ، لذلك يقول سبحانه : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

فجعل الليل مقابل النهار ، وتحلظ هنا دقَّة الأداء القرآنى ، لأن المتكلم رب والأداء أداء إلهى ، فلما تكلم عن الليل ذيَّل الكلام بقوله : ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] ولما تكلم عن النهار ذيَّل الكلام بقول : ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] ذلك لأن السمع وسيلة الإدراك بالليل حيث لا رؤية ، أما فى النهار فالبصر .

وقد اضطر العلماء إلى البحث فى علاقة اليوم بالليل والنهار ، فقالوا : الحق يقول : ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨)﴾ [سبأ]

فجعل سبحانه اليوم مقابل النهار ، لكن يوم الفلكيين غير هذا ، فاليوم عندهم لا يُحسب إلا من وقت إلى مثله فى القادم ، يعنى : إنْ بدأت من العصر فاليوم إلى العصر القادم . ويقولون فى التوقيت : صباحاً ومساءً ، فلو استيقظتُ مثلاً للسحور الساعة الثانيةَ بعد منتصف الليل أقول : تسحرت الساعة الثانية صباحاً ، مع أننى ما زلتُ فى الليل ، وبالعكس أقول فى النهار : الساعة الخامسة مساءً ، مع أننى ما زلتُ فى النهار ، هذا كله من اختلاف الفلكيين والشرعيين .

---

(١) قصيدة لابن زيدون من ٤ أبيات من بحر الرمل . (الموسوعة الشعرية) .

(٢) السرمد : الدائم الذى لا ينقطع . والسرمد هو : دوام الزمان واتصاله من ليل أو نهار [تاج العروس للزبيدى] .

ولكن اليوم اختُلف فى مدلوله فى كثير من المواضع ، فالحق سبحانه يقول فى كتابه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ۝٣ ﴾ [المائدة] فأطلق اليوم على أىِّ لحظة من لحظاته .

وقال سبحانه : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۝٥ ﴾ [إبراهيم] والمراد بأيام الله الأيام التى تُنسب إليها الأحداث ، سواء أكانت نعمة أو نقمة ، نقول مثلاً يوم بدر ، وكان يوم بدر نعمة للمؤمنين ونقمةً على الكافرين . وإلى هنا انتهت الإجابة على سؤال الأخ السائل ، ونعود إلى ما كنا بصدد الحديث عنه من قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا .. ۝١٧ ﴾ [الزمر]

قلنا : الطاغوت هو الذى يطغى ، ويبارك الناسُ طغيانه ، ولا يصدونه عنه ، والطاغوت جاءت هنا مُؤنَّثة بدليل ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا .. ۝١٧ ﴾ [الزمر] ، وفى موضع آخر جاء بصيغة المذكر فى قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ .. ۝٦٠ ﴾ [النساء]

وكلمة الطاغوت من الكلمات التى تُطلق على : المفرد والمثنى والجمع مُذكَّراً ومُؤنَّثاً ، فنقول : هذا رجل طاغوت ، وهذه امرأة طاغوت ، وهذان طاغوت ، وهؤلاء طاغوت . وهى هنا للجمع ، بدليل قوله تعالى : ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا .. ۝١٧ ﴾ [الزمر] وهى مثل كلمة سبيل ، نقول : هذه سبيل ، وهذا سبيل .

والطاغوت - كما قلنا - لابدَّ أن تكون له توجيهات ، لذلك لا يُطلق إلا على الطاغى من البشر أو من الجن ، أما الملائكة فلم ترْضَ أنْ تُعبد من دون الله ، كذلك يُسمَّى الظالمُ طاغوتاً .

ونفهم من قـوله تعالى : ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الزمر] أى : رجعـــوا إليه ، نفـهم منها أنهم كـانوا مع الله أولاً ثم انحرفـوا عنه ، كيف ؟ قـالوا : لأن كلَّ إنسان كان مع الله عـلى فطرة الإيمان الأولى عندما أخذ اللهُ المـيثاقَ على الخلَقْ جميعـاً فقال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف] لكن منهم مَنْ ظلَّ على هذا العـهد وعلى هذه الفطرة السليمة ، ومنهم مَنْ انحرف عنها ونسيها .

لذلك كثيراً ما يقول القـرآن (وذكر) أى : بالعهد الأول ، فمعنى ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : رجـعوا إلى الإيمـان الفطرى وإلى العهد الأول ، أو رجعوا إلى الله للجزاء يوم القيامة .

وقوله سبـحانه : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [الزمر] البشرى الـخبر السَّار الذى نخبر به قبل أوانه ، والبُـشْرى تنقسم إلى قسمين : إزالة عطب وألم ، أو تحـقـيق مراد وأمـل ، فالذين اجـتنبـوا الطاغـوت فلم يعبدوها وأنابوا إلى الله تحقَّـق لهم الأمران معاً ، لأنهم أولاً برئوا من النار وآلامـها ، ثم تحقَّق مرادهم بدخول الجنة كما قال سبحانه :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]

لذلك قال بعدها : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الزمر] أى بهذه البشرى السـارة ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر] القول لابدَّ أنْ يكون من قائل ، فـإذا استمعوا القـول من قائل يتبعـون أحسـن ما قيل ، وأن ما قيل يكون من أحسن قائل ، وإذا نظرنا إلى أحسن قائل لا نجد إلا الحق سبـحانه وتعالى ، فإذا أمر الله بحكم فاتبـعوه فقوله أحسن القول ، وأمره أنفع أمر .

والحق سـبـحـــانه لا يسـتـفـيـد من أوامـــره لكم ، ولا تضـره معصيتكـم ، فأنتم إذن المنتفعون بالمنهج ، المستفـيدون من تنفيذه ،

ثم أنتم خَلْق الله وصَنْعته ، ويعز عليه سبحانه أن تنحرف هذه الصنعة أو تعذَّب .

ثم يريد سبحانه من منهجه وشرعه أنْ يُديمَ عليكم عطاءه ونعمه ، وأن تكون نعمة الدنيا موصولة لكم بنعمة الآخرة ، لذلك قال عنهم فى الحديث القدسى : « لو خلقتموهم لرحمتموهم »(١) .

أو : أحسن ما قيل يعنى الإسلام ، فالإسلام جاء والناس أصناف شتَّى : كفرة لا يؤمنون بإله ، ومشركون يؤمنون بإله معه غيره ، وأتباع ديانات كان لها كتب ورسل سابقون كاليهود والنصارى . فهؤلاء الذين عاصروا الإسلام إنْ يستمعوا يستمعوا لقول هذا وقول ذاك ، يستمعوا للكفار وللملاحدة وللمشركين ولأصحاب الكتب السابقة .

فكأن الحق سبحانه يقول : اعرضوا هذه الأقوال على عقولكم ، واختاروا أحسنها ولا تتعصبوا لقول دون أنْ تبحثوه وتقارنوه بغيره ، فإنْ فعلتم ذلك وإنْ توفرت لكم هذه الموضوعية فلن تجدوا إلا الإسلام أحسن الأقوال والأَوْلَى بالاتباع ، فهو الدين الذى جمع للناس كلَّ خير ، ونأى بهم عن كل شر .

وهو الدين الذى جاء مهيمناً على جميع الأديان قبله ، وكتابه المهيمن على كل الكتب قبله ، وجاء الإسلام ديناً عاماً فى الزمان وفى المكان ؛ لذلك هو الدين الخاتم الذى لا دينَ بعده ، ولا كتابَ

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فاغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

بعد كتابه ، ولا رسول بعد رسوله .

ودينٌ هذه صفاته لابدَّ أن يكون قد استوفى كلّ شروط الكمال ، كما قال سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة] فالإسلام إذن أحسن الأديان ، وأحسن الأقوال ، وأحسن ما نتبعه .

ثم تستمر الآيات فى وَصْف المؤمنين الذين اجتنبوا الطاغوت أنْ يعبدوها ، والذين أنابوا إلى الله والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٨) ﴾ [الزمر] هداهم يعنى دلَّهم وأرشدهم ، فلما اتبعوا دلالته وإرشاده ولم يكُنْ فى نفوسهم عناد لهذه الدلالة أعطاهم هدايةَ التوفيق والإيمان فآمنوا .

وقلنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة ، وهداية المعونة . وبيَّنا ذلك كما سبق برجل المرور الذى تجده على مفترق الطرق يدلّ الناس ويُرشدهم ، فإن دلَّك على الطريق فأطعْتَه وشكرته على معروفه زادك ، وسار معك حتى لا تؤذيك عقبَات الطريق ؛ لأنه وجدك أهلاً لأنْ تُعان فأعانك .

كذلك الحق سبحانه يعطى عبده هداية الدلالة والإرشاد ، وهذه للمؤمن وللكافر ، فمَنْ أطاع فى الأولى أخذ الثانية ، وهى هداية المعونة ، وهذه للمؤمن دون الكافر ، فكأن الله تعالى يقول لعبده المؤمن : أنت آمنت بى ، وسمعتَ كلامى ، وأطعتَ فسوف أعينك على الطاعة ، وأخفف أمرها عليك ، وأُعسِّر عليك أمر المعصية .

وهذه من أعظم نعَم الله على العبد أنْ يُيسِّر له أمر الطاعة ، ويُعينه على مشقاتها ، وفى المقابل يقفل دونه أبواب المعصية

ودواعيها . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

فمعنى (زادهم هدى) يعنى : أعطاهم هداية المعونة على الإيمان .

وقوله : ﴿ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر] أى : أصحاب العقول المفكرة المعتبرة ، لأنهم نشروا أمامهم كل الأقوال ، وبحثوها وقارنوا بينها ، وأخذوا أحسنها الذى يحقق لهم السعادة والمصلحة والانسجام فى حركة الحياة بلا تعاند ، بل حركة مستقيمة متساندة تنفى من القلوب : الحقد والغل والحسد ، وتمنع الانحراف من : سرقة وغش ورشوة واغتصاب .. الخ

فمَنْ يصادم مثل هذا المنهج ؟ ومَنْ يرفضه ؟ إنه منهج مستقيم لا يملك العقل السليم إلا الإذعان له والسير على هَدْيه ، لذلك سمَّى الله هؤلاء الذين اختاروا هذا المنهج سماهم ﴿ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر] أى أصحاب العقول ، والعقل مهمته أن يعقل الفكر فلا يشطح ، بل يعرض المسائل ويختار من البدائل ما يصلحه ، لكن آفة الرأى الهوى ، فالهوى هو الذى يصرفك عن مقول العقل إلى مقول الهوى .

قول آخر يقول : المراد بقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر] أنه خاصٌّ بمَنْ يستمعون أقوال الإسلام ، فيتبعون أحسن هذه الأقوال ؛ لذلك جاء بصيغة التفضيل (أحسن) فكأن فى الإسلام (قول حسن) و (أحسن) ، فهذا الرأى لا يأخذ المسألة على العموم ، إنما يجعلها خاصة بأقوال الإسلام ، وهى كلها مُتصفة بالحُسْن ، لكن منها حسن وأحسن ،

وأصحاب العقول المتأملة يختارون منها الأحسن .

ومثال ذلك : شرع الإسلامُ مثلاً القصاصَ من القاتل وشرع الدية عليه ، وشرع أيضاً العفو ، فقال سبحانه : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة] فمن أخذ بالقصاص أو الدية أخذ بالحسن ، ومَنْ تسامى إلى العفو أخذ بالأحسن .

كذلك في قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ..﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة] فإنْ أبديتَ الصدقة فأنت غير آثم ، بل هو أمر حسن ، لكن الأحسن منه أنْ تخفيها .

ومثله قوله سبحانه : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى]

وفي كل هذه المواضع ، نجد الحق سبحانه يُرغّب عباده في التسامح ، لكن التسامح يكون في الأمر الذي تتحمل أنت ثمنه ، ويعود عليك ضرره إنْ كان هناك ضرر ، أما إنْ عاد الضرر على المجتمع عامة فلا تسامح .

والنبي ﷺ علَّمنا هذا الدرس ، فكان ﷺ لا يغضب لنفسه قط . إنما كان يغضب إذا انتهكَ أمر الله ، إذن : تسامح في الأمر الذي يتعلق بك ، أما إنْ تعلق الأمر بعامة المسلمين فليس لأحد الحق أن يتسامح فيه .

والحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى أن اختيار الأحسن هو أحسن لنا نحن وأفضل ، ففي قصة الإفك ، قال تعالى : ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ..﴿٢٢﴾﴾ [النور] يعني : لا تغضب لأنك غفرتَ لمن أساء

إليك ، لأن الله تعالى سيعاملك بالمثل فيغفر لك إنْ أسأتَ ، ومَنْ لا يحب أنْ يغفر الله له ؟ فما دُمْتَ تحب أنْ يُغفر لك فاغفر لصاحبك ، لكن شريطةَ ألاّ تهيج المجتمع ولا تضره .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) ﴾

كان النبي ﷺ مُحباً لأمته ، حريصاً على هدايتهم والأخْذ بأيديهم ، وكان يؤلمه أنْ يشذ واحد منهم عن منهجه أو يعانده ، والقرآن الكريم يعرض لنا هذه المسألة في أكثر من موضع ، ففى سورة الشعراء : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

وفى الكهف : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[(١)] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

وقال : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. (٨) ﴾ [فاطر]

فالحق سبحانه يُسلِّي رسوله يقول له : يا محمد ، لا تحزن على هؤلاء ، لأنهم استحقوا العذاب ، وحكم الله عليهم أنهم مُعذَّبون ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ .. (١٩) ﴾ [الزمر] حق يعنى : ثبت من الله ، كما فى قوله تعالى : ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة]

وما دام قد حقّ عليهم العذاب ، فلماذا تحزن ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) ﴾ [الزمر] وأحقية كلمة العذاب هنا ليست قهْراً للعبد أن

---

(١) بخع نفسه : قتلها غيظاً أو غماً . [المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده] قال الفراء فى تأويل الآية : أى مخرجٌ نفسك وقاتلٌ نفسك . [لسان العرب لابن منظور] .

يفعل ، إنما علْم أنه سيفعل كذا وكذا ، فَعَلِمَ الله بما سيكون منهم وكتبه عليهم ، فالأحقية هنا ليست أحقيةً كونية أرادها الخالق سبحانه ، إنما لأنه سبحانه علم مُسْبقاً ما يختارون .

وسبق أنْ تناولنا هذه المسألة في الكلام عن قوله تعالى : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣)** ﴾ [المسد] هذا حُكْم من الله على أبى لهب أنه سيَصْلَى ناراً ذات لهب ، وقد جاء هذا الحكم وبلَّغه رسول الله ، وسمعه أبو لهب وهو حَيٌّ يُرزق ، أكان محمد ﷺ يأمن أنْ يقف أبو لهب فى محفل من القوم ، ويقول : أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، يقولها ولو نفاقاً ، ويظهر أمام الناس على أنه مؤمن ، وفى هذه الحالة يُكذِّب كلام الله ؟

لقد كان أبو لهب كافراً ، كما كان خالد وعمرو وعكرمة كافرين ، وكان بإمكانه أنْ يؤمن كما آمنوا ، لكن علم الله أنه لن يؤمن حتى بعد أن بلغه هذا المصير فى قرآن معجز يحفظه مَنْ قاله و يُتْلَى إلى يوم القيامة ، إذن : دلَّتْ هذه الآية على أن الله تعالى علم مُسْبقاً أنه لن يؤمن ، ولم يقهره على ألاَّ يؤمن .

فالحق سبحانه يقول لرسوله : لا تذهب نفسك عليهم حسرات ، لأن الله حكم عليهم لعلمه بما سيكون منهم ، أنهم من أهل النار ، فكيف تنقذهم ، وقد حكم الله عليهم بذلك ؟

ونلحظ فى أسلوب الآية ﴿ **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ .. (١٩)** ﴾ [الزمر] أن الفعل حَقَّ لم تلحقه علامة التأنيث ، مع أن فاعله (كلمة) مؤنثة ، قالوا : لأن المؤنث هنا غير حقيقى ، فيجوز فى الفعل عدم التأنيث .

والاستفهام فى ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ .. (١٩) ﴾ [الزمر] يحتاج إلى خبر تقديره : أفمَنْ حَقَّ عليه كلمة العذاب ، أتريد أن تنجيه أو تحميه منه ، بأن تُلح عليه أنْ يؤمن ، أتريد أنْ تنقذه من النار ، وقد حكم الله عليه أنه من أهلها ؟

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ (٢٠) ﴾

قلنا : إن من سمات الأسلوب القرآنى أن يذكر المتقابلات ، فالضدّ يُظهر حُسْنه الضد ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهنا بعد أنْ ذكر الحق سبحانه الكافرين الذين حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب يذكر المقابل لهم ، وهم المتقون ﴿ لكن ﴾ استدراك على ما تقدم ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..(٢٠) ﴾ [الزمر] وهذه المقابلة تهىء النفس لتفظيع المقابل الأسوأ ، وتجميل المقابل الأعلى .

والغُرَف جمع غُرْفة ، وهى المكان الخاص المقتضب من البيت ، وهى مأخوذة من غرفة الماء ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ .. (٢٠) ﴾ [الزمر] ثم وصف التى فوق بأنها ﴿ مَّبْنِيَّةٌ .. (٢٠) ﴾ [الزمر] لأن العادة فى الغرفة السفلية أن يُعتنى بها فى الأساس ، الذى يحمل باقى الأدوار ، فأراد أنْ يلفت أنظارنا إلى أن الغرف الفوقية هى أيضاً

مبنية مُعْتنىً بها ، لا تقل مـيزةً عن الغرف السفلية ، فكل الغرف من الأدنى إلى الأعلى مميزة .

ثم تأمل الإعجاز فى قوله تـعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ (٢٠) ﴾ [الزمر] من تحت أيِّهما ؟ من تحـت الاثنين ، فإنْ قلتَ كيف ؟ نقول : اقرأ قوله ﷺ فى وصف الجنة : « فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1]

وفى موضـع آخر قال سبحانه : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ (١٠) ﴾ [التوبة] وفَرْق بين تحتها ومن تحتها ، لو قُلْنا تجرى تحتها الأنهار ، فالمعنى أن الأنهـار تأتى من مكان آخر وتمرُّ بها ، فـيمكن للأعلى أنْ يحجب الماء عن الأدنى .

أما ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ (٢٠) ﴾ [الزمر] فنبع الماء يجرى من تحت هذه الغرف ، فـماؤها ذاتىّ فيهـا ، ليس لها مَدَدٌ من خارجـها ، إذن : فالمياه فيها ذاتية.

فأنت تتعجب لأنك تقيس المسائل بهندستك أنت ، ولربك سبحانه هندسة أخـرى ، تأتى على غير ما تتـصوَّر ؛ لأن الشىء الذى لم تره العين ولم تسمعه الأذنُ ، ولم يخطر على القلب ليس فى اللغة ما يدل عليه ، فالمعانى تُوجَد أولاً ، ثم تُوضَـع لها الألفاظ الدالة عليها ، فإذا لم تُوجَد المعانى فمن أين يأتى اللفظ ؟

نحن نعرف الآن مثلاً (التليفـزيون) ، ونعرف ما هو لكن قبل أن يُخْترع هل كنا نعرفه أو نعـرف اسمه ؟ لذلك سبق أنْ قلنا : إن الذى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وتمامه « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

يقول الله غير موجود - والعياذ بالله - نقول له : كلامك مردود بكلامك ، لأن الله مبتدأ وغير موجود خبر ، فمن أين عرفتَ كلمة الله إنْ كان الله غير موجود ؟ إذن : قولك : الله غير موجود دليل على أنه موجود ، لأن المعدوم لا لفظَ له ، فالذى لا تسمعه الأذن ، ولا تراه العين ، ولا يخطر على البال ليس له اسم .

لذلك لما يصف لنا ربنا الجنة يقول : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥)﴾ [محمد] يعنى : يعطينا مثلاً لها وليست هى ، لأن لغتكم ليس بها الألفاظ التى تعبر عن هذه المعانى التى فى الجنة ، ومع ذلك ساعةَ يُعطينا المثل ينفى منه ما يناقض الموجود فى الدنيا ، فحين يصف خَمْرَ الآخرة يقول : ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ[1] وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات]

يعنى : لا تغتال العقل ولا تستره كما تستره خمر الدنيا ، ففى الإنسان غُدة مسئولة عن توازنه ، فحين يشرب الخمر تتسلط الخمر على هذه الغدة فتفقده توازنه وتستر عقله ، فيتمايل هنا وهناك ، ويهذى بكلام لا يعرف معناه .

وليست كذلك خمر الآخرة ، خمر الآخرة تُعطيك اللذة والمسرَّة دون أن تغتال العقل ﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات] النَّزْف والنَّزْح بمعنى واحد ، تقول : نزحت البئر يعنى : أخرجت ما فيه من الماء ، فالنزف إخراج ما فى الجوف . والإنسان فى تكوينه الصحى السليم يؤدى جسمه عملية نسميها عملية الإخراج مثل صماخ الأذن والعرق والبول ، وهذا الإخراج فيه سلامة وفيه صحة الجسم .

---

(١) قال الشوكانى فى فتح القدير : (لا فيها غول) أى : لا تغتال عقولهم فتذهب بها ، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع . (ولا هم عنها ينزفون) أى : يسكرون فتذهب عقولهم من السُّكْر .

لكن هناك إخراج بلا سلامة ، كالذى يأكل ثم يتقيّأ ما أكل ، وقد يتقيأ من جارحة نفسه دماً والعياذ بالله ، وقد يخرج منه البول باستمرار كمن يعانى من سلس البول مثلاً ، ومن ذلك النَّزْف ما يحدث لشارب الخمر فينزف ما فى بطنه .

كذلك فى الدنيا ماء ، وفى الآخرة ماء ، وفى الدنيا لبن ، وفى الآخرة لبن ، لكن شتّان بين ماء الآخرة وماء الدنيا ، وبين لبن الآخرة ولبن الدنيا ، يقول تعالى فى بيان ذلك :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[1] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (١٥) ﴾ [محمد]

من عجيب أمر هذه الأنهار أنها أنهارٌ بلا شُطْآن ، فهى تجرى بما فيها من ماء أو لبن أو خمر أو عسل ، ومع ذلك لا يختلط بعضها ببعض ، وهذا أمرٌ عجيب نضعه تحت مَا لا عينٌ رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فالحق سبحانه حين يعطينا المثل للجنة ينفى عنه المضارّ الموجودة لمثله فى الدنيا ، فآفة الماء فى الدنيا أن يأسن ، يعنى : يتغير فلا يصلح بعد ذلك للشرب ، أما ماء الآخرة فغير آسن ، لأنه ماء جَارٍ فى أنهار ، وجريان الماء يحفظه أنْ يأسن ، كذلك فى اللبن ووَصْفً العسل بأنه مُصفّى ، لأن عسلَ الدنيا لا يخلو من الشوائب .

---

(١) أسن الماء : تغيَّر غير أنه شروب . وتغيرت ريحه . وفى التهذيب : أسن الماء هو الذى لا يشربه أحد من نتنه . وقال الجوهرى : أسن الرجل إذا دخل البئر فأصابه ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغشى عليه أو دار رأسه . [لسان العرب – مادة : أسن] .

أمـا خـمـر الآخـرة فهـى لذّة للشـاربين ، يتلذذ بهـا شـاربهـا ، ويرتشفها رشفاً للذة طعمها ، أما فى الدنيا والعياذ بالله فيسكبها فى فمه هكذا دفعةً واحدة ، لأنها كريهة الطعم ، كريهة الرائحة .

ومن ذلك أيضاً قـوله تعالى فى وصف نعـيم الجنة : ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الواقعة] وشجرة السدر شجرة معروفة عند العربى ، وكانت تُعَـدّ من فاكهتـهم ومن الأشياء الغـالية عندهم ، لكن آفتهـا ما فـيهـا من شوك يؤذى الآكـل منها ، فنفى الحـق سبـحانه عن سـدر الآخرة هذه الآفة ، وقال : ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الواقعة] أى : مقطوع ومنزوع الشوك لا يؤذى مَنْ يتناول ثماره .

إذن : الحق - سبـحانه وتعالى - حـين يقول فى وصف الجنة : ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر] لا تتعجب من كيفية بناء غرف فوقها غرف والمـاء يجرى من تحتهـا ؛ لأن الله تعالى هندسة خـاصة تدخل تحت ما لا عـينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطـر على قلب بشر ، فهى أشياء لا تدلّ عليها ألفاظ لغتنا .

لكن هناك أشيـاء أخرى لا اختـلافَ فيها ، مـثل : أباريق وأكواب وكأس ونمارق وزرابى وأرائك ، هذه من نعَم الله فى الجنة وموجودة أيضاً فى الدنيـا لكن مع الفارق ، فهـذه صَنْعة البشر للبـشر ، وهذه صنعة خالق البشر للبشر .

لذلك لما ذهبنا إلى (سان فرانسسـكو) ورأينا هناك فندقاً فخماً على رَبْوة عالـية ، ووجدنا فـيه كل وسائل الراحـة والرفاهيـة أُعجب الجميع به ، فـقلت لهم : تعجبون من هذا وهو صنعة البشـر للبشر ، فما بالكم بصنعة الحق للخلق ؟

وهذه المسألة تلفت أنظارنا وتُوجِّهنا إلى نعيم الآخرة ، فساعة ترى نعيم الدنيا ، وساعة ترى الشيء الجميل المبهر لا تحقد على صاحبه ولا تحسده عليه ، بل تذكر به نعيم الله الذى أعدَّه لعباده فى الآخرة ، فكأن الله تعالى بنعيم الدنيا يُرغِّبنا فى نعيم الآخرة .

وهذا الذى ذكرنا من جزاء المتقين ﴿ **وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ** (٢٠) ﴾ [الزمر] الوعد : هو الإخبار بشىء مفرح سَارٍّ قبل أوانه ، وكوْنك تخبر بالأمر السَّار قبل أوانه ، فهذا يغرى بالعمل للوصول إلى هذا الوعد ، ومقابل الوعد الوعيد وهو الإخبار بشىء مؤلم قبل أوانه ، والهدف منه التحذير حتى لا تقع فى أسبابه ، فالحق سبحانه مراده من الوعد والوعيد أن يُشوِّق الخلْق إلى الثواب ويُحذِّرهم من العقاب ، ويُفظع الجرائم والعقوبات عليها حتى لا نقعَ فيها .

والله سبحانه لا يخلف الميعاد فوعده حَقّ ، لأنه سبحانه بيده كل أسباب الوفاء ، ولا يوجد له معارض يصرفه عن الوفاء بوعده ، لأن الذى يُخلف الوعد تعرض له أشياء تخرجه عن إمكانية الوفاء ، والإنسانَ ابن أغيار كثير التقلب ، فيطرأ عليه ما يحُول بينه وبين الوفاء بوعده ، أما الحق سبحانه فهو الحق الذى لا يتغير ، ولا يعز عليه شىء ، وهو سبحانه القادر الذى له طلاقة القدرة .

والحق سبحانه يُرينا تحقيقَ وعده فى الدنيا لنُصدق بوعده فى الآخرة فَوعَد الله المؤمنين فقال : ﴿ **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** (١٧٣) ﴾ [الصافات] وقال : ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ..** (٤٠) ﴾ [الحج] وتحقَّق وَعْد الله للمؤمنين فانتصروا. وإن اضطهدوا أولاً ، وتحقُّق هذا الوعد يجعلنى أثق فى وعد الآخرة الذى لم يأت وقته .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - لما سمع قول الله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥ ﴾ [القمر] قال: أىُّ جمع هذا ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ فلما جاءت بدر وانتصر المسلمون قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥ ﴾ [القمر]

فالحق سبحانه يُحقق لنا وعده الذى جاء وقته لنثق فى تحقّق الوعد الذى لم يأت وقته ، ومن ذلك قوله تعالى عن الكافرين : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٤١ ﴾ [الرعد] يعنى : يا كفار قريش ، يا مَنْ تعاندون محمداً وتصادموه ، ألم ترَوْا أن رقعتكم الواسعة تتناقص ، ويأخذ الإسلام منها كل يوم جزءاً ، فالمعنى ننقص أرض الكفر ، ونزيد أرض الإسلام .. وينبغى أن نقول صدق الله فى الأولى ، ولا بُدّ أنْ يصدق فى الثانية ، أى : يوم القيامة .

لذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه حين نَعد بشىء أن نصحبه بالمشيئة ، فنقول : إن شاء الله : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ۝٢٤ ﴾ [الكهف] حتى إذا تعذَّر عليك الوفاء قُلْتَ شئتُ ولكن الله لم يشأْ ، فكأن الله تعالى تحملها عن عباده ، فالعبد شاء ولكنى لم أشأ .

وهكذا يعفيك الله من الحرج ، ويحميك أن تكون كاذباً ، فالحق يتحمل عنا كما تحمّل عن رسوله فى قوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ .. ۝٣٣ ﴾ [الأنعام] أى : قولهم : ساحر وكاهن وكذاب ومجنون ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ ۝٣٣ ﴾ [الأنعام] لأنك عندهم صادق أمين ﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأنعام]

فجعلها سبحانه فى حقه ، وتحمَّلها عن رسوله .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ[1] فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى حينما يُخبر عن خيره سواء أكان هذا الخير يتعلق بمقوِّمات الحيـاة فى الدنيا أو بمُعدَّات النعيم فى الآخرة ، يتكلم عنه على أنه إنزال ، وكلمة أنزل تدل على جهة العلو ، وأن هذا العطاء من أعلى ، وإنْ خـرج من باطن الأرض كـمـا فى قـوله سـبـحـانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

فالنعمة من الأعلى وليست من مُـسَاو ، وأنت فى تصريف حياتك عندما تكون لديك مسـألة لا تَقْوى إمكانياتك عليهـا ، ولا يَقْوى عقلك على التفكير فيهـا تذهب لمَنْ هو أعلى منك فى هذا المجال ولمَنْ تثق فيه وفى فكره ، ليسـاعدك على حلِّها ، تفعل ذلك وأنت راضٍ ، لأنك أسلمتَ الأمر لمن تثق فى قدراته .

فالحق سبحانه حينما يقول : أنزلنا . يعنى : خذوا أحكامى على أنها من أعلى ، وعلى أنها الأفـضل لكم ، لأنها من خالقكم الذى يعلم ما يصلحكم .

يقول تعالى هنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ

---

(١) قال الزبيـدى فى تاج العروس (مـادة هيج) : هاج البقل : يبس واصـفرّ وطال . وهاجت الأرض : يبس بقلها . وأهاجه : أيبسه .

فِي الأَرْضِ .. ﴿٢١﴾ [الزمر] معنى (من السماء) أى : من جهة السماء ، وإلا فمخازن الماء فى الأرض ، فى البحار ، وهى مُعدَّة إعداداً كيماوياً بحيث تحفظ الماء فلا يتغير ولا يأسن ، ولا تعيش به الطفيليات .

لذلك نجد الماء المالح فى البحار تصونه نسبةُ الملوحة فى الماء ، ويُلقى فيه بالقاذورات والجيف ، فينفيها الموج ويبقى الماء على صلاحه ، ومن ماء البحار تتم عملية البخر التى تكوِّن السحاب والمطر الذى يسقى الإنسان والحيوان والنبات .

وماء المطر هو أنقى ما يمكن الحصول عليه من الماء ، فعملية البخر مثل عملية تقطير الماء التى نجريها فى المعامل للحصول على الماء النقى ، وتأمل كم تكلفة تقطير زجاجة ماء واحدة ، فما بالك بماء المطر الذى ينهمر من السماء ؟

لذلك ، من حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وجعل اليابسة الربع ، ذلك لتتسع مساحة البخر ويكفى المطر حاجة الأرض من الماء العذب ، وسبق أنْ بيّنا الفرق بين الماء الذى له عمق ، والماء الذى له سطح مُتسع ، فالبخر يعتمد على اتساع سطح الماء ، فكلما اتسع السطح زاد البخر ، ومثّلنا لذلك بكوب الماء تتركه شهراً وتعود فتجده كما هو لم ينقص منه إلا القليل ، لكن إنْ سكبْتَه فى أرض الغرفة ، فإنه يجفّ قبل أن تغادرها .

والحق سبحانه يريد للماء المالح أنْ يتبخر ليتخلّص من ملوحته ، ثم ينزل ماءً عَذْباً سائغاً للشاربين ، وعملية البخر هذه تتم ولا ندرى عنها شيئاً ، إنها آية من آيات الله ونعمة من أعظم نعمه علينا .

والماء حين ينزل من السماء لا ينزل على كل مكان ، إنما ينزل على الأماكن الباردة ، فبخار الماء المتجمِّع فى السحاب حينما يمر بمنطقة باردة يتكثف من جديد كما نكثِّف الماء المقطر ، فالماء الذى يأتينا فى نهر النيل أين يسقط ؟ يسقط على هضبة الحبشة وتحمله إلينا الأنهار ، ويتسرب منه جزء فى باطن الأرض ، ويجعل الله له فى الأرض مسالك .

هذا معنى ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ (٢١) ﴾ [الزمر] يعنى : جعل له مَجارىَ خاصة ومسالك ، بحيث لا يختلط بالماء المالح ، وقد تُوجد مثلاً عَيْنٌ للماء العذب تنبع وسط الماء المالح ، ومع ذلك لا تختلط به ، وكأن الماء العَذْب يسير فى أنابيب مخصوصة أشبه ما تكون بالشرايين فى جسم الإنسان .

وقوله تعالى هنا ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (٢١) ﴾ [الزمر] ما دام شىء يمتنُّ الله فيه بالرؤية ، فإن كنتَ تراه فاعلم أنه كلام حقيقى ، وأنا أرى المطر ينزل من السماء ، وإنْ كنت لا تراه فصدِّق ما أخبرك الله به كما تصدق عينك فى الرؤية ، لأن إخبار الله لك أصْدَقُ من رؤية عينيك .

ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل] ومعلوم أن سيدنا رسول الله وُلد فى عام الفيل يعنى : لم يَر هذه الحادثة ، فالمعنى ألم تَرَ يعنى : ألم تعلم عِلْماً منى ، يفوق علم رؤياك بالعين .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ (٢١) ﴾ [الزمر] فالزرع يُزرع فى تربة واحدة ، ويُسقى بماء واحد ، ومع ذلك تأتى الثمار مختلفة فى الألوان وفى الطَّعْم وفى عناصر التكوين .

لما تكلَّم العلماء فى هذه المسألة قالوا : فى النبات خاصية تُسمَّى

خاصيــة الانتخاب يعنى : أن النبات يمتصّ بـواسطة الجذور العناصر اللازمة له من الأرض ، لكن لـو جئنا مثـلاً بإناء فيه مـاء ، ووضعنا فيه عدة ألوان ، ثم وضعنا فيه الأنابيب الشّعرية الضيقة التى يصعد فيــها الماء إلى أعـلى بهذه الخاصـية ، نجد هذه الأنابـيب تمتص من الماء على عمومه لا تفرق بين لون ولون .

وليس كـذلك امتصــاص النبات للعنــاصر اللازمة له من الــتربة ، النبات لا يمـتص إلا المواد اللازمة والمناسـبة لطبيعـته ، فالخاصـية الشــعرية فى الجـذور تمتصّ عـلى هدى ، فتـأخذ من التـربة وتدَع ، فالـتربة واحـدة ، والماء واحـد ، ومع ذلك تختلف الطعـوم والأشكال والألوان والرائحة .

إذن : ليس هو الانتــخاب الذى يعنيــه العلماء ، إنمــا هو انتــخاب إلهى يقـوم على الطبيـعة التى أودعـها الله فى الحـبة والبـذرة الأولى للنبـات ، فأنت تزرع مثــلاً الفلفل الحار بـجوار قصب السكـر بجوار الرمان ، فتجد هذا حاراً ، وهذا حلواً ، وهذا مُزاً .

ثم ينتقل النبـات إلى مرحلة أخرى ، يصفــها الحق سبحـانه بقوله : ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا (٢١) ﴾ [الزمر] معنى يهيج يعنى : يجف ويتـحطم ، ويصـيـر فـتـاتاً . يعنى : لا يسـتـمـر على خـضـرته ونضارته، وكأن الحق سبحانه جعل النبات عبرةً للإنسان ، فالنبات كائنٌ حَىّ كالإنسان ، وسيمر الإنسان بهذه المرحلة فيجفّ ويتفتت كالنبات .

فالله سبحانه يضرب لنا مثلاً ، حتى لا نغترّ بذواتنا حين نجد لها قوة أو نــجد لهـا عقـلاً وتفكيراً أو سُلْطة وجـاهاً أو مالاً ، يقـول لك ربك : انظر إلى أمك الأرض ، وإلى الزرع يخرج منهـا ، إلامَ يصير ؟ فأنت كذلك ، فلا تغترّ ما دُمْتَ من أهل الأغيار .

لذلك يقولون : لا تغضب ولا تحـزن إنْ تغيرتْ بك الأمور ، لأنك من أهل الأغيار ، وما دُمْتَ من أهل الأغيـار ووصلتَ إلى قمة الجبل ، فماذا تنتظر ؟ تنتـظر أنْ تستقرّ عليه ؟ كـيف وأنت من أهل الأغيار ؟ إذن : لا بدَّ أنْ تنزل ؛ لذلك إذا تمتْ النعـمة ترقَّبْ زوالهـا ، كمـا قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شىء بدا نقْصُهُ ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّ[1]

فإنْ رأيت نفسك (مـزهزهة) بالعلم أو بالقوة أو بأىٍّ مظهر من مظاهر النعـيم ، فـاعلم أنك غـداً ستـصـيـر إلى كبـر وإلى ضـعف ، ستصير مثل الطفل يحبـو وتحتاج إلى مَنْ يسندك ويعاونك ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴿٥﴾ ﴾ [الحج] فافهم هذا المعنى جيداً فى أمك الأرض وفى ذاتك .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الزمـر] أى : مـا تشهـده أنت من هذا الذى ذكرنا ﴿ لَذِكْرَىٰ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الزمـر] يعنى : تذكـرةً وعبـرةً ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الزمر] لأصحاب العقول الواعية والمتدبرة .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) البـيت من نظم على بن أبى طالب رضى الله عنه كـمـا فى الموسـوعـة الشعـرية وهو من قصيدة من بحر المتقارب عدد أبياتها ١١ بيتاً ، ولفظ البيت :

إذا تم أمر بدا نقصه توقّ زوالاً إذا قيـل تـم

التقدير هنا ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ .. (٢٢) ﴾ [الزمر] كمن ضاق صدره عن الإسلام ، إذن : لابُدَّ أنْ نذكر هذا المقابل لأنهما لا يستويان ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٢٢) ﴾ [الزمر] تدل على أننا أخذنا الضيق من القسوة ، فالذى ضاق صدره عن الإسلام ضاق صدره لقسوة قلبه .

وهذه مثل قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ[1] آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الزمر] والمعنى : أهذا كمَنْ لم يقنت ؟ وعليك أنت أنْ تجيب : أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، كمَنْ قسا قلبُه ، وضاق صدره عن دين الله وهداية الله ؟

ومعنى ﴿ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ .. (٢٢) ﴾ [الزمر] أى : جعل الضيق واسعاً ، وتقول لصاحبك : وسّع صدرك يعنى : اجعله مُتسعاً لمناقشة كل القضايا ، ومن معانى سعة الصدر ألاَّ تشغله بالخزعبلات ، وألاَّ تزحمه بالباطل ، حتى يكون لك أُنْس به ، وعندها يطرد الباطل الحق كما قلنا فى مسألة الحيز .

فالحيز الواحد لا يتسع إلا لشىء واحد ، فالماء مثلاً يطرد الهواء حين تملأ زجاجة بالماء ..

ومن شَرْح الصدر أن يكون لديك عدالة اختيار حين تختار بين البدائل ، عليك أن تصفى قلبك ، وأن تُخرج منه كل ما يشغله ، ثم تبحث القضايا المعروضة عليك ، فما وجدته مناسباً تُدخله قلبك ليستقر فيه حتى يصير عقيدةً راسخة لا تقبل المناقشة مرة أخرى ،

---

(١) قال الزجاج : القانت المطيع . والقانت : الذاكر لله . وقيل : القانت العابد . [تهذيب اللغة للأزهرى - مادة : قنت] . وآناء الليل : ساعاته .

لأن الله تعالى خلق لنا حواسَّ تدرك : عينٌ ترى ، وأذنٌ تسمع ، ولسان ينطق .

وبهذا الحواس نأخذ المعلومات . ثم نعرضها على العقل ليختار منها ويبحث فيها ، فما وجده صالحاً أسقطه فى القلب ، وهذه هى العقيدة التى تستقر فى القلب ، ولا تطفو لتُبحث من جديد .

لذلك احذر الران[1] الذى يترسب على القلب حتى يغلقه ، فلا يكون فيه مكان للحق ، والنبى ﷺ يشير إلى هذه المسألة فى حديث أبى ذر - رضى الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ :

« تُعرَض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً - وفى رواية : عَوْذاً عَوْذاً - فأيما قلب أُشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تكون على قلبين : على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مُرباداً - وهذا الذى يقول الله فيه : ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** (١٤) ﴾ [المطففين] - كالكوز مُجخياً - منكوساً - لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[2].

والفتن هنا هى الشُّبَه التى تعرض للناس فى الدين ، والرسول

---

(١) الران : الرين : الطبع . والران مثل الرين . قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : رين] : الرين الصدأ الذى يعلو السيف والمرآة . والرين : كالصدأ يغشى القلب . وران الذنب على قلبه : غلب عليه وغطاه . وقال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يسْود القلب.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) ، وأحمد فى مسنده (٣٨٦/٥ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان .

ألفاظ الحديث : مثل الصفا : الصخرة الملساء العريضة . مرباداً : أسود مشوباً بغبرة . كالكوز : كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كوب بعروة . مجخياً : مائلاً . أى : عن الاستقامة والاعتدال ، فشبّه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء لأن الكوز إذا مال انصبَّ ما فيه . [انظر لسان العرب - مادة : جخى] .

ﷺ يشبهها بالحصير الذى يُنسج عوداً بجوار عود ، حتى يكون كالحصيرة التى نجلس عليها ، أو عَوْذاً يعنى : نستعيذ بالله من هذه الفتن . أو عوْداً أى مرة بعد مرة .

إذن : إنْ أردتَ بحث قضية الإيمان فاشرح صدرك أولاً ، ووسِّعه بأنْ تُخرج ما فيه من اعتقادات ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ .. (٢٢) ﴾ [الزمر] والنور له مصادر ، إما نور مادى كالشمس والقمر والنجوم ، وهذه الأنوار التى اكتشفها الإنسان حديثاً ، أو نور معنوى وهو المقصود هنا ، نور القيم والمنهج ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ .. ﴾ أى : نور الهداية الذى عناه القرآن الكريم فى قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٣٧) ﴾ [النور]

ففى هذه البيوت التى يُذكر فيها الله ، ويُسبَّح فيها الله ، مكان تلقِّى فيض النور من الله ، وتنزل الخيرات والرحمات ؛ لأن الآيات كانت تتكلم قبل ذلك عن نور الله ، ومثَّل تنويره سبحانه للسموات والأرض :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور]

الحق سبحانه لا يضرب لنا مثلاً لنوره ، إنما مثلاً لتنويره ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : مُنوِّرهما بخلقه ، والمشكاة هى الطاقة غير النافذة فى الحائط ، والطاقة تكون محدودة

المساحة غير واسعة ، ثم هى غير نافذة ، لذلك تجمع الضوء ولا تبدده ، بحيث لا يبقى فى المشكاة مكان مظلم .

ثم إن المصباح ليس عادياً ، إنما فى زجاجة ، لأن من المصابيح ما ليس له زجاجة والذى نسميه نحن (الساروخ) وهو يخرج لهباً أسود ، لأن الهواء يداعبه من كل ناحية ، أمّا الزجاجة فهى تنقى اللهب وتصفيه ، حيث تمنع عنه الهواء إلا بمقدار الاحتراق ، فيأتى اللهب صافياً لا دخان له ، هذه هى التنقية الأولى .

ثم إن الزجاجة هى أيضاً غير عادية ، إنما صافية فى ذاتها ، كأنها ﴿ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥) ﴾ [النور] تعكس الضوء فى كل ناحية .

ثم إن هذا المصباح لا يُوقَد بزيت عادى ، إنما ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .. (٣٥) ﴾ [النور] فهو زيت له مواصفات خاصة على أعدل المزاج .

هكذا ومثل هذا يُنوِّر الله السموات والأرض ، فالمثال لتنوير الله لا لنور الله . وهذا هو النور الحسِّى ، وحين تكمل القراءة تجد النور المعنى فى : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. (٣٦) ﴾ [النور] وهذا هو النور فى قوله : ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ .. (٢٢) ﴾ [الزمر]

فالحق سبحانه أعطاكم النور الحسىَّ الذى يعينكم على حركة الحياة ، ليرى الإنسانُ مواضع قدمه فلا يحطم الأشياء ولا تحطمه إذا ما اصطدم بها ، والنور المعنوى للقيم وللروح .

والحق سبحانه حين يُعطينا هذا المثل ، ويُرينا أن المصباح لا يدع فى المشكاة ظلمةً أبداً ، يعطينا بذلك إشارة إلى أن نوره

المعنوى كذلك لا يترك عيباً إلا أصلحه ، وأتاك نور يهديك وينجيك .

وقوله سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) ﴾ [الزمر] ويل لهم لأن قسوة قلوبهم حالتْ بينهم وبين الإيمان ، فويل لهم ساعةَ يعرفون أن لهم رباً كفروا به ، وتفاجئهم هذه الحقيقة التى طالما أنكروها .

وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه القضية فى قوله سبحانه :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

والمعنى : أنهم حبطت أعمالهم وخاب سعيهم .

وقال أيضاً : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

فويل لهم ساعة يعرفون أنهم كفروا بالله وضاق صدرهم عن أن يتسع لنور الإيمان ، فالويْل لهم حاضر قبل أنْ يأتيهم العقاب .

وقوله : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) ﴾ [الزمر] أى : بيِّن واضح ، والضلال هو عدم الاهتداء فى المهيع[2] الذى يسير فيه ، كالسائر مثلاً فى صحراء وضلَّ فيها الطريق ، إن ضلاله يبدأ بانحرافه عن الطريق الصحيح ولو بسنتيمترات ، لأنها لا بدّ أنْ تنتهى

---

(١) القاع والقيعة : أرض واسعة سهلة مطمئنة مستوية لا ارتفاع فيها ولا انهباط ، تنفرج عنها الجبال والآكام ولا حصى فيها ولا حجارة ولا تنبت الشجر . وفيه يكون السراب نصف النهار . [لسان العرب - مادة : قوع] .

(٢) طريق مهيع : واضح واسع بيِّن . وبلد مهيع : واسع [اللسان : مادة هوع] .

به إلى مساحات شاسعة فى الضلال ، أرأيتم (.السيمافور) فى السكة الحديد ، وكيف يُحول القطار مثلاً لبورسعيد أو الإسماعيلية أو طنطا إنه مجرد تحويل سنِّ القضيب عدة ملليمترات ينتج عنها أنْ يتحوَّل القطار فى سيره من مكانٍ إلى مكان آخر بعيد ، فالمعنى : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر] أى: لا يهتدون إلى شىء أبداً .

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ[1] تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول الله تعالى : ما دُمتم ستتبعون الأحسن وتختارونه فأنا مُنزلٌ عليكم أحسن الحديث ، نعم هو أحسن الحديث لأنه كلامُ الله وكلام الله صفته ، وهو كامل الكمال المطلق ، وقد جعله الله مُعْجزاً ، وتولى سبحانه حفظه بنفسه ولم يكل حفظه للخلق .

وفى عُرْف البشر أن الإنسان لا يحفظ إلا ما كان حجة له ولا يحفظ الحجة عليه ، أما الحق سبحانه فيحفظ القرآن وهو حجة عليه سبحانه لخلْقه ، فكل ما أتى فى القرآن ضمن الحق سبحانه حدوثه ،

---

(١) المثانى : الآيات القرآنية تُتلى وتكرَّر . وسمى القرآن مثانى لأن الأنباء والقصص تُثنَّى فيه وتُكرر . وقيل : سمى هكذا لاقتران آية العذاب فيه بآية الرحمة والإنذار بالتبشير . [القاموس القويم ١/١١١ ، ١١٢] .

كما أخبرنا الله به لأنه هو منزله وهو حافظه .

والمراد بأحسن الحديث القرآن الكريم ، ومعنى ﴿ مُّتَشَابِهًا (٢٣) ﴾ [الزمر] أى : يشبه بعضُه بعضاً فى الحُسْن أو فى البلاغة أو فى الموضوع ، فإياك أن تقول : هذه الآية أبلغ من هذه ، لأن كل آية بليغة فى موضوعها .

فلو أخذنا مثلاً التشابه فى الموضوع نقرأ فى قصة سيدنا موسى عليه السلام : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا(١) .. (٨) ﴾ [القصص]

وفى موضع آخر قال : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

فظن البعض هنا تكراراً ، لكن المتأمل فى معنى الآيتين يجد أن كلَّ أية تؤدى لقطة لا تؤديها الأخرى ، فمعنى ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا (٨) ﴾ [القصص] العداوة هنا من موسى لآل فرعون إنما فى ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه] العداوة من جانب فرعون لموسى ، والمعركة لا يحمى وطيسها إذا كانت العداوة من جانب واحد ، لأن الجانب الآخر ربما يتساهل أو يتنازل لعدوه ، فإنْ كانت العداوة من الطرفين حميتْ المعركة .

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ..(٨) ﴾ [القصص] أى : ليصير بهم الأمر إلى ذلك ، لا أنهم أخذوه لهذا وهذه اللام تسمى لام العاقبة ، وللمفسرين فى معنى الكلام قولان : أحدهما : ليكون لهم عدواً فى دينهم وحزناً لما يصنعه بهم . والثانى : عدواً لرجالهم وحزناً على نسائهم . فقتل الرجال بالغرق ، واستعبد النساء .

وسبق أنْ قلنا : إن المستشرقين وقفوا أمام قوله تعالى :
﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان] وقوله :
﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وقالوا : أيهما أبلغ من الأخرى ؟ وإنْ كانت إحداهما بليغة فالأخرى إذن غير بليغة.

ومثل هذه الاستدراكات نتيجة عدم فَهْم أسلوب القرآن ، وعدم وجود الملكة اللغوية عندهم . ونقول لهم : كل آية بليغة في سياقها مناسبة للمعنى الذي قيلَتْ فيه ، فالآية الأولى وردتْ في الكلام عن المصيبة التي لاغريمَ لكَ فيها ، والصبر في هذه الحالة يسيرٌ لذلك لم يُؤكّد.

فمن الطبيعي أنْ تصبر على المرض مثلاً ، لأنه لا غريم لك فيه ، أما إنْ كانت المصيبة لك فيها غريم ، فالغريم يثير غضبك ويؤجج نار الغلِّ ، ويدعو إلى الانتقام ، فناسب ذلك التأكيد باللام في الآية الأخرى: ﴿ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وكذلك وقفوا أمام قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] وقوله سبحانه : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء] وقالوا : ما الفرق بين الآيتين ؟ ونقول : لو نظرت إلى صدر الآية لوجدتَ أن كل عجُز يليق بصدره ، لأن القتل للأولاد كان له سببان :

الأول : الفقر ، فالعائل فقير لا يقدر على رزق نفسه ، فما بالك برزق أولاده ؟ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ[1] ..

(١) الإملاق : الافتقار . أملق الرجل : فقير قد نفد ماله . وأصل الإملاق الإنفاق . يقال : أملق ما معه إملاقاً : إذا أخرجه من يده ولم يحبسه ، والفقر تابع لذلك . [لسان العرب - مادة : ملق] .

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] لأن الفقر موجود ﴿ (١٥١) ﴾ [الأنعام] وقدَّم الآباء على الأولاد ؛ لانشغال نفوسهم برزقها أولاً .

والسبب الثانى : أن يكون عنده ما يكفيه ، إنما يخشى الفقر إن جاءه أولاد ، وفى هذه قال سبحانه : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ.. (٣١) ﴾ [الإسراء] وقدَّم الأولاد على الآباء ، فنحن نرزق الأبناء الذين تخافون الفقر بسببهم قبل أنْ نرزقكم ، إذن : فكلّ آية مُذيَّلة بما يناسبها .

كذلك قُلْنا فى مسألة السمع والبصر فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] وذكر هنا السمع لأنه وسيلة الالتقاء فى ظلمة الليل ، وبه يستدعى الإنسان إنْ كان نائماً .

أما فى آية النهار ، فقال سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] لأن البصر لا يكون إلا فى ضوء النهار .

ومعنى ﴿ مَّثَانِيَ.. (٢٣) ﴾ [الزمر] يعنى : مَثْنى يُقَال : مرة واثنين وثلاثة ، أو : يثنى فى الصلاة حيث نقرأ الفاتحة ثم سورة بعدها ، وفى الركعة الثانية كذلك .

وقوله : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ .. (٢٣) ﴾ [الزمر] وهذه صفة العبد الذى يخشى ربه ويراقبه ويعمل لنظره إليه حساباً ، لأنه دائماً يعرض سلوكه على ربه ، فإنْ رأى فيه مخالفة عاد إلى كلام الله وتذكَّر وعيده فيحدث عنده قشعريرة فى جلده من خشية ربه ، وهى أنْ يجفّ الجلد ويقعقع وتحدث رعشة فى البدن من خوف

العذاب ، ومن خوف غضب الله ، ثم يعود فيتذكر رحمة ربه التى سبقتْ غضبه ، وعفوه الذى سبق عقوبته ، فيعود إلى حالته الأولى :
﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر]

إذن : المؤمن يجمع بين الخوف والرجاء ، وقلبه بين هذين الأمرين ، فساعةَ يتذكر العقاب على المخالفة يقشعر جلده خوفاً ، وساعة يتذكر رحمة ربه يلين جلده ويهدأ قلبه ، ولمَ لا وربه قد قال : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر]

(ذلك) وهذا هو الذى يحدث للمؤمن ﴿ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر] وقد وقف كثيرون عند هذه الآية يقولون : ما دام أن الله هو الذى يُضل فلمَ يُعذِّب الضال ؟ ومعنى ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : يعلم ضلاله ، ويعلم أنه لن يسمع كلامه ولن يتبع منهجه ، وقد خلقه الله تعالى مختاراً إنْ شاء آمن وإنْ شاء كفر ، إذن : فالكافر ما كفر غَصْباً عن الله ، إنما هل رضى الله منه ذلك ؟

وقوله : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : إياكم أنْ تستدركوا على الله بأحكام بشرية تُصنِّفها لكم عقول الذين يستنكفون أنْ يأخذوا عن الله ، فما دام الله قال فلا يصح أنْ نستدركَ عليه سبحانه ؛ لأنه لا يمكن أنْ نأتى بهدى أحسن من هُدَى الله .

ويجب على الأقل أن نفهم أن الذى يشرع شرعاً يريد أنْ يحكم به الناس لا بُدَّ أنْ يكون غير منتفع به ليكون حكمه نزيهاً وموضوعياً ؛ لأنه لو كان منتفعاً بالحكم لابدّ أن يميل قلبه إليه

ويسير هواه مع منفعته .

يعنى : مثلاً لو شرَّع العمال لاختاروا الاشتراكية ، ولو شرع الرأسماليون لاختاروا الرأسمالية ، لذلك يشترط فيمَنْ يُشرع ألاّ يكون منتفعاً بما يشرع ، وهذا الشرط لا يتحقق إلا فى الحق سبحانه .

لذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يترك فى كونه قضايا حتى عند الكافرين به ، وعند غير المؤمنين بمنهجه ، قضايا تدل على أن شرع الله هو الأحسن ، فكثيراً ما وقفوا عند قضايا لم يجدوا لها حلاً فى قوانينهم ، فلجأوا إلى دين الله وإلى شرع الله ، لا لأنهم آمنوا به سبحانه ، ولكن لأن قضاياهم وأمور حياتهم لا تُحَلّ إلا بهذا المنهج .

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ (٢٤)﴾

الاستفهام فى (أفمن) مثل سابقه فى قوله تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ .. (٢٢)﴾ [الزمر] لذلك لا بدّ أن نقدر هنا المقابل ، فالمعنى : ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٢٤)﴾ [الزمر] أى : كمن لا يعذب ، ويمكن أنْ نرقى المسألة فنقول : كمن يُنعّم ؟ ولك أنت أنْ تحكم .

ومعنى ﴿سُوءَ الْعَذَابِ (٢٤)﴾ [الزمر] أى : العذاب الشديد السيىء ، وتأمل ﴿يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ (٢٤)﴾ [الزمر] معلوم أن الوجه أشرف أعضاء الإنسان ، وبه تتميز سمات الخلق ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم (٢٩)﴾ [الفتح]

ولولا سمات الوجوه لتساوت الأبدان وتشابهت بعضها ببعض ، لذلك يهتم الإنسان بوجهه ويدافع عنه ويحميه أولاً ، ومثّلنا لذلك برجل يسير فى الطريق ، فمرّت بجواره سيارة مثلاً نثرت عليه وعلى ملابسه الطين ، بالله ما أول شىء يحرص على نظافته وإزالة الأذى عنه ؟ إنه يمسح أول ما يمسح وجهه ، ثم يلتفت إلى ملابسه ، لأن الوجه هو أشرف الأعضاء وأشهرها وأكرمها ، وهو المُحَافَظ عليه قبل كل الجوارح .

إذن : ما بالك بعذاب لا يجد الإنسان ما يتقيه به إلا وجهه ؟ نعم يتقى العذاب بوجهه ، لأن يديه مغلولة ، وقدمه مُكبلة ، فلا مهربَ له ولا خلاصَ ، فلا يملك إلا أنْ يتقى العذاب ويدفعه عن نفسه بأعزّ ما يملك ، وبأشرف أعضائه وهو الوجه .

﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] قوله فى العذاب (ذُوقُوا) تهكم بهم ، واختار الذوق وهو جارحة من الجوارح التى تؤدى مهمة فى جسم الإنسان مثل العين والأذن ، إنما اختار الذوق خاصة ، لأن الذوقَ هو الحاسة الملازمة للإنسان ، وبه قوام الحياة ، حيث بالتذوق ندخل الطعام والشراب ، ونتمتع به ونجد له لذة تفوق الملاذّ الأخرى .

أما العين والأذن مثلاً ، فقد ترَى أو تسمع ما لا يعجبك ، أما فى التذوق فإنك تختار ما يعجبك وتجد له لذة ، وهنا يريد الحق سبحانه أن يعمم الذوق فى الجسم كله ، فجميع البدن يذوق العذاب .

وقلنا : إن اللسان هو جارحة التذوق بمراحله وما حوله يذوق

ويُميِّز الطعوم ، فإذا ما تجاوز الطعامُ هذه المنطقة فلا يشعر الإنسان له بأىِّ مذاق ، ولذلك رأينا صناع الدواء يُغلفون الدواء المرّ بمادة مُستساغة مقبولة ، تساعد على مرور الدواء من منطقة التذوق دون أنْ نشعر بمرارته .

وإذا نظرتَ إلى الجوارح كلها تجد أنها مُتعلقة بالغير ، فأنا أسمع غيرى وأرى غيرى ، وألمس غيرى أو بعضى ، أما الذوق فخاص بالإنسان نفسه ، فلا يذوق إنسانٌ لآخر ؛ لذلك اختار الله سبحانه هذه الجارحة فى إظهار شدة العذاب وألمه ﴿ ذُوقُوا (٢٤) ﴾ [الزمر] وفى موضع آخر (ذُقْ) . لا رؤية ولا سماع ولا شم ولا لمس ، إنما بالذوق الذى هو خاص بصاحبه ، وكأن لكل واحد منهم مذاقاً يناسب عذابه .

وإذا كان للذوق منطقة خاصة هى اللسان بمراحله وما حوله ، فالذوق هنا أراده الله عاماً وشاملاً ، ليس فى منطقة الذوق ، ولكن الجسم كله يذوق العذاب ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** .. (٥٦) ﴾ [النساء] فالإذاقة هنا تعدَّت منطقة الذوق إلى الجسم كله .

وإذا ما نظرنا إلى قوله تعالى - بالاعتبار - فى القرية التى كانت آمنة مطمئنة فكفرتْ بأنْعُم الله ، قال الله فيها : ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** .. (١١٢) ﴾ [النحل] فكأن الإذاقة تلبسهم وتحيط بهم من كل ناحية .

والشعراء عادة حينما يبالغون فى شىء يُعدّونه من منطقة الحسِّ

له إلى كل المناطق ، وقد اعتاد الشعراء على ذكر القلب ، وأنه محلٌّ الحب ، ومن ذلك قول الشاعر[١] :

وَدَاعٍ دَعَا إذْ نَحْنُ بالخِيف مِنْ مِنَى ... فَهَيَّجَ أحْزَانَ الفُؤادِ ومَا يَدْرِى
دَعَا باسْمِ لَيْلَى غيرها فكَأنَّماَ ... أَهَاجَ بِلَيْلَى طَائِراً كانَ فِى صَدْرِى[٢]

وقال الآخر[٣] :

كأنَّ القلبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى ... بِلَيْلَى العَامِرية أوْ يُرَاحُ
قطاةٌ عزَّها شَرَكٌ فَبَاتَتْ ... تجاذبه وقَدْ عَلَقَ الجناحُ[٤]

أما الشاعر الذى أراد المبالغة فى هذه المسألة فقال[٥] :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَثِيرُ مَوَدَّتِى ... فَأُحِسُّ مِنْهَا فِى الفُؤَادِ دَبِيبا
لاَ عُضْوَ لِى إلاَّ وَفِيه صَبَابَةٌ ... فكأنَّ أعْضَائِى خُلِقْنَ قُلُوبَا[٦]

---

(١) الشاعر هو : محمد بن عبد الله بن نمير الثقفى النميرى . شاعر غزل ، من شعراء العصر الأموى ، مولده ومنشؤه ووفاته بالطائف . توفى عام ٩٠ هـ . له ديوان شعر مطبوع .

(٢) البيتان من قصيدة للنميرى من بحر الطويل عدد أبياتها ٧ أبيات وفى الموسوعة الشعرية (لوعات الفؤاد) بدل (أحزان الفؤاد) ، وقد كان يتغزل بأخت الحجاج بن يوسف الثقفى فتهدده الحجاج ففر إلى اليمن وأقام بعدن مدة . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) الشاعر هو : توبة بن الحمير الخفاجى أبو حرب ، شاعر من عشاق العرب المعروفين ، كان يهوى ليلى الأخيلية وخطبها فردَّه أبوها وزوّجها غيره ، فانطلق يقول الشعر مُشَبِّبًا بها. قتله بنو عوف بن عقيل . عام ٨٥ هـ . [الموسوعة الشعرية] .

(٤) البيتان من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤ أبيات . وفى الموسوعة (تعالجه) بدل (تجاذبه) . أما لفظ تجاذبه فقد ذكره الأصفهانى فى الأغانى ، وكذلك أبو على القالى فى أماليه ، وأبو هلال العسكرى فى ديوان المعانى .

(٥) هو : أبو المعالى ابن أبى جعفر الواعظ ، من أهل هراة ، كان له معرفة بالتفسير والأدب ، كان حسن الوعظ كثير المحفوظ . مولده سنة ٤٩٠ هـ وتوفى سنة ٥٦٠ هـ عن ٧٠ عاماً.

(٦) ذكر هذه الأبيات صلاح الدين الصفدى فى (الوافى بالوفيات) ، وابن شاكر الكتبى فى (فوات الوفيات) ، أما ابن خلكان فى وفيات الأعيان فقد عزا البيتين للأمير شمس المعالى أبى الحسن قابوس بن أبى طاهر .

فالحب عنده تَعدَّى مَنطقته ، حتى صار فى كل أعضائه وجوارحه ، وهكذا تتعدى الإذاقةُ منطقة الذَّوْق لتشملَ الجسم كله .

لذلك كان قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء] آيةٌ من آيات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، مع أن الإعجاز باللغة والأسلوب والفصاحة خاص بالعرب ، أما غير العربى فله إعجاز آخر يناسبه إعجاز بأن يأتى له القرآن بأقضية ، لم تكن تخطر على البال ساعةَ نزول القرآن ، ولم يعرفها العلم طوال قرون .

والآن وبعد أكثر من أربعة عشر قرناً من نزول القرآن يثبت العلم الحديث أن ما أخبر به الحق سبحانه فى قرآنه هو الحق ، وأنه سبحانه هو العَالِم بما يكون فى كَوْنِ الله باختيار خَلْق الله .

قلنا : إنه لما انتهت الحرب العالمية الأولى وانهزمتْ ألمانيا جاء أحد علماء الاقتصاد بها ويسمى (شاخت) ، وأراد أن يرفع من شأن بلاده ، وأن ينهض بها بعد الهزيمة ، ولما لم يتمكن من الخدمة فى الجيش لأنه كان أعرجَ فأعمل عقله فى خدمة بلاده ، وشجّع البحث العلمى فيها إلى أن توصلوا إلى اختراع أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد ، أو الجزء الذى لا يتجزأ كما يسميه الفلاسفة والمراد به الذرَّة .

فلما نجحوا فى تفتيت الذرة ، وأصبح لها أجزاء أصغر منها أخذها أعداء الإسلام فرصةً للطعن فى صدْق القرآن الكريم ، فقالوا لقد ضرب الله مثلاً لأصغر شىء بالذرة فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

وها هو العلم يكتشف ما هو أصغر من الذرة .

لكن سرعان ما فتح الله على أهل العلم فردُّوا عليهم وقالوا لهم : تمهلوا واقرأوا القرآن كله ، ولا تأخذوا منه ما يؤيد تهجمكم عليه ، ففى آية أخرى قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ[1] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ[2] ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

إذن : فى القرآن احتياطٌ لهذه المسألة ، فلم يقل صغير بل أصغر من الصغير ، فمهما حدث من تفتيت ، ففى القرآن احتياط له .

ومن إعجاز القرآن لغير العرب هذه الآيات العلمية التى يكتشفونها ، فإذا بالقرآن يسبقهم إليها ، ومن ذلك مثلاً مسألة مراكز الإحساس فى الجسم ، أولاً قالوا : المخ هو مركز الإحساس . وقال آخرون : بل النخاع الشوكى ، بدليل أن الإنسان يُحِس بأشياء مع أنها لم تلمس جسمه ، كما لو وضعت أصبعك مثلاً مقابل عيْن إنسان ، فإنه يغلق عينه تلقائياً .

ثم لما تأملوا الإبرة أو الحقنة تُعطَى للمريض مثلاً ، فإنه لا يشعر بالألم إلا بمقدار نفاذ الإبرة من الجلد ، فقالوا : إذن الجلد هو مركز الإحساس ، وهذا هو ما قرره القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا

---

(١) يعزب : إذا غاب وبَعُدَ . وعزب عنه : ذهب . وأعزبه الله : أذهبه . [لسان العرب - مادة : عزب] .

(٢) من الإعجاز العلمى فى القرآن استخدام لفظ « ذرة » مقترناً دائماً بكلمة « مثقال » والتى يُقصد بها وزن ، وهذا التعبير القرآنى يقابله بدقة المصطلح الكيميائى « الوزن الذرى » .

الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] مادة (كسب) فى القرآن الكريم جاءت كما قلنا على صيغتين : كسب واكتسب ، وقد بيَّن الحق سبحانه متعلق كل منهما فى قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة] فكسب للخير واكتسب للشر ؛ لأن كسب على وزن فعل ، والخير يأتى من صاحبه طبيعياً لا تكلُّف فيه ولا افتعال ، أما اكتسب فعلى وزن افتعل فيها افتعال ، والافتعال لا يكون إلا فى الشر ، فالخير لا يحتاج منك إلى حيل وافتعال ، بل يأتى طبيعياً على خلاف الشر .

وقد أوضحنا هذه المسألة بالرجل يجلس مع زوجته وبناته ، وينظر إلى جمالهن نظراً طبيعياً لا يحتاط فيه لشىء ولا يخشى فيه شيئاً ، أما إنْ أراد أن ينظر إلى امرأة جميلة فى الشارع مثلاً ، فإنه يتلصص لذلك ويحتال ، هذا هو الافتعال .

لكن القرآن الكريم خالف هذه القاعدة فى مواضع ، منها هذه الآية ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] ولم يقل تكتسبون ، فاستخدم كسب فى الشر ، وفى موضع آخر أيضاً قال : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة]

فلماذا عدَل القرآن عن اكتسب إلى كسب ؟ قالوا : لأن الإنسان والعياذ بالله قد يتعوّد المعصية ويألف المخالفة حتى تصير له عادة يفعلها فعْلاً طبيعياً ويأنس بها وكأنها طاعة ، وهذا الذى نسميه (فاقد) ولأنه ألفها وتعوَّد عليها بل ويفرح بها عبَّر القرآنُ عنها بكسب التى هى للخير ، ونقل الاكتساب إلى محل الكسب .

لذلك فرَّق القرآن بين مَنْ يفتعل المعصية ويقصدها ويسعى إليها ، ومَنْ تقع عليه المعصية دون إعداد لها ، واقرأ قول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾ [النساء]

معنى (بِجَهَالَةٍ) أى : من غير قصد لها ولا ترتيب ولا بحث عنها ، وإنْ حدث منهم السوء لا يفرحون به ، بل يألمون ويندمون ، أما النوع الآخر فيرتكب السيئات عن قصد ولا يبالى ، وربما فرح بها وجاهر بها .

﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٢٥) ﴾ [الزمر] أى : من الأمم السابقة ﴿ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ .. (٢٥) ﴾ [الزمر] أى : عذاب الدنيا بهزيمتهم ونُصْرة الدين الذى كانوا يحاربونه ويصادمونه ، وهذه أيضاً هى التى حدثتْ للكافرين ، حيث نصر الله الإسلام ، وأظهر مبادئه وقضاياه على مبادىء الكفر ، وهذا فى حَدِّ ذاته لَوْنٌ من العذاب فى الدنيا ، فإذا ما عادوا إلى الله فى الآخرة كان لهم

عذاب آخر أشدّ وأنكى .

إذن : فهم يشبهون من سبقهم من المكذِّبين ؛ لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ كَدَأْبِ(١) .. (١١) ﴾ [آل عمران]

لذلك قوله تعالى : (كَذَّبَ) هنا وقوله (كَدَأْبِ) هناك يتبين لنا قضية نفسية فى القرآن الكريم ، هى أن حفاظ القرآن يجب ألاّ يكونوا من العلماء ، خاصةً علماء اللغة والفصاحة ، لأن العالم إذا وقف فى القرآن أمام لفظ أمكنه أنْ يتصرَّف فيه ويكمل قراءته ، فيقول مثلاً : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا .. (٦) ﴾ [الحجرات] يقول : فتثبتوا أو فتحققوا ، ويمكن أنْ يستقيم المعنى ، لكن الحق سبحانه يريد لفظاً بعينه لا يجوز أنْ نتعداه إلى غيره ، أما الذى تخصص فى حفظ القرآن ، وليست لديْه ملكَة التصرف هذه ، فإذا نسى أو وقف فى لفظ وقف (بالأربعة) يعنى : لا يمكن له التصرف فيه ، وهذا هو المطلوب فى حَفَظَة كلام الله ، وهذه من عظمة القرآن .

لذلك قلنا : إن كمال القرآن لا يتعدَّى ، كيف ؟ فمثلاً لو أردنا لإنسان أنْ يُرقِّق أسلوبه ويُقوِّيه فى الأداء الإنشائى ننصحه بأنْ يقرأ كتب الأدب عند المنفلوطى والرافعى وغيرهما ، فلما يُكثر من هذه القراءات نلاحظ تحسُّناً فى أسلوبه وأدائه .

ثم إن حافظ القرآن المتمكن منه حتى لو حفظه بالعشرة وقيل له اكتب خطاباً تجده لا يستطيع أن يكتبه فصيحاً أبداً لماذا ؟ لأن كمال

---

(١) ذكر الطبرى فى تفسيره عدة أقوال منها : كسُنتهم وعزاه للربيع . والبعض قال : كعمل آل فرعون . منهم الضحاك . وقال ابن زيد : كفعلهم كتكذيبهم حين كذَّبوا الرسل . وقال عكرمة ومجاهد : كشأن آل فرعون .

القرآن لا يتعدَّى إلى غيره ، إنما بلاغة البشر تتعدى إلى البشر .

وقوله : ﴿مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥)﴾ [الزمر] أى : من حيث لا يُقدِّرون ولا يحتسبون ، حيث يداهمهم من العذاب ما لم يكُنْ فى حسبانهم ، ولم يخطر لهم ببال ، كما فى قوله سبحانه :

﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور] أى : فوجِئ به ، فوجِئ بحسبان آخر غير ما كان ينتظر ، لأنه كذَّب فى الدنيا بالبعث وبالحساب ، والآن يُفاجئه الحساب الذى كذَّب به .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.. (٢٦)﴾ [الزمر] هنا نقل الإذاقة الحسية إلى الإذاقات المعنوية ، والخزى والذلة نوع من العذاب ، ولها إيلام يفوق الإيلام الحسِّىَّ ، فمن الناس مَنْ لا يؤلمه الضرب ، إنما تؤلمه كلمة جارحة تخدش عِزَّته وكرامته .

لكن لماذا أذاقهم اللهُ الخزىَ فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ؟ أذاقهم الخزى لأنهم تكبَّروا على الحق وتجبَّروا ، وجاءوا بقَضِّهم وقضيضهم[1] فى بدر لمحاربة الإسلام ، وظنوا أنهم (العناتر) والجولة جولتهم ، المراد إذن صناديد قريش ورؤوس الكفر أمثال عتبة وشيبة والوليد وغيرهم ، جاءوا بالعدد والعُدة ، وما خرج المسلمون لقتال إنما خرجوا للعير ، ومع ذلك أعزَّ اللهُ جنده وأخزى عدوه ، فقتل منهم مَنْ قتل ، وأسر مَنْ أسر وذلّوا ، وكان الخزى لهؤلاء أنكَى من القتل .

إذن : كان لهم الخزى فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلهم عذاب :

---

(١) بقضهم وقضيضهم : أى بجمعهم ، لم يدَعُوا وراءهم شيئاً ولا أحداً . والأصل : جاء بالقضّ والقضيض ، فالقض الحصى ، والقضيض ما تكسَّر منه ودقّ . [لسان العرب - مادة : قضض] .

﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [الزمر] نعم ، عذاب الآخرة أكبر من خزى الدنيا وأشدّ ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [الزمر] لأن الذين علموا هذه الحقيقة انتهوا وآمنوا ، أما هؤلاء فعاندوا وكابروا وكذَّبوا .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ﴾

حينما نتتبع لفظ (مَثَل) فى القرآن الكريم نجده مرة بصيغة (مِثْل) ، وهى تفيد تشبيه شىء بشىء مفرد كما تقول : زيد فى شجاعته مثل الأسد ، الرجل فى كرمه مثل الغيث ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [البقرة] وهى تفيد تشبيه صورة مُنْتزعة أو مُكوَّنة من عدة أشياء بصورة أخرى مُكوَّنة من عدة أشياء يعنى : تشبيه حالة بحالة .

ومن المثل فى القرآن الكريم مَثَلُ الحياة الدنيا فى قوله تعالى :

﴿ واضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

فالحياة الدنيا ليست تشبه الماء وحده ، إنما ماء نزل من السماء واختلط بتراب الأرض فأخرج النبات لكن سرعان ما يهيج ثم يصفر ثم يجف ويتفتت ، حتى يصير هشيماً تذروه الرياح ، كذلك حياة

الإنسان فى الدنيا ، تزهو لك الحياة ثم تنتهى بالموت ، هذه صورة تمثيلية مُكوَّنة من عدة أمور تشبه عدة أمور أخرى ، وما دامت الدنيا على هذه الصورة فاحذروها ، ولا تركنوا إليها ولا تغترُّوا بها .

ومن الصور التمثيلية فى القرآن أيضاً قوله تعالى فى الذين حُمِّلوا التوراة ، ثم لم يستفيدوا منها : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا[1] .. ⑤ ﴾ [الجمعة]

فهؤلاء ليسوا كالحمار وحده ، بل كالحمار الذى يحمل الكتب ، ولكنه لا يفهمها ، والحمار ليست مهمته أنْ يفهم إنما مهمته أنْ يحمل ، أما هؤلاء فمهمتهم أنْ يحملوا وأنْ يفهموا ما حملوه ، وبذلك تميَّز الحمار عنهم .

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ[2] فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ .. ㉙ ﴾ [الفتح]

---

(١) السِّفر : الكتاب الذى يسفر عن الحقائق . وقيل : الكتاب الكبير ، لأنه يبين الشىء ويوضحه . والسفر : جزء من أجزاء التوراة والجمع أسفار . والمعنى : أعلم الله تعالى أن اليهود مثلهم فى تركهم استعمال التوراة وما فيها كمثل الحمار يُحمل عليه الكتب ، وهو لا يعرف ما فيها ولا يعيها . [تاج العروس - للزبيدى] .

(٢) الشطء : فرخ الزرع والنخل . وقيل : هو ورق الزرع . وقال الزجاج : أخرج شطأه : أخرج نباته . [لسان العرب - مادة : شطأ] .

تأمل هذا المثل ، تجد الحق سبحانه مثَّل محمداً وصحبه فى التوراة بمثَل معنوى عبادى ، لأن اليهود تغلب عليهم الماديات ، وجاء بمثل مادى فى الإنجيل لأن الإنجيل ليس فيه إلا روحانيات ، فلما طغتْ المادية على اليهود ذكر لهم المثل المعنوى ، ولما طغتْ الروحانيات على النصارى جاء لهم بمثَل مادى ، فكان ولابدّ أنْ يجىء الإسلام وسطاً يراوح بين الماديات والروحانيات .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا.. (٢٧) ﴾ [الزمر] الضرب قلنا : هو إيقاع شىء فوق شىء بقوة وشدة ليحدث فيه أثراً ، ومن ذلك الضرب فى الأرض أى : حرثها والاعتناء بها لتعطيك من خيرها ، وضَرْب المثل يكون لأنه فى ظاهره غريب ، فنقول لك : لا تستغربه فهو مثل كذا وكذا فيتضح المقال ويزول الاستغراب ، والمثَل يشبه المختلف فيه بالمتفق عليه . كما فى المثل السابق ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

ومادة مثل فى القرآن الكريم وردتْ إحدى وأربعين مرة بلفظ مثل ، واثنتين وعشرين مرة بلفظ مَثَلاً ، وثلاث مرات بلفظ مثلهم .

ومن طريف الصور التمثيلية قَوْلُ الشاعر يصف رجلاً أحدب ، ويُصوِّره لك كأنك تراه بالفعل :

قَصُرَتْ أخادعهُ وغَاصَ قَذَالهُ فكأنَّهُ مُتربِّصٌ أنْ يُصْفَعَا

وَكأنَّمَا صُفعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً فَأحسَّ ثانيةً لَهَا فَتجمَّعَا[1]

---

(١) ذكر هذين البيتين عبد الرحيم العباسى فى « معاهد التنصيص » . وشهاب الدين الخفاجى فى « ريحانة الألبا » من شعر عبد الله بن النطاح وأسماه العماد الأصفهانى فى « خريدة القصر » [أبو محمد عبد الله بن الطباخ الكاتب] . وفيه : وكأنه قد ذاق أول صفعة .

وقوله تعالى : ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ .. (٢٨)﴾ [الزمر] يفيد العموم ، يعنى : لوَّنا لهم الأمثال لنُبين لهم قواعد الدين بما يشاهدونه من الماديات ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧)﴾ [الزمر] يعنى : يتأملون هذه الأمثال ، ويضعون كل مثَل مقابل مثاله ، وليأخذوا من المشاهد دليلاً على ما غاب ، ومن المتفق عليه دليلاً على المختلف فيه .

وقوله سبحانه : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ .. (٢٨)﴾ [الزمر] أى : أن هذه الأمثال جاءت قرآناً عربياً مبيناً واضحاً لا عوجَ فيه ، وهو كتاب يُقرأ ويكتب وتتكرر تلاوته فى العبادة ، وهو محفوظ لا يناله تحريف أو تبديل والذى يحفظه قائله سبحانه ، إذن : فهذه الأمثال باقية ببقاء القرآن خالدة بخلوده ستظل أمامكم تفيدون منها ، كلما عرضتْ لكم قضايا الحياة وجدتم الحلّ لها .

وقوله : ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ .. (٢٨)﴾ [الزمر] ليس مائلاً إلى جهة من الجهات ، بل هو مستقيم ، لأنه التشريع الحقّ من الله الذى لا يُحابى أحداً ولا يجامل أحداً حتى رسله ، واقرأ قوله سبحانه لنبيه وخيْر رسله محمد ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)﴾ [الإسراء]

وفى سورة الكهف وصف القرآن بقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا .. (٢)﴾ [الكهف]

وقوله : ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)﴾ [الزمر] أى : يتقون صفات الجلال من الله تعالى ومُتعلقاتها من التعذيب بأىِّ لون من ألوان العذاب .

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ(١) هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾

هذا مَثَل ضربه الله لبيان قضية التوحيد ، ويوضح من خلاله الفرق بين عبد لسيد واحد ، وعبد لعدة أسياد ، وهذه صورة مكوّنة من عدة عناصر ، فالرجل مملوك لشركاء ، وليْتهم متفقون على شيء ، إنما متشاكسون مختلفون ، كلٌ منهم يأمر بشيء ، فإنْ أرضى هذا أغضب ذاك ، وإنْ أطاع سيداً عصى الآخر .

إذن : كيف يبدد نفسه ؟ وكيف له أن يستريح فهو دائماً فى حيرة من أمره ؟ أما الآخر ، فعبدٌ لسيد واحد ، أمره واحد ، وهو مرتبط بسيده ، قاصرٌ خدمته عليه .

﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا .. (٢٩) ﴾ [الزمر] ويترك الحق سبحانه لك أنْ تجيب أنت على هذا التساؤل ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] لا نملك إلا أنْ نقول : لا يستويان أبداً ، ونُقر نحن بهذه الحقيقة ، وهذا هو مقصد القرآن أنْ نُقر نحن بها ، لا أن تُلقى إلينا كخبر من الله تعالى ، وهذا الذى نحكم به يقوله كلُّ عاقل ، ولا يردّه أحد .

---

(١) قال البغوى فى تفسيره للآية : ﴿ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم ، يقال : رجل شكس شرس إذا كان سيء الخلق مخالفاً للناس لا يرضى بالإنصاف . ﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] قرأ أهل مكة والبصرة (سالماً) بالألف أى : خالصاً له لا شريك ولا منازع له فيه .

فالعبد المملوك لسيِّد واحد ، كمَنْ آمن بالله تعالى وأخلص له العبادة وحده سبحانه ، والعبد المملوك لشركاء متشاكسين مثال للعبد الذى أشرك مع الله فى العبادة ، وعليك أنت أنْ تعتبر .

وقوله سبحانه : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] أى : الحمد لله على أنْ ضرب لنا الأمثال ، وأوضح لنا الأمورَ لنأخذ المعقول المعنوى بالمُحَسِّ المادى ، فالذى يعبد الله وحده لا شريك له يعيش مرتاحَ البال ، هادىء النفس ، مطمئن القلب ، على خلاف مَنْ يعبد آلهةً متعددة ، فهو مشتّتُ النفس ، غير مستقر البال ، إنْ أرضى سيداً أغضب الآخر ، وليس لديه القوة التى تعينه على إرضاء الجميع ، فهو أشبه بالخادم الذى يقول (أناح أقطع نفسى ؟)

فالحمد لله الذى نزَّل القرآن عربياً ، لا عوجَ فيه ، والحمد لله الذى ضرب لنا فيه الأمثال التوضيحية التى تُقرِّب ما تقف فيه العقول بالذى تتفق فيه العقول .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر] أى : لا يعلمون هذه القضية ، لا يعلمون أن الإيمانَ بالإله الواحد الحق والعبودية الخالصة له سبحانه فيها سعادة العبد وراحته ، وأن العبوديةَ لآلهة شتى فى شقاوة العبد وتعبه .

وهم لا يعلمون هذه الحقيقة لأنهم ما وضعوا قضية الإيمان بالربوبية موضعَ البحث العقلى ، بل أخذوها هكذا بلا تأمُّل ، المهم عنده أنْ يكون لهم إله ليس له أوامر ولا نواه ، إله بلا منهج وبلا تكاليف ، وما أحسنَ هذا الإله الذى تأخذه على مزاجك ، ووفقاً لهواك .

وقوله سبحانه : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر] طمأن أهل

الإيمان وأهل التوحيد ، فهم وإنْ كانوا القلة إلا أنهم موجودون ، فالخير لا يُعدم مهما كان قليلاً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤)** ﴾ [الواقعة]

وقال فى أصحاب اليمين : ﴿ **ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (٤٠)** ﴾ [الواقعة] فالخير إذن فى هذه الأمة .

﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)** ﴾

كان كفار مكة إذا أصاب رسول الله ﷺ سوء أو وعكة صحية ، أو نزلتْ به شدة كما حدث فى أُحُد يفرحون لذلك ، فما بالك لو مات رسول الله ؟ لذلك يقرر القرآن لرسول الله ﷺ هذه الحقيقة ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)** ﴾ [الزمر] فعلامَ يفرحون وهذه نهاية الجميع ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤)** ﴾ [الأنبياء]

لكن المسألة لن تنتهى عند هذا الحدِّ ، إنما بعد الموت حياةٌ أخرى ، فيها حساب وجزاء ووقوف بين يدى الله تعالى ، وساعتها سيكون النبى ﷺ فى أعلى مقام ، أما أنتم فسيكون موقفكم موقفَ المخالفين لله ، فماذا تقولون ؟ هذا معنى قوله سبحانه ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)** ﴾ [الزمر]

ومعنى ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ .. (٣٠)** ﴾ [الزمر] هكذا بالتشديد . أى : ذاهب مُنْته إلى الموت فـفرْق بين ميّت بتشديد الياء وميْت بسكونها ، ميّت يعنى من سيموت ويؤول إلى الموت ، ولو كان حيّاً ، لأن الله خاطب

رسوله وهو ما يزال حياً . أما ميْت فمَنْ مات بالفعل .

ومن ذلك قول الشاعر :

وكُلُّ أنَامِ اللهِ فِي النَّاسِ مَيِّتٌ وَمَا اميْتُ إلاَّ مَنْ إلَى القَبْرِ يُحْمَلُ

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر] فيه تطمينٌ وتأسية لرسـول الله ، كما خاطبه سبحانه بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] وهنا قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾ [الزمر]

يعنى : إما أنْ ترى انتقام الله منهم فى الدنيا وإلا ففى الآخرة ، إذن : من مصلحتك أنت أنْ تنتقل إلى الرفيق الأعلى لنختصر المسافة ، وترى بعينك مصارع الكافرين المعاندين ، فلا تضعف ولا تذل ؛ لأن لك مآلاً عند الله تأخذ فيه جزاءك ، ويأخذون جزاءهم .

والحق - سبحانه وتعالى - لما تكلَّم عن الموت فى سورة تبارك ، قال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢) ﴾ [الملك]

فتأمل ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢) ﴾ [الملك] وجعل الموت أولاً مع أنه بعد الحياة ، ذلك لأن الحياة ستعطيك نوعاً من الغرور ، حين ترى جوارحك تستجيب لك ، والأسباب تستجيب لك والدنيا تعطيك فلا بُدَّ أن يدخلك الغرور ، فأراد الحق سبحانه ألاّ نستقبلَ الحياة بالغرور ، بل نستقبلها أولاً بهذه الحقيقة التى تناقض الحياة وهى الموت .

إذن : فالعاقل يفهم أنه صائر إلى الموت ، ويقضى رحلة حياته وهو على ذكْر لهذه النهاية .

وقوله ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾ [الزمر] وستكون أول خصومة بين الأنبيـاء ومَنْ كفروا بهم هى مسألة البلاغ حين يشهد الرسل أنهم بلَّغوا أقوامهم رسالة الله ، فإذا بهم يتعللون ، يقولون : اعتقدناه سحراً ، اعتقدناه كذباً ، اعتقدناه تخييلاً ، لكنهم ما فطنوا إلى أن الله أكّد هذا بقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

إذن : فضّل الله أمةَ محمد ﷺ بأنها حملتْ رسالة رسولها ، وهذه مسألة لم تحدث مع الرسل السابقين ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران] والدليل على حَمْل الأمة لهذه الرسالة أنه لم يأتِ رسول بعد رسول الله ، فكأن الله تعالى أمن أمة محمد على رسالته ، والنبى ﷺ شهد أنه بلَّغ أمته ، وعليهم هم أنْ يشهدوا أنهم بلَّغوا الناس .

وهذا المعنى من معانى الوسطية التى قال الله فيها : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

وإنْ كانت تتسع لغير ذلك فلأنها وسط فى كل شىء ، فقد رأينا فى غير هذه الأمة مَنْ أنكر الإله ، ومنهم مَنْ أثبت آلهة متعددة ، وكلاهما تطرف ، فجاء الإسلام وقال بعبادة إله واحد لا شريك له ، فاختار الوسطية والاعتدال وحلّ هذا النزاع .

لذلك خاطبنا ربنا بقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] أى : فيكم نواحى الاعتدال ، فإذا سمعتم مَنْ يقول بالشيوعية، ومَنْ يقول بالرأسمالية ، وإذا رأيتم مَنْ يتعصّب لمذهبه فقولوا :

نحن أمة وسط تركنا للرأسمالية أن تثمِّر طموحها ، لأنه ليس الجميع لديه طموح ، وحين تثمِّر الرأسمالية طموحها لابُدَّ أنْ تخدم المجتمع ، وانظر كم من العمال يعمل ، وكم من البيوت تُفتح .

كذلك الشيوعية فرضنا لهم ما لم يدفعوا إلى غير القادر ، إذن : أخذنا ميزة هؤلاء وميزة هؤلاء ، بدليل أن النظامين اللذين سيطرا على العالم طوال مدة من الزمن بدأتْ شراستهم تقل ، فالرأسماليون أخذوا فى التخفيف من حِدّة الرأسمالية ، ونظروا إلى العمال فأعطوْهم حقوقهم وميَّزوهم ، وجعلوا لهم نقابات ... إلخ ، وكذلك الشيوعية قالوا : لا بُدَّ أنْ يوجد فى المجتمع طبقة تقدر أنْ تزنَ الأمور بطموحاتها ، ويجعلوا للعمال فرصاً يعملون بها ، وأخيراً انتهت الشيوعية والحمد لله عن آخرها .

إذن : فأمة الإسلام أمة الوسطية أخذت خَيْر النظامين .

نقول : سيكون فى الآخرة الاختصام الأول بين الأنبياء ومن كذَّب بهم ، واختصام بين أئمة الكفر ومَنْ تبعهم ممَّنْ أضلوهم وأغووْهم ، بين القوم الذين أثروا فى السفهاء ، وجعلوهم تابعين لهم فى الكفر .

وقد صَوَّر القرآن هذه الخصومة فى هذا الموقف ، فقال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[1] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ [البقرة]

---

(١) الكَرّ : الرجوع . والكرَّة : البعث وتجديد الخلق بعد الفناء . [لسان العرب - مادة : كرر] .

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

إذن : لا بدّ أنْ يختلفوا الآن ، ويلعنَ بعضهم بعضاً ، ويُلقى كلّ منهم التبعية على الآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) ﴾ [الصافات]

هكذا يختصم التابع والمتبوع ، وتتفرّق جماعتهم ولا يتناصرون كما تناصروا على كفرهم فى الدنيا .

ويُصوِّر القرآن موقفاً آخر للكافرين ، حيث سبق قادتهم ورؤساؤهم إلى النار ، فجاء التابعون فوجدوا السادة قد سبقوهم ، يقول تعالى : ﴿ هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ[2] (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) ﴾ [ص]

وكَوْنُ القادة يسبقون أتباعهم إلى النار يدلُّ على أنهم أعظم جُرْماً من التابعين لهم ؛ لأنهم ضلُّوا فى أنفسهم وأضلُّوا غيرهم ، وفيه أيضاً قطْعٌ لأمل التابعين فى النجاة والخلاص من النار ، ومَنْ

(١) الأخلاء : جمع خليل ، وهو الصديق . والخلالة : الصداقة والمودة . [الصحاح للجوهرى - مادة : خلل] .

(٢) الغسَّاق : ما يغسق ويسيل من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه . وقيل : ما يسيل من دموعهم . [لسان العرب - مادة : غسق] .

يخلصهم وقد رأوا سادتهم وقادتهم قد سبقوهم إليها ؟

وفى المقابل يعرض الحق سبحانه هذا الحوار بين المؤمنين فى الجنة : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الصافات] أى : صاحب من أهل الكفر ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ[1] ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الصافات]

يعنى : نظر من السور فإذا بقرينه فى سواء الجحيم ، يعنى : فى وسطها . فقال : ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الصافات] تهلكنى معك ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ[2] ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات]

وقد يكون حواراً بلا خصام ، كما فى قوله تعالى :﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب]

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾

---

(١) أى : مجزيون بأعمالنا . يقال : دنته بما صنع أى جازيته . قاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير سورة الصافات . وقال ابن كثير فى تفسيره : « قال مجاهد والسدى : لمحاسبون . وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى : لمجزيون بأعمالنا . وكلاهما صحيح » .

(٢) أى : ولولا فضل الله علىّ لكنت مثلك فى سواء الجحيم مُحْضَر معك فى العذاب ، ولكنه تفضل علىَّ ورحمنى فهدانى للإيمان وأرشدنى إلى توحيده . [تفسير ابن كثير - سورة الصافات] .

الاستفهام في ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ (٣٢)﴾ [الزمر] يحمل معنى التعجب والإنكار يعني : لا أحدَ أظلمُ من هذا الذي يكذب على الله ، فلو كذب على غير الله لكان منكراً ، فما بالك وقد كذب على الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ويعلم حقائق الأشياء سِرَّها وعلانيتها .

إذن : فالكذب على الله خيبة ، وإنْ كنت ولا بُدَّ ستكذب فاكذب على إنسان مثلك هو أيضاً عُرْضة لأن يكذب .

لذلك جاء لفظ ﴿أَظْلَمُ﴾ على وزن أفعل التي تدل على المبالغة ، لأن أفظعَ الظلم وأعظمه أنْ تكذب على الله ، لكن مَنْ ظلم ؟ أظلم مَنْ يكذب عليه أم ظلم نفسه ؟ بل ظلم نفسه .

ولم يقف الأمر عند هذا بل ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ (٣٢)﴾ [الزمر] لأن التكذيب بالصدق ينقل القضايا إلى نقيضها ، والشيء الصدق هو الذي لا يُقال لقائله كذبت ، لأنه إخبارٌ بأحداث يُصدِّقها الواقع وسبق أنْ قلنا : إن النسبة الكلامية إذا وافقتْ نسبة الواقع كان الكلام صادقاً ، وإذا خالفت الواقع كان كاذباً .

ثم يستفهم الحق - سبحانه وتعالى - وهو أعلم : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢)﴾ [الزمر] يعني : ما ظنّ هؤلاء الذين يكذبون على الله ويُكذبون بالصدق ، ألم يعلموا هذه الحقيقة وهي أن جهنم مثوى للكافرين المكذِّبين ، لو كانت هذه الحقيقة في بالهم ما اجترأوا على الله ، إنما هم كاذبون يقولون غير الواقع ولا يؤمنون به .

وبعد ذلك ينتقل إلى خصوصية الصادق ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ (٣٣)﴾ [الزمر] وهو محمد ﷺ الذي تلقّى عن ربه وبلّغ أمته ، وقد أكد الله تعالى صِدْق رسوله في مواضع كثيرة ، منها :﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ

عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة]

إذن : مسألة الكذب على الله مسألة لا يُحابى فيها أحد حتى الرسل ، لذلك جاء بلاغه ﷺ عن ربه دقيقاً ، فتراه لا يبلغ مضمون المقولات ، إنما يبلغ المقولات ذاتها ، واقرأ قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص] فكان بإمكانه ﷺ أنْ يقول لقومه : الله أحد . وبذلك يكون قد بلَّغ المراد من الآية إنما قال كما جاءه من ربه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص] فذكر الأمر بأنْ يقول (قل) .

والعجيب أنْ يطلُعَ علينا مَنْ يقول بحذف مثل هذه الكلمة بحجة أنها لا تضيف جديداً للمعنى ، ونقول : هذا ليس كلامَ بشر ، بل هو كلام الله وقرآنه ، وقد حفظه الله بنفسه وبلّغه رسوله كما تلقَّاه عن ربه .

أرأيتَ لو أرسلتَ ابنك ليُبلِّغ عنك قضية مثلاً وقلتَ له : اذهب إلى فلان وقُلْ له كذا وكذا ، وبإمكان الولد أنْ يبلغ مضمون القضية ، لكنه حين يقول : أبى قال لى قُلْ لفلان كذا وكذا ، فهذا يعنى أنه يؤكد الكلام ويهتمّ بالرسالة كما تلقاها ، إذن : لو حُذفتْ كلمة (قُلْ) فقد حُذفتْ كلمة من القرآن ، لا كلمة زائدة عليه .

وقوله :﴿وَصَدَّقَ بِهِ (٣٣)﴾ [الزمر] أى : صدَّق بالصدق الذى جاء به ، صدَّق هو أولاً ولم ينتظر منا أنْ نُصدِّق نحن أو نشهد بذلك ، لقد أخذ الرسول عن ربه أنه إله واحد ولا شريكَ له فشهد بذلك أولاً

---

(١) الوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه . قال ابن سيده : الوتين عرق لاصق بالصلب من باطنه أجمع يسقى العروق كلها الدم ويسقى اللحم وهو نهر الجسد . [لسان العرب - مادة : وتن] .

وصدَّق ، كذلك الحق سبحانه لم ينتظر شهادةَ العباد بوحدانيته إنما شهد بها لنفسه أولاً ، فقال سبحانه :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

وبعد أنْ شهد اللهُ لنفسه بالوحدانية وجب على الرسول أيضاً أنْ يشهد بأن محمداً رسولُ الله ، إذن : جاء بالصدق وصدَّق هو به وقال هو عن نفسه : أشهد أن محمداً رسول الله . كذلك شهد الملائكة بهذه الوحدانية ، وشهد بها أولو العلم شهادةَ الحجة والدليل والبرهان .

وقالوا[1] : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر] هو رسول الله ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر] أي : الذين صدَّقوا رسول الله في أول بلاغ له عن ربه ، سواء أكان أبا بكر رضي الله عنه أم السيدة خديجة رضي الله عنها ، وقد اختلفوا في هذه المسألة : أهو أبو بكر أم خديجة ؟ وليس في المسألة خلاف . فإذا قيل : أول مَنْ آمن من الرجال نقول أبو بكر . ومن النساء : خديجة .

والواقع أن السيدة خديجة آمنتْ برسول الله وصدَّقته في أول الأمر ، وربما قبل أنْ يبلغ أبا بكر الخبر ، وتعلمون موقفها من رسول الله حين جاءه الوحي ، وأنها ذهبتْ به إلى ابن عمها ورقة بن

(١) اختلف المفسرون في الذي جاء بالصدق والذي صدَّق به على أقوال :
- الذي جاء بالصدق : النبي . وصدَّق به : أبو بكر . قاله علي بن أبي طالب .
- النبي . وعلي . قاله مجاهد .
- الذي جاء بالصدق : جبريل . وصدق به : محمد . قاله السدي .
- الذي جاء بالصدق : النبي . وصدق به : المؤمنون . قاله ابن زيد ومقاتل وقتادة .
راجع الأقوال كلها في تفسير القرطبي (٨/٥٩٠١) .

نوفل [1] ، فقال : إنه نبيٌّ هذه الأمة ، ولكى يؤكد لها هذه القضية قال : وإنْ يدركنى يومك لأنصرنَّك نصراً مؤزّراً ، ليتنى أكون حياً يوم يُخرجك قومك ، قال : أو مخرجى هم ؟ قال : ما جاء أحد بمثل ما جئتَ به إلا أُوذِى ولتُخرَجُنَّ [2] .

أما الصِّديق أبو بكر فلما أخبروه أن صاحبك يزعم أنه رسول قال : إنْ كان قال فقد صدق ، [3] إذن : كيف صدَّق أبو بكر وهو لم يَرَ من رسول الله معجزةً تدل على رسالته ؟

قالوا : ليست المعجزة (عياقة) لا يؤمن الناس إلا بها ، إنما المعجزة جُعلَتْ لمن يكابر فى التصديق ؛ لذلك جاءت معجزةُ القرآن تحدياً للكافرين والمعاندين المكذِّبين ، أما مَنْ آمن برسول الله أولاً فلا يحتاج إلى معجزة ، وأىُّ معجزة جعلتْ أبا بكر يؤمن ويُصدِّق برسول الله بهذه السرعة ؟

قالوا : لأنه لم يُجرِّب على رسول الله كذباً أبداً قبل ذلك ، فإذا كان صادقاً فى أموره مع الناس أيكذب على الله ؟ إذن : أخذ أبو بكر المعجزة من تاريخه مع رسول الله ، وكذلك السيدة خديجة بدليل أنها

---

(١) هو : ورقة بن نوفل بن أسد ، من قريش ، حكيم جاهلى ، اعتزل الأوثان قبل الإسلام وامتنع من أكل ذبائحها وتنصَّر ، وكان يكتب اللغة العربية بالحرف العبرانى . ابن عم خديجة أم المؤمنين . توفى عام ١٢ ق هـ .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٣٩ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن البشير . وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٥٦) وفيه أن ورقة قال : « والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتُخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » .

(٣) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

هى التى شجَّعتـه وآزرته وقالت : والله لا يُخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتَقْرى الضـيف ، وتحمل الكَلَّ ، وتعـين على نوائبْ الدهر [(١)] فمعجزة محمد لمَنْ آمن به أولاً تاريخه وسيرته بينهم .

وأنتـم تعلمـون حديث رسول الله ﷺ عن خـزيمة [(٢)] الذى يقول فيه : « مَنْ شهد له خـزيمة فحَسْبه » [(٣)] ونصاب الشهادة معروف ، فكيف جـعل رسـول الله خـزيمة نِـصاباً وحـده فى الشـهـادة ؟ وبم استحق هذه المنزلة ؟

قالوا : لأنه فـاز بجدارة فى قضيـة التصديق برسول الله حـينما اقـترض رسـول الله مـبلغـاً من المال من يهـودى ، ثم أدَّاه إليـه فى موعده ، لـكن جاء اليهودى يدَّعى أنه لم يأخـذ دَيْنه من رسول الله ، وذهب إلى رسول الله أمـام الناس يقول : يا مـحمد أو يـا أبا القاسم أعْطنى دَيْنى ، فقال رسول الله : لقد أعطيتُك ، فقال : ومَنْ يشهد على ذلك ؟ فقام خزيمة وقال : يا رسول الله أشهد أنك أعطيته دَيْنه .

ولأن اليهودى كان كـاذباً فى ادعـائه صـدِّق بشـهادة خزيمة وقال

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ومعنى « تحمل الكلّ » أى : تعين المثقل ومنه الإنفـاق على الضعيف واليتيم والعيال .

و« تكسب المعدوم » أى : تستفيد المـال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته .

« تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » : حادثات الأيام . انظر: شرح النووى على مسلم (٢/٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (١/٢٤) .

(٢) هو : خزيمـة بن ثابت بن الفاكـه بن ثعلبة الأنصارى ، أبو عـمارة ، صحـابى من أشراف الأوس فى الجاهليـة والإسلام ، عاش إلى خـلافة على بن أبى طالب ، وشهـد معه صـفين فقتل فيها عام ٣٧ هـ . [الأعلام للزركلى] .

(٣) أخرجـه الحاكم فى مستـدركه (٢/١٨) ، والطبرانى فى مـعجمه الكبـير (٤/١٠١) ، من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى المجمع (٩/٣٢٠) : « رجاله كلهم ثقات » .

فى نفسه : لعله كان حاضراً ولم أرَه ، لأن اليهودى أخذ دَيْنه من رسول الله ولم يكُنْ أحدٌ موجوداً معهما ، عندها خنس اليهودى وانصرف ، فاستدعى رسول الله خزيمة ، وقال له : يا خزيمة لم يكُنْ معى أحد حين أعطيتُه حقه ، فكيف شهدتَ أنك رأيتنى أعطيه ؟

فضحك خزيمة وقال : يا رسول الله أأصدقك فى خبر السماء وأكذبك فى عدة دراهم ؟ فأعجب رسول الله باستنتاج خزيمة ، ورآه اجتهاداً جميلاً ، فقال فيه : « مَنْ شَهِدَ له خُزيمةُ فحسْبُه » .

والمسألة ليست على دراهم اليهودى ، إنما لها واقعٌ آخر ، حينما أرادوا أن يجمعوا القرآن تحرَّوْا فيه أقصى درجات الدقة ، فكان الجامع لا يكتب كلمة واحدة فى المصحف الجامع إلا إذا رآها مكتوبة ، وشهد عليها شاهدان ليتأكد من صدقها فى الصدور وفى السطور ، حتى وقف أمام آية كُتِبت وشهد عليها شاهد واحد فتوقف ، فلما رأى أن هذا الشاهد هو خزيمة تذكَّر قول رسول الله فيه : « مَنْ شهِد له خزيمة فحَسْبه » فكتبها .

ومن مواقف التصديق ما كان من الصِّدِّيق أبى بكر لما أخبروه خبر الإسراء والمعراج . وقالوا له : إن صاحبك يدَّعِى أنه أتى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء فى ليلة واحدة ، لم يبحث المسألة ولم يناقشها إنما صَدَّق بدايةً وقال : إنْ كان قال فقد صدق . فميزان الصدق عنده مجرد أنْ يقول رسول الله .

وقوله :﴿ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر] أى : الذين أخذوها من قصيرها كما يقولون ، وجعلوا بينهم وبين صفات الجلال من الله وقاية .

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله : ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ (٣٤)﴾ [الزمر] أى : متوفر لهم كلّ ما يشاءون ، لكن عند مَنْ ؟ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [الزمر] حين تكون لا عندية إلا لله وحده ، هذه العندية هى معنى قوله تعالى : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (١٦)﴾ [غافر]

فالعندية تكون للناس فى الدنيا ، فهذا موظف عند هذا ، وهذا خادم عند هذا ، أما فى الآخرة فالعندية لله وحده ، وفى هذه العندية ينال المؤمن ما اشتهاه فى الدنيا ولم يحصل عليه فى الآخرة يقول الله ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [الزمر] ولم يقُلْ لهم ما يشاءون ، بل ما يشاءون عندى أنا . أى : بلا أسباب ، لأن الأسباب كانت فى الدنيا ، وما تريده بالأسباب قد لا يتحقق لك ، وإنْ كان فى يدك لأن الله يزاول سلطانه بواسطة خلفائه فى الأرض ، فيجعل هذا سبباً فى رزق هذا ، وهذا يعين هذا ، والأسباب قد تتخلف أما فى الآخرة فلا أسبابَ ، بل هو عطاء الله المباشر بلا سبب .

وفى سيرة أكابر الرسل أحداثٌ توضح لنا هذه العندية لله تعالى ، فسيدنا إبراهيم – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – أول ما دعا دعا عمه آزر ، وجادله فى مسألة الأصنام ، فلما رآه مُصراً على عناده

قال له : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ .. (٤٧) ﴾ [مريم]

كلمة السلام هنا ليست سلام الأمن والطمأنينة ، ولا سلامَ التحية ، إنما سلام الموادعة لأنهما مختلفان فى الرأى ، ولن يثمر الجدل مع العناد والمكابرة ، فطول الجدال لن يُزيد المسألة إلا تعقيداً وعداوة ، ومن الأفضل فى مثل هذا الموقف أن ينسحب منه صاحب الحقِّ حتى لا تشتعل نارُ الخلافات أكثر من ذلك ، كما تقول لصاحبك فى مثل هذا الموقف : يا عم سلام عليكم لتنهى الموقف ، فالسلام عليكم هنا تعنى أننى لو لم أترك هذا المكان لن يحدث سلام . وقد يكون سلامٌ من البشر لا يقدرون على أدائه .

لذلك ، فإن السلام الحق من الله ، كما فى قوله تعالى : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

الشاهد هنا أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - شاء أن يستغفر لعمه ، فلم يُجَبْ إلى ذلك ، شاء فى الدنيا لكن الله لم يشأ ، كذلك سيدنا رسول الله ﷺ شاء أنْ يستغفر لعمه أبى طالب بعد أنْ دعاه فلم يستجب ، وأصرَّ على دين آبائه ، فلما استغفر له رسولُ الله أنزل الله عليه :﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ .. (١١٣) ﴾ [التوبة]

فقد شاء محمد ﷺ أن يستغفر لعمه ، لكن لم يُعْط ذلك ، لأن هذه المشيئة منه فى الدنيا ليستْ عند الله ، أما مشيئته عند الله فى الآخرة فمستجابة متحققة ، هذا معنى ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ .. (٣٤) ﴾ [الزمر]

فإنْ كانت للمؤمن مشيئات لا تتحقق فى الدنيا فهى مُدخَّرة له فى الآخرة عند ربه ، هذه المشيئات التى لا تتحقق يسترها شىء

واحد أن أكرم المشيئة أنْ تشاء من الله أنْ ينصر دينه ، وقد تحققت هذه المشيئة .

إذن : فالمشيئة التى لا تتحقق هى التى تعود على نفسك ، أما المشيئة التى تطابق الإيمان بمنهج الله فهى لا بُدَّ متحققة كما تحققت مثلاً فى بدر .

فالحق - سبحانه وتعالى - يريد منا حين نكون مؤمنين به ومُصدِّقين لرسوله ألاَّ تكون لنا مشيئة فى غير ديننا ؛ لأن المشيئة فى غير الدين يمكن أن تكون فى أيدى الناس فلا يحققوها لك ، وربما مات المؤمن قبل أنْ يرى مشيئته بنصر دين الله فيدخر له ذلك فى الآخرة .

إذن : المهم عنده أن تكونَ المشيئة خاصة بنصر دين الله على مَنْ يكذبه ويخالفه ، وهذه المشيئة متحققة بدليل : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) ﴾ [الزمر] صحيح هناك عمل ، وهناك فضل ، وتشريع الجزاء على العمل من الفضل ؛ لأن ربنا حينما يثيبنى على شىء يعود علىَّ بالنفع يُعد هذا الجزاء زيادة ، والأصل أن يقول لى : لقد أخذتَ جزاءك منفعةً بالعمل الذى عملته ؛ لأن خالقك أعطاك كل الأسباب ، أعطاك الجوارح التى تعمل بها ، وأعطاك الأرض والمال والهواء والماء والطعام ، فإنْ أثابك على العمل كان من فضله .

والمحسن درجةٌ أعلى من المؤمن ، فالمؤمن يأخذ ما فرضه الله عليه ويُنفِّذه دون زيادة ، أما المحسن فهو الذى يؤدى ما فرض الله

عليـه ويزيد عليـه من جنس ما فـرض الله ، فمـثـلاً يصلى الصلوات الخمس ثم يزيد عليـها ما شاء من النوافل من صلاة الليل ، كـما قال سبحانه فى المحسنين :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(١) (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ولم يقل هنا (حق مـعلوم) لأن الحق المـعلوم هو الزكاة ، أمـا فى هذا المـقام فـالعبـد يُزكِّى مـاله ، ثم يزيد على ذلك ما شـاء من التطوع والصدقـات ، وهذه الزيادات ما طلبها منك ربك ، إنمـا تؤديها محبةً وتقرباً إليه سبحانه .

إذن : كلمة الإحسـان عند الله فيها نفس مـعنى الإحسان للناس . تقول : أحسنت إلى فـلان حين تعطيه أكثر من حقـه . وحين يجازى اللهُ المحـسنَ إنما يعطيه جـزاءَ إحسانه ، فإذا كـان العبد يحـسن فالله أَوْلَى وأكرم .

والحق سبحـانه أعطانا المثَل الحسِّى للإحـسان فى الأرض ، وما تُخرجه من ثمـراتها فأنت تضع فيهـا حبة القمح مثـلاً ، فتعطيك فى المقابـل سبعمائة حـبة ، فإذا كان هذا هو عطاء الأرض المـخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق سـبحانه ؟ فالمعنى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ (٣٤) ﴾ [الزمر] لمـاذا ؟ لأنهم كـانوا محـسنين ، وهذا جـزاء الإحسان .

وقوله :﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا (٣٥) ﴾ [الزمر] هذا أيضاً

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والتـهجاع : النومة الخفيفة . [لسان العرب - مادة : هجـع] . والسَّحَر : آخر الليل قبـيل الصبح والجمع أسـحار . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر . [اللسـان - مادة : سحر] .

من العطاء الخاص بدرجة الإحسان ، فكلمة أسوأ تدلّ على المبالغة وأقل منها السيئة ، فعندنا سيئة وأسوأ منها ، ولا شكَّ أن السيئة تنصرف إلى الصغائر ، والأسوأ تنصرف إلى الكبائر ، فكأن الذى دخل فى مقام الإحسان ضمن أن مقام الإحسان يكون له مثل مقاصَّة تُسقط عنه ذنوبه ، ليست الصغائر فحسب إنما الكبائر أيضاً ؛ لأن الذى يُكفّر الأسوأ يُكفِّر السيئة من باب أَوْلَى ، هذا لأنك أدخلتَ نفسك فى مقام لم يُطلب منك لمجرد المحبة لمن كلفك .

بل هناك عطاء أعظم من ذلك ، هو أن المسألة لا تنتهى عند تكفير الذنوب والسيئات ، إنما تُبدَّل إلى حسنات ، كما قال سبحانه :
﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. (٧٠) ﴾ [الفرقان]

فتأمّل درجات العطاء من الله ، والربح فى التجارة معه سبحانه .

وبنفس الإكرام والتفضل يجازى اللهُ المحسنين على حسناتهم ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) ﴾ [الزمر] فكما غفر لهم الأسوأ يجازيهم أحسن الذى كانوا يعملون ، أىْ : بأحسن من عملهم .

هذا العطاء من الله ، وهذا التكرم والتفضل منه على عباده شجَّع الشارد من دعوة الإيمان وحَثَّه على العودة إلى حظيرة الإيمان ، فليس هناك ما يحول بينه وبين ربه ، وليس فى الطريق حجر عَثْرة مهما كَثُرت الذنوب ما دام بابُ التوبة مفتوحاً .

والحق سبحانه حينما شَرَع التوبة للعاصين المذنبين شرعها لينقذهم من شراسة المعصية ، فلو قلنا للعاصى : ليس لك توبة ماذا يفعل (يفقد) كما نقول : فلان ده فاقد . يعنى : يئس من الإصلاح فتمادى فى الفساد وبالغ فى الضلال ، والحق سبحانه لا يريد لعباده

ذلك ، ففتح لهم بابَ التوبة ليعطفهم إلى دين الله ، فلا يزداد الانحرافُ فى المجتمع ، ولا تستشرى فيه المعصيةُ .

بعد أن أخبر رسول الله القومَ بهذا المنهج الإلهى فى الجزاء قال المعاندون لرسول الله : نخاف عليك يا محمد أنْ تمسَّك آلهتنا بسوء وقد أغضبتها ، سبحان الله يقولون هذا وهم يعلمون أنها حجارة لا تضر ولا تنفع ، ولما مسَّهم الضر ما وجدوا غير الله يلجئون إليه ؛ ولذلك نزل قوله تعالى :

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

يعنى : يا محمد ، لا تهتم بهذا الهراء فالله حَسْبك وكافيك ، والذى يدل على ذلك أن رسول الله كان يحرسه القوم من المؤمنين مخافة أن يناله المشركون بسوء ، ففوجئوا فى يوم أن رسول الله يسرحهم ويُنهى هذه الحراسة ويصرفها .

ولو لم يكُنْ رسول الله واثقاً أن الذى أمره بصرف الحراس كفيلٌ بحفظه وحمايته لما فعل ذلك فى نفسه ؛ لذلك رأينا المرأة الدنماركية وهى تقرأ فى سيرته ﷺ ، أنه أعظم العظماء الذين تركوا بصمة واضحة فى التاريخ ، وقلبوا ميزان الدنيا ، فلما جاءت عند هذه الحادثة وقرأت ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] وقرأت : ﴿ وَاللَّهُ

يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧)﴾ [المائدة] قالت : والله ما فعل محمد ذلك إلا وهو واثقٌ من حماية ربه له ، ولو خدع الناسَ جميعاً ما خدع نفسه ، وآمنتْ بسبب هذه المسألة .

قوله سبحانه : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (٣٦)﴾ [الزمر] يحلو للبعض أن يقول المعنى : أليس الله كافياً عبده ، ويعتبرون الباء زائدة ، وهذا غير صحيح ، فليس فى كلام الله تعالى حرف زائد ، فالهمزة هنا استفهام إنكارى ، والإنكار يفيد النفى ، بعدها ليس للنفى ونفى النفى إثبات .

يعنى : ننكر أن الله ليس بكاف عبده ، وما دُمْنا ننكر أن الله ليس بكافٍ عبده ، فالنتيجة أن الله تعالىً كافٍ عبده .

والحق سبحانه وتعالى : له اسم هو الله ، وله صفات هى التى عرفناها بالأسماء الحسنى ، ومن أسمائه الحسنى الكافى ، فالمعنى إذن : أليس الله موصوفاً بكاف عبده ، فكيف إذن نقول : إن الباء زائدة ؟

إن القول بزيادة الباء هنا يناقضُ بلاغةَ القرآن ، ولا يصح أن نقول : إن فى القرآن حرفاً زائداً ، البعض يتأدّبون مع كلام الله ويقولون : بل هو حرف صلة ، وآخرون يقولون : حرف لربط الوجود ، ولسنا فى حاجة إلى كل هذه التأويلات .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة ، فلو قلنا مثلاً : ما عندى مال ، (ما) هنا تنفى وجود المال الذى يُعتد به ، ولا تمنع أنْ يكون معى جنيه أو جنيهان مثلاً ، لكن لو قلتَ : ما عندى من مال أى : من بداية ما يُقال له مال ولا حتى مليم واحد إذن : حرف الجر هنا ليس زائداً فى الكلام ، إنما تأسيسى فى .لمعنى .

أما الذين قالوا بزيادة الباء فى ﴿ بِكَافٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] فقد اعتبروا (ليس) من أخوات كان التى ترفع الاسم وتنصب الخبر ، فلفظ الجلالة اسمها مرفوع وكاف خبرها ، فالتقدير : أليس الله كافياً عبده ، وهذا ينافى جلال القرآن وبلاغته .

وقوله : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] أى : بالأصنام ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : دعهم يقولون ما يقولون فقد أضلهم الله فمَنْ يهديهم ؟ ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر] هذا هو المقابل إذا هدانا الله الطريق ، فلن يُضلنا أحد ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : أليس اللهُ موصوفاً بالعزّة ، فالباء هنا كسابقتها .

والعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، وما دام هو سبحانه غالباً لا يغلب فاحذروا انتقامه لأنه ﴿ ذِى انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر] فمهما صنعتم بالفكر الفاسد والتبييت والائتمار فلن تغلبوه .

وعجيبٌ من الكفار أنْ يُخوِّفوا رسول الله بالأصنام ، وهم يعلمون حقيقتها وقولهم فيها : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر] كلام باطل لغة ، لأن العبادة طاعة العابد للمعبود فى أمره ونهيه ، وأى أمر أو نَهْى للأصنام ؟ إذن : هذا الكلام منهم هراء وباطل . لذلك سيدنا خالد بن الوليد لما ألانَ اللهُ قلبه للإسلام أراد رسول الله ﷺ أنْ يبعثه ليهدم العُزَّى ، فلما ذهب إليها خالد وأمسك بفأسه ليكسرها قال لها[1] :

يا عُزّى كُفْرانَك لاَ سُبْحَانَك ... إنِّى رأيْتُ اللهَ قَدْ أهَانَكْ

---

(١) أورده المرزوقى فى كتابه « الأزمنة والأمكنة » – الباب الستون . وكذلك ابن الكلبى فى كتاب « الأصنام » ، والجاحظ فى كتاب « الحيوان » فى فصل نار الاحتيال .

ولو كانتْ هذه آلهةٌ لخوَّفته ومنعتْ نفسها .

وقف بعضُ المستشرقين عند هذه الآية ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ (٣٦) ﴾ [الزمر] أى : بالأصنام ، وقالوا الأصنام : اللات والعُزَّى ومناة كلها أسماء مؤنثة ، فكيف يقول القرآن (بالذين) وهى للمذكر ولم يَقُلْ باللاتى ؟ ونقول : هناك فَرْقٌ بين اسم للصنم ومُسمَّاه ، يعنى : اسمه صنم . وهذا الصنم سُمِّىَ باللاَّت أو العُزَّى ، فمن حيث هو صنم يكون الجمع مذكراً ، ومن حيث المسمَّى مؤنثاً ، فالذين للاسم أى : للأصنام ، واللاتى للمسمَّى .

ونقف هنا عند هذه المقابلة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ (٣٧) ﴾ [الزمر] الضَّالُّ هو الذى لا يهتدى لغايته ، كالذى ضَلَّ الطريق لا يدرى أين يتجه ، هذا ضَالٌّ عن غير قصد للضلال لأنه لا يعرف .

وجاءت ضَالّ بمعنى متردد حائر ، فى قوله تعالى مُخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى] لأن النبى رأى أمته تفعل أشياء لا تعجبه ، وهو ما يزال لا يعرف الصواب الذى ينبغى فعْله ، أى : لا يعرف الحقيقة ، لا أنه يعرف ومنصرف عنها ، وفَرْقٌ بين الحالتين . إذن : الضلال هنا غير مقصود .

ويأتى الضلال بمعنى النسيان ، كما فى قوله تعالى :﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

ومن الضلال أنْ ننسى العهد الفطرى القديم الذى أخذه الله علينا فى قوله سبحانه :﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

ومقابل الضلال الهداية ، وهى أيضاً تأتى بمعَان متعددة ، لكن الذين يتوركون على كلام الله ، ويريدون أنْ يعترضوا عليه يأخذونها على معنى واحد ، يديرونه على كل موضوعاتها ، لكن هذا لا يصح .

فالهداية تُطلَق على الدلالة المطلقة ، يعنى : يدلك وأنت حُرٌّ تطيعه أو تعرض عنه . وضربنا مثلاً لذلك برجل المرور الذى يُرشدك ويدلّك على الطريق ، بعدها أنت حر تسلك أو لا تسلك ، فإنْ سلكتَ الطريق الذى دلّك عليه وشكرته على معروفه ، وقلت له : كثر الله خيرك لولاك لَضللتُ الطريق ، فإنه ينظر إليك نظرة أخرى ، ويراك أهلاً للمزيد من الخير . فيقول لك : والله أنت رجل طيب ، وسوف أسير معك حتى تمرّ من هذه المنطقة لأنْ فيها أخطاراً ، وهذه تُسمَّى المعونة ، فالذى يؤمن بمَنْ هدى ودلَّ أهلٌ لأنْ يُعان ، وأنْ يُوفق للمزيد من الهداية .

وهذا معنى قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] يعنى : زادهم بمعونتهم وتخفيف مشاقّ الطاعة عليهم ، وصَرْف أسباب الشر عنهم . إذن : فالأُولَى : هداية دلالة مطلقة . والثانية : هداية إعانة وتوفيق .

وهاتان الهدايتان أوضحهما الحق سبحانه فى خطابه لنبيه ﷺ ، فقال فى الأولى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى] وقال فى الأخرى : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ (٥٦) ﴾ [القصص] فكيف يثبت الهدايةَ لرسول الله فى آية وينفيها فى آية أخرى ، والحديث واحد ، والفاعل واحد ؟

قالوا : لأن الجهة مُنفكة فالهداية المنفية غير الهداية المثبتة ، فالحق يقول لنبيه محمد : أنت مُبلِّغ ومُرشد ودَالٌّ فحسب ، لستَ

واضعَ مناهجَ وليست لك قدرة على أنْ ترغم الناس أنْ يؤمنوا ، إنما عليك أن تبلغ لأن بلاغك هو هداية الله للناس ، لكن ليستْ مهمتك أن تُدخل الإيمانَ فى القلوب .

ومثلها قوله تعالى فى آية واحدة : ﴿ .. وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ⑥ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ⑦ ﴾ [الروم]

هكذا أثبت لهم العلم ونفاه عنهم فى نفس الآية ، لماذا ؟ لأن الجهة مُنفكَّة ، فالعلم المنفىّ غير العلم المثبت .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ③⑥ ﴾ [الزمر] يضلل الله يعنى : ينسبه للضلال يقول : هذا ضال . يعني : خارج عن الطريق الذى رسمته له ، هذا الذى حكم الله بأنه ضَالٌّ لا يمكن أنْ يصفه صاحب عقل بأنه مُهْتد . لأنه حين يعرض مطلوب الله منه وما يفعله يصل بالعقل الفطرى إلّى أنه ضال ، ليس بمهتد .

فالحق سبحانه مثلاً قال لنا : اصدقوا فى حديثكم . ونهانا عن الكذب ، فماذا يقول العاقل حين يقارن بين الصدق والكذب ؟ لابد أنْ يقول : الصدق هداية ، والكذب ضلال لا يستطيع أنْ يقول غير ذلك ، خاصة إذا جعل الأمر فى نفسه هو : أتحب أنْ يصدُقَ الناسُ معك ، أم أنْ يكذبوا عليك ؟

إذن : فمَنْ يُضلل الله ويحكم بأنه ضَالٌّ بعد أنْ بيَّن له الطريق لا يقدر أحد أنْ يصفه بالهدى ، لأن هداية الله أمرٌ تتفق فيه كل العقول الفطرية ، خصوصاً إذا مسَّك أنت عاقبة هذا الضلال واكتويتَ بناره .

لذلك تجد الكذاب يحب الصادق ، والشرير يحب الخيِّر الشريف وضربنا مثلاً لذلك بثلاثة من الشباب بالمراهقين الذين يسيرون فى الحياة على (حَلِّ شعرهم) ، ويسلكون الطريق البطال ، واحد منهم تاب الله عليه واعتزلهم ، فراحوا يسخرون منه ويصفونه بالجردل

والقفل .. الخ . ثم أراد واحد منهما أنْ يزوج أخته ، لمن يُزوجها لزميله الذى يوافقه على الشر والفساد ، أم للآخر الذى تاب واعتزل شرهم ؟ إذن : قد يُغريك الباطل ، لكن لا بُدَّ فى النهاية أنْ يغلب الحق ، وأنْ يظهر ويعلو ، ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ (٣٧) ﴾ [الزمر] فاصبر على طريقه .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) ﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُسفِّه أحلامهم فى أنْ يعبدوا أصناماً ، وأراد سبحانه أنْ يقيم عليهم الدليل والحجة على بطلان هذه العبادة ، وأنْ يكون هذا الدليلُ إقراراً منهم لا خبراً منه سبحانه ، وقلنا : إن إثبات الحكم إما أن يكون خبراً منك ، أو إقراراً من المقابل . والإقرار - كما قلنا - سيد الأدلة ، وأنت لا تترك للمخاطب أنْ يحكم هو إلا إذا كنت واثقاً أنه سيقول ما تريده أنت ، كما تقول لمن ينكر جميلك : ألم أُحْسن إليك يوم كذا وكذا ؟ لا تقولها إلا وأنت واثقٌ أنه لا يستطيع أنْ ينكر .

لذلك فالحق سبحانه يسألهم هنا عن عمدة الكون فى الخَلْق أو الظرف الأعلى الذى يحوى المخلوقات كلها وهو السموات والأرض ، فالإنسان خُلق له الكون قبل أنْ يُخلق ، فطرأ على أرض فيها زرع ونبات وماء وهواء وتربة صالحة ، وطرأ على سماء فيها الكواكب والنجوم والشمس والقمر .

فقال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.. (٣٨) ﴾ [الزمر] لا بدّ أنْ يقولوا الله ، والله وحده لأنهم أداروا فكرهم فلم يجدوا أحداً ادعى هذا الخَلْق ، ولم يأت ببال أحد من الكافرين أو المعاندين أو المنكرين لوجود الله لم يأت على باله أنْ يدّعى هذا الادعاء .

ولو تتبعنا خَلْق الإنسان من لَدُنْ آدم عليه السلام ومَنْ جاء من ذريته نجده طرأ على هذا الكون بسمائه وأرضه ، فلو سألناه : أأنت خلقت السماء والأرض ؟ لا يستطيع أنْ يقول : أنا خلقتهما .

فاسألهم أنت يا محمد هذا السؤال : ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ (٣٨) ﴾ [الزمر] ولابدّ أنْ يقولوا (الله) لأنه ما مرّت فترة على موجود ليس فى وجوده أرض وسماء ، حتى يُقال إنه أوجدها لما جاء ، بل الجميع طارىء على هذا الكون .

ومثلها تماماً : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧) ﴾ [الزخرف] لأن أول مخلوق خُلِق وأُوجد لا يستطيع أحد أنْ يقول له : أنا خلقتك ، ولا يقدر هو أنْ يقول خلقتُ نفسى .

وقولهم فى الجواب هنا (الله) يلفتنا إلى مسألة أخرى ، فالله لفظ دائر على ألسنتهم ويفهمون مدلوله وإلا ما نطقوا به ، ذلك لأن المعانى تُوجَد أولاً ، ثم تُوضع لها الألفاظ التى تدلّ عليها ، ومثّلْنا لذلك (بالتليفزيون) مثلاً ، فقبل أنْ يوجد ما كنّا نعرف هذا الاسم ، لكن لما وُجِد وضعنا له الاسم ، إذن : كلمة الله كيف دخلتْ لغة الناس ؟

إذن : فلفظ الجلالة الله له مدلوله ، وهو الحق سبحانه موجود قبل أنْ يُوجد هذا اللفظ . لذلك نقول لمن ينكر وجودَ الله تعالى : كلامك متناقض ، فقوْلك الله غير موجود لا يستقيم ، لأن الله مبتدأ

محكومٌ عليه وغير موجود خبر محكوم به ، فكيف تقول إنه غير موجود ، والمعنى يُوجد قبل لفظه ؟

وكلمة الله ما وُجِدَتْ في لغة إلا لأنه سبحانه موجود ، موجود قبل الاسم ونحن ما عرفنا الاسم إلا لما أخبرنا به صاحبه ؛ لأن عمل العقل في الإيمان أنْ يدلَّك على أن وراء هذا الكون خالقاً أوجده ، لكن ما هذه القوة ؟ وماذا تريد من الخَلْق ؟ هذه ليستْ مهمة العقل ، فالعقل لا يصل إليها ، إنما نعرفها بالبلاغ عن هذا الخالق .

تذكرون أننا مثَّلنا هذه المسألة قلنا : نحن مثلاً جالسون في منزل ثم دقَّ جرس الباب ، ساعة سمعنا الجرس اتفقنا جميعاً على أن أحداً بالباب ، لأن كل حدث لا بُدَّ أنّ له محدثاً ، لكن مَنْ هو ؟ ماذا يريد ؟ لا نعرف إلا إذا أخبرنا هو بماهيته وقال : أنا فلان ، وأريد كذا وكذا .

إذن : فالعقل بالنسبة للوجود الأعلى لا يدرك مُشخَّصات الوجود الأعلى ، إنما فقط يؤمن بوجوده ويستدل عليه ، وهو سبحانه يخبرنا باسمه وصفاته ومنهجه ومطلوباته ، فالبلاغ لا بُدَّ أنْ يكون من صاحب الشأن .

ومن خيبة الفلاسفة في البحث أنهم أرادوا أنْ يُدخِلوا العقل لا في المعقول فقط ، إنما في تصور المعقول ، والتصور ليس مهمتهم لأنك لا تستطيع أنْ تتصوَّر شكلَ هذا المعقول ، أنت تعقل الموجود فقط ثم تترك للوجود أنْ يتكلم عن نفسه .

لذلك (نقفشهم) حينما يقولون في العلوم : علوم مادية وعلوم وراء المادة ، وهي التي يسمونها (الميتافيزيقا) ، ومَنْ أعلمك أن وراء المادة شيئاً يُبحث عنه ؟ والقضية أنه لا يوجد شيء إلا بشيء إلى أن

نعرف هذا الشيء ، فإن لم يستدرك عليه شيء آخر يثبت له .

فالحق سبحانه قال وأخبر أنه هو الذى خلق هذا الخَلْق ، فهذا الوجود لا يوجد إلا إذا أوجده واجد وأنا الذى أوجدته ، ولم يَقُم لهذه الدَّعْوى معارض إذن : تثبت الدعوى لصاحبها إلى أنْ يُوجدَ معارض .

لذلك سبق أنْ قلنا : إن كلمة الكفر هى نفسها دليلُ الإيمان ، لأن الكفر معناه الستر ، ولا يستر إلا موجود ، فكأن الكفر طارئ على الإيمان ، كأن الأصل فى الفطرة السليمة الإيمان ، ثم طرأ عليه الكفر ليستره .

وبعد أنْ قالوا (الله) وأقروا الحجة الأولى فى أنه سبحانه خالق السموات والأرض قال لهم ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ.. (٣٨)﴾ [الزمر] يعنى : أخبرونى فأمّنهم أنْ يقولوا هم وأنْ يخبروا عن الذين يدعونهم من دون الله أى الأصنام ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ.. (٣٨)﴾ [الزمر] أى : الأصنام ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ.. (٣٨)﴾ [الزمر] الجواب لا يكون إلا بالنفى ، لأن الأصنام أولاً لا تسمع ضراعة مَنْ يتضرع لها ، ولا يدركون مطلوبه ، فكيف يجيبونه فى كشف الضر عنه ؟

وفى المقابل : ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ.. (٣٨)﴾ [الزمر] أى : الأصنام ﴿مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ (٣٨)﴾ [الزمر] الجواب أيضاً بالنفى ، إذن : ثبت النفع لله بإقرارهم ، وثبت البطلان لآلهتهم ، لكن إنْ تلجلجوا بعد ذلك فلم يجيبوك لأن الجواب سيلزمهم الحجة فَقُلْ : ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ.. (٣٨)﴾ [الزمر] أى : فى إيجاد النافع فى خَلْق السموات والأرض ، وحَسْبى الله فى دفع الضر عنى ، فهو يكفينى .

وهذا معنى قوله تعالى فى الآية السابقة : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (٣٦)﴾ [الزمر] كافيه يعنى : يعطيه النعمة نعمة الوجود أولاً ، ثم نعمة امتداد هذا الوجود واستبقاء الحياة ، ثم نعمة استبقاء النوع ، وبعد

ذلك يرفع عنه الضر إنْ أصابه ونزل به ، والإنسان إذا مسَّه الضر فى نفسه لا يتجه إلى إله باطل أبداً ، لأنه لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، لذلك قال سبحانه :﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر] هنا أسلوب قَصْر ، يقصر التوكل على الله وحده ، وهذا هو التوكل الحقيقى ؛ لأن المتوكل على شىء يجعل لقوته رصيداً إذا ذهبتْ هذه القوة ، لذلك فالعاقل هو الذى يتوكل على مَنْ يغيثه ويُعينه وإذا احتاج إليه وجده ، وقلنا : خاب مَنْ توكل على مثله لأنك تتوكل عليه ، وتأمل عنده قضاء حاجاتك ، وبعد أيام تقرأ نَعْيه فى الجرائد ، لذلك يُعلمنا ربنا سبحانه كيف نتوكل ، فيقول : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان]

وفرْق بين التوكل والتواكل ؛ لأن يد الله مُدَّتْ قديماً بالأسباب للخَلْق ، أسباب استبقاء الحياة بالطعام والشراب ، وأسباب استبقاء النوع بالتزاوج .

الحق سبحانه حينما ضمن لنا هذه الأسباب جعل لنا دوراً فيها ، فالأرض مثلاً أمامك ، والشمس تشرق عليها ، والهواء يهبُّ عليها ، والمطر يسقيها ، وعليك أنت أنْ تستغلَّ هذه الأسباب بأنْ تحرثَ الأرضَ وتبذر البذور وترعاها لتعطيك الأرض من خيراتها ، ولا تنتظر أنْ تجلس فى بيتك والأسباب تأتيك بالطعام تضعه على مائدتك ؛ لأن ربك خلقك وخلق لك الجوارح ، وجعلها تنفعل لإرادتك فيدُكَ يمكن أن تضرب بها ، ويمكن أن تمسح بها على رأس يتيم ، لسانك يمكن أنْ تنطق به كلمة التوحيد ، ويمكن أنْ تنطق به ما ينافيها .

لكن تذكَّر أن جوارحك خاضعة لمرادك فى الدنيا فقط ، أما فى الآخرة فلا ولاية لك عليها ، لأنها ستكون فى ولاية خالقها ، يوم

يقول سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (١٦) ﴾ [غافر] وعندها تتحرر جوارحك من ولايتك وتشهد عليك : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

هذه الأسباب وهذه الجوارح التى خلقها الله لك ما خلقها لتعطلها أنت ، فإنْ كان العمل فى إمكانك وطلبته من غيرك ، فهذا هو التواكل ، أنْ تهمل أسباب الله وتغفل عن هذه المملكة التى جعلها الله تدين لك وتطاوعك ، وتأتمر بأمرك لمجرد الإرادة ، هذه عزة متَّعكَ الله بها فى ذاتك ، فكيف تذلّ نفسك بالتوكل على مثلك ؟ وكيف ترد يد الله الممدودة إليك ؟

فإنْ أخذتَ بالأسباب ، وأعملتَ عقلك وجوارحك فيما أعطاه اللهُ لك فأنت متوكل ، وحقيقة التوكل أنْ تعمل بالجوارح وتتوكل على الله بالقلب ، وتوقَّع أنْ يصيبك الابتلاء فتعمل وتأخذ بالأسباب ولا تعطيك، كالذى يزرع الأرض وتأتى جائحة فتقضى على المحصول مثلاً .

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) ﴾

هنا تأمل هذا النداء : ﴿ يَٰقَوْمِ (٣٩) ﴾ [الزمر] فبعد عنادهم وإصرارهم على باطلهم وعدم قبولهم للحجج والبراهين ما يزال الحق سبحانه يتحنَّن إليهم ، فيأمر رسوله ﷺ أنْ يناديهم بهذا النداء الحبيب : (يا قوم) يعنى : أنا لستُ غريباً عنكم ، وأنتم أهلى وعشيرتى التى أعيشُ بينها .

لما دعاهم رسول الله فلم يستجيبوا ولم تفلح معهم الحجج والبراهين التى تثبت بطلان عبادتهم للأصنام ، أمره ربه أنْ يقول

لهم : ﴿ يَـٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ .. (٣٩) ﴾ [الزمر] معنى : اعملوا على مكانتكم كما تقول لمن لم يستجب لك : اعمل ما بدا لك . أو (أعلى ما فى خيلك اركبه) .

فالمعنى : اعملوا على مكانتكم . يعنى : خذوا كلّ إمكانياتكم ضدى . لماذا ؟ لأنه متوكل على ربِّه وهو كافيه ، فهو لا يقولها مجازفةً ولا استكباراً ، إنما يقولها برصيد من قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (٣٦) ﴾ [الزمر]

وكلمة ﴿ مَكَانَتِكُمْ (٣٩) ﴾ [الزمر] عندنا مكان ومكانة ، المكان هو : الحيز الذى يشغله الشىء . والمكين هو : الذى يشغل المكان ، فالكوب مثلاً مكان والماء فيه مكين ، فأنت ذاتك لك مكان تشغله حتى لو اضطهدك أحدٌ فأخرجك منه لا بُدَّ أنْ يذهب بك إلى مكان آخر .

فإذا اتسع بك هذا المكان وصارتْ لك سلطة على مكان أوسع منه لك فيه سلطان وأمر ونهى فهذه مكانة ، فيقال لمن اتَّسع جاهه وسلطانه : له مكانة . فالتاء الزائدة هنا يسمونها تاء المبالغة . كما نقول فى المبالغة فى العلم عالم وعلاَّم وعلاَّمة . فكلمة علاَّمة هى قمة العلم وتُقال لمن بلغ فى مجاله مبلغاً بحيث لا يخفى عليه منه شىء .

فإنْ قلتَ : فلماذا وصف الحق نفسه سبحانه بعلاَّم ، ولم يُوصَف بعلامة ؟ نقول : لأن علم الله تعالى لا تفاوتَ فيه ، ليس فيه جزئى وكلى ، فلا يُوصف الحق سبحانه بهذه الصفة .

ومن المكانة قوله تعالى فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ (٥٦) ﴾ [يوسف] أى : لم نجعل له مكاناً ، إنما جعلنا له مكانة وسلطاناً واسعاً ينقله هنا وهناك حيث يشاء ، والإنسان يكون له مكان فتأتى قوة تُمكِّنه فى

المكان ، كما في قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، وقد يكون له المكان فتأتي قوة فتُزيله عنه كما أخذني ورماني في زنزانة.

سبق أنْ قلنا : إن في اللغة همزة تسمى همزة الإزالة ، إذا دخلتْ على فعل تزيله ، كما تقول : أعجم الكلام ، يعني : أزال عُجْمته وأبان معناه ، ومن ذلك قول رسول الله في مناجاته لربه : « لك العُتْبى حتى ترضى »[1] يعني : إن كان حصل مني شيء يغضبك فأنا أُزيل عتابك عليَّ حتى أبلغ رضاك عني . ونقول : عتب فلانٌ على فلان فأعتبه يعني : أزال عتابه بأنْ يعتذر له أو يصالحه ، لأن العتب لوْم على شيء ما كان يصح بين المحبين ؛ ومن ذلك قوله تعالى في الكلمة التي معنا (المكانة) : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾ [الأنفال]

فمعنى (أمكن منهم) يعني : أزال مكانهم ، ونقول فلان تمكن من فلان . يعني : قدر عليه وأزاله عن مكانه أو مكانته .

إذن : فكلمة المكانة هي ما لك عليه سلطانٌ وولاية تُعينك على مرادك ، فالمكان إذا بالغتَ فيه فهو مكانة والتاء للمبالغة ، وتأتي أيضاً للجاه ينبسط على ما لا يدخل في ملْكك تصرفاً ، وإنما يدخل في ملكك مهابة ؛ لذلك لما قُتل مالك[2] قالوا : مالك كان يحمي مواقع السحاب . يعني : أينما تمرّ السَحابة وتمطر فمطرها يحميه مالك ، بحيث لا يعتدي عليه أحد ، وما كان هذا إلا لمكانته في القوم فحمى مواقع السحاب في غير بلاده .

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية في كلامه عن رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف لدعوة أهلها ، فتسافهوا عليه وأدموا قدميه ، فلما أوى إلى أحد البساتين رفع يديه وقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إلى آخر الدعاء .

(٢) ورد هذا الخبر في العقد الفريد لابن عبد ربه ، وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ، ونهاية الأرب للنويري . وعندهم جميعاً أنه كليب بن ربيعة .

وقوله : ﴿إِنِّي عَامِلٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الزمر] يعنى : أنتم اعملوا على مكانتكم واستطاعتكم فى العناد والاضطهاد والإيذاء ، فأنا عامل على مكانتى من الدعوة والنُّصْح لكم والحرص على هدايتكم ، فهذه رسالتى ولن أتخلّى عنها ، وسوف أبالغ فى نَشْرها وأتحمل اضطهادكم لى ولأصحابى ، ولن يُثْنينى شيء عن مرادى .

وقوله : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزمر] المعلوم هنا : ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر] أى فى الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر] أى : فى الآخرة ، وتأمل هنا كلمة سوف التى تدل على الاستقبال ، فلم يَقُلْ حالاً الآن ، لأن الإسلام بدأ غريباً وانتشر أول ما انتشر بين الضعفاء والعبيد الذين اضطهدوا وماتوا وأُوذُوا وأُخْرجوا من ديارهم وأموالهم فى سبيل دعوة الحق .

فأراد الحق سبحانه أن يُمحِّصَ أهل الإيمان الذين يحملون هذه الدعوة ، وأنْ يُميز منهم ضعافَ العقيدة ، وينفى عنهم أهل الخور والنفاق الذين لا يصلحون لحمل هذه الرسالة ، لذلك كان الوحى كل فترة ينزل على رسول الله بأمر عزيز ، وكلما نزل أمر من هذه الأمور نفى بعضهم حتى لم يَبْقَ حول رسول الله إلا صِحَاح الإيمان أقوياء العقيدة .

وفى هذه الآية تهديدٌ من رسول الله للقوم المكذِّبين بأحداث سوف تأتى ، هذا التهديد دليلٌ على ثقته ﷺ بأن مَنْ أوحى إليه بهذا التهديد قادرٌ على أنْ يُبرزه كما أخبر به ، وإلا لما قاله رسول الله ، لأن الزمن سيكشف صدق هذا التهديد أو عدم صدقه .

كذلك الأمر في الوعد يخبر به رسول الله قبل أوانه ، واقرأ هذا الوعد مثلاً : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] هذا وَعْد من

الله للمــؤمنين جـاء فى أشــد وأحلك الظروف وهم مـضـطهـدون لا يستطيعون حمايةَ أنفـسهم ، لذلك لما نزلتْ هذه الآية قال عمر رضى الله عنه : أيّ جمع هذا ونحن غـير قادرين على حماية أنفـسنا ؟ فلما رآها فى بدر قال : صدق ربى وصـدق رسوله ، وهذا الوعد لا يطعن فى الدعوة إنما يريد أنْ يؤكدها . إذن : صِدْق فى الوعد ، وصدق فى الوعيد .

وقلنا : إن صدق الرسـول فى أمور تتعلق بأمتـه شىء ، وصدقه فيمـا يتعلق بذاته شىء آخر ، صدقـه فيما يتعلـق بذاته آكد ، وذكرنا قصــة المرأة التى أسلمتْ حينمـا قرأتْ تفسـير قوله تعـالى لرسوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة] فلما أعطاه ربه الأمان وأنه لن يُغـتال من جـانب الناس صرف ﷺ حُـراسه ولم يُبْق عليـهم مع هذا الوعد [1] ، فوقفتْ هذه المرأة وقفـةً عقلية وقالت : لو أنه خدع الناس جميعاً ما خدع نفسه ، إذن : هذه ثقة من رسول الله بوعد الله .

وقوله تعـالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الزمر] ولم يقل ترون أو تنظرون ؛ لأن العلم أوسع وأعمّ من الـنظر ، فالأحـداث التى ستـأتى ربما تكون بعيدة من مَرْآهم تَحدث فى أماكن أخرى يراها البعض ولا يراها البعض ، أما العلم فينقل إليك مـا تقع عليه جوارحك ، وما تقع عليه جوارح الآخرين .

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسيره للآية ٦٧ مـن سورة المائدة من حديث عائشة رضى الله عنها : كان النبى ﷺ يُـحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المـائدة] . قـالت : فأخـرج النبى ﷺ رأسـه من القـبـة ، فقـال : « أيهـا الناس انصرفوا ، فإن الله قد عصمنى » . [حديث رقم ٩٦٦١] .

إذن : بالعلم تأخذ علم الغير ، أنت حينما ترى وتعقل تهتدى إلى الحكم بتصوّر العقل ، وبالعلم تستفيد بما عقله الآخرون . إذن : فالعلم أوسع دائرةً من معطيات العقل والجوارح .

وقوله : ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الزمر] كلمة مقيم جاءت لترد على كلام سبق أنْ قالوه هم ، لأن الحروب عندهم كانت تستمر طويلاً حتى أربعين سنة ، وتكون بينهم سجالاً يوم لك ويوم عليك ، فربما ظنوا العذاب كذلك فترة وتنتهى ، فأراد أنْ يؤكد لهم أن العذاب إذا حَلَّ بهم فليس فيه سجال كسجال الحرب ، إنما هو مقيم دائم .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى مرة يتحدث عن ذاته سبحانه بضمير الجمع (إنَّا) ومرة بالمفرد (إنى) أو (إننى) ، فإنْ كان الكلام فى قضية التوحيد جاء بالضمير المفرد كما فى قوله سبحانه لسيدنا موسى : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] لأنه يريد أنْ يقرر قضية التوحيد ، ويؤكد سبحانه أنه إله واحد لا شريك له . فإنْ كان الكلام عن أمر لله فيه عمل و لخلفائه فى الأرض عمل يأتى بالجمع كما هنا ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزمر]

وتأملوا حرف الجر فى (عليك) وفى (للناس) فلحروف الجر فى اللغة معَان واسعة ، كلمة (عليك) تدلُّ على أننى أحملك المسئولية أمَّا اللَّام فى (للناس) فتدلّ على النفع لهم ، كما نقول

فى الحسابات: له ، عليه ، فله تعطى نَفْعاً وعليه تعطى تبعات .

فكأن الحق سبحانه يقول : يا قوم يا مَنْ تسمعون لدعوة محمد اعلموا أنها لصالحكم وتعود عليكم بالنفع والغنيمة ، فقد أنزلنا عليه حملاً ثقيلاً سيتعبه فى ذاته وفى أهله ، وسيُعرِّضه للسخرية والإيذاء والتآمر .. الخ .

فالكتاب نزل عليك يا محمد بتبعاته ومسئولياته ، فتحمله وكُنْ من أولى العزم من الرسل الذين سبقوك ، مع أنهم أخذوا حيِّزاً محدوداً فى الزمان وفى المكان ، أما أنت فأخذتَ حيِّزاً غير محدود ، لا فى الزمان ولا فى المكان ، فحين تتحمّل المشاق فى سبيل دعوتك ، فاعلم أنك ستتحمل من الشدائد على قدر عموم رسالتك .

إذن : فدعوة الإسلام خيرها لكم ومتاعبها يتحملها رسول الله ، هذا معنى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزمر] أى : فى صالحهم .

وحين نُوسع الحروف ونقف على معانيها نأخذ مثلاً قوله تعالى فى أول سورة البقرة : ﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة]

فالمؤمنون على الهدى ، و (على) تفيد الاستعلاء وكأنه مطيّة تحملهم وتريحهم لا تتعبهم وتُوصِّلهم إلى غايتهم ، هكذا جاء الهدى ليريح الناس ويحملهم إلى أشرف الغايات ، فالزموه لأنه ما جاء ليُحملكم ما لا تطيقون ، إنما جاء ليخدمكم .

وقوله سبحانه : ﴿ بِالْحَقِّ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزمر] الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والحق يعنى وضع الشىء فى موضعه ، فإذا زحزحتهُ عن موضعه فأنا الطارىء عليه ، والحق لا بُدَّ أنْ يعود إلى

موضعه مرة أخرى ، وإنما هى ابتلاءات واختبارات لنُمحِّص جنود الحق لتكون عندهم الأهلية لأنْ يحملوا الدعوة إلى أنْ تقوم الساعة .

والحق سبحانه يعلمنا : إنْ رأيتَ الباطل علا وارتفع فخُذْ لك واقعة ، وخُذْ لك عبرةً من الأشياء المحسَّة التى تقع تحت بصرك فى أصل الحياة وهو الماء ، فالماء ينزل من السماء على قمم الجبال فيأخذ معه إلى الوديان القش والحصى والزبد ، فتتكون طبقة من الريم تعلو الماء وهى حقيرة لا قيمةَ لها حتى إذا ما هبَّتْ الرياح أزاحتْ هذا الزبد هنا وهناك وبقيتْ صفحة الماء نظيفة ناصعة ، هكذا يكون علو الباطل عُلواً مؤقتاً ، وسرعان ما يعود الحق إلى نصابه .

والحق سبحانه ما سمح للباطل بأنْ يعلوَ إلا يظهر للناس ميزة الحق ، فحين يُعضّ النَاسُ بالباطل ، وحين يؤلمهم يضجون منه ويشتاقون للحق ، فكأن الباطل جندٌ من جنود الحق .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ (٤١) ﴾ [الزمر] أى : لصالحها ، لأن المشرع سبحانه حين شرع لنا وبعث لنا الرسل وأنزل الكتب ما انتفع من ذلك بشىء ، وهو سبحانه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، لأنه بصفات الكمال المطلق أوجدك ، بل وأوجد لك قبل أنْ يستدعيك للوجود ، فبصفة الكمال فيه خلق ، فهو سبحانه خالق قبل أنْ يخلق شيئاً ، كما تقول : فلان شاعر ، يعنى : شاعر قبل أنْ تسمع منه شعراً ، لأنه ما قال الشعر إلا لأنه شاعر .

إذن : الحق سبحانه لا ينتفع من عبادة الناس بشىء ، والفائدة كلها تعود عليهم هم ، لأنهم صنعته ، والصانع يريد لصنعته أنْ تكون على ما يرام وعلى خير حالٍ من بدايتها إلى نهايتها إليه سبحانه .

وما دام الشرع والمنهج جاء لصالح البشر ، فمَن اهتدى فالهداية تعود إليه ، ومَنْ ضَلَّ فضلاله عليه ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴿٤١﴾﴾ [الزمر] وتأمل هنا أيضاً معنى حرف الجر فى ﴿فَلِنَفْسِهِ ﴿٤١﴾﴾ [الزمر] وحرف الجر (عليها) ، فنَفْع الهداية لك ، وضرر المعصية عليك .

وقوله : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الزمر] أى : ما أنت يا محمد عليهم بوكيل ، والوكيل هو مَنْ يكون حُرَّ التصرف فيمن وكل عنهم ، بحيث يستطيع أنْ يجبرهم ، وأن يحملهم على ما يريد هو .

والحق سبحانه وتعالى ما أراد لنبيه ﷺ ذلك كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴿٤٥﴾﴾ [ق] إنما أراد له أنْ يكون داعياً بالحسنى ، بحيث يأتى إليه الناس بالحب طواعيةً ، ولو شاء لجعلهم كالملائكة وطبعهم على الطاعة .

لذلك الكون الذى رضى أنْ يأتمر بأمر الله بدون اختيار له فى شىء كان حكيماً واعياً ؛ لأن المتحمل قد يضمن نفسه ساعة التحمل ، لكن لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، والفارق بين مسلك الناس فى الأمور أنهم يختلفون فى إدراك المسئولية ساعة التحمل وساعة الأداء ، وكل فساد بين الناس فى التعامل إنما منشؤه هذه المسألة .

وسبق أنْ مثّلنا لذلك بالأمانة أودعها عندك لحين عودتى مثلاً من السفر فتقبلها عندك ، وحين أعود لا أجدها ، فقد يطرأ عليك من الظروف ما يجعلك تتصرَّف فيها ، وهنا تظهر حكمة الجمادات التى أبتْ أنْ تتحمل الأمانة ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) ﴾ [الزمر] فيه تسليةٌ لسيدنا رسول الله ﷺ فكأنّ ربه يقول له : لا تُتعب نفسك ، ولا تُحملها فوق طاقتها ، فما عليك إلا البلاغ ، فإنْ نالك شيء من أذاهم فاعلم أنه لا يُنقص من مكانتك عندهم ، فأنت عندهم الصادق الأمين ، وهم يعلمون أنك على الحق ، ومنزلتك عندهم كبيرة ، ورأيهم فيك من أحسن الآراء ، فلا تحزن لقولهم فيك : شاعر وساحر ومجنون : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فكأنَّ الحق سبحانه جعل المسألة عنده سبحانه وأعفى منها رسول الله ، فأنت يا محمد لا غبارَ عليك ، وما كذبك المكذِّبون الظالمون إلا لأنهم جحدوا بآياتي .

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾

سبق أنْ قلنا : إن أحداً لم يشهد عملية الخَلْق لأن الخالق سبحانه لم يستعنْ بأحد كما قال سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

إذن : كيفية الخَلْق لا يعرفها أحدٌ ، ولولا أن الخالق أخبرنا بها لَظلَّتْ غيباً ، فإنْ أردتَ أنْ تعرف كيفية الخَلْق فخُذْها من خبر مَنْ خلق ، وإن ادَّعَى أحد معرفتها من غير هذا الطريق ، فاعلم أنه من

المضلين الذين أخبَر الله عنهم ، وسمَّاهم مضلين قبل أن يُوجدوا ، وأىُّ ضلال أعظم من القول بأن الإنسان فى أصله قرد وتطوَّر ؟

فكأن الحق سبحانه يعطى لخَلْقه المناعة التى تحميهم من هجمات أهل الضلال ، فيخبرهم بأمرهم أولاً ويُحذِّرهم منهم ، يعنى : تنبَّهوا فسوف يخرج عليكم أناس فى ثوب علماء أو فلاسفة يقول خُلِق الإنسان كذا وكذا فلا تُصدِّقوهم لأنهم ما شهدوا عملية الخَلْق .

والحق سبحانه وتعالى حين يطرح قضية عقدية للعقول فيها عمل ، لكن قد تقف العقول فى أشياء منها يكمل ما تقف فيه العقول بالسماع ، السماع ممَّنْ ؟ ممن اعتقدتَ به بعقلك ، إذن : ليس بالضرورة أن يقتنع عقلك بكل شىء إنما يترك لك مسائلَ لا تقتنع بها إلا لأنها خبر ممَّنْ اقتنعت به .

لذلك قلنا فى أول سورة (يس) : إن المسائل كلها عقائد وأمور لسانية وأمور أحكام ، كل منها تأخذ العمل العقلى والعمل الغيبى ، لكن العمل الغيبى دليله من العمل العقلى .

الحق سبحانه وتعالى حينما أخبرنا عن قصة الخلق قال : إن الإنسان خُلِقَ من تراب اختلط بالماء فصار طيناً ، ثم صار هذا الطين حمأً مسنوناً ، ثم صار الحمأ المسنون صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الحق سبحانه من روحه فدبَّتْ فيه الحياة وتحرك .

هذه أطوار الخَلْق التى أخبرنا بها الخالق سبحانه ونحن لم نرها ، لكن أوجد فى مُحسَّاتنا وفى مُدركاتنا ما يؤدى الصدق بهذه المراحل ، وعلينا نحن أنْ نأخذ مما نشاهده دليلاً على صدق ما غاب عنَّا . كيف ؟

الخالق سبحانه كما خلق الحياة خلق الموت ، ولما أخبرنا بهما جعل الموت أولاً فقال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك]

وقدَّم الموت حتى لا نستقبل الحياةَ ببطر وغرور ، إنما نستقبلها ونحن نعلم أننا صائرون إلى الموت ، منتهون إليه . ويجب أنْ نعلم أن الدنيا بالنسبة للإنسان ليست هى بطولها من لدن آدم حتى قيام الساعة ، إنما الدنيا بالنسبة لك هى مقدار مُكْثك فيها ، وحتى هذا العمر مظنون وليس مضموناً ، فمن الناس مَنْ يولد ويموت بعد لحظة ، وآخر بعد شهور ، وآخر بعد سنين .

لذلك قال أحد الصالحين : وعلمت أن لى أجلاً يبادرنى فبادرته ، وعلمتُ أنى لا أخلو من نظر الله طرفةَ عَين فاستحييت أنْ أعصيه ، وعلمتُ أن لى رزقاً لا يتجاوزنى وقد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، فهكذا ينبغى أن يكون أسلوبك فى الحياة ، فأنت فيها ضيف لستَ أصيلاً .

لذلك قال أهل المعرفة : اجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك - الذى يُواليك بالنعم كل يوم - واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه طرفةَ عين ، واجعل خضوعك لمَنْ لا تخرج عن ملكه وسلطانه .. هذه أصول يجب أنْ نسير عليها ، ومبدأ نلتزم به . والموت كما قلنا نقيض الحياة ، فإذا لم نكُنْ قد شاهدنا مراحل الخَلْق فقد شاهدنا بالتأكيد مراحل الموت ، فخُذْ من هذا دليلاً على هذا .

تعلمون أن نقضَ أىِّ بناء يكون على عكس بنائه ، فلو أردنا مثلاً هدم عمارة من عشرة أدوار ، فإننا نبدأ بهدم الدور العاشر وننتهى بالدور الأول ، على عكس البناء ، كذلك الموت يبدأ بخروج الروح ، وهى آخر شىء فى عملية الخَلْق ، ثم يتصلب الجسد ، فيكون أشبهَ

بالصلصال ، ثم يرمّ وتتغير رائحته مثل الحمأ المسنون ثم يتحلل ويعود إلى الطين والتراب .

إذن : إنْ كانت عملية الخَلْق غيباً عنا كما قال سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ (٥١) ﴾ [الكهف] فعملية الموت شاهدناها .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٤٢) ﴾ [الزمر] الأنفس جمع النفس ، والنفس هى مجموع التقاء مادة الجسد بالروح ، بحيث تنشأ منهما الأغيار الموجودة فى الجوارح ، فالمادة وحدها لا تُسمَّى نفساً ، والروح وحدها لا تُسمَّى نفساً .

ومعنى ﴿ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ (٤٢) ﴾ [الزمر] أى : يقبضها إليه سبحانه . وتوفِّى الأنفس له ظاهرتان : النوم والموت ، ففى النوم يسلب الإنسان الوعى والتمييز ، وتبقى فيه الروح لإدارة حركة الحياة فيه واستبقائها ، فإذا استيقظ من نومه عاد إليه وَعْيه وعقله وتمييزه ، أما فى الموت فالله يتوفَّى الكل : الوعى ، والتمييز ، والأصل ، وهو الروح والجسد ، فالجسم فى النوم لا يزاول شيئاً حتى المخ الذى يجب أنْ يظل عاملاً لا يعمل فى النائم إلا كلّ سبع ثوان .

ولذلك لما تتوقف حركة الجسم تنخفض فيه درجة الحرارة ويحتاج إلى تدفئة ، لذلك ننصح النائم بأنْ يتغطى لأن الحركة مفقودة ، وينبغى أن نحفظ للجسم حرارته ، البعض يظن أن الغطاء هو الذى يُدفىء النائم ، لكن العكس هو الصحيح فحرارة الجسم هى التى تُدفىء الغطاء ، وعمل الغطاء أنْ يحفظ لك حرارة الجسم حتى لا تتبدد ، بدليل أنك تذهب إلى فراشك فتجده بارداً ، وحين تستيقظ من نومك تجده دافئاً

وقلنا : إن الإنسان يمرُّ بحالات : يقظة ، نوم ، موت ، بعث . ولكل مرحلة من هذه المراحل قانونٌ خاص ، فإياك أنْ تخلط قانوناً بقانون ، فمثلاً الإنسان منا وهو نائم يفقد الوعى والتمييز ، ومع ذلك يصبح فيذكر رُؤْيا رآها فيها أشكال وأشخاص وألوان يستطيع التمييز بينها وكأنها يقظة ، فبأىِّ شىء أدرك هذه المدركات وميَّز بين الألوان وعينه مغمضة ؟

قالوا : لأن للنائم أدوات ووعياً غير التى له فى اليقظة ، فيرى لكن ليس بالعين . إذن : فى حالة الموت يكون له وعى آخر ، البعض يتعجب وربما ينكر أنْ يضم القبرُ الواحد جسدين أحدهما يُنعَّم والآخر يُعذَّب ، فلماذا لا تنكر مثل هذا فى النوم مثلاً ، فأنت تنام مع غيرك فى فراش واحد يرى هو أنه فى رحلة ممتعة فيها مَا لَذَّ وطابَ ، وترى أنت أنك فيه تُضرب أو تمر بحادث مؤلم ، لا هو يدرى بك ولا أنت تدرى به .

وقوله : ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] أى : لا تعود إلى الجسم ﴿ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] أى : فى حالة النوم يعود إليك الوعى والتمييز ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] إلى الأجل المعلوم الذى قدَّره الله لك فى اللوح المحفوظ .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] ساعة تجد الذى يخبرك بشىء ينبه فيك أدوات التمييز بين المقولات التى هى العقل والفكر والذكر والتدبر ، فثقْ بأنه ناصح لك لا يغشك ولا يُدلِّس عليك ، لأن الذى يريد غشَّك يأخذك على عجلة و (يكلفتك) ، حتى لا تدرى وجه الصواب ولا يعطيك الفرصة للبحث وتأمل الشىء .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ببائع القماش إنْ كان صادقاً يعلم جودة

بضاعته ، فإنه يختيرها لك فيأخذ (فتلة) من الصوف مثلاً ويحرقها أمامك ، لترى بنفسك أنه صوف مائة بالمائة ، أما الآخر فيحاول أنْ يلف ويدور ويخدعك بحيله حتى لا تكتشف فساد بضاعته ، فالأول واثق من جودة البضاعة ، وأنك مهما فعلت بها فسوف تصل إلى مراده .

فساعةَ يقول الحق سبحانه (أفلا تعقلون) ، (أفلا تتذكرون) ، (أفلا تتفكرون) فاعلم أنه يهيج عندك أدوات البحث والتأمل والاختيار بين البدائل ، ولا يصنع ذلك معك إلا وهو واثق أنك لو استعملتَ هذ الأدوات فلن تصل إلا إلى مراده منك .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزمر] استفهام إنكارى . يعنى : ما كان يصح أنْ يتخذوا من دون الله شفعاء ، فالحق ينكر عليهم بعد أن استمعوا إلى كل هذه الحجج والبراهين ، ثم يتخذون من دون الله شفعاء ، ولماذا الشفعاء من دون الله ؟ قالوا : لأن الذى يعبد غير الله يُرجِّى نفسه بأنه مُتدين ، والتديّن طبيعة فى النفس البشرية من أخْذ الله عليها العهد فى ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]

لذلك جاء الرسل مُذكِّرين أى : يُذكِّرونتا بهذا العهد الأول الذى غفلنا عنه واقرأ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه وتعالى ينكر عليهم أنْ يتخذوا الشفعاء من دون الله ، ويدعوهم أن يرتجعوا عن هذا الأمر المؤسف ، لأن اتخاذ الشفعاء من دون الله أمر فيه تناقض لأنهم شفعاء عند مَنْ ؟ عند الله ، كما قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ (٣) ﴾ [الزمر] إذن : اتخذوا الشفعاء ليشفعوا لهم عند الله ، فلماذا لا يتجهون إلى الله مباشرة دون واسطة ؟

ثم إن الشفاعة لا تُقبل إلا بشروطها ، وليس كل مَنْ أحبَّ أن يشفع تُقبل شفاعته ، فالشفاعة ليستْ بمرادك ، بل يُشترط فى الشفاعة أنْ يأذن الله للشافع أنْ يشفع ، وأنْ يرضى عن المشفوع له ، وأنْ يكون من أهل التوحيد ، إذن : هذه الشفاعة التى يرجونها شفاعة باطلة و لا تُقبل عند الله .

لكن لماذا لا يتوجَّهون إلى الله بالعبادة دون واسطة ؟ قالوا : لأن للحق سبحانه وتعالى فى عبادته تكاليف قد تشقّ على النفس ، وللمنهج قيود افعل كذا ولا تفعل كذا ، وهم يريدون تديناً بلا تكاليف ، وآلهة بلا منهج وبلا أوامر ، صحيح أنهم يعبدون الأصنام على هواهم . لكن إنْ حزبهم أمر وضاقتْ عليهم السبل فى أنفسهم لجئوا إلى الله الإله الحق ، إذن : أُوبُوا إلى الله قبل ألاَّ ينفع المآب .

وكلمة الشفاعة منها الشفع والوتر ، الشفع أنْ تضم وتراً إلى

وتر ، فيصيران شفعاً . يعنى : زوجاً . وقلنا : إن المستشرقين وقفوا عند آيتين من كتاب الله فى مسألة الشفاعة ، وحاولوا أنْ يثيروا حولهما شبهة عدم بلاغة القرآن ، وهما قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة]

والأخرى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾ [البقرة]

وقالوا : أى الآيتين أبلغ من الأخرى ؟ فإنْ كانت إحداهما بليغة فالأخرى إذن غير بليغة ، ثم ما الحكمة من التقديم والتأخير فى الآيتين ، والمعنى واحد ؟

وهذا كله من هؤلاء نتيجة عدم فَهْم اللغة ، وعدم وجود الملَكة التى تتذوّق وتفهم عن الله .

ونقول : أنتم أهملتم صدر الآية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ (٤٨)﴾ [البقرة] فعندنا نفسان : نفس جازية أو شافعة ، ونفس مجزىٌّ عنها أو مشفوع لها ، فأيّهما الشافعة وأيهما المشفوع لها ، إنْ أردتَ النفس المشفوع لها فالمشفوع لها تقدم العدل أولاً فلا يُقبل منها فتستشفع بمَنْ يشفع لها .

وهذا قوله تعالى : ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ (١٢٣)﴾ [البقرة] فإنْ أردتَ النفس الشافعة ، فالشافع يتقدم بشفاعته أولاً ، فإنْ لم تُقبل شفاعته قدَّم العدل ، يقول : فلان هذا كم تطلب منه وأنا أدفع عنه . إذن : الآيتان بليغتان كُلٌّ حَسْب المعنى المراد منها .

استُهلَّتْ هذه الآية ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ..(٤٣)﴾ [الزمر]

بـ (أَمْ) ، وهى تفـيد عطف ما بعـدها على ما قـبلها ، كـأننا قلنا : أكانَ ذلك أم اتخـذوا ؟ والكلام السابق هو قـوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** ..(٤٢)﴾[الزمر] فإذا كنتم قـد وُدعْتم بقوة حـياتكم وقدرتكم على الحـركة والأسبـاب والتحوّل فـاعلمواَ أن الله يعطى لكم نموذجاً للموت ينتظركم من خلال النوم الذى تباشرونه .

هذا المـوت وأنتم فى يقظة شىء ، وحـين تنامـون شىء آخـر ، فالذى يقدر على سَلْب الحياة من التـميّز والوعى والحركة مع الخارج (أى مع الغير) قادر على أنْ يسلبهـا جميعاً ؛ لأن النوم يسلب منك الحركـة والتميز مـع الغير ، وإنْ بقيتْ لك الـحركة فى ذاتك كحـركة القلب والرئتين والأمعاء .. الخ فإذا كـان الله قد قدر على هذه الجزئية فيك ، فهو سبحانه يقدر على الأخرى وهى الموت .

فالـمعنى : أأمنتُم ذلك ؟ وإنْ لم تأمنوه وسـوف تموتون وتلـقوا الله ، فلماذا تتخذون الشفعاء ؟ وما الذى طمأنكم لذلك ؟ وما رصيدكم فى اتخاذكم الشفعاء ؟ يعنى : أحصل ذلك أم اتخذتم شفعاء ؟

قلنا : الشـفـيع من الشَّـفْع ، وهى أنْ تضم شـيـئـاً إلى شىء ، فيـصير زوجاً بعـد أنْ كان وحده ، والله سبـحانه يريد أنْ يُنهى هذه المسـألة ، وأنْ يُبيِّن لهم بطلانهـا ، فقال لهـم : إن الذين تدعُون من دون الله لا يملكون أنْ يشـفـعـوا وإنْ ملكوا الشـفـاعـة كمـا تَدْعُـون الملائكة ، وكالذين يدعون عيـسى أو العُزَير فهم لا يرضون بها ولا يشفعون لكم .

وإنْ كـانوا من الجـمـادات فهم أقـرب منكـم إلى الله وأعلم منكم بأصـول الشفـاعة ، فـهى لابُدَّ أنْ تتأبى علـيكم وتكرهكم ، وإنْ كنتم تملكونهـا وتنتـفعـون بهـا ؛ لأن هذه الجمـادات مُنسـجمـة مع الكون مُسبِّحة لخالقها فلا تقـبل إلا مُسَبحاً ، وما انقادتْ لكم هذه الجمادات

إلا لأن الله سخَّرها لكم ، وجعل لكم إرادة تسيطرون بها عليها بمراد الله وأمره كما سيطرتم على جوارحكم ، سيطرتم على اللسان فقلتم به كلمة الكفر ، وسيطرتم على الأيدى ، فبطشتُم بها وظلمتم .. الخ .

فهؤلاء جميعاً لا يرضَوْنَ أنْ يشفعوا لكم لأنكم مخالفون لهم فى المنهج ؛ لذلك يكرهونكم فكيف يشفعون لكم ، لذلك قال تعالى :﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. (٢٩) ﴾ [الدخان]

فأثبت للسماء وللأرض بكاءً ، فإنْ كانت لا تبكى على هؤلاء المخالفين فهى ولا شكَّ تبكى على المناقضين لهؤلاء المتفقين معها فى العقيدة والمنهج ، إذن : فالسماء والأرض وغيرهما من الجمادات لها تمييز وإلا ما بكتْ على أهل الطاعة ولم تَبْكِ على أهل المعصية .

حتى نحن فى التعبير الأدبى نقول : فلان نَبَتْ به الأرض يعنى : كرهتْ إقامته عليها ، لماذا ؟ لأنه متمرد على الله مخالفٌ لمنهجه وهى مُسخَّرة مُسبِّحة ؛ لذلك إنْ مات لا تبكى عليه . بل لسان حالها يقول له : أراحنا الله منك ، أراح الله منك البلاد والعباد .

وقد فسَّر لنا الإمام على رضى الله عنه هذه المسألة حين قال : إذا مات المؤمنُ بكى عليه موضعان : موضع فى السماء وموضع فى الأرض ، أما موضعه فى السماء فمصعد عمله الطيب . أى : المكان الذى يُرفَع فيه عمله الصالح ، كما قال سبحانه ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (١٠) ﴾ [فاطر] وأما موضعه فى الأرض فمُصلاّه .[1]

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم أن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل علياً رضى الله عنه : هل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مصلًى فى الأرض ومصعد عمله من السماء وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء ، ثم قرأ على رضى الله عنه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان]

إذن : الذى جعلهم يتكلون ولا يخافون من الموت أنهم اتخذوا الشفعاء ، وظنوا أنهم يدافعون عنهم ، لكن (نقبهم على شونة) لأن الشفاعة ليستْ بمراد الشافع إنما بمراد المشفوع عنده ، وهو سبحانه الذى يأذن للشافع ويرضى عن المشفوع له . لكن هل يحتاج مَنْ رضى الله عنه إلى شفاعة ؟

قالوا : الإنسان قد تكون نواحى الخير فيه قليلةً ، لكن يتوفر لهذا القليل شرطُ الإخلاص فينميه ويُثمِّره ويجبر الله عنده هذا النقص بأنْ يأذن لأحد المحبوبين عنده أن يشفع له .. وهذه الشفاعة ما شرعها الحق سبحانه إلا ليقبلها ويلطف بها .

لذلك قالوا : إياك أنْ تحتقرَ عملاً صالحاً مهما كان يسيراً ، فمَنْ يدريك لعله يكون سبباً فى نجاتك .

وورد فى الحديث : « إن الله أخفى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى رضاه فى طاعته » فلا تحقرنَّ طاعة ما فقد غفر الله لرجل سَقَى كلباً يلهث من شدة العطش ، وسقاه بجهد واحتيال حين لم يجد شيئاً يخرج به الماء فخلع خُفَّه وسقى به الكلب[1] . ولو سقى هذا الرجل إنساناً لقُلْنا إنه سقاه لعلة ، أو له عنده جميل ، إنما سقى كلباً . وهذا يدل على أن العمل فيه إخلاص ، لأنه لا ينتفع من الكلب بشىء ، إنما تأصل السقاء فى نفسه ، فهو يحبه بصرف النظر عن المسْقَى ، فالرجل طُبع على الخير ولا يعنيه لمن يُقدم هذا الخير .

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يارسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠/٤٣٨) (حديث رقم ٦٠٠٩)، وكذا مسلم فى صحيحه كتاب السلام باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها (٤١) حديث (١٥٣/٢٢٤٤) .

الثانية : « وأخفى غضبه فى معصيته » فقد دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها وسقتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض [(١)] . فكما أنك لا تحقر طاعة قد يكون فيها نجاتك ، كذلك لا تحقر معصية فقد يكون فيها هلاكك .

الثالثة : « وأخفى أسراره فى خلقه » ؛ فلا تحقرنّ خلقاً ما .

وقوله سبحانه : ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر] أى : هؤلاء الشفعاء ﴿لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر] يعنى : كيف تطلبون شفاعتهم ، وهم على هذا الوصف ؟ ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر] لأن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه ، يأذن للشافع ويرضى عن المشفوع له ، فالشفاعة كلها لله وحده ، لأن ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر] ؛ فالمتكبّر المتأبّى على منهجى سيرجع إليّ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

كلمة (اشْمأزَّتْ) يعنى : نفرتْ . والإنسان حينما يسمع شيئاً لا يحبه يشمئز يعنى : يظهر على سحنته الامتعاض ، ثم تحدث منه نفرة وقشعريرة كئيبة ، ثم ينصرف عن هذا الشيء ، كذلك حال

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٤٥٧) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦١٩) كتاب البر والصلة من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ولفظ مسلم « دخلت امرأة النار من جراء هرة لها ربطتها فلا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض ، حتى ماتت هزلاً » .

هؤلاء لما سمعوا ذكر الله وحده نفرتْ نفوسهم ، وانقبضوا عن توحيد الله ، لكن لماذا ؟

قالوا : لأنك ذكَّرته بمَنْ يثق تمام الثقة أنه يملك ضُره ونفعه ، وإلا لو لم تكُنْ لديه هذه الثقة ما أثَّر ذكر الله فى نفسه ، إذن : اشمأزتْ قلوبهم لأنهم خافوا من شيء ، وساعةَ سمعوا ذكر الله تذكّروا جلاله وقدرته وعظمته ، وتذكّروا أنهم مُقبلون عليه واقفون بين يديه ، ولم يعملوا لهذا الموقف .

وكلمة ﴿وَحْدَهُ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر] تدل على مَيْلهم إلى الشركاء ، فالمعنى : لو ذُكر الشركاء ما اشمأزتْ قلوبهم . واشمئزاز القلوب أمر غيبى ينضح على الوجه بالانفعال ، فيبدو على الوجه أنه منقبض انقباضاً مؤلماً ، والآية لم تذكر لماذا اشمأزت قلوبهم مما يدل على أن القلبَ هو المحرك الذى يعطى الجوارحَ الانفعال بواقع الأشياء عليها ، فمثلاً تقابل شخصاً فتجد نفسك مبتهجاً ، وآخر تقابله فتجد نفسك مُهتماً أو منقبضاً عنه ، فمن أين هذه الانفعالات ؟ من القلب .

وقوله : ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ..﴿٤٥﴾﴾ [الزمر] أى : الشركاء ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر] أى : يفرحون ، لماذا ؟ لأنهم يظنون أنهم يشفعون لهم ، لكنهم خائبون فى هذه ، وخائبون فى هذه .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ(١) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

---

(١) فطر الخلق : خلقهم وبدأهم . والفطرة : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : ما كنت أدرى ما فاطر السماوات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها . أى : أنا ابتدأتُ حفرها . [لسان العرب – مادة : فطر]

هذا أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بعد أن ذكر الوعد لأهل الخير ، والوعيد لأهل الشر ، واستوفى الأمرين مع الجماعتين ، قال لرسوله بعد أنْ بلغت الوعد والوعيد : ليس لك إلا أنْ تلتجئ إلى الله ، فهو سبحانه وحده الذى يحكم بينك وبين هؤلاء ، لأنك استنفدتَ معهم كل أوجه الدعوة الحسنة والبلاغ الجميل ، وما داموا مُصرِّين فدَعْهُم إلى أنْ يحكم الله بينك وبينهم يوم القيامة .

ولا تحزن يا محمد ، لأن الله لا يحكم إلا بالحق ، وثقْ أنه الذى اختارك للرسالة ، وأنه ناصرك ومُظْهر دينك ، وسوف ترى هذه النُّصْرة فى الدنيا قبل الآخرة ، وفعلاً رآها الرسول قبل موته .

واقرأ قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١)﴾ [الرعد]

أى : ننقص أرض الكفر ونقصان أرض الكفر زيادةٌ فى أرض الإيمان ، وهذه آية رأوْهَا بأعينهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا (٤١)﴾ [الرعد] فكان عليهم أنْ يأخذوا من ذلك عبرة ، وأنْ ينتهوا عن عنادهم ، ويعلموا أن الله ناصرُ دينه ومُتم أمره ، فكلّ يوم يمرّ كانت أرض الإيمان تزداد ، وأرض الكفر تنقص ، ومحمد يأتيه الموالى والفقراء والمساكين ، ثم أتاه بعد ذلك الكبراء والصناديد والأعيان[1] .

الحق سبحانه وتعالى يُعلِّم رسوله ﷺ ، ويُعلِّمنا كيف ندعوه ، فقال : (قُلْ) أى : يا محمد (اللهُمَّ) يقول سيدنا سعيد بن المسيِّب[2] : لا أجد فى القرآن آية أرْجَى لداعى من قوله سبحانه :

---

(١) هذا القول هو الذى عليه جمهور المفسرين . قال ابن عباس : أولم يروا أنَّا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٢٠) عدة أقوال منها : نقصان أهلها وبركتها - نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض - الموت - موت العلماء والفقهاء وأهل الخير منها . ثم قال : القول الأول أوْلَى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية .

(٢) الذى فى تفسير القرطبى (٨/ ٥٩١٠) أن هذا القول لسعيد بن جبير ، ونصه : إنى لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ (٤٦) [الزمر] وما علمه الله أن يدعو إلا لسبقه فى القدر أنْ يجيب . إذن : الحق سبحانه لم يترك رسوله يدعوه بلفظ من عنده إنما علَّمه بمَ يدعو ، فلا بُدَّ أنْ يُكتبَ له القبول ، كما لو أن شخصاً أعطاك المفتاح ، هذا يعنى أنه يقبلك أنْ تدخل المكان .

وهنا يجب أن نقف على روعة الأداء البيانى وعظمة الدعاء والنداء فى (اللَّهُمَّ) وهى عبارة عن لفظ الجلالة (الله) أُلحقتْ به ميم مُشدَّدة للدعاء والنداء ، ونحن نعرف أن النداء طلبُ إقبال المخاطب على المتكلم ، وللنداء حروف معروفة حسب قرب المنادى أو بُعْده من المنادَى ، فنقول فى نداء القريب : أمحمد . وفى نداء البعيد : يا محمد والأبعد : أيا محمد .. الخ .

إذن : فحرف النداء نفسه يحدد موقع المدعو ، فهل يجوز استخدام هذه الحروف فى نداء الحق سبحانه فنقول مثلاً : يا الله ؟ إنه من الأدب فى نداء الحق سبحانه ألاَّ نناديه سبحانه كما ننادى غيره لأنه سبحانه أقربُ إلينا من حبل الوريد ، فلا يصح أنْ نقول : يا الله أو أيا الله ، فهذه مراتب للبُعْد والله قريب .

لذلك لا تجد القرآن يستخدم هذه الحروف أبداً فى ندائه سبحانه ، إنما استخدم اللهم للدعاء ، وعلَّمنا أنْ ندعوه بها ، وقد ألحق بها الميم المشدَّدة بدلاً من حروف النداء قبل الاسم المنادى ، فالميم عوَضٌ عن حرف النداء المحذوف فدلَّتْ الميم المشددة على النداء ، وعلى ذلَّة الطلب منك .

وحين نستقرئ القرآن الكريم نجد أن كلمة الله وردت بالرفع ٩٨٥ مرة ليس فيها دعاء إلا باللهم فى خمسة مواضع هى : هذه الآية التى

معنا ، ثم قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ..(٢٦)﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾ [المائدة]

وقوله : ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وقوله : ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

أما فى نداء الربوبية فنقول : يارب ، وفَرْقٌ بين نداء لفظ الجلالة (الله) وبين نداء لفظ الربوبية (رب) ، فالألوهية تكليف أما الربوبية فعطاءٌ ومنعم ، فما دام الربُّ معطى نعمة . فنقول فى ندائه : يارب لأن الربوبية إيجادٌ من عدم وإمداد من عُدْم وتربية ، إذن : أنت المستفيد فى عطاء الربوبية ، أما الألوهية فتكليف بافعل ولا تفعل .

وكلمة ﴿فَاطِرَ..(٤٦)﴾ [الزمر] أى : خالق ومُبدع ومُوجد الوجود من العدم على غير مثال سابق يعنى : أمر ابتكارى جديد فإنْ كان الإيجاد على مثال سابق يعنى محاكاة فلا يسمى (فاطر) .

وقوله ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٤٦)﴾ [الزمر] اختار السماوات والأرض ، لأنها الكائن الذى لا يغيب عن الإنسان ، فالأرض تُقلُّه والسماء تظله فهو لا ينفكّ عنهما لحظة من حياته ، وهناك نِعَم أخرى قد تغيب عن الإنسان فى وقت كالماء مثلاً .

﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.. (٤٦)﴾ [الزمر] يمتنُّ الحق سبحانه بعلم

الغيب ، فكيف يمتنُّ بعلم الشهادة ، وهى معلومة للناس مُشاهدة ؟

قالوا : لأن الله غيْبٌ ، وقد نفهم أن هذا الغيبَ كالغيب بالنسبة لك، فأنت تشاهد مَنْ معك فى البيت ، لكن لا تشاهد مَنْ هو خارج البيت ، فهو بالنسبة لك غَيْبٌ ، لكن الحق سبحانه يعلم الغيب ويعلم المشَاهد ما غاب عنكم والمشهود لكم ولغيركم .

وقوله :﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) ﴾ [الزمر] هذا هو المرجع النهائى فى الخلاف بين الحق والباطل ، يوم الفتح الذى كان ينتظره هؤلاء ويستعجلونه ، بل ويستهزئون به كما قال سبحانه حكايةً عنهم :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

وقولوا : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) ﴾ [السجدة] فيردّ عليهم الحق سبحانه : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) ﴾ [السجدة] يعنى : لو جاءكم هذا اليوم فلن ترجعوا بعده مرة أخرى لتجدوا إيماناً ولا توبة .

ونلحظ هنا أن القرآن استعمل كلمة (عباد) للدلالة على الفريقين : المؤمنين ، والكافرين ، والغالب أن تستخدم كلمة العباد فى الطائعين الملتزمين بالمنهج كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

فهل يُقال للكافرين والعاصين أيضاً عباد ؟

قالوا : نعم : لأن الإنسان له وضعان بالنسبة لربه تعالى : وَضْع له فيه اختيار ، وهى قوة الاختيار التى خلقها الله فى الإنسان بحيث يفعل ما يشاء ، حتى إنه يفعل ما لا يريده منه ربه سبحانه . هناك

وَضْع آخر ليس له فيه اختيار ، وهى الأمور القهرية التى لا اختيارَ للعبد فيها .

فالإنسان مثلاً قد يتمرد على منهج ربه ، وقد يخالفه ويشذ عنه ، فنقول له : ما دُمت قد ألفتَ التمرد فتمرد على كل شيء ، تمرد على المرض تمرد على الموت .. إنه لا يستطيع ، لأنها أمور قهرية لا اختيار له فيها . إذن : فهو فى هذا الوضع محكوم بالعبودية قهراً ، فهو لا يخرج عن عبوديته لله حتى لو كان كافراً ، وحين نقول للكافرين (عباد) فلأنهم فى شق من تصرفاتهم لا يتأبَّوْنَ فيه على الله ، بل هم فيه مقهورون .

لذلك قال تعالى عنهم فى الآخرة : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان]

هذا خطاب للمضلِّين فسمَّى الضالين عباداً ، لماذا ؟ لأن الكلام هنا فى الآخرة حيث يستوى الجميع ، فالكل هناك طائع صالح مؤمن ، كلهم فى الآخرة عباد وعبيد . أما فى الدنيا فكلهم عبيد وبعضهم عباد .

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

تذكرون أننا قلنا فى الحديث عن الشفاعة أن المذْنب يُعرض على ربه عز وجل أن يدفع الفدية ليغفر له فلا يُقبل منه عدل ، فيأتى بمَنْ يشفع له فتُردّ شفاعته ، فلنفرض أن عنده الدنيا بحذافيرها يملكها ويقدمها عدلاً لسيئاته ، بل أكثر من ذلك ، عنده ما فى الأرض جميعاً

﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ (٤٧)﴾ [الزمر] مع أن هذه الحالة لم تحدث لأحد ، لكن على فرض أنها حدثت وقدَّم العاصى ذلك كله ليفتدى نفسه من عذاب يوم القيامة فلن يُتقبل منه .

وقوله سبحانه :﴿لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٤٧)﴾ [الزمر] يدل على أن الإنسان قبل أن يُؤمِّنَ لنفسه النعيم يريد أنْ ينجوَ من العذاب فهذا هو الأهم ؛ لذلك الرجل المغرور صاحب الجنتين فى سورة الكهف لما اغترَّ بعمله وظنَّه صالحاً قال :﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف] يعنى : سيعطينى أفضلَ مما كان عندى ، وهذا غرور والعياذ بالله .

لذلك تجد الغنى حين يُصيبه مرض شديد والعياذ بالله يقول : خذوا كلَّ ما أملك وأعيدوا إلىَّ عافيتى ، يريد أن يتخلص مما هو فيه من المرض أولاً ، كذلك حال أهل المعاصى فى الآخرة .

ومعنى ﴿مِن سُوءِ الْعَذَابِ (٤٧)﴾ [الزمر] أى : من العذاب السيء ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٤٧)﴾ [الزمر] ثم يُفاجئهم ما لم يكُنْ فى حُسْبانهم ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧)﴾ [الزمر] بدا يعنى : ظهر لهم ؛ لأن الإنسان مهما تخيل فى الدنيا فلن يتسع تخيُّله لما يأتى الله به فى الآخرة .

لذلك سيدنا محمد بن المنكدر [1] قال : لقد خوَّفتْنى هذه الآية لأننى أخشى حين أموت أن يبدو لى ما لم أكن أحتسب [2] ذلك لأن

(١) هو أبو عبد الله القرشى التيمى المدنى محمد بن المنكدر بن عبد الله ، كان من معادن الصدق يجتمع إليه الصالحون ، حافظ سيد القراء ، مُجمع على ثقته وتقدمه فى العلم والعمل ، توفى سنة ١٣٠ هـ (تذكرة الحفاظ ١/١٢٧، ١٢٨)

(٢) ذكر هذا الخبر القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩١١) أن محمد بن المنكدر جزع عند موته جزعاً شديداً ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال : أخاف آية من كتاب الله ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧)﴾ [الزمر] فأنا أخشى أن يبدو لى ما لم أكن أحتسب . وذكره أيضاً الذهبى فى تذكرة الحفاظ (١/١٢٧) .

الإنسان كثيراً ما يفعل سيئات دون أن يشعر بها ، أو دون أنْ يعلمَ أنها سيئات ، أو قد يفعلها وينساها ، وهذه التى قال الله فيها ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۝٦﴾ [المجادلة]

وقد يُزيِّن لك الشيطانُ السوءَ فتراه حسناً وما هو بحسن ، كل هذا ستُفاجأ به فى الآخرة .

وأول ما يفاجئ الكافرين يوم القيامة أنهم لن يجدوا الآلهة التى عبدوها من دون الله ولن تشفع لهم ، حتى سادتُهم وقادتهم الذين أضلوهم سيتبرأون منهم : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ۝١٦٦﴾ [البقرة]

بل إن السادة المضلين سيسبقون الأتباع إلى النار كما حكاه القرآن : ﴿هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ۝٥٩ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝٦٠ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ۝٦١﴾ [ص]

ولو دخل التابع قبل سيده لتعلَّق فكره به وظنَّ أنه سيأتيه ويُخلِّصه ، لكنه سيدخل فيجده قد سبقه ، وعندها تنقطع منهم الآمال ، وتكتمل الحسرة والندامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤٨﴾

قوله ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أى : ظهر لهم وبَانَ لهم (سَيِّئَاتُ) هل الذى يظهر لهم فى الآخرة السيئات ، أم عقوبة السيئات ؟ قالوا :

الذى يرونْه فى الآخرة هو عقوبة السيئات ، لكن قال ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا (٤٨)﴾ [الزمر] لأن الجزاء من جنس العمل ، فالعقوبة هى أيضاً سيئات ، كما قال سبحانه : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] لأن معنى السيئة هو الأمر الذى يسوء ، فكما أساء هو فى العمل فى الدنيا نُسيئه فى الآخرة .

وكلمة ﴿ مَا كَسَبُوا (٤٨)﴾ [الزمر] سبق أنْ أوضحنا هذه المسألة وقُلْنا : إن القرآن يستخدم كسب فى الخير واكتسب فى الشر ؛ لأن الخير يأتى من الإنسان طبيعياً لا تكلُّفَ فيه ولا احتيال ، فيأتى على وزن (فعل) . أما الشر فيحتاج من فاعله إلى تكلّف وسَتْر واحتيال ، فعبَّر عنه بما يدل على الافتعال وهو (افتعل) أو اكتسب .

ومثَّلْنا لذلك بالإنسان حين ينظر إلى أهل بيته أو محارمه وفيهن الجميلات مثلاً ، فهو ينظر نظرةً طبيعية لا يسترها ، ولا يخاف فيها شيئاً ، أما إنْ أراد أنْ ينظر إلى امرأة أجنبية عنه فإنه يُخفِى هذه النظرة ، ويحتال لذلك بكل وسيلة .

إذن : لماذا استخدم القرآن هنا لفظ كسب فى مجال السيئات ، وهى كما أوضحنا اكتساب ؟ ومثله قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ .. (٨١)﴾ [البقرة]

قالوا : استخدم القرآنُ كسب فى السيئات لأن صاحبَ السيئة قد يتعوَّد عليها حتى تصبح طبْعاً فيه وعادة ودُرْبة ، بل وتصبح بالنسبة له مهارة تصل إلى حَدِّ التباهى بها والعياذ بالله ، وهؤلاء يفعلون السيئة دون تكلّف ودون سَتْر ، فهى فى حقه كسبٌ لا اكتساب ، ومثال ذلك المجرمون الذين اعتادوا الجريمة وتمرَّسوا بها ، فهى

بالنسبة لهم عملية طبيعية ، وساعة يعمل السيئة يعدّها مكسباً له .

وقوله : ﴿وَحَاقَ بِهِم (٤٨)﴾ [الزمر] أى : نزل بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)﴾ [الزمر] هذا المعنى أوضحه الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

نعم .. كثيراً ما نرى ونسمع استهزاء أهل الباطل من أهل الحق وسخريتهم منهم وتندّرهم عليهم ، ويصل الأمر إلى أنْ يتهموهم بأنهم على ضلال ، سبحان الله ؟ لكن عزاء أهل الحق أن هذا الاستهزاء فى الدنيا الفانية ، وإنْ صبروا عليه كان لهم الأجر ، وسوف يُرد هذا الاستهزاء وهذه السخرية فى الآخرة الباقية ، حيث يسخر أهل الحق من أهل الباطل ويضحكون منهم ، بل ويخاطبهم الحق سبحانه ليطيب خاطرهم : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾[المطففين] يعنى : هل قدرنا أنْ نُجازيهم بما يستحقون ؟

قالوا : استهزاء الشرير بالخيِّر ، وسخريته منه ثأر من طيبته لشريرته ، لأنه لا يستطيع ولا يقدر أنْ يكون مثله فيسخر منه ويستهزئ به لعله ينصرف عمَّا هو فيه من الخير ويذهب إلى الشر ، لكن العاقل يفهم هذه المسألة ويعلم أن هذا الاستهزاء غيظ وحقد وحسد فيصبر عليه وهو يعلم أنَّ له بكل سخرية وبكل استهزاء منزلةً عند الله ، وله على ذلك عوَض .

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ[1] نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠)﴾

رأينا المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى وقالوا : إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زُلْفى .. إذا ما طرأ لهم طارئ أو جَدَّ فى حياتهم شىء فوق طاقة أسبابهم لا يلجئون إلى الأصنام ، ولا إلى الآلهة التى عبدوها من دون الله ، إنما يلجئون إلى الله ويضرعون إليه سبحانه ليكشف عنهم ما هم فيه ، وليرفع عنهم البلاء ، لماذا ؟

لأن هذه هى الفطرة السليمة التى فطر اللهُ الناسَ عليها ، والعهد الذى أخذه الله علينا جميعاً ونحن فى عالم الذرِّ حين قال سبحانه : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ (١٧٢)﴾ [الأعراف] والإنسان لا يخدع نفسه ولا يسلمها ، فإذا أحاط به شر لا تنهض الأسباب لدفعه قال : يا رب وعندها ينسى كبرياءه ، وينسى عناده ، وينسى تكذيبه للرسل ولا يجد إلا ربه وخالقه وإلهه الحق .

وصدق الله :﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا

---

(١) خوَّله كذا : ملَّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوَض . [القاموس القويم ١ / ٢١٤] . وخوَّلك الله مالاً . أى : ملَّكك . وخوَّله المال : أعطاه إياه . وقيل : أعطاه إياه تفضّلاً . [لسان العرب – مادة : خول] .

نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء]

ونلحظ أيضاً أن الإنسان حينما يقع فى كرب لا يقدر على دفعه بنفسه ينادى مَنْ حوله ، فإذا لم يُجِبْه أحدٌ يقول يا هوه ، ومعناها : يا هو يا مَنْ ليس هناك غيره ، والمراد الله سبحانه وتعالى .

وقوله ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر] أى : أعطيناه ﴿ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : إنْ أعطيناه نعمة بعد هذا الضر الذى مسَّه سرعان ما ينسى ويعود إلى صلَفه وغروره الحياتى ، لأنه يخاف أن مسألة رفع الضر عنه تُقربه من ربه الذى دعاه ، وأن هذا الجميل الذى ساقه إليه ربُّه يعيده إلى الجادة وإلى الاستقامة .

فالاستقامة تكاليف ومسئولية هو يكرهها ، ولا يريد أنْ يُقيِّد نفسه بها ، لأن التكليف معناه مَنْع النفس عن شهواتها ، وحملها على الطاعات فهو يخاف أن تأسره هذه المسألة ، أو تقيد حريته فى الشهوات ، لذلك قال الحق سبحانه عن الصلاة : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر] لها وجهان : إما على علم من الله أنِّى أستحق هذا الخير وإلا ما أعطانى - هذا إنْ كان يعتقد أن الله هو الذى يعطى - أو على علم منى ، لأن عندى دقَّةً فى التعامل ويقظة ، وعندى تجربة ودراية بالأمور ودراسة للنتائج .

وهنا يصحح له ربه ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : هذه النعمة فتنة من الله ، فلا هى لعلم الله أنك تستحق ، ولا هى نتيجة لعلمك ومهارتك ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : ابتلاء واختبار . كما قال سبحانه : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء] نبلو

بالشر لنرى مَنْ يصبر ، ونبلو بالخير لنرى مَنْ يشكر ومَنْ يطغى .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠) ﴾ [الفرقان]

يعنى : كلٌّ بعض منا فتنة للبعض الآخر ، فالغنى فتنةٌ للفقير ، والقوىُّ فتنة للضعيف ، والعكس صحيح ليختبر الحق سبحانه خَلْقه : مَنْ يصبر ومَنْ يجزع ، مَنْ يشكر ومَنْ يكفر ، مَنْ يرضى ومَنْ ينقم.

إذن : ينبغى على الإنسان أنْ يقوم فى حركة حياته ما أقامه الله ، فكل ما يُجْريه عليه خير ، فإذا رأيتَ نعمة عند غيرك وليست عندك فاعلم أن الله ما فضّل هذا عليك ، وأنت بصبرك على ما قُدِّر لك وعدم حقدك على أخيك تستطيع أنْ تكون أفضل منه .

وتختم الآية بقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) ﴾ [الزمر] أى : هذه الحقائق التىَ ذُكرتْ لا يعلمها الكثيرون ، وهذا يعنى أن القلة تعلم .

ثم يوضح الحق سبحانه أن هذه المسألة ليستْ كلمة نظرية ، إنما هى حقيقة لها واقعٌ فى تاريخ السابقين ، فيقول : ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) ﴾ [الزمر] نعم قالها قارون ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى (٧٨) ﴾ [القصص]

ونقول : ما دمتَ قد أوتيته على علم ، سواء علم من الله أنك أهلٌ لهذا الخير أو علم عندك ومهارة فى العمل والتناول ، فها هى النعمة بين يديك ، وما عليك إلا أنْ تحفظها ، وحفْظ الشىء الموجود بين يديك أيسَرُ من إيجاده من العدم ، فهل تستطيع ؟

والمعنى أننى لا أقول لكم كلاماً نظرياً ، بل هو واقع يؤيده التاريخ ، فقد قالها قارون واغترَّ بها ، ثم خسفنا به وبداره الأرض.

وهنا نشأتْ قضية : إذا كنتَ قد أوتيته على علم فاحفظه أيضاً على علم ، لكنْ ما دام الأمر قد تخلَّى عنك فى الحفظ وهو يسير ، فأنت فى الإيجاد أشدّ تخلياً .

نعم ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) ﴾ [الزمر] لأن الله خسف بقارون وبداره أيضاً ، فلم تذهب النعمة والثروة فحسب ، بل طال الانتقام حتى الأرض والمكان الذى يعيش عليه ويبيت فيه ويستريح عليه .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) ﴾

قوله تعالى ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا (٥١) ﴾ [الزمر] أى : السابقون الذين قالوا هذه الكلمة من قبل ، أصابهم ونزل بهم ما كسبوا من السيئات ، يعنى : هم فعلوه بأنفسهم ، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ (٥١) ﴾ [الزمر] أى : المعاصرين ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) ﴾ [الزمر]

والمعجز هو الذى يعمل عملاً يتحداك به ، وتعجز أنت عن الإتيان بمثله ؛ لذلك نسمى آية صدق الرسل فى البلاغ عن الله معجزةً ، لأنها أعجزتْ المكابر المكذِّب ، أما الذى آمن بمجرد البلاغ وصدَّق به فلا يحتاج إلى معجزة ، والمعجزة يُشترط لها أن تكون مقرونة بالتحدى ، لماذا ؟

قالوا : لأنك حين تتحدَّاه وتخبره أنك ستعمل عملاً لا يقدر هو عليه فإنك بذلك تشحن مواهبه ليستعدَّ للمواجهة ، وعندها تستطيع أن

تقيم عليه الحجة ، أما إنْ فاجأته بالتحدى فله أنْ يقول لك : والله لو فكرت فى المسألة ، أو لو كانت فى بالى لفعلتُ . إذن : معجز يعنى يصيب الغير بالعجز عن مجاراته .

وقلنا فى المعجزة : إنها ينبغى أن تكون من جنس ما نبغ فيه القومُ ، ومناسبة للعصر الذى نتحدى فيه ، لأنك لو تحديتَ قوماً بشىء لا علمَ لهم به ولا دُرْبة لكان لهم أنْ يقولوا : لو كنا نعلم هذا لفعلناه ، وإلا لما كان للتحدى موضع .

وقد أعطانا القرآن الكريم نموذجاً للتحدى حينما تحدّى العرب وهم أهْلُ اللغة وأرباب الفصاحة والبيان ، تحدَّاهم أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن ، وحين نتأمل هذا التحدى نجده يتدرج تنازلياً ، وكلما تنازل فى تحدّيه يعلو فى إعجازه ، لأنه أول ما تحدَّاهم تحدَّاهم بمثل هذا القرآن ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة من مثله .

ليس هذا وفقط ، إنما يُخرِج التحدى من الإنس إلى الجن ؛ لأن العرب وإنْ كانوا أمة كلام وفصاحة إلا أنهم نسبوا للجن قدرةً أعلى على الفصاحة والبلاغة ، بدليل أنهم إذا نبغ منهم شاعر وأجاد قالوا : إن الجن يُوحى إليه بهذه المعانى ، واعتقدوا أن هذا الجن يسكن وادى عبقر [1] كما يقولون .

لذلك أخرج القرآن التحدِّى من دائرة الإنس إلى دائرة الجن ، فقال سبحانه : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء] أى : معينا ومساعداً .

---

(١) قال ابن الأثير : عبقر قرية تسكنها الجن فيما زعموا ، فكلما رأوا شيئاً فائقاً غريباً مما يصعب عمله ويدق أو شيئاً عظيماً فى نفسه نسبوه إليها فقالوا : عبقرى . ثم اتسع فيه حتى سمى به السيد والكبير . [نقله ابن منظور فى لسان العرب - مادة عبقر] .

لذلك كانت معجزة سيدنا موسى عليه السلام نوعاً من السحر ، لأن قومه نبغوا فيه ، وكانت معجزة سيدنا عيسى أنْ يبرئ الأكمه [(١)] والأبرص بإذن الله ، لأن قومه نبغوا فى الطب .

وكلمة ﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) ﴾ [الزمر] أى : فى الهرب والإفلات من العقوبة ، لأنهم فعلوا أشياء تستحق العقوبة ، فإذا أخذناهم للعقاب فلن يُعجزونا . يعنى : لن يفلتوا منا ؛ لأن المسألة بالنسبة لنا قد يكون غريمك فى يدك وفى نفس مكانك ، وقد يهرب منك إلى مكان آخر ، لكن بالنسبة للحق سبحانه فهو فى كل مكان ، وإلا فدلَّنى على مكان ليس فيه الله سبحانه وتعالى ، إذن : كيف الهرب ؟ وإلى أين ؟! فإنْ تواجدتم معه فلن يعجز عنكم ، وإنْ هربتم فلن يعجز عن الإتيان بكم .

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) ﴾

لأن قارون اغترَّ بماله وجاهه ، وما كان فيه من غنى وزَهْوة فى قومه ، حتى قال ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عندى (٧٨) ﴾ [القصص] فأراد الحق سبحانه أنْ يُصحح له المسألة ولمَنْ كان على شاكلته ، فقال سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (٥٢) ﴾ [الزمر] يبسط يعنى : يُوسِّع على مَنْ يشاء ، ويقدر يعنى : يُضيق على مَنْ يشاء ويقبض ، وكما نقول : يعطى مَنْ لا حيلَةَ له ليتعجب مَنْ له حيلة.

(١) الأكمه : مَنْ وُلد أعمى ، أو فقد بصره فهو أكمه . [القاموس القويم ٢/١٧٥] . أما البرص فهو مرض جلدى يُحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة .[القاموس القويم ١/٦٤] .

إذن : المسألة فى الرزق والعطاء ليست شطارة ومهارة فى تناول الأشياء ، إنما هى قدر قدَّره الرازق سبحانه .

وقد ورد فى الحديث القدسى قوله تعالى : « يا ابن آدم .. خلقتُك للعبادة فلا تلعب ، وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب ، فإنْ أنت رضيتَ بما قسمتُه لك أرحتُ قلبك وبدنك وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ لم ترْضَ بما قسمتُه لك فوعزّتى وجلالى لأُسلطنَّ عليك الدنيا تركض فيها ركْضَ الوحوش فى البرية ، ثم لا يكونَ لك منها إلا ما قسمتُه لك وكنتَ عندى مذموماً »[1]

فالرزق قسمه الرازق سبحانه ، ولا يُشترط له مهارة ولا رجاحة عقل وحُسْن تفكير ، لذلك قال أبو العتاهية[2] :

يُرزَقُ الأحْمَقُ رزْقاً واسعاً وَتَرى ذَا اللُّبِّ محرُوماً نكد[3]

والحق سبحانه وتعالى يرزق الإنسان من حيث لا يحتسب ، لذلك يُحكى أن رجلاً راعياً وهو يسير فى الطريق إذ عثرتَ رجْله بحجر ، فوجد عنده بئراً فجعل يتحسَّس ما فى البئر ، فوجد شيئاً له صوت (شخشخة) كصوت الذهب والفضة ، فبحث عنه فوجدها غرارة[4]

(١) ما وجدته فى نحو هذا ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٢٤) من حديث عرفجة بن أسعد أن الله تبارك وتعالى يبتلى عبده بما أعطاه ، فمن رضى بما قسم الله عز وجل له بارك الله له فيه ووسعه ومن لم يرْضَ لم يبارك له .

(٢) هو : إسماعيل بن القاسم أبو إسحاق الشهير بأبى العتاهية ، شاعر مكثر سريع الخاطر ، فى شعره إبداع ، كان ينظم المئة والخمسين بيتاً فى يوم ، ولد عام ١٣٠ هـ فى عين التمر قرب الكوفة ونشأ فى الكوفة وسكن بغداد ، يُعد من مقدمى المولدين من طبقة بشار وأبى نواس. توفى ببغداد عام ٢١١هـ عن ٨١ عاماً [الأعلام للزركلى ١/ ٣٢١] .

(٣) البيت لأبى العتاهية من قصيدة عدد أبياتها ١٢ بيتاً من بحر الرمل ، أولها :

ما رأيت العيش يصفو لأحد دون كد وعناء ونكد
كن لما قدمته مغتنماً لا تؤخر عمل اليوم لغد

[الموسوعة الشعرية]

(٤) الغرارة : بكسر الغين الظرف (كجوال) مثلاً يُحمل فيه التبن وما أشبهه . قاله أبو حيان التوحيدى فى (البصائر والذخائر) .

مملوءة بالذهب والفضة فأخذ منها ما يملأ جيوبه وما يستطيع حمله ، وترك الباقى فى مكان يعلمه ليعود إليه حين الحاجة .

وبعد فترة نفد ما معه من المال ، فجاء إلى نفس المكان ليأخذ من هذا المال فوجد شخصاً آخر قد سبقه إليه وأخذ ما تبقّى منه ، فلما رآه يحمله على ظهره نظر إليه . فقال الرجل : رزقنى الله ما ظننته أنه لك ، لكن هو لى .

لكن نلحظ فى مسألة الرزق أن الناس يُخطئون حين يظنون ويُحجِّمون الرزق فى المال وحده ، فالرزق عندهم هو الغنَى وكثرة المال ، لكن الصواب أن نقول : الرزق هو كل شىء يُنتفع به وتستفيد منه ، وعليه فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والأمانة رزق ، والصحة رزق .. الخ .

لذلك ينبغى على الغنى الذى رُزق المال الوفير أنْ يسأل نفسه حين يرى فقيراً : يا ترَى ما رزق هذا الفقير ؟ وبم تميَّز عنى ؟ ربما كان رزقه فى عقله أو فى أدبه أو فى حلمه أو فى سمعته الطيبة بين الناس أو فى عافيته .

وسبق أنْ قلنا : إن مجموع المواهب عند أيِّ إنسان تساوى مجموع المواهب عند الآخر ، فهذا عنده المال بنسبة عشرة على عشرة ، لكنه حُرِم نعمة الولد بنسبة صفر على عشرة وهكذا ؛ لأن الخَلْق جميعاً عيال الله ، ولا يوجد منهم مَنْ هو ابن الله أو بينه وبين الله نسب .

إذن : علام يوجد التمييز بين واحد وآخر ؟ نقول : الرزق يحتاج إلى جهات متعددة ؛ لذلك يوزع الرازق سبحانه الأسباب فلا تستقيم الحياة إنْ كان الناس جميعاً أغنياء ، أو كان الناسُ جميعاً عقلاء أو

علماء ؛ لأن العقل الواحد مثلاً يحتاج إلى أكثر من جارحة من الجوارح تخدم تفكيره ، فالمهندس مثلاً حين يرسم تصميماً لعمارة سكنية ، هو مهندس واحد لكن يحتاج إلى كم عامل لتنفيذ هذا العمل ، ولخدمة هذه الفكرة الهندسية ، فالعامل البسيط الذى يحفر الأرض لوضْع الأساس عنده من المواهب ما ليس عند المهندس ، وهكذا تُوزَّع المواهب وتُوزَّع الأرزاق .

والرزق قد يكون بزيادة الدخل ، وقد يكون سلباً بنقص المنصرف ، فنجد مثلاً رجلاً راتبه الشهرى مائة جنيه ويتعجب الناس كيف يعيش بهذا المبلغ ، ونسوا أن المهم فى الرزق أن يكون من الحلال ، فالله يبارك فى القليل منه ، حتى يحلّ محل الكثير ، فتجد هذا الرجل مثلاً إذا مرض ولده يكفيه قرص أسبرين والأم تعد له كوب شاى ويُشفى الولد بإذن الله .

بينما نجد آخر يحصل على أضعاف هذا المبلغ ، لكنه لا يتحرَّى الحلال فى كسبه ، فإذا مرض ولده ذهب به إلى الطبيب ، وأجرى التحاليل وأوهم نفسه أن المرض خطير ، حتى يصرف على الولد مبالغ كبيرة .

لذلك ورد فى الحديث الشريف : « مَنْ أصاب مالاً من مهاوش[(١)] أذهبه الله فى نهابر[(٢)] »[(٣)] .

(١) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يصاب من غير حله ولا يُدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك .[لسان العرب - مادة : هوش] .

(٢) النهابر : المهالك . أى : أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة . [اللسان - مادة : نهبر] .

(٣) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٣١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .

إذن : رزق الإيجاب أنْ يزيد المورد ، ورزق السلب أنْ يقلَّ المنصرف ، لذلك نلحظ مثلاً موظفاً من أصحاب الرواتب العالية وزميله له راتب متواضع يذهبان إلى السوق ، الأول يشترى الرومى أو السمك الكيلو بعشرة جنيهات ، أما الآخر فيشترى السمك العادى الكيلو مثلاً بأربعة جنيهات ، ذهب كل منهما إلى بيته وأكل كل منهما سمكاً ، لكن الأول صرف أضعاف أضعاف الآخر ، وربما النتيجة واحدة ، وكل منهما راضٍ بما أخذ وبما أكل ، هذا نسميه رزق السلب .

والمؤمن ينبغى له دائماً أنْ يضع مسألة الاقتصاد فى النفقات فى باله ، وأنْ يعلم أن رزق السلب أوسع من رزق الإيجاب ، لأن رزق السلب منع ألماً ، أمَّا رزق الإيجاب فقد يأتى بالألم .

وقوله سبحانه : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** (٥٢) ﴾ [الزمر]

أى : يؤمنون بالرازق الذى سمَّى نفسه الباسط ، وسمى نفسه القابض ، وما دام الحق سبحانه سمَّى نفسه الباسط وسمى نفسه القابض فلا بدَّ أنْ يكون لكل صفة متعلق ، ولا بدَّ أنْ يوجد فى الخَلْق مَنْ يبسط الله له الرزقَ ، ومَنْ يقبض عنه ويُضيِّق عليه ، وهذا وذاك بحكمته تعالى وقدره سبحانه .

فمَنْ وسَّع الله له رزقه ، وبسط له عليه أنْ يشكر ، ومن قُدِر عليه رزقه وضُيِّق عليه يجب أنْ يصبر وأنْ يرضى ، وأنْ يسير فى حركة حياته على قدر رزقه ، ولا يفتح على نفسه أبواب المسألة ، فمَنْ رضى بقدره أعطاه الله على قدره سبحانه ؛ لذلك تجد عظماء العالم وأصحاب الكلمة والصِّيت لو نظرت إليهم فى أوليات حياتهم لوجدتهم رَضُوا بقدر الله فيهم وعاشوا فى مستوى دخولهم ، فتحقق فيهم قوله : « مَنْ رضى بقَدَرى أعطيته على قَدْرى » .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

الإسراف هو تجاوز الحدّ ، نقول : فلان مسرف يعنى : يتجاوز الحدَّ فى الإنفاق بما لا يتناسب مع دخله ، وهؤلاء أسرفوا على أنفسهم ولم يقل : أسرفوا لأنفسهم . إنما أسرفوا عليها . مما يدلّ على أن هذا الإسراف يجر عليهم الوبال ، فهو إسراف فى المعاصى والذنوب والعياذ بالله .

قلنا : الإسراف تجاوز الحدّ ، الحد إنْ كان بعد أمر فلا تتجاوزه ، وإنْ كان بعد نهي فلا تقربه مجرد القرب منه ؛ لذلك يقول تعالى فى الأوامر : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة] يعني : قفْ عندها . أما فى النواهى فيقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة] لأن قربك من الشىء يغريك به . وكما ورد فى الحديث الشريف : « مَنْ حام حول الحِمَى يوشك أنْ يُواقعه »[2] .

---

(١) سبب نزول الآية : ورد فى سبب نزول هذه الآية عدة روايات .. منها :

- قال ابن عباس : نزلت فى أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التى حرم الله ؟ فأنزل الله هذه الآية .
- وقال ابن عمر : نزلت فى عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا ففتنوا ، وكنا نقول : لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً ، قوم أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذّبوا به ، فنزلت هذه الآيات .
- وعن ابن عباس وعطاء : نزلت فى وحشى قاتل حمزة ، لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه ، فأتى وحشى إلى النبى فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله : « قد كنت أحب أن أراك على غير جوار » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) من حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهة ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصى حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه » ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) .

لذلك حينما نهى الحق سبحـانه سيدنا آدم عن الأكل من الشجرة لم يقل له : لا تأكل منها ، إنما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ (١٩) ﴾ [الأعراف]

لذلك تجـد أن لفظ الاجـتـناب أقـوى من لفظ التـحـريم وأشـدّ ، وعجيبٌ أنْ نسـمع من الذين يسرفون على أنفسـهم يقولون : لم يردْ لفظ يحرم الخـمر فى كتـاب الله ، نقول : كيف وقد ورد مـا هو أشدّ من التحريم وهو الاجتناب فى قـوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ [1] وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾ [المائدة]

لأن معنى (فَـاجْتَنِبُـوهُ) يعنى : ابتعـدوا عنها بالكليـة فجـانبوا مجلسها ، وجـانبوا شـاربها ، وجانبوا بائعهـا ، وجانبوا ناقلها .. الخ فهـذا أبلغ فى التحريم من قـولنا لا تشرب الخمـر ، بدليل أن القرآن استـخدم لفظ الاجـتناب فى قمـة الإيمان العـقدى ، فقـال سبـحانه : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج]

فإذا تناولنا الإسـراف فى الإنفاق نجـد أن الحق سبحـانه وتعالى يريد أن تسـير حركـة الحيـاة فى المجتـمع الإيمانى حـركةً مـتوازنة متسـاوية تتوسط فى الأمور ، بمـعنى أنك تعرف دخلك ورزقك الذى يسوقه الله إليك ، والله لا يريد منك أنْ تقبض هذا الرزق وتمسكه فلا تنفق منـه ، ولا يريد منك أن تنفـقـه كله أو تـسـرف فـيـه بل يريد

(١) الأنصاب جمع نُصب وهو ما ينصب ليعبد من دون الله أو ليذبح عنده الذبائح تقرباً إليه أو إلى الأصنام [القـاموس القويـم ٢/٢٦٧] والأزلام جمع زلم وهو قطعـة من الخشب تشـبه السهم يقـترعون بها ، فـيقسمون بهـا الذبائح يكتب على كل زلم عدد الأنصبـاء يأخذه من المقامرين مَنْ يخرج له وهو نوع من الميسر المحرم شرعاً . [القاموس القويم١/٢٨٩] .

الوسطية ، كما بيَّن سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] فالإسراف والتقتير كلاهما مذموم منهيٌّ عنه ، فمَن اتخذ سبيلاً غير سبيل الوسط أضرَّ بنفسه وبالمجتمع ، لأنه إنْ أمسك المال قلَّتْ قوة الشراء وقوة البيع فى الأسواق ، ويترتب على ذلك ركود فى الحركة التجارية والصناعية وبوار للسلع وكساد فى السوق .

وإنْ أسرف وبذَّر فأنفق كل دَخْله لم يجد شيئاً يدخره لينمى به حياته ويُحسِّن من مستواه ويرتقى بحياته ، وعندها يلوم نفسه لأنه يرى غيره يرتقى ويُرفِّه حياته وهو لا يستطيع .

وهذا المعنى أوضحه الحق سبحانه فى قوله تعالى :

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا[1] ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]

والمعنى : ملوماً حين تمسك وتضنّ ، محسوراً حين تسرف وتبذر ، لأنه سيجد أهل الوسطية يعيشون عيشة السعداء ، لا لومَ ولا حسرة . والعاقل هو الذى يُخضع مصرفه لدخله ، لا أنْ يُخضع دخله لمصرفه ، لأنك حين تخضع دَخلك لمصرفك فلابدَّ أنْ تمتدَّ يدك للاقتراض من الناس ، وهذا سيتعبك ويشقّ عليك ، وسوف تُعييك الحيل ، ويقبض الناس عنك نفوسهم ، وتهون فى أعينهم حتى تعيشَ بسبب ذلك فى كرب .

إذن : نقول : الإسراف تجاوز الحدّ فيما يعود عليك بالشر والضرر ، لذلك قال تعالى : ﴿ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر] أما

(١) المحسور : هو الحسير والحسران إذا اشتدت ندامته على أمر فاته . والحسرة : أشد الندم حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذى لا منفعة فيه . [لسان العرب - مادة : حسر].

الإسرافُ الذى يعود عليك بالخير فهو إسراف لك لا عليك كالذى يدفع زكاة مـاله عشرة بالمائة بدلاً مـن ٢,٥ بالمائة ، لأنه أيقن أن هذا هو الباقى له والمدَّخر عند الله ، فواحد يعـمل لأمر دنياه فحسب ، وواحد يعمل للدنيا وللآخرة .

لذلك لما سُئل الإمـام على رضى الله عنه : يا إمام أريد أنْ أعرف أنا من أهل الدنياَ ، أم من أهل الآخـرة ؟ قال : ليس عندى جواب هذا السؤال ، إنمـا جوابه عندك أنت ، قال : كـيف ؟ قال : إذا دخل عليك اثنان : واحد بهدية ، والآخر يريد صدقة أو معونة ، فانظر إلى أيِّهما تبشّ ، وبأيهـما ترحب ، فـإنْ رحبتَ بصـاحب الهدية فـأنت من أهل الدنيا ، لأنك تحب مَنْ يعـمر لك دنياك ، وإنْ كانت الأخـرى فأنت من أهل الآخرة ، لأنك تحب مَنْ يعمر لك آخرتك .

وتعرفون قصة الشاة التى أهديتْ لسيدنا رسول الله ﷺ فتصدقت بها السيدة عائشة ولم تبْق منها إلا كـتفها ، فلما سألها رسـول الله : « ماذا صنعت بالشـاة » ؟ قالت : كلها ذهب إلا كـتفهـا - وكان ﷺ يحب من الشاة الكتف - فقال ﷺ : « بل بقيت كلها إلا كتفها »[(١)]

إذن : الباقى هو مـا تصدَّقنا به ، والذاهب مـا أكلناه ، ويؤيد هذا الحديث قـوله ﷺ فى الحديث : « يا ابن آدم ، ليـس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأبقيتَ »[(٢)]

ثم يفتح الحق سبحانه طاقةَ الأمل لمنْ أسرف على نفسه ، فيقول

---

(١) حديث صـحيح . أخرجه أحـمد فى مسنده (٦/ ٥٠) والترمـذى فى سننه (٢٤٧٠) ، وقال : هذا حديث صحيح ، وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ : ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها .

(٢) أخرجه أحمـد فى مسنده (٤/ ٢٤، ٢٦) ومسلم فى صحيحـه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

لهم : ﴿ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ (٥٣) ﴾ [الزمر] القنوط هو اليأس من رحمة الله ، لكن لماذا نيأس من رحمة الله ؟ قالوا : لأنهم أسرفوا على أنفسهم وبالغوا فى المعصية وتمادَوْا فيها ، وحين يعود المسرف ويرجع يلوم نفسه ويؤنبها وتعظم ذنوبه فى نظره ، ولا يرى نفسه أهلاً للمغفرة ولا للرحمة فيداخله اليأس والعياذ بالله .

والمتأمل يجد هذا اللوم للنفس وهذا اليأس من الرحمة هو من جهة أخرى ظاهرة صحية فى الإيمان ، لأن استعظامَ الذنوب وكوْن المسرف لا يرى نفسه أهْلاً للرحمة ، هذا يدل على سلامة إيمانه وعلى خوفه من ربه .

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

قال عنها ابن عباس أنها أرْجَى آية فى كتاب الله لأنها تعطى الأمل لكل مذنب مهما كانت ذنوبه . ولولا أن الله تعالى أعقبها بقوله : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ (٥٤) ﴾ [الزمر] لأورثتْ الناسَ التهاون وأطمعتهم فى رحمة الله طمعاً يُنسيهم عذابه ونقمته ، فالمؤمن يتقلَّب فى حركة حياته بين الخوف والرجاء ، ولا بدَّ له منهما معاً .

نعم ربك غفور رحيم ، لكن لا بدَّ لكى تكون موضعاً لهذه الرحمة ومُتعلّقاً لهذه المغفرة ، لا بدَّ أنْ تنيب إلى الله ، وأنْ ترجع إليه رجوعاً صادقاً مخلصاً ، لأن الذى يذنب ويتوب ، ثم يذنب ويتوب كالمستهزئ بربه ، نعوذ بالله من هذا .

لما قال ابن عباس عن هذه الآية أنها أرجى آية فى كتاب الله قال أحد جلسائه : وأنا أرى أن أرجى آية فى كتاب الله هى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ (٦) ﴾ [الرعد] وأنا أنتقد العلماء

الذين يفسرون ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ⑥﴾ [الرعد] بمعنى : مع ظلمهم ، وهذا لا يستقيم ، ومعنى الآية بحيث نقول عنها أنها أرجى آية فى كتاب الله ، ونلاحظ هنا أن (مع) حرفان أما (على) فثلاثة حروف ، فلا بدّ أن المعنى الذى تؤديه على لا تؤديه مع ، لأنه ما دامت هنا مغفرة للذنب ، والذنب يتطلب صفة القهار والجبار والمنتقم ، لكن مغفرة الله تعلو على الذنب فتمحوه ، وهذا المعنى لا تؤديه مع[1] .

وهنا وقفة للمستشرقين الذين يحاولون النَّيْل من أسلوب القرآن ، وقد رأوْا تعارضاً بين قوله تعالى هنا : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑤٣﴾ [الزمر] وبين قوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ④٨﴾ [النساء]

ونقول لهؤلاء : جهلكم بلغة القرآن ومعطيات الأسلوب أوقعتكم فى هذا الخطأ ، لأن الذنب يعنى ارتكاب جُرم جرَّمه الله وجعل له عقوبة ، والشرك بالله ليس ذنباً بهذا المعنى ، لأن الشرك يُخرِج صاحبه من الملة أصلاً ، وعليه فليس بين الآيتين تعارض كما تظنون .

قالوا[2] : نزلت هذه الآية : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ..⑤٣﴾ [الزمر] نزلتْ فى شأن وحشى قاتل سيدنا حمزة فى أُحُد لما أخذت هندٌ كبد سيدنا حمزة ولاكتْها .

---

(١) ممن قال أن على هنا بمعنى مع ابنُ كثير فى تفسيره (٥٠١/٢) ، قال : « أى : أنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار » وقد قاله ابن هشام فى « مغنى اللبيب » (١٢٦/١) أن معنى على هنا المصاحبة وذكر هذا الشاهد من الآية .

(٢) قاله عبد الله بن عباس وعطاء . قاله القرطبى فى تفسيره (٥٩١٤/٨) وقال الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص٢٩٢) ، « ويروى أن الآيات نزلت فى وحشى قاتل حمزة» وذكر الرواية بسنده إلى ابن عباس (ص١٩٣) .

ونقول : لقد قُتل حمزة فى أُحُد ولم يُسلم وحشى بعدها ، إنما أسلم بعد فترة طويلَة ، لذلك قال الذين يريدون أنْ يُوفِّقوا بين الأقوال : لعل وحشياً لما قتل حمزة وتذكر مكانته فى الإسلام ، وأنه أسد الله قنطَ من رحمة الله ، وهذا القنوط قد يدعوه إلى المزيد من الشر والفجور ، وقابله أحد الصالحين وقال له : لا تقنط من رحمة الله ، فقد قال الله تعالى :﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

لما سمع وحشىٌّ هذا الكلام أسلم ، فما منعه من الإسلام إلا الخوفُ مما فعل ، فإذا كان أمر المغفرة على هذا النحو فلماذا لم يسلم ، وقد ضمن له ربه المغفرة ؟ إذن : الآية سابقة على هذه القصة ، ولم تنزل فى شأنه خاصة إنما نزلتْ قبله ، لكنها قيلتْ له وقُرئت عليه ، فكانت سبباً فى إسلامه .

وكلمة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر] قصرت المغفرة والرحمة عليه سبحانه وتعالى ، لأن كل ذنب من الذنوب حَقٌّ لله تعالى ، وما دام الذنب حقاً من حقوق الله فهو وحده الذى يملك أن يغفره وأن يرحم صاحبه ، وله سبحانه أنْ يُؤاخذ ويعاقب ، لأن له سبحانه طلاقة القدرة ، وليس معه سبحانه إله آخر يعترض عليه .

وهذا المعنى واضح فى قصة سيدنا عيسى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ

وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي[1] كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

نلحظ هنا فى تذييل هذه الآية أنه لم يقل : فإنك أنت الغفور الرحيم فهو المناسب للمغفرة إنما قال : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] فقوله (العزيز الحكيم) دلَّ على أن عيسى عليه السلام يرى أنهم يجب أن يجازوا فى هذه الفرية ، ولكن الحق سبحانه له طلاقة القدرة فى أنْ يغفر أو يُعذب ، ولو كان له سبحانه شريك فى هذه المسألة ما قال ذلك ، إنما هو سبحانه عزيز حكيم لا يُعقِّب أحدٌ على ما تصرَّف فيه ، فهو سبحانه الذى يغفر لهم لا لأنه غفور رحيم ، إنما هم يستحقون العقوبة ، وإذا غفر الله لهم فلأنه عزيز حكيم .

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) ﴾

الإنابة : هى التوبة والرجوع إلى ساحة الإيمان بالله إلهاً واحداً لا شريكَ له . والإسلام : أنْ تنفذ مطلوبَ الله منك فى الأمر والنهى بافعل ولا تفعل .

لكن هل تعنى الإنابة أنهم كانوا مع الله ثم انصرفوا عنه إلى

---

(١) يأتى التوفى بمعنى الإماتة وقبض الروح مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ (٩٧) ﴾ [النساء] ، ويأتى بمعنى يجعلكم تنامون بالليل نوماً يشبه الموت فى العجز عن الحركة وعن الوعى مثل قوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ (٦٠) ﴾ [الأنعام] .

الكفر ، فيطلب منهم العودة والرجوع إلى ساحة الإيمان مرة أخرى ؟ نقول : لا بل معنى الإنابة هنا الرجوع إلى العهد الأول الذى أخذه الله على عباده وهم فى عالم الذر ، وهم فى ظهر آدم عليه السلام ، هذا العهد الذى قال الله فيه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فالمعنى ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ (٥٤) ﴾ [الزمر] ارجعوا إلى إيمانكم به الإيمانَ الفطرى الذى أخذ عليكم العهد به . هذا الإيمان الفطرى هو الذى يصحب الإنسان فيستيقظ ضميره بعد المعصية فيتوب أو بعد الكفر فيؤمن ، هذا الإيمان الفطرى المستقر فى قرار النفس البشرية هو الذى ينبهها إنْ غفلت ، هذا الإيمان هو الذى نبَّه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما ، فآمنوا حينما رجعوا إلى العهد الأول والإيمان الفطرى .

﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) ﴾ [الزمر] ما معنى النُّصْرة هنا والكلام عن الآخرة ؟ أى : لا يتناصر أهل الباطل ولا يدافع أحدٌ منهم عن الآخر لا التابع ولا المتبوع ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) ﴾ [الصافات]

نعم ، لا يتناصرون لأن الموقف هنا موقف خصومة ولوم ، حيث يُلْقى كل منهم التبعة على الآخر ، ويتبرأ كل منهم من الآخر ؛ لذلك

قال سبحانه : ﴿ الأَخِلاَّءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) ﴾

كلمة (أحسن) أفعل تفضيل يدلّ على المبالغة ، ونفهم منه أن الأقل في الخير حسن ، نقول : هذا حسن وهذا أحسن منه . والأمر هنا باتباع الأحسن ، فمثلاً الحق سبحانه يُنزِّل من الأحكام ما يرضى النفس البشرية كي لا تمتلىء غيظاً وكرهاً للناس ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ (١٢٦) ﴾ [النحل]

يعني : إياك أنْ تتجاوز المثلية إنْ أردتَ أن تعاقب ، فإنْ قدرتَ على هذه المثلية دون أن تتجاوزها فهذا حسن ، لكن الأحسن منه أنْ تعفو كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ..(١٧٨) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

هذا هو الأحسن ومن ذلك قوله تعالى في مسألة التبني : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ (٥) ﴾ [الأحزاب] تعرفون قصة تبنِّي رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة ، وأن زيداً خُيِّر بين أهله وبين رسول الله فاختار البقاء مع رسول الله ، وقال : ما كنتُ لأختار على رسول

---

(١) الأخلاء جمع خليل ، وهو الصديق المخلص .[القاموس القويم١/٢٠٨] .

الله أحداً ؛ لذلك كافأه رسول الله ونسبه إلى نفسه ، فقال : زيد بن محمد.(١)

فلما أراد الحق سبحانه أن يحرم التبنى وأنزل ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ۝ ﴾ [الأحزاب] أنصف سيدنا رسول الله وجعل فعله حسناً ، لكن مراد الله أحسن وفعل رسول الله قسْط ، واختيار الله أقسط ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۝ ﴾ [الأحزاب] والحكمَة من ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ۝ ﴾ [الأحزاب] حتى لا تهدروا سبب الوجود وهو الأب ، لأن إهدار سبب الوجود المباشر وهو الأب يُجرِّئك أنْ تنكر سببَ الوجود الأعلى سبحانه .

أو نقول : معنى ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ۝ ﴾ [الزمر] أن القرآن نزل وفى القوم ديانتان اليهودية وكتابها التوراة ، والنصرانية وكتابها الإنجيل ، ولما نزلتْ هذه الكتب وغيرها كان لها أناس آمنوا بها ، وآخرون كفروا وأشركوا ، بل ومنهم ملاحدة .

فالأمر فى (وَاتَّبِعُوا) أمر للجميع يعنى : يا مَنْ آمن بموسى ، ويا مَنْ آمن بعيسى ، لقد كان هذا الدين فى وقته حسناً ، أما الآن فقد جاء الإسلام الدين الخاتم المهيمن على كل الأديان ، وأصبح هو الأحسن الواجب عليكم اتباعه .

ومرة يكون أفعل التفضيل يعطى للواقع ، لكنه لا ينظر إلى المقابل وهو الأقبح ، إنما ينظر إلى المساوى فى الصفة بالقلة ، إلا فى شىء واحد لاحظناه فيما يتعلق بالحق سبحانه وتعالى . فمن أسمائه الكبير وليس من أسمائه الأكبر ، مع أنه كان المفروض حسب

---

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٣٨١٥) من حديث جبلة بن حارثة أخو زيد قال : قدمت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ابعث معى أخى زيداً ، قال : هو ذا . قال : فإن انطلق معك لم أمنعه ، قال زيد : يا رسول الله والله لا أختار عليك أحداً . قال : فرأيت رأى أخى أفضل من رأيى . قال الترمذى : هذا الحديث حسن غريب .

القاعدة أن نقول الأكبر لأنها مبالغة من الكبير ، فلماذا إذن ؟

نقول : كلمة أكبر وردتْ على أنها صفة للحق سبحانه نسمعها كل يوم فى كل أذان وفى كل إقامة للصلاة ، والصلاة عبادة لها خصوصيتها ومنزلتها فى الدين ، فهى العبادة التى تتكرر خمس مرات كل يوم ، وهى العبادة التى لا تسقط بحال عن المؤمن ما دام فيه نفَسٌ يتردّد ، وهى العبادة التى لم تُشرع بالوحى كباقى العبادات ، إنما شُرعت بالمباشرة فى رحلة المعراج ، هذه العبادة حين ننادى لها نقول : الله أكبر ولم يقل : الله كبير .

وهنا موضع العظمة مع أن أكبر أبلغ فى المعنى من كبير ، لأن التكاليف من الحق سبحانه لا تريد منك مجرد الصلاة والصيام والحج .. الخ إنما تريد منك أنْ تؤدى كل حركة نافعة فى الحياة مُعينة للتدين ؛ لذلك قالوا فى القواعد الشرعية : ما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجب .

ولك أنْ تتأمل مثلاً فريضة الصلاة ، كم من الأعمال لا بدّ منها لتؤدى هذه الفريضة ؟ خُذْ مثلاً ستر العورة وهى واجب لا تتم الصلاة إلا به ، لكى تستر عورتك لتصلى تحتاج إلى ثوب تلبسه ، كيف يتوفر لك هذا الثوب ؟ إنه يحتاج إلى خياط يخيطه ، ويحتاج لتاجر التجزئة الذى تشترى منه القماش ، ثم تاجر الجملة ، ثم مصنع النسيج والغزل والصباغة والمحلج ، ثم الفلاح الذى يزرع القطن ويجمعه .

كل هذه العملية تحتاج إلى عُدَد وماكينات وآلات وأيد عاملة ، كذلك الحال فى الطعام الذى لا بدَّ لك منه لتقوى على أداء الفرائض ، كل هذه الحركة من أجلك ، تخدمك وتعينك ، فهذه الأعمال الدنيوية

التى لا تقوم الديانة إلا بها هى واجبة لا يُستهان بها ، بل ينبغى المحافظة عليها وتقديسها ، لأنها فى منزلة الواجب .

وحين يأخذك ربك من هذه الأعمال إلى الصلاة مثلاً لا يأخذك من عمل تافه هيِّن لا قيمة له ، إنما يأخذك من عمل هو فى حَدِّ ذاته عبادة ، لذلك جعله كبيراً أما الذى يناديك للصلاة فأكبر من هذا كله ، لذلك لم يَُناد الحق سبحانه المؤمن فى صلاة إلا فى صلاة الجمعة ، حيث قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

وخَصَّ البيع دون سائر الأعمال ، لأنه ثمرة باقى الأعمال من تجارة وزراعة وصناعة ، والإنسان أحرص على البيع منه على الشراء ، لأن البيع هو الصفقة عاجلة الربح ؛ لذلك نجد الإنسان حريصاً أن يبيع على خلاف المشترى ، فالمشترى مثلاً حين لا يجد السلعة التى يريدها يقول (بركة يا جامع) لأنه سيدفع من جيبه ، أما البائع فيأخذ ويربح .

فإذا ما انتهتْ الصلاة ردَّك ربك إلى العمل الذى استدعاك منه وأعادك إلى دنياك : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

إذن : لا تستهنْ بعمل الدنيا ولا تظنه بعيداً عن الدين ، بل هو جزء منه ، وما لا يتم الواجب الدينى إلا به فهو واجب ، والذى يعصى فى هذا مثل الذى يعصى فى هذا ، فحين نقول فى النداء للصلاة : الله أكبر تذكَّر أن غيره كبيرٌ لا يُستهان به ، لكن الذى يعطيك الطاقة أكبر من هذا الكبير ، فلا تنشغل بالكبير عن الأكبر .

والآن تتضح الحكمة من أن الله تعالى سمَّى نفسه الكبير لا

الأكبر ، فحين نقول : الله كبير هذا يعنى أن ما عداه صغير ، لكن لو قلنا أكبر فما عداه كبير .

إذن : فحين تقف فى أحكامه تعالى أمام (حسن) و(أحسن) فاتبع الأحسن مما أنزل : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ..(٥٥)﴾ [الزمر]

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥)﴾ [الزمر]

كلمة (بغتة) يعنى فجأة ، والعذاب لا يفاجئ إلا الغافلَ اللاهى الذى يعيش ، وليس فى باله هذه المسألة ، وإلا لو كان فى باله لاتقاه وتجنَّب أسبابه ، وحين يأتى لا يكون بغتة .

لكن كيف يفاجئه العذاب ؟ نقول : ما الفارق بين أن يعيش الإنسانُ فى حياته الدنيا وبين أنْ يلاقى العذاب ؟ الفارق بينهما أن يموت ، مجرد أن يموت وتخرج روحه ينتقل من سعة الدنيا إلى عذاب الآخرة إنْ كان من أهل العذاب والعياذ بالله .

ومعلوم أن خروج الروح ليس له ميعاد ولا يعلمه أحد ، لأن النفَس ربما فى أىِّ لحظة يدخل ولا يخرج ، هذه المسألة ينبغى أن تكون على بال المؤمن لا يغفل عنها أبداً .

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ (٥٦)﴾

هذا نموذجٌ للنفس حين تتحسَّر وتلوم نفسها ، لماذا أوصلتَ نفسك إلى هذا الموقف ، طلبنا منك أنْ تنيبَ إلى الله ، وأنْ تسلمَ له فى أحكامه ، وأن تتبع أحسن ما أُنزل إليك لترفع عن نفسك الحرج

وتُجنِّبها اللوم ، ولا تقف هذا الموقف لكنك لم تستجب .

كلمة ﴿يَـٰحَسْرَتَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر] هذا أسلوب نداء ، فـأىُّ شىء ينادى العبد ؟ ينادى الحسرة والحزن والأسى يقول : يا حسرتى احضرى تعالَىْ ، فهذا أوانك ، يتحسَّر على نفسه بعد أنْ فاتته الفرصة ، ومعلوم فى النداء أنه لا ينادى إلا النافع لكن الموقف هنا موقف تحسُّر وندم ، والحسرة هنا مضافة ليـاء المتكلم والألف للإطلاق .

ومعنى ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللَّهِ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر] على ما قصَّرت فى حق الله وفى طاعته[1] ، والتفريط هو إهمال ما يجب أنْ يتقدم ، لأن الفرصة إنْ فاتت لا تُعوّض ، كالتلميذ الذى يهمل دروسه ونراه يهتم مثلاً ليلة الامتحان . نقول له : يا بنى (قبل الرِّماء تُملأ الكنائن)[2] هذا مَثَلٌ يُضرب لمن لا يستعد للأمر قبل أوانه ، فالصياد يخرج للصيد وقد أعدَّ له أدواته ، حتى إذا ما وجد صيده بادره قبل أنْ يهرب ، لأن الغزالة مثلاً لا تنتظر الصياد حتى يملأ كنانته أو يُعدّ سهمه .

إذن : أنت تتحسَّر على نفسك وتلومها ، لأنك لم تستغل الفرصة وأهملتَ حتى فاتتك وهى لا تُعوَّض ، فليس أمامك إذن إلا التحسُّر وعضّ أصابع الندم ، فكأن الأمرين اللذين سبقا هذه الآية وهما : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر] ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٥٩١٦/٨) لمعنى (جنب الله) أقوالاً كثيرة ، منها :
- طاعة الله . قاله الحسن - ذكر الله . قاله الضحاك .
- ثواب الله . قاله أبو عبيدة - طلب جواره وقربه وهو الجنة . قاله الفراء .
- طريق الله الذى دعانى إليه . قاله الزجاج .

(٢) ذكره أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال ، وقال : يضرب مثلاً فى الاستعداد للنوائب والأمور قبل حلولها . والكنائن جمع كنانة ، وهى الجعبة ، وكذا ذكره الزمخشرى فى المستقصى فى أمثال العرب .

إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزمر] كان ينبغى العمل بهما ليحموا أنفسهم من أنْ يقولوا ساعةَ يرون العذاب ﴿ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللَّهِ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزمر] فرحمته تعالى ورفقه بعباده لا يحب منهم أنْ يقولوا هذه الكلمة ، فالله لا يريد لعبده أنْ يقف موقف التحسُّر ، ولا يرضى له ذلك ، فحين يقول لنا : لا تقنطوا من رحمة الله ، وأنيبوا ، وأسلموا ، وابتغوا أحسن ما أنزلَ إليكم يريد أن ينبه الغافل ويحذر مَنْ يفكرْ فى الكفر ويُذكِّره بالعواقب ، وبما سيكون منه حين يرى العذاب من حسرة .

والحسرة أسف وندم على خير فات لا يمكن تداركه ، والكافر لا يتحسَّر حسرةً واحدة إنما حسرات كثيرة ملازمة له ، فكلما رأى العذاب الذى ينزل به تحسَّر ، وكلما رأى المؤمنين فى نعيم تحسَّر ، وكلما تذكَّر دُنياه تحسَّر .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : الأمر لم ينته عند حَدِّ التفريط والتقصير فى جنب الله ، إنما تعدَّاه إلى السخرية ممَّنْ يقفون فى جنب الله ، فالذنب مُضَاعف ، وسبق أنْ ذكرنا نموذجاً من سخرية أهل الباطل بأهل الحق ، واستهزائهم بهم فى قوله تعالى من سورة المطففين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين]

---

(١) الفكه : كثير المزاح والاستهزاء بالآخرين ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المطففين] يسخرون من المؤمنين ويتندرون بهم . [القاموس القويم ٢/٨٨] .

وكثيراً ما نسمع أهل الباطل يسخرون من أهل الحق : يقولون فلان هذا صُللى ، يا عم خذنا على جناحك .. الخ لكن يكفى أهل الإيمان أن الله هو الذى سيأخذ لهم حقهم فى دار البقاء ، فإنْ سخروا منكم فى الدنيا الفانية فسوف تسخرون منهم فى الباقية الدائمة ، وإنْ ضحكوا منكم ضحكاً موقوتاً منقطعاً فسوف تضحكون منهم ضحكاً أزلياً باقياً .

وفى هذه الآية ملحظ ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزمر] حين نتتبع كلمة النفس فى القرآن الكريم نجد أنها تأتى دائماً مؤنثة ، كما فى قوله تعالى :

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ۝٥٣﴾ [يوسف] وقوله : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ [الشمس]

أما هنا فغلَّب التذكير ، فقال حكاية عن النفس : ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزمر] ولم يقل الساخرات ، لماذا ؟ قالوا : النفس مؤنثة ، فإن أُريد بها الإنسان تُذكَّر .

وبعد أن حذرنا الحق سبحانه من موقف التحسُّر والندامة فى الآخرة يحذرنا من شيء آخر تتعرض له النفس حين ترى العذاب ، فيقول سبحانه :

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿أَوْ تَقُولَ ۝٥٧﴾ [الزمر] أى : النفس ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ

هَدَانِى ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر] أى : فى الدنيا ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر] وهذا عجيب ، عجيبٌ أنْ تكذب حتى فى الآخرة ، لأن معنى ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِى ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر] أنه سبحانه لم يهدك وهذا كذب .

يقول الإنسان مدافعاً عن نفسه : إن عدم وجودى فى صَفِّ المتقين أن الله لم يهدنى ، هذه كذبة لأن الله هداك ودلَّكَ وأرشدك إلى طريق الخير وبيَّن لك الحلال والحرام ، لكنك لم تتبع هَدْيه ولم تَسِر على منهجه ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : عودة ورجعة إلى الدنيا مرة أخرى .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾ [المؤمنون] هذه كلها أمانى كاذبة فلا تُصدِّقوهم ، فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه وكما كذبوا فى الأولى ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِى ﴿٥٧﴾ ﴾ [الزمر] كذبوا فى ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزمر]

والكذب قد يُتصوَّر من الإنسان فى الدنيا ، لكن عجيبٌ أنْ يكذب فى الآخرة ، وهو بين يدَىْ ربه عز وجل ، لذلك سيقول الحق بعدها : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الزمر]

والظاهر أن الكذب (علق) معهم وتعوَّدوا عليه حتى أخذوه معهم فى الآخرة .

ثم يردُّ الحق على هذا الكذب فيقول سبحانه :

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

كلمة (بلَى) حرف جواب لا يأتى إلا بعد نفى ، فيفيد إثباتَ

المعنى المنفى قبله ، كما فى قوله تعالى :﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فيأتى الجواب ﴿ قَالُوا بَلَىٰ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] يعنى : لا ، أنت ربنا ، والقاعدة أن نفى النفى إثبات ، ومثله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾ [التين] على مَنْ يسمعها أن يقول : بلى يا رب ، يعنى : لا .. أنت أحكم الحاكمين .

إذن : فأين النفى السابق على قوله هنا ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي (٥٩) ﴾ [الزمر] قالوا : كَوْنه نفى الهداية فى قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي (٥٧) ﴾[الزمر] لذلك جاء الجواب (بلى) يعنى : لا بل هديناك ﴿ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا (٥٩) ﴾ [الزمر] والآيات جمع آية ، وهى الشىء العجيب الملفت للنظر الداعى إلى التأمل والتفكر للعقل وللبصيرة .

والآيات كما ذكرنا على ثلاثة أنواع : آيات كونية تدل على قدرة المكوِّن سبحانه كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٣٧) ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ (٢٣) ﴾ [الروم]

وهذه الآيات الكونية التى تلفتنا إلى المكوِّن الأعلى هى الوسيلة الأولى للإيمان بالله ، لذلك كلما استنبط العلماء فى الكون شيئاً جديداً أو اكتشفوا جديداً وجدنا له أصلاً فى كتاب الله ، قالها الحق سبحانه منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .

هذه الآيات الكونية يُظهرها الحق سبحانه حتى على أيدى الكافرين به ، لذلك حذَّرنا أنْ يتدخل علماء الشرع والفقهاء فى علوم الدنيا والكونيات ؛ لأن الكونيات لها علماء اختصُّوا بها ، وسوف يخدم هؤلاء الدين وقضية الإيمان بالله ، وسيُظهرون لكم الأسانيد والأدلة على وجوب الإيمان بالله صاحب هذا الكون ومُكوِّنه .

إذن : فهؤلاء العلماء يتعبون ويفكرون ويبحثون فى الكونيات لخدمة المؤمن بالله وخدمة الدين ، فهم - وإن كانوا كافرين بالله - جند من جنود الحق ، وصدق الله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]

والعجيب أنهم سيُحرمون الأجر على هذا الجهد المبذول ، لأنهم فعلوا ذلك وتوصَّلوا إلى ما توصَّلوا إليه ، وليس فى بالهم الحق سبحانه ، إنما فى بالهم خدمة الإنسانية ، فليأخذوا أجورهم من الإنسانية ، وفعلاً كرَّمتهم الإنسانية وصنعت لهم التماثيل ، واحتفلت بهم ؛ لذلك ليس لهم نصيب فى الآخرة .

وينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور]

يعنى : فوجىء بأن للكون إلهاً خالقاً ، فوجىء بالحساب والجزاء، وهذه أمور لم تكُنْ على باله فى الدنيا .

النوع الثانى من الآيات هى المعجزات التى تصاحب الرسالات ، لتدلَّ على صدق الرسول فى البلاغ عن ربه ، ومنها قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ .. ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء]

---

(١) الآفاق : جمع أفق . وهو الناحية ، وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين ، ويستعار لمدى الاطلاع والذكاء فيقال هو واسع الأفق . ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير] أى : ما بين السماء والأرض .

(٢) القيعة : الأرض الواسعة السهلة المطمئنة المستوية الحرة التى لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط ، لا حصى فيها ولا حجارة ولا تنبت الشجر . [لسان العرب - مادة : قوع] .

أما النوع الأخير فهى الآيات القرآنية التى تحمل أحكام الدين ، والتى قال الله فيها هنا : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾ [الزمر]

وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَكْبَرْتَ (٥٩) ﴾ [الزمر] استكبر يعنى : طلب أنْ يكون كبيراً ، يعنى : لم يتكبر فحسب ، إنما طلب ذلك وسعى إليه لكنه لم يُجبْ لذلك ؛ لأن الذى يستكبر لابدَّ أن يكون فى غنىً عمَّنْ استكبر عليه ، وإذا كنتَ فى مُلْك الله وتحت سلطانه وتأكل من رزقه وتعيش فى خيره ، فكيف تتكبر عليه ؟

ثم إن المتكبر ينبغى أن يتكبر بشىء ذاتى فيه لا يسلب منه ؛ لذلك الذين يتكبرون فى الدنيا إنما ينازعون الله صفته ؛ لأنهم يتكبّرون بلا رصيد ، ومَنْ من الخلق عنده ذاتية لا تُسلب منه ، لذلك نرى مَنْ يتكبر بعزٍّ يُذله الله ، ومَنْ يتكبر بغنىً يُفقره الله ، ومَنْ يتكبر بصحته وعافيته يُمرضه الله .

إذن : التكبّر الحق أنْ تتكبر بشىء تملكه لا يُسلب منك ، وشرُّ المتكبرين مَنْ يتكبر على ربه وخالقه والقادر على أن يسلب منه كل شىء ، أما الذى يتكبر على الخلق فغافلٌ عن عظمة ربه وكبريائه ؛ لأنه لو عرف عظمة ربه وكبرياءه لاستحى أنْ يتكبر وأنْ ينازع الله صفة من صفاته .

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ (٦٠) ﴾ [الزمر] أى : فى

قولهم : ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ﴿٥٧﴾﴾ [الزمر] وفى غيرها ؛ لأن الله هداك ودلَّكَ وأرشدك حين بعث لك الرسل مُؤيَّدةً بالمعجزات ، وأنزل لك الكتب وبيَّن لك الحلال والحرام ، وكذبوا فى غير ذلك كالذين قالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران] وكالذين قالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة] ومثلهم الذين ادعوا أن مع الله آلهة أخرى .

كل هؤلاء كذبوا على الله ؛ لذلك يأتون يوم القيامة ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر] نعم مسودة لأنهم الآن يواجهون الحق الذى كذبوا عليه ، فلابُدَّ أنْ تكون وجوههم مُسْوَدة عليها غبرة[١] ترهقها قترة[٢] مما فعلوه .

وهذا ليس ذماً للسواد فى ذاته ، لأن السواد خَلْق من خلق الله لا يُذَمُّ فى ذاته ، فقد ترى الرجل أبيض اللون ، لكن تعلوه قتامة وقتر ، فتجد وجهه مظلماً والعياذ بالله ، وهذا أثر المعاصى والذنوب على الوجه فى الدنيا قبل الآخرة .

وترى العبد الزنجى كأن وجهه زبيبة ، لكن يعلوه ضياء وإشراق، وتجد على وجهه علامات الصلاح ، وكأن وجهه يتلألأ نوراً ولا تزهد أبداً فى النظر إليه ؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس]

إذن : الوصف لا يُمدح ولا يُذم لذاته ، والسواد والبياض هنا

---

(١) الغبرة : ما دقَّ من التراب . قال تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ [عبس] أى : عليها غبار وتراب كناية عن الذل والشقاء . [القاموس القويم ٢/٤٧] .

(٢) القترة : غبرة يعلوها سواد كالدخان . [لسان العرب - مادة : قتر] قال ابن عباس : ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس] أى : يغشاها سواد الوجوه . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤/٤٧٤).

ليس هو السواد كما نعرفه فى الدنيـا فهى عملية نسبية ، وكنت أرى بعض الصالحين وكأن فى وجهه كـشافاً يُضىء ، وتبدو الفرحة على وجهه وكـأن نورَ اليقين وبشاشة الإيمـان تعدَّتْ داخله ونضحَتْ على وجهه نوراً ونضارة ، وهو صاحب بَشْرة سوداء مثل الأبنوس .

ومـثل هذا نجده فـى قوله تعـالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ⑲﴾ [لقمان] فهل يُذمّ صوت الحمـير إنْ صدر منها ؟ لا لأن الخالق خلقـه على هذه الصورة ، وعُلو صوت الحمار لـحكمة لأنه قد يختفى مـثلاً وراء جبل أو تَلٍّ عال ، فـلا يهتدى إليه صـاحبه إلا من خلال صوته ، لكن يُذمُّ عُلو الصوت فى الإنسان ، فهو أنكر الأصوات إنْ صدر منه ما يشبه صوت الحمار .

كذلك فى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا[1] ⑤﴾ [الجمعة] فليس هذا ذماً للحمـار ، لأن الحمار فى الحمل يؤدى مهمة وهى الحمل فحـسْب ، فهو يحمل حمله دون تبرُّم ودون اعتراض ، لكن يُذمُّ الإنسان إنْ تشبَّه بـالحمار فارتضى لنفسه أنْ يحمل فـقط دون أنْ يعى ما يحملـه ، ودون أنْ يفهم ، وأنْ يُطبق ما علم .

وقوله :﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى[2] لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ⑥⓪﴾ [الزمر] هذا استـفهام منفى نجـيب عليه فنقـول : بلى يا رب ، يعنى : لا بل لهم مثـوى فى جهنم ، والمـعنى : ماذا يظنون ؟ أيظنون أنه لا مـحلَّ لهم

---

(١) الأسفار : جـمع سفر ، وهو الكتاب الكبـير . وسفرت الكتـاب : كتبته والسـافر : الكاتب ، وجمعه سفرة أى كتبة . والسِّـفر عند أهل الكتاب : جزء من التوراة أو من الكتب المقدسة . [القاموس القويم ١/٣١٥]

(٢) ثوى بالمكان : حله وأقام فيه واستقر بـه . والثاوى : المقيم مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ④⑤﴾ [القصص] أى : مقيماً .

فيهـا ولا مكان ، إن مكانهم جاهز ومُعَدٌّ بأسمـائهم ينتظرهم ويشتاق إليهم ، فليس فى جهنم أزمة مساكن كما قلنا .

فالحق سبحانه خلق أزلاً الخلق ، وجعل لكل واحد منهم مكاناً فى الجنة على اعتبـار أن الخلق جميعاً سيـؤمنون بالله ، وجعل لكل واحد منهم مكاناً فى النار على اعتـبار أن الخلْق سيكفـرون ، فإذا ما دخل أهل الجـنة الجنةَ ، ودخـل أهلُ النارِ الـنارَ وُزِّعَتْ أمـاكن أهـل النار المعدة لهم لو آمنوا على أهل الجنة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

ومعنى (مَثْوَى) أى : مكان إيواء وإقامة دائمة ﴿ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) ﴾ [الزمر]

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ﴾

هذا هو المـقابل ، فالكافـرون مثـواهم وإقامـتهم فى جـهنم ، أما المـؤمنون فينـجيـهم ربهم ﴿ بِمَفَـازَتِهِمْ (٦١) ﴾ [الزمر] أى : بفوزهم ونَيْلهم لمرادهم . ونعـيم الآخرة يُنال بشكلين : إمـا أنْ يدخل المؤمنُ الجنةَ بدايةً ، وإمـا أنْ يكون من أهل الـنار لكن تتـداركه رحـمـة الله فيُزحزح عنها إلى الجنة .

كمـا قال سبـحانه : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (١٨٥) ﴾ [آل عمـران] نعم فـاز الفوز الأكـبر ؛ لذلك يسـمون الصـحارى مفازةً مع أنها مُهلكة ينقطع فيها السائر ، لكن سمَّوْهَا مفازة تيمناً أن ينجو سـالكها ، وكمـا يسمون اللـديغ من الثعبـان أو الحية يسـمونه السليم ، أملاً فى أنْ يَسْلَم من لدغتها .

وإذا ما نجاهم الله وكتب لهم الفوز فقد سلموا من مجرد مَسِّ العذاب ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾ [الزمر] لأن كل المشاهد التي يرونها تفرحهم ، ولا شيء يُحزنهم أبداً ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾ [الأنبياء]

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ (٦٢)﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه وعده ووعيده وبيَّن عاقبة الكافرين وعاقبة المؤمنين عاد إلى قضية عقدية أخرى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] وكأنه يقول : ما الذي صرفهم عن أنْ يؤمنوا بالله الإله الحق ، وهو سبحانه خالق كل شيء ؟

بعضهم أخذ هذه الآية ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] ونسب كل الأفعال إلى الله ، فالله في نظرهم خالق كل شيء ، خالق الإيمان وخالق الكفر ، وخالق الطاعة وخالق المعصية ، وبالتالي قالوا : فلم يعذب صاحبها ؟

نقول : هناك مَنْ يتعصب لقدرة الحق فيقول : كل شيء بقدرته تعالى ، وهناك مَنْ يتعصب للعدالة فيقول : إن الإنسان هو الذي يفعل وهو الذي يسعى لنفسه ، لذلك يُثاب على الطاعة ويُعاقب على المعصية . وهذا خلاف ما كان ينبغي أنْ يُوجد بين علماء ؛ لأن الطاعة أو المعصية فعلٌ ، والفعل ما هو ؟

الفعل أداء جارحة من الجسم لمهمتها . فالعين ترى ، لكن الخالق سبحانه وضع للرؤية قانوناً ، وجعل لها حدوداً ، فالعين ترى ما أُحلَّ

لها وتغضّ عما حُرِّم عليها ، كذلك الأذن واليد والرِّجْل واللسان ... الخ فإن وافقتَ فى الفعل أمر الشرع فـهو طاعة ، وإنْ خالفتَ أمر الشرع فهى معصية .

فمـثلاً الرجل الذى يرفع يـده ويضرب غيـره ، بالله هل هو الذى جعل جـارحته تفعل أم أنه وجَّـه الجارحة لما تصلح له ؟ إنـه مجرد مُوجِّه للجـارحة ، وإلا فهو لم يخلق فيهـا الفعل ، بدليل أنه لا يعرف العـضـلات التى تحـركتْ فـيـه ، والأعـصـاب التى شـاركتْ فى هذه الضربة .

إذن : نقول إن الفـعل شىء ، وتوجيـه الجارحة إلـى الفعل شىء آخر ، فـالفعل كـله مخلوق لله ، فـهو سبـحانه الذى أقـدر الأيدى أنْ تضرب ، وهو الذى أقدرها أنْ تمتد بالخير للآخرين ، الخالق سبحانه هو الذى أقـدر لسان المـؤمن أن يقول : لا إله إلا الله مـحمـد رسول الله ، وأقدر لسـان الكافر أن ينطق بكلمة الكفر والعياذ بالله ، العين فى استطاعتك أنْ تنظر بها إلى الحلال ، وفى استطاعتك أن تنظر بها إلى الحرام .

إذن : أقدر الله كلَّ جارحـة على المهمة التى تؤديهـا ، فإنْ كانت هذه المهمة موافقة للشرع فهى طاعة ، وإنْ كانت غير موافقة له فهى معصيـة . وعليه نقول : إن الله تعالى هو خالق الفعل على الحـقيقة . إذن : ما فعل العـبد فى المعصيـة حتى يُعاقب عليهـا ؟ وما فِعْله فى الطاعة حتى يُثابَ عليها ؟

إن فعل العبـد ودوره هنا هو توجيه الطاقة التى خلقهـا الله فيه ، هذه الطاقة التى جعلها الله صالحـة لأنْ تفعل الشىء وضده ، فالقدرة

على الفـعل ليســتْ من عندك ، إنما من عنـد الله ، وعليك أنت توجيـه الطاقة الفاعلة .

فمَنْ نظـر إلى الفعل فالفـعل كله لله ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر] ومَنْ نظر إلى التوجيـه والاختيار فهو للعـبد ؛ لذلك نقول : إن العاصى لم يعْصِ غـصْباً عن الله ، والكافر لم يكفر بـعيداً عن علم الله وإرادته ، لأن الحق سبـحانه لو شاء لجعل الناس جـميعاً أمـة واحدة على الطاعة والإيمـان ، لكن ترك لهم الاختيـار وتوجيه الأفعـال ليرى سبحانه - وهو أعلم بعباده - مَنْ يأتيه طواعية وباختياره .

لذلك تأمل قـوله سبـحانه : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

فمن الخطأ أن نقول : إن الإنسان وحـده هو المخيَّر ، إنما الكون كله مُـخيَّر أمـام الحق سبـحانه ، لكن الفـرق بين اختـيار السـماوات والأرض واختـيار الإنسان أن السمـاوات والأرض لما خُيِّرت اخـتارت أنْ تتنازل عن مرادها لمراد خـالقها سبحانه ، فهى اخـتارتْ بالفعل ، اخـتارت ألاَّ تكون مـخـتارة ، وأن تكون مـقهـورة لمـراد ربها ، أمـا الإنسان فقَبِلَ الأمانة واختار أن يكون مختاراً أمام خيارات متعددة .

وسبق أن أوضـحنا الفرق بيـن تحمُّل الأمانـة وأداء الأمانة ، وأن العبد قد يضمن نفســه عند التحمل ، لكن لا يضمن نفسه عند الأداء ، فهى إذن أمـر ثقيل ، لذلك وصف الحق سـبحانه الإنســان فى تحمله وتعرُّضه للأمانة بأنه ظلوم وجهول .

إذن : إياك أن تدخل فى متـاهة فتفهم قـوله تعالى : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر] على غيـر وجهه ، فتـقول : خالق كفـر الكافر

وعصيان العاصى ، فلماذا يعذبهم ؟ لأن الكافر هو الذى اختار الكفر ووجَّه طاقة الله لغير ما أراد الله ، والعاصى كذلك وجَّه طاقة الله إلى خلاف ما أمر به الله .

وهناك مَنْ يقول فى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢) ﴾ [الزمر] أن الكلية هنا إضافية ، كما فى قوله تعالى فى قصة بلقيس : ﴿ وَأُوتِيَتْ[1] مِن كُلِّ شَيْءٍ (٢٣) ﴾ [النمل] يعنى : لم تُؤْتَ بكل شىء فمن هنا للتبعيض ، والمعنى : أنهم يريدون أنْ يُخرِجوا فعل العباد من هذه المسألة ، وهذا لا يجوز .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢) ﴾ [الزمر] خبر أخبر به الحق سبحانه يحتمل ويحتمل ، لكن أدلة صدْق هذا الخبر نشأتْ حتى من الكافرين بالله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٢٥) ﴾ [لقمان]

إذن : فالظرف والمكان والمكين من خَلْق الله ، والله قد أخبر هذا الخبر وبلَّغه رسول الله ، وفى القوم مَنْ جحدوا الله وأنكروه وادَّعوْا له شركاء ، ومع ذلك لم ينقض أحدٌ هذه الدعوى ولم يقُلْ أحد : إنى خالق هذا الكون . والدعوى تَسْلَم لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض ، ومعلوم أن الإنسان يدَّعى ما ليس له ، فلو كان له شىء من الخَلْق ما سكت عنه .

ثم إن الإنسان طرأ على هذا الكون ، فوجده كما هو الآن بسمائه

---

(١) أى : أنها أوتيت من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن . أما عرشها فكان عظيماً مزخرفاً بالذهب وأنواع الجواهر واللآلىء . [ابن كثير فى تفسيره ٣/٣٦٠] .

وأرضه ، فكيف يدَّعى أنه خالقه وهو أقدم منه ، بل وخَلْقه أعظم من خلقه ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

فإذا ما جاءنا رسول نعلم صدقه يخبرنا بأن لهذا الكون خالقاً صفته كذا وكذا كان يجب علينا أنْ نرهف له الآذان لنسمع حَلَّ هذا اللغز ، ومثَّلْنَا لذلك برجل انقطع فى صحراء مُهلكة حتى شارف على الموت وفجأة وجد مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، بالله ماذا يفعل قبل أن تمتدَّ يده إلى الطعام ؟ إنه لابدَّ أنْ يسأل نفسه : من أين جاءت هذه المائدة ؟

إذن : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢) ﴾ [الزمر] خبر عليه دليل من الوجود ، ودليل من المعاندين للخالق سبحانه ، والحقيقة أنهم لا يعاندون الحقَّ من أجل مسألة الخلق ، إنما يعاندونه اعتراضاً على شرعه وأحكامه ، لأن هذه الأحكام ستقيد نفوسهم فلا تنطلق فى شهواتها ، والإيمان له تبعات ووراءه حساب وعقاب وجزاء ، وإلا لماذا عبدوا الأصنام ؟

عبدوها لأنها آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليف ، فهى تُرضى فطرة التديُّن عندهم بأن يكون له معبود يعبده ، وما أجملَ أن يكون هذا المعبود لا أمرَ له ولا نهىَ ولا تكاليف . إذن : قولهم :﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ[1] (٣) ﴾[الزمر] لفظ العبادة هنا لفظ خاطىء ، لأن معنى العبادة : طاعة العابد لأمر معبوده ونَهْيه ، وهذه الأصنام ليس لها أمر ولا نهى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) ﴾[الزمر] الوكيل : هو الذى تُوكله أنت فى العمل الذى لا تقدر عليه كما فى قصة سيدنا موسى

---

(١) الزلفى : القربة والدرجة والمنزلة ، وأزلف الشيء : قرَّبه [لسان العرب – مادة زلف] .

- عليه السلام - لما قال له قومه : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] وهم ساعتها على حقٍّ ، لأن البحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم ، فكل الدلائل تؤيد قولهم ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء]

لكن لموسى عليه السلام نظرة أخرى وشأن آخر ، إنه موصولٌ بربه معتمد عليه ومتوكل عليه ، يعلم علم اليقين أن الله وكيله فيما يعجز هو عنه ؛ لذلك ردَّ عليهم وقال (كلا) لم يقلها من عندياته ، إنما قالها برصيد من إيمانه بربه وثقته بنصره ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

ويقول تعالى في التوكل عليه : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢)﴾ [النمل]

وقال سبحانه : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ[1] مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ..(٦٧)﴾ [الإسراء] فالله وكيل لعباده جميعاً حتى الكافر منهم ؛ لذلك ترى مَنْ كفر بالله حين لا تسعفه أسبابه ، أو تضيق عليه أموره ، يقول : يا رب لأنه لا يخدع نفسه ولا يغش نفسه .

فكما صدق الحق سبحانه في الإخبار بأنه ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] صدق في الإخبار بأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)﴾ [الزمر] ألا ترى الزرع مثلاً يزرعه الفلاح ويرعاه ، فتراه نَضِراً جميلاً لكن قبل الحصاد تجتاحه جائحة[2] أو تحل به آفة فتهلكه ، فالله من عند مَنْ هذه الآفة ؟ من عند خصومك وأعدائك ؟ ! لا .. بل هي من عند الله .

---

(١) ضل الشيء : خفي وغاب . ومنه قوله تعالى : ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾ [القصص] أي : غاب عنهم ما عبدوه . [القاموس القويم ١/٣٩٥] .

(٢) الجوح : الاستئصال من الاجتياح . والجائحة : الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة . والجائحة المصيبة تحل بالرجل في ماله فتجتاحه كله . [لسان العرب - مادة : جوح]

وما دام أن الله تعالى هو خالق كل شيء وهو وكيل على كل شيء ، فلا بدَّ أن يكون له مُلْك السماوات والأرض ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ(1) ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

القرآن عربى نزل بلغات العرب المتداولة ساعة نزوله ، ومع ذلك ففى القرآن كلماتٌ وألفاظ فارسية أو حبشية أو رومية[2] وهذه الألفاظ لا تخرجه عن كونه عربياً ، لأنها دخلتْ لغة العرب قبل نزول القرآن واستعملها العربى وعرفها ، وصارت جزءاً من لغته .

ومن هذه الكلمات (مقاليد) فلله ﴿ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزمر] وهى جمع مقلاد على وزن مفتاح ، أو جمع مقليد ، وفى لغة أخرى يقولون أقاليد جمع إقليد . ومعناها التملُّك والتصرف والحفظ والصيانة ، فلله تعالى مُلْك السماوات والأرض ، وله مُطلق التصرف فى أمورهما ، وله سبحانه حفظهما وتدبير شئونهما .

وهذه هى القيومية التى لله تعالى ليظل كل شىء من خَلْقه فى مهمته ، فالحق سبحانه خلق من عدم ، وأمدَّ من عُدم ، وشرع الشرائع ، وسَنَّ القوانين ، ثم لم يترك الخَلْق هكذا يسير بهذه القوانين كما يدَّعى البعض ، إنما هو سبحانه قائم على خلقه قيُّوم

(١) مقاليد : جمع مفرده مقليد مقلاد ، إقليد . قال ابن عباس وغيره : المقاليد المفاتيح ، وقال السدى : خزائن السماوات والأرض . وقال غيره : خزائن السماوات المطر وخزائن الأرض النبات .[نقله القرطبى فى تفسيره ٨/ ٥٩٢٠] .

(٢) عقد السيوطى فى كتاب «الإتقان فى علوم القرآن» فصلاً عما وقع فى القرآن بغير لغة العرب (ص ١٠٥-١٢٠) . ومن أمثلة الألفاظ الفارسية : أباريق - جهنم - دينار . ومن أمثلة الحبشى : سينين ، شطر ، الطاغوت ، وما جاء من الرومية : القسط ، القسطاس ، طفقا .

عليهم ، لا يغفل عنهم لحظة واحدة ، واقرأ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا [1] إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١) ﴾ [فاطر]

ولو أن الكون يسير بالقوانين التى خلقها الله فيه - كما يقول الفلاسفة - لكانت الأمور تستقر على شىء واحد لا يتغير ، بمعنى أنْ يظلَّ الصحيحُ صحيحاً ، ويظلَّ العزيز عزيزاً ، والغنىُّ غنياً .. الخ لكن الأمر غير ذلك ، لأن لله فى خَلْقه قيومية وتصرُّفاً .

وقد سأل سيدنا عثمان - رضى الله عنه - سيدنا رسول الله ﷺ عن مقاليد السماوات والأرض ، فقال : « يا ابن عفان ، ما سألنى أحدٌ قبلك عنها ، مقاليد السماوات والأرض هى : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله العظيم ، ولا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله العلى العظيم ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، بيده الخير يُحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير . تلك مقاليد السماوات والأرض » [2]

هكذا فسَّر رسول الله كلمة مقاليد السماوات والأرض بأنها كلمات ذِكْر ، كأن الكون كله قائم بهذه الكلمات العقائدية .

فكلمة لا إله إلا الله تعنى أن الله واحدٌ لا شريكَ له ، فإذا قضى أمراً لا يعارضه معارضٌ ، ولا يعترض عليه معترض ، إنْ أعطى لا أحدَ يمنع

---

(١) إن : هنا بمعنى ما نافية . أى : ما أمسكهما .

(٢) أخرجه العقيلى فى الضعفاء الكبير (٤/٢٣١) ترجمة مخلد أبو الهذيل (١٨٢٥) وقال : فى إسناده نظر لا يتابع عليه إلا من طريق يقاربه ، وذكره الكنانى فى « تنزيه الشريعة المرفوعة » (١/١٩٢) وذكر الاختلاف فى وضعه وإن اتفق على نكارته . قال ابن حجر : عندى أنه منكر من جميع طرقه ، وأما الجزم بكونه موضوعاً فأتوقف عنه إذ لم أر فى رواته من وُصِف بالكذب انتهى .

عطاءه ، وإنْ منع فلا مُعطى لما منع ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ (٧٣) ﴾ [الحج] بل ما هو أيسر من عملية الخَلْق ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ (٧٣) ﴾ [الحج] وهل تستطيع أنْ تسترد من الذبابة ما أخذته من العسل مثلاً إنْ وقعتْ عليه ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

لذلك هذه الكلمة (لا إله إلا الله) قالها الحق سبحانه أولاً وشهد بها لنفسه سبحانه شهادةَ الذات للذات ، وهذه الشهادة تعنى أنه لا يتأبَى على الله شىء من الخَلْق أبداً ؛ لذلك يقول للشىء : كن فيكون . ثم شهدتْ بذلك الملائكة شهادةَ المشاهدة ، ثم شهد بها أولو العلم شهادة استدلال ، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ (١٨) ﴾ [آل عمران] فكلمة لا إله إلا الله مقلاد من المقاليد التى لله تعالى .

كذلك كلمة (الله أكبر) من مقاليد السموات والأرض ، وسبق أنْ بينَّا أن كلمة الله أكبر هى شعارنا فى النداء للصلاة ، مع أن أكبر ليس من أسمائه تعالى إنما من أسمائه تعالى الكبير ، فلماذا لم يستخدم الاسم واستخدم فى النداء للصلاة الصفة (أكبر) .

قلنا : إنها أفعل تفضيل من كبير ؛ لأن ربك حين يستدعيك للصلاة يُخرجك من عمل الدنيا ، هذا العمل ليس أمراً هيِّناً ولا تافهاً إنما هو عظيم وكبير ، لأن به تقوم أمور الدنيا ، وبه تستعين على أمور الدين ، فهو وإن كان كبيراً فالله أكبر ، فاترك العمل إلى الصلاة ، أما الاسم الكبير لأن ما سواه صغير .

وكلمة (سبحان والله وبحمده) من مقاليد السماوات والأرض ، لأنك ستتعرض لأمور هى فوق إدراكك ولا يقدر عليها إلا الله ، فإياك

أنْ تقف أمامها لتقول : كيف ؟ إنما حين يُنسب الفعل إلى الله فقُلْ سبحان الله ، وهذه المسألة أوضحناها فى قصة الإسراء ؛ لذلك بدأت بهذه الكلمة ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ۝١ ﴾ [الإسراء]

ولا غرابة فى ذلك ، لأن الفعل نُسب إلى الله ولم يقُلْ محمد ﷺ : « سريتُ إنما قال : أُسْرِى بى »[1] ومعلوم أن الفعل يتناسب وفاعله قوةً وزمناً ، فإذا كان الفاعل هو الله فلا زمنَ يُذكر .

ومثَّلنا لذلك قلنا : لو أنك تريد السفر إلى الإسكندرية مثلاً تركب حماراً أو جواداً أو سيارة أو طائرة أو صاروخاً ، هل سيكون الزمنُ نفس الزمن ؟ لا لأن الزمن يتناسب مع قوة الوسيلة ، فكلما زادتْ القوة قَلَّ الزمن ، فإذا كان الفاعل فى الإسراء هو قوة القوى وهو الله ، فلا شكَّ أن الفعل لا يحتاج إلى زمن .

حين تتأمل الدم يجرى فى الشرايين لابدَّ أنْ يكون على درجة معينة من السيولة ليجرى ، فإنْ قلَّتْ هذه السيولة تجلَّط وتجمد فى مجاريه ، وقد تسد الشرايين فيموت الإنسان ، لكن إذا سال الدمُ خارجَ الجسم يتجلَّط ، أما فى العروق فيظل على سيولته .

تأمل حرارة الجسم تجد الحرارة الطبيعية ٣٧° سواء أكنتَ تعيش فى بلاد الإسكيمو أو بجوار خط الاستواء حرارتك ثابتة عند ٣٧° ،

(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحجر . فجلا الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » أخرجه أحمد فى مسنده [٣/٣٧٧] والبخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠) ، فوصف لهم رسول الله بيت المقدس باباً باباً ونافذة نافذة وأعمدته والطريق إليه ، وهذا لا يُعقل أن يكون حُلماً أو رؤيا مهما كانت رؤيا صادقة أن تكون دالة على كل هذه التفاصيل .

ومع ذلك ففى جسم الإنسان أعضاء تختلف فى حرارتها وهى فى الجسم الواحد ، فالعين مثلاً حرارتها الطبيعية تسع درجات ، والكبد أربعون درجة ، ولو طغتْ حرارة الجسم على حرارة العين لفقد الإنسان بصره .

ومن المعروف أن من خصائص الحرارة أو البرودة خاصية الاستطراق ، فكيف لا تُستطرق الحرارة والبرودة داخلَ الجسم الإنسانى ؟ هذه كلها أمور يجب أن نقول فيها : سبحان الله صاحب هذه القدرة ومُبدعها .

إذن : قُلْ دائماً سبحان الله فى كل أمر مُستغرب ؛ لذلك علَّمنا القرآن هذه الكلمة فى كل فعل لا يقدر عليه إلا الله . قال سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ (١) ﴾ [الإسراء] وقال :﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

وكلمة (سبحان الله) ينبغى أنْ تُقرن بحمده سبحانه ، فكأنك تحمد الله أنه مُنزَّه عن مماثلة الخَلْق أو مشابهة الخَلْق ، الحمد لله أنه لا مثيل له ولا نظيرَ له ولا ندَّ له ، لأن هذا التنزيه تعود ثماره عليك أنت أيها المؤمن .

وكلمة (أستغفر الله العظيم) من مقاليد السماوات والأرض ، فإنْ غفلتَ عنى فمن مقاليدى أنْ أغفر لك إن استغفرت حتى لا أحرمك من التوبة والإنابة إلىَّ ومغفرة الدنيا مَحْوٌ للذنب ، فهى مظهر من مظاهر رحمته تعالى بنا ؛ لأن العبد إن أغلقنا فى وجهه باب التوبة استشرى فى العصيان ، وتمادى فى الاعتداء على الآخرين .

إذن : فمشروعية التوبة رحمتْ البشر من شرور البشر .

وكلمةُ « لا حول ولا قوة إلا بالله » هي أيضاً من مقاليد السماوات والأرض ، فإذا أقبلت على شيء : فإياك أن تظن أنك تقبل عليه بحولك وقوتك ، إنما لا حولَ ولا قوةَ لك إلا بالله ، لأنه سبحانه هو الذي يستطيع أن يسلب منك الحول ، وأنْ يسلب منك القوة .

أما تفكرتَ في يدك .. كيف تحركها كيفما تشاء في يُسْر وسلاسة ، وهي تنقاد لك وتطاوعك ، وأنت لا تعرف حتى العضلات والأعصاب التي تشارك في هذه الحركة ولا تدري بها ؟

إنها قدرة الله فيك ، فإذا أراد سبحانه أن يسلب منك هذه القوة منع السيال الكهربي القادم من المخ إلى هذا العضو فتحاول رفعه فلا تستطيع . إذن : اجعل هذه المسألة دائماً في بالك كلما أقبلتَ على عمل ، واعلم أنه لا يتم لك بقوتك إنما بقوة الله .

وكلمة « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » من مقاليد السماوات والأرض ، فهو سبحانه الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، كما قلنا في دعاء رمضان : يا أول لا قبل آخر ، ويا آخر لا بعد أول ، لكن ذاك في ذاك فقفْ أيها العقل عند منتهاك .

ومعنى : الظاهر أي الظاهر في مُلْك الله مما يقع تحت إدراك البصر ، والباطن : أي الخفيّ في ملكوت الله الذي لا تراه ، فلله تعالى مُلْك ظاهر وملكوت غير ظاهر لا يُطْلع عليه إلا مَنْ شاء من عباده في الوقت الذي يريده سبحانه .

وكلمة « بيده الخير » هي أيضاً من المقاليد ، وبعض العلماء[1] قالوا : بيده الخير والشر ونظروا إلى قوله تعالى :﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ

(١) قال ابن عباس فيما ذكره ابن الجوزي في (زاد المسير) في تفسير آية ٢٦ آل عمران . قال : بيدك الخير والشر فاكتفى بأحدهما ، لأنه المرغوب فيه .

﴿ٱلْمُلْكَ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران]

فلما جمعتْ الآية بين الشيء ونقيضه جرَّأتهم أنْ يقولوا بيده الخير والشر وهذا لا يجوز ، نعم رسول الله ﷺ قال « بيده الخير » تأدباً مع الله ولم ينسب الشر لله ، ونحن كذلك لا ننسب الشر إلى الله تعالى ، لذلك أنا منذ عام ١٩٢٨ وأنا معترض على قولنا فى الدعاء : « واكفنا شر ما قضيت »[1] وقلت : لابد أنْ يُعدَّل هذا الدعاء ، ثم هدانا الحق سبحانه لحلها فقلنا : إن شر ما قضيتَ ألاَّ ترضى بالقضاء .

ولو تأملنا لفظ « بيده الخير » وفى الآية ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران] نجد أن الخير هنا مطلق بمعنى أن كل أفعال الحق سبحانه خير ، ولا يأتى الشر إلا من الخَلْق ، واقرأ :﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴿٧٩﴾﴾ [النساء]

فإنْ قلتَ : كيف نجمع بين مثل هذه الآية وبَيْن قوله تعالى : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴿٧٨﴾﴾ [النساء] نقول : سبق أنْ أوضحنا حلَّ هذه الفزورة وقلنا : نعم كُلٌّ من عند الله بمعنى أن الله تعالى هو خالق الفعل بمعنى خالق القوة والطاقة التى تفعل ، لكن أنت توجه هذه الطاقة إما إلى الخير وإما إلى الشر ، وعليه نقول : الخير من الله والشر منّا نحن .

وقوله : « يحيي ويميت » أيضاً من المقاليد والموت والحياة هما أول ظاهرة فى وجود الإنسان ، والخالق سبحانه خلق الحياة وخلق الموت ، ولما حدثنا عن ذلك قال تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى سننه (٢/٦٣) حديث (١٤٢٥) باب القنوت فى الوتر ، وأحمد فى مسنده (١/١٩٩ ، ٢٠٠) من حديث الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما .

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ [الملك]

فذكر الموت أولاً حتى لا نستقبل الحياة بغرور البقاء ، بل نستقبلها وفي الأذهان أننا سننتهي إلى الموت فنعمل لهذه النهاية ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الروم] يعني : يفعل ما تعجز أنت عن فعله ، وله سبحانه القدرة المطلقة فلا يعجزه شيء ، ولا يستعصى عليه شيء ، لذلك حين تطلب من ربك الرزق اطلب أنْ يرزقك من حيث لا تحتسب ، لأن لله تعالى أسباباً للرزق لا تعرفها أنت ، لذلك قال أهل المعرفة : الأسباب ستر ليد الله في العطاء .

إذن : فقوله تعالى ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (٦٣) ﴾ [الزمر] أي : بقدرته الخالقة وبقيوميته الدائمة ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ (٦٣) ﴾ [الزمر] سواء أكانت آيات كونية أو معجزات رسل ، أو آيات الكتاب حاملة الأحكام ، ومعنى كفروا بها أي : استعلوا على تنفيذها ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) ﴾ [الزمر] يعني : صفقتهم خاسرة ، وتجارتهم بائرة ، لأنهم آثروا الشهوة العاجلة على النعيم الدائم الذي لا يفوتك ولا تفوته.

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) ﴾

تذكرون ما كان من أمر كفار مكة لما عاندوا رسول الله وصادموه وتأبَّوْا على دين الله ، ومع ذلك انتشر الإسلام وزاد

---

(١) سبب نزول الآية : ذكر ابن كثير في تفسيره (٤/٦١) في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه .

أتباعه ، فحاول الكفار مهادنة رسول الله فقالوا له : يا محمد تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة[1] ، فردَّ الله عليهم (قُلْ) يا محمد رداً عليهم ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤)﴾ [الزمر] والاستفهام هنا للتعجب والإنكار ، أتريدون منى وأنا رسول الله وأمينه على وَحْيه ورسالته أنْ أعبد غيره ، وكلمة (تأمرونِّى) ورد فيها عدة قراءات[2] : تأمرونِّى بتشديد النون وتأمرونني ، والنون هنا للوقاية يعنى : تقى الفعل من الكسر ، وتأمرونى بياء واحدة .

وكلمة (أعبدُ) أصلها أن أعبد فلما حُذفَتْ (أنْ) جاء الفعل على طبيعته بالرفع ، وهذه الكلمة دلَّتْ على أن عبادة الأصنام أو عبادة غير الله باطلة أصلاً فى العقل ، لأن العبادة كما ذكرنا طاعة العابد للمعبود ، والأصنام لا منهجَ لها نطيعها أو نعصيها .

لذلك وصف عابديها بالجهل ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤)﴾ [الزمر] ولابد أن نفرق بين الجاهل والأمى : الأميّ أفضل من الجاهل ، لأنه خالى الذِّهْن ليست عنده قضية يتمسك بها ، لذلك يسهل عليك إقناعه ، أما الجاهل فليس خالى الذهن بل لديه قضية خاطئة مخالفة للواقع وهو متمسك بها ؛ لذلك يحتاج إلى جهد مضاعف ، أولاً لتُخرج من عنده

---

(١) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص٢٦١) فى سبب نزول سورة (الكافرون) أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك . فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾ [الكافرون] .

(٢) وردت عدت قراءات ، منها :

- تأمرونىَ : بنون واحدة مخففة وفتح الياء ، قراءة نافع
- تأمرونَنى : بنونين مخففتين على الأصل . قراءة ابن عامر
- تأمرونِّى : بنون واحدة مشددة على الإدغام . الباقون واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لأنها وقعت فى مصحف عثمان بنون واحدة . [تفسير القرطبى ٥٩٢٢/٨]

القضية الخاطئة ، ثم تُدخل عليه القضية الصحيحة .

لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب]

وسبق أنْ تكلمنا فى مسألة الحيز وأن الحيز الواحد لا يتسع إلا لشىء واحد ، لذلك نلاحظ مثلاً حين نملأ القُلَّة بالماء تخرج فقاعات الهواء أولاً قبل أن يدخل الماء ، كذلك القضية الفاسدة فى قلب الجاهل لا بدَّ أنْ تخرج أولاً حتى يقبل الصواب ، وكلما وافقتْ القضية هواه كان خروجها أصعب ، ومن هنا كان الجاهل أشقَّ على المعلم من الأمى .

ومسألة الحيز هذه قضية فطرية ينتهى إليها الفيلسوف والطفل وراعى الشاة ، ألا ترى الطفل الصغير يجلس مثلاً بجوار والده فإنْ أراد أخوه أنْ يجلس مكانه قام له وأجلسه ، لماذا ؟ لأنه يعرف هذه القضية ، وأن المكان الواحد لا يتسع إلا لشىء واحد .

إذن : وصف الكفار بالجهل لأنهم مؤمنون بقضية خاطئة متمسكون بها ، ومن الصعب زحزحتهم عنها وهى قضية الشرك بالله ، وأىُّ جهل بعد عبادة الأصنام ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

هذه الآية تبين علة الاستفهام والتعجب فى : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر] يعنى : كيف تأمروننى بذلك ، وأنا

الرسول المؤتمن على الدين والوحى ، وقد أوحى الله إلىَّ وإلى الذين من قبلى ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)﴾ [الزمر] هذه علَّة تجهيلهم فى قولهم لرسول الله : نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة .

ومعنى ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ (٦٥)﴾ [الزمر] أى : الرسل السابقين ، لأن كل واحد منهم قُوبِل بهذه القضية ، لكن هل يُعقل من الرسل أنْ يشركوا بالله ؟ قالوا : هذا فَرْض ، يعنى : لو فرضنا ذلك فسيكون هذا جزاءهم ، فهى أشبه بقولهم : (إياك أعنى واسمعى يا جارة) فإذا كان هذا الوعيد مُوجَّهاً إلى الرسل فهو مُوجَّه من باب أَوْلَى إلى العامة .

قال بعض العلماء فى هذه الآية ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ (٦٥)﴾ [الزمر] أنت تتكلم هنا عن عصمة الرسل ، لكن هذه العصمة بقدر الله ، وقدر الله لا يملكه أحد ، ألم يَقُلْ رسولٌ من الرسل : ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ..(٨٩)﴾ [الأعراف]

فالمعنى أنه أعطى للقدرة طلاقة أنْ تفعل ما تريده ، وإنْ كان هذا لا يحدث .

ومضمون الوحى إليك وإلى الذين من قبلك : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ (٦٥)﴾ [الزمر] لكن الآية جعلت الموحَى إليهم فى جانب ، ورسول الله ﷺ فى جانب ، فخصَّ اللهُ رسوله بالخطاب فى ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ (٦٥)﴾ [الزمر] والخطاب لرسول الله دلَّ على أنه مُوجَّه أيضاً إلى الرسل السابقين .

ومعنى ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ (٦٥)﴾ [الزمر] يفسد ويضيع بلا جدوى ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)﴾ [الزمر] نعرف فى التجارة أن الخسارة

هى أنْ يقلَّ رأس المال ذاته ، فالتاجر حين لا يربح زيادة على رأس المال لا يُسمَّى خاسراً ما دام سلِم له رأس ماله .

كذلك المؤمن ، رأس ماله فى تجارته مع الله إيمانه وعمله الصالح ، فربُّك خلقك من عَدَم وأمدَّك من عُدم ، وأرسل لك رسلاً وأنزل لك كتباً ، فجعل لك بذلك صفقة رابحة معه سبحانه ، وعليك أنت أيها المؤمن أنْ تستغلَّ هذه الفرصة لتربح مع الله ، لأن العمل الذى تعمله فى الدنيا عملٌ موقوت بحياتك وعمرك فى الدنيا .

أما الجزاء على العمل ففى الآخرة وهى غير موقوتة ، بل دائمة باقية ، وهنا تكمن مَيْزة التجارة مع الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٦) ﴾

كلمة (بل) حرف يفيد الإضراب عن الكلام السابق وإثبات ما بعدها ، يعنى : اعرض عن دعوتهم لك أنْ تعبد آلهتهم ، وإياك أنْ تميلَ إليهم ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ (٦٦) ﴾ [الزمر] وليؤكد عبادة الله وحده جاء بهذا الأسلوب (بل الله فاعبد) وقدَّم المفعول به على الفعل ، وهذا يُسمَّى أسلوبَ قصر . يعنى : قصر العبادة على الله وحده دون سواه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ (٥) ﴾ [الفاتحة]

فتقديم الضمير المنفصل العائد على الحق سبحانه على الفعل نعبد يعنى : نعبدك أنت فقط لا نعبد غيرك ، أما لو قُلْنا : نعبدك تحتمل ونعبد غيرك . وقوله : ﴿ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾ [الزمر] الشاكرين الله على الهداية والتوفيق ، لأنْ تعبده وحده وتشكره على ما تقدم لك من النعم ، وما هذه النعم إلا (عربون) للنعيم الدائم الذى ينتظرك .

ومن عجائب لطفه تعالى بنا أنْ شرع لنا من الأحكام افعل ولا تفعل ما فيه الخير لنا فى دنيانا ، ثم يُثيبنا عليه فى الآخرة إنْ أطعنا ويُخوِّفنا بالعذاب إنْ عصينا ، فهو سبحانه لطيف بنا حريص على نجاتنا ، مع أنه سبحانه لا ينتفع من ذلك بشىء ، فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .

واقرأ الحديث القدسى عند رب العزة سبحانه : « يا عبادى .. لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخِلَ البحر »[1]

فاعلم أيها العبد أن ربك يحبك ويريد لك الفوز والنجاة فأنت عبده وأنت صنعته ، والصانع يريد لصنعته أنْ تكون على أحسن حال .

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ[2] يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٩٤/٤) كتاب البر والصلة (حديث ٢٥٧٧) باب تحريم الظلم من حديث أبى ذر رضى الله عنه . والمخيط : هو الإبرة والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه ، فإن البحر من أعظم المرئيات عياناً وأكبرها والإبرة من أصغر الموجودات .

(٢) القبضة ملء اليد مضمومة الأصابع ، ولكنها فى حق الله سبحانه وتعالى معناها أن الأرض فى حوزته وتحت سيطرته كالشىء المقبوض عليه باليد الواحدة وفى ذلك ما يدل على صغر العالم وضآلته بجانب قدرة الله وعظمته (القاموس القويم ٩٧/٢) وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٥٩٢٤/٨) « عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته » ، وهو ما ذهب إليه هنا فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله .

معنى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (٦٧) ﴾ [الزمر] يعنى : ما قدروه وما عظَّموه التعظيم المناسب له سبحانه ، يعنى : ما عرفوا الله قيمته ، ولذلك أشركوا به ، والشرك فى حدِّ ذاته يعنى عدم تقدير الله حَقَّ قدره . وقد فعلوا ذلك والحال أن ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ (٦٧) ﴾ [الزمر] إذن : كيف يحدث منكم ذلك ؟ أغفلتم عن هذه الحقيقة ؟ إنكم سوف ترونْ عاقبة فعلكم فى الآخرة .

ومعنى ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٦٧) ﴾ [الزمر] نقول : هذا الأمر فى يدى يعنى : أنا مُتمكن منه تمكُّناً بحيث لا يفلت منِّى ، وليس من الضرورى بالنسبة لله تعالى أن يكون فى المسألة قبضة أو يد ، فهنا كناية عن القوة والتمكُّن ، كما نقول مثلاً قبضنا على المجرم يعنى : أصبح فى حوزتنا ولم يَعُدْ مطلق السراح فى الحياة يفعل ما يشاء .

وسبق أنْ قلنا : إذا ذُكر للحق سبحانه وصفٌ له مثيل فى عباده فخُذْه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى] ومن ذلك صفة السمع والبصر واليد والعلم .. الخ .

وكلمة ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا (٦٧) ﴾ [الزمر] أى : أرضنا التى نعيش عليها وأمثالها من الأراضين لأن الحق سبحانه قال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ (١٢) ﴾ [الطلاق] هذا كله فى مجموعتنا الشمسية ، فما بالك بباقى المجموعات والمجرَّات التى تحوى الملايين مثل أرضنا : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) ﴾ [الشورى]

وقوله : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ (٦٧) ﴾ [الزمر] يطويها

بقدرته تعـالى ، واليمـين عندنا هى الفاعلة فى الأشـياء وهى مـصدر القوة ؛ لذلك قال سـبحانه : ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الصافات] أى من جهـة القوة ، وفى مـوضـع آخر قـال الحق سبـحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء]

لكن أىّ أرض نعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] ؟ قالوا : هى أرض غـير الأرض التى نعرفـها ، لأن الأرض ستُبـدل فى الآخرة ، كما قـال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم] لأن أرض الدنيا أرضُ أسباب ، نعيش عليـها ونأكل من ثمـرها ونزاول فيهـا حياتنا ، أمـا فى الآخرة فالحياة فيها بالمسبِّب سبحانه .

أرض الآخـرة لا زرعَ فيـهـا ولا حـرثَ ولا حصـادَ ، إنمـا تأكل وتشـرب بمجـرد إرادة الأكل أو الشرب ، فـما يخطر على بالك تـجده بين يديْكَ لا بأسباب ، إنما بقدرة المسـبِّب سبحانه ، كذلك السماء فى الدنيا سمـاء أسباب ينزل منها المطر وتشرق فيـها الشمس ، ويُنوِّرها القمر ، أما فى الآخرة فلا شىء من ذلك لا مطرَ ولا شمسَ ولا قمر ، إنما تُنوِّر الأرض بنور ربها .

وقـوله تـعـالى فى خـتـام هـذه الآيـة ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] أمر بأن نقول سبـحان الله ، وأنْ نُنزِّهه تعالى عن مشـابهة خَلْقـه فى مسـألة القبـضة وفى طَيِّ السـماء ، لأنه ليس كالطَّيِّ الـذى نـعرفه نحن ، إنمـا ينبـغى أن نـأخـذ هـذه الصفات فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] فنزه الله عما يقوله المشـركون .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ[1] ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ تكلَّم عن العقائد وذكر الوعد للطائعين والوعيد للعاصين ، أراد سبحانه أنْ يُحدِّثنا عن الآخرة وهى دار الجزاء على الأعمال فى الدنيا ، والدنيا فيها أموات وفيها أحياء ، ولن تقوم الساعة إلا إذا مات الجميع ليتحقق البعث ، وإلاَّ فكيف يكون البعث فى حَقِّ مَنْ لم يَمُتْ ؟ لذلك يُحدِّثنا الحق سبحانه هنا عن النفْخ فى الصور ، هذه النفخة التى تُميت كل مَنْ هو حَيٌّ .

الفعل (نُفخ) جاء بصيغة الفعل المبنى للمجهول ، الذى لم يُسَمَّ فاعله ، لكن السُّنة هى التى بيَّنت الفاعل وأنه إسرافيل ، و (الصُّور) بوق مثل القربة ينفخ فيه إسرافيلُ النفخةَ الأولى التى تُميت كلَّ الأحياء ، لأن القيامة ستقوم وعلى الأرض أحياء لابد أنْ يموتوا ،

---

(١) اختُلف فى المستثنى ، مَنْ هم ؟ على أقوال أوردها القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٢٥) :

- هم الشهداء متقلدين أسيافهم حول العرش . روى مرفوعاً من حديث أبى هريرة فيما ذكر القشيرى ، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبى .
- هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ . ذكره الثعلبى والنحاس من حديث ابن إسحاق عن يزيد الرقاشى عن أنس . وقال القرطبى : حديث أبى هريرة فى الشهداء أصح .
- هم : رضوان والحور ومالك خازن النار والزبانية ، قاله الضحاك .
- عقارب أهل النار وحيَّاتها .
- هو الله الواحد القهار وما يدع أحداً من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت . قاله الحسن .
- يموت من فى السماوات والأرض إلا مَنْ سبق موته ، لأنهم كانوا قد ماتوا .

ليكون لهم بعث كالذين ماتوا من لدن آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ (٥٧) ﴾ [العنكبوت]

لكن : هل النفخة الأولى هى التى تُميت ؟ أو النفخة الثانية هى التى تحيى الموتى ؟

نقول : النفخة ذاتها لا تحيى ولا تميت ، إنما هى إيذانٌ لمن بيده الأمر أنْ يبدأ عمله ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ (٦٨) ﴾ [الزمر] كلمة صعق تأتى بمعنيين .

صعق بمعنى هلك كما فى قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) ﴾ [الطور] يعنى : يهلكون .

وتأتى صعق بمعنى أُغمى عليه وفقد الوعى ، كما حدث لسيدنا موسى عليه السلام حين تجلَّى ربُّه للجبل ، فلما دعا موسى ربه قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي (١٤٣) ﴾ [الأعراف] وليس المعنى هنا أننى لا أُرى ، إنما أنا أُرى لكنك فى تكوينك الحالى لا تستطيع أنْ ترانى ، إذن : قد يتغيَّر الحال على صورة يمكنك فيها أنْ ترانى .

وإذا كان البشر قد توصَّلوا لطرق وأساليب وأسباب تُمكِّن من رؤية ما لم تقدر على رؤيته ، فرأينا النظارة والنظارة المعظمة والتليسكوبات .. الخ . إذن : فالحق سبحانه من باب أَوْلَى قادر على أنْ يجعلك ترى ما لم تكُنْ تراه من قبل .

ثم يقول سبحانه فى تمام هذه القصة : ﴿ وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي (١٤٣) ﴾ [الأعراف] الحق سبحانه يريد أنْ

يؤكد لموسى عليه السلام هذه القضية لا بالقول إنما بالفعل ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه موسى : إذا كنت صُعِقْتَ - يعنى : فقدتَ الوعى - من رؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل ، فكَيف بك إذا رأيتَ المتجلِّى سبحانه ؟

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ (٦٨) ﴾ [الزمر] أى : شاء ألاَّ يُصعق ، وهذه المشيئة مؤقتة لأن من لم يَمُتْ فى هذه النفخة الأولى لابدَّ وأنْ يموت فيما بعد ، وآخر مَنْ يموت هو ملك الموت حيث يقول له الحق سبحانه : مُتْ يا ملَكَ الموت فيموت . بعدها يصير الخلود بلا انتهاء .

قالوا : الذين استثناهم الله من هذه النفخة هم الملائكة الموكَّلون جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، وقد أخبرنا النبى ﷺ أن موسى عليه السلام فيمَنْ استثنى من هذه الصعقة ، فقد ورد فى الحديث [١] أن الصَّعْقة حدثتْ وحصل للناس غَشْية ، وكان رسول الله أول مَنْ أفاق منها فوجد أخاه موسى عليهما السلام ممسكاً بالعرش ، ورسول الله ﷺ لم يدْر أَصُعِق موسى فيمن صُعِق وأفاق قبلى ، أم لم يُصعق .

وما دام أنه أفاق فوجد موسى بجوار العرش إذن هو لم يُصعق ، ويدخل فى هؤلاء الذين استثناهم الله فى قوله ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ (٦٨) ﴾ [الزمر] أو أنه صُعق لكنه أفاق من الصَّعْق قبل غيره ، وهنا قال العلماء : لماذا لم يُصعق سيدنا موسى ؟ أو لماذا قَصُرَتْ مدة

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تخيرونى على موسى . فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدرى أكان موسى فيمن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى الله عزوجل » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥١٧) كتاب الرقاق .

صَعْقته عن مدة الآخرين ؟ قالوا : لأنه عليه السلام سبق أنْ صُعِقَ فى الدنيا لما تجلَّى ربُّه للجبل ، فشاء الله أنْ تُحتسبَ له هذه الصعقة ، وأنْ تُخفَّفَ عنه صَعْقةُ القيامة .

وقوله ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر] أى : نفخة البعث ، فالنفخة الأولى أماتت مَنْ لم يكُنْ قد مات ، والنفخة الثانية هى البعث والخروج من القبور ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ[1] إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس] هذا تصوير لهيئة الصعقة ، وكيفية الخروج من القبور ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر]

وكلمة (ينسلون) دلَّتْ على تفرُّق بعد اجتماع ، كما نقول للقماش (نسِّل) يعنى : بعد أنْ كانت خيوطه مُتضَامَّة متماسكة تفككتْ ، وهذا تصوير دقيق وتعبير بليغ يُصوِّر الحالة التى كانت تُوجد فى القبور حين يلتقى الأموات فى باطن الأرض ، لأن الناس فى الدنيا وهم فى سَعَة الحياة دائماً ما يتخاصمون ويتشاجرون وتكثر بينهم العداوات والمنافسات .

وقد عبَّر الشاعر[2] عن هذا المعنى فقال :

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأَضْدَادِ[3]

فإذا ما ماتوا وضمتهم الأرض امتصَّتْ ما كان بينهم

---

(١) الأجداث : جمع جَدَث ، وهو القبر . [لسان العرب - مادة : جدث] .

(٢) هو : أبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله بن سليمان ، شاعر وفيلسوف ولد (٣٦٣هـ) ومات (٤٤٩هـ) فى معرة النعمان عن ٨٦ عاماً . قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه ، كان يحرم إيلام الحيوان وأكل اللحم ، له : (لزوم ما لا يلزم) ، (سقط الزند) [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت من قصيدة لأبى العلاء المعرى من ١٦ بيتاً من بحر الخفيف ، أولها :

غير مُجد فى ملتى واعتقادى نوْحُ باكٍ ولا ترنم شادِ .

من أحقاد وعداوات ، فخلصت عناصرهم خُلُوصاً مكَّنهم من اللقاء والاجتماع ، فيقولون : ما ألذَّ العناق قبل دقَّات الفِراق .

وكأنهم يفرحون بهذا الاجتماع وبهذا العناق لأنه يُعوِّضهم ما كان بينهم من شقاق في الدنيا ، فإذا ما جاءتْ النفخة الثانية تفكَّك هذا الاجتماع وتفرَّق ، هذا معنى ﴿يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ [يس] أي : كُلٌّ على حدة بمفرده وشخصه كما (ينسَلّ) الخيط من مكانته في النسيج ؛ ذلك لأن الجزاء أمر شخصي وكُلٌّ مُرْتَهن بعمله .

ومعنى ﴿يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر] أي : ينتظرون ما يقع بهم ، أو ينظرون ما حولهم من أهوال تشخَصُ لها الأبصار ، كما قال تعالى في آية أخرى حكايةً عنهم : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ۝١٢﴾ [السجدة] قالوا : هذه هي الآية الوحيدة التي تقدم فيها البصر على السمع ، لماذا ؟ لأن الموقف هنا في الآخرة حين يُبعث الناس من القبور ، وحين تحيط بهم الأهوال والكروب من كل ناحية ، وهذه الحالة تسبق فيها الأبصار الأسماع فيبصرون قبل أنْ يسمعوا .

وبنفخة البعث تبدأ أهوال القيامة ويشتد الكرب على الكافرين فيرتعدون ، فإذا ما صَدَق اللهُ وعده ووعيده في قيام الساعة بأول مراحلها عندها يعلمون صدق ما كذبوه وكفروا به ، هؤلاء الذين طالما كذَّبوا بالبعث وقالوا : ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ [الصافات]

إذن : صدق الله في البعث وفي إحياء الموتى ، وسيصدق سبحانه فيما يتلو ذلك من حساب وجزاء ، والويل لكم أيها الكافرون المكذِّبون .

﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا[1] وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) ﴾

هذه الآية تنقلنا إلى عالم آخر ، إلى الآخرة حيث تُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات ، كنا فى الدنيا نعيش على الأرض بنور الشمس نقول : أشرقت الشمس أما وقد انتقلنا إلى الآخرة فالأرض هى نفسها تشرق ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩) ﴾ [الزمر] وكأن النور شىء ذاتى فيها ، فليس هناك شمس تشرق عليها إنما هى التى تشرق بذاتها .

ولم لا ؟ وأنت الآن فى عالم فيه ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) ﴾ [الإنسان] لأن الدنيا كانت بالأسباب ، فالشمس تشرق لتنير الأرض بالنهار والقمر بالليل ، أما فى الآخرة فلا نعيش بالأسباب ، إنما بالمسبِّب سبحانه حيث كل شىء فيها يكون بلا علاج ، فلسنا - إذن - فى حاجة إلى زراعة الأرض ،

(١) وردت عدة أقوال فى معنى قوله تعالى : ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩) ﴾ [الزمر] ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥٩٢٨/٨) :
- بعدل ربها . قاله الحسن وغيره .
- بحكم ربها . قاله الضحاك .
- قال القرطبى : « المعنى واحد . أى أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده . والظلم ظلمات والعدل نور .. وقد ضلَّ قوم ها هنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس وهو متعال عن مشابهة المحسوسات ، بل هو مُنوِّر السماوات والأرض ، فمنه كل نور خلقاً وإنشاءً .

ولا إلى الشمس تنير النهار ، ولا إلى القمر ينير الليل .

وكما تُبدَّل الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات ، كذلك أنتم تُبدَّلون على هيئة أخرى تناسب الآخرة ، فستأكلون ولا تتغوطون ، وتعيشون ولا تهرمون .

وحين تشرق الأرضُ بنور ربها تراها مشرقةً دون أنْ ترى مصدر هذا الإشراق ، وهذا ما رأينا شيئاً منه فى الدنيا ، ففى طرق الإضاءة الحديثة توضع الأنوار فى أماكن تخفى مصدر الضوء فيأتى النور غير مباشر فلا يؤذى العين ، كما يأتيك ضوء الشمس فينير لك الغرفة فى حين لا ترى شعاع الشمس المباشر .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً لتنويره للسماء والأرض ، وذلك فى سورة النور ، حيث قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : مُنوِّرهما ، ولما أراد سبحانه أن يعطينا مثلاً لذلك أتىٰ بمثل من المشاهد لنا المرئى الذى ندركه فقال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى: كيفية تنويره وأثر نوره سبحانه حتى لا نظن أن هذا المثل يوضح لنا نور الله ، لا بل يوضح كيفية تنويره لخلقه وإلا فنوره تعالى لا نعرفه ولا ندرك كُنْهه .

والمشكاة هى الطاقة غير النافذة فى الجدار يسمونها كُوَّة ، وتوجد حتى الآن فى المبانى القديمة الفطرية ، وهذه المشكاة هى التى يوضع فيها المصباح ، وليست هى المصباح كما يظن السطحيون ويستعملونها بهذا المعنى . وميزة المشكاة أنها غير نافذة ومحدودة المساحة ، بحيث تجمع ضوء المصباح فلا يتبدد إنما يتركز لتنوير الحجرة التى توجد فيها هذه المشكاة .

ثم يصف المصباح بأنه ليس مصباحاً عادياً إنما ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ .. (٣٥)﴾ [النور] والزجاجة تنقى ضوء المصباح وتمنع عنه الهواء الزائد فلا يحدث دخان يُكدِّر صَفْو ونقاء الضوء .

ثم إن هذه الزجاجة هى أيضاً غير عادية إنما ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥)﴾ [النور] والكوكب الدرى هو الذى يضىء بنفسه ، وهذا يعنى أن ضوء هذا المصباح مضاعف .

ثم إن الزيت الذى يُوقد به المصباح ليس زيتاً عادياً ، إنما زيت مأخوذ من شجرة معتدلة المزاج ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥)﴾ [النور]

البعض يعترض على هذا المثل ويقول : كيف يضرب الله مثلاً لنوره بمشكاة فيها مصباح ؟ قلنا : إن المثَل هنا ليس مثلاً لنور الله إنما هو مثَل لتنويره للكون ، وقد عبَّر الشاعر أبو تمام[1] عن هذا المعنى فى قوله مادحاً :

إقْدَام عَمْرو فِى سَمَاحَةِ حَاتِم ... فِى حِلْم أحْنَفَ فِى ذَكاءِ إيَاسِ[2]

فاعترض عليه أحد جلساء الممدوح . وقال له : كيف تُسوِّى

(١) أبو تمام : هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائى ، أحد أمراء البيان ، ولد بجاسم من قرى حوران بسورية عام ١٨٨ هـ ، رحل إلى مصر ، كان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام يحفظ ٤١ ألف أرجوزة غير القصائد . فى شعره قوة وجزالة . له كتب : فحول الشعراء ، ديوان الحماسة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) ذكر الصولى هذه الأبيات فى كتابه « أخبار أبى تمام » فصل أخباره مع أحمد بن المعتصم ، وكان ينشده هذه القصيدة حتى إذا وصل إلى هذا البيت قال له الكندى وكان حاضراً وأراد الطعن عليه : الأمير فوق من وصفت . فأطرق قليلاً ثم زاد فى القصيدة بيتين لم يكونا فيها وهما الآتيان بعد .

الأمير بأجلاف العرب ، الأمير فوق مَنْ وصفت ، فردَّ أبو تمام بعد أنْ أطرق هنيهة :

لاَ تُنكروا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَهُ مثلاً شَرُوداً فِى النَّدَى وَالبَاسِ
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأقَلَّ لِنورِهِ مَثَلاً مِنَ المشْكَاة وَالنِّبْرَاسِ[1]

هكذا يُنوِّر الله للخَلْق النور الحسىَّ الذى يصون مادتهم ، ويحفظ سلامة حركتهم فى الحياة ، لأن الإنسان إنْ سار على غير هدى اصطدم بالأشياء من حوله ، والصدام يعنى أن يحطم القوىُّ الضعيفَ ، لذلك نحرص على وجود ضوء خافت (وناسة) مثلاً بالليل لتحمى حركتنا من الصدام .

فإذا كان الخالق سبحانه جعل لنا النور الحسىَّ لحماية مادتنا من أن تحطم أو تتحطم ، فلا بدَّ أنْ يجعل لنا نوراً معنوياً يحمى فينا القيم ، فلا نحطم بظلم ، ولا نحطم باضطهاد ، وهذا هو نور الوحى والشرع الذى تحيا به القلوب ، وينظم حركتنا المعنوية فى رحلة الحياة .

وكما بيَّن لنا الحق سبحانه النور الحسِّى بيَّن لنا النور المعنوى فقال خذوه من بيوت الله ، فقال تعالى : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ

---

(١) الأبيات من قصيدة لأبى تمام من بحر الكامل عدد أبياتها ٣٤ بيتاً فى مدح الخليفة المعتصم . الندى : الكرم . الباس : القوة والشدة فى الحرب . المشكاة : الكوة . النبراس : المصباح والسراج . وهو تأكيد لما قبله يقصد قوله تعالى : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥)﴾ [النور] .

الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور]

إذن : خُذ النور المعنوى من بيوت الله ففيها تلتقى بالله تعالى ، فهذا اللقاء يضفى عليك نوراً من نور الله يملأ قلبك ويهدى جوارحك ويصلحك ، وبيَّن سبحانه أن نور القيم أعلى من نور المادة ، بدليل أن الإنسان حين يكون مكفوف البصر يمكنه أن يمشى وأنْ يزاول أعماله فى الدنيا ، أما فاقد النور المعنوى ، أو أعمى البصيرة كما يقولون فلا يمكن أبداً أنْ يُوفَّق فى حركته للصواب ؛ لذلك قال تعالى فى ختام آية : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ..(٣٥)﴾ [النور] قال : ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥)﴾ [النور]

وبعد أنْ أشرقت الأرضُ بنور ربها ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ .. (٦٩)﴾ [الزمر] وفى موضع آخر جاء تفصيل وشرح ذلك ، فقال سبحانه : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَـٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (٤٩)﴾ [الكهف]

هكذا فصَّل الحق سبحانه ما أجمل فى ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ .. (٦٩)﴾ [الزمر] ومعلوم أن آيات القرآن الكريم تفسر بعضها بعضاً ، والكتاب هنا كتاب خاص بكل إنسان على حدة ، كما قال سبحانه : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ[1] فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُوراً (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤)﴾ [الإسراء]

---

(١) طائره : الطائر : الحظ من الخير أو من الشر ، قال تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ .. (١٣)﴾ [الإسراء] . أى : نصيبه من الخير والشر فى كتاب حسناته وسيئاته . [القاموس القويم ١/٤١٣] .

وهذا الكتاب الذى يُحصى عليك أعمالك كتاب صدق ، لأن كاتبه ملَك موكَّل بك ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار] وقال : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق]

فهذا الكتاب ليس فى علم الله فحسب ؛ لأن علم الله كلامٌ من عنده ، إنما هذا كتاب بمعنى أنه مكتوب مقروء يقرؤه صاحبه ويطلع عليه ، فيرى فيه عمله الصالح والطالح ؛ لذلك ساعةَ يراه المجرمون يرتعدون خوفاً لأنه أحصى عليهم إجرامهم ، ولم يترك منه كبيرة ولا صغيرة ، عندها لا يملكون إلا أنْ يدعوا على أنفسهم بالويل والثبور .

وبعد أنْ يأخذ كلٌّ كتابه يأتى الله بالرسل ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر] ليشهد كل نبى أنه بلَّغ أمته ، يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة]

وبعد أن يشهد الرسل يشهد الشهداء وهم مَنْ حملوا العلم بعد الرسل ، كما ورد : « يحمل هذا العلمَ من كل خلف عُدُوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين»[(١)] .

فهؤلاء العلماء أيضاً يشهدون أنهم بلَّغوا غيرهم ؛ لذلك امتازت أمة محمد ﷺ بعلمائها ، لأنهم امتدادٌ لرسالته ﷺ ، لذلك فخيريتنا على الأمم بهذه المسألة .

ويشهد أيضاً الشهداء الذين قُتلوا فى سبيل الله ، وهؤلاء

---

(١) أخرجه البزار فى مسنده ، انظر كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمى (١/٨٦) حديث (١٤٣) قال البزار : خالد بن عمرو منكر الحديث قد حدّث بأحاديث لم يتابع عليها وهذا منها . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٤٠) وقال : فيه خالد بن عمرو القرشى كذَّبه يحى بن معين وأحمد بن حنبل ونسبه إلى الكذب . وهو من حديث أبى هريرة وابن عمر . وقد أخرجه العقيلى فى الضعفاء الكبير (١/٩) فى التقدمة من حديث أبى أمامة .

يشـــهـدون أيضــاً[١] لمكانـتـهم عنـد الله ، هذه المكانة التى نالوها بالشهادة، ويكفى أن الشهيد يدخل المعـركة وهو يعرف أنه إنْ هُزم سيقتل ، فهـو يتقدم إما للنصر وإما للشهادة ، فـهو يعلم أنه سيدفع حياته ثمناً ، ولولا أنه واثق كل الثقة بما وعده الله من الجزاء ما خرج .

لذلك قال تعالـى عن الشهداء : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران]

وعجيبٌ أنْ نسمع مَنْ يقول على سبيل الإنكار : يعنى لو أخرجنا الشهيد من قبره سنجده حـياً ؟ نقول : اقرأ الآية وتدبَّر معناها ، فالله يقول : ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٦٩)﴾ [آل عمـران] لا عندك أنت ، بدليل أنه جـاء بعـدها بمـادة الطلب للحـيـاة فقـال : (يُرْزَقُـونَ) ذلك لأن الشهـيد لما ضـحَّى بحياته ضـمن له ربه حياة أخـرى أفضل وأعظم وأبقى مما كـان فيها فى الدنيا ؛ لذلك قـال الشاعر[٢] فى حق سيدنا حمزة سيد الشهداء :

أحَمْـزَةَ عَـمَّ المصْطفَى أنتَ سَـيِّدٌ   عَلَى شُهَداء الأرْضِ أجمعهم طُرًّا

---

(١) قـول الشيخ رحـمـه الله هنا (أيضاً) يدل علـى ثاقب نظره وعظيم علمـه الذى لا يحتـاج لشهادة ، فإن من المفسرين عند تأويل كلمة (الشهداء) اقتصروا على قولهم إنهم الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد ، كابن كثير فى تفسيره (٤/ ٦٤) ، ومن المفسرين من ذكر عـدة أقوال مثل الـقرطبى فى تفسيره (٥٩٢٨/٨) الذى ذكر فـيهـا ثلاثة أقوال وكأنها متضادة متعارضة :

– هم الذين شـهدوا على الأمم من أمـة محـمد ، قال تـعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (١٤٣)﴾ [البقرة] .

– هم الذين استشهدوا فى سبيل الله فيشهدون يوم القيامة لمن ذبَّ عن دين الله . قاله السدى .

– هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم .

أمـا الشيخ الشـعراوى فـذهب إلى أن كل هؤلاء يشـــهـدون فـالأقوال مـتعـاضدة وليـست متعارضة . [عادل أبو المعاطى]

(٢) من شعر الشيخ رضوان الله عليه .

وحَسْبُكَ مِنْ تلْكَ الشَّهادة عِصْمةٌ   مِنَ المـوْتِ ، موصول الحياة إلى الأخرى

المعنى : أنك قدمتَ حياتك وضحيت بها فعُصِمْتَ من الموت ، لأنك بعد أنْ متَّ صِرْتَ حياً فوصلتَ حياتك فى الدنيا بحياتك فى الآخرة ، وهبتَ الحياة فوُصِلتْ الحياة .

والشهادة على العبد يوم القيامة لا تنتهى عند هذا الحد ، فبعد أنْ شهدت عليه الملائكة بالكتاب الذى سطّروه ، وشهد عليه الأنبياء والشهداء ننقل الشهادة إلى ذاتك أنت ، فهذا تدرّج فى الشهادة من الملائكة وهم من جنس غير جنسك ، إلى الأنبياء والشهداء وهم من جنسك ، إلى جوارحك وهى قطعة منك : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)﴾ [يس]

وقال سبحانه : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

وقال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)﴾

[فصلت]

لكن كيف تشهد الأعضاء والجوارح على صاحبها وكانت فى الدنيا هى أداة الفعل ، فاللسان هو الذى قال ، واليد هى التى بطشتْ ، والرِّجْل هى التى سعتْ .. إلخ ؟ قالوا : لأن الله تعالى خلق لعبده الجوارح وسخرها لمراده ، وأمرها أنْ تطيعه فيما يريد ، فاللسان مُسخَّر لخدمة صاحبه إنْ أراد أن يقول لا إله إلا الله قالها . وإنْ أراد أنْ ينطق بكلمة الكفر نطق بها ، وهكذا بقية الجوارح .

إذن : طالمـا الإنســان فى الدنـيا فـالـولاية على الجـوارح لمـراد الإنسان المخيَّر ، والجوارح تابعة لمراده ، فإذا ما بُعثنا وعُرضنا على الخـالق سـبـحـانه انحلَّتْ هذه الإرادة وسُلبت فـلا إرادةَ لأحـد إلا لله ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَـوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِـدِ الْقَـهَّـارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافـر] وعندها تتـحـرر الأعضاء وتقف موقف الشاهد الصدق .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر] أى : قضى اللهُ بين الناس وأهل المشـهد وحكم بين الخلائق ، والذى يقضـى هو الله . إذن : فهو قـضـاء بالحق لا يُظـلم فيه أحـدٌ ، فليس لأحـد فى هذا اليوم إرادة ، وليس لأحـد حكم ولا هوى ، إنما الأمـر كله لله إنْ شــاء اقتصَّ للمظلوم من الظالم ، وإنْ شـاء أرضى المظلوم وعفا عن الظالم .

ثم يقـول سبحـانه : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَـمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزمر] أى : يجازيهـا بما عملت إنْ خـيراً فخـير ، وإنْ شراً فشر .

وهذه الآية وقف عندها المستشرقون يتهمون سياقها بعدم التناسق ، فالتناسق فى نظرهم أن نقول : ووُفيـت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يعملـون . وهم يقولون ذلك لأنهم لا يدركـون الفرق بين الفعـل والعمل ، فالفـعل مقـابل القول ، فـاللسان وحـده له مهـمة القول وباقـى الجوارح تفعل ، العين ترى ، والأذن تسمع ، واليد تبطش ، والرِّجْل تسعى .. إلخ.

كل جارحة لها مـهمة وهذه كلها أفعال ، أما العمل فـيشمل القول والفعل ، كل منهـما يُسمَّى عملاً ، لذلك يـقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الصف]

لكن لماذا خصَّ اللسان بالشطر وباقى الجوارح بالشطر الآخر ؟ قالوا : لأن القول يتم به البلاغ والتبليغ ، فاستحق أنْ يكون عمدة الجوارح .

فما نتيجة هذه التوفية للأعمال ؟ نتيجة توفية الأعمال أن تنال كل نفس ما تستحقه على عملها فى الدنيا ، لذلك بعد أنْ تتم التوفية ويتم الحساب يُساق أهل الإيمان إلى الجنة ، ويُساق أهل الكفر إلى النار :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ(١) أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

نلحظ هنا أن الفعل (وَسِيقَ) جاء مبنياً لما لم يُسمَّ فاعله ، وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [ق] فمَن هو السائق ؟ قالوا : هم الملائكة يسوقون أهل النار إلى جهنم والعياذ بالله ، والسائق هو الذى يحثّ المسوق على الإسراع ، كراكب الدابة الذى ينهرها ويحثُّها لتسرع به ، كذلك تفعل الملائكة بالمجرمين وتحثهم إلى جهنم ليسرعوا إليها .

وهذا يدل على أن الملائكة مغتاظون منهم ، كارهون لهم ،

---

(١) خزنة جهنم : حراس النار من الملائكة الغلاظ الشداد . [القاموس القويم ١/١٩٢]

متضايقون من أعمالهم فى الدنيا ، لذلك يزجُّون بهم إلى جزائهم العادل فى جهنم ، بلا هوادة وبلا رحمة ، أرأيتم رجال الشرطة حينما يمسكون بالمجرم ماذا يفعلون به ؟ إنهم يضربونه ويُعذبونه ويهينونه لأنه عضو فاسد فى المجتمع يريد الجميع التخلص منه ، ومعلوم أن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

والقرآن يصور هذا الموقف في آية أخرى ، فيقول سبحانه : ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور] يعنى : يزجرونهم إليها ويدفعونهم فيها رغماً عنهم .

ومعنى (زُمَراً) يعنى : جماعات ، فكل أصحاب مخالفة لمنهج الله معاً فى جماعة ، فالتاركون للصلاة جماعة ، والتاركون للزكاة جماعة ، والآكلون للربا جماعة وهكذا الظلمة والمرتشون والسارقون والزناة والمختلسون يجمع الله كل واحد منهم مع صاحبه ، فيُحشرون معاً يتقدمهم كبيرهم .

والفتوة فيهم كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ .. ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء] وقال سبحانه : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا[1] ﴿٦٩﴾﴾ [مريم]

وقال في حق فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود]

وكَوْن كبراء الضلال وقادة الكفر يتقدمون أتباعهم يدل ذلك على قطع أمل الآخرين فى النجاة ، فلو دخل التابع فلم يجد متبوعه لتعلق قلبه به ، وظن أنه سيأتى ويُخلصه ، لكن الحال أنه سيدخل فيجد

---

(١) عتياً : أى تمرداً واستكباراً . عتا : استكبر وجاوز الحد فى القسوة والشدة والطغيان . [القاموس القويم ٢/٦] .

أستاذه وقدوته فى الضلال قد سبقه إلى جهنم .

حتى إذا ما وصلوا إلى أبواب جهنم فتح لهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا..(٧١)﴾ [الزمر] لأن باب الغضب (مش مفندق) بل مغلق يُفتح للضرورة ، على خلاف باب الرحمة فهو مفتوح دائماً ، وهذا من رحمة الله ، لأن رحمة الله سبقتْ غضبه(١) .

وهذه النهاية التى انتهى إليها أهل النار كُتبتْ عليهم ، وعلمها الحق سبحانه من بداية الحياة ، واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ(٢) وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ(٣) (١٠٨)﴾ [هود]

أولاً : لا بدَّ لفهم هذه الآية أن تعرف أولاً معنى الخلود : الخلود هو المكث الطويل ، وهذا المكث سُمِّى خلوداً لأن له بداية وليس له نهاية ، والكلام هنا عن الذين سُعدوا وهم أهل الجنة ، والذين شقوا وهم أهل النار ، لكن الحق سبحانه استثنى من هؤلاء ومن هؤلاء ، والذين استثناهم الله ستنقص مدة خلودهم ، كيف ؟

الكافر بعد أنْ حُوسب وسيق إلى جهنم تُفتح له ويظل خالداً فيها

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤ ، ٧٤٠٤ ، ٧٤٢٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٥١) كتاب التوبة .

(٢) الزفير : إدخال النفس والشهيق إخراجه . قال الزجاج : الزفر من شدة الأنين وقبيحه . والشهيق : الأنين الشديد المرتفع جداً . [لسان العرب - مادة : زفر] .

(٣) الجذ : القطع . والانجذاذ : الانقطاع . قال أبو عبيد : غير مجذوذ . أى : غير مقطوع . [لسان العرب - مادة : جذذ] .

خلوداً كاملاً من البداية إلى ما لا نهاية ، كذلك المؤمن الذى تداركته رحمة ربه بعد أنْ يُحاسِب يُساق إلى الجنة فيظل فيها خلوداً كاملاً من البداية إلى ما لا نهاية .

أما الاستثناء فللمؤمن العاصى الذى لم يَتُبْ عن معاصيه أو تاب ولم تُقبل توبته ، هذا لابدَّ أن يأخذ جزاء هذه المعاصى ، وأنْ تناله لفحة من لفحات النار والعياذ بالله ، هذا فى البداية ، فيدخل النار ما يشاء الله له ثم يُخرجه إلى الجنة وبذلك تكون فترة خلوده فى الجنة نقصتْ عن إخوانه المؤمنين ، والنقص هنا من البداية ، كذلك نقص خلود فى النار عن أهل النار الخالدين فيها .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا .. (٧١) ﴾ [الزمر] أى : خزنة النار قالوا لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا .. (٧١) ﴾ [الزمر] هذا الاستفهام ألزمهم الحجة وأفحمهم ، فربهم عز وجل لم يأخذهم على غِرَّة ، إنما أرسل لهم رسلاً ، وهؤلاء الرسل (مِنكُمْ) من جنسكم ومن أوسطكم والأقرب إليكم لتسهل القدوة به .

ومع هؤلاء الرسل حجج وبراهين ووَعْد ووعيد ، لذلك لم يستطيعوا الإنكار ﴿ قَالُوا بَلَىٰ .. (٧١) ﴾ [الزمر] يعنى : حدث هذا ، فأقرّوا على أنفسهم بإسقاط الحجة ، وأن الله بعث لهم الرسل الذين أنذروهم هذا اليوم .

إذن : الإنذارات التى تحدث للناس فى حياتهم من تمام رحمة الله بالخلق ، والإنذارات التى سبقت فى الحياة بما سيكون بعدها من تمام رحمة الله بالخلق ، أرأيتَ حين تُبصِّر ولدك بعاقبة الإهمال وتُخوِّفه من الرسوب آخر العام ، فإنك تعينه على المذاكرة والاجتهاد حتى

لا يلاقى هذه العاقبة ، وحتى لا يفاجأ بشيء غفل عنه .

لذلك وقف المستشرقون عند سورة الرحمن وقالوا : قوله تعالى ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ من صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ من مَّارِجٍ[1] مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ[2] (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) ﴾ [الرحمن] قالوا : نعم هذه نعَم يناسبها ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) ﴾ [الرحمن] لكن أيّ نعمة فى قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[3] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

نعم الإنذار بالشر قبل أن يقع والتحذير منه قبل أوانه نعمة ، بل من أعظم نعم الله على الإنسان ليحتاط للأمر ، فالتهديد والوعيد والتبصير والتخويف إنما لنحذر المخوف منه فلا نقع فيه .

وقوله : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) ﴾ [الزمر] يعنى : وجبتْ لهم رغم الإنذار والتبصير ، والكلمة التى حقَّتْ هى قوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة] فماذا تنتظرون بعد ذلك ؟ والعجيب أننا باختياراتنا الخائبة نساعد القدر ويمهد القدر لقدر .

---

(١) المارج : الشعلة الساطعة ذات اللهب ، أو اللهب المختلط بسواد النار . [القاموس القويم ٢/٢٢١] .

(٢) الأعلام : الجبال . مفرده علم . فمن نعم الله تلك السفن الضخمة المنشأة تجرى فى البحر كأنها الجبال .

(٣) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان .

والكلمة قولٌ مفرد لا يؤدى إلا معنىً فى ذاته ، إنما لا يؤدى معنى إسنادياً ، فكلمة السماء مثلاً لا تؤدى معنىً وحدها يحسنُ السكوت عليه ، لكن حين تقول : السماء صافية تعطى معنى مفهوماً يحْسن السكوت عليه ، قالوا : لكن قد تفيد الكلمة الواحدة ، فلو قلت : مَنْ عندك ؟ تقول : زيد . فأفادت : زيد عندى . ولولا تقدير كلمة عندى ما أفادتْ ، فالكلمة - إذن - لا تؤدى معنىً يحسن السكوت عليه إلا بضميمة غيرها .

وقد بيَّن علماء النحو ذلك حين قسَّموا الكلمة إلى اسم وفعل وحرف وكل منها تُسمَّى كلمة ، والفرق بينها أن الاسم يعطى فى ذاته معنىً مستقلاً بالفهم ، والفعل يعطى معنىً فى ذاته ، لكنه مرتبط بزمن أو الزمن جزء منه ، تقول : أكل أى فى الماضى . يأكل فى المضارع . وكُلْ فى المستقبل ، أما الحرف فهو لا يعطى معنى مستقلاً بالفهم ، إنما لا بدَّ له من ضميمة تبين معناه .

وتطلق الكلمة ويُراد بها الكلام تقول : ألقيت كلمة فى الحفل والمراد خطبة ، وقد استخدم القرآنُ الكلمة بهذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] والمراد بالكلمة قوله : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

وكذلك هنا : ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) ﴾ [الزمر] الكلمة هى ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة]

﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) ﴾

كلمة (بِئْسَ) للذم والمذموم ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢﴾ [الزمر] أي : إقامتهم ونهايتهم ، ووصفهم بالمتكبرين خاصة لأنهم ما وصلوا إلى هذه النهاية إلا بتكبرهم ، تكبرهم على مَنْ ؟ على ربهم وخالقهم ، وعجيب من العبد أن يتكبر أول ما يتكبر على خالقه سبحانه الذى خلقه من عدم وأمده من عُدم .

ونلحظ فى هذه الآية مظهراً من مظاهر رحمته تعالى حتى بالكافرين ، وكأن الحق سبحانه يفتح لهم باب الأمل فى النجاة ، ويلمح لهم بإمكانية التوبة ، ومهما كان منهم فالباب مفتوح ، نفهم ذلك من قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. ۝٧٢﴾ [الزمر] ولم يقُلْ هنا أبداً كما قال مثلاً فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۝٢٣﴾ [الجن]

ولما أحصى العلماء لفظ الأبدية بالنسبة للكافرين وجدوه فى آيتين (هما الأحزاب ٦٥ - الجن ٢٣) ، إذن : ذكر كلمة أبداً فى بعض الآيات وتركها فى البعض الآخر ، وفى هذا إطماع لمن لم يصل إلى الحقيقة التى تنجيه ربما تدارك الأمر وأنقذ نفسه وعاد إلى الجادة ، أما حين يتكلم الحق سبحانه عن الجنة فتجد كلمة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. ۝٢٣﴾ [الجن] غالباً مقرونة بالأبدية .

ونلحظ أيضاً قوله تعالى : ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ .. ۝٧٢﴾ [الزمر] ولم يقل : ادخلوا جهنم . فما الفرق بين التعبيرين ؟ قال تعالى : ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ .. ۝٧٢﴾ [الزمر] لأن العذاب يبادرهم ويسرع إليهم بمجرد أنْ يدخلوها فهو يستقبلهم على بابها .

بعد ذلك ينتقل السياق إلى المقابل ، إلى أهل الجنة ، لكن لماذا بدأ بأهل النار فقال : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ..۝٧١﴾

[الزمر] قالوا : بدأ بهم لأنهم هم المنكرون المكذِّبون بالبعث والحساب ، فبدأ بهم تعجيلات بعقابهم ومساءتهم ، أما المتقون فهم مُصدِّقون بهذا اليوم مؤمنون به ، وبما سيكون فيه من حساب وجزاء ، ثم إن الختام بالوعد والبشارة فيه استبشارٌ وحُسْن ختام .

يقول تعالى :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

هنا أيضاً ساقتهم الملائكة مع الفارق بين سَوْق الكافرين وسَوْق المتقين ، فالكافرون ساقتهم الملائكة ليعجلوا لهم العذاب سَوْقاً فيه زجر وقسوة ، أما المتقون فيُساقون سَوْق المحب لحبيبه ليعجلوا لهم النعيم .

وقوله (زمراً) يعنى : جماعات كل جماعة على حدَة ، فهؤلاء الزهاد وهؤلاء العلماء وهؤلاء المجاهدون وهؤلاء الأمناء ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر] هناك قال (فُتِحَتْ) وهنا (وَفُتِحَتْ) قالوا فى أهل النار (فُتِحَتْ) هى جواب الشرط ، أما هنا (وَفُتِحَتْ) ليست جواباً للشرط ، بل جواب الشرط فى النعيم المذكور بعدها ، لأن فتح الأبواب ليس هو الغاية ، إنما الغاية ما يتبع ذلك من النعيم .

فالواو هنا عاطفة وجملة ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر] معطوفة

على ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا .. (٧٣)﴾ [الزمر] ذلك لأن المؤمنين ما كانوا يشكّون فى هذا اليوم ، أما الكفّار فيشكونَ فيه لذلك جعل ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١)﴾ [الزمر] جواباً للشرط قبلها .

أما فى المتقين فجواب الشرط أسمى من مجرد فتح الأبواب لهم ، ففتحت هذه مداخل الرحمة التى سيذكرها بعد ، ويذكر مكوناتها ، وكيف أنها تتدرج بدايةً من تحية الملائكة لهم : ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ .. (٧٣)﴾ [الزمر] لأنكم طهرتم أنفسكم من دنس المعاصى والشركِ ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)﴾ [الزمر] إلى آخر السورة ، حيث يرونَ الملائكة حافّين من حول العرش ، وهذا هو جواب الشرط الذى يليق بهم .

جماعة أخرى من العلماء[1] قالوا : إن جواب الشرط هو (وفتحت) والواو هذه واو الثمانية ، فما المراد بواو الثمانية ؟ قالوا : كان منتهى العدد عند العرب سبعة ، فإذا جاء شىء بعد السبعة يعدُّونه كلاماً جديداً فيعطفونه بالواو ، ومن ذلك قوله تعالى فى أهل الكهف : ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ .. (٢٢)﴾ [الكهف] فقبل الثامن يذكر الواو .

---

(١) قاله أبو بكر بن عياش فيما نقله القرطبى فى تفسيره (٥٩٣١/٨) ثم قال : وقد استدل بهذا من قال إن أبواب الجنة ثمانية ، وذكروا حديث عمر بن الخطاب قال قال رسول الله « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » خرجه مسلم وغيره ، وقد خرَّج الترمذى حديث عمر هذا وقال فيه : « فتح له من أبواب الجنة ثمانية أبواب يوم القيامة » بزيادة من وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية . وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التذكرة » وانتهى عددها إلى ثلاثة عشر باباً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ(١) الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾ [التوبة] فكلمة الناهون هي الثامنة لذلك سُبقت بالواو .

وقال بعضهم : إن من ذلك قوله تعالى في سورة التحريم : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ [التحريم]

نعم كلمة (أبكاراً) هنا هي الثامنة ، لكن الواو جاءت هنا للفصل بين الاثنين ، فالثيبات لا يكُنَّ أبداً أبكاراً . إذن : فهذه الآية لا يُحتجّ بها في هذا الموضوع ، إنما يُحتج بآية الكهف وآية التحريم ، على أن العدد سبعة هو منتهى العدد عند العرب ، وكذلك العدد ألف .

لذلك لما وقعتْ ابنة كسرى في الأَسْر وذهبتْ لتفدي نفسها ، فقالوا لمن أخذها في حصته : كم تطلب فيها ؟ قال : ألف دينار ، فقالوا له : إنها بنت كسرى . يعني : كان بإمكانك أن تزيد على ذلك فقال : والله لو كنتُ أعلم أن وراء الألف عدداً لقُلْته .

ونحن لا نرى هذا الرأي ، فكلمة (وَفُتِحَتْ) ليستْ هي جواب الشرط هنا ، لأن جواب الشرط بالنسبة للمتقين أسمى من فتح الأبواب لهم وأسمى من قَوْل الملائكة لهم ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. (٧٣) ﴾ [الزمر] وأسمى من ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر] لأن الحق

---

(١) السائحون : المنقطعون للعبادة لأنهم متجهون إلى الله . والعابدات السائحات فسرت بالصائمات والمهاجرات أو هي من السياحة لله والفرار إليه والمجاهدة ليلاً ونهاراً في سبيل الوصول إلى كامل محبته وعظيم رضاه بالعبادة الخالصة وبالطاعة الدائمة . [القاموس القويم ١/ ٣٣٩] .

سبحانه سيقول بعد ذلك : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. (٧٥) ﴾ [الزمر] فذكر العرش هنا والملائكة تطوف به مُسبِّحة بحمد ربهم فيه إشارة إلى منتهى النعيم الذى سيلاقيه المتقون ، حيث يروْنَ الحق سبحانه الذى استوى على هذا العرش ، هذه هى الغاية التى يناسب أن تكون جواباً للشرط السابق .

لكن لماذا أخفى اللهُ جوابَ الشرط هكذا ؟ قالوا : لأنه لو قالها أى : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] لو قالها الآن لكانت قد سمعت ، إنما أراد سبحانه أن تكون مفاجأة على أنها مما لا يخطر على قلب بشر ، يعنى : لا تأتى على البال .

فمثلاً فى فاكهة الجنة يأتى لى بالفاكهة التى أعرفها كالتفاح والمانجو مثلاً نحن نعرفها فى الدنيا ، لأنه لو أتى بفاكهة جديدة لم نعرفها فى الدنيا لَقُلْنا : لو كانت فى الدنيا لكانت مثل هذا شكلاً وطعماً ، لذلك تأتى الفاكهة مما نعرفه فى الدنيا ، لكن بمواصفات أخرى يتحقق فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .

إذن : التفاضل يأتى من كَوْنها فى الجنة ، ثم لو جاءت لى الفاكهة فى الجنة فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فكيف لو جاءت للمرة الثانية ؟ لا بد أننى سأكون قد رأيتها من قبل وخطرتْ على بالى ، فحين أرى المانجو مثلاً أقول : أنا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أكلتُها قبل ذلك . قالوا : لا بل ستكون على هيئة أخرى ، ولون آخر ، وطعم آخر غير الذى أكلتُه فى المرة الأولى ، وهكذا يتحقق فى نعيم الجنة ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ولا خطر على قلب بشر .

لذلك يقول تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ (٧٤) ﴾

قولهم : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٧٤) ﴾ [الزمر] أهو حَمْد على صدق الله فى الوعد ، أم لأنكم بتوفيق الله صدقتم الله فيما وعدكم به ؟ المعنى : الحمد لله الذى جعلنا أهلاً لأنْ يصدق وعده فينا لأننا صدَّقنا به ، وإلا فَوعْد الله صادق صادق .

﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ .. (٧٤) ﴾ [الزمر] الإرث هنا له معنىً غير معناه الذى نعرفه بأنْ يرث شخصٌ غيره بعد موته .. فالميراث هنا فى الجنة كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾ [الأعراف]

وبيانُ ذلك كما قلنا أن الحق سبحانه قضى أزلاً أنْ يخلق خلقاً ، وأن يترك لهم الاختيار فى أشياء ، ويجبرهم فى أشياء أخرى ليظلوا عبيداً له سبحانه رغم أنوفهم من ناحية وعبيداً فيما يختارون من ناحية .

فإنْ آثروا جانب الله تعالى وآثروا مراده على ما وكل فيهم من الاختيار فازوا بمنزلة العبودية لله ، وكانوا وقتها أفضل من الملائكة لأن الملائكة جُبلوا على الطاعة أمّا الإنسان فأعطى الاختيار يُطيع أو يعصى ، فإنْ أطاع فله أنْ يزهوَ حتى على الملائكة .

لذلك كان إبليسُ قبل أنْ يعصى يزهو على الملائكة ، وكان يُسمَّى طاووس الملائكة لأنه مخلوق مختار ، ومع ذلك أطاع كما أطاعتْ الملائكة فأصبح له ميْزة عليهم إلى أنْ زلَّ الزلة الأخيرة فأُبعِد وطُرِد من رحمة الله .

نقول : لما خلق الله الخَلْق مختارين ، لهم أنْ يطيعوا ، ولهم أنْ يعصوا أعدَّ لهم دار الجزاء في الجنة على اعتبار أنهم جميعاً سيطيعون ، فلكل واحد منهم منزلة في الجنة ، كذلك أعدَّ لهم في النار أماكن تسعهم جميعاً لو عصوا ، فحين يذهب أهل النار إلى النار تخلو أماكنهم في الجنة فأين تذهب ؟ يأخذها أهل الجنة أو يرثونها كما قال القرآن .

وقوله تعالى : ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ .. (٧٤)﴾ [الزمر] نقول : تبوأ المكان يعنى : نزل به ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ (٥٦)﴾ [يوسف] فالمعنى : ننزل ونسكن ، لكن المسألة ليست بالقوة ، كل يذهب حيث يشاء ، وليس فيها تعدياً على حقوق الآخرين ، فالمعنى : نسكن ما نشاء ، كل في جنته وما خصص له لا في جنة غيره ، وهذا دليل على أن الجنة الخاصة به .

واسعة ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر] نعم للمدح يعنى : أجر كبير نالوه بأعمالهم الصالحة .

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ .. ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر] يعنى : يطوفون حوله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ..﴿٧٥﴾﴾ [الزمر] فليس لهم عمل إلا التسبيح بحمد ربهم ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ..﴿٧٥﴾﴾ [الزمر] أى : قضى الله بينهم ، بين مَنْ ؟ بين الملائكة لأنهم أقسام : منهم العالون ، وهم المهيمون فى الحق سبحانه ، وهم لا يدرون شيئاً عن دنيانا ولا عن آدم وذريته .

ومنهم المسخرون لخدمة الإنسان وهم الملائكة الحافظون ، الذين قال الله عنهم : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾﴾ [الرعد] وهؤلاء الذين أمرهم الله بالسجود لآدم لا كل الملائكة ، فكأن هذا السجود دليلُ خضوع وطاعة لهذا المخلوق الذى ستكونون فى خدمته .ومنْ الملائكة الكرام الكاتبون : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار]

فمعنى : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ .. ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر] يعنى : أخذ كلٌّ منهم منزلته والجزاء الذى يستحقه .

﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) ﴾ [الزمر] مَن القائل ؟ قالوا[١] : قالها المؤمنون من البشر ، وقالوا[٢] : قالها جميع الخلائق ، وقالوا : قالها الحق سبحانه ، فهى ثناء من الله تعالى على ذاته سبحانه ، كما شهد سبحانه لنفسه بأنه ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فالحق سبحانه حمد نفسه على أنه رب العالمين ، لذلك قال النبى ﷺ فى الحديث : « ..... لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[٣] فهذا ثناء من الله على الله ، اللهم اجعلنا دائماً من القائلين الحمد لله رب العالمين .

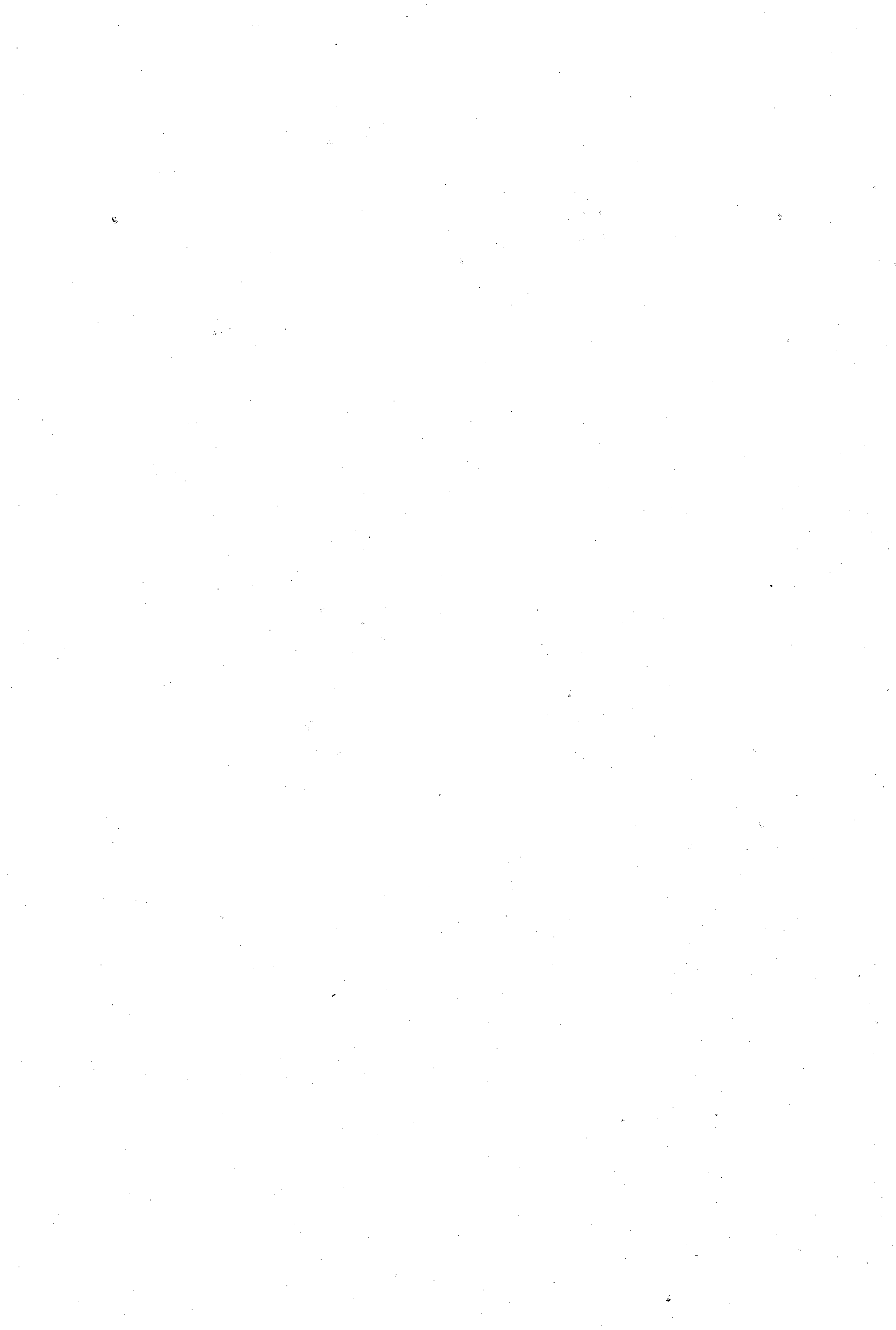
---

(١) قاله القرطبى فى تفسيره (٥٩٢٣/٨) : « أى يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا . وقيل : من قول الملائكة ، فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدله وقضائه » .

(٢) قاله ابن كثير فى تفسيره (٦٩/٤) : « أى : نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد فى حكمه وعدله ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد » .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٥٨/٦ ، ١٢٠) وكذلك مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .


سُورَةُ غَافِرٍ



سورة غافر[1]



هذه السورة بداية (الحواميم) أى : السور المفتتحة بقوله تعالى (حم) نقول فى الجمع (الحواميم) وهذا الجمع على غير القاعدة ، فالأصح أن نقول (آل حم) و (حم) من الحروف المقطعة التى ترد فى أوائل السور ، وسبق أنْ تكلمنا عليها فى أكثر من موضع ، والحقيقة أننا نحوم حول معانيها مما يتيسر لنا فهمه واستنباطه منها ، والجميع فى النهاية يقول : الله أعلم بمراده لأن معانيها فوق الإحاطة .

قلنا : إن الحرف له اسم وله مُسمّى ، نقول : ألف للحرف (أ)

---

(١) سورة غافر وتسمى سورة المؤمن نسبة إلى مؤمن آل فرعون فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ .. (٢٨)﴾ [غافر] . وتسمى أيضاً سورة الطوْل لقوله تعالى : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ .. (٣)﴾ [غافر] أى : ذى الغنى والسعة والإنعام . وهى سورة مكية فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر . وعن الحسن إلا قوله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ .. (٥٥)﴾ [غافر] لأن الصلوات نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ .. (٥٦)﴾ [غافر] والتى بعدها . عدد آياتها ٨٥ آية وترتيبها فى المصحف الشريف (٤٠) وهى السورة (٥٩) فى ترتيب النزول نزلت بعد سورة الزمر كما هى فى المصحف وبعد سورة السجدة . [راجع تفسير القرطبى ٨/٥٩٣٥] . و[الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧] .

وباء للحرف (ب) هذا اسم الحرف ، أما المسمَّى لو قلت مثلاً (كتب) أنا لا أنطقها كاف تاء باء ، فهذه أسماء الحروف إنما أنطقها كتب وهذا هو المسمى : مُسمّى الكاف كَ ، ومسمّى التاء تَ ، ومسمّى الباء بَ ، إذن : نحن فى كلامنا ننطق بمسمّى الحروف .

لكن فى (حم) ننطق باسم الحرف فنقول : ح م ولو نطقنا المسمّى لَقُلْنا حمَّ . ومن هنا تأتى أهمية السماع فى قراءة القرآن . فبالسماع تُقرأ فى أول البقرة (الم) هكذا ألف لام ميم ، فى حين تُقرأ نفس الحروف فى سورة الشرح ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾ [الشرح] ولولا السماع ما كُنا نعرف هذا النطق .

بعض العلماء أخذوا يحومون حول معانى هذه الحروف فى أوائل السور فقالوا : القرآن معجز لأمة العرب ولما نبغ العرب فى البيان والفصاحة جاءتْ المعجزة من جنس ما نبغوا فيه ليكون الإعجاز فى محله ، وإلا فليس هناك أمة من الأمم جعلتْ للكلمة أسواقاً ومعارض كما فعل العرب فى عكاظ والمربد وذى المجاز[1] وغيرها . وكان تحدِّى القرآن لهم عين الشهادة بتفوقهم فى هذا الميدان ، وأنهم حجة فيه .

لكن من أين أتى إعجاز القرآن ؟ وبِمَ تميز عن كلام العرب والحروف هى الحروف والكلمات هى الكلمات ؟

قالوا : حروف اللغة منها حروف مَبْنى أى : تُبنى الكلمة وهذه الحروف ليس لها معنى فى ذاتها ، وحروف معنى وهى حروف لها

---

(١) عكاظ : سوق للعرب كانوا يتعاكظون فيها بالمفاخرة بالأنساب والآباء والجاه . وهى بقرب مكة كان العرب يجتمعون بها كل سنة فيقيمون شهراً . ذو المجاز : موضع بمنى كانت به سوق فى الجاهلية . [راجع لسان العرب - مادة : عكظ ، جوز] .

معنى وحدها ، فمثلاً الكاف حرف مبنى لأنه يدخل فى بناء كلمة كتب ، ولو أخذ الكاف من كتب ما كان لها معنى وحدها ، أما الكاف فى الجندى كالأسد فهى حرف معنى أفاد وحده معنى التشبيه ، ولم يدخل فى بناء كلمة الأسد ، كذلك الباء حرف مبنى فى كتب وحرف معنى فى (بالله) لأنه أفاد معنى القسم .

ومن هذه الحروف تتكوَّن الكلمات ، ومن الكلمات تتكوَّن الجمل والعبارات ، والعبارات تكوِّن الأسلوب والأداء المتميز الجذاب الذى يستميل الأذن ويؤثر فى النفس ، ومن هنا تأتى بلاغة الكلام وفصاحته حين يكون موافقاً لقواعد اللغة ، فإذا كانت الحروف العربية والكلمات هى هى فى القرآن ، فبمَ تميَّز عن كلام العرب ؟ قالوا : تميَّز بنسيجه الخاص ، وأن الذى تكلم به هو الله سبحانه .

وسبق أن قلنا : إننا إذا أردنا أن نختبر جماعة من النساجين فى جودة النسج ورقته لا يصح أنْ نعطى أحدهم خيوط الصوف والآخر القطن والآخر الحرير ، لأن المادة الخام مختلفة فلا نستطيع تمييز الأجود ، بل لابد أن تكون المادة واحدة ليتم التمييز .

فمعنى ﴿ **حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢** ﴾ [غافر] أو ﴿ **حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢** ﴾ [الدخان] أو ﴿ **الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ..** ۝٢ ﴾ [البقرة] أى : من هذه الحروف تكوَّن القرآن وأعطى سر الإعجاز والتحدى ، لأن الله تعالى هو الذى نطق به وبلَّغه رسوله ﷺ ، وهو رسول أمى لا يعرف القراءة أو الكتابة .

لذلك نطق بالقرآن كما أوحى إليه لم يُغيِّر فيه حرفاً واحداً ؛ لذلك كانت الأمية عيباً وقُبْحاً إلا فى رسول الله كانت شرفاً وميزة ، وكأنه يقول بأميته : أنا لم أتعلم من أحد شيئاً ، وكل ثقافتى من ربى .

كذلك كانت الأمة كلها أمة أمية مُتبدِّية لا تعرف الحضارة ولا يحكمها قانون عام ، ولو كانت أمةُ العرب حينها أمةً متحضرة لقالوا عن الإسلام أنه وَثْبة حضارية ، لكن جاء الإسلام فى جزيرة العرب وهم أمة بدوية ليس لها قانون ولا دستور حكمها إلا قانون القبيلة وعصبيتها ، الحاكم فيها شيخ القبيلة ، بيوتهم على ظهر جمالهم أنَّى وجدوا الكلأ نزلوا وضربوا خيامهم ، وأنَّى وجدوا الماء حلوا بجواره ، فهم غير مرتبطين بوطن ولا مكان .

ناهيك عمَّا كان بينهم من صراع قبلى وحروب تنشب على أيسر الأسباب ، وتعرفون مثلاً حرب داحس والغبراء التى استمرت بينهم أربعين سنة ؛ لذلك لما أراد رسول الله أن يكون للدولة الوليدة جيش ما فتح مدرسة لتعليم فنون القتال والحرب لأنه فى أمة تجيد هذه الفنون إجادةً تامة ، والعربى بطبعه مستعدٌ للحرب كلما سمع هَيْعة[1] طار إليها .

إذن : فكيف لمثل هذه الأمة أن تقود العالم كله أن تفتح بلاد الدنيا ، وهى بهذا الوصف ؟

فكأن الله تعالى أراد أنْ يعدهم للسياحة فى الأرض بهدى الله لخلق الله فلم يرتبطوا بشىء ، ثم بعث فيهم رسولَ الله فجعل من العبيد سادة ، ومن رعاة الشاة قادة ومنارات للأمم كلها . إذن : كانت الأمة العربية مُعدَّة لساناً وأمية وبدوية لأنْ تقودَ العالم المتحضر ليعرف الجميع أن ما جاء به محمد ليس من عند البشر ، إنما من عند الله .

---

(١) الهيعة : الصوت الذى تفزع منه وتخافه من عدو . والهيعة : الصوت الشديد . [لسان العرب – مادة : هيع] ومنه حديث رسول الله ﷺ : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٨٩) كتاب الإمارة ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٤٣) عن أبى هريرة بغير هذا اللفظ .

نعود إلى مسألة الحروف المقطعة ، فنقول : قد تأتى هذه الحروف على حرف واحد مثل (ق ، ص) وعلى حرفين مثل (طس ، حم) وعلى ثلاثة أحرف مثل (طسم ، الم) وعلى أربعة أحرف مثل : (المص ، المر) وعلى خمسة أحرف مثل : (كهيعص) إذن : ليس لها نسق واحد .

وحين نتأمل مجموع هذه الحروف نجده أربعة عشر حرفاً يعنى نصف حروف الهجاء الثمانية والعشرين ، وكونه يأتى بالنصف بالذات يعنى أنها مسألة مقصودة لم تأتِ هكذا كما اتفق ، ودليل أن هذه الحروف الأربعة عشر تصرفتْ تصَرفاً يوحى بأن لها ملحظاً وحكمة ولم تأتِ اعتباطاً ، فهذه الحروف الثمانية والعشرون منها تسعة حروف من أول ألف باء إلى حرف الذال لم يأخذ منها فى الحروف المقطعة إلا حرفين هما الألف والحاء وترك الباقين . وهى سبعة أحرف .

ثم تأمل التسعة الأحرف الأخيرة تجد أن الحق سبحانه أخذ منها سبعة أحرف وترك حرفين على عكس الأولى فأخذ منها : القاف والكاف واللام والميم والنون والهاء والياء وترك الفاء والواو . هذه ثمانية عشر حرفاً ، يبقى العشرة الأحرف فى الوسط ، وتبدأ من الراء إلى الغين .

ونلحظ فى هذه الأحرف أنه أخذ الحروف غير المنقوطة وترك الحروف المنقوطة ، أخذ الراء وترك الزاى ، وأخذ السين وترك الشين ، وأخذ الصاد وترك الضاد ، وأخذ الطاء وترك الظاء ، وأخذ العين وترك الغين .

إذن : هذا النظام فى الحروف المقطعة دلَّ على أنها ليست على

نسق واحد ، وأن لها حكمة مقصودة ولم تأت هكذا اعتباطاً ، وعلينا نحن أن نستنبط هذه الحِكَم ونفهم هذه الدلالاَت كلّ حسب ما تيسّر له ، وما زلنا (نفتش) فِى هذه الحروف لعلنا نصل .

لكن كونك تبحث عن الحكمة فهذا اجتهاد محمود ، ولك أنْ تريح عقلك وتأخذها من الله كما هى كما تأخذ المفتاح مثلاً ممن صنع الطبلة ، فلا يعنيك أن يكون بسنَّة واحدة أو اثنتين أو ثلاثة أو أربعة، المهم أن يفتح لك ، ويكونَ سرّ المفتاح مع مَنْ صنعه .

لكن للعقل أنْ يأنس بأشياء ، كيف ؟

قالوا : الحق سبحانه وتعالى يريد فى دينه ثلاثة أمور : عقائد ، وأحكام ، ومادة تؤدى هذه العقائد والأحكام وهى كلامه فى القرآن ، وكلٌّ من هذه الثلاثة فيه غيب وفيه مشهد .

فالعقائد وأولها الإيمان بالله وهو غَيْب لكن يمكنك الوصول إليه والاستدلال عليه بالمشاهد من مخلوقاته وعظيم صنعته وهندسته فى الكون المرئى ، لأن هذا الكون البديع لم يدَّع أحدٌ خَلْقه ولم ينسبه لنفسه . إذن : هو لله وحده ، إذن نصدق هذا الغيب بالمشاهد ، أما الغيب الذى ليس له مشهد كالصفات التى للحق سبحانه فنأخذها مما نسمع من كلامه سبحانه .

كذلك الفرائض والأحكام فيها مشهد وفيها غيب ، فالصلاة والزكاة والحج والصيام كلها مشهد ، وفيها غيب لا نعرف حكمته حتى الآن ، فالصلاة فيها استطراق عبودية ، والصيام فيه استدامة التكليف ، والزكاة لاستطراق المال فى المجتمع ، والحج لإعلان الولاء للبيت الذى هو بيت الله ، هذه أمور تستطيع أنْ تعرفها بالعقل ، لكن

ما الحكمة مثلاً من جَعْل الصبح ركعتين والظهر أربعاً والعصر أربعاً والمغرب ثلاثاً ، والعشاء أربعاً ، هذه لا نعرفها .

إذن : مع كل غيب مشهد ، ومع كل مشهد غيب ، كذلك كلام الله تعالى فيه غيب وفيه مشهد ، أما المشهد فهو الكلام الذى نعرفه ونقرؤه ونسمعه ونكتبه ونعرف معناه وتفسيره ، وفيه غيب كما فى (الم ، ن ، ق ، ص) .

فكل غَيْب محروسٌ بمشهد يساعدنا على الإيمان بالغيب ؛ لأن المسائل كلها لو كانت مشهداً ما كان للإيمان مجال ، فنحن الآن أنا وأنتم نجلس مجلسَ علم فى مسجد الشيخ سليمان ، فهل هذا المشهد لنا محل إيمان ، لا بل مشهد . أما الإيمان فمحلّه الغيب ، لذلك قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ۝٣ ﴾ [البقرة]

لكن هذا الغيب لابدَّ أنْ تكون له شواهد من المشاهدة ومقدمة تؤدى إليه ، أرأيتَ مثلاً لرحلة الإسراء والمعراج ؟ هذا غيب لم يَرَهُ أحد غير سيدنا رسول الله ، رحلة الإسراء كانت رحلة أرضيمة ، ورحلة المعراج كانت رحلة سماوية ، الناس شاهدتْ ما على الأرض من معالم لكن لم تشاهد ما فى السماء .

لذلك لما أراد سيدنا رسول الله أن يقدم لهم دليلاً على صدقه وصف لهم معالم رآها على الأرض فوصف لهم بيت المقدس[1] ،

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦٣) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : إنى أسرى بى الليلة . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ فقال : نعم . قال : فمن بين مصفق وواحد واضع يده على رأسه مستعجب للكذب .. قال : وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد فقال : هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ قال : فذهبت أنعت فما زلت حتى التبس علىَّ بعض النعت . قال : فجىء بالمسجد حتى وُضع دون دار عقيل قال : فنعتُّه وأنا أنظر إليه . فقالوا : أما النعت فقد والله أصاب . وأخرجه أحمد فى مسنده (١/٣٠٩) .

والقبيلة التى رآها مسافرة ومتى ستصل ، وأن بها جملاً صفته كذا وكذا ، فهذه رحلة أرضية من الممكن أنْ يُقام عليها دليل .

وبصدقه ﷺ فيما أخبر من مشاهدات أرضية صارتْ هذه الرحلة مشهداً ووسيلة لتصديق المشهديات المخالفة للقوانين ، فإنْ أخبر أنه صعد إلى السماء فصدَّقوه وخذوا من صدقه فى المشَاهَد دليلاً على صدقه فيما غاب ؛ لأن كلَّ غيب كما قلنا محروس بمشهد .

ثم يقول سبحانه :

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

مادة نزل وردتْ فى القرآن بصيغ عدة : أنزلنا ، نزَّلنا ، تنزيل نزل . وكلها تعطى معنى العلو للذى نُزِّل ، وصفة العلو تدل على أن المنزَّل ليس من صُنْع البشر ، وتدل على عظمة المنزِّل ومنزلته ، حتى إنْ كان من جهة الأرض لا من جهة السماء ، كما قال تعالى فى الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

ومعلوم أن الحديد يُستخرج من الأرض لا ينزل من السماء ، فالمعنى : أنزلناه على أنه هبة العالى للأدنى ، ولا بدَّ أن يكون الأعلى أعظم من الأدنى . ونقول ذلك حتى فى الأحكام والقوانين حين نريد أنْ نشرع ونُقنِّن القوانين .

لا تتركوا قوانين الأعلى وتأخذوا بقوانين الأدنى ، لأن المقنِّن الأعلى سبحانه غير المقنِّن من البشر ، فمهما بلغ من العلم والحكمة فلن يخلو من هوى ولن يتنزَّه عن غرض ، فإنْ كان من الأغنياء يُقنِّن للرأسمالية ، وإنْ كان فقيراً قنَّن للشيوعية .

لذلك يُشترط فيمن يُقنِّن ألاَّ يكون له هوىً ، وألاَّ يكون منتفعاً بما يقنن ، وأنْ يكون محيطاً بالأمور كلها بحيث لا يستدرك عليه ولا ينسى جزئية من جزئيات الموضوع ، وهذه الشروط كلها لا تتوفر إلا فى الحق سبحانه ، لذلك لا يجوز لنا أن نترك قانون الله وشرعه ونتحاكم إلى قانون البشر .

لذلك تعرَّض الإسلامُ لحملات ضارية وانتقادات من غير المسلمين كان آخرها الضجة التى أثاروها فى الفاتيكان على الطلاق فى الإسلام ، لأنهم قننوا لأنفسهم بعدم الطلاق ، لكن الطلاق فى الإسلام مَنْ شرعه ؟ الله لا البشر .

إذن : فهو الصواب وغيره خطأ ، لأنك لا تستطيع أبداً أنْ تديمَ علاقة بين زوجين يكره كل منهما الآخر وهو مأمون عليها وهى مأمونة عليه ؟ كيف تحكم علىَّ أن أعيش مع امرأة لا تثير غرائزى .

إذن : شُرِع الطلاق فى الإسلام لحكمة ، لأن المشرِّع سبحانه أعلم بطبائع الخَلْق ، ومرتْ الأيام وألجأتهم أقضية الحياة ومشاكل المجتمع لأنْ يُشرعوا هم أيضاً الطلاق ، ما أباحوه لأن الإسلام أباحه ولا محبةً فى دين الله ولا إيماناً بشرع الله ، إنما أباحوه لأن الحياة فرضتْ عليهم قضايا لا تُحلُّ إلا بالطلاق .

وهذه المسألة هى التى أجبنا بها حين سُئلنا فى سان فرانسيسكو عن قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف] وقال : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة]

يقولون : مرَّ على الإسلام أربعة عشر قرناً من الزمان وما يزال أغلب الناس غير مسلمين ، والإسلام ليس هو الدين الغالب بل مُهدَّد

ومُحارَب . قلنا : لو تأملتم معنى الآية لعرفتم أن إظهار الدين لا يعنى أن يؤمن كل الناس ، إنما يظهر على غيره من الشرائع والقوانين ويضطر غير المسلمين لأنْ يأخذوا بالإسلام فى حَلِّ قضاياهم ، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة] ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ [التوبة] دليلٌ على وجود الكفار والمشركين مع وجود الإسلام .

وكلمة (الكتَاب) أى : القرآن ، سماه الله كتاباً لأنه مكتوب ، وقرآناً لأنه مقروء ، أو هو كتاب إيذاناً بأنْ يكتب ، وهو قرآن إيذاناً بأن يُقرأ ، والقراءة إما من السطور وإما من الصدور الحافظة ، وسمَّاه وحياً لأنه أُوحِى به إلى نبيه ﷺ : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم] إذن : لكل تسمية ملحظ .

ولما أرادوا جمع القرآن اشترطوا أن تتوافق فيه الصدور والسطور ، فما كتبوا آية واحدة إلا إذا وجدوها مكتوبة فى الرقاع وشهد شاهدان بصحتها ، ورحم الله سيدنا الشيخ محمد عبد الله دراز(١) الذى قرن بين هذه المسألة وقوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ .. (٢٨٢)﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢)﴾ [غافر] فهذا الكتاب مُنزَّل من عند الله المتصف بصفات الكمال المطلق ، وله سبحانه طلاقة قدرة وطلاقة حكمة وطلاقة رحمة وطلاقة رحمانية ، وما دام الكتاب جاء ممَّنْ هذه صفاته فلا يمكن أنْ يستدرك عليه ، وما دام لا

(١) محمد عبد الله دراز : فقيه متأدب مصرى أزهرى ، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر . له كتب منها : الدين - دراسة تمهيدية لتاريخ الإسلام توفى عام ١٩٥٨م . [الأعلام للزركلى ٢٤٦/٦] .

يستدرك عليه فصدِّقوا الآية : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. ③ ﴾ [المائدة]

لذلك نعجب من الذين ينادون الآن بعصرنة الإسلام ، ونقول لهم : بدل أنْ تُعصرنوا الإسلام دَيِّنوا العصر .

وصفة (العَزِيز) أى : الغالب الذى لا يُغلب ، وما دام أن هذا الكتاب نزَّله عزيز لا يُغلب ، فلا بدَّ لهذا الكتاب أنْ يعلو وأن يُنشر وأنْ يسمعه الناس لا يغلبه أحد ، لأن مُنزله عزيز ، ولأن الله تعالى ما كان ليبعث به رسولاً ويتركه أو يخذله ، فمهما عاندوا ومهما تكبروا وجحدوا سيغلب هذا القرآن ، ولن يُغلبَ أبداً فى أىٍّ مجال من المجالات .

وكأن الحق سبحانه يقول للكفار وعبدة الأصنام : خذوا لكم عبرة من واقع الأشياء حولكم ، فمحمد وأتباعه بعد أنْ كانوا مُحاصرين مضطهدين أصبحوا فى ازدياد يوماً بعد يوم ، وأرض الإسلام أصبحتْ فى ازدياد وزيادة أرض الإسلام نقصٌ من أرض الكفر : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ④١ ﴾ [الرعد]

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ①٥ ﴾ [الحج]

يعنى : مَنْ كان يشك فى نصر الله وتأييده فليبحث له عن مسلك آخر وليأت بحبل يُعلِّقه فى السماء ويجعل رقبته فيه ثم ليقطع ،

فلينظر هل يُذهب هذا غيظه ؟ وقد قال الله تعالى فى بيان سنته فى نصرة رسله وعباده الصالحين : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : فالحق سبحانه ما كان ليكبت دينه ، ولا يخذل رسله ، أو يتخلىٰ عن نُصْرة أوليائه .

وقوله تعالى : ﴿ الْعَلِيمِ (٢) ﴾ [غافر] تعنى : أن عزته سبحانه ليست (فتونة) بلا رصيد ، إنما هى عزة بعلم ، وعزة بحكمة ، وعزة برحمانية ورحيمية ، فله سبحانه كل صفات الكمال المطلق .

ثم يقول سبحانه :

﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ (١) لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾

يريد الحق سبحانه ألاَّ ينفصل خَلْقه عنه مهما كثُرتْ ذنوبهم وغلبتهم شهواتهم ، يريد سبحانه أنْ يعطفهم إليه ويجمعهم فى ساحته ، لذلك فتح لهم باب التوبة والمغفرة وبسط لهم يَدَ العفو والتسامح ، ثم لوَّح لهم بعصا العقاب حتى لا يغتروا ، وهذا المنهج يعود نفعه على الكون كله وعلى الفرد خاصة ؛ لأن صاحب الذنب لو

(١) الطول : الفضل والغنى والقدرة . [القاموس القويم ٤١١/١] والطَّوْل مأخوذ من الطول كأنه طال بإنعامه على غيره . وقيل : لأنه طالت مدة إنعامه . [تفسير القرطبى ٥٩٣٩/٨] .

علم أن ذنبه لن يُغفر لتمادى فيه وأكثر وعربد فى الكون وأفسد، وساعتها سيشقى به المجتمع وخاصة أهل الإيمان .

لذلك كانت هذه الآية من أرْجَى الآيات فى القرآن الكريم كما قال سبحانه فى أواخر سورة الزمر : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر]

وقلنا : إن هذه الآيات وأمثالها لا تتعارض وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨)﴾ [النساء] لأن الكفر ليس ذنباً ، لأن الذنب أنْ تخالف أمراً مأموراً به أو منهياً عنه من المشرِّع الأعلى سبحانه ، أما الشرك بالله فهو خروج عن الإيمان أصلاً فلا يُقال له مذنب .

والحق سبحانه كثيراً ما يذكر عباده بمغفرته وقبوله للتوبة حتى لا ييأس أحدٌ من رحمته تعالى ، فقوله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الزمر] لم يقلها الحق سبحانه إلا وهناك مَنْ أسرف على نفسه ويَئِس من رحمة ربه ، لأنه بالغ فى الذنوب حتى ظن أنها لن تُغفر .

من هؤلاء وحشىّ قاتل سيدنا حمزة ، لأنه بعد أن قتله أحسَّ بذنبه وعظَم جُرْمه ، وأيقن أنه هالك لن يغفر الله له ، لذلك البعض يقول إنه ذهب لرسول الله يسأله فى هذه المسألة وكذا وكذا ، لكن الواقع أنه كان فى مكة والآية نزلت فى المدينة لكن نُقلت إليه فلما سمعها آمن وأسلم .

ويُروى[1] أن وحشياً قابل النبى ﷺ فقال له ﷺ : ما كنتُ أود أنْ أراك لولا أنك جئت مستجيراً وربى يقول : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ .. (٦)﴾

[التوبة]

فقال : وأنا مستجير بك حتى أسمع كلام الله ، فقرأ عليه رسول الله : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر]

فقال : لكن الله يقول : ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا .. (٧٠)﴾ [الفرقان] وأنا لا أضمن أنى أعمل عملاً صالحاً ، فقرأ عليه رسول الله هذه الآية : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ .. (٣)﴾ [غافر]

ومن هؤلاء الذين أصابهم اليأس من رحمة الله عياش بن أبى ربيعة ، فيُروى أن سيدنا عمر رضى الله عنه لما أراد أن يهاجر اتفق

---

(١) روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشى إلى النبى ﷺ قال فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً فاجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله ﷺ : « قد كنت أحب أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتنى مستجيراً فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله . قال : فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت ، هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ .. (٦٨) ﴾ [الفرقان] إلى آخر الآية فتلاها عليه ، فقال : أرى شرطاً فلعلى لا أعمل صالحاً ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [النساء] فدعا به فتلاها عليه . قال : فلعلى ممن لا يشاء أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الزمر] فقال : نعم الآن لا أرى شرطاً ، فأسلم . أورده القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩١٤) .

مع عياش[١] وهشام بن العاص بن وائل السهمى[٢] على أن يهاجروا معاً وأن يجتمعوا عند بئر غفار ، فإذا حُبس واحد منهم انتظروه ، فلما جاء الموعد لم يأتِ عياش حيث حبسه أهله عن الهجرة ثم فتنوه ففُتن ولم يهاجر مع صاحبيه ، فحصل له يأس من رحمة الله[٣] .

فلما نزلت هذه الآية : ﴿ **قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ** (٥٣) ﴾ [الزمر] تذكر عمر صاحبه عياشاً الذى فُتن وتذكر أنه التقى معه على الإيمان فى يوم ما ، وأنه كان ينوى الهجرة إلا أن أهله فتنوه فرقَّ له قلبه وبعث إليه بهذه الآية ليطمئن ويعود إلى الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ **غَافِرِ الذَّنبِ** (٣) ﴾ [غافر] أى : الذى سلف ﴿ **وَقَابِلِ التَّوْبِ** (٣) ﴾ [غافر] أى : عن المعصية التى استقبلها ﴿ **شَدِيدِ الْعِقَابِ** (٣) ﴾ [غافر] لحكمة يقرن الحق سبحانه بين المغفرة والعقاب حتى لا يتواكل الناس وحتى لا يغتروا برحمة الله ، فالدين يقوم على الخوف والرجاء ، وهما كالجناحين للطائر لابدَّ منهما معاً ﴿ **ذِى الطَّوْلِ** (٣) ﴾ [غافر] كما تقول يعنى (إيده طايلة) يفعل ما يشاء ، فالله ذو الطوْل

---

(١) اسمه عمرو ويلقب ذا الرمحين وهو ابن عم خالد بن الوليد . كان من السابقين الأولين وهاجر الهجرتين ثم خدعه أبو جهل إلى أن رجعوه من المدينة إلى مكة وحبسوه وكان النبى ﷺ يدعو له فى القنوت . مات سنة ١٥ هـ بالشام فى خلافة عمر وقيل استشهد باليمامة وقيل باليرموك . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٥/٤٧] .

(٢) كان هشام بن العاص يكنى أبا العاص فكنّاه النبى ﷺ أبا مطيع . كان قديم الإسلام هاجر إلى الحبشة . ذكره أصحاب السير فيمن استشهد بأجنادين . وذكر الواقدى أن هشاماً كان رجلاً صالحاً فرأى من بعض المسلمين بأجنادين بعض النكوص فألقى المغفر عن وجهه وجعل يتقدم فى نحر العدو ويصيح : يا معشر المسلمين إلىَّ إلىَّ أنا هشام بن العاص أمن الجنة تفرون ؟ حتى قتل . [راجع الإصابة ٦/٢٨٦] .

(٣) ذكر ابن حجر العسقلانى هذا الخبر فى الإصابة (٦/٢٨٦) وقال : أخرج ابن السكن بسند صحيح عن عمر . وذكره .

أى صاحب الفضل والإنعام يعطى ويتفضَّل بما يشاء على مَنْ يشاء لا يردّ عطاءه أحدٌ ، لذلك ورد فى الدعاء : « لا معطى لما منعْت ، ولا مانع لما أعطيت » .

فإذا قال الحق سبحانه : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) ﴾ [غافر] فهمنا من كلمة تنزيل علُو المنزل والواسطة المنزل إليه والمنزل إليهم ليكون منهجاً لحركة حياتهم ، وهذا العلو إنما نشأ لأن المنزل كتابٌ من الله واجب الوجود الذى له الكمال المطلق فى قولنا لا إله إلا الله والله أكبر من كل شىء التى فسرناها فى قوله تعالى ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ (٦٣) ﴾ [الزمر]

فلا إله إلا الله مقلاد ، والله أكبر مقلاد ، وسبحان الله مقلاد ، وبحمده مقلاد ، ونستغفر الله مقلاد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مقلاد ، وهو الأول مقلاد ، وهو الآخر مقلاد ، وهو الظاهر مقلاد ، وهو الباطن مقلاد ، بيده الخير مقلاد ، وهو على كل شىء قدير مقلاد . ولن تجد شيئاً فى كَوْن الله يخرج عن هذه المقاليد أبداً ، وكل شىء فيها إنما هو بيد الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

وبعد ذلك تكلم الحق سبحانه ، فقال ﴿ الْعَزِيزِ (٢) ﴾ [غافر] أى : عن خَلْقه . والعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، وهذه إشارة إلى أنه إذا أنزل اللهُ كتاباً على رسول فلن يوجد مَنْ يقف أمام هذا الكتاب لأنه غالبٌ لا يُغلب ، وقوله ﴿ الْعَلِيمِ (٢) ﴾ [غافر] أى : يضع الأشياء فى أماكنها بما يعلم أنها تؤدى مهمتها بصلاحها .

وبعد ذلك طمأن خَلْقه الذين أسرفوا على أنفسهم فى بعض الأشياء ، فذكر التخلية فى ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ (٣) ﴾ [غافر]

ولكنه سبحانه مع غفرانه للذنب وقبوله للتوب ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③﴾ [غافر] فجمع فى هذه الآية صفات جلاله كلها وصفات جماله كلها .

ونفهم من (لا إله إلا هو) أنه لا استدراك لأحد على شيء من قوله ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③﴾ [غافر] فلا مرجع ولا مردَّ إلا إليه.

ثم يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ④﴾

الرسول ﷺ جاء رسولاً من عند الله بما يُخرج الجاهلية إلى مقام العلم عن الله ، وبذلك تتطهر حركة حياتهم من كل ما يعطى فى الكون ذبذبة أو كلّ ما يعطى فى الكون تعانداً حتى يصير الكون كله متساندا متعاضداً ، بحيث لا يبنى واحد ويهدم الآخر ، فيقول سبحانه : ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ④﴾ [غافر]

الجدل : إبرام الشيء إبراماً حقيقياً بحيث يستحيل أنْ ينقض ، وهذه المسألة مثل عملية فَتْل الحبال عندنا فى الفلاحين ، حيث يأخذ الرجل شعيرات التيل المعروف ويظل يبرم فيها ، إلى أنْ تتداخل الشعيرات وتتماسك وتتداخل ، لذلك نرى الحبل قوياً متيناً .

وسُمِّى المراءُ بين الناس جدلاً ، لأن كل واحد من الطرفين يريد أن يُحكِّم منطقه وحجته ليغلب الآخر ، فكلٌّ منهم يجادل لحساب نفسه ، صاحب الحق يجادل لإظهار حقه ، وصاحب الباطل يجادل ليُحقَّ باطله . أى : يُظهره فى صورة الحق .

لكن هل الجدل مـذموم فى ذاته ؟ لا ، لأن الجدل بحـسب الغاية منه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت] فدلَّ ذلك على أن فى الجدل مـا هو حسن وأحسن ، والجـدل الحســن هو الذى يسعى لإيـجاد الحـجـة على أن الحق حق والباطل باطل[1] ، فإنْ كان العكس فهو جدل باطل مذموم .

لذلك نفهم من قوله تعالى : ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٤﴾﴾ [غافر] أن هذا هو الجدل الباطل لأن الجدل يكون عنهـا لا فيها ، يجادل عنهـا أى : يدافع عنها ليثـبت صدقها ويُظهـر الحق الذى جاءتْ به ، أما يجادل فى الآيات . أى : يحاول التشكيك فيها وتكذيبها .

وقلنا : إن آيات الله على ثلاثة أنواع ، وهذه هى التى يحدث فيها الجدل : الآيات الكونيـة التى تشـهد بوجـود الخالق الأعلى سبـحانه ، والآيات البـينات المعـجزة التـى تثبت صـدق الرسول فى البـلاغ عن ربه ، والآيات القرآنية التى تحمل الأحكام .

فالآيات الكونية التى تثبت قدرة الله الخالق الأعلى سبحانه هى التى نشاهدها فى الأرض وفى السماء ، فى الشـمس والقمر والنجوم والماء والهواء .. الخ وهذه الآيات أوجدها الخالق سبـحانه على هيئة الصلاح ، وعلى قانون ثابت لا يتخلف ، ولا دَخْلَ للإنسان فى حركتها .

وسـبق أنْ قلنا : إن الفـســاد فى الكون يطرأ من تدخل الإنســان وامتداد يده إلى مخلوقـات الله بغير قانون الله الذى خلق ، ولو تدخَّل الإنسـان فى الأشيـاء بقانون الخـالق مـا رأينا هذا الفسـاد الذى يعمّ الكون الآن ؛ لذلك يوضح لنا الحق سـبحانه هذه القـضية ، فيـقول :

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٣٩) : « أما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشاكلها ومقـادحة أهل العلم فى استنبـاط معانيـها ، ورد أهل الزيغ بهـا وعنها ، فأعظم جـهاد فى سبيل الله » .

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف]

والمعنى : أن الحق سبحانه خلق الأرض على هيئة الصلاح ، فإياكم أنْ تفسدوها ؛ لذلك يرجع الحق سبحانه الفساد الحادث في الأرض إلى الناس ، فيقول : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم]

نعم ، لوَّثنا المياه وألقينا فيها النفايات والمخلَّفات فماتت الأسماك وظهرت الأمراض ، أفسدنا الهواء وأفسدنا التربة الزراعية .. الخ ذلك لأننا تدخَّلنا في مخلوقات الله بغير قانون الله ، وبغير منهج الله الذي وضعه لصلاح الكون .

لكن أيّ هذه الآيات الثلاث يجادل فيها الكافرون ؟ بالطبع هم لا يجادلون في الآيات الكونية ولا يتعرضون لها ، لأنهم أولاً ينتفعون بها ويروْنَ فيها نظاماً دقيقاً محكماً لا يشذّ ولا يتخلف ، فلا مجالَ إذن للجدل فيها . إنما يجادلون في الآيات الأخرى في آية المعجزة ، وفي آيات الكتاب حاملةً الأحكام فيُشككون فيها .

أما المعجزة فقالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

إذن : اعتراضهم هنا ليس على القرآن في ذاته إنما في مَنْ أنزل عليه ، فالقرآن في نظرهم لا غبارَ عليه لولا أنه نزل على محمد ، لكن كفرهم يُوقعهم في التناقض فيقولون : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ

(١) اختلف في تحديد هذا الرجل الذي كان يريدون نزول الوحي عليه . فقيل : الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي . وقيل عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي ، وقيل : عتبة ابن ربيعة . وقيل : حبيب بن عمرو الثقفي . أما القريتان فهما مكة والطائف . قال ابن كثير في تفسيره (٤/١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان » .

عندكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وكان المفترض بالعقل أنْ يقولوا : فاهدنا إليه ، فهذا دليل على شكِّهم في القرآن وعدم تصديقهم لما جاء به ؛ لذلك حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ (٢٦) ﴾ [فصلت]

وتأمل هنا النهي عن مجردِ السماعِ للقرآن ، لماذا ؟ لأنهم عرب ولهم فطرة لغوية وخبرة بالأداء والبيان ، فلو استمعوا للقرآن لابدَّ أنْ يتأثروا به ، وكل من استمع القرآن بقلب خَالٍ من ضده لابد أنْ يقتنع به ، وإلا فلماذا كان نهيهم عن مجرد السماع ؟

لذلك لا يكتفون بالنهي عن السماع بل يُشوِّشون عليه حتى لا يتمكن السامع من السماع ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ (٢٦) ﴾ [فصلت] هذا دليلٌ على أن القرآن لو تُرك ليصل إلى الآذان لابدَّ أنْ ينفذ إلى القلوب فيعمرها ويلفتها إلى الحق إنْ كان الذهن خالياً من الباطل ، فإنْ كان القلب مشغولاً بعقيدة مخالفة لا يتأثر ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (١٦) ﴾ [محمد]

وقال فيمَنْ يؤثر فيه سماع القرآن : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) ﴾ [التوبة]

فإنْ قلتَ : كيف يكون للشيء الواحد أثران متضادان ؟ نقول : لأن القابل للفعل مختلف ، وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالنفخ في الأيدي للتدفئة في البرد ، والنفخ في كوب الشاي الساخن ليبرد ، فالنفَس واحد لكن القابل للنفَس مختلف ، ولا شكَّ أن حرارة النفَس

أقلُّ من حرارة كوب الشاى ، لكنها أشدُّ من الحرارة فى الأيدى وقت الشتاء ، كذلك يختلف أثر القرآن بالنسبة للسامع .

لذلك ينبغى عند سماع القرآن ألاَّ توجد حُجب تحجبه عن القلب ، والحق سبحانه وتعالى يمنع لغط الجماهير فى الجدل البيانى ، ففى الضوضاء تختلط الأصوات وتتداخل ، وتُستر عيوب الشخص فى الآخرين ، وهذا يحدث مثلاً فى المظاهرات فلا نستطيع أن نسند الصوت إلى صاحبه ، وهذه المسألة توضح لنا الحكمة من قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء]

وقد وقف المستشرقون عند هذه الآية يقولون : ما الميزة فى علم الجهر والجميع يعلمه ، فلماذا يمتنّ الله بعلمه ؟ نقول : قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء] دلَّ على أن الجهر أيضاً من الجماعة بمعنى : ويعلم ما تجهرون ، فالحق سبحانه هو الذى يعلم كلَّ صوت ويعلم صاحبه ، ويميز الأصوات ويردها إلى أصحابها ، وهذه العملية فى ذاتها أصعب من علم الكتمان .

ومن جدالهم فى آيات الله قولهم عن رسول الله ﷺ أنه ساحر وكاهن ، وقولهم عنه شاعر .. الخ وهذه أقوال باطلة مردودة على أصحابها والرد عليها يسير ، فلو كان محمد ساحراً سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يسحركم أيضاً كما سحرهم ؟

إذن : بقاؤكم على حالتكم هذه دليلٌ على كذبكم فى هذا الاتهام ، أما كاهن فما جربتم عليه قبل ذلك شيئاً من الكهانة ، ولا سمعتم منه كلاماً كالذى يقوله الكهان .

والأعجب من ذلك أنْ يتهموا رسولَ الله بأنه شاعر ، وأن ما يقوله شعر ، وهم أمة الشعر وفرسان هذا الميدان ، وهم أدرى الناس

به ، ومَنْ كان عنده أدنى دراية باللغـة يستطيع أنْ يُفرِّق بين الشـعر والنثر وأن يتذوَّق كلاً منهما ويشعـر به إذا انتقل مثلاً من الشعر إلى النثر ، أو من النثر إلى الشعر .

فحين تقرأ مثلاً : هذا العتب محـمود عواقبه ، وهذه الجفوة غمرة ثم تنجلى ، ولن يريبنى من سيدى أنْ أبطأ سيبه أو أخطأ غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدِّلاء فَـيْضاً أملؤها ، وأثقل السحـائب مَشياً أحـفلها ، ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب .

فـإنْ يكُنْ الفعْلُ الذى سَـاءَ وَاحِـداً فَأفْـعَالُه اللاَّئى سُـرِرْنَ أُلُوفُ[1]

لابدّ إذن أن تفرق ههنا بيـن الشعر والنثـر ، فكيف بهم وهم أمة البلاغة والفصاحة ، الأمة التى جعلت للحكمة أسواقاً ومعارض ، ومع ذلك لا يفرِّقون بين الشعر والقرآن .

القـرآن ليس شعـراً ، بل هو نسيج فـريدٌ وحده ، واقـرأ مثـلاً : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ[2] وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

هكذا كلام نَثْر كله لا تشعر فـيه بشىء من الشعر ، ومع ذلك لو

---

(١) البيت لابن نبـاتة المصرى ، وهـو محمد بن مـحمد أبو بـكر جمال الدين ، أصله من مـيا فـارقـين ومولده ووفـاته فى القـاهرة ، ولد ٦٨٦ هـ وتوفـى ٧٦٨ هـ كان صـاحب سـر السلطان الناصر حسن . له ديوان شعر . والبيت من قـصيدة من بيتين مـن بحر الطـويـل [الموسوعة الشعرية] .

(٢) أكبرت الشىء أى : استعظمته . أكبـرنه : أعظمنه . [لسان العرب – مادة : كبر] قال فى القامـوس القويم للقرآن الكريم (٢/ ١٥٠) : « أكـبر الشىء : عدَّه كبـيراً أو عظم تأثره به فرآه كبيراً » .

أخذت مثلاً : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ (٣٢) ﴾ [يوسف] لوجدتها على وزن من أوزان الشعر ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر] لو حَوَّلتها إلى تفعيلات تعطيك بحراً من بحور الشعر ، لكن لا تشعر أبداً أنك انتقلتَ من شعر إلى نثر ، أو من نثر إلى شعر ، ذلك لأن القرآن كما قلنا نسيج وحده .

لذلك قلنا : إن كماله لا يتعدى إلى غيره ، فالفقيه الحافظ للقرآن تجده يجيد القراءات السبع ، ومع ذلك لا يجيد كتابة خطاب ، ونحن ننصح الطلاب بقراءة كتب الأدب مثل كتب المنفلوطى أو العقاد مثلاً ليستقيم أسلوبهم ويتمكنوا من الكتابة والتعبير السليم ؛ ذلك لأن القرآن لا يتعدَّى إلى غيره ، أما كتب الأدب فتتعدَّى إلى الأسلوب وتحسنه ، القرآن يظل كماله فى ذاته .

وكان من جدالهم فى آيات الله أنْ قالوا عن رسول الله : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] وحددوا شخصاً بعينه[1] ، لكن ردَّ عليهم القرآن بما يعنى : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً ﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

ثم قالوا : مجنون ، وعجيب منهم أن يتهموا رسول الله بالجنون وهم يعلمون أدبه وخلقه قبل بعثته ، وصاحب الخلق الكريم لا يكون أبداً مجنوناً ، لكن هذه كلها شبهات المفلسين الذين لا يجدون حجة تقدح فى رسالة محمد ، فماذا يقولون غير هذا التخبّط الأعمى ؟ هذا جدل فى شخص رسول الله ، وكانوا يقولون : ابن أبى كبشة ، لكن

---

(١) كان رسول الله يُعلم قيناً (حداداً) بمكة وكان اسمه بلعام وكان أعجمى اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا : إنما يعلمه بلعام فأنزل الله هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل] قاله ابن عباس فيما نقله عنه ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٨٦) .

هيهات أنْ تنال هذه الافتراءات من شخص رسول الله .

ثم يجادلون فى أحكام الله ، فيقول مثلاً : لم يحرم الله الميتة ؟ وكيف أن التى ماتت وحدها يعنى أماتها الله مُحرَّمة ، والتى تميتها أنت - أى : بالذبح - مُحلَّلة ؟ يعنى فى نظرهم أن الموت واحد ، فلماذا تحرم هذه وتحلّ هذه ؟

وهم يعترضون على آيات الأحكام لأنها تأتى عامة لا تفرق بين السادة والعبيد ، فالحكم واحد للجميع وهم قد ألفوا السيادة .

وقوله : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ④﴾ [غافر] أى : ستروا واجب الوجود الأعلى الذى خلقهم وخلق الكون كله من حولهم ، بدليل إقرارهم هم بذلك فى الآيات الكونية : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ㉕﴾ [لقمان] فهم وإنْ كانوا يؤمنون بهذه الآيات الكونية إلا أنهم كفروا بخالقها سبحانه ، وستروا الواجب الأعلى الذى ينظم حركة الحياة لخَلْقه جميعاً بحيث تتساند حركة الحياة ولا تتعاند لتظل عمارة الكون التى أرادها الخالق سبحانه .

وسبق أنْ أوضحنا أن كلمة كفروا فى ذاتها دليل الإيمان ، لأن الكفر يعنى الستر والستر يقتضى مستوراً ، فالمستور إذن وُجِد أولاً قبل الساتر ، وما دام ستروا بالكفر وجودَ الله ، فالأصل أنه موجود .

وقوله : ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ④﴾ [غافر] أى : لا يخدعنَّك أن لهم فى البلاد سيادة وتمكيناً وعلواً ومهابة ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ يتعرَّض لهم فى تقلّبهم من مكان لمكان ، وفى أسفارهم فى رحلة الشتاء والصيف .

ولو أنهم عرفوا حقيقة هذه المكانة ، ومَنْ الذى بوّأهم هذه المنزلة

ما وقفوا منك يا محمد هذا الموقف ، لقد أخذوا هذه المهابة ونالوا هذه المنزلة لجوارهم لبيت الله ، والله هو الذى أرسلك إليهم ، فكان عليهم أنْ يؤمنوا بك وأنْ يُصدقوك .

وكلمة (تَقَلّبهم) تدل على حركتهم وانتقالهم من مكان لآخر ، وتدل على قوة الأبدان ؛ لذلك كانت كل قبائل العرب تهابهم ، جاءت هذه المنزلة لقريش من موسم الحج ، حيث تأتى إليهم كل القبائل من جزيرة العرب فتكون فى حماية قريش فى الموسم ، ومن هنا أمنوا فى تنقلاتهم وكان عليهم أنْ يراعوا هذه النعمة ، لكنهم جحدوا بها فصدق عليهم قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم]

كيف ذلك ؟ اقرأ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[1] مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل]

تعرفون قصة أبرهة لما جاء ليهدم الكعبة ليصرف الناسَ عن بيت الله ويبنى كعبة أخرى فى صنعاء يحجّ الناس إليها ، وتعرفون ما كان من أمر هذا الجيش ، وكيف ردَّه الله بقدرته حتى قيل إن الفيل الضخم الذى كان يتقدم الجيش توقف عن السير نحو الكعبة ، فى حين يسير فى أىِّ اتجاه آخر وأن أحدهم اقترب من الفيل وقال له : ابرك محمود وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام[2] . فانصرفوا بعد أنْ أمطرهم الله

(١) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٥٠) أن نفيل بن حبيب اقترب من الفيل حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام ثم أرسل أذنه فبرك الفيل مكانه .

بحجارة من سجيل ، وهزمهم بقدرته تعالى . المهم ماذا قال سبحانه بعد هذه السورة مباشرة ؟

قال : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ ﴾ [قريش] فكأن فى بقاء الكعبة بقاءً لسيادة قريش ، وبقاءً لأمنها وسلامتها بين القبائل العربية ، فأبقى الله لهم بذلك أنْ يألفوا رحلة الشتاء والصيف .

إذن : العلة من ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل] جاءت فى ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ ﴾ [قريش]

وإلا لكانَ لك أن تتعجب من أول السورة : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ ﴾ [قريش] وتسأل عن العلة ، فإنْ فصلتَ العلة هنا عن المعلول ، فجاء كل فى سورة إلا أنهما فى نسَق واحدَ ، وسبق أن أوضحنا أن سور القرآن كله قائمة على الوصل فتقرأ : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل] بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ ﴾ [قريش]

فإنْ قلتَ : لماذا لم تأت فى سورة واحدة ؟ لماذا جاءت العلة فى سورة والمعلول فى سورة أخرى ؟ قالوا : الفصل بين الشىء وسببه ليكون الشىء له حكم ، والسبب له حكم .

إذن : جعلهم كعصف مأكول لئلا تزولَ الكعبة ولو زالت الكعبة لزالتْ سيادة قريش ومهابتها ، فأبقى الله لهم السيادة والمهابة ليتنقلوا بين الشمال والجنوب لا يجرؤ أحد على التعرض لهم ، وسوف يترتب على ذلك قوام حياتهم فيطعمهم من جوع ، ويُؤمّنهم من خوف ، يُطعمهم بالتجارة وحركة البيع والشراء ، ويؤمنهم بألاَّ يتعرض لهم أحدٌ بسوء .

ثم يوضح علة ذلك فيقول : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④ ﴾ [قريش] فهم يتقلبون فى نعمة الله ، وكان عليهم ألاَّ يكفروها .

فقوله تعالى : ﴿ فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ④ ﴾ [غافر] لأن الله تعالى لم يهملهم إنما فقط يمهلهم . فإنْ قلتَ : فما حكمة الإمهال ؟ يعنى : ما دام أن الله تعالى لم يهملهم ، فلماذا لم يأخذهم من البداية ؟

قالوا : لأن الله تعالى أرسل رسوله ﷺ خاتم الرسل وجعل دينه خاتم الأديان ومهيمناً على الزمان والمكان ، فلا نبيَّ بعده وللرسول مدة ينتهى فيها دوره فى الحياة ، وينتقل إلى الرفيق الأعلى ، ثم يحمل رسالته من بعده جنود الحق الذين محَّصتهم الشدائد .

لذلك قلنا : إن صناديد الكفر الذين عذَّبوا المسلمين الأوائل واضطهدوهم كانوا فيما بعد من جنود الإسلام ، لماذا ؟ لأن هذا الاضطهاد وهذا التعذيب هو الذى محَّص المسلمين وأبعد ضعاف الهمة وضعاف الإيمان الذين فتنهم التعذيب ، وأرهبهم الاضطهاد حتى لم يَبْقَ فى ساحة الإيمان إلاَّ الأقوياء الجديرون بحمل هذه الرسالة وتحمُّل تبعاتها ، لأنها رسالة خالدة باقية فى الزمان والمكان كله .

فالحق سبحانه ما أهمل الكفار إنما أمهلهم لمهمة ، هى أنهم سيساهمون فى تربية هذا الجيل الذى سيحمل دعوة الله : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ .. ㊴ ﴾ [الأحزاب]

هؤلاء هم الجيل المحمدى الذى حمل راية الإسلام ، وساح بها

فى كل الأنحاء لا ينتظر على ذلك أجراً مُقدماً إنما ينتظر الأجر من الله فى الآخرة .

وهذا هو الفرق بين دعوة الحق ودعوة الباطل ، فأهل الحق لا ينتظرون أجراً مقدماً ، أما أهل الباطل فيأخذون أجرهم قبل البدء فى العمل ، لذلك كل رسل الله قالوا هذه الكلمة : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)﴾ [الشعراء]

نعم أجرهم على الله لأنه غالٍ لا يقدر عليه إلا الله ، فلا أحد يستطيع أنْ يجازى الرسولَ على رسالته فى هداية قومه ولو أعطاه مال الدنيا كلها .

والتقلُّب فى البلاد أى : التنقُّل من مكان لمكان فيها لا يتم إلا بعدة أشياء أهمها : سلامة الأبدان لتحمُّل مشقة السفر ، ثم الأمن من خوف الطريق ، ثم وجود كفايات له فى المنازل التى ينزل فيها فى طريقه ، لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦)﴾ [النحل]

يعنى : فى أوْج قوتهم وتمكّنهم من الحركة والتنقل يأخذهم الله بالعذاب ، هذا لون من الأخذ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ .. (٤٧)﴾ [النحل] أى : يخيفهم أولاً ويفزعهم قبل أنْ يأخذهم وهذا لون آخر ، كالذين نزلت بهم الصاعقة فأفزعتهم قبل أنْ يحلّ بهم عذاب الله ، هذان لونان من أخْذ الله للكافرين .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ(١) وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾

المعنى : أنهم ليسوا بدعاً فى الوجود ، كما أنك لستَ بدعاً فى الرسل ، فقد سبقك إخوانك من الرسل فكُذّبوا كما كَذَّبك قومك ، لكن ماذا كانت نتيجة التكذيب ؟ أبعث الله رسولاً وتركه وأسلمه ؟ كلا والله بل سُنّة الله فى رسله أنْ ينصرهم وأنْ يخذل أعداء دعوته ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

وهذا ليس كلاماً نظرياً نُسليك به يا محمد ، إنما له واقع وله نظائر تؤيده فى موكب الرسالات ، كما قال سبحانه عن المكذِّبين : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : ريحاً ترميهم بالحجارة المحمية ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] وهم قوم ثمود ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] كما خُسف بقارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] كما فعل بقوم نوح وبقوم فرعون .

---

(١) ليأخذوه : أى ليحبسوه ويعذبوه . وقال قتادة والسدى : ليقتلوه . والأخذ يرد بمعنى الإهلاك ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحج] [تفسير القرطبى ٥٩٤٠/٨] .

فسُنّة الله فى الرسالات أنْ ينصر رسله وأنْ يهزم عدوه ، لذلك قلنا : إذا رأيتَ الأمة الإسلامية تنهزم فى معركة ، فاعلم أنه اختل فيها شرط الجندية لله ، ولو بقيتْ على شرط الله فى الجندية ما انهزمتْ أبداً .

فقوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ .. ۝٥﴾ [غافر] أى : قبل قومك الذين كذبوك (قوم نوح) وهذه تسلية لرسول الله وتخفيف عنه ، فليس التكذيب للرسالات شيئاً جديداً ، واختار قوم نوح بالذات لأن رسالة نوح عليه السلام كانت أطولَ رسالة ، حيث لبث فى دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كل هذا العمر الطويل وهم يجادلون رسول الله نوحاً ويكذبونه ويعاندونه ، لذلك يئس من صلاحهم ودعا عليهم : ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح]

أما القلة التى آمنتْ معه فقد دعا لهم حيث بدأ بنفسه : ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ .. ۝٢٨﴾ [نوح] ثم ﴿وَلِوَالِدَيَّ .. ۝٢٨﴾ [نوح] لأنهما سببُ وجودى ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا .. ۝٢٨﴾ [نوح] وهم ما لهم صلة به ، ثم لعامة المؤمنين والمؤمنات ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. ۝٢٨﴾ [نوح]

إذن : ذكر تكذيب قوم نوح بالذات لأنه العمدة فى هذه المسألة وهو الأوضح والأعنف ، ولا تخفى عليكم المواقف التى تعرَّض لها نوح عليه السلام من تكذيب قومه وإيذائهم له واستهزائهم به ، وهو

(١) الديَّار : من يسكن الدار أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية ، ويقال : ما بالدار ديَّار . أى : ما فيها أحد . قال نوح فى دعائه : ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ [نوح] أى : لا تذر أحداً منهم حياً [القاموس القويم ١/ ٢٣٧] .

يصنع السفينة[١] .

وقوله : ﴿ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ .. ۝ ﴾ [غافر] المراد عاد قوم هود عليه السلام وثمود قوم صالح عليه السلام ، وهذا ليس كلاماً نظرياً بل هو واقع يرونه ويمرون بهذه الديار الخربة : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [الصافات]

إنهم يمرون فى أسفارهم بالأحقاف وبمدائن صالح ، وعندنا فى مصر آثار الفراعنة كلها تشهد بصدق الله فى هذا البلاغ ، وها هى أكثر دول العالم تقدماً الآن وحضارة تقف عاجزة أمام حضارة الفراعنة ، وكيف أنهم وصلوا إلى هذه الدرجة من التقدم منذ أكثر من سبعة آلاف عام ، ومع ذلك فاتتهم هذه الحضارة لأنهم لم يصلوا إلى الحد الذى يصونها لهم .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝ ﴾ [الفجر]

يعنى : القضية لم تنته عند عاد وثمود وقوم فرعون ، بل هى عامة فى كل مكذِّب ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝ ﴾ [الفجر]

والأحزاب : هم الذين يتحزَّبون ويجتمعون على مبدأ واحد ، والمراد هنا الذين يتحزّبون ضد الدعوة وضد الهداية ويُسمونهم لذلك حزب

---

(١) يقول تعالى فى هذا : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. ۝ ﴾ [هود] فكانوا يقولون له : أأصبحت نجاراً ؟ ولأى شىء تصنع سفينة فى أرض ليس بها ماء أتمشى على اليابسة ؟ ونحو هذا من عبارات الاستهزاء به والسخرية منه .

الشيطان ويقابله حزب الله ، وهم الذين يؤيدون الرسل وينصرون دعوة الحق .

﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ .. ۝٥ ﴾ [غافر] أى : ليقتلوه ، وهذه المسألة جاءت مُفصَّلة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ .. ۝٣٠ ﴾ [الأنفال] أى : يحبسوك أو يقيدوك فلا تتحرك هنا وهناك ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠ ﴾ [الأنفال]

والكلام هنا أنهم هَمُّوا بذلك لكن لم يفعلوه ولم يقدروا عليه ، فكلمة (هموا) تعنى تَوجُّهٌ وهَمٌّ مراد لم يحدث على الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى فى الطائفتين فى غزوة أحد : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا .. ۝١٢٢ ﴾ [آل عمران] لكن لم يحدث الفشل ، فالهَمُّ شغْلُ القلب بفعل الشىء ، لكن لا يحدث الفعل . لذلك قال سبحانه : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا .. ۝٧٤ ﴾ [التوبة]

إلا الهم الذى كان من سيدنا يوسف عليه السلام ، لأن المسألة هنا تتعلق بعصمة نبى كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا .. ۝٢٤ ﴾ [يوسف] البعض يُحمِّل هذه الآية معانى لا تليق بعصمة نبى الله يوسف ، يقول : كيف يَهِمّ بها وهو نبى ؟

قلنا : ألهم تعلُّق الخاطر بالفعل أو تعلّق استجابة الجارحة للفعل ، لكن ينفعل أو لا ينفعل هذا هو المهم ، والآية فيها هَمَّان ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ .. ۝٢٤ ﴾ [يوسف] ثم سكوت ، ثم ﴿ وَهَمَّ بِهَا .. ۝٢٤ ﴾ [يوسف] لاحظ أن همَّها هى لم تَنَلْ منه شيئاً لذلك قالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ۝٣٢ ﴾[يوسف]

هذا دليل على أن همّها هى لم يأتِ بنتيجة ، فكيف لا يأتى الهَمّ

معها بشىء مع عصيانها ، ثم يأتى الهَمّ بشىء مع يوسف ؟ إذن : همتْ به ولم يحدث شىء وهى المريدة ، كذلك وهَمَّ بها ولم يحدث شىء لأنه لا يريد .

وتأمل هنا دقة الأداء القرآنى فى استخدام نون التوكيد الثقيلة فى ﴿لَيُسْجَنَنَّ..(٣٢)﴾ [يوسف] ونون التوكيد الخفيفة فى ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)﴾ [يوسف] لأن السجن أمر فى يدها وبأمرها يُسجن يوسف ، فاستخدم نون التوكيد الثقيلة الدالة على التمكُّن من الفعل ، أما أنْ يكون من الصاغرين فهذا أمر ليس بيدها فلربما سجنته وعطف عليه الحراس وأكرموه ، فاستخدم هنا نون التوكيد الخفيفة لعدم تمكُّنها من هذا الفعل .

والجواب الذى نحسم به مسألة الهم فى هذه القصة ونوضح به براءة سيدنا يوسف مما يقوله عنه المفترون نقول : ولقد همت به ، نعم أأدتْ هذا الهم أم لم تُؤده ؟ لم تُؤدِّه بدليل قولها ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ .. (٣٢)﴾ [يوسف] ﴿وَهَمَّ بِهَا .. (٢٤)﴾ [يوسف] نعم هَمَّ ولم يفعل بنفس الدليل السابق ، فلماذا تحرصون على إلصاق التهمة بنبى الله وهمّه كهمّها لم يأتِ بشىء .

ثم إن الهَمَّ منه هنا أمر طبيعى لأنه استعداد الطبيعة للوقوع فى هذا الفعل ، يعنى : هو أمر ممكن بالنسبة له عليه السلام ، فطبيعته صالحة لأنْ يفعل وإلا لقُلْنا إنه حَصُور ليس له فى هذا الأمر ، لا بل هو صالح له قادر عليه ، فما الذى منعه إذن ؟ نقول : منعه ﴿لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤)﴾ [يوسف]

أى : فى أن هذا حرام . كما تقول : أزورك لولا أن فلاناً عندك ، فالمعنى أننى لم أَزُرْكَ ، إذن : ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ..

(٢٤) ﴾ [يوسف] يعنى : هَمَّ ولم يفعل فالحكم هنا براءة ليوسف عليه السلام حتى من الهَمِّ .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ .. (٥) ﴾ [غافر] حدث ذلك لكنهم لم يفعلوا ولم يأخذوه ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ .. (٥) ﴾ [غافر] أى : يزيلوا ويهزموا الحقَّ بالباطل ، فماذا كانت النتيجة ؟ ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ .. (٥) ﴾ [غافر] أى : أهلكتُهم بالفعل لا بالهَمِّ كما فعلوا هم ، وهذا ما يليق بالقدرة العليا ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) ﴾ [غافر] يعنى : هل عرفنا ؟ هل قدرنا على عقابهم ؟

وهذه مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

يعنى : هل قدرنا أنْ نجازيهم على أفعالهم وإجرامهم ؟ وكأن الحق سبحانه يريد أن ينبه أهل الإيمان ، وأن يطمئنهم إلى عدله سبحانه ، فلن يفلت هؤلاء من العقاب ، ولا شكّ أن عقاب أهل الإجرام وأهل الكفر يريِّح أهل الإيمان .

وتأمل هنا أيضاً دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ.. (٥) ﴾ [غافر] ولم يقُلْ برسولها قياساً على أن الأمة مفرد مؤنث ، إنما قال ﴿ بِرَسُولِهِمْ .. (٥) ﴾ [غافر] فأضاف الرسول إلى جمع المذكر ، ذلك لأن المواجهة بين الإسلام والكفر كانت بالرجال ولم تكُنْ المرأة طرفاً فى هذه المواجهات بدليل أنهم لما بيَّتوا لرسول الله ليلة الهجرة كانوا جميعاً من الرجال ولم يكُنْ بينهم امرأة

واحدة ، كذلك الحال فى ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ .. (٥) ﴾ [غافر] فهذه أمور لا دخْلَ للمرأة فيها .

﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ (٦) ﴾

(حَقَّتْ) أى : وجبتْ وثبتت ولم يأت واقع لينقضها ، لماذا ؟ لأن الذى قالها يعلم ما يكون بعدها ، وخاصة إذا كان الذين يعملون لهم اختيار فى أنْ يعملوا أو لا يعملوا .

فالله تعالى قالها وحكم بها عليهم وهم فى بحبوحة الدنيا وفى زمن الاختيار ، ومع ذلك لم يخالفوها ، وهنا موضع العظمة فى كلام الله ، العظمة أنْ أتحداك فى أمر لك فيه اختيار ، ومع ذلك لا تخرج عما حكمت عليك به .

ومثل هذا قلناه فى قوله تعالى في شأن أبى لهب وزوجته : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا [1] حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

فالحق سبحانه وتعالى حكم عليهما بالكفر ، وأن مصيرهما النار مع أن الإيمان والكفر أمر وكَلَ اللهُ اختياره للعبد بدليل أن أمثال أبى لهب من كفار مكة أسلموا مثل : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة وغيرهم ، وكان فى إمكان أبى لهب بعد أن نزلت هذه السورة أنْ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يقولها ولو نفاقاً ، لكن لم يحدث

---

(١) جيدها : عنقها . والمسد : حبل من ليف أو خوص أو شعر أو وبر أو صوف أو من أى شىء كان . [لسان العرب - مادة مسد] .

وصدق فيه قول الله تعالى .

وهذه المسألة شرحها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] فقلبه يُحدِّثه بالشىء إنما العظمة الإلهية تحوله عنه .

لذلك قال تعالى لأم موسى : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧) ﴾ [القصص] فالقياس العقلى لا يقبل هذا الحل وأى عاقل يقول : إن المرأة إذا خافت على وليدها تلقيه فى البحر ؟ لكن هنا أم موسى لم تسمع لصوت العقل ولا تأثرتْ بعاطفتها نحو وليدها ، إنما سمعت لقول ربها ، سمعت لهذا الوارد الأعلى الذى لا يعارضه أىُّ وارد شيطانى أسفل فلم تتردد أبداً فى أنْ تلقى بوليدها فى البحر ، لأن الله تعالى حَالَ بينها وبين عاطفة قلبها .

كذلك الحال فى قصة سيدنا موسى مع فرعون ، فقد أخبر الكهنة فرعون أن زوال مُلْكه سيكون على يد غلام من بنى إسرائيل ، فماذا فعل فرعون - لتعلموا كيف كانت عقلية الذين ادَّعَوْا الألوهية ، وكيف أن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه ، ماذا فعل فرعون ؟ راح يبحث عن الأطفال ويقتلهم ، وهو لا يعلم أن الله يدَّخر له هذا الغلام فيأتيه ويطرق بابه وهو فى مهده على الهيئة التى تعرفونها ، ومع ذلك يطمئن إليه ويتخذه ولداً له ، وتقول زوجته ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. (٩) ﴾ [القصص] فيأخذه ويُربِّيه فى بيته ، هذا معنى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) ﴾ [غافر] ما حقتْ عليهم بقهر وجبروت ، إنما حقَّتْ عليهم باختيار منهم ، والحق سبحانه وتعالى بعلمه الأزلى علم

اختيارهم ، فحكم عليهم بسابق علمه فيهم ، ولا يمكن أنْ يأتى واقعٌ يخالف هذا الحكم لأن المتكلم بهذا الكلام هو الله .

وسبق أنْ أوضحنا أن الكلمة تُطلق على اللفظ المفرد ، وتُطلق على الكلام ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] وقوله سبحانه فى الذين قالوا ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. (٦٨) ﴾ [يونس] قال : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف] ونحن نسمى الخطبة الطويلة كلمة .

فالكلمة التى حقَّتْ ووجبتْ وثبتتْ ليسَت مطلق كلمة ، إنما هى ﴿ كَلِمَةُ رَبِّكَ .. (٦) ﴾ [غافر] وكلمة الله لابدَّ أنْ تحقّ ولابدَّ أنْ تثبت ، وما كان الله تعالى ليقول كلمة ، ثم يأتى واقع الأحداث ويكذبها ، والكلمة التى حقّتْ على الذين كفروا هى ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) ﴾ [غافر]

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) ﴾

هؤلاء هم الملائكة الذين خلقهم الله لتسبيحه سبحانه ، فلا عملَ لهم غير تسبيح الله وهم حملة العرش ومَنْ حوله . والتسبيح كما قلنا من المقاليد ، ومعنى ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. (٧) ﴾ [غافر] أى : يُنزهونه سبحانه عن مشابهة خَلْقه فى الأسماء والأفعال والصفات .

لذلك قلنا : إذا اشترك الحق سبحانه مع خَلْقه في شيء فلا بدَّ أنْ نأخذه في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

فلله فعل ولك فعل ، لكن لا تَقِسْ فعلك بفعل ربك سبحانه ، و هذه المسألة أوضحناها في شرح أول سورة الإسراء ، فلما كان الحدث مُستغرباً بدأ الله تعالى السورة بالتسبيح ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] قالها بداية حتى لا نقيس فعل الله على فعل البشر ولا قدرة الله بقدرة البشر ، فلله تعالى فعل ولك فعل ، لكن فعل الله ليس كفعلك ، فإياك أنْ تقول المسافة والزمن .

وكلمة (سبحان الله) تعني تنزيه الله تعالى عن كل ما يشبه البشر ، لذلك قالوا : كلُّ ما يخطر ببالك فالله خلاف ذلك ، وهذا التنزيه ليس طارئاً بوجود مَنْ ينزه الله إنما هو أزليّ قبل أنْ يخلق الله مَنْ ينزهه ، فهو سبحانه مُنزَّه في ذاته قبل أنْ يوجد مَنْ ينزهه .

لذلك لما وُجدَتْ السماء والأرض قال : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحديد] أي : سبَّحوا الله ساعة خُلقوا فقالوا : سبحان الله الخالق العظيم ، ولا يزالون يُسبِّحون ، كما قال : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (١) ﴾ [الجمعة] فالتسبيح موصول دائم ، فإذا كان الكون كله سبَّح لله ولا يزال يُسبِّح ، والكون مخلوق لك أيها الإنسان فأنت أوْلَى بالتسبيح منه ، لذلك قال : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) ﴾ [الأعلى]

وتسبيح الله تنزيه له سبحانه في أفعاله وفي صفاته ، فحين تتأمل مثلاً مسألة الخلق تجد خَلْق الإنسان من طين ، فهل يمكنك أنْ تأخذ قطعة من الطين فتُسويها على هيئة إنسان ثم تنفخ فيها أنت الروح ؟ هذه العملية لا يقدر عليها إلا الخالق سبحانه .

لذلك سيدنا عيسى عليه السلام لما أراد الله أنْ يجعل له آية ومعجزة فى مسألة الخلْق قال : ﴿ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران] فقال فى نفخ الروح ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران] لأنه بذاته لا يستطيع هذه العملية ، إنما كونى أُصوِّر تمثالاً على هيئة إنسان أو طائر فهذه مسألة سهلة .

إذن : كان عليك أيها الإنسان الذى كرَّمه الله ، كان عليك أن تسبح ، لأن الكون والجماد الذى خلقه الله لك سبَّح وما يزال .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ .. (٧) ﴾ [غافر] هم الملائكة حملة العرش . إذن : العرش محمول ، وهؤلاء الملائكة حتى عددهم فيه إعجاز ، فالحق سبحانه أخبر أنهم ثمانية ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) ﴾ [الحاقة]

فلماذا لم يجعلهم أربعة فيكون كما تعوّدنا فى أىِّ بناء له أربعة أركان ، ولماذا لم يكونوا خمسة مثلاً . إذن : لابدَّ أن فى هذا العدد بالذات حكمة وإعجازاً .

وهذا الإعجاز العددى واضح أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا[(١)] تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾ [المدثر] فلماذا تسعة عشر بالذات ؟ لماذا لم يجعلهم عشرين مثلاً ، هذا دليل على أن وراء هذا العدد حكمة ، وقد أخبر الله تعالى أن هذا العدد فتنة ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣١) ﴾ [المدثر]

---

(١) عليها : أى على النار ، فهم خزنة جهنم . وهم تسعة عشر ملكاً بيد كل ملَك منهم مرزبة لها شعبتان فيضرب الضربة فيهوى بها سبعين ألف خريف . ذكره القرطبى فى التذكرة (ص ٤٥٥) وقد أخرج الترمذى عن جابر بن عبد الله أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ : كم عدد خزنة جهنم ؟ فأهوى رسول الله بكلتا كفيه إلى الأرض مرة عشرة ومرة تسعة قبض فيها الإبهام . قالوا : نعم .

والإيمان يقتضي التصديق بما أخبر به الحق سبحانه وألاَّ تناقش مثل هذه المسائل ، المهم قال أو لم يَقُل ، حدث الشيء أو لم يحدث ، لذلك سيدنا أبو بكر لما أخبروه أن صاحبك يدَّعى أنه رسول ، ماذا قال ؟ قال : ألا وقد قالها ؟ قالوا : نعم ، قال : فقد صدق ولم يبحث فى المسألة ، كذلك نحن فى كل أمر يقف فيه العقل ، ما دام قد جاءنا فيه خبرٌ من عند الله فعلينا أنْ نقبله ونؤمن به ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]

وكوْن عقلك يستوعب هذا الخبر أو لا يستوعبه فهذا موضوع آخر ، لأن هناك فرقاً بين الوجود وكيفية الوجود ، فقد يوجد الشيء لكنك لا تعرف كيف وُجِد .

تأمل فى قصة أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

تجد السطحيين فى الفهم عن الله يتهمون القرآن فى هذه المسألة بالتعارض ، كيف ؟ يقولون : معنى (بلى) يعنى آمنت والإيمان يقتضى اطمئنان القلب إلى العقيدة ، فلماذا يقول بعدها : ﴿ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] ؟

ونقول له : أنت معذور ، لأنك لم تفهم معنى السؤال ، ولو فهمتَ معناه ما اتهمتَ القرآن ، هل قال إبراهيم لربه : أتحيى الموتى أم قال ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] فهو إذن لم يسأل عن إمكانية الفعل ولم يشُكّ فى قدرة الله ، ولكنه يسأل عن الكيفية ﴿ كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] إذن : فإحياء الموتى أمر سابق يسأل إبراهيم عن كيفيته ، فلو قلت لك : كيف بنيتَ هذا البيت ؟ فهذا يعنى أن البيت قائم بالفعل .

إذن : فقوله (بَلَى) يعنى : آمنت يا رب أنك تحيى الموتى ، وطلب

الاطمئنان بعد ذلك للكيفية والسؤال عن الكيـفية أمر ضرورى فى مسألة الخَلْق وكيفـية الإيجاد لأنها عـملية لا تتأتى كلامـاً ، لأن فعْل الله تعالى ليس علاجاً كفعل البشر .

فلو قلت لك : كـيـف بنيت هذا البـيت ؟ تقـول : حـفـرتُ الأسـاس وأحضـرتُ الحديد والأسـمنت وفـعلتُ كذا وكـذا ، فلان صمـم ، وفلان نفّذ ، وفـلان بنى ، وفلان (غفق) .. إلخ فأعطيك كـيفية الفـعل بحيث تستطيع تطبيقها إنْ أردت ولا تجد فـيها اختلافاً ، لكن إنْ أردنا أنْ نُبين كيفية الإحياء ، فكيف نبنيها ؟

إنها مـسألة لا تتـأتى بالكلام ، ولا بدّ من إجراء الـعملية بالـفعل ، وتأمل أن الله تعالى أراد أنْ يُجريها إبراهيم بنفـسه ، وألاَّ تجرى له إنما يمارسهـا بنفسه . وفَرْقٌ بين أنْ تُعـدِّى قدرتك لغيرك فـتنفعل له ، وأنْ تُعدِّى قـدرتك لغيرك فتـجعله يفعل بنفـسه ، فمـثلاً قد تعجـز عن حمل شىء فأحـمله عنك وهذا أمر طـبيعى ، لكن الـعظمة فى أن أجعـلك تقدر أنت بنفسك على حمله .

وهذا ما فعله الحق سـبحانه مع نبيه إبـراهيم عليه السلام : ﴿ **قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ** .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] أى : ضُمهن إليك واعرف أوصافهن ﴿ **ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا** .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] يعنى : اذبحهن وفرِّقْ أجزاءهن على الجبال ﴿ **ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا** .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

إذن : هو الذى يذبح ، وهو الذى يُقطِّع الأجزاء ، وهو الذى يُفرِّقها ، وهو الذى ينادى عليها بنفسـه فتتجمع بقدرة الله ويأتينَ سَعْـياً كما كُنَّ من قبل ، فإذا كنت أقدرت ما لا يقدر على القدرة ألا أقدر أنا عليها ؟

والعرش هو سمة استتـباب المُلْك والسيطرة على الحكم والاستيلاء

عليه ، وليس من الضرورى أنْ يقعد على العرش بالفعل ، لذلك لما تكلم الهدهد عن ملكة سبأ قال : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] لأن الملك لا يقعد على العرش إلا عندما تستقر له الأمور ، وتدين له البلاد ، فإنْ كانت هناك منطقة معترضة أو مشاغبة للملك تفرغ لها حتى تدين له ، وعندها يستقر له الملْك .

ولما تكلم الحق سبحانه عن استوائه على العرش قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا .. (١٢) ﴾ [فصلت]

إذن : فاستواؤه سبحانه على العرش جاء بعد أن انتهى من الخلْق وتَمَّ له كل شيء من أمور الملك والسيطرة الكاملة .

فقوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ .. (٧) ﴾ [غافر] هم الملائكة الثمانية حملة العرش . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧) ﴾ [غافر] وهؤلاء نوع آخر من الملائكة ، وهم الكروبيون الذين لا عملَ لهم إلا تسبيح الله ، وليس فى بالهم هذا الكون كله ، ولا يدرون عنه شيئاً ، فقط ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. (٧) ﴾ [غافر]

لكن هؤلاء الكروبيين الذين يحيطون بالعرش ويُسبِّحون الله ولا عملَ لهم غير ذلك ، هل يروْنَ الله سبحانه وهو على العرش ؟ قال علماؤنا رحمهم الله : أنهم رغم منزلتهم هذه إلا أنهم لا يروْنَ الله تعالى ، وأظهر

هذه الأقوال قول الفخر الرازى[١] رحمه الله ، فلما تكلم فى هذه الآية ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [غافر] استأنس برأى صاحب الكشاف[٢] الذى سبقه وقال : إن معنى ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [غافر] أنهم لا يرونه سبحانه لأن المشهديات ليس فيها إيمان ، الإيمان للغيبيات ، فلو أنهم شهدوا الله وهو على العرش ما قال فى حقهم ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [غافر] ثم قال الفخر الرازى : ولو لم يكُنْ للإمام صاحب الكشاف إلا هذه لكفتْهُ طيلة حياته[٣] ، هذا مع ما بين الإمامين من خلاف فى الرأى .

إذن : لا نفهم من مكانة هؤلاء الملائكة وقربهم من ذى الجلال سبحانه أنهم يرونَه ، لا بل هو سبحانه بالنسبة لهم غيب لا يرونه ، يؤكد هذا قوله سبحانه ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [غافر] فأنت الآن فى هذا

---

(١) هو : محمد بن عمر فخر الدين الرازى . مولده فى الرى (طهران حالياً) عام ٥٤٤ هـ إمام مفسر يقال له ابن خطيب الرى . له « مفاتيح الغيب » فى التفسير و « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » وغيرها كثير له شعر بالعربية والفارسية ، وكان واعظاً بارعاً باللغتين . توفى بهراة عام ٦٠٦ هـ عن ٦٣ عاماً (الأعلام للزركلى ٦/٣١٣) .

(٢) صاحب الكشاف فى التفسير هو الزمخشرى محمود بن عمر جار الله أبو القاسم ولد فى زمخشر من قرى خوارزم عام ٤٦٧ هـ . سافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله . من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب توفى بالجرجانية (خوارزم) عام ٥٣٨ هـ . من كتبه « أساس البلاغة » كان معتزلى المذهب مجاهراً شديد الإنكار على المتصوفة . الأعلام (جزء ٧) .

(٣) نص كلام الزمخشرى فى تفسيره الكشاف فى قوله تعالى : ﴿ ويؤمنون به ﴾ هى التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش من حوله مشاهدين معاينين ولما وصفوا بالإيمان لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من فى الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء فى أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا وأنه منزه عن صفات الأجرام » . وقد أثنى الفخر الرازى على هذا فى تفسيره للآية فى « مفاتيح الغيب » وقال : « قد أحسن فيه صاحب الكشاف جداً .. فلو لم يحصل فى كتابه إلا هذه النكتة لكفاه فخراً وشرفاً » .

المجلس لا تقول مثلاً : آمنتُ بأن الشيخ الشعراوى جالس وحوله مُحبُّوه ويتكلم فى كذا وكذا ، لأن ما نحن فيه الآن مشهد لا دخْلَ للإيمان فيه ، الإيمان لا يكون إلا بأمر غيبى وهذه ميزة الإيمان ، لذلك كثيراً ما يتكرر قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٣) ﴾ [البقرة]

وسبق أنْ ضربنا مثلاً قلنا : هَبْ أننى أخاف من اللصوص فأخذت مالى الذى أخاف عليه وذهبتُ إلى مكان بعيد فى الحديقة مثلاً ووضعت المال وفوقه حجر ثقيل ، ولما احتجتُ لهذا المال ناديتُ العامل : يا فلان ارفع هذا الحجر ، فقال : لا أستطيع وحدى فهو ثقيل ، فقلت له : تدرى ماذا تحت هذا الحجر ؟ تحته المال الذى سأعطيك منه راتبك ، عندها يتقدم إلى الحجر ويرفعه ، إذن : المهم ليس إطاعة الأمر الذى عُلِم منفعته ، إنما إطاعة الأمر وهو غيب عنك .

ومعنى ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. (٧) ﴾ [غافر] أى : تسبيحاً مقروناً بالحمد ، لأن التسبيح ثناءٌ على الله ، أما الحمد فشكرٌ لله على نعمه التى سبقتْ ، ومن أجلِّ النعم أنه سبحانه لا يشبهه شيء ولو وجد له شبيه لحدثَ تعارض فى الكون : ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] فهو وحده المعبود ، وهو وحده المستحق للحمد .

ثم بعد ذلك ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧) ﴾ [غافر] أى : أن هؤلاء الملائكة من ضمن مهمتهم أنهم يستغفرون للمؤمنين ، كما حكى عنهم القرآن يقولون : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) ﴾ [غافر] .

هذا من دعاء الملائكة للذين آمنوا ، والدعاء عادة بـ (ربنا) محذوف الياء التى للنداء فلم يقُلْ : يا ربنا لأن النداء بالياء يدل على بُعْد

المنادَى ، أما الأبعد فيُنادى بأيا ، والقريب يُنادى بالهمزة مثل : أمحمد .

أما الحق سبحانه وتعالى فهو من القرب بحيث لا نستخدم فى ندائه أىَّ حرف من حروف النداء ، لأنه أقربُ لعبده من حبل الوريد ، لذلك نناديه سبحانه مباشرة (ربنا) ، ولك أنْ تستقرئ القرآن كله فلن تجد فى ندائه سبحانه حرفاً من أحرف النداء .

حتى الكفار لما نادوا الحق سبحانه قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال] ومعلوم أن الميم فى آخر لفظ الجلالة هنا عِوَضٌ عن ياء النداء ، فلم يقولوا : يا الله إنما قالوا : اللهم .

ثم يتابع الحق سبحانه ذكر دعاء الملائكة للذين آمنوا ، فيقول :

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ(١) الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) ﴾

معنى ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٨) ﴾ [غافر] أى : إقامة دائمة .

وتأمل ثمرة الإيمان بالله ، ثمرة لا إله إلا الله ، فلا يضر مع الإيمان معصية ، فالملائكة فى أعلى عليين يذكرونك وينشغلون بك أيها المؤمن ، ويدعون لك لأنك آمنتَ بالله ، وهذه تسلية لسيدنا رسول الله

---

(١) عدن بالمكان : أقام به واستوطنه . وقوله تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٨) ﴾ أى : جنات إقامة دائمة واستقرار ثابت . [القاموس القويم ٢/ ١١] .

ولأمته الذين تحمَّلوا مشاقّ الدعوة ومَنْ تبعهم إلى يوم الدين .

فيا محمد إن كان كفار مكة قد وقفوا منك ومن أتباعك هذا الموقف المعاند فلا تحزن ، ويكفيك وأمتك أنْ تستغفر لك الملائكة ، وأيّ ملائكة ؟ حملة العرش والذين يحيطون به .

وحين تقرأ هذا الدعاء من الملائكة تجد فيه إشارات ووقفات تستحق التأمل أولها أنك أيها المؤمن مذكورٌ بين حملة العرش ، وأنت موضع اهتمامهم مع دُنُوِّ منزلتك وعُلُوِّ منزلتهم ، هؤلاء الملائكة لا عملَ لهم إلا أن يسبحوا بحمد ربهم ويستغفروا للذين آمنوا .

وتأمل في دعائهم مسألة التخلية ثم التحلية يقولون : ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) ﴾ [غافر] هذه هي التخلية أولاً من المؤلم ، ثم تأتي التَّحلية بالنعمة التي تسرّ ، وذلك في ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ .. (٨) ﴾ [غافر] لأن التخلية والنجاة من العذاب أوْلى من التنعم ، والقاعدة أن دفع الضرر مقدم على جلْب النفع ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

ثم إن دعاءهم لم يخص المؤمنين فحسب ، إنما يشمل العائلة كلها ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ .. (٨) ﴾ [غافر] فذكروا الشجرة كلها ، لأن الآباء يُسرُّون بوجودهم مع الأبناء فلم يقطع عليهم هذه النعمة .

وفي موضع آخر ذكر حيثيات هذه النعمة ، فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١) ﴾ [الطور] إذن : المقصود هنا الإيمان ، والإلحاق دلَّ على أن أحدهما كامل والآخر أقل ، وإلا لو كانوا متساوين في العمل لأخذ كل منهم (بفتحة ذراعيه) .

ومعنى : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١) ﴾ [الطور] لا يقصد بها أنْ نأخذ المتوسط الحسابي يعني : ما عمله الآباء وما عمله الأبناء ويقسم على الاثنين ، لا ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [الطور] يعني : ما نقصنا شيئاً من أجورهم ، فالإلحاق تفضُّل من الحق سبحانه لقُرَّة عيون الآباء بالأبناء لكن بشرط الإيمان ، لماذا ؟ لأنهم لو لم يكونوا مؤمنين لكره الآباءُ معيَّتهم ومصاحبتهم .

فإنْ قلت : إذن يكون للإنسان ما لم يَسْعَ به . يعني : يأخذ ثمرة عمل الغير ، نقول : لا لأنه آمن والإيمان من عمله ، صحيح ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم]

لكن لا تنظر لسعيه هو ، إنما وسع الدائرة وانظر لمن جعله يسعى هذا السَّعْى الطيب ، إنها التربية الصالحة ، لذلك ورد في الحديث الشريف « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ، منها : أو ولد صالح يدعو له »[1] فكلمة (صالح) هذه من عمل مَنْ ؟ من عمل الآباء .

إذن : حين نعطى الأب ثواب الدعاء الصالح من الابن إنما نعطيه حقه وثمرة عمله وسَعْيه فى هذا الابن ، والأب إذا كان صالحاً تحرَّى أنْ ينفق على ولده من حلٍّ ، وحين يتحرى ذلك ربما يضيق عليه فى النفقة ، لأن بعض الأغنياء الذين لا يتحرَّوْن الحلال فى الكسب ينفقون على أولادهم ببذخ وإسراف فى الملبس والمأكل والسيارات الفارهة .. إلخ لأنهم جمعوا هذه الأموال من مهاوش[2] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٧٢/٢) والترمذى فى سننه (١٣٧٦) وأبو داود فى سننه (٢٨٨٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له » .

(٢) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حله ولا يُدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب - مادة هوش] .

وقد أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٣١٣/٢) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .

والرجل الصالح ينأى بنفسه وأولاده عن الحرام ، لذلك ربما يشقى الصالح بالصلاح فى الدنيا ويصبر على هذا الشقاء وهذا الحرمان ، وهذا كله من عمله .

لذلك كانوا كثيراً ما يناقشوننا فى قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم]

يقصدون كيف ينتفع الإنسان بعمل غيره ؟ وقلنا لبيان ذلك مثلاً : إننا نُؤْمر بالصلاة على الميت ، هذه الصلاة تفيده أم لا ؟ إنْ كانت لا تفيده فهى إذن عبث ، وإنْ كانت تفيده فهل استفاد بعمل غيره ؟

نعم يستفيد الميت بدعاء الحى له فى صلاة الجنازة ، لكن هذا الدعاء فى حَدِّ ذاته يُعتبر من عمل الميت . لأنه ثمرة إيمانه بالله ، ولولا أنه مؤمن ما صلَّينا عليه ، فأنت حين تصلى صلاة الجنازة لا تصلى على مطلق ميت ، إنما على ميت آمن بربه عز وجل ، والإيمان من عمله ، وبالتالى صلاتك عليه أيضاً من عمله .

أو نقول فى قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم] أى : ليس للإنسان حَقٌّ ، فهى منعت العدل ولم تمنع الفضل من الله ، وفَرْق بين العدل والفضل ، فالعامل عندك مثلاً أجره خمسون وهذا الاتفاق بينكما لا يمنع أن تعطيه سبعين مثلاً .

ثم تُذيل الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) ﴾ [غافر] ولم يَقُلْ مثلاً : إنك أنت الغفور الرحيم لتناسب الدعاء المذكور فى الآية .

وهذه مثل قوله تعالى فى قصة سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾ [المائدة] ثم

يقول : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

فلم يقل : فإنك أنت الغفور الرحيم ، لماذا ؟ لأنهم استحقوا العذاب ، إنما لو غفرت لهم لا يجرؤ أحد على نَقْض هذه المغفرة لأنه لا معقِّبَ لحكمه سبحانه ولا رادَّ لفضله ، فعزتك يا رب وحكمتك هى التى جعلتْك تغفر لهم مع أنهم يستحقون العذاب .

إذن : فالمغفرة لم تأت من ناحية أنك أنت الغفور الرحيم ، إنما من ناحية أنك أنت العزيز الحكيم . والعزيز هو الغالب الذى لا يُغلب ولا يُعَارض .

لذلك قلنا : إن إبليس كان ناصحاً حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص] والمعنى : فبعزتك عن خَلْقك وغنَاك عنهم ، مَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر ، بهذه العزة لأغوينهم ، إنما لو أردتهم جميعاً مؤمنين ما تعرضتُ لهم ولا جرؤتُ على إغوائهم ، بدليل أنه استثنى فقال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] فهؤلاء لا سلطانَ لى عليهم ولا قدرةَ لى على إغوائهم ، إذن : المسألة ليست بين إبليس وربه عز وجل ، إنما هى بين إبليس وبنى آدم .

ثم يقول الحق سبحانه من دعاء الملائكة للمؤمنين :

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٩) ﴾

قوله سبحانه (وَقِهِمُ) فعل أمر أو دعاء هنا من الفعل وَقَى أى : يا ربِّ جنِّبهم المعاصى ، ويصح أنْ نقول : قِهِم السيئات . يعنى :

جنِّبهم عقوبةَ المعاصى ، أو جنِّبهم المعاصى ذاتها ، وعين الرحمة أنْ يجنبك الله المعاصى والسيئات ، لذلك قال : ﴿ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ .. ⑨ ﴾ [غافر]

وهذه مثل قوله تعالى فى شأن القرآن الكريم : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ⑧② ﴾ [الإسراء] فالشفاء يكون للداء الموجود بالفعل فى النفس الإنسانية ، فالقرآن يعالج مثلاً داءات الشُّح والجُبْن والكذب .. إلخ ، أما الرحمة فهى ألا يأتى الداء أصلاً ، ولا شكَّ أنْ تجنُّب الداء بدايةً أفضلُ من معالجته كما يقولون : الوقاية خير من العلاج .

﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ⑨ ﴾ [غافر] نعم ، وأىُّ فوز أعظم من أنْ يُجنِّبك الله السيئات فلا تقع فيها ؟ كلمة الفوز تعنى الفلاح والنجاح ، ووُصف بأنه عظيم لأنك قد تفوز فى الدنيا بالمال أو بالمنصب أو بالأولاد ، هذا فوز لكن الفوز العظيم فى الآخرة لأنه فوز باقٍ ودائم ، أما فوز الدنيا فمآله أن ينتهى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ⑩ ﴾

لو تتبعنا هذه المسألة من أولها نجد أن الحق سبحانه دعا الخلق بواسطة رسله ومنهجه إليهم ، فمنهم مَن استجاب فآمن ، ومنهم مَنْ كفر ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ⑩ ﴾ [غافر] وهؤلاء الذين لم يستجيبوا لداعى الحق أرادوا ألاَّ يرتبطوا بمنهج الله فى افعل ولا تفعل

وألاَّ يُضيِّقوا على أنفسهم بالالتزام بالمنهج ، وأنْ يسيروا فى الدنيا على هواهم ، هذا الذى دعاه إلى أنْ يكفر .

فحين يعاين العذاب فى الآخرة يندم ساعةَ لا ينفع الندم ، ويكره نفسه أشد الكره ، لأنها لم تتبع منهج الإيمان .

هذا معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [غافر] والمقت أشد البغض . أراد الحق سبحانه أن يقول لهم : إنْ كنتم كرهتم أنفسكم أشد الكره لأنها لم تؤمن بمحمد وبمنهج الحق الذى جاء به ، فاعلموا أن مقْتَ الله لكم لكفركم به أشدّ وأعظم من مقتكم لأنفسكم ، إنكم مقتّم أنفسكم لأنها حرمتكم الخير وجلبتْ لكم الشر حين كفرتْ بالله .

والحق سبحانه يمقتكم لأنكم أبعدتم أنفسكم عن مجال الخير منه وخرجتم من حضنه ودائرة رحمته ، لأنه سبحانه يغضب أشدّ الغضب حين يخرج عبده عن ساحته ويحرم نفسه من خيره ، وهذا يعنى أنَّ ربك يحبك ويحب لك الخير ويريدك فى جنبه وفى معيته ويَغار عليك حين تشرد أو تشذ عن منهجه ، فأنت عبده وصنعته .

فكأن مقته سبحانه للكافر رحمةٌ به وغيرة عليه . لذلك قال سبحانه فى الحديث القدسى : « لو خلقتموهم لرحمتموهم »[(١)]

إذن : الحق سبحانه أثبت أولاً بُغْضهم لأنفسهم ، ثم بيَّن لهم بُغْضه سبحانه للكافر أشدّ من هذا .

(١) أورده أبو حامد الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ، ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات ».

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾

لنفهم معنى ﴿ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴿١١﴾ ﴾ [غافر] لابدَّ أن نعرف ما هو الموت أولاً ، الموت هو إذهاب الحياة بعد أنْ كانت موجودة ، فما دام سيكون الموت فهو دليل على الحياة قبله ، والموت أيضاً يعنى عدم الحياة مطلقاً ، يعنى : عدم لم تسبقه حياة مطلقاً .

لذلك قال سبحانه : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] وهذا استفهام للتعجب يعنى : قولوا لنا كيف يتأتَّى منكم الكفر ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] أى : كنتم عدماً فوهبكم الحياة ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] أى : يُذهب الحياة الموجودة ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] أى : فى الآخرة .

إذن : فالموت مرتان والحياة مرتان كذلك ، والخلاف فى هذه المسألة : أيكون الموت بعد حياة ؟ أم يكفى أن يكون عدمٌ تأتى بعده الحياة ؟ نقول : الموت هو العدم المطلق ، سواء كان قبله حياة أم لم تكن قبله حياة ؟ وأنت مثلاً ترى البعوضة صغيرة ، والفيل ضخماً كبيراً فتقول : سبحان مَنْ صغَّر البعوضة وكبَّر الفيل ، أكانت البعوضة كبيرة ثم صغَّرها الله أم خُلقت هكذا ؟ إذن : الموت ليس من الضرورى أن يسبقه حياة ، فيكفى أنه لم تكُنْ فيه حياة ، بعد ذلك أحيانا الله واستوفينا الأجل فى الدنيا ثم يأتى الموت .

إذن : الآية جمعت بين المعنيين : الموت المطلق أو العدم الذى لم تسبقه حياة ، والموت بمعنى نَقْض الحياة الموجودة بالفعل ، فقال

سبحانه : ﴿ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ (١١) ﴾ [غافر]

بعضهم [١] يرى أن الموت الأول هو إذهاب الحياة بعد انقضاء الأجل ، ثم يحيا فى القبر للسؤال ثم يموت فى القبر ثم يُبعث يوم القيامة ، والأول [٢] الذى اخترناه أليق .

وقوله سبحانه : ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ﴾ [غافر] الاستفهام فى ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ﴾ [غافر] استفهام للتمنى لكن هيهات ، فلو رُدُّوا لَعَادوا لما كانوا عليه ، فلا فائدةَ من تكرار هذه التجربة ، والحق سبحانه بيَّن هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

ولو رُدُّوا لعادوا بطباع الشر فيهم وكفروا ، والخروج أى من المأزق الذى نحن فيه ومن العذاب الذى نعاينه ﴿ مِّن سَبِيلٍ (١١) ﴾ [غافر] من طريق للخروج وللنجاة .

هذا الذى ذكرناه خاصٌ بحياة القوالب وموتها ، أما حياة القلوب والأرواح فلها طريق آخر ، ذكره الحق سبحانه فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (٢٤) ﴾ [الأنفال]

لا شكَّ أنه سبحانه يخاطبهم وهم أحياء الحياة المادية إذن : هناك حياة أخرى يدعوهم إليها ، إنها حياةُ المعنويات التى لا يأتى

---

(١) هذا القول قاله السدى فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٤٥) قال القرطبى : « إنما صار إلى هذا لأن لفظ الميت لا ينطلق فى العرف على النطفة ، واستدل العلماء بهذا فى إثبات سؤال القبر » .

(٢) القول الأول الذى يقصده الشيخ الشعراوى هو أنهم كانوا أمواتاً فى أصلاب آبائهم ثم أحياهم ، ثم أماتهم الموتة التى لابد منها فى الدنيا ، ثم أحياهم للبعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان . وهذا هو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك . انظر تفسير القرطبى (٨/٥٩٤٥) .

بعدها موت وهى الحياة فى الجنة .

إذن : عندنا حياة للمادة بها تحيا وتتحرك وتأكل وتشرب وتنشط ، وهناك حياة أخرى معنوية بها تدخل الجنة حيث نعيمٌ بلا فَوْت ، وحياة بلا موت . الحياة المادية لها روح تناسبها وهى حياة تنتهى بالموت ، أما حياة القيم والمعنويات فلا بدَّ لها من روح عُلْوية تأتى بالالتزام بالمنهج فى : افعل ولا تفعل ، لذلك يسميها الله روحاً : ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا (٥٢) ﴾ [الشورى] وسمَّى مَنْ يحملها روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء]

وكل من الحياتين لها ما يناسبها من البقاء ، فالأولى موقوتة بالأجل ، والأخرى ممتدة باقية ؛ لذلك قلنا فى الشهيد الذى جاد بنفسه وأنهى حياته فى سبيل منهجه أن الله يُجازيه على ذلك بأنْ يعصمه من الموت بعد ذلك .

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ (١٢) ﴾

الحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن العقائد وأيَّدها بالمعجزات ، كان من الواجب أن نستقبل أحكامه تعالى فيها بالرضا والقبول ، فلم يكلفنا سبحانه بحكم افعل ولا تفعل إلا بعد أنْ قدَّم حيثيات الإيمان الأعلى بالإله الأعلى ، وآمن مَنْ آمن به وكفر مَنْ كفر رغم كل مصالحنا فى تنظيم حركة الحياة بمنهج الله .

فإذا حكم علينا بحكم فيجب أن نطيعه ، وإذا استقر فى أذهانكم شىء يخالف ذلك فإنَّ واقعكم يؤيد أنكم لم تؤمنوا بقلوبكم ﴿ ذَٰلِكُم

﴿ ١٢ ﴾ [غافر] أى : ما يحدث منكم من مواجهة الدعوة ومصادمتها ووقوفكم هذا الموقف المعادى ناشىء من ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴿ ١٢ ﴾ [غافر] أى : كفرتم به .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿ ٤٥ ﴾ [الزمر]

أى : ظهر عليه الامتعاض والضيق لما سمعوا كلمة الله ، لماذا ؟ لأنهم يعلمون معنى الإيمان وما يترتب عليه من تكليف بمنهج : افعل كذا ولا تفعل كذا ، يعلمون أن هذا المنهج يقيد شهواتهم فينهاهم عن أشياء مُحببَّة إليهم ويدعوهم إلى أشياء أخرى ثقيلة على نفوسهم ، لذلك إذا ذكَّرتهم بالله وبمنهج الإيمان امتعضوا فى حين إذا ذكر غيره سبحانه من آلهتهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿ ٤٥ ﴾ [الزمر] ويفرحون ، لماذا ؟

لأن هذه الآلهة التى اتخذوها من دون الله ليس لها مطلوب ولا تكاليف بافعل ولا تفعل . إذن : أنتم مع هذه العبادة متروكون على هواكم ، وعلى سيئات نفوسكم ، هذا معنى الاستبشار ومعنى ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴿ ١٢ ﴾ [غافر]

لكن بقيتْ حقيقة ينبغى ألاَّ تغيب عن أذهانكم : ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿ ١٢ ﴾ [غافر] فافرحوا بآلهتكم المزعومة كما تشاؤون ، فأنا سأحكمكم بقدرى قهراً عنكم فأمرضكم كما أحب ، وأميتكم متى أشاء وأُفقركم وأغنيكم .. الخ فلن تخرجوا أبداً بشىء عن ملكى إلاَّ فيما جعلتُ لكم فيه اختياراً .

فأنتم مختارون فى الإيمان والكفر فمَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء

فليكفر ، مَنْ شاء فليطع ومن شاء فليعص ولن تنفعنى طاعتكم ، ولن تضرنى معاصيكم ، ومهما تمردتم فى الأمور التى لكم فيها اختيار فإنَّ مردكم إلىَّ ومنتهاكم عندى .

﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ [غافر] الذى لا يمكن أبداً لأحد أنْ يتمرد على قدره ، فإن كنتم ألفتم التمرد فى الإيمان وفى الطاعة فأرُونى كيف تتمرَّدون على الله فيما لا اختيارَ لكم فيه .

ثم يذكر الحق سبحانه حيثيات العلو والكبرياء له سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

الآيات جمع آية وقلنا : إنها على أنواع ثلاثة : آيات كونية تدل على القدرة العالية والحكمة الفائقة للإله الحق صاحب العلو والكبرياء ، وآيات المعجزات التى يمنحها سبحانه لتثبيت الرسل والإيمان بصدق بلاغهم عن الله ، ثم آيات الأحكام التى تحمل أحكام الله .

يقول سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آيَاتِه ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر] أى : الكونية لتؤمنوا بالإله الأعلى ويُريكم المعجزات على أيدى الرسل ، ثم يُنزِّل لكم آيات الأحكام التى تحمى أديانكم وعقائدكم ، لأننى كما حميت أبدانكم بما أنزلتُ من ماء السماء وما نشأ عنه من رزق لكم تقتاتون به وتعيشون عليه ، فكذلك خذوا منى الشىء الآخر الذى جعلتُه لقوام أديانكم ، وهو الأحكام التى تحمى عقيدتكم فى الحركة الحُكْمية بافعل ولا تفعل .

فقوله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا (١٣) ﴾ [غافر] يُراعى الأمرين معاً بحيث لا تهمل أحدهما على حساب الآخر .

﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [غافر] أى : يرجع إلى الله ويخلع عن نفسه كبرياء الجحود بذلك الإله ، وينفض عن نفسه غبار الغفلة حتى يرجع إلى إيمان الفطرة التى أرادها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] وكانت الإجابة أن قال الجميع (بلَى) أى : أنت ربنا الحق .

﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ (١٤) ﴾

الدعاء : هو إظهار الذلة والخضوع لله تعالى ، لماذا ؟ لأن من الناس مَنْ تمرَّد على الله وتكبَّر على الطاعة ، وتعالى على أنْ يظهر لله الخضوع فحين يرى منكم الذلةَ والخضوع لله ويرى الإخلاص فى العبادة يعلم أن هذا التمرد ليس طَبْعاً فى الإنسان ، بل هو طبْع هواه بدليل أن من الناس مَنْ ذلَّ وخضع ، ومن الناس مَنْ يدعو ربه ويخلص له ويطيعه .

إذن : ليس التمردُ خاصية لازمة للإنسان بل هو خاصية فى المتمرد فقط ، إنما الإنسان حينما يكون على طبيعته وفطرته لابد له أنْ يلجأ إلى الله ويستعين به ، لذلك ادعوا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون منكم هذا الدعاء .

وقلنا فى فضل الدعـاء أنه « مخ العبادة »[(١)] ، والدعاء ما هو إلا ذلة عابد لعـزة معبود ، مجـرد إظهار الذلة بصرف النظر عمـا يترتب على الدعاء ، وإلا فـالحق سبـحانه أعطاك قبل أنْ تـدعوه ، وخلق لك قبل أن توجد ، لذلك ليس من اللازم أن يستجيب الله لكل مَنْ يدعوه ، وكأنه سبحانه يقول لنا : تنبَّهـوا إلى أن منكم مَنْ يدعو فلا أستجيب له ، وأنا حين لا أستجيب له أمنحه العطاء الأعلى لأنه قد يدعو بالشر دعاءه بالخير ، ويطلب الشىء وهو لا يعرف أن فيه هلاكه .

وسـبق أنْ ضربنـا لذلك مثـلاً بالأم التى تدعـو على ولدها حـين الغضب تقول (إلهى أشـرب نارك) ، فما موقف هذه الأم لو أن الله استجاب لها ؟

إذن : الحق سبحانه علم أنها حمقاء فى دعائها ، وأنها دَعَتْ بشَرٍّ تظنه خيـراً فصوَّب لـها الدعاء ؛ لذلك قلنا فى الثنـاء عليه سبـحانه : سبـحانك يا مَنْ تُصوِّب خطأ الداعـين بألاَّ تجيب ، وبذلك حمـيتنا من الضر ، فكَمْ يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير ؟

وفى هذه الآية ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) ﴾ [غافر] حَثٌّ لنا على كـيد الكافريـن وإغاظتهم بإظـهار الذلة لله والخضوع له سـبحانه ، فهـذه المسألة تكيدهم ، لأنها تـظهر لهم عزَّ الربوبيـة والكبرياء لله تعـالى الذى كفروا بـه ، وتعالَوْا على طاعـته ، وتكبَّروا عليه سـبحانه ، لذلك داوموا على الدعـاء أمامهم وأروُهُمْ من أنفسكم منتهى الذلة لله .

---

(١) أخـرجه الـترمـذى فى سننه (حـديث ٣٣٧١) من حـديث أنس رفـعة لـرسول الله . قـال الترمـذى : غريب من هذا الوجـه لا نعرفـه إلا من حديث ابن لهـيعة ، وقـد أخرجـه مسلم وأحمد والبـخارى فى الأدب المفرد عن النعـمان بن بشير بلفظ « الدعـاء هو العبادة » انظر كشف الخفاء للعجلونى (١/ ٤٨٥) .

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ[(١)] ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ[(٢)] مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

كلمة (رَفيع) على وزن (فـعيل) من الفعل رفع ، وهذا الوزن يأتى بمـعنى فاعل مثـل (رحيم) مبـالغة من راحم ، وتأتى بمـعنى مفعول مثل قتيل يعنى مـقتول ، كذلك كلمة (رفيع) يصح أنْ تكون بمعنى رافع . أى : أنه سبحانه رافع لغيره ، كما يرفع سبحانه بعض الخلق على بعض .

ويصح أنْ تكون (رفـيع) بمعنى مـفعول أى مـرتفع فى ذاته ، والرافع لا يرفع غيره إلا إذا كان مرتفـعاً فى ذاته ، فرفيع هنا بمعنى مرتفع عن كل شىء ، كما نقول : الله أكبر والله أعلى وأجلّ .

فـالله تعالى مـرتفع الوجـود لأن وجـوده أزلىٌّ لا عن عدم ، أمـا وجودنا نـحن فعن عـدم ، ووجوده سبـحانه إلى دوام ووجـودنا إلى عدم ، وهو موجود سبحـانه بذاته ووجودنا نحن به سبحانه ، إذن : فهو سبحانه أحسن مرتفع فى الوجود ، نعم .

والله سبـحانه مـرتفع فى قيـوميتـه ، فنحن نعمل ونتـعب وننام

---

(١) قال ابن عباس والكلبى وسـعيد بن جبير : رفيع السماوات السـبع وقال يحيى بن سلام : هو رفعة درجة أوليائه فى الجنة . [القرطبى فى تفسيره ٥٩٤٧/٨] .

(٢) الروح : الوحى أو أمر النبـوة ، قال أبو العـباس : سُمِّى روحـاً لأنه حياة من مـوت الكفر فصار بحياته للناس كالروح الذى يحيا به جسد الإنسان . [لسان العرب – مادة : روح] .

لنرتاح ، أما هو سبحانه فلا يُتعبه عمل ولا ينام ليستريح ، لذلك قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ (٢٥٥) ﴾ [البقرة] وكأن الحق سبحانه يقول لنا : ناموا أنتم ملْءَ جفونكم لأنى لا تأخذنى سِنَةٌ ولا نوم ، يريد أنْ نطمئن ونحن فى معيته سبحانه .

وبهذه القيومية يرفع الله مَنْ يشاء ، وبطلاقة قدرته سبحانه يُبقى مَنْ يشـاء فى الرفعـة ويُنزل مَنْ يشـاء إلى الضِّعَـة ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ (١٥) ﴾ [غافر] لأن الرفع يقتـضى منزلة أعلى من منزلة ، وهذه هى الدرجات أى : ما بين كل منزلة وأخرى ، والدرجـات لا تكون إلا فى العُـلُو ، أمـا النزول إلى أسـفل فـتـسـمى مراحله دركات .

والحق سبحانه يرفع من خَلْقه مـا يشاء على ما يشاء ، كما رفع من الزمان رمـضان على غيـره من الشهور ، ورفع مـن المكان البيتَ الحرام وبيت المـقدس ، ورفـع من الملائـكة كما فى قـوله تعالى على لسان الملائكة : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) ﴾ [الصافات]

ورفـع من الرسل أُولى العـزم منهـم ، كمـا قـال تعـالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ (٢٥٣) ﴾[البقرة] ويرفع من عامة الخَلْق كما قال سـبحـانه : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (١١) ﴾ [المجادلة] وكما رفع الله سبحـانه أُولى العلم كذلك رفـع أصحاب الحركـة فى الحياة الذين ما أُوتوا علـماً ، إنما عندهم حركـة تنفذ هذا العلم وتُطبِّقه وتحقق مطلوبه فى الحياة ، فالعلم يحتاج فى تنفيذه ليد

عاملة كأصحاب الحِرَف والعمال والصُّناع ، لذلك قال سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (١٦٥)﴾ [الأنعام]

إذن : عندنا رفعةٌ للزمان ، ورفعة للمكان ، ورفعة للملائكة ، ورفعة للأنبياء ، ورفعة للمؤمنين ، ورفعة لأُولى العلم ، وأخيراً رفعة للخلائق فى الأرض ، وتأمل العدالة الإلهية فى رفعة الخلائف بعضهم على بعض .

فالحق سبحانه لم يقُلْ لنا أيَّ بعض مرفوع وأيَّ بعض مرفوع عليه ، ليبين لنا أن كل بعض مرفوع فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر ، إذن : لا يرفع الغنى على الفقير ، ولا الجميل على القبيح ، ولا الذكى على الغبى ، إنما يُرفع كلٌّ بحسْب عمله ، كما ورد فى قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾ [الحجرات]

فكل الخَلْق غير ما تقدم ممَّنْ رفعهُ الله مرفوعٌ فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر ، فالنجار الذى يصنع لى المكتب مرفوع علىَّ فى هذا العمل ومُفضَّل علىَّ فيه ، لأنه يعرف هذه الصَّنعة ويتقنها وأنا لا أعرفها .

فإذا ما جاء هذا العامل يسألنى فى مسألة كنت أنا مرفوعاً عليه فيها ، لأننى أعرفها وهو لا يعرفها ، وقلنا : إن الحق سبحانه أراد لحركة الحياة بين الخلق أنْ تُبْنى على الحاجة لا على التفضل ، فكُلٌّ منا يحتاج الآخر ولا تكتمل حركةُ حياته إلا به .

ولو قامتْ حركة الحياة على التفضّل لتعطلتْ أكثر المصالح ولما استقامتْ الحياة ، وتصور أننا جميعاً تخرَّجنا فى الجامعة وصرْنا علماء ، مَنْ سيؤدى لنا الأعمال الأخرى ؟ مَن يكنس الشارع ؟ ومَنْ

يعمل فى المجارى ؟ ومن يبيع فى الأسواق ؟ .. الخ وهذا هو مقصود الشاعر[(١)] الذى قال :

النَّاس للنَّاسِ من بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ بَعْضٌ لِبَعْضٍ وإنْ لَمْ يَعْلَمُوا خَدَمُ[(٢)]

فليس منا مَنْ هو مُسخَّر فقط ، بل كل منا مُسخَّر فى شىء ومُسخر له فى شىء آخر ؛ لذلك يقول تعالى وهو يُعلِّمنا هذا الدرس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ (١١) ﴾ [الحجرات]

لذلك لا تنظر إلى عمل على أنه أفضل من عمل ، إنما هناك عامل أفضل من عامل ، والأفضل هو الذى يتقن عمله أكثر ، فالعامل الذى يتقن عمله فى الأدنى أفضل من العامل الذى لا يتقن عمله فى العمل الأعلى[(٣)] .

لذلك قال الإمام على كرَّم الله وجه : (قيمة كل امرىء ما يُحسنه)[(٤)] فمَنْ أراد من العلو الأفضلية فليتقن عمله مهما كان هذا

---

(١) هو : أبو العلاء المعرى أحمد بن عبد الله ، شاعر وفيلسوف . ولد عام ٣٦٣ هـ وتوفى ٤٤٩ هـ فى معرة النعمان ، عمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، كان يحرم إيلام الحيوان ولم يأكل اللحم ٤٥ عاماً ويلبس خشن الثياب ، له (لزوم ما لا يلزم) ، وسقط الزند . [الموسوعة الشعرية].

(٢) البيت من قصيدة لأبى العلاء المعرى من بحر البسيط عدد آياتها ٥ أبيات ونصه فى الموسوعة :

والناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

(٣) أورد العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٢٨٥) : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه » وفى لفظ عملاً بالتنكير . وقال : رواه أبو يعلى والعسكرى عن عائشة رفعه ورواه العسكرى أيضاً بلفظ « أن يحكمه » ، وصنيع الأئمة يقتضى ترجيحها (أى هذه الروايات وغيرها) .

(٤) أخرج ابن الشجرى فى كتابه « الأمالى الشجرية » بسنده أن على بن أبى طالب قال : قلت أربعاً أنزل الله تعالى تصديقي بها فى كتابه ، ذكر منها : قلت : قدر - أو قال - قيمة كل امرىء ما يحسنه ، فأنزل الله تعالى فى قصة طالوت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ (٢٤٧) ﴾ [البقرة]

العمل حقيراً - أى : فى نظر البعض منا - فليس فى الإسلام عمل حقير ، إنما هناك عامل حقير ، وهو المتهاون الذى لا يجيد ولا يتقن ما فى يده ولا يخلص فيه .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً من فرنسا ومن مناقشات مجلس الشعب الفرنسى ، وقد كانوا يعرضون علينا بعض المواقف الحاسمة فى هذه المناقشات ، منها أن نقيب العمال كان كثير المطالب لصالح العمال ، وكان يسرف فى ذلك ، لكن كان الوزير المسئول عن تنفيذ هذه المطالب تحكمه ميزانية وأرقام وحسابات .

ومرَّت الأيام وصار نقيب العمال هذا وزيراً للعمل ، ووقف نقيب العمال الجديد يقول له : لا أطلب منك إلا ما كنت تطلبه أنت من سابقك ، فقال : لكن تحكمنى ميزانيات وحسابات ، فأراد أن يثير عاطفته نحو العمال ، أو أراد أنْ يحرجه فقال له : لا تنْسَ أنك كنتَ فى يوم من الأيام ماسح أحذية ، فأخذها الوزير بصدر رَحْب وروح رياضية وردَّ عليه : نعم نعم لكننى كنتُ أجيدها . إذن : العظمة ليست فى العمل إنما فى إجادته .

لذلك نقول : لو علم العامل المخلص فى عمله والمتقن له عن غيب من صاحب العمل يعنى يتقنه ويجيده لله ، لو علم هذا العامل ما أدَّاه لمواجيد الإيمان بالله لافتخر بهذا العمل على العلماء . قالوا : كيف ذلك ؟ وماذا يؤدى العامل لمواجيد الإيمان ؟ نقول : لأن كل مَنْ يرى عمله المتقن يقول : الله ، فكأن العمل المتقن يُشيع كلمة الجمال فى الكون ، ويؤدى إلى ذكر الله ، وفى هذا من الثواب ما لا يَخْفى على أحد .

وقوله تعالى :﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴿١٥﴾ ﴾ [غافر] يعنى : الذى يملك كوناً

استقر له بدون شغب عليه ، وهو المستقر فى كمال قدرته وألوهيته ، والملك لا يُتاح له الجلوس والاستواء على عرشه إلا بعد أن يستتبَّ له الأمر مع الفارق بين جلوسه سبحانه واستوائه على عرشه وبين جلوس ملوك الدنيا على عروشهم ، فنحن نؤمن بهذا الجلوس دون تكييف أو تشبيه ، وما دام وجوده تعالى ليس كوجودنا فكذلك جلوسه ليس كجلوسنا ، وقلنا : إننا نأخذ هذه المسائل فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ⑪ ﴾ [الشورى]

والحق سبحانه وتعالى استتبَّ له الأمر فى الكون دون منازع ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪ ﴾ [فصلت]

ولأنه سبحانه رفيع الدرجات ، وهو سبحانه ذو العرش أراد سبحانه أنْ يضفى من رفعته على المؤمنين به ، وأن يرفعهم على غيرهم ، وألاَّ يتركهم هَمَلاً وهمجاً بدون منهج ، لذلك أنزل عليهم رُوحاً منه سبحانه :

﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ⑮ ﴾ [غافر]

فما كان سبحانه ليستعبد الخَلْق ثم يتركهم ، إنما أنزل لهم انمنهج الذى يحكم حركتهم فى الحياة بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهذا هو قانون الصيانة الذى يضمن للبشر الصلاح والرِّفْعة وعُلُوَّ المنزلة ، وجعل هذا المنهج اختياراً ، مَنْ شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، مَنْ شاء أطاع ومَنْ شاء عصى ، ليرى المؤمن أثر رفعة الله له فى الآخرة حين يُدخله الجنةَ دار النعيم الباقى ، حيث لا فَوْتَ للنعمة ، ولا مَوْتَ للوجود .

وهذا المنهج جاءنا فى كتاب الله وفى سنة رسوله ﷺ ، ينظم حركة حياتنا حتى تتكامل الحركات ولا تتصادم ، فحين ترى شرع الله يقيد حركتك فى شىء ، فاعلم أنه قيَّد حركات الملايين من أجلك ، فحين ينهاك عن السرقة مثلاً يُقيِّد حركتك وأنت فرد ويمنع يدك أنْ تمتد لما لا تملك ، وفى المقابل قيَّد ملايين الأيدى حتى لا تمتد إلى مالك أنت ، حين أمرك بغضِّ البصر وحفظ المحارم أمر الخَلْق جميعهم أنْ يغضُّوا أبصارهم عن محارمك .. الخ فتأمل مَن المستفيد من تطبيق هذا المنهج ؟

وقوله : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ ﴿١٥﴾ ﴾ [غافر] الروح لها معَانٍ عدَّة . فالذى يتبادر إلى الذِّهْن أنها هى الروح التي تدبّ فى المادة فتمنحها الحياة والحركة ، وهذه هى الروح التى ألقاها الخالق سبحانه فى آدم فتحرَّك وأدت كل الجوارح وظائفها بعد أنْ كانت طيناً .

ثم أراد سبحانه أنْ يحرس حركة المادة حتى لا تنطلق فى شهواتها ، فأنزل روحاً أخرى من عنده سبحانه هى المنهج القيِّمى فى القرآن الكريم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

كيف يُحييهم وهم أحياء مخاطبين بهذا الكلام ؟ نعم هم أحياء حياةَ المادة بالروح التى دبَّتْ فى أجسامهم فتحركوا بها ، إنما المراد هنا حياة أرقى من حياة المادة هى حياة القيم التى تُرقِّى حركة الإنسان وتجعلها دائماً فى الخير لنفسه ولمن حَوْله ، وكما أن حياة المادة لها روح كذلك حياة القيم لها روح .

لذلك سمَّى القرآنَ روحاً ، وسمَّى الذى نزل به من الملائكة رُوحاً، فقال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى]

وقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

هذه هى حياة القيم والمثُل الرفيعة ، الحياة التى تُؤهلك لحياة أخرى باقية لا تفنى ، ولك أنْ توازن بين حياة تُؤهِّلك للدنيا الفانية وحياة تؤهلك للآخرة الباقية ، لابدَّ أنك ستجد الروح الثانية أعظم وأفضل من الأولى .

ويكفى فى التفريق بينهما أن الروح الأولى ، وهى روح المادة تسرى فى المؤمن والكافر ، وبهذه الروح يأتى كفر الكافر ومعصية العاصى ، أمَّا روح المنهج والقيم فلا تكون إلا للمؤمن ، ولا تُحرِّكه إلا فى الخير حركةً سويّة تُسعده وتسعد مَنْ حوله فى الدنيا قبل الآخرة .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] ومعنى (الحيوان) يعنى : الحياة الحقيقية الدائمة الباقية التى لا ينتهى نعيمها ولا يدركها فناء ، وإنْ كان نعيم البشر فى الدنيا على قَدْر حركتهم وإمكاناتهم فنعيمهم فى الآخرة على قدر المنعم سبحانه .

ثم أنت تعيش فى الدنيا عُرْضة للموت يهددك فى كل لحظة ، وربما يهجم عليك بغتة فليس له وقتٌ ولا سنٌّ معين ، وليس له سبب يرتبط به ، فمنا مَنْ يموت بعد عام ، ومنا مَنْ يموت بعد مائة عام ، ومنا مَنْ يموت وهو فى بطن أمه ، الموت لا يفرق بين كبير أو صغير ، ولا بين مريض أو سليم . لذلك أبهمه الله ، لماذا ؟ لنظلَّ دائماً ذاكرين له منتظرين هجمته ، فكأن الإبهام هنا هو عَيْن البيان .

لذلك الحق سبحانه ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذى بِيَده الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٢) ﴾ [الملك]

تأمل ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك] فبدأ بالموت وقدَّمه على الحياة ، وكأنه سبحانه يقول لنا : لا تستقبلوا الحياة إلا وفى أذهانكم الموت ، لماذا ؟ لأن ذكر الموت يمنع الغرور بالدنيا والركون إليها ويضبط سلوك الإنسان ، فلا يتحرك إلا فى الخير لأنه دائماً يعمل حسابَ العواقب التى تنتظره .

وقوله سبحانه : ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (١٥)﴾ [غافر] يعنى : على مَنْ يختاره ويصطفيه لهذه المنزلة ، وهذا مثل قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ (٧٥)﴾ [الحج]

وقوله تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤)﴾ [الأنعام]

ثم يوضح الحق سبحانه العلة من قوله : ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (١٥)﴾ [غافر] لماذا ؟ ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥)﴾ [غافر] يعنى : إياك أنْ تفهم أن المسألة تنتهى بنهاية الحياة الدنيا ، ويفلت أهل المعاصى بمعاصيهم وأهل الظلم بظلمهم لا ، إنما هناك مرجع ومردٌّ إلى هذا الإله الذى كفرت به أو الذى عصيته وتجرأت على محارمه ، تذكّر هذه الحقيقة مهما نفرت عنه بالكفر أو نَبَا جانبك عن جانب ربك ، فأنت مردود إليه رغماً عنك ، موقوفٌ بين يديه ، لا مهربَ لك منه أبداً ، ولا مفرَّ .

وقلنا : إن الإنذار يعنى التخويف من شرٍّ قبل أوانه لتستعدَّ له بأنْ تتجنب دواعى ما يخيف لتسلم منها ، ولا معنى للإنذار ساعة وقوع الحدث ، لابدَّ أنْ يكون قبل الحدوث بفترة كافية تمكننى من أن أتدارك الأمر وأعمل حسابى .

وقوله ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥)﴾ [غافر] أى : التلاقِى ، والتلاقى لا ينشأ إلا عن تباعد كان موجوداً بين شيئين ، فبين أىِّ الأشياء يكون هذا

التلاقى ؟ قالوا : التلاقى هنا والمراد يوم القيامة سيكون فى عدة صور ، ففى الآخرة سترى الملائكة الذين آمنتَ بهم فى الدنيا إيماناً غيبياً وتلتقى بهم مشهداً .

وفى الآخرة سترى رحمك وأسرتك الكبيرة من لَدُنْ أبيك آدم حتى آخر ولد له فى الدنيا ، ستلتقى بهم جميعاً ، وسترى هذا الرحم الذى قطعته فى الدنيا ، ستتمثل لك هذه الشجرة الكبيرة متشابكة الأغصان متداخلة الفروع ، وعندها ستقول : كيف قطعتُ هذه الرحم؟ وكيف جفوتُ هذه القربات لسبب وبدون سبب ، لذلك يقول النبى ﷺ : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب »[1] .

ويقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « أنا الرحمن ، وهذه الرحم اشتققتُ لها اسماً من اسمى ، فمَنْ وصلها وصلْتُه ، ومَنْ قطعها قطعتُه »[2] .

وسيدنا معاوية بن أبى سفيان[3] رضى الله عنه دخل عليه حاجبه فى يوم من الأيام وقال : يا أمير المؤمنين رجل بالباب يقول أنه أخوك ، فقال له : ألاَ تعرف إخوتى ؟ قال : هكذا يقول الرجل ، قال أدْخِلْه ، فلما دخل على معاوية قال له : أىّ إخوتى أنت ؟ قال : أنا

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٦١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولفظه : « الناس بنو آدم وآدم من تراب » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٩١ - ١٩٤) والترمذى فى سننه (١٩٠٧) وقال : حديث حسن صحيح . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٩٤) كلهم من حديث عبد الرحمن ابن عوف .

(٣) معاوية بن أبى سفيان هو : صخر بن حرب بن أمية ، مؤسس الدولة الأموية فى الشام وأحد دهاة العرب ولد بمكة قبل الهجرة بعشرين عاماً وأسلم يوم فتح مكة توفى عام ٦٠ هجرية عن ٨٠ عاماً ، بلغت فتوحه المحيط الأطلنطى وهو أول مسلم ركب البحر لغزو الروم ، [الأعلام للزركلى المجلد ٧] .

أخوك من آدم ، فضحك معاوية ، وقال : رحمٌ مقطوعة ، والله لأكُونَنَّ أول مَنْ وصلها ، ثم قرَّبه وأعطاه ما يريد[١] .

ومن التلاقى الذى سيكون فى الآخرة أنْ يلتقى المظلومُ بظالمه ، والخصمُ بمخصومه ، نعم وعند الله تجتمع الخصومُ ، وعلى العاقل أن يحسب لهذا اللقاء ألف حساب ، ومَنْ تدبَّر العواقب نجا .

ومن التلاقى فى الآخرة أنْ يلتقى الإنسان بصحيفة أعماله التى أحصتْ عليه كل صغيرة وكبيرة ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ (٦)﴾ [المجادلة]

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا (٣٠)﴾ [آل عمران]

يوم يقول لك ربك : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء]

ثم يرتفع التلاقى إلى قمته ، فيلتقى المؤمنون بربهم عز وجل حين يتجلَّى عليهم سبحانه فيرونَه ، وتكون هذه أعظم النعم تفضلاً من الله وكرماً واقرأ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[٢] (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ[٣] (٢٥)﴾ [القيامة]

وإذا كانت رؤية الحق سبحانه هى أعظم النعم للمؤمنين فهى أشدّ

---

(١) ذكر نور الدين اليوسى (١١٠٢ هـ) فى كتابه (المحاضرات فى الأدب واللغة) إن إنساناً دخل على معاوية فقال له : أسألك بالرحم التى بينى وبينك إلا ما رفدتنى (أى أعطيتنى) فقال : أنت من عبد مناف ؟ قال : لا ، قال : أنت من قريش ؟ قال : لا قال : أنت من العرب ؟ قال : لا ، قال : أى رحم بينى وبينك ؟ قال : رحم آدم . فقال معاوية : رحم مجفوة لأكونن أول من وصلها ، فأعطاه . وذكره الأبشيهى فى كتابه (المستطرف فى كل فن مستظرف) وعزاه لأبى على القالي فى كتابه الأمالى .

(٢) وجوه يومئذ باسرة . أى : كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد [القاموس القويم ١/٦٦] .

(٣) فاقرة : داهية تكسر الظهر . قاله الليث فيما نقله ابن منظور عنه فى [لسان العرب - مادة : فقر] ، وقال أبو إسحاق : المعنى : توقن أن يفعل بها داهية من العذاب .

ألوان العذاب للكافرين لأنهم سيُحرمون منها ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين] يومها ستشتد حسرتهم وأسفهم : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور]

وجد اللهَ الذى كفر به فى الدنيا ، ووجد العاقبة التى طالما حذَّرناه منها وذكّرناه بها .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿١٦﴾﴾ [غافر] أى : فى هذا اليوم يوم التلاقى يأتون بارزين علانية بعد أنْ كانوا مُستترين بسيئاتهم في الدنيا ، اليوم يُفتضح أمرهم ويُكشف سترهم ﴿لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿١٦﴾﴾ [غافر] الجميع فى ساحة واحدة : الملوك والسُّوقة ، السادة والعبيد ، الرؤساء والمرؤوسون ، الجميع فى مقام العبودية .

لذلك سينادى الحق سبحانه :﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴿١٦﴾﴾ [غافر] يقولها الحق سبحانه لأنه تعالى كان يُملِّك بعضنا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا مُلْك إلا لله وحده ، لذلك يجيب على هذا السؤال المؤمن والكافر ، الجميع يقولون ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر] نعم لأنه لا إله غيره ولا ملك سواه .

ومعنى﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴿١٦﴾﴾ [غافر] أن المُلْك لله اليوم وقبل اليوم ، فهذه الحقيقة التى أنكرها الكفار فى الدنيا اعترف بها المؤمنون الذين رضوا بالله رباً ، يُؤتى الملك مَنْ يشاء ، وينزع الملْك

---

(١) القيعة والقاع : أرض سهلة مطمئنة واسعة مستوية لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط ، وقيل : هو ما استوى من الأرض وصلب ولم يكن فيه نبات . [الزبيدى فى تاج العروس من جواهر القاموس . مادة : قوع] .

ممَّنْ يشاء ، ويُعز مَنْ يشاء ويُذلُّ مَنْ يشاء .

فكلمة ﴿ الْيَوْمَ ﴾ مُوجَّهة هنا إلى الكافرين الذين أنكروا هذه الحقيقة فى دنياهم ، لكنهم اعترفوا بها فى الآخرة فأقرّوا ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) ﴾

﴿ الْيَوْمَ ﴾ يعنى : يوم القيامة ﴿ تُجْزَىٰ ﴾ تُحاسب ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (١٧) ﴾ [غافر] قلنا : إن كسب تأتى للخير واكتسب للشر ، وعلماء اللغة يقولون : إن كل زيادة فى بنية الكلمة لابدَّ أن يقابلها زيادة فى المعنى ، لذلك كسب غير اكتسب . كسب على وزن فعل أىْ يأتى الفعل منك طبيعياً لا تكلّف فيه ، إنما اكتسب يعنى افتعل ففيه افتعال ومحاولة .

فالخير لا يحتاج منك إلى تعب ، على خلاف الشر فيحتاج إلى تعب ومشقة وتلصُّص ، يقول تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (٢٨٦) ﴾ [البقرة] وقد أوضحنا هذه المسألة بالرجل الذى يجلس بين أهله وفيهم جميلات زوجته وبناته وخالاته وعماته .. الخ فينظر إلى هذا الجمال دون تكلُّف ولا تحرّج ، أمّا فى غير المحارم فإنه يختلس النظرة وينفعل لها ويحاول ألاّ يراه أحد .

كذلك نلحظ هذه المسألة فى المرأة تحمل من حلال والأخرى من الحرام ، وكيف أن الأولى تُدلّ بحملها وتتباهى به ، أما الأخرى

فتحاول جاهدة أنْ تُخفيه وأنْ تتخلص منه ، ففرحة الأولى وحسرة الأخرى هو الفرق بين الحلال والحرام .

كذلك الإنسان إذا أخذ شيئاً من بيته يأخذه علانية بلا تكلّف وبلا تخطيط ، إنما إنْ أراد أنْ يسرق من بيوت الآخرين فإنه يحتال لذلك ويخطط له ، إذن : نقول الحلال لا يُتعب صاحبه إنما الحرام هو الذى يتعب الدنيا كلها .

أما فى قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً .. (٨١) ﴾ [البقرة] فقد استعملت كسب هنا فى الشر ، فلماذا ؟ قالوا : هذا حين تصير السيئةُ عند صاحبها إلْفاً وعادة يفعلها بلا تكلُّف وبلا مشقة على نفسه وكأنها حسنة ، فلما تعوَّد عليها صارتْ فى حقه كسْباً لا اكتساباً ، وهذا الذى نسميه (الفاقد) أى : الذى تجرّأ على الحرام وألِفَ المعصية حتى صارتْ له عادة .

ومثل ذلك فى النظر فى قوله تعالى :﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ [1] الأَعْيُنِ (١٩) ﴾ [غافر] إذن : هناك خائنة أعين ، وهناك أمينة أعين ، أمينة أعين حين تنظر إلى الحلال ، وخائنة أعين حين تنظر إلى المحرم .

حتى فى الناحية الاقتصادية التى تحكم الشعوب وبها يُقاس تقدُّم الأمم ورُقيها نقول : الحلال لا يكلِّف إنما الذى يكلف الحرام - هذا من الناحية الاقتصادية - لأن الأصل فى الحلال ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا (٣١) ﴾ [الأعراف] وفى الحديث الشريف : « نحن قوم لا نأكل

---

(١) يعلم خائنة الأعين : قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير أى يعلم الأعين الخائنة ، وقال ابن عباس : هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها ، وعنه : هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غضَّ بصره ، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر ، فإذا نظر إليه أصحابه غضَّ بصره ، وقد علم الله منه أنه يود لو نظر إلى عورتها. [تفسير القرطبى ٨/ ٥٩٥١] .

حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »[(١)] .

ولو عِشْنا على هذه الأصول لكفَانا القليل ، ولك أنْ تجرب نفسك فلا تأكل إلا على جوع ، وساعتها ستجد اللقمة لذيذة ولو كانت بملح، فكأن استقامتك على دين الله تُريحك وتسترك ولا تتعبك فى حركة الحياة ، ولا تحتاج منك لمزيد من العمل ولمزيد من المال .

كذلك إذا أكلنا لا نشبع ، وأنتم ترونَ الذى يأكل حتى التخمة وحتى يحتاج إلى مهضم ، فشقَّ على نفسه وكلفها فى الطعام وفى تصريف الطعام .

ثم يقول سبحانه : ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ (١٧)﴾ [غافر] نعم لأن الحاكم فى هذا اليوم هو الله العدل المطلق ، وكأن الحق سبحانه يقول : الظلم عندكم أنتم أيها البشر ، فقد أمهلناكم فى الدنيا تربعون فيها بالظلم . يظلم القوى الضعيف ، ويظلم الغنى الفقير ، ويظلم الحاكم المحكومين إنما اليوم ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ (١٧)﴾ [غافر] لقد وصل بكم الظلم فى الدنيا إلى غايته حين أشركتم بالله .

لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] نعم ظلم بيِّنٌ واضح ؛ لأن الظلم معناه أنْ تأخذ حقَّ الغير لك ، أو تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه لغير صاحبه ، وهذا هو ما حدث منكم حين أشركتم بالله فأخذتم منه سبحانه الألوهية ، وجعلتموها للأصنام .

الظلم يأتى من عدة وجوه . فمن الظلم أنْ تعمل خيراً ولا تجزى

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب قال النبى ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يُقمْنَ صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وابن ماجه فى سننه (٣٣٤٩) .

به خيراً ، ومن الظلم أنْ تعمل الحسنة تستحق عليها عشرة فيعطيك خمسة ، ومن الظلم أن تعمل السيئة ولا تُحاسب عليها ، ومن الظلم ألاَّ تعمل سيئة وتُحاسب عليها .

إذن : كل اختلال فى موازين الملكية والنفعية من العمل تُعَد ظلماً ؛ لذلك قال تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، إنى حرمتُ الظلم على نفسى فلا تظالموا »[1] .

كان هذا فى الدنيا ، أما فى القيامة فأنتم أمام الحاكم العادل وفى رحاب العدل المطلق الذى لا يُحابى أحداً على حساب أحد ، وليس له ولد ولا صاحبة فيميل عن الحق لأجلهما .

لذلك قلنا : إن الجن كانوا أصدق استقبالاً منا حين قال : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[2] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ ﴾ [الجن] لأن معظم الفساد يأتى من هذين : الصاحبة والولد .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٧ ﴾ [غافر] إشارة إلى طلاقة قدرته تعالى فى الفصل بين الناس وفى مجازاتهم على أعمالهم ، وكأنه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أن موقف الحساب يشقّ علينا ، أو أنه سيأخذ وقتاً طويلاً ، لا فعندنا حسابات أخرى ليس عندنا جلسة تطول ولا جلسة تتأجل .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٧ ﴾ [غافر] لأن الله تعالى فعلَ فعْلِه بكُنْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (١٦٠/٥) ، والبيهقى فى سننه الكبرى (٩٣/٦) والبخارى فى الأدب المفرد (ص١٧٢ ، ٤٩٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، ولفظه : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » .

(٢) قوله : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ۝٣ ﴾ [الجن] أى : أنه تعالت عظمة ربنا وتعالى مجد ربنا . [القاموس القويم ١١٨/١] .

لا يفعل بعلاج كما تفعلون ، والدليل على ذلك أن فى دنيا الناس آلاف وملايين القضاة يحكمون بين الناس بالحق فى آلاف وملايين البلاد فى وقت واحد فى بلاد مختلفة ومحاكم مختلفة ، والحق الذى يحكمون به ليس حقاً يتنقّل بين القضاة من قاض لآخر ، إنما هو موهبة ذابتْ فى نفوسهم جميعاً وصبغة صبغتْ أحكامهم جميعاً .

فإذا كان المخلوق لله وهو الحق يمكنه أنْ يستولى على نفوس القضاة فى مختلف الأرض فى وقت واحد ، فالذى خلق هذا الحق أوْلَى بأنْ يحكم بين الخلائق فى وقت واحد .

لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه هذه المسألة : كيف يُحَاسب الناس فى وقت واحد على كثرتهم ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد[1] .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) ﴾

قلنا : الإنذار هو الإخبار والتحذير من الشر قبل وقوعه و (الآزفة) من أزف الشيء يعنى : دنا وقرب ، والمراد بيوم الآزفة الموت لأنه يأتى بغتةً ، لا يعلم أحد موعده ، أو هو يوم القيامة[2] ، وهو أيضاً قريب لأن الله تعالى يقول فيه : ﴿ **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ** .. (١) ﴾ [النحل] فجاء بالفعل الماضى (أتى) للدلالة على تحقّق وقرب وقوعه ، لأن كل آتٍ قريب .

(١) ذكر ابن عبد البر القرطبى فى كتابه « بهجة المجالس » : « قيل لعلى بن أبى طالب : كيف يحاسب الله العباد على كثرتهم ؟ قال : كما قسَّم بينهم أرزاقهم » .

(٢) تفسير الآزفة بأنه يوم القيامة ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٧٥) والقرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٥٠) .

فى هذا اليـوم يوم الآزفة ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَـاظِمِـينَ.. (١٨)﴾ [غافر] تخيل أن القلب انخلع من مكانه فـى الصدر ، وخرج من حَيِّزه حتى وصل الحناجر حتـى كتم الأنفاس من شدة الهول والبؤس والشقـاء والضيق ، كما قـال سبحانه فى مـوضع آخر : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ(١) وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)﴾ [الأحزاب]

ومعنى ﴿كَاظِمِينَ.. (١٨)﴾ [غافر] الكظم أنْ تحاول كتم الشىء فى داخلك بحيث لا يخرج ، ومنه كَظْم القِرْبة إذا انخرقت حتى لا يتسرب منهـا الماء بأنْ تربط مكان الخُـرْق وتُحكم رباطه ، ومنه كَظْم الغـيظ حتى تتحكم فى غيظك وتكتمه فى نفسك ولا تُنْفذه ، كما قال تعالى :

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤)﴾ [آل عمران] فـهذا ترقٍّ فى مراتب العـمل الصالح ، أولهـا كظم الغيظ ، وأحسن منـه التخلص من الغيظ بالعفو ، وأحسن منه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨)﴾ [غافر] هذا ساعة يجمع الله الظالمين معاً فى جـهنم والعياذ بالله ، هؤلاء اجتمعوا فى الدنيـا على معصـية الله ، وسـاروا فيهـا على هواهم ، والآن فى الآخرة يفـرّ بعضـهم من بعض ويهـرب المتبـوع من تابعه ، كمـا قال سبحـانه : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس]

كذلك لا يجدون شـفيعاً يشـفع لهم ولا يدافع عنهم ، وقد أوضح

---

(١) زاغ البـصر : اضطرب ولم يحـقق ما يرى ، أو انحـرف عن القصـد فلم ير شـيئاً . وقد وصف الله فزع بعـض النـاس فى المدينـة حـين أحـاطـت بهم الأعداء فى غزوة الأحزاب : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ (١٠)﴾ [الأحزاب]

الحق سبحانه أن هؤلاء الشفعاء ورؤساء القوم وأئمة الكفر سيسبقون أتباعهم إلى جهنم ، فإذا دخلوا وجدوهم قد سبقوهم إليها ، فيكون ذلك أقطع لأملهم في النجاة وأشدّ لحسرتهم ، لذلك قال تعالى عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ [هود]

ومعنى (الحميم) أى : الصديق الحميم ، وهو الذى يخلص لك ويحميك حين يُراد بك الضر ويقف بجانبك وقت الشدة ، الظالم فى الآخرة لا يجد هذا الصديق ولا يجد مَنْ يشفع له ، فأصدقاؤهم فرُّوا منهم لأنهم اجتمعوا فى الدنيا على المعصية .

والله يقول : ﴿ الأَخِلاَّءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف] أى : يوم القيامة حيث يتبرأ كل منهم من صاحبه ويلقى عليه باللائمة ويكرهه ﴿ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) ﴾ [غافر] حتى إنْ قام للظالم شفيع يشفع له لا يطاع ، لأن الشفاعة فى الآخرة لها شروط : أنْ يأذن اللهُ للشافع أنْ يشفع ، وأنْ يرضى الله عن المشفوع له ، والله لا يأذن فى الشفاعة لظالم ولا يرضى عنه .

لذلك لا تُقبل مثل هذه الشفاعة ، ولا يُطاع صاحبها لأنه يطلب من الله الذى يملك العذاب أنْ يطيعه وأنْ يعفو عن المشفوع له ، فكيف ينقلب الحق سبحانه مطيعاً لعبده ؟

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) ﴾

(١) الأخلاء : جمع خليل ، وهو الصديق المخلص . [القاموس القويم ١/٢٠٨] والخلة : الصداقة . قال الزجاج : الخليل المحب الذى ليس فى محبته خلل . [لسان العرب - مادة : خلل] من هنا جاء إعجاز الآية المتحدثة عن شدة يوم القيامة التى تجعل الصديق المخلص المحب الذى ليست فى محبته خلل لصاحبه إلا أنه يوم القيامة لن يتخلى وينشغل عن خليله فحسب ، بل سيكون له عدواً .

يعنى : اعلموا أن علْمَ الله شامل ولا يخفى عليه شىء مهما دَقَّ ، فإنْ عمَّيتم على خلق الله فى الدنيا واختلستُم النظرات فيما لا يحل لكم فاعلموا أنكم لا تخفَوْنَ على الله ، ولو أيقن المؤمن بشمول علم الله وبنظره إليه ما كانت له خائنة أعين .

لذلك رأينا القاضى وهو يحكم بين الناس ويتحرَّى العدل فى حكمه وجد بحاسة الحق عنده أنَّ الشهود يشهدون زوراً ، لكن ماذا يفعل وهم متفقون فى أقوالهم جميعاً مهما حاورهم وقلّب لهم المواقف ليكشف زيفهم وباطلهم وجدهم على لسان واحد ؟ ذلك لأن المحامى مثلاً حفّظهم الجواب ، فماذا يفعل ؟ غضب وانفعل للحق الذى يحكم به وقال كلمة هزَّتْ الشهود جميعاً ، وجعلتهم ينطقون بالحق قال لهم : والله لو عميتم على قضاء الأرض فلن تُعمُّوا على قضاء السماء . كلمة أنطقه الله بها ، فأعادتْ إليهم رشدهم وهزَّتهم من الأعماق ، فرجعوا إلى الحق .

وقوله : ﴿ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ (١٩) ﴾ [غافر] يعنى : علم سبحانه مكنونات الصدور وخباياها ، وهذه لا يعلمها إلا الله .

﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٢٠) ﴾

معنى : ﴿ يَقْضِى .. (٢٠) ﴾ [غافر] أى : يحكم بالحق ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ من دُونه (٢٠) ﴾ [غافر] أى : الأصنام وغيرها مما عبدوه من دون الله ﴿ لا يَقْضُونَ بِشَىْءِ .. (٢٠) ﴾ [غافر] لا يحكمون بشىء ، فليس لهم مركز فى القضاء أبداً ولا حتى فى الظلم ، ليس لهم أهلية لأنْ يقضوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) ﴾ [غافر]. السميع لكل قول

خارج عن منهجه ، العليم بكل فعل يخرج عن منهجه المشاهد لكل شيء .

فالحق سبحانه وتعالى يكون هو الشاهد وهو القاضى والحاكم وهو المنفذ ، فإذا كانت السلطات عندكم متعددة فى الدنيا ، فالسلطة فى الآخرة لله وحده لا شريكَ له .

بعد ذلك يقول سبحانه : ما بال هؤلاء الكفار الذين يعاندون الدعوة ويصادمون الرسول الذى أرسله الله لهم رحمة ، ألم ينظروا فى تاريخ سابقيهم من الأمم التى كذَّبت وما جرى لهم من العقوبة ، وما حَلَّ بهم من هلاك يرونْ هم آثاره .

لقد سجَّل الحق سبحانه على نفسه ، فقال : ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢)** ﴾ [الصافات]

نعلم أن الإنسان يحفظ السند الذى له ولا يحفظ الذى عليه ، أما الحق سبحانه فحفظ وسجَّل هذا الوعد عليه سبحانه ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)** ﴾ [الحجر] فالحق سبحانه ضمن لرسله النصرة والتأييد ، وما كان سبحانه وتعالى ليقول كلمة ويأتى واقع الحياة ليكذِّبها . إذن : فنُصرة الرسل سُنة من سُنَن الله فى كونه ، يقول سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ


مِن وَاقٍ (٢١) ﴾

يعنى : ألم يقفوا موقف المشاهد لآثار الأمم المكذِّبة وهم يمرون بهم فى رحلة الشتاء والصيف ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات] ألم تروا مدائن صالح[1] وقرى عاد وثمود وغيرهم ممَّنْ كذَّب الرسل ؟

إن آثارهم تدل على أخْذ الله لهم ، وعلى العقاب الذى نزل بهم فخذوا منهم عبرةً ، واعلموا أن مصيركم كمصيرهم ، ولن تُعجزوا الله فى ذلك ، لأن هذه الأمم التى أخذها الله كانت أشدَّ منكم قوة وآثاراً فى الأرض ، أأنتم أشد من إرم ذات العماد ، وفرعون ذى الأوتاد .. أين هم الآن ؟ هل استطاعوا رغم حضارتهم حماية هذه الحضارة ؟ إن قوتهم وحضاراتهم لم تُغْنِ عنهم من الله شيئاً ، ونزل بهم عذاب الله فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ولم يمهلهم .

لذلك قال سبحانه لرسوله : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر] يعنى : إذا لم تَرَ ما نعدهم من العذاب فى الدنيا ومتَّ قبلهم فسوف ترى عذابهم فى الآخرة . كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة]

والحق سبحانه يريد من سَيْرنا فى الأرض أمرين : سياحة فى الأرض للاعتبار وأخْذ العظة ، وسياحة للانتفاع والاستثمار ، إذن : فالسياحة فى الأرض والسير فيها مطلوب إيمانى ، لذلك قال تعالى

---

(١) مدائن صالح : هو اسم أطلق على الحجر التى هى ديار ثمود ، وهو ما جاء فى القرآن الكريم : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحجر] وهى تقع شمال المدينة المنورة على مساحة ٢٥ كيلومتراً تتكون من تكتلات جبلية متباينة الحجم مع قصور منحوتة بدقة هندسية يصل عددها إلى ٨٠ . والبعض يرجع هذه المنطقة للأنباط والداديين وليس إلى الثموديين .

فى سياحة الاعتبار : ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ (٢١)﴾ [غافر] وقال فى سياحة الاستثمار : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. (٢٠)﴾ [العنكبوت]

وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

إذن : لا مانع أن تجمع فى سَيْرك فى أرض الله بين سياحة الاعتبار وسياحة الاستثمار والانتفاع ، فلا تحرم نفسك من نظرة الاعتبار فى خَلْق الله الجديد عليك ، ولا تُلهِكَ التجارة والاستثمار عن الاعتبار .

وهنا ملحظ فى قوله تعالى : ﴿فِي الأَرْضِ ..(٢١)﴾ [غافر] هذا الملحظ أخذناه من العلم الحديث أخيراً ، فقد كان العلماء يفسرون ﴿فِي الأَرْضِ .. (٢١)﴾ [غافر] على الأرض أى : الأرض والتربة التى نمشى عليها ، إلى أن عرفنا مؤخراً أن الأرض تشمل غلافها الجوى ، فهذا الهواء الذى فوق الأرض هو العنصر الأساسى والضرورى لاستمرار الحياة عليها ، وبدونه لا تكون على الأرض حياة ، لأن الإنسان لا يستغنى عنه بمقدار شهيق أو زفير ، وعليه فنحن نسير فى الأرض كما جاء نصّ القرآن الذى سبق العلم الحديث إلى هذه الحقيقة .

وحين تسير فى أرض الله للاعتبار بمخلوقات الله ترى ألواناً شتى لم تَرَها من قبل من الناس والأماكن والمزروعات والنعم التى لا تُحصى ، وتعلم أن الخالق سبحانه يعطى لكل مكان ما يناسبه ، ولكل بيئة ما يصلح لها من الغذاء ، لذلك تجد بعض المزروعات تجود فى أماكن دون أخرى ، فبيئة يكثر فيها الموز مثلاً ، وأخرى يكثر فيها البطاطس ، وأخرى القمح .

لذلك قال البعض : إن كثرة الأمراض وتعدِّيها من بيئة لأخرى منشؤه أن الناس يعيشون على غير أقوات بيئتهم ، فسكان البيئات الحارة يستوردون أقوات البيئات الباردة والعكس ، ومن هذا الخلط نشأتْ الأمراض .

وقوله : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ .. (٢١) ﴾ [غافر] أى : عاقبة تكذيبهم الرسل ووقوفهم أمام الدعوة ليُطفئوا نور الله بأفواههم ، فأخذهم الله ولم تمنعهم منه قوتهم ولا آثارهم فى الأرض ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ﴾ [غافر] يعنى : لم يقهم من الله واق ، ولم يدافع عنهم مدافع ، ولم تُغْن عنهم حضاراتهم ، لأنهم حينَ أقاموا هذه الحضارات لم يجعلوا لها قانوناً يصونها .

ثم يُعلِّل الحق سبحانه لأخْذهم أخْذ عزيز مقتدر :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ .. (٢٢) ﴾ [غافر] بالآيات الواضحات وبالمعجزات الباهرات الدالة على صدق الرسول ، والآيات التى عجزوا هم عن مثلها رغم أنها كانت مما نبغوا فيه ، وقد كانت هذه الآياتُ كافيةً لأنْ يؤمنوا بالله وبرسول الله إليهم الذى جاء لهدايتهم ، لكنهم كفروا ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ .. (٢٢) ﴾ [غافر] وكلمة (أخذهم) تدل على التناول بقوة ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾ [غافر]

ولا شكَّ أن الأَخْذ يتناسب وقوة الآخذ فأَخْذة الطفل غير أَخْذة الشاب غير أَخْذة الفتوة ، فما بالك إنْ كان الآخذ هو الله القوى شديد العقاب ، إذا كان الله سبحانه هو الآخذ فلا قوة لمأخوذ على المكابرة أو الامتناع .

لذلك قال فى موضع آخر : ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)﴾ [القمر] هذه هى القوة العليا ، فالعزيز هو الذى يَغلب ولا يُغلب ، والمقتدر هو القادر على كل شىء ، والذى لا يعجزه شىء .

ثم يقصُّ الحق سبحانه بعض قصص الرسل ممَّنْ كُذِّبوا وأُوذُوا ، وهنا يقص علينا طرفاً من قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ (٢٥)﴾

الحق سبحانه يذكر هنا قصة سيدنا موسى عليه السلام لأنها امتازت على قصص الرسل السابقين له ، من حيث إنهم جاءوا ليشفوا الناس من بعض الأمراض العقدية ، ويخرجوهم من جاهلية افعل ولا تفعل ، ويعيدوهم إلى الجادة ، أمَّا سيدنا موسى فقد جاء ليجابه رجلاً ادعى الألوهية وتكبَّر وتجبَّر فكانت مهمته أصعب ، لذلك كان أكثر الرسل قصصاً فى القرآن الكريم .

قوله تعالى : ﴿بِآيَاتِنَا .. (٢٣)﴾ [غافر] المراد الآيات الواضحات التسع التى أُوتيها موسى عليه السلام ، تأييداً له وبرهاناً على صِدْق رسالته وأولها العصا ، وللعصا فى قصة سيدنا موسى تاريخ

ومواقف ، فبها ضرب البحر فصار كل فِرْق كالطود[1] العظيم بها انفلق البحر وتجمد الماء ، وبنفس العصا ضَربَ الحجر فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً ، إذن : المسألة ليست فى الماء والجبل ، إنما معجزة خالق الماء وخالق الجبل الذى يقول للشىء : كُنْ فيكون .

لذلك وقف المستشرقون عند قصة سيدنا موسى ، ورأوا أنها أخذتْ النصيب الأوفر بين موكب الرسالات وفصَّلها القرآن تفصيلاً ظنوه تكراراً معاداً ، خاصة فى مسألة العصا ، حيث ذُكرت فى ثلاثة مواقف ، هى فى الحقيقة ليست تكراراً إنما هى لقطات مختلفة لحدث متجمع ، فأول ما أعطى الله موسى العصا معجزةً سأله عنها :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[2] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ[3] أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه]

وقلنا : إن موسى لم يرد على قدر السؤال لأن الذى يسأله ربه فأراد أنْ يطيل أمَدَ الحديث مع ربه عز وجل ، فلم يَقُلْ عصا أو عصاى . فلما أحسَّ أنه أطال أجمل وقال : ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه]

الموقف الثانى الذى ذُكرت فيه العصا لما أراد الحق سبحانه أن يدرب موسى على استخدامها ، وأنْ يجربها هو بنفسه ليكون على استعداد ودُرْبة حينما يواجه مُدَّعى الألوهية فرعون فقال له : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . [القاموس القويم ١/٤٠٨] والانطياد : الذهاب فى الهواء صعداً . ومنه المنطاد الذى يرتفع فى السماء ، والجبل أيضاً يرتفع فى السماء .

(٢) أهش بها على غنمى : قال الفراء : أى أضرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقها فترعاه غنمه . أما الليث فقال : هو جذب الغصن من الشجر إليك . والقول ما قاله الفراء لا ما قاله الليث . [لسان العرب – مادة : هشش] .

(٣) مآرب أخرى : أى أغراض وحاجات كثيرة أخرى كاتقاء ضر أو غير ذلك . [القاموس القويم ١/١٧] .

سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه]

هذا هو المطلوب من إجراء هذه التجربة أمام موسى ، أن يخاف منها ، وأنْ يراها على حقيقتها وهى حية ، ولو أنها ظلتْ على حالتها عصا ما خاف منها موسى ، ولما قال له ربه ﴿ وَلا تَخَفْ .. (٢١) ﴾[طه]

ثم كان الموقف الأخير للعصا حين التقى موسى بسحرة فرعون وفى حضرته حين جابه سحْرهم بعصاه التى ألقاها فراحتْ تلقف ما صنعوا ، وعن هذا الموقف قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ[1] فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) ﴾ [طه]

إذن : ليس فى ذكر عصا موسى تكرار ، إنما هى مواقف مختلفة وحالات عدَّة للشىء الواحد .

وقوله ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) ﴾ [غافر] السلطان هو الحجة الواضحة ، والسلطان هو القوة ، إما قوة البرهان والحجة ، وإما قوة القهر والغلبة ، كما ورد فى حوار الشيطان يوم القيامة : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لم يكن لى سلطان حجة تقنعكم ، ولا سلطان قهر وقوة ترهبكم وتجبركم على المعصية ، بل كنتم على (تشويرة) مجرد أن

---

(١) أوجس : أضمر الخوف فى نفسه حين رأى أعمال السحرة . وقال فى قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٢٨) ﴾ [الذاريات] أى : أحسَّ الفزع والخوف . [القاموس القويم ١/٣٢١] .

دعوتكم استجبتم ﴿ فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] نقول : صرخ فلان فأصرخته يعنى : أزلتُ أسباب صراخه .

وقوله : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ .. (٢٤) ﴾ [غافر] نعم كان فرعون هو رأس الفتنة ومُدَّعى الألوهية ، لكن ذكر معه هامان لأنه كان وزيره ومساعده ، وقارون لأنه كان صاحبَ خزانته ، فكان الثلاثة شركاء ، لذلك اشتركوا أيضاً فى اتهام موسى ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) ﴾ [غافر]

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا .. (٢٥) ﴾ [غافر] أى : بالآيات ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. (٢٥) ﴾ [غافر] مسألة قَتْل الأبناء جاءت من فرعون مرتين : الأولى : أيام كان موسى طفلاً ، وعلم فرعون من المنجِّمين أن زوال ملْكه سيكون على يد أحد أبناء بنى إسرائيل ، فأخذ يقتل الأبناء الصغار مخافةَ هذا الولد الذى سيُولد ويزول مُلكه على يديه .

والعجيب أن نرى هنا غباء فرعون وتغفيله فى قتل أبناء بنى إسرائيل وحرصه على ألاَّ يفلت منهم أحدٌ ، حتى أن رجاله كانوا يدخلون البيوت يبحثون فيها عن الأطفال الصغار .

وقد أظهر هذا الموقف غباءه من ناحيتين ، أولاً : أنه يقتل الأبناء الصغار مع أن النبوءة تقول : إن زوال مُلْكه سيكون على يد واحد منهم ، ثم يأتيه غلام بهذه الطريقة المريبة : صندوق فى البحر بداخله غلام صغير جاءه إلى باب بيته ، فيطمئن إليه ويأخذه ويُربِّيه على عينه ويغفل عما يُراد به .

وهذا الموقف يوضحه قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقلِّبها كيف يشاء .

وقوله : ﴿ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ .. (٢٥) ﴾ [غافر] أى : اقتلوا الأبناء الذكور ، لأنهم مصدر الخوف ، ومنهم يكون التمرد ، ومنهم مَنْ يزول مُلْك فرعون على يديه ، أمَّا النساء فاتركوهن أحياء للخدمة وللإذلال .

وهذا يفسر لنا : لماذا كان العرب إذا خرجوا للحرب أخذوا معهم نساءهم ، لكى يكُنَّ معهم فى مصير واحد ، فإنِ انتصروا عادوا سالمين ، وإنْ قُتلوا قُتلوا جميعاً حتى لا يبقى النساء بعدهم للأَسْر والسَّبى والإذلال .

﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلالٍ (٢٥) ﴾ [غافر] نعم كان هذا كيداً من فرعون وأعوانه ، لكن هل أنفذ كيده ببنى إسرائيل ؟ لا بل ردَّ الله كيده عليه وباء بالضلال والخسران .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ (٢٦) ﴾

قول فرعون ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ .. (٢٦) ﴾ [غافر] يعنى : اتركونى أقتله (سيبونى عليه) دَلَّ على وجود تيار من القوم يمنع فرعون من قَتْل موسى ، وإلا لما قال (ذَرُونى) فمَنْ هؤلاء ؟ ربما كانوا من أتباع

---

(١) قال ابن عباس : يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر والإيمان . وقال السدى : يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه . [تفسير ابن كثير ٢٩٨/٢] .

فرعون المؤمنين بصدق موسى ، وبما جاء به ، فأحبُّوا أنْ يدافعوا عنه بطريقة لا تثير شكَّ فرعون ، فاحتالوا عليه .

وهذا دليل على أن أصحاب الخير يجوز لهم أنْ يحتالوا على أهل الشر لنصرة الخير وأن الله يعينهم . جاء هؤلاء وقالوا لفرعون : إنْ قتلتَ موسى سيقول الناس أنه على حق ، وأنك لم تقدر على رَدِّ حجته فقتلته لتستريح منه ، وعندها سيقفون ضدك .

ومن هؤلاء المدافعين عن موسى الرجل المؤمن من آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه خوفاً من بطش فرعون ، والذى دافع عن موسى دفاعاً قوياً وقدَّم الحجج ، فقال : ﴿ **وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ .. (٢٨)** ﴾ [غافر]

وتأمل هنا سُخْرية فرعون واستهزائه ﴿ **وَلْيَدْعُ رَبَّهُ .. (٢٦)** ﴾ [غافر] أى : ربه الذى يدعو إليه ليناديه كى ينقذه ولو لم يكُنْ مستهزئاً لقال : وليدْع ربَّنا ﴿ **إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)** ﴾ [غافر] سبحان الله انظر كيف يحاول أهل الباطل قَلْب الحقائق ، ففرعون يخاف من موسى أنْ يُبدِّل دين قومه ودينهم هو الإيمان بفرعون إلهاً لهم يعبدونه من دون الله .

﴿ **أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)** ﴾ [غافر] ينشأ الفساد من أين ؟ من وجود فريقين فى المجتمع : فريق يؤمن بفرعون إلهاً ، وفريق يؤمن بموسى وربه الحق ، فالرعية كلها فى شقاق ونزاع ، وأصحاب مراكز القوى المستفيدون من ألوهية فرعون لن يسكتوا ، ولا شكَّ أن هذه فتنة ستُحدثُ فساداً فى نظره .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾

هنا يؤكد موسى على ربوبية الحق سبحانه بعد أنْ هدده فرعون بالقتل ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [غافر] ثم استهزأ بربه ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [غافر] لذلك جاء ردّ موسى (إنِّى) وفيها تأكيد واستحضار لعبوديته أمام عِزِّ الربوبية التى يستهزىء بها فرعون ، فلما يقُلْ مثلاً : أعوذ بالله من فعلك ، إنما أكد أن الله ربه بل ﴿ وَرَبِّكُمْ ﴾ أيضاً .

ومعنى ﴿ عُذْتُ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر] أى : لجأتُ إليه وهو القادر على نُصْرتى وحمايتى ، فقوله ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر] يبين لنا منزلة الاستعاذة بالله ، فالإنسان حين يستعيذ بالله من شىء لا يَقْوَى عليه فقد أفاض وأنصف ، لأنه سلط على مَنْ آذاه وليستْ له قدرة على أنْ يردَّه ، سلَّط عليه مَنْ يقدر على أنْ يفعل .

لذلك قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل]

لماذا ؟ لأنك حين تقرأ القرآن تنفعل به ، وتكون معه فى حضرة الله يكلمك وأنت تسمع ، وحين تنفعل بالقرآن وتتدبر معانيه تحدث عندك إشراقات ومواجيد ترقى بك ، وهذا كله يغيظ الشيطان فيسارع إليك ليصرفك عن القراءة ، كما يحدث لنا كثيراً فى الصلاة مثلاً ، ويشكو الكثيرون منا من الانشغال فى الصلاة بسبب وسوسة الشيطان .

لكن لا عجبَ فى ذلك إذا تأملنا قوله تعالى يحكى لنا موقف الشيطان منا : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف] نعم ، وأىّ صراط أقوم من الصلاة وقراءة القرآن ، لذلك قلنا : إن الشيطان ليس فى حاجة لأنْ يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد ليفسد عليك صلاتك ويشغلك عن منهج الهداية ، لذلك أمرك الله بالاستعاذة منه ليكون لك حصناً ووقاية .

هنا يقول موسى عليه السلام : إنى أعوذ بالله منك يا فرعون وهو أقوى منك وقادر على حمايتى من كيدك ، فهو (ربى) أى : الذى خلقنى وربَّانى وأنا مسئول منه ، فهو أوجدنى بقدرته ويصوننى بقيوميته ، ألاَ ترى أن كلَّ صانع يحفظ صنعته ، ويجعل لها ضماناً للصيانة ؟

أليس الخالق سبحانه أَوْلى بأنْ يضمن لى حياتى التى خلقها ؟ بلى بشرط أنْ تقولها : (عُذْتُ بِرَبِّى) .

وكان يكفى أنْ يقول (إنِّى عُذْتُ بِرَبِّى) فلماذا قال (وَرَبِّكُمْ) ؟ قالوا : ليؤكد على ربوبية ربه عز وجل ، ويؤكد سعادته بهذه الربوبية ، فهو ربى وربُّ الآخرين وربكم جميعاً ليقولوها معه : إنَّا عُذْنا بربنا من فرعون وعمله ، وكأنه يريد أن يستجمع قُوىَ الخير والإيمان ويُقوِّى جانبه بالجماعة المؤمنة ، ليكون الدعاء أَدْعَى للقبول وأَوْلى .

هذه المسألة تفسر لنا أهمية الجماعة وروح الجماعة فى الإسلام ، إننا مثلاً فى الصلاة نقرأ بفاتحة الكتاب ، نقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة] هكذا بالجمع ، فلماذا لم يَقُلْ : إياك أعبد وإياك

أستعين . لأن دعاء الجماعة أقوى ، الجماعة تُدخلك فى زمرة الصالحين ، فإذا لم تكُنْ صالحاً فجاور الصالحين لعله ينالك ما ينالهم من الثواب والقبول . لذلك احذر أنْ تحتقر أهل التقوى وأهل الصلاح ، فلعلَّك تُؤخذ فى محضِ الفضل معهم .

إذن : دعاء الجماعة أَوْلَى بالقبول من دعاء الفرد ، لذلك كانت صلاة الجماعة تفوق صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة[1] ، أنت ترى التاجر مثلاً يبيع السلعة فيها المعطوبة وفيها السليمة ، فإذا ناقشته وقلتَ له لا آخذ المعطوبة مثلاً يقول لك : هذه صفقة واحدة المعطوبة فى السليمة ، كذلك نحن فى صلاة الجماعة ندارى المعطوبة فى السليمة أملاً فى أنْ تُقبل الصفقة كلها .

فمن أىٍّ شىء استعاذ سيدنا موسى ؟ ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر] هكذا بصيغة الجمع وبالوصف ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ .. (٢٧)﴾ [غافر] ولم يصرح باسم خصمه فرعون صاحب القضية ومُدَّعى الألوهية ومهدده بالقتل ، فلماذا ؟

قالوا : لم يُذكر فرعون فى هذا المقام لأمرين :

الأول : حتى لا يجعل فرعون فى مقابل الله لو قال : إنى عُذْتُ بربى من فرعون ، ثم إن فرعون لم يكُنْ وحده ، بل كان معه آخرون على شاكلته ، فأراد أنْ يجمعهم بكلمة تشمل كل متكبر .

---

(١) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٥٠) .

الأمر الآخر : أن سيدنا موسى هنا يراعى حقَّ التربية ويحفظ لفرعون هذا الجميل فلم يصرح باسمه ، ويكفى أنه داخلٌ ضمن هذا الوصف ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر]

لذلك نجد القرآن الكريم جعل التربية شقيقة الولادة ، يعنى الابن فى الدم مثل الابن فى التربية ، فقال سبحانه : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤)﴾ [لقمان] ثم خصَّ الأم بالحيثية ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا[1] عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤)﴾ [لقمان] لماذا يذكر القرآنُ هذه الحيثية للأم ؟

قالوا : لأن هذه الحيثية لا يدركها الولد وهو طفل ، فى حين يدرك بعد ذلك فضلَ والده فذكَّره الله بفضل أمه لأنه لم يشهده ، ثم يقول سبحانه : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء] فعلَّة الدعاء هنا التربية ، سواء أكانت للأم التى ولدت ، أم للأم التى ربَّتْ ، فمن ربَّى غير ولده كان أهلاً لأنْ يدعى له هذا الدعاء ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر] يعنى : اجتمعتْ فيه خَصْلتان من خصال الشر ، فهو متكبر يعنى قاسى القلب ، وقسوة القلب لا تردعه عن القهر والجبروت ، ثم هو لا يؤمن بالحساب فلا يخاف من القصاص ، ولا يعمل حساباً للعواقب ، ومثل هذا لا أملَ فى إصلاحه .

---

(١) الوهن : الضعف . أى : ضعفاً على ضعف ، فالضعف يتزايد كلما ثقل الحمل . [القاموس القويم ٢/٣٦٢] .

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ[1] مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

لما لجأ موسى عليه السلام إلى ربه عز وجل فقال : ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى .. ﴿٢٧﴾﴾ [غافر] استجاب الله له وأعاذه ، لا برسول ولا ملك ولا بأحد من أتباعه المؤمنين ، إنما برجل مؤمن من آل فرعون كان يكتم إيمانه خوفاً من بطش فرعون قام مدافعاً عن موسى ، وهذا أوضح فى الحجة وأبلغ .

لكن لماذا ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُ .. ﴿٢٨﴾﴾ [غافر] ما دام مؤمناً ؟ قالوا : كانوا يغلفون إيمانهم ويسترونه لأنه ليس لديهم القوة التى يَدْفعون بها الطغيان ، فالإيمان فى النفس حتى يجد الفرصة فيظهر ويجاهر ، وها هو يظهر على لسان هذا الرجل المؤمن الذى يعلن أمام فرعون وجبروته أنه مؤمن ، ويدعو بدعوة هى أشبه بدعوة الرسل ، ويخبر بمنهج كأنه رسول .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٧٧) : « المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً (أى مصرياً) من أهل فرعون . قال السدى : كان ابن عم فرعون ويقال : إنه الذى نجا مع موسى عليه السلام . واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم » .

وكلمـة ﴿ يَكْتُمُ إِيمَـانَهُ .. (٢٨) ﴾ [غافر] لهـا فى الإسـلام ملحظ وتاريخ ، ومعنى كَتْم الإيمان أن الإيمـان يحاول أنْ يبرز فى تصـرفات الرجل لكنه يكتم إيمـانه ، فهـو حريص على أنْ يجـعل إيمانه سـراً بينه وبين ربه فقط ليستطيع أن يقول كلمة الحق ويجهر بها أمام القوم وهو غير مؤمن حتى لا يُؤذَى .

إذن : فالإيـمان عـمل وجدانى له نضح على جـميع جـوارح النفس الإنسـانية ، فالمؤمن تجـده متواضعـاً منكسراً يستجيب للحق ويخضع له ، المـؤمن عطوف كـريم حليم رحيـم ، تلحظ إيمانـه من تصرفـاته ، ولكنه يحـاول أن يكتم هذا حـتى يقف المـوقف الذى يمكنه من الـجهـر بالإسلام جهراً قوياً عنيفاً .

لذلك يقولون : إن الإيمان عملية قلبية وهو سرٌّ بين العبد وربه ، ثم له أمر ظاهرى بين الـمؤمن والناس ، وقد يلتـحم الأمران السر والجـهر بينه وبين ربه ، وبينه وبين الناس ، فقـد يكون مؤمناً بينه وبين الله أما بينه وبين الناس فهو مـؤمن أو غير مؤمن ، لأن العملية الإيمـانية يُبدى فيها فوق ما يظهر إيمانه ، والرسول ﷺ شرع هذا ، كيف ؟

قالوا : فى غزوة الأحزاب حين اجتمعتْ قريش وغطفان[1] واليهود ، حيث اسـتدرج اليهـود كلاً من قريش وغطفـان ليحاربوا مـعهم محـمداً ليثأروا منه ﷺ بعد مسألة بنى قينقاع[2] لما آذاهم رسول الله .

---

(١) غطفان : قبيلة ضـخمة تنتمى إلى غطفان بن سعد بن قـيس عيلان إلى عدنان ، شكلت فى العهـد الجاهلى والإسلامى كـتلة مهمـة ضمن القبـائل القيسـية التى بسطت سـيطرتها على البوادى العربية ، انتقل الكثير من القبائل الغطفانية إلى مصر ويتركزون فى ليبيا ومنهم فى فلسطين فى جبال نابلس وكذلك العراق (ويكيبيديا) .

(٢) كان بنو قينقـاع أول يهود ينقضون ما بينهم وبين رسول الله ﷺ فـحاربوا رسول الله بين بدر وأحد ، فحاصرهم رسـول الله حتى نزلوا على حكمه ﷺ . (دلائل النبوة ٣/١٧٤) ثم كانت غزوة بنى النضـير وكانت قبل أُحد فقـد رفضوا معاهدة رسول الله ﷺ فـقاتلهم حتى نزلوا أن يجلوا عن ديارهم ولهم مـا حمـلت إبلهم من الأمتـعة وأبواب بيـوتهم وخشـبهـا . [دلائل النبوة ٣/١٧٩] .

فلما ذهب حيى[١] ومعه سلام بن مشكم[٢] إلى مكة ليستثيروا قريشاً وغطفان على رسول الله ، قال لهم : يجب أن نقف جميعاً يداً واحدة فى مواجهة محمد ، لأننا إنْ تركناه سيستذلنا ويستذلكم ، فلا بُدَّ أنْ تنجدونا بقوتكم ، لكن قريشاً يعلمون أن اليهود أهلُ كتاب ، فقالوا لهم : نريد أنْ نسألكم أولاً : أمحمد على حق أم نحن ؟

وهم يعلمون موقف اليهود من قبل من رسول الله ، وأنهم كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ويقولون : سيأتى نبىّ أظلَّ زمانه سنتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم[٣] . المهم أنهم قالوا لهم : إنكم على حق ومحمد على باطل . وفعلاً اتحدوا فى محاربة رسول الله ﷺ ، هذه الحرب التى قال الله فيها عن المؤمنين : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) هو : حُيى بن أخطب النضرى ، جاهلى من الأشداء العتاة ، كان يُنعت بسيد الحاضر والبادى ، أدرك الإسلام وآذى المسلمين فأسروه يوم قريظة ثم قتلوه .. توفى عام ٥ هجرية - ٦٢٦ م . الأعلام للزركلى ٢/٢٩٢ .

(٢) سلام بن مشكم القرظى : شاعر يهودى ، يكنى أبا غنم ، كان سيد بنى النضير فى زمانه وكان صاحب كنزهم ، كان ممن يقول أن عزير ابن الله . وكانت امرأته زينب بنت الحارث اليهودية هى التى حاولت سمّ رسول الله .

(٣) يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة] أخرج أبو نعيم الأصبهانى فى دلائل النبوة (٥٢/١) عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء : يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا ، وقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد وإنّا أهل الشرك ، وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم : ما هو بالذى كنا نذكر لكم ما جاءنا بشىء نعرفه ، فأنزل الله الآية .

وسُـميت هذه الـغزوة غـزوة الأحزاب أو الـخندق ، ويأتى جند من جنود الله ﴿ وَمَـا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١) ﴾ [المـدثر] ويذهب إلى رسـول الله ﷺ ويقول له : يا رسـول الله لقـد أُشْرِب قلبى الإيمـان ولا يعلم أحدٌ بإيمانى وأنا أشهـد أنك رسول الله ، واسم هذا الرجل نُعيم بن مسعـود الأشجعى[١] فقال له رسـول الله : « أنت رجل واحد وما غناؤك لى ، لكن اكتم إيمانك وخذِّل عنا »[٢] .

هذه أول مسألة فى قـضية كتم الإيمان ، إذن : فَـكتْم الإيمان جائز وله مـهمة . فـقال الرجل : لكـن يا رسول الله سـأضطر لأنْ أقول غـير الحقيقة - أكذب يعنى - قال : (افعل ما تحب) .

فما كان من نُعيم بن مسـعود إلا أن ذهب إلى قريش وغطفان وقال لهم : أنتم تعلمون وُدِّى لكم ومحبتى إياكم وقـد جئتكم بنصيحة لأبرىء ذمتى من الوفاء لكم . إن اليـهود ندموا على معاداة مـحمد وهم يريدون أنْ يتراجعوا ولن يتراجعوا إلا بشىء تكون لهم يد يطمئنون إلى معاهدة محمد .

فإذا أردتم أنْ تناجزوا[٣] محمـداً مع هؤلاء وتضمنوا عدم خيـانتهم

---

(١) هو : نعيم بن مـسعود بن عـامر الأشجـعى ، صحابى من ذوى العـقل الراجح ، قدم على رسول الله سراً أيام الخندق واجتماع الأحزاب وكتم إسلامه ، فألقى الفتنة بين قبائل قريظة وغطفان وقريش سكن المدينة ومـات فى خلافة عثمان . وقيل : قُـتل يوم الجمل قبل قدوم على إلى البصرة . توفى نحو ٣٠ هجرية . الأعلام للزركلى (٨/٤١) .

(٢) أورده الأبشيهى فى كتابه « المستطرف فى كل فن مستظرف » أن رسـول الله ﷺ قال له : خذّل عنا فـإن الحرب خـدعة . وأخرجـه الطبرى فى تهذيب الآثـار (٤/١٧٥) وأبو نعيم الأصبهانى فى معرفة الصحابة (حديث ٥٧٩٧) .

(٣) المناجزة فى القتال : المبارزة والمقاتلة ، وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحـبه أو يُقتل أحدهما . وتناجز القوم : تسافكوا دمـاءهم كأنهم أسرعوا فى ذلك . [لسان العرب - مادة : نجز] .

فسوف يطلبون منكم سبعين رجلاً رهينة من قريش وغطفان مخافةَ أنكم إذا اشتدتْ الحرب وحميَتْ تتركوهم وترجعوا إلى بلادكم ويظلُّون هم فى مواجهة محمد ويكونون هم أعداءه .

ثم ذهب إلى اليهود فقال لهم : أنتم تعلمون مودتى لكم ومحبتى إياكم ، وإن هؤلاء القوم يعنى قريشاً وغطفان ليسوا من بلدكم ولهم مكانتهم فى بلادهم ، ولهم أموالهم وأهلوهم ، فإن استشعروا شيئاً فرُّوا وتركوكم فى مواجهة محمد ، فلتأخذوا منهم سبعين رجلاً رهينة حتى تضمنوهم .

فلما جاء أبو سفيان وقال : لقد طال بنا الموقف وتعب الخُفّ والحافر وطالت المدة ، فيا معشر يهود هيا لننجز مهمتنا ، قالوا : هذا يوم السبت ولا نقاتل فيه ، ونحن لا نقاتل الرجل إلا أن نضمن أنكم معنا إلى نهاية المعركة فأعطونا سبعين رجلاً منكم رَهْناً .

عندها علم أبو سفيان أن كلام نعيم صحيح ، فقال : ليس لنا إلا أن نعود إلى بلادنا ، ثم قال : يا قوم لينظرْ كل واحد منكم مَنْ عن يمينه ومَنْ عن شماله لأننا سنقول كلاماً مهماً .

وكان النبى ﷺ قد أرسل إليهم سيدنا حذيفة ، فكان بين صفوفهم فبادر مَنْ عن يمينه وسأله : مَنْ أنت ؟ ومنْ عن شماله وسأله : مَنْ أنت ؟ وكانت فطنةً ولباقة منه حتى لا يسأله أحد ولا ينكشف أمره[1] .

بعد ذلك قال أبو سفيان : لم يَعُدْ أمامنا إلا الرحيل حتى لا نقع فى مخالب اليهود فهيا ، وضرب راحلته فقامت وهى معقولة فانقطع العقال .

---

(١) أورده السهيلى فى كتابه « الروض الأُنُف » (٣/٤٣٣) ، فى قصة الأحزاب وتجمعهم لغزو المدينة .

الشاهد هنا أن نعيم بن مسعود كتم إيمانه عن القوم ليتمكن من القول الذى قاله ، وإنْ كان غير الواقع ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن استأذن فيه رسول الله ، وهذا دليلٌ على أن كتم الإيمان جائز وأن له مُهمة .

كذلك سيدنا العباس رضى الله عنه لا شكَّ أنه كان قد آمن برسول الله ، لأنه ساعة أخذ العهد[1] لرسول الله وكان لم يعلن إسلامه بعد ، ذهب وقال : هذا محمد فى مَنَعة من قومه ، فإنْ شئتم أنْ تأخذوه فعاهدوه على كذا وعلى كذا وإلا فاتركوه ، فكيف يأخذ العهد لرسول الله وهو ما يزال على دين قريش ؟

إذن : لابدَّ أنه كان يكتم إيمانه حتى لا تجرؤ قريش على إيذاء رسول الله الإيذاء البالغ إكراماً لعمه العباس . فهذه مهمة كتم الإيمان ، لذلك يقول تعالى : ﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)** ﴾ [النحل]

وفى غزوة خيبر كان فى اليهود رجل اسمه الحجاج بن علاط السُّلَمى[2] جاء فى هذه الغزوة وذهب إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، لقد شرح الله صدرى للإسلام وأشهد ألا إله إلا الله وأنك

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤٤٦) من حديث كعب بن مالك من حديث طويل أنه لما كانت الليلة التى واعدنا فيها رسول الله ﷺ بمنى أول الليل مع قومنا فلما استثقل الناس فى النوم تسللنا من قريش تسلُّل القطا ، حتى إذا اجتمعنا بالعقبة ، فأتانا رسول الله ﷺ وعمه العباس ليس معه غيره ، أحب أن يحضر أمر ابن أخيه فكان أول متكلم فقال : « يا معشر الخزرج : إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وهو فى منعة من قومه وبلاده قد منعناه ممن هو على مثل رأينا فيه ، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم وإلى ما دعوتموه إليه ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه فأنتم وما تحملتم ، وإن تخشون من أنفسكم خذلاناً فاتركوه فى قومه فإنه فى منعة من عشيرته وقومه .

(٢) هو : الحجاج بن علاط بن خالد بن ثويرة ، له صحبة . السلمى ثم الفهرى يكنى أبو كلاب ، قدم على النبى ﷺ وهو بخيبر فأسلم وسكن المدينة واختط بها داراً ومسجداً الإصابة فى معرفة الصحابة (١/٢١٢) .

رســـول الله ، وأنا ذاهبٌ الآن إلــى مكة لأمــوال لى هـناك وأمــانات أستردها ؟ وسوف يســألوننى فاسمح لى أنْ أقول[1] قال له (قُلْ ما تشاء) .

وذهب الـحـجـاج إلى قريـش فقـالوا : لابدَّ أن عند هذا الـخـبـر ، وسألوه : هـل ذهب القاطع إلى خـيبـر ؟ يقصدون رســول الله لأنهم كانوا يتهمونه بقطع الأهل والعشيـرة بعد بعثته ﷺ فقال : نعم وهُزِم هناك هزيمةً منكرة وقُتل أصحابه ، وسيأخذه اليهود أسيراً ويأتون به إليكم ليـصنعوا معكـم يداً تظل عليكم لهم طوال العمـر ، وقد جـئتكم لآخـذ أموالى التـى عند الناس حتـى أذهب إلى السَّبْـى قبل أنْ تُبـاع فأشترى منه ، فأخذوا يساعدونه فى جمع أمواله ويُيسِّرون له مهمته .

بلغتْ هذه المـقالة العبـاس فذهب إليه وقـال له : يا حجـاج ماذا تقـول ؟ قال : هو مـا سـمـعت ، قال : أو حَقٌّ ذلك ؟ قـال : أفـتكتُم علىَّ ؟ قال : والذى نفسى بيده أكـتم عليك ، قال : أمهلنى حتى يخلو موضعى من الناس ، فجلس مُدة ثم ذهب إليه فقال : والله الخبر الذى بلغك عنى لم يحدث منه شىء ، بل تركتُ مـحمداً منتصراً فى خـيبر وعروساً على صفية بنت حيى بن أخطب ، ولكنى احتلتُ لآخذ أموالى من هؤلاء ، فاكتُمْ أمرى واستر علىَّ ثلاثة أيام حتى أُعجز القوم وأفرّ ثم أشِعْ ذلك ما شئتَ .

وبعـد ثلاثة أيام تطيَّب العبـاس بالطِّيب وأمـسك عصـاه ثم طاف بالبيت فلقـيه واحد منهم وقال : والله لهذا هو التـجلُّد يا أبا الفضل . يقصد بذلك الـمصيبة التى وقـعت لابن أخيه ، فقال الـعباس للرجل :

---

(١) أى : أن يقول مـا يستطيـع به أن يخدع المشـركين إلى أن يأخـذ ماله الذى عنـد امرأته . فأذن له رسول الله .

والذى حلفتَ به ما هو تجلّد ولكنه حقيقة الأمر ، لأن صاحبكم أخبركم بخلاف الواقع وابن أخى انتصر على أعدائه وهو عروسٌ على بنت حُيى بن أخطب فى خيبر ، قال : أو يكون ذلك ؟ قال : هكذا ، قال : أفلتنا الخبيث فأوْلَى له[1] .

نقول : كتم هؤلاء إيمانهم ليتمكنوا من نُصْرة الدين وليكونوا جنداً من جنوده ، وللإسلام جنديات مختلفة : جندية العلانية ، وجندية الكتمان ، وجندية التجسس على الأعداء .

بعض المفسرين[2] قال : ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ (٢٨) ﴾ [غافر] أى : من آل فرعون ، وهذا غير صحيح بدليل أنه سيقول ويخبر بهذا الإيمان ويُفصله كأنه رسول ، ولو كان الكتمان من آل فرعون لَقَال : يكتم إيمانه آل فرعون لأن الفعل (كتم) يتعدى بنفسه إلى مفعولين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢) ﴾ [النساء]

لكن ماذا قال الرجل المؤمن ؟

قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ (٢٨) ﴾ [غافر] تأمل جرأة الحق من هذا المؤمن ، فهو يجهر بهذا الاستفهام الإنكارى ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً (٢٨) ﴾ [غافر] يجهر به أمام فرعون . ﴿ أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ (٢٨) ﴾ [غافر] أى : بسبب قوله ربى الله فلا جريرةَ له غير هذا ، يقولها الرجل المؤمن علانية أمام فرعون ، وما أدراك ما فرعون ، إنه الوحيد

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده من مسند أنس بن مالك ، والبيهقى فى السنن الكبرى (٩/١٥١) وعبد الرزاق فى مصنفه (حديث ٩٧٧١) (٥/٤٦٦) وابن سعد فى الطبقات الكبرى (٢/١٠٨) .

(٢) ما ذهب إليه ابن كثير فى هذا الأمر أنه قال (٤/٧٧) : « قد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ .. (٢٦) ﴾ [غافر] » .

الذى ادعى الألوهية وقال لقومه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴿٣٨﴾﴾ [القصص] فلا شكَّ أن كلمة الرجل المؤمن تغيظه وتهدم أركان ألوهيته المدَّعاة .

وقوله : ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر] أى : بالآيات الواضحات فكيف يُقتل ؟ ولنفرض أنه كذاب فلا يضيركم كذبه ، لأنه كذب على الله وسوف يتحمل عاقبة هذا الكذب ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر] يعنى : وإنْ كان صادقاً لم تُحرموا خيره وأصابكم بعض هذا الخير . إذن : لماذا تقتلونه ؟ فالاحتياط ألاَّ يُقتل .

لكن ، هل معنى ذلك أن نترك كلَّ ملحد يقول ما يحلو له ويخوض فى أمور الدين ولا نمنعه اعتماداً على ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر] قالوا : لا بل يجب أنْ نُقدِّر هنا جملة : امنعوه أن يقول لكن لا تقتلوه . كثيراً ما نسمع عن الزنادقة الذين يخوضون فى دين الله الآن ، فماذا نفعل ؟ أنتركهم ونقول : عليهم كذبهم ؟

لا إنما يجب أنْ نتصدَّى لهم ونمنعهم من هذا الهراء ، ونأخذ على أيديهم حتى لا يُحدثوا ما يضر بدين الله . كذلك قال الرجل المؤمن من آل فرعون يدافع عن سيدنا موسى عليه السلام كأنه يريد أنْ يستبقى حجة الحق لعله تُوجَد آذان فيما بعد تنصره .

ثم يقرر الحق سبحانه هذه الحقيقة : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر] هذا الكلام يُعَد تعريضاً وطَعْناً فى فرعون ، فالحق سبحانه لا يترك أحداً يكذب عليه دون أنْ يفضح كذبه ، لماذا ؟ لأن سَتْر هذا الكذب يُعتبر تدليساً فى منهج السماء ، وحاشا لله تعالى ذلك ، لذلك نرى كلَّما ادَّعى أحدٌ النبوةَ افتُضِح أمره

وعلم الناس كذبه ، لأنه لا يصح أنْ يدَّعى كذابٌ النبوة ، ولا يظهر الله للناس كذبه ، وهذا مُتضمَّنٌ فى قوله تعالى وفى وعده : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٥١) ﴾ [غافر]

وفى قوله : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ(١) فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩) ﴾

قوله : ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (٢٩) ﴾ [غافر] هذا كلام الرجل المؤمن ينصح قومه . نعم لهم المُلْك أى : مُلْك فرعون وجبروته وسطوته وادعاؤه للألوهية .. إلخ و﴿ ظَاهِرِينَ فِى الأَرْضِ (٢٩) ﴾ [غافر] يعنى : منتصرين وعالين على غيركم ، لكن احذروا فهذا حال موقوت لا يدوم لكم فهو مُقيَّد ﴿ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (٢٩) ﴾ [غافر] وكأنه يقول لهم : احذروا أنْ يضيع هذا المُلْك من أيديكم .

فربما كان هذا الرجل - أى موسى عليه السلام - صادقاً فيجمع حوله الأتباع والأنصار ، ويقضى على هذا الملك ، فاستبقوا إذن ولو الضلال الذى أنتم عليه ولا تدخلوا معه فى صدام لا تعلمون عاقبته ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا (٢٩) ﴾ [غافر] لا أحدَ ، لأن بأسَ الله وانتقامه فى تأييد رسله بأسٌ لا يُرَدّ ولابدَّ أنْ يدمر المخالف

(١) ظاهرين : أى عالين ذوى مكانة ورفعة . [القاموس القويم ١ / ٤٢٠] فلان ظاهر على فلان أى غالب عليه . وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ [الصف] أى : غالبين عالين . [لسان العرب - مادة : ظهر] .

فـاحذروا ، هكذا يـتحـدث الرجل المـؤمن بمنطق الإيمـان الراسـخ فى نفسه ويصدق قومه لا يغشـهم .

وهنا لا بُدَّ أنْ ينتـفضَ فرعـون ، وأنْ يحـاول القبض على زمـام الأمور لصالحه : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) ﴾ [غافـر] لاحظ منطق التـسلط فـى ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ (٢٩) ﴾ [غافر] ومنطق التزييف فى ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) ﴾ [غافر]

لكن هذا من فرعون لم يمنع الرجل المؤمن أنْ يـستمر فى دعوته ولم يصدَّه أنْ ينصح قومه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ[1] قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) ﴾

هنا يستـمر الرجل المؤمن فى نُصْحـه لقومه ، فكلمة فـرعون لم تُخفهُ ولم تصدّه عن دعـوته ، فيقول : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْـزَابِ (٣٠) ﴾ [غـافـر] يعنى : إنْ كنتم ظاهرين الآن فى الأرض ولكم الغلبة ، فلستم أظهر ممن سبقوكم فى موكب الرسالات من أول نوح وعاد وثمـود والذين من بعدهم ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) ﴾ [غافر]

وقد أرانا الله العجب فـيمن كذَّب الرسل ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم

(١) دأب على الأمر : اعتـاده . والدأْب والدأَب : العادة والشأن . فقـوله تعالى : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٣١) ﴾ [غافر] أى : عادتهم وشأنهم . [القاموس القويم ١ / ٢١٩] .

مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْه حَاصبًا[1] وَمنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ[2] وَمنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِه الأَرْضَ وَمنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا [3] وَمَا كَانَ اللَّهُ ليَظْلمَهُمْ وَلَكن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

إذن : عليكم أنْ تأخذوا ممن سبقوكم فى التكذيب عبرة ، خاصة وأنتم تشاهدون آثارهم فى الأرض التى تدل على أنهم كانوا أقوى منكم وآثاراً فى الأرض ، ومع ذلك لم تنفعهم قوتهم ، ولم تمنعهم آثارهم من بأس الله حين نزل بهم ، وما أبقى الله على هذه الآثار إلا لتكون عبرة لمن بعدهم ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

ولو انطمستْ آثارهم لم تكُنْ هناك حجة واقع ، فبقاء الآثار إلى الآن تبين لنا أن الذين صنعوا هذه الحضارات وتركوا هذه الآثار لم يستطيعوا أنْ يحموا حضاراتهم ، وكانوا أكثر منكم قوة وآثاراً فى الأرض وعمروها أكثر منكم ، فما دام قد حدث هذا فى الواقع وأنتم تشاهدونه فخذوه قولاً من الرسول وواقعاً أمامكم فى الكون .

ونلاحظ هنا أن كلمة (يَوْم) جاءت مفردة و (الأحزاب) جمع فلماذا لم يَقُل مثلاً (أيام الأحزاب) ، والحزب هم الجماعة المناهضون للرسول المكذبون له ، فحزب مناهض لنوح ، وحزب مناهض لهود ، وآخر لصالح .. الخ .

---

(١) الحاصب : ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه وهم قوم عاد . [تفسير ابن كثير ٣/٤١٣] .

(٢) الصيحة : عذاب يصحبه صوت شديد يخمد أصوات المعذَّبين ويشلهم عن الحركة . [القاموس القويم ١/٣٨٦] قال ابن كثير فى تفسيره : « هم قوم ثمود » .

(٣) المقصود بمن أُغرقوا : هم فرعون وجنوده وملؤه ، الذين أغرقوا فى البحر بعد انطباقه عليهم .

إذن : فالأيام هنا متعددة ، ومع ذلك قال : ﴿ مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) ﴾ [غافر] فوحَّد اليوم وجمع الأحزاب ، لماذا ؟ لأن العملية كأنها حدثٌ واحد مُتحد فى الجميع ، وإنْ تعددتْ الأحزاب بتعدُّد الرسل فهو يوم الأحزاب لا أيام الأحزاب ، لأننا لو قلنا : أيام الأحزاب لكان لهذا يوم بسبب ، ولهذا يوم بسبب آخر وهكذا ، لكنه سبب واحد فى جميع الحالات ، ألا وهو التكذيب فى مقام العقيدة ، وفى مقام تشريع الحق سبحانه للخلق .

ثم بعد ذلك يُفصل ما أجملته كلمة الأحزاب : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) ﴾ [غافر] يعنى : لم يأخذهم هذه الأَخْذة ظلماً لهم ، وكلمة (للعِبَاد) يعنى : كيف يظلمهم وهم عباده وصنعته ، إنما أخذهم جزاءَ أفعالهم وتكذيبهم لرسلهم ليكونوا عبرة واقعية فى الكون يعتبر بها كل مَنْ يعارض منهج الحق .

﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ[1] (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾

---

(١) التناد (بكسر الدال) بمعنى المناداة . ومنه الأمثلة التى سيوردها فضيلة الشيخ من آيات نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار ، وكذلك نداء أهل النار أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء ، وكذلك مناداة أصحاب الأعراف .

وقد ورد فى هذه الكلمة قراءتان أخريان :

« التنادى » بإثبات الياء فى الوصل والوقف على الأصل . وهى قراءة الحسن وابن السميقع ويعقوب وابن كثير ومجاهد .

أما القراءة الأخرى فهى « التنادّ » بتشديد الدال . قال أبو جعفر النحاس : القراءة بها حسنة على معنى يوم التنافر . قال الضحاك : ذلك إذا سمعوا زفير جهنم ندُّوا هاربين ، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه .

يوم الأحزاب كان فى الدنيا ، أما يوم التناد فـيوم القيامة ، فكأنه حـذَّرهم بيـوم الأحزاب من المـصـائب التى تأتيـهم فى دنيـاهم ، ثم حذرهم بيوم الجزاء يوم القيامة فقال : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [غافـر] والتناد تفـاعل يعنى : تناديني وأناديك ، والتنادى يوم القيـامة سيكون مـن وجوه عدة ، يقـول تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴿٧١﴾ ﴾ [الإسراء] وهذا أول نداء ، يقول : يا أمة محمد ، يا أمة عيسى ، يا أمة موسى .. الخ أو أن ينادى بعضهم بعضاً .

وقد ذكـر الحق سبحانه صـوراً متعددة من هذه النداءات ، فـقال سبحانه : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ ..﴿٤٨﴾ ﴾ [الأعراف] وأصحاب الأعـراف جماعة اسـتوت حسناتهم وسيـئاتهم ولم يدخلوا الجنة ، ومع ذلك يشمتون في الكفار .

أو : أن التناد ليس من مناداة بعضنا لبـعض ، إنما هو من الفعل (ندَّ) يعنى : بعُد وشرد ، يعنى : يوم التناد يوم تشرد منى وأشرد منك ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [عبس] والمـراد : يفر منهم وهم كـذلك يفرون منه ، فكلٌّ يهرب من الآخر لانشغاله بنفسه .

لكن ماذا يقصد الرجل المؤمن بذلك ؟ قالوا : يريد أن يقول لهم : إنْ كنتم تظاهرون بعضاً على الباطل فى الدنيا فـاعلموا أنكم ستفرون من بعض فى الآخرة ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [غافر]

وتأمل هنا حبكة الأداء القرآنى ، فحينمـا يأتى بلفظ يحمل معنيين أو يجمع بين مـعنيين يأتى بما يدل على كل منهـما ، فهنا مثـلاً قال ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) ﴾ [غافر] بمعنى المناداة . وقال : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ (٣٣) ﴾ [غافر] بمعنى الفرار ، فجمع بين المعنيين فى كلمة (التناد)

ومن ذلك أيضاً قوله تعـالى فى سورة الرحمن ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) ﴾ [الرحمن] فالشـمس والقمر مـخلوقات علويـة ، والشجـر أرضـى وبينهـما كلـمة (النجم) ولهـا معنيان : الأول : المتبـادر إلى الذِّهْن هو النجم العالى فى السماء من جنس الشـمس والقمـر ، والآخر (النـجم) بمعنى : العُشْب الذى لا ساقَ له ، وهو جنس الشجر .

وقوله : ﴿ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾ [غافـر] (مِنْ عَاصِـم) يعنى : لا أحد يسـتطيع أن يمنعكم من الله ، ولا يدفع عنكم بأساً إِنْ نزل بكم ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾ [غافـر] يعنى : من يحكم الله بضـلاله لا يهـديه أحد ، لمـاذا ؟ قالوا : لأن الله تعالى سيعينه ويُمكنه من الضـلال .

لذلك قلنا : إذا أحبَّ العبدُ شيـئاً قال الله لعبده : أحببـته يا عبدى سأبليك به ، كمن مـات له عزيز مثلاً فحزن عليـه حزناً شديداً وبالغ فيه واستمرأ الحزن ، فيقـول الله له : أحببتَ الحزن وعشقته ، سوف أزيدك منه ، كلما تقادم جددته لك .

لذلك قال أهل المـعرفة : أغلقوا أبواب الحـزن بمسامير الرضا ، لأنكم إنْ ألفتم الحزن وعشقتـموه أدامه الله عليكم ، لأنه سبحانه ربكم والمتولى لأموركم ، ويعطى كلاً منكم بُغْـيته ، حتى الكافر الذى أحب الكفر وعده الله أنْ يـعينه عليه ، لذلك يختم على قلبـه بحيث لا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر .

ثم يستمر الرجل المؤمن من آل فرعون فى نصحه لقومه فيقول[(١)] :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

لما جاء يوسف عليه السلام لم يكُنْ فى زمنه فرعونٌ على مصر ، إنما كان هناك ملك هو العزيز ، لذلك لما تقرأ قصة سيدنا يوسف عليه السلام لا تجد ذكراً لفرعون أبداً كما فى قصة سيدنا موسى ، ولما عرفنا أحداث التاريخ المتعاقبة واستطعنا أن نُرجع الأحداث إلى أزمانها عرفنا أن يوسف كان فى فترة ملوك الرعاة (الهكسوس) ، وهؤلاء بعد أنْ دخلوا مصر قضوا على حكم الفراعنة وألغوا الفرعونية وجعلوا أنفسهم ملوكاً ، لذلك يقول فى القصة ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف] ولم يقُلْ فرعون .

ولما عادتْ الفرعونيةُ مرة أخرى أخذوا يضطهدون بنى إسرائيل لأنهم كانوا يناصرون الملك ويؤيدونه .

قوله ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] أى : الآيات الواضحات الدالة على صدقه فى البلاغ عن الله ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر]

---

(١) ذهب القرطبى فى تفسيره (٥٩٦١/٨) إلى أن هذا القول من كلام موسى عليه السلام لقومه . ولكنه قال : « وقيل : هو من تمام وعظ مؤمن آل فرعون ذكَّرهم قديم عتوهم على الأنبياء » .

أى : تشكُّون فى صدق رسالته[1] ﴿ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] يعنى : مات ﴿ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] قالوا : ذلك لأنهم ينكرون الرسالة ، فهم فى أنفسهم منافقون ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] يعنى : متجاوز للحد ﴿ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] شاكٌّ فى الرسالة مُكذِّب لها .

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهل هناك جدل فى الله وله سلطان يؤيد ؟ قالوا : نعم الجدل المقصود جدلٌ فى الله . يعنى : فى أمر الله للإثبات ، وجدل من المقابل لنفيه . وقلنا : إن الآيات تأتى على معان ثلاثة : آيات كونية تدل على طلاقة قدرة الخالق سبحانه ، وآيات لإثبات صدْق الرسل فى البلاغ عن الله وهى المعجزات وآيات القرآن التى تحمل الأحكام . ففى أىِّ هذه الأنواع كانوا يجادلون ؟

أولاً : جادلوا فى آيات المعجزات وقالوا عنها سحر ، والرد على هذا الادعاء سهل ، إذ نقول لهم : الذى سحر الناس فآمنوا به ، لماذا لم يسحركم أنتم أيضاً لتؤمنوا به وعندها تنتهى المسألة ؟

كذلك جادلوا فى آيات الأحكام ، لماذا ؟ لأن كل حكم يُنزله الله

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٧٩/٤) لفتة فى مسألة أن المصريين ظلوا فى شك مما جاءهم به يوسف عليه السلام ، فقال : « كان يوسف رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوى » .

على عباده يمنع طغيان جيل فى جيل أو فرد فى فرد ، وهذا ينافى مصلحة أهل التسلط والكبرياء فى الأرض ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾[القصص]

أما الآيات الكونية التى تثبت قدرة الخالق سبحانه كالشمس والقمر والنجوم وغيرها فليست مجالاً للجدل ، لذلك لم يجادلوا فيها .

ومعنى ﴿ كَبُرَ مَقْتًا (٣٥) ﴾ [غافر] أى : أن هذا الجدل فى آيات الله بغير حَقٍّ جدلٌ ممقوت يبغضه الله بغضاً كبيراً ، ويبغضه الذين آمنوا الذين يحرصون على دين الله وتقوية دواعى الإيمان به فى النفوس :

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ[1] اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) ﴾ [غافر] معنى ﴿يَطْبَع ﴾ أى : يختم على قلبه . والمتكبر : هو الذى يفتعل الكبر ويدعيه وليس عنده مبرراته ، فهو يتكبر بلا رصيد عنده للكبر . لذلك ورد الحديث القدسى الذى يوضح هذه المسألة ، ويقسم المجتمع الإيمانى إلى اثنى عشر قسماً ، ست منها فى المحبوبية : منها ثلاثة للمحبوبية العليا ، وثلاثة للمحبوبية الأقل . وستٌّ أيضاً للمبغضين منها ثلاثة للمبغضين ، وثلاثة للمبغضين أقلّ ، فانظر فى أيِّها يكون المتكبر .

قال تعالى فى الحديث القدسى : « أحب ثلاثاً وحبى لثلاث أشدّ : أحب الفقير المتواضع وحبى للغنى المتواضع أشدّ ، وأحب الشيخ الطائع وحبى للشاب الطائع أشدّ ، وأحب الغنى الكريم وحبى للفقير الكريم أشدّ . وأبغض ثلاثاً وبغضى لثلاث أشدّ : أبغض الغنى المتكبر وبغضى للفقير المتكبر أشدّ ، وأبغض الشاب العاصى وبغضى للشيخ

---

(١) الطبع فى أصل اللغة : الختم وهو التأثير فى الطين ونحوه . وأصل الطبع الصدأ يكثر على السيف وغيره . قال أبو إسحاق النحوى : معنى طبع فى اللغة وختم واحد ، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن لا يدخله شيء . [لسان العرب – مادة : طبع] .

العاصى أشدّ ، وأبغض الفقير البخيل وبغضى للغنى البخيل أشدّ »[١]

ففى ضوء هذا الحديث نتعلم أن المجتمع الإيمانى ينبغى أن يكون غنيه متواضعاً ، وفقيره كريماً ، وشبابه طائعاً . هذه صورة أرقى المجتمعات وأعلاها يأتى بعده فى المرتبة مجتمع : فقيره متواضع ، وغنيه كريم ، وشيخه طائع .

إذن : قلنا إن المتكبر مَنْ يتكبّر وليس عنده مبررات الكبر ، فماذا لو كان عنده مبررات الكبر ؟ نقول : إنْ كان عنده مبررات الكبر فإنه ينقصه أنه يتكبر بشىء غير ذاتى فيه ومن الممكن أنْ يُسلب منه ، كمن يتكبر بعافيته فقد يسلبها الله منه لأنها عَرَضٌ زائل عنك ، ثم إن المتكبر حينما يرى مَنْ هو أكبر منه يتضاءل فى كبريائه ، ولو أنه رأى ببصيرته كبرياء ربه لما تكبَّر .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا[٢] لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

---

(١) أورد أبو الليث السمرقندى نحو هذا فى كتابه « تنبيه الغافلين » الباب ١٩ فى الحسد والنهى عنه (ورقة ٥٨ مخطوط الأزهرية ٣٠٧٠٧١) أورده بلفظ يقال بصيغة التمريض وهى صيغة تضعيف ، ولم يذكر له راوياً أو سنداً ولفظه : « إن الله يبغض ثلاثة وبغضه لثلاثة أشد ، يبغض الفاسق وبغضه للشيخ الفاسق أشد ، ويبغض البخلاء وبغضه للغنى البخيل أشد ، ويبغض المتكبرين وبغضه للفقير المتكبر أشد . ويحب ثلاثة نفر وحبه لثلاثة منهم أشد ، يحب المتقين وحبه للشاب التقى أشد ، ويحب الأسخياء وحبه للفقير السخى أشد ، ويحب المتواضعين وحبه للغنى المتواضع أشد » .

(٢) الصرح : القصر العالى ، قال تعالى فى قصة سليمان عليه السلام وبلقيس ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل] [القاموس القويم ١/٣٧٣] والصرح أيضاً وهو المقصود من أمر فرعون لهامانَ ببناء صرح : بيت واحد يُبنى منفرداً ضخماً طويلاً فى السماء . [لسان العرب – مادة : صرح].

يأمر فرعونُ وزيره ومعاونه هامان أنْ يبنى له بناءً شامخاً يصعد عليه ، لعلَّه يرى هذا الإله الذى يدعو موسى إلى عبادته ، كأن الصَّرْح سيُوصِّله لرؤية الإله ، والله الإله الذى تراه من صرح لا يصح أنْ يكون إلهاً ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر] أى : ضلال وخُسْران ، فلن يظل كذلك ، ولكن سيعلو ويعلو إلى أنْ يفضحَ اللهُ أمره يوم الغرق .

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾

هذا قوْل الرجل المؤمن من آل فرعون يعظ قومه وكأنه نبىّ ، فإنْ قُلْتَ : وماذا أسكته عن فرعون حتى وصل بضلاله إلى أنْ يدَّعى الألوهية ؟ قالوا : هذه من ضمن قولنا إن للحق صَوْلة لكن لها وقتها المناسب ، وساعةَ ينطق الحق على لسان هذا المؤمن فكأن الحق سبحانه هو الذى يتكلم ، لذلك لم يعارضه أحدٌ لأن وارد الرحمن لا يُعارَض إنما يُعارض وارد البشر .

لذلك لما قال الحق سبحانه :﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ[(١)] وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] لم تعارض هذا الرأى ، ومَنْ يقول للمرأة : إنْ خافت على وليدها ألقيه

---

(١) اليم : يطلق على ما كان ماؤه ملحاً شديد الملوحة ، وعلى النهر الكبير العذب الماء ، والمقصود هنا هو نهر النيل بمصر، وقد خطَّأ ابن منظور فى لسان العرب (مادة يمم) الليث فى قوله : اليم البحر الذى لا يدرك قعره ولا شطّاه ، فإن الله قال : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ..﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] فجعل له ساحلاً أى : شاطئاً .

فى اليم ؟ والله لو قالها أحدٌ غير الحق سبحانه لَعُورضت لكن قبلتها أم موسى ولم تعترض ، لأن وارد الرحمن لا يُعارض ولا يُناقَش ، وإلا لكانَ لها أنْ تقول : أأنجيه من موت مظنون إلى موت مُحقَّق ؟

إذن : لا عجبَ أنْ يقول الرجل المؤمن هذا الكلام على مَرْأىً ومَسْمع من فرعون ، ومع ذلك لم يعارضه .

﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) ﴾ [غافر] هذه تلفتنا إلى أن الإنسان فى أحداث الحياة معه لابدَّ له أن يخدم غاية ، ويُشترط فى الغاية التى تخدم ألاَّ يكون بعدها غاية أخرى ، فإنْ كان بعدها غايةٌ أخرى فليستْ بغاية ، بل هى مرحلة مُوصِّلة للغاية ، مثل الولد تعلمه ليأخذ الإعدادية مثلاً ، فهل الإعدادية غاية ؟ لا إنما هى مرحلة مُوصِّلة إلى مرحلة أخرى هى الثانوية ، كذلك الثانوية مرحلة مُوصِّلة إلى ما بعدها . فالشىء ما دام له بَعْد فليس بغاية ، الغاية هى التى ليس لها بَعْد ، لذلك يقول لهم الرجل المؤمن : إن الدنيا كلها بما فيها متاع مجرد متاع ليست غاية ، إنما الغاية الحقيقية هى الآخرة .

والنظرة المتأملة ترى أن الإنسان له عمر مظنون فى الكون غير مُحدَّد أبهمه الله ، وجاء هذا الإبهام عين البيان وأرفع درجاته ، لأنه سبحانه حين أبهمه فى الزمان وفى المكان جعلنا نتوقعه وننتظره فى كل لحظة وفى أىِّ مكان ، لذلك قالوا[1] : الموت سهمٌ أُرسِل إليك وهو فى الطريق إليك بالفعل وعمرك بقدر سفره إليك .

---

(١) من أقوال عبد الله بن المعتز ، عزاه إليه أبو منصور الثعالبى فى « الإعجاز والإيجاز » : « الموت سهم مرسل إليك ، عمرك بقدر سفره إليك » ، وكذلك الحصرى القيروانى فى كتابه « زهر الآداب وثمر الألباب »

وحين تتأمل الكون من حولك تجد الخالق سبحانه خلق لك كوناً منسجماً يخدمك ، شمس وقمر ونجوم وهواء وماء ونبات .. الخ فانظر يا مَنْ خُلقت له هذه الأكوان كيف تفنى أنت وتبقى هى ، تموت أنت والشمس كما هى والقمر والنجوم والهواء والماء ، لم يتغير فى كون الله شىء ، حتى الماء الذى نظنه ينقص هو فى الكون كما هو منذ خلقه الله لا يزيد ولا ينقص .

فالماء الذى أخذته من الكون فى حياتك خرج منك مرة أخرى فى صورة عرق وفضلات ، حتى النسبة التى تبقى فينا بعد الموت تخرج وتمتصّها الأرض ، كذلك الماء فى الوردة مثلاً وفى كل الكائنات ، إذن : فالكون كله كذلك عبارة عن تغيُّرات فى مُتحد .

لكن أيُعقل أن يكون الخادمُ أطولَ عمراً من المخدوم ، أموت وتبقى الشمس التى تخدمنى والتى خُلقت من أجلى ؟ نعم لتعلم أنَّ خادمك أطول عمراً منك فى الدنيا مع أنك المكرَّم المخدوم ، إذن : لا بدَّ أن لى عمراً آخر يناسب هذا التكريم ، عمراً يبقى بعد فناء هذه المخلوقات حيث تنتهى الشمس والقمر والنجوم .. وأبقى أنا ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾ [إبراهيم]

ولا بدَّ للمؤمن أن يقول بهذا اليوم ، وأنْ يؤمن به ليكون هو المكرَّم حقاً وهو الأطول عمراً . حتى الموت نفسه يموت وتبقى أنت فى الآخرة خالداً لا تفوتك النعمة ولا يدركك الموت .

لذلك يريد منا الحق سبحانه أن ننظر إلى هذه الغاية ، لا أن ننظر تحت أقدامنا ، ونعيش فقط للحظة التى نحن فيها ، فالغاية الحقيقية لكل مؤمن هى الآخرة لأنها ليس لها بَعْد ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ

لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت] والحيوان مبالغة من الحياة . أى : الحياة الحقيقية .

وهنا يقول الرجل المؤمن : ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [غافر] أى : المستقر التى لا عدولَ عنها ، ولا سُكْنى غيرها ، ولا بُدَّ أن نعمل لها :

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

نعم ما دامت الآخرة هى دار القرار والمستقر فلابدّ من الرجوع إلىَّ والوقوف بين يدىَّ أجازى كُلاً بعمله ، وأنا لستُ جباراً عليكم إنما أنا رحيم بكم أجازى السيئة بمثلها ، أو أغفر وأضاعف الحسنة أضعافاً كثيرة .

والوقفة هنا عند قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر] فهذا الشرط لا يمنع غير المؤمنين من فعل الخير والعمل الصالح ، وقد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

والكافر حين يفعل الخير يأخذ حظه منه فى الدنيا ، ولا نصيبَ له فى ثواب الآخرة ، يأخذه فى الدنيا شهرةً وصيتاً وسُمعة طيبة على ألسنة الناس ، يأخذه فى صورة تكريم واحتفال ، ألاَ تراهم يقيمون لهم التماثيل ويُخلِّدون ذكراهم .. الخ .

إذن : أخذوا حظهم فى الدنيا ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

تأمل ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ.. (٣٩) ﴾ [النور] يعنى : فوجىء به لأنه لم يكُنْ فى باله فى الدنيا وما عمل من أجله قطّ ، ومعلومٌ أن الإنسان يأخذ أجره ممَّنْ عمل له .

وقد سُئِلْنا فى هذه المسألة فى سان فرانسيسكو : أيضيع أجر الكافر الذى عمل الخير فى الدنيا ؟ قلت : أعملَ للخير لله أم للإنسانية ورُقيِّها ؟ قالوا : عمل للإنسانية ورُقيِّها وخدمتها ، قلت : فليأخذ أجره منها وقد أخذه شهرةً وصيتاً وتخليداً ، قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً[1] مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

لذلك نقول : إن الكافرين الذين عملوا لرقى المجتمع وتقدمه نحن ننتفع بأعمالهم ومخترعاتهم ومكتشفاتهم ، بل ونطوعها لخدمة الإيمان والدعوة إلى الله ، فهذا المسجِّل وهذا الميكرفون وغيرها ثمرة جهدهم ، لكن لا حَظَّ لهم فى ثوابه ، لذلك نقول : إن هؤلاء خُدَّام حَرْف واحد من حروف القرآن ، ما هو ؟ هو السين فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت]

فهم يتعبون ويعيشون حياة قاسية فى تقشُّف ليتفرغوا للبحث والدراسة للوصول إلى سرٍّ من أسرار الله فى كونه ، وفى النهاية ينتفع الناس بأعمالهم ، ويُحْرمون هم ثواب هذا العمل .

وقوله : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴾

---

(١) الهباء : الغبار المتطاير فى الجو هنا وهناك ، وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان] أى : جعلنا كل عمل عملوه كالهباء المنثور لا يعتد به ولا قيمة له . [القاموس القويم ٢/٢٩٧] .

[غافر] الرزق كل ما ينتفع به الإنسان ، وليس مجرد المال كما يظن البعض ، فالعافية رزق ، والسلامة رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، كلٌّ ما تنتفع به رزقٌ لك ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر] كلمة حساب تعنى : أنك تحسب للشيء حساباً على قدره .

أما فى الآخرة فالرزق فيها بغير حساب ، أى : بغير حساب من أحد لأن المعطى الرازق هو الله ، والله حين يعطيك لا يعطيك على قدر عملك ، إنما يعطيك على قدره هو سبحانه .

وحين يأتيك الخير غير المظنون تقول : لم أكُنْ أعمل له حساباً ، فمعنى ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر] يعنى : طلاقة قدرة فى العطاء ، قدرة تعطى للمعطى بلا حساب مُسبَّب منه ، وبلا حساب على قدرك ، فالمسألة إذن واسعة .

قالوا : ومن غير الحساب فى الجنة أنك تأكل ولا تتغوط[1] ، كيف ؟ لأنك تأكل بطهى الله لك ، وما دُمْت تأكل بطهى الله الخالق فلا بدَّ أنْ يعطيك الغذاء على قدر مقومات الحياة دون زيادة ، فمن أين تأتى الفضلات إذن ؟ ولماذا ننكر هذه المسألة أو حتى نتعجب منها ونحن نراها فى الدنيا رغم إمكاناتنا المحدودة ؟

ألا تراهم فى الحروب مثلاً يعطون الجنود حبوباً خاصة تحلُّ محلَّ الغذاء تعطيهم الطاقة اللازمة دون زيادة ، ولا تترك فى الجسم

---

(١) عن زيد بن أرقم قال : « جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبى ﷺ فقال : يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال : نعم ، والذى نفس محمد بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع والشهوة . قال : فإن الذى يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس فى الجنة أذى . قال : تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كرشح المسك فيضمر بدنه ، أخرجه أحمد فى مسنده والنسائى فى سننه بإسناد صحيح على شرط الصحيح . [انظر : حادى الأرواح لابن القيم ص ١٧٧] .

فضلات للتغوط ؟ فإذا كان المخلوق فعل هذا فما بالك بالخالق سبحانه ؟

وقد تأكل فى الجنة بغير حاجة للطعام ، تأكل لمجرد التمتع بالأكل ، وقد لا تحتاج إلى الطعام أصلاً ؛ لذلك قالوا : أفضل درجات الجنة وأحسن نعيمها فى عليين لأنها مرتبة ليس فيها شىء من مُتَع الحياة إلا أنْ ترى ربك عز وجل وكفى بها نعمة ، فأنت فى حضرته تعالى لا تحتاج أصلاً إلى هذه المتع .

لذلك لَمَّا ذهب الشَّعبى[1] إلى ملك الروم وسأله الملك : أنتم تدّعون أنكم فى الجنة تأكلون ولا تتغوطون ، فكيف ذلك ؟ قال : وما العجب فى ذلك ؟ ألم تر إلى الطفل فى بطن أمه كيف يتغذَّى وينمو ، فهل يتغوَّط فى بطنها ، إنه لا يتغوط ولو تغوَّط لاحترق فى مشيمته ، كذلك المؤمن فى الجنة .

فقال الملك : وتدَّعُون أنكم تأكلون من الطعام فى الجنة فلا ينقص ، وكل شىء تأخذ منه لا بدَّ أنْ ينقص . قال : نعم ينقص إذا لم يكُنْ له مدد يكمل نقصه ، هات لى شمعة فأتى له بشمعة فأشعلها ثم قال للموجودين فى المجلس : ليأْتِ كل واحد منكم بشمعة ويشعلها من هذه فأشعلوا جميعاً شموعهم ، فقال لهم : أنقص من ضوء الشمعة شىء ؟ كذلك عطاء الله لأهل الجنة لا ينفد ولا ينقص.

---

(١) هو : عامر بن شراحيل الشعبى الحميرى أبو عمرو ، راوية من التابعين يضرب المثل بحفظه ، ولد عام ١٩ هجرية ونشأ ومات فجأة بالكوفة عام ١٠٣ هـ عن ٨٣ عاماً ، اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه ورسوله إلى ملك الروم ، وكان ضئيلاً نحيفاً ، ولد لسبعة أشهر . من رجال الحديث الثقات . [الأعلام للزركلى ٣/٢٥١] .

ومن عجائب الجنة أن فيها أنهاراً ، نهراً من لبن ، ونهراً من عسل ، ونهراً من خمر ، ونهراً من ماء ، وهذه الأنهار ليس لها شطوط ولا حواجز ، بل هى متداخلة ومع ذلك لا تختلط ، ويجب أن نؤمن بذلك ولا ننكره ، بل لا نعجب له لأن رسول الله أخبرنا « أن فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] فلِمَ العجب إذن ؟

لذلك حين يصفها لنا الحق سبحانه يخبرنا أنه لا يصف لنا الجنة ذاتها ، إنما يعطينا مثالاً لها ، فيقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥) ﴾ [محمد]

ثم إن الحق سبحانه حينما يعطينا هذا المثل للجنة ليقربها لأفهامنا لا بدَّ أنْ ينقى هذا المثل من شوائبه عندنا فى الدنيا ، تأمل : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى (١٥) ﴾ [محمد]

فماء الجنة غير آسِن لا يتغير كماء الدنيا ، ولبن الجنة لا يتغير طعمه كما يتغير لبن الدنيا ، وخمر الآخرة لذة ولا يذهب بالعقل ، أما خمر الدنيا فكَرِية ويذهب بالعقل ، وعسل الآخرة مُصفّى من الشوائب على خلاف عسل الدنيا .

ثم يقول مؤمن آل فرعون ، فيما يذكره لنا الحق سبحانه فى قرآنه :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾

هذا كلام الرجل المؤمن من آل فرعون ، كأنه كلام الأنبياء ، وإني حتى الآن لم أهْتد إلى سبب يقنعني كيف سكت فرعون على هذا الكلام ، ولا أستطيع إلا أن أقول : إن الله سبحانه قادر على أنْ يجمع بين الشيء ونقيضه ، فالمؤمن يجهر بهذا الكلام الإيماني لكن الحق سبحانه يُدخله في أذن فرعون غير ذلك ، وإلا لما سكت عنه وتركه يتكلم بهذا المنطق الإيماني الذي يهدم ألوهية فرعون المدَّعاة ، أو كما قلنا أن وارد الرحمن لا يُعارض .

وقوله ﴿ مَا لِي ﴿٤١﴾ ﴾ [غافر] يستفهم عن شيء في نفسه : كيف أدعوكم إلى النجاة وأنتم تدعونني إلى النار ؟ أي : إلى ما يؤدي إلى النجاة وما يؤدي إلى النار ، قالوا : لأن الخير لا يكون خيراً إلا إذا أحببته لسواك ، لذلك قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

ثم يوضح معنى ﴿ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاة وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾ [غافر] فيقول : ﴿ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [غافر] فأنتم تحثونني على الكفر بالله والشرك به ، وأنا أحثكم على الإيمان به .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذي نفسي بيده ، لايؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال لأخيه - ما يحب لنفسه » .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾

كلمة (لاَ جَرمَ) أى : لا شك ولا محالة ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : إلى عبادته من دون الله ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : دعوة مستجابة لأنهم لا يسمعون الدعاء ولو سمعوا ما استجابوا ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : مرجعنا ومصيرنا ونهاية المطاف بنا ﴿إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : المستحقُّون لها الجديرون بها كأنهم أصحابها .

ومعنى ﴿الْمُسْرِفِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : المتجاوزين للحدِّ فى الكفر والطغيان ، وأشدهم المسرف على نفسه الذى تجاوز الحدَّ الذى ينبغى أنْ يقفَ عنده ، وهذا الحد إما أنْ يكونَ فى المأمورات أو فى المنهيات .

والحق سبحانه يوضح لنا هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة] أى : فى المأمورات ، ويقول فى المنهيات : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة]

ففى الأوامر احرص على ألاَّ تتعدَّاها وفى النواهى لا يقول لك : لا تفعلها بل لا تقربها ، لا تقترب منها ولا من الأسباب المؤدية إليها لأنه مَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه[1] ، ولا بدَّ للمؤمن أن يحترم

---

(١) قطعة من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه ، وتمامه : « إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) .

هذا الاحتياط من ربه ، لأنه سبحانه خالقه ، وأعلم به من نفسه .

والرجل المؤمن حينما يُذيل موعظته للقوم يقوله ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [غافر] كأنه يريد أنْ يُعرِّض بفرعون الذى بلغ القمة فى الإسراف على نفسه ، لأن قضية الإسراف فى الدين أنك قد لا تسمع لنداء الحق وتلغى أوامره وتعرض عن نواهيه ، قد تلغى الإيمان بالله كلية ، لكن هذا الطاغية زاد على هذا كله حيث ادَّعى هو الألوهية ، وقال لقومه : ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات] وأىُّ إسراف بعد هذا ؟

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر] يعنى : إنْ كنتم تكذبوننى الآن وأنا أريد أنْ أُخرجكم ممَّا تعودتم عليه من عبوديتكم لفرعون فسوف تذكرون ما أقوله لكم من النصح ؛ والمراد تذكرونه فى الدنيا أو تذكرونه فى الآخرة ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر] أى : أردّ أمرى إليه سبحانه فهو وليِّى .

وكأنه استشعر أن هذا الكلام الذى قاله سيُغضب فرعون ، ولا بدَّ أنه سيُبيِّت له لينتقم منه دون مجابهة أو مواجهة حتى لا يُؤلب عليه القوم ، فقال ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر]

يعنى : إنْ كنتَ قد بُليتَ بأمر نتيجة ما أفضت فيه من شرح منهج الله والدفاع عن نبيه موسى والاستماع إلى المنهج الحق والسير عليه ، فأرجو أنْ يعطينى من العمل ما ينفعنى فى الآخرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) ﴾ [غافر] فكانت نتيجة تفويض أمره لله :

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ[1] بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ (٤٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا (٤٥) ﴾ [غافر] يعنى : لم يحدث له مكروه ، وهذا أمر يدعو للعجب ، لأن هذا الرجل يقف أمام مَنْ ؟ أمام فرعون ومع ذلك لم يُصبْه مكروه ولم تضره محاولات فرعون للانتقام منه . لكن ولِمَ العجب ؟ الوقاية من الله ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا (٤٥) ﴾ [غافر] لأن الفعل لا يُترك لذاته ولا يُؤخذ لذاته ، إنما الفعل بمقارنة فاعله ، لا بدَّ من مصاحبة الفعل للفاعل ، فالفعل قد يكون واحداً لكن يختلف الحكم فيه سعادةً به أو شقاءً بالنظر إلى الفاعل .

قلنا : هَبْ أن ولدك دخل عليك والدم يسيل من وجهه ، ما أول سؤال تبادره به ؟ مَنْ فعلَ بك هذا ؟ إذن : فأنت لم تنشغل بالدم الذى يسيل منه بقدر انشغالك بمَنْ فعل هذا . فلو قال لك : عمى فلان ضربنى تهدأ وتقول له : لا بدَّ أنك فعلتَ شيئاً يستحق العقاب فضربك ، لكن إنْ قال لك : ابن فلان ضربنى تقول : نعم لأنه يكرهنا وكذا وكذا . وتقيم الدنيا ولا تقعدها .

---

(١) حاق به العذاب أى نزل به وأصابه وأحاط به من كل جانب ، فلا يمكنه الفرار منه . [القاموس القويم ١/١٨١] مع زيادات .

إذن : فكل فعل لا يُحكم عليه لذاته إنما بضميمة فاعله ، ومعرفتك للفاعل هى التى يترتب عليها ردُّ الفعل منك .

وهذه المسألة حلَّتْ لنا الإشكال فى قضية الإسراء والمعراج ، وفسَّرتْ لنا قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] فما دام أن الذى أسرى هو الله فلا عجبَ إذن ، فالفعل يتناسب وفاعله ، ونزه الله عن الزمان والمكان وعن كل ما يشبه الخَلْق . ولو قال : محمد سَرَى لكان لنا كلام وجدال ، أمَا وقد أسرى اللهُ به فلا عجبَ فى ذلك . كما لو قلت : صعدتُ بابنى الرضيع قمة الهملايا ، أيقول قائل : كيف صعد الرضيعُ قمة الهملايا ؟

كذلك الحال هنا ، وحين تكون الوقاية من الله فأىُّ قوة إذن وأىُّ طاغية أو جبار يستطيع أنْ يُؤذيك ، والله واقيك منه . وقد جاءت هذه الوقاية إجابةً ورداً لتفويض الأمر لله تعالى ، فالرجل المؤمن قال : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر] فجاء الرد فوراً ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر]

وهذه الآية وقف عندها الإمام جعفر الصادق[1] واستنبط منها بعض اللطائف والحكَم حين قال :

عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران] لأنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران]

---

(١) هو جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسن بن بنت رسول الله الهاشمى القرشى ، أبو عبدالله الملقب بالصادق ، كان من أجلاء التابعين ولد عام ٨٠ هـ وتوفى بالمدينة عام ١٤٨ هـ أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك ، كان جريئاً مع خلفاء بنى العباس . [الأعلام للزركلى ٢/١٢٦] .

وعجبتُ لمن مُكر به ولم يفـزع إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر] فإنِّي سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر]

وعجبتْ لمن طلب الدنيا وزينتـها ولم يفزع إلى قوله تعالى ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف] فإنِّي سمعت الله بعـقبها يقول : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف]

وعجبتُ لمن اغتمَّ - والاغتمام انقباضُ الصدر وضيق النَّفَس دون أنْ تعرف له سـبباً - ولم يفزع إلى قولـه تعالى : ﴿ لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فإنِّي سمعت الله بعـقبها يقول : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ[1] وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] يعني : ليست خاصة به وحده .

هذه من دقائق كتاب الله ولطائفه ، ومَنْ أخذها وِرْداً له لا يمر به شيء من هذا ، ونجَّـاه الله منه ووقـاه مـن الخـوف ومن المكر ومن الفقر ومن الغمِّ .

ثم إن استـجابة الحـق سبحـانه لعبـده المؤمن لم تقف عـند حَدِّ الوقـاية من عدوه ، إنمـا تعدَّتْ إلى العـدو نفسـه حيث انقلب الـحال ودارتْ الدائرة عليه تأمل : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر] أي : نزل بهـم وحَلَّ بهم سـوء العذاب ، والمراد عذاب الدنيا قـبل الآخرة ، لأن الإنسان له في حياته ثلاث مراحل : الحيـاة الدنيا التي نعيشـها الآن ، ثم حـياة البرزخ بعد أن يموت إلى أنْ يُبعثَ يوم القيامة ، ثم حياته بعد البعث .

---

(١) أي : استـجبنا ليونس عليـه السلام وهو ذو النون صاحب الحـوت ، فالضمـير في (له) يعود على يونس ، فاستجاب له ربه ونجَّاه من الغم الذي كان فيه بابتلاع الحوت له .

فقوله : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر] أى : نزل بهم قبل الحساب وقبل الآخرة ، أما قوله : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر] فالعرض على النار إذن ليس فى الآخرة لأنه قال بعدها : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر]

عندنا عَرْضٌ ودخول ، العرض على النار قبل دخولها ، فهو إما فى الدنيا أو فى البرزخ ، وما داموا لم يُعرَضُوا على النار فى الدنيا فلم يَبْقَ إلا حياةُ البرزخ يُعرَضُون فيها على النار إلى قيام الساعة ، وهذا ما نسميه عذاب القبر ، ثم يأتى دخولهم النارَ بعد البعث والحساب .

وهكذا جمع الله على المسرفين عذاباً فى الدنيا ، وعذاباً فى البرزخ ، وعذاباً أشدّ وأنكَى فى الآخرة .

وكلمة ﴿ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر] تثبت أيضاً عذابَ القبر ، ففيه عذابٌ شديدٌ لكن عذابَ الآخرة أشدّ ، عافانا الله وإياكم من العذاب .

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ(١) فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾

---

(١) يتحاجون : يتجادلون ويتخاصمون فى النار ، كُلٌّ يلقى باللائمة على الآخر ويحاول تبرئة نفسه ويُحمل الآخر الوزر والذنب فيما وصلوا إليه من مصير مؤلم .

معنى : ﴿ يَتَحَاجُّونَ ﴾ [غافر] أى : يُحاج بعضهم بعضاً فى النار ، ويُلقى كلٌّ منهم التبعة على الآخر ، يقول (الضُّعَفَاءُ) أى : الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ [غافر] أى : الزعماء والرؤساء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ [غافر] يعنى : تابعين لكم نفعل كما تفعلون ، كنا نسير خلفكم ونقتدى بكم ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ [غافر] يعنى : هل أنتم مدافعون عنا أو دافعون عنا عذاب النار ، أو هل تحملون عنا ذنوبنا ؟

والقرآن يعطينا صوراً عدة للمحاجَّة وللجدال يوم القيامة ، نقاش بين المؤمنين والكافرين ، بين الأقوياء المتبوعين والضعفاء التابعين ، قال تعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) ﴾ [النساء]

ثم يردّ المتبوعون : ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) ﴾ [غافر] ومادام الله قد حكم بين العباد فقد قُضِى الأمر ، ولا رادَّ لقضاء الله ، ولا ناقضَ لحكمه ، وكيف يدافعون عنهم وقد سبقوهم إلى النار ، اقرأ قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ[1] مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ﴾ [مريم]

وقال عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ [هود]

---

(١) نزع الشىء : جذبه واقتلعه . [القاموس القويم ٢/٢٥٩] قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٣١) : « عن ابن مسعود قال : يُحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعاً ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً . وقال قتادة : ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم فى الشر » .

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود] يعنى : يتقدمهم ويسبقهم إلى النار حتى يقطع عنهم الأمل فى النجاة ، ولو تقدَّموا هم لَقالُوا : سيأتى زعيمنا ويُخلِّصنا مما نحن فيه ، فكيف وقد سبقهم إليها ، ففى هذا تيئيسٌ لهم وقَطْعٌ لآمالهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

نفهم من قوله تعالى على لسان أهل النار : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [غافر] كأنهم أقروا بأنفسهم أنهم ليسوا أهلاً لأنْ ينادوا الله أو يدعوه . لذلك نادوا الملائكة ، فردَّ الملائكة عليهم : ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [غافر] أى : بالحجج والبراهين الدالة على صدق الرسل ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [غافر] أى : جاءتنا الرسل بالبينات ، فأقروا على أنفسهم .

﴿ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [غافر] أى : دعاؤهم هباء لا يُجدى ولا ينفعهم - ولا يَخْفى ما فى الآية من التبكيت والتقريع للكافرين والاستهزاء بهم .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) ﴾

هذا وعد منه سبحانه أنْ ينصر رسله وأنْ ينصر الذين آمنوا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] لذلك قلنا : إذا رأيت قوماً نسبوا إلى الإسلام وانهزموا ، فاعلم أنه قد اختلَّتْ فيهم شروط النصرة ، وما داموا قد اختلت فيهم شروط النصرة فلابدَّ أن يلقوا جزاء ذلك فى الدنيا ، لأنها سنة الله لا تتبدل .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر] جاءت بعد أن قام الرجل المؤمن من آل فرعون يؤيد موسى عليه السلام ، ويدعو بدعوته ، ويجهر بمنطق الحق أمام فرعون ، والمعنى : إنَّا لننصر رسلنا بأىٍّ وسيلة من الوسائل ، لأن الله تعالى ما كان ليرسل رسولاً بمنهج جديد يهدى به الضالين ثم يُسلمه .

لكن الحق سبحانه قد يترك أمر الدعوة فى أولها تُضطهد وتُعاند من الخلق ليمحص أهل الدعوة وحتى لا يثبت من حملتها إلا الأقوياء الصناديد ، لأنهم هم الذين سيحملون هذه المهمة على أكتافهم يسيحون بها فى الكون كله ، فلا غرابةَ أنْ يُمحَّصُوا ، وأنْ يختبر إيمانهم ومدى ثباتهم على المبدأ .

رأينا هذا فى المؤمنين الأوائل الذين حملوا راية الإسلام مع رسول الله ، فهاجروا إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، قال تعالى :
﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت]

أبداً ، والفتنة معناها عَرْض الناس على مِحَن وشدائد لا يثبت أمامها إلا أقوياءُ العقيدة الواثقون فى الله وفى نصرة الحق ، والمؤمن الحق هو الذى يرى أن ما بشر به من الوعد والوعيد فى الآخرة أمر واضح لا شكَّ فيه ، لأن الإنسان دائماً لا يخدع نفسه وإنْ خدع الآخرين .

لذلك لما سأل رسول الله ﷺ سيدنا حذيفة[1] : « كيف أصبحتَ يا حذيفة » ؟ قال : أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً . ولما كانت كلمة (حقاً) هنا كلمة كبيرة المعنى سأله رسول الله : « وما حقيقة إيمانك » ؟ قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها[2] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون ، فقال له : « عرفتَ فالزم »[3]

ومعنى ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۝ ﴾ [غافر] أى : ينصرهم فى الدنيا بأن يغلب حقهم على باطل خصومهم ، لذلك قال سبحانه : ﴿فَإِمَّا

---

(١) هو : حذيفة بن حسل اليمان بن جابر العبسى صحابى من الولاة الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سر رسول الله فى المنافقين ، توفى بالمدائن عام ٣٦ هـ ، له فى كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً [الأعلام للزركلى ٢/١٧١] .

(٢) المدر : قطع الطين اليابس المتماسك . ومنه قول رسول الله : « لنا الوبر ولكم المدر » عنى به المدن أو الحضر ، لأن مبانيها إنما تُبنى بالمدر أما البدو فمساكنهم الأخبية والخيام

(٣) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبرانى فى معجمه الكبير من حديث الحارث بن مالك الأنصارى وليس حذيفة ، وقد عزا ابن حجر العسقلانى الحديث لابن المبارك فى الزهد ، انظر « الإصابة فى تمييز الصحابة » (١/٣٤٣) .

نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] إذن : فهناك نُصْرة فى الدنيا ونصرة فى الآخرة .

ثم يبين سبحانه أن ما يحدث فى الآخرة عليه شهود متعددون يشهدون عليكم فى الآخرة ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر] والأشهاد جمع شهود ، فالشهود يومئذ كثيرون ، تشهد الرسل والأنبياء : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩) ﴾ [المائدة]

والمؤمنون يشهدون أنهم بلَّغوا مَنْ بعدهم : ﴿ هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (٧٨) ﴾ [الحج] وتشهد الأبعاض والأعضاء على صاحبها .

وكذلك يشهد علينا الحفظة ، ويشهد الشهداء الذين قاتلوا فقُتلوا ، لأن الإنسان قد يُدلس فى حياته الدنيا لينعم عيشه لكنه لا يخدع نفسه أبداً بعد أنْ يموت ، فهو حريص أن يذهب به الموت إلى خير مما ترك ، ولذلك يجازيه الله .

فلو تطوع إنسان لكى يجاهد فى سبيل الله وهو يعلم أنه سيموت فى سبيل الله يقول الله له : أنت متّ فى الدنيا من أجلى فلا بدَّ أن تكون حياً عندى ؛ لذلك قلنا فى فلسفة الشهادة لما تكلمنا عن سيدنا حمزة[1] أن الشهادة جعلتْ لك من الموت عصمة ، كيف ؟ لأنك حين تختار الموت على الحياة وتستشهد تصير حياً عند الله ، فوصلتَ

---

(١) هو : حمزة بن عبد المطلب ، عم رسول الله ، ولد عام ٥٤ ق هـ ، وتوفى فى غزوة أحد شهيداً عام ٣ هجرية عن ٥٧ عاماً ، هاجر إلى المدينة وحضر بدراً وأحداً . [الأعلام ٢٧٨/٢] .

حياتك الأولى بحياتك عند الله بحياة البعث ، فكأنك لم تمُتْ .

أحمْزَة عَمّ المصْطفَى أنتَ سَيِّدٌ عَلَى شُهَداء الأرْضِ أجْمعهم طُرّا
وَحَسْبُكَ مِنْ تلْكَ الشَّهادة عِصْمةٌ مِنَ الموْتِ فى وَصْلِ الحيَاتَيْنِ بالأُخْرى.

فمَنْ ضحَّى بحياته لله فكأنه قدَّمها تحيةً لربه وإعلاءً لمنهجه ، فبماذا يُحييك الله ؟ يحييك بأنْ يعصمك بعدها من الموت .

ثم يقول سبحانه : ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ (٥٢)﴾ [غافر] يعنى : إن اعتذروا لا يُقبل منهم عذر ، وفى موضع آخر قال : ﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ [المرسلات] كأنها مواقف متعددة ، مرة يعتذرون حين قالوا : ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ (٣٧)﴾ [فاطر] ومرة لا يُؤذَن لهم فى الاعتذار ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)﴾ [غافر]

بعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن موكب رسالة سيدنا موسى عليه السلام .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٤ ﴾

(الهُدَى) يعنى : الدلالة على الطريق الموصِّلة إلى الغاية النافعة ، كما قال تعالى فى أول البقرة : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ (٥)﴾ [البقرة] فالدين لم يأت ليكلفكم أو يشقّ عليكم ، إنما جاء الدينُ رحمةً بكم وليكون مركبَ النجاة والهداية الذى تركبونه فيحملكم ويُوصِّلكم إلى الغاية النافعة لكم ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ [غافر] أى : التوراة والإنجيل والزبور .

كل هذه الكتب ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾﴾ [غافر] معنى (ذِكْرى) أى : تذكرةً لأن الإنسان إذا استمر على طبيعته الأصيلة بدون تأثر بعوامل الفساد تظل مناعة العهد(1) القديم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف] موجودة عنده تحميه ، لكنه قد ينسى هذا العهد وينحرف عن الجادة ، والإنسان من طبيعته النسيان ؛ لذلك تأتى الرسل للتذكرة بهذا العهد الأول . ومعنى ﴿الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾﴾ [غافر] أى : العقول المفكرة المتأملة .

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾

كلمة ﴿فَاصْبِرْ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر] دليل على أنه ﷺ خُوطب بها فى مواطن شدَّة ، هذه المواطن قال الله فيها : ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر] الوعد هو : الإخبار بالخير قبل أوانه ، ووعد الله حق . يعنى : متحقق لأن الوعد أنْ تعدَ إنساناً وتُبشِّره بالخير والنعيم والسعادة ، فهل تقدر وتضمن أن تفىَ بوعدك ؟ لا فربما تموت قبل أنْ يأتى أوانه ، أو تضعف قدرتك التى

---

(١) هو العهد الأول الذى أخذه الله على ذرية بنى آدم ، وقال عنه : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف] فأشهدهم على أنفسهم أن الله ربهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على هذا وجبلهم عليه .

تفعل بها فلا تستطيع ، أما إذا جاء الوعد من القيوم القادر الذى لا يُعارَض ، وهو سبحانه بَاقٍ لا يزول ، فهو إذن وعد حَقٌّ لابدَّ أنْ يتحقق .

لذلك يُعلمنا الحق سبحانه ألاَّ تجزم بوعد ، ولا تقوله بصورة القطع لأنك من الأغيار ، يقول تعالى : ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ (٢٤)﴾ [الكهف]

فتعليق الوفاء على المشيئة يعفيك من الاتهام بالكذب لو لم تفعل فلو قلت أفعل كذا وكذا غداً ، هل تملك أسباب الوفاء ؟ هل تملك الزمن أو تضمن القوة الفاعلة ؟ أبداً لا تضمن بقاء شيء من هذه الأسباب ، إذن فَقُلْ : إنْ شاء الله ونزِّه نفسك عن الكذب لو لم تفعل .

وقوله : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ (٥٥)﴾ [غافر] يعنى : اطلب المغفرة ، وكلمة ﴿لِذَنْبِكَ (٥٥)﴾ [غافر] هل تعنى أن الرسول فعل ذنباً ؟ قالوا : رسول الله ﷺ بشر يُوحَى إليه ، وله رأى ببشريته فى الأمور التى لم يأتِ فيها حكم من الله ، حتى إنْ كان رأيُه صواباً فرأى الحق سبحانه أصوب .

لذلك يصوب له ربه ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ (٥٥)﴾ [غافر] فمن أىِّ شيء يستغفر رسول الله ؟ يستغفر الله من استبطاء النصر فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ (٢١٤)﴾ [البقرة] فالنصر آتٍ ، فلم استبطاؤه ؟

لذلك وردتْ فى القرآن آيات تثبت أن الرسول ﷺ فعل شيئاً يُعاتَب عليه ، والحق سبحانه صحَّح له وصوَّب له فعله ، لكن كيف جاء هذا العتاب ؟ تأمل قوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ

(٤٣) ﴾ [التوبة] فقبل أن يعاتبه قدَّم العفو عنه[1] .

لكن لماذا أذن الرسول لهـؤلاء ؟ قالوا : إن الذى شغل رسول الله فى هذه المسـألة أنه قال فى نفسـه أن الذى يطلب الإذن منى فى ألاَّ يقاتل إما صادق العذر فلا مانع من الإذن له ، وإما كاذب العذر وهذا لا خـيرَ فـيه ، وعـدمه أفـضل من وجوده بين الصـفوف ، كمـا قال تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً[2] وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ (٤٧) ﴾ [التوبة]

ثـم إن هـذا العـتاب لرسـول الله ﷺ : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ (٤٣) ﴾ [التوبة] لم نعلمـه إلا من رسـول الله نفسـه ، ولولا إخـباره به مـا علمناه ، فهو ﷺ لا يستنكف أنْ يعاتبه ربه ، وأنْ يُصوِّب له اختياره .

وقد أوضـحنا هذه النقطة فى مسألة الـتبنى التى كانت بين سـيدنا رسول الله وزيد بن حارثة ، وكيف أن الحق سبحانه لما أراد إبطالَ عادة التبنى جعل نبيه محمداً ﷺ وزيد بن حارثة نموذجاً لهذا الحكم الجديد .

فزيد كـان عبداً عند خديجـة ووهبته لرسـول الله ، ولما علم أهله بوجوده بمكة عند رسـول الله جاءوا واستـأذنوا فيه رسول الله ، فـما كان من رسول الله إلا أنْ خـيَّره بين البقاء مـعه أو الذهاب مع أهله ، فاختار زيدٌ البقاءَ مع رسول الله ، فأراد ﷺ أنْ يكرم زيداً لموقفه منه

---

(١) ذكر ابن أبى حاتم بسنده عن مسعر عن عون قال : هل سمعتم بمـعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة . وكذا قال مورق العجلى وغيره . [تفسير ابن كثير ٢/٣٦٠] قال مـجـاهد : نزلت هذه الآية فى أنـاس قـالوا : اسـتـأذنوا رسـول الله (أى فى التـخلف عن الجهـاد) فإن أذن لكم فاقعـدوا وإن لم يأذن لكم فاقعـدوا . أى : أنهم فى كل الحالات لن يخرجـوا مع رسول الله ، لذلك كان عـتاب الله لنبيـه محمد فى الإذن لـهم ، بل انتظر حتى يتبين لك الصادق من الكاذب

(٢) خبالاً : نقصاناً وخسارة وهلاكاً ، وخبله : أفسد عقله . [القاموس القويم ١/١٨٦] .

وحُبه للبقاء فى صحبته فتبنّاه ونسبه إليه ، فصار زيد من يومها يُعرف بزيد بن محمد .

لكن أراد الحق سبحانه أنْ يبطل هذه العادة ، وأنْ يُحرّم التبنى فأنزل : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ (٥)﴾ . [الأحزاب]

فمعنى ﴿أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ (٥)﴾ [الأحزاب] أن ما فعله رسول الله قسط وعدل ، لكن حكم الله أقسط وأعدل ، فهل هذا التصويب يُغضب رسول الله ؟ أبداً بدليل أنه ﷺ هو الذى أخبرنا به ولو كتمه رسول الله ما عرفناه .

كذلك فى قوله تعالى فى أسرى بدر : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ[1] فِي الأَرْضِ (٦٧)﴾ [الأنفال] لما اختلفوا[2] فى أخذ الفداء من الأسرى ، وعاتب الله رسوله بهذه الآية ، لكن هل تغير الحكم بعد ذلك ؟ لا بل ظل كما هو وقال تعالى : ﴿لَّوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)﴾ [الأنفال]

---

(١) يثخن فى الأرض : يحارب فيهزم أعداءه ويُعجزهم عن القتال وعن المقاومة . [القاموس القويم ١/١٠٦] .

(٢) كان هذا الأمر فى يوم بدر ، قال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ « ما تقولون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال ابن رواحة : يا رسول الله أنت فى واد كثير الحطب فاضرم الوادى عليهم ناراً ثم ألقهم فيه . فسكت رسول الله فلم يرد عليهم شيئاً ثم قال فدخل غرفته ثم خرج عليهم فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ... ثم قال : أنتم عالة فلا ينفكنّ أحدٌ منهم إلا بفداء أو ضربة عنق ، فأنزل الله الآية يعتب عليه ﷺ أنه أخذ بالفداء .

فكان لرسول الله ﷺ أن ينكر هذه المسألة ، خاصة وأن الحكم كما هو لم يتغير ، إذن : نحن لم نعلم معتبة الله على رسوله إلا من الرسول نفسه ، والمتأمل فى عتاب الحق سبحانه لرسوله يجد أنه إما عتاب لمصلحته هو ﷺ ، أو عتاب لأنه جانبَ الصواب الذى حكم به الحق سبحانه ، كما فى هذه المسألة التى ذكرناها .

أما العتاب لمصلحته ﷺ فمثل قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ[1] تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ①﴾ [التحريم] وهذا كما تعاتب ولدك على كثرة سهره فى المذاكرة وإجهاده لنفسه ، كذلك الحق سبحانه يعاتب رسوله أنه ضيَّق على نفسه وشقَّ عليها طلباً لمرضاة أزواجه .

كذلك عاتبه فى مسألة الأعمى[2] فقال : ﴿عَبَسَ[3] وَتَوَلَّىٰ ① أن

---

(١) قال السيوطى فى أسباب النزول (ص٢٨٠) : « أخرج الطبرانى بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يشرب عند سودة العسل ، فدخل على عائشة فقالت : إنى أجد منك ريحاً ، ثم دخل على حفصة فقالت مثل ذلك ، فقال : أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه ، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ①﴾ [التحريم] وله شاهد فى الصحيحين » .

(٢) هو : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم (يعرف بابن أم مكتوم) صحابى شجاع ، كان ضريراً ، أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر ، كان يؤذن لرسول الله فى المدينة مع بلال ، حضر حرب القادسية ، ومعه راية سوداء فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة فتوفى فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب عام ٢٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٨٣/٥] .

(٣) عبس الرجل : قطَّب وجهه لضيق صدره من شىء يكرهه . والرجل العبوس : الدائم التقطيب . [القاموس القويم ٤/٢] . وسبب نزول السورة فيما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس أنه بينما رسول الله ﷺ يناجى عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وكان يتصدى لهم كثيراً ويحرص عليهم أن يؤمنوا=

جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ[1] ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس]

والعتاب هنا لأنه ﷺ شقَّ على نفسه حين ترك هذا الأعمى وانصرف عنه لأنه مؤمن ، وذهب إلى صناديد الكفر يدعوهم ، ورأى أنهم أوْلَى بالدعوة منه .

بعض العلماء[2] أخذوا من قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر] دليلاً على عدم عصمة الأنبياء ، وقالوا آخرون : إن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد ورد أنه ﷺ قال في دعائه : « اللهم

= فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم يمشي وهو يناجيهم فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن وقال : يا رسول الله علِّمني مما علمك الله فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله نجواه وأخذ ينقلب إلى أهله فأمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾﴾ [عبس] فلما نزل فيه ما نزل أكرمه رسول الله ﷺ وكلَّمه وقال له رسول الله ﷺ : ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة في شيء ؟ » .

(١) لعله يزكَّى : أي لعله يحصل له زكاة وطهارة في نفسه .

(٢) ذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ..﴿٥٥﴾﴾ [غافر] عدة أقوال :

- استغفر لذنب أمتك . حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .
- استغفر لذنب نفسك . على من يُجوِّز الصغائر على الأنبياء .
- من قال لا تجوز الصغائر على الأنبياء قال : هذا تعبُّد للنبي عليه السلام بالدعاء .
- استغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة .

[القرطبي في تفسيره ٨/٥٩٧٤]

إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

والبعض له فى الآية ملحظ آخر قال : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ (٥٥)﴾ [غافر] لا تدل على وقوع الذنب منه بالفعل ، والمعنى : إنْ فعلتَ ذنباً . أى فى المستقبل استغفر ، مثل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (١)﴾ [الأحزاب] فهل معنى هذا أنه ﷺ لم يكُنْ يتقى الله ؟ لا بل هو أمر ابتدائى بالتقوى .

ولا يعنى أنه ﷺ خالف منهجه فأمره الله بتقواه ، كما نرى نحن الآن مخالفاً لمنهج الله فنقول له : يا فلان اتق الله ، يعنى : استقم على منهجه ، واترك المخالفة ، واجعل بينك وبين الله وقاية .

لذلك قال : الأمر فى : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ (٥٥)﴾ [غافر] أمر تعبُّدى ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ (١٩٤)﴾ [آل عمران] الأمر هنا أمر تعبُّدى لأننا نقول آتنا ، وهو سبحانه قد وعد رسله بذلك ، فهو أمر متحقق واقع .

ثم نقول للذين يقولون بوقوع الذنب من الرسل : هل خلعهم الله من الرسالة لأنهم ارتكبوا الذنب ؟ أم تركهم رسلاً ؟ بل تركهم وأبقى على رسالاتهم ، إذن : ما قولك أنت إذا كان ما فعله الرسولُ لا ينافى رسالته ، وهو مرضىٌّ عند مَنْ خالفه وأذنب فى حقه ؟

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص٢٧) من دعاء مطرف بن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

وقوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٥٥) ﴾ [غافر] العشى : الوقت من بعد صلاة الظهر إلى آخر النهار ، والإبكار من الفجر إلى الضحى ، فالمعنى : كُنْ دائماً مُسبِّحاً بحمد ربك .

وإذا كان الأمر هنا للرسول ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين الذين اشتركوا معه فى العشىِّ والإبكار ، فهو من ناحية أخرى أمرٌ للناس كافَّة فى الزمان وفى المكان لعموم رسالته ﷺ .

إذن : فالعشىُّ والإبكار هنا شائع فى الزمان كله والمكان كله ، فكلٌّ له عشىٌّ وإبكار يناسب زمانه ومكانه ، وهذا يعنى أنْ يظلَّ تسبيحُ الله شائعاً فى الزمان والمكان مستمراً لا ينقطع أبداً ، هذا إذا نظرنا إلى اختلاف الأوقات من مكان لمكان .

لذلك قلنا : إن رَبْط التكاليف والعبادات بدورة الهلال يُراد بها استدامة دورة العبادة لله تعالى ، فلو كانت مرتبطة بالشمس كانت تتحد الأوقات عند الناس ، إنما بحساب الهلال ترى أن هذا يصلى الصبح ، فى نفس الوقت الذى يصلى فيه آخرُ الظهر ، وآخرُ العصرَ ، وآخر المغرب ، وهكذا ، إذن : فالحق سبحانه معبود فى كلِّ وقت بكل وقت .

ومعنى ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ (٥٥) ﴾ [غافر] يعنى : تسبيحاً موصولاً بالحمد ، لأن التسبيحَ تنزيهٌ لله تعالى ، وما دام الحق مُنزَّهاً عن كل النقائص فثمرة هذا التنزيه عائدة عليك أنت ، أنت المستفيد من كوْن ربك الذى آمنت به واحداً مُنزَّهاً عن النقائص .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) ﴾

الجدل : هو المراء والأخذ والردّ ، مأخوذ من جَدْل الحبل وفَتْله ، والفتْل عملية تتماسك فيها الخيوط ، وتتداخل بعضها فى بعض بعد أنْ كانت هشَّة متفرقة ، فالجَدْل يحمل معنى التقوية ، تقوية الرأى بالرأى .

والجدل منه جدل بنَّاء يهدف للوصول إلى الحق ، وجدل مراء لا فائدةَ منه ، جدل الحق جدل بسلطان يعنى : حجة وبرهان ، وجدل المراء بالباطل . يعنى : بدون سلطان ولا حجة ، والسلطان إما أن يكون سلطانَ قهر يحملك ويُرغمك ويقهرك على الشىء ، وإما سلطان حجة وإقناع ، سلطان القهر يجعلك تفعل وأنت كاره مُجبر ، وسلطان الإقناع والحجة يجعلك تفعل وأنت راضٍ مقتنع .

لذلك قال عدو الله إبليس : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لم يكن عندى سلطان قهر أقهركم به على المعصية ، ولا سلطان حُجة وإقناع أقنعكم به .

لذلك قلنا فى آية السجود لآدم أن الحق سبحانه قال مرة ﴿ ما

مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص] وفى موضع آخر قال : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف] فواحدة بالإثبات والأخرى بالنفى ، كيف ؟ يعنى : هل جئتَ لتسجد فجاءت قوةٌ منعتك من السجود ؟ أم قوةٌ أقنعتك بعدم السجود فلم تسجد وأنت رَاضٍ مُقتنع بذلك ؟

ومعنى ﴿ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] قلنا : إنها على ثلاثة أقسام :

آيات كونية لإثبات الوجود الأعلى وقدرته وبديع صنعه ، ومن هذه الآيات الكونية الشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء .. الخ .

الثانية : هى المعجزات التى يجعلها الله للرسل لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عن الله .

والثالثة : هى آيات القرآن الكريم التى تحمل أحكام الله إلى الناس ، وتحمل منهج الله بافعل ولا تفعل .

ففى أىٍّ هذه الأنواع يجادلون ؟ قالوا : يجادلون فى المعجزات ، وفى آيات الأحكام ، أما الآيات الكونية فليستْ مجالاً للجدل .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] هل يعنى هذا أن هناك جدلاً فى آيات الله بسلطان ؟ قالوا : بل المعنى أنه ممتنع أى : ليس فى آيات الله جدل ، المسألة ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] هذا هو السبب ، ومصدر الجدل فى آيات الله ، كِبْر فى صدورهم يمنعهم من قبول الحق ، ويمنعهم أنْ ينقادوا لرجل منهم ربما ظنوا أنهم أفضل منه .

لذلك فى بعض الآيات يوضح الحق سبحانه أنهم يؤمنون بالقرآن ، لكن اعتراضهم هو على رسول الله كشخص جاء بالرسالة ، وهو واحد من عامة القوم ليس بأعظمهم ولا أغناهم ، يقول تعالى يحكى على لسان الكفار : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر ينكرون الجميع ويقولون : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال] وكان المنطق أن يقولوا : فاهدنا إليه .

وهذا القول منهم دليلٌ على أنهم كارهون للدين جملة ، لأن قلوبهم مشغولةٌ بقضية مخالفة هى شركهم بالله وعبادتهم الأصنام ، هذه العبادة التى شَبُّوا عليها وتوارثوها ، وإذا شُغِل الإنسان بالباطل لا يمكن أن يهدى للحق إلا إذا أخرجتَ القضية الباطلة من قلبه أولاً ، عندها يسمح للحق أنْ يدخل .

لذلك يوضح لنا الحق سبحانه أن مسألة العقائد لا تُنَاقش فى جمهرة الناس ، إنما تتأملها بينك وبين نفسك ، وإنْ كان لا بدَّ من المشاركة ، فواحد فقط ، لماذا ؟ لأنك حين تجلس بمفردك أو مع شخص واحد معك يثمر النقاش ولا تتسع دائرة الخلاف ، فيكون أدْعَى للوصول إلى الصواب ، وإذا انهزم واحدٌ منكما فلن ينهزم أمام جمهرة الناس ، وساعتها لن يكابر ولن يعاند وسيعود إلى الحق ويرجع إليه دون حرج .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ

وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ[1] ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : لا تبحثوا مسائل العقيدة جماهيرياً ؛ لأن الجماهير لا ضابط لها ، وتفكيرها الجماعى يؤدى إلى الخَلْط والغوغائية ، فكُنْ بمفردك حتى لا يداخلك هَوَىً فتميل معه .

والكبر فى قوله تعالى :﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] إنْ بمعنى ما فى صدورهم إلا كِبْر . يعنى : تَعَالٍ على الحق الذى يأتى به الرسول ، هذا الكبر أو التكبر هو الذى منعهم من الاستماع للرسول ، وجعلهم يتغالوْنَ عليه ، ذلك لأنهم كانوا فى مجتمعهم سادةً ، واستماعهم لرسول الله وطاعتهم له سيجعلهم مسُودين لمن يسمعون منه ويطيعونه .

ومعلوم أن قريشاً كان لها السيادة على كافة العرب ، هذه السيادة جعلتهم متمكنين من رحلاتهم التجارية بالشتاء والصيف ، ويتنقلون بها دون أنْ يتعرَّض لهم أحد ، لماذا ؟

لأن قبائل العرب جميعها تأتى إلى قريش فى مكة موسم الحج ، ويكونون فى ضيافة قريش ورعايتها وفى باطنها ، فالبيت الحرام وحجه هو الذى أعطى قريشاً هذه المكانة وهذه المهابة ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش]

وقال سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت]

---

(١) الجِنَّة : الجنون . وتجنن عليه وتجانن وتجانّ : أرى من نفسه أنه مجنون . قاله الأزهرى فى الصحاح مادة جن .

والدليل على ذلك أنهم لما رأوا فى الأصنام آلهةً لا أوامرَ لها ولا تكاليفَ رَضُوا بهـا وعبدوها من دون الله ، ومـع ذلك لما أرادوا مكاناً يكرمون به هذه الآلهة لم يجدوا إلا الكعبـة يضعون أصنامهم حولها ، إذن : فالكعبة لها قداسة عندهم رغم كفرهم بالله .

هذا هو الكِبْر الذى منعهم من قبول الحق ، وهذا الكبر وصفه الله بقوله ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر] يعنى : ليـس عنـدهم دواعى الكبر ، فـهو كِبْر كـاذب لأن الذى يتكبَّر ينبـغى أن يتكبر بشـىء ذاتى فيـه لا بشـىء عارض ربما يُسلـب منه ، فهو كـبر كاذب كـمَنْ يتكبَّر بقوته وعافيته أو بماله أو بسلطانه .

وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر] لأن الاستعاذة بالله تعنى أن شـيئاً جاء فـوق أسبـابك المـادية فلا تقفْ أمـامه مكتـوفَ الأيدى ، إنمـا تـوجَّـه إلى ربك الذى أرسلك وقُـلْ له : إن هذا الأمـر أعجزنى وفاقَ طاقتى فاحـمله عنى ، لذلك قال سبحانه : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل]

فإذا عزَّتْ الأسـباب فتوجَّـه إلى المسبِّب ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافـر] هذان من صـفـات الكمـال المطلق لله تعـالى السـمع والبصر ؛ لأن كل حـركات جوارح الإنسان عملٌ ، فـاللسان له عمل ، واليد لها عمل ، والرِّجْل لها عمل .

وهذا العمـل ينقسم إلى قسـمين : إمـا قـول وإما فعـل ، القول أخـذ وحده شـطر العمل وهو عمل الـلسان ، وباقى الجـوارح عـملها يُسـمى (فعل) .

لذلك قال تـعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ

﴿ ٢ ﴾ [الصف] فذكر القول والفعل ، وكله يُسمَّى عملاً ، فالسمع لما يُقال ، والبصر لما يُفعل ، فالحق سبحانه يُبيِّن لرسوله ﷺ منزلة الاستعاذة ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [غافر] لأنه سميع لكل ما يُقال ، بصير بكلِّ ما يُفعل .

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

اللام فى (لَخَلْقُ) تدل على القسم ، وكأن الحق سبحانه يقول : وعزَّتى وجلالى لخَلْق السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس ، كيف ؟ قالوا : لأن الناس فى الدنيا أعمارهم متفاوتة : واحد عمره لحظة ، وواحد عمره ساعة ، وواحد عمره مائة عام إلى عمر نوح عليه السلام ، فأين عمرى من عمر الشمس مع أنها خُلقتْ لخدمتى ، أيكون الخادم أطولَ عمراً من المخدوم ؟

إذن : لا بدَّ أن لك عمراً آخر باقياً بعد ذهاب الشمس وغيرها من المخلوقات التى تخدمك ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة . قالوا : العمر له طول لا يعلمه إلا الله وله عَرْض قد يفوق الطول ، وكذلك جعل له حجماً وعمقاً ، فالله الذى حدد العمر زمناً من الممكن أنَّ الإنسان يأخذ عمره طولاً ، لكن يمكنه أن يزيد فى عرضه فيكون العرض هو البُعد الأطول ، بمعنى أن يوسع دائرة نشاطه لينفع نفسه وينفع مجتمعه ويبقى له ذكرى طيبة بعد موته ، فكأنه أضاف بنشاطه إلى عمره أعماراً .

لذلك نقول : إن أوطان الناس تتحدد على قدر هممهم ، فواحد وطنه نفسه يريد كل شىء له وهو ليس لأحد ، وهذا هو الأنانى ،

وواحد وطنه أسرته ، وآخر وطنه قبيلته ، وآخر وطنه بلده ، وواحد وطنه العالم كله ، فكلما ازدادت الهمّة اتسعتْ دائرة الوطن وزادتْ رقعته .

وحين نقول : إن الشمس أطولُ عمراً منى نلاحظ أنك أيها الإنسان كائن حَىّ تأكل وتشرب ، أما الشمس فجماد لا تأكل ولا تشرب ، أنت لك قانونُ صيانة ويعتريك المرضُ وغيره لأنك ابنُ أغيار ، أما الشمس فليس لها شئ من هذا فليس لها قانون صيانة ولا يعتريها ما يعتريك ، وهى منذ خلقها الله تعمل دون توقّف ودون خَلَل ودون صيانة ، والآلة التى بهذا الوصف تدل على قدرة خالقها وعظمة مبدعها .

لذلك نقول : إذا نظرنا إلى خَلْق السموات والأرض لوجدناه فعلاً أكبر من خَلْق الناس : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾ [غافر] لكن ما معنى (لاَ يَعْلَمُونَ) الكون يقع تحت حواسّنا ، ونراه بأعيننا ، وكان ينبغى حين نرى هذا الكون بما فيه من إبداع أن نفكر فيه ، وفى عظمة خَلْقه ودقَّة نظامه ، وكم هو محكم منضبط لا يتخلف أبداً .

ألسنا الآن بالعلم نستطيع أنْ نحدد وقت الكسوف مثلاً بالدقيقة والثانية ؟ وكأن الحق سبحانه جنَّد حتى غير المسلمين لإظهار صدق آياته الكونية ، وكيف أنها منضبطة انضباطاً لا يمكن لأحد أنْ يفسده، لذلك قلنا : إنك إذا رأيت خللاً أو فساداً فى الكون فاعلم أن يد الإنسان المختار تدخلتْ فيه ، والشئ الذى نتركه على طبيعته لا يمكن أنْ نرى فيه خللاً أو فساداً .

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨)﴾

نعم لا يستوى مَـنْ يهمل آيات الله ولا يتأملها مع مَنْ يفكر فـيها ويسـتنبط منها ويهـتدى بهـا ، فـالذى لا يتفكر فى هذه الآيات مـثل الأعمى لأنه لا يتنبه لآيات الكون التى هى أكبر من خَلْق الناس ، وإذا كـانت هذه الآيات الكونيـة أكـبـر فى الخَلْق وأعظـم من خلق الناس ، فكيف تغـفل عنهـا ، ومنها يمكن أن تأخـذ الدليل على وجـود واجب الوجود الأعلى سبحانه ، وعلى طلاقة قدرته وإبداع صنعته .

وكما أنه لا يسـتوى الأعمى والبصير ، كـذلك لا يستوى عند الله الذين آمنوا وعـملوا الصالحـات مع المسىء ، وهذا مظهـر من مظاهر عَدْله سبـحانه :﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) ﴾ [غافر] يعنى : قليلٌ منكم مَنْ يتذكر ذلك .

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) ﴾

يُذكِّرنا الحق سبحانه بهذه الحقيقة التى طالما تغيب عن الأذهان ، وكـان يجب عليكم ألاَّ تغفلوا عـنها ، لأن المـسألة ليـستْ مجـرد علم بشىء ، إنما المـسألة أبعد من ذلك ، إنه احـتياط لمـا سيحـدث ولما سيأتيكم .

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ (٥٩) ﴾ [غافر] أى : القيامة ﴿ لاَّ رَيْبَ فِيهَا (٥٩) ﴾ [غافـر] لا شكَّ ، ومـا دام أن السـاعـة آتيـة لا شكّ فيـها فـلا بدَّ أن نستعدّ لهـا ، فلو كنتَ قد خُلقت وتُركتَ هكذا وانفلتَّ من الله لكانَ لك أنْ تفـعل مـا تشاء ، لكن مـاذا وأنت لك مـرجع إلى ربك ومـردٌّ إلى

خالقك ، وموقفٌ للحساب والجزاء ؟ إذن : لا مفر لك من أن تحمى آخرتك ، وهى الغاية العظمى التى ليس بعدها بعد .

وقوله : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩) ﴾ [غافر] أى : لا يعلمون هذه الحقائق أو يغفلون عنها ، مع أن العقل المجرد لا بدَّ أنْ يهتدى ويعتقد بوجود الساعة والحساب والجزاء ، لماذا ؟ لأنك حين تنظر إلى الكون تجد المرتبط فيه بمنهج افعل ولا تفعل ، ويسير وفْق هذا المنهج تجده مُؤدَّباً مع الكون منْ حوله لا يأتى منه فساد ولا تعدٍّ ، وتجد المنحلَّ الذى انفلتَ من هذا المنهج مصدرَ إزعاج وفساد للكون من حوله ، فهل يستويان فى العقل مجرد العقل ؟

هل يستوى المصلح والمفسد ؟ مَنْ عربد فى الكون وآذى خَلْق الله وأتعب الدنيا كلها ومَنْ أصلح الكون وأسعد الناس وأعانهم ؟ ثم ألسْنَا فى عملية التعليم نُجرى للتلاميذ اختبارات آخر العام ونقول : هذا ناجح ، وهذا راسب ؟ ألسنا نضع فى دنيانا قواعدَ للثواب والعقاب تقضى بمكافأة المحسن ومعاقبة المسىء ؟

إذن : فلماذا ننكر الحساب يوم القيامة يوم يُجازى كُلٌّ بما عمل ، حتى الناس الذين لا يؤمنون بالآخرة يؤمنون بمبدأ الثواب والعقاب ، وعندهم عقوبات على الجرائم ضد المجتمع لتأديب الخارجين على القانون ، فإذا كنتَ فى دنياك جعلتَ العقوبات وجرَّمت بعض الأفعال وعاقبتَ عليها لتستقيم حركة حياتك الدنيا ، فلم تنكر هذا المبدأ مع الله فى الآخرة ؟

أيُعقل أن تكون حركة الناس جميعاً فى الدنيا من أولها إلى آخرها متروكة هكذا دون حساب ، دون ثواب للمحسن وعقاب للمسىء .

والله ، لو كان الأمـر كمـا يدَّعُون وينكرون فقـد فاز المنحـرفون المجرمـون ، وربح المخالفون الخارجـون على القانون والدين ، حيث فعلوا ما فعلوا ، وظلموا ما ظلموا ، وأفلتوا بجرائمهم ، وما خسر فى هذه الصفقة إلا المـؤمنون والمستقيمون الذين ألـزموا أنفسهم بمنهج دون فائدة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩) ﴾ [غافر]

يعنى : أن المسألة ليستْ قائمة على العقل إنما على الإيمان ، فلو تركتْ للعقـل لقلنا ما قلناه الآن ، لكن أمرَ الـساعة قـائمٌ على الإيمان والعقيدة ، والذى يريد ألاَّ يرتبط بالإيـمان وأنْ ينفلت من قيوده يريد ألاَّ يقيـد حركـته فى الوجـود بمنهج افعل ولا تفـعل ، يريد أن يكون حُراً يسير فى الحياة على هواه .

لذلك قلنا : إن الذين عبدوا الشجر والحجر عبدوها لأنها آلهة لا منهج لها ولا تكاليف ، وهذه العبادة فى معناها باطلة ، لأن العبادةَ تعنى : طاعة العابد لأمر المعبود ، فهذه الآلهة التى تزعمونها بِمَ أمرتكم ؟ وعمَّ نهتكم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدتْ لمن كفر بها ؟

إذن : أنتم مـا ارتضيـتُم هذه الآلهة إلا لتـسيـروا فى الحيـاة بلا قيود ، وبلا تكاليف ، وبلا منهج وبلا ضابط لشهواتكم .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾

معنى ﴿ رَبُّكُمُ (٦٠) ﴾ [غافر] من تولى تربيتكم ، والتربية هنا تعنى الإيجاد من العدم والإمداد من عُدْم ، وما دام هو ربى فأنا مسئولٌ منه يضمن لى رزقى وعيشى فى الدنيا ، وقبل ذلك أعطانى الجوارح التى تعمل ، والأعضاء التى بها أعيش ، فهو ربى وخالقى الذى استدعانى للكون ، ووفَّر لى فيه أسبابَ الحياة .

لذلك لما أراد سبحانه أنْ يجعل نموذجاً فى الكونِ جعله بحيث يتعاطف الكونُ مع ذاته ويتكامل فى نفسه ، فجعل هذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، هذا صحيحاً وهذا مريضاً .

فالقوى حركته فى الحياة حركة كاملة قوية تزيد عن حاجته ، وقال له : ما زاد عن حاجتك اجعله للضعيف الذى لا يقدر على الحركة ، والخالق سبحانه قادر على جَعْل الناس جميعاً أقوياء ، لكن أراد أنْ يرتبط الخَلْق فى حركة الحياة ارتباطَ حاجة لا ارتباطَ تفضُّل ؛ لأن الارتباط لا يأتى بقانون التفضُّل ، فالتفضل لا إلزامَ فيه ، والمتفضل بالشىء حُرٌّ ، يفعل أو لا يفعل .

وقوله : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ (٦٠) ﴾ [غافر] يعنى : فيما عجزتُم عن أسبابه ولن تقدروا عليه ، ولم تجدوا من بيئتكم عَوْناً عليه ، فليس لكم إلا التوجُّه إلىَّ تدعوننى ، فأستجيب ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ (٦٢) ﴾ [النمل] فأنا ربكم وخالقكم استدعيتُكم إلى الوجود ومنحتكم الأسباب والجوارح ، واستخلفتكم فى الأرض ، فليس لكم ملجأ غيرى تلجأون إليه إنْ عزَّت عليكم الأسباب .

أما إنْ كانت الأسبابُ ميسَّرة لكم ، وقام كلٌّ مكلَّف بدوره ، فلا تتركوا الأسباب وتقولوا : يا ربِّ ، عليكم بما فى أيديكم من الأسباب

أولاً ، زاولوها فإنْ ضاقتْ بكم فاذهبوا إلى المسبِّب .

لكن نلحظ فى هذه المسألة أن الله تعالى أمرنا بالدعاء ووعدنا الإجابة ، ومع ذلك منا مَنْ يدعو فلا يُستجاب له ، فلماذا ؟ قالوا : لأنك تدعو وأنت غير مُضطر ، فلو كنتَ فى حالة الاضطرار لاستُجيبَ لك . أنت تسكن فى مسكن محترم وتدعو الله أن يكون لك (ڤيلا) أو قصر ، فإنْ أعطاك القصر قلت : أريد عمارة تصرف على القصر ، هذا دعاء عن ترف لا عن اضطرار ، والإجابة هنا مشروطة بالمضطر.

والحق سبحانه وتعالى لا يُعفى عبداً من مسئولية استطراق النفع للعباد ، قالوا : لأن الواجد يبذل ، وغير الواجد ينصح الواجد ، فإنْ نصحت دون جدوى فلن تبرأ ذمتك حتى بعد ذلك .

ولو قرأتَ القرآن تجد قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ﴾ [التوبة]

متى هذا ؟ قالوا : إذا لم يكن عندك مال لا بدَّ أنْ تنصح ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ (٩١) ﴾ [التوبة] نصحت ولم يستجب لك . قالوا : اقدر على نفسك ، كيف ؟ ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ[1]

---

(١) قال الواحدى فى كتابه « أسباب النزول » (ص ١٤٨) : « نزلت فى البكائين وكانوا سبعة : معقل بن يسار وصخر بن خنيس وعبد الله بن كعب الأنصارى وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا نبى الله إن الله عز وجل قد ندبنا للخروج معك ، فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نغزُ معك ، فقال لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وهم يبكون » .

إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾ [التوبة] فهل أعفى أحداً ؟ لا بل حثَّ الجميع على أنْ يفعلوا : إما بذل المال ، وإما بذل المقال ، فإذا لم تستطع هذا ولا ذاك فيجب أنْ تحزن لأنك لم تشارك ، ولا يكفى هنا الألم الوجدانى ، بل لا بدَّ أنْ يصحبه انفعال عاطفى ينتج عنه بكاء ، تبكى أنك لم تجد شيئاً تنفقه فى سبيل الله .

إذن : المسألة استطراق نفعى فى الكون ، هذا الاستطراق لا يدعُ أحداً منا فى حاجة .

وبعد ذلك نقول له : أأنت فقير عَجْز أم احتراف ؟ إنْ كان فقير احتراف لا يُحسب ولا يُؤْبه له ، وإنْ كان فقير عجز فله أنْ يجلس فى بيته مُعززاً مكرَّماً ، والغنى هو الذى يذهب إليه ويعطيه حقَّه ، فالقادر إذن أصبح فى خدمة غير القادر .

وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ [غافر] معنى : ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي (٦٠)﴾ [غافر] أى : عن دعائى والذلة لى ، وإظهار الحاجة إلىَّ ، لذلك قال أهل المعرفة : لا يكُنْ حظك من الدعاء أنْ تُجاب ، لكن اجعل حظك من الدعاء ذلةَ محتاجٍ لمن معه الخير ، هذه هى معنى العبادة هنا ؟

لذلك تجد ربك عز وجل دائماً يُصحِّح لك خطأك فى الدعاء : ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١)﴾ [الإسراء]

فقد تدعو أنت لنفسك بشرٍّ تحسبه خيراً ، ومن رحمة الله بك ألاّ

يستجيب لك ، لذلك قلنا فى الثناء على الله تعالى : سبحانك يا مَنْ تُصوِّب خطأ الداعين بألاَّ تستجيب ، وبذلك حميتنا من الضر ، فكم يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير .

وقلنا فى ذلك : ما حال المرأة التى نسمعها تدعو على ولدها تقول : إلهى أشرب نارك ؟ فمن رحمة الله بها ألاَّ يستجيب لها ، إذن فى المنع هنا عطاء .

لكن لماذا ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر] أى : منكسرين صاغرين أذلاء ، قالوا : لأنك لا تدعو واحداً إلا إذا كنتَ مطيعاً له ، لأن الدعاء والعبادة متساويان ، لذلك قال ﷺ : « كل أمر لا يُبدأ باسم الله فهو أبتر »[(١)] يعنى : لا بركة فيه .

وعلمنا أن نقول : بسم الله الرحمن الرحيم . يعنى : أنا أبدأ عملى ببسم الله لكى تكون يد الله معى فى الفعل ، فما معنى (الرحمن الرحيم) هنا ؟

قالوا : ربما كنت عاصياً فأذكر له سبحانه صفة الرحمة ، لأنه سبحانه لا يتخلَّى عن عبده حتى لو كان عاصياً ، فهؤلاء سيدخلون النار داخرين أذلاء لأنهم استنكفوا[(٢)] أنْ يدعوا الله واستكبروا عن عبادته ، فالنار جزاء الاستكبار .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر . أو قال : أقطع » .

(٢) استنكفوا : أى امتنعوا وأنفوا وكرهوا واستكبروا أن يدعوا الله ويعبدوه .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ (١) لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

الحق سبحانه يذكر هنا آيتين من آياته الكونية هما آية الليل وآية النهار ، الليل نعلمه وهو من مغيب الشمس إلى شروقها ، والنهار نعلمه وهو من شروق الشمس إلى غروبها ، هذا زمن والزمن وعاء الأحداث ، وما دام الزمن وعاءَ الأحداث فلكلٍّ حدث زمنٌ يقع فيه .

فالحدث الذى يحتاج عملاً له وقت ، فحين تعمل بالنهار تتعب جوارحك وتحتاج إلى وقت للراحة ، فجعل لك الخالق سبحانه الليل تستريح فيه والنهار تعمل فيه ، تستريح بالليل لتستعيد قوتك ونشاطك للعمل فى النهار التالى ، وهكذا .

فإنْ طرأتْ عليك ظروف منعتْك من راحة الليل ، فكيف تكون بالنهار ؟ تكون متعباً لا توجد لك قوة تعالج بها شيئاً ، فكأن الله تعالى يريد أن يُعلِّمنا أن من خلقه متقابلات ، ومن حُمْق البشر أنْ جعلوها متعاديات ، وهى فى الحقيقة متكاملات .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]

---

(١) جعل هنا بمعنى خلق . والعرب تفرق بين جعل إذا كانت بمعنى خلق وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خلق فإذا كانت بمعنى خلق فلا تعديها إلا إلى مفعول واحد ، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدَّتها إلى مفعولين . نحو قوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. ﴿٣﴾ ﴾ [الزخرف] . [تفسير القرطبى ٨/٥٩٧٨] .

(٢) تجلى : ظهر ظهوراً قوياً وتبدى وتكشَّف . [القاموس القويم ١/١٢٦] وقال ابن كثير فى تفسيره (٤/٥١٨) : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾[الليل] أى : بضيائه وإشراقه .

وهذا يعنى أن لليل مهمة ، وللنهار مهمة ، وللذكر مهمة ، وللأنثى مهمة ، فلا تظنوا عداءً بين الليل والنهار ، ولا بَيْنَ الذكر والأنثى ، فكُلٌّ منهما مكمِّل للآخر وبينهما تساند لا تعاند كما يظن البعض .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

وتأمل تذييل الآية هنا وهنا : ففى الليل قال ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] لأن الليل تتعطل فيه حاسة البصر ، وتبقى الأذن تسمع ، وهى آلة الاستدعاء ليلاً ، أما فى النهار فقال : ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] لأن البصر يكون فى النهار .

كلمة سرمد ، بعض المفسرين يرى أن الليل ليس سرمداً ، كذلك النهار بمعنى أنه ليس دائماً مضطرداً ، لكن إذا نظرنا إلى حركة الأرض وتعاقُب الليل والنهار وجدنا فيهما سرمدية ، لأن الليل حين يغادرنا يذهب إلى آخرين لا أنه سرمد وينتهى .

فهما إذن دائمان سرمديان ، لكن السرمدية المنفعية هى السرمدية بالنسبة للمكان الواحد ، فلهما سرمدية فى ذاتهما سرمدية فى كل مكان ، أمَّا سرمدية المكان الواحد فتنتهى لتبدأ فى مكان آخر .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن

---

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . وقال الزجاج : السرمد الدائم فى اللغة . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب - مادة : سرمد] .

يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان] خلفة : يعنى يخلف كلٌّ منهما الآخر ، فالليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، هذا الآن واضح لنا كآية كونية ، لكن ماذا عن بَدْء الخَلْق أيّهما كان أولاً وخلفه الآخر؟

قالوا : فى البدء خلقهما الله معاً فى وقت واحد ، لأن الشمس خُلقت مواجهة للأرض ، فما كان من الأرض ناحية الشمس كان نهاراً ، وما حُجِب عنها فى الناحية الأخرى كان ليلاً ، ثم دارتْ الأرض فى فلكها فتعاقب الليل والنهار ، وهذا دليل على كروية الأرض ولو كانت مسطحة ما أمكن ذلك .

والعظمة فى قوله : ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴿٦١﴾ ﴾ [غافر] أى : مُبصَراً فيه ، وقديماً كانوا يعتقدون أن شعاع الرؤية يخرج من العين إلى المرئى ، إلى أنْ جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم(١) وأثبت عكس ذلك ، وبيَّن أن الشعاع يأتى من الشىء المرئى إلى العين فتراه ، بدليل أنك لا ترى ما فى الظلام وترى ما فى النور حتى لو كنتَ أنت فى ظلام ، لأن الشعاع ينعكس من المرئى فتراه .

وعليه فالنهار نفسه (مُبصراً) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴿٦١﴾ ﴾ [غافر] نعم الله صاحب الفضل والتفضل على الناس جميعاً ، لأنه سبحانه أعطاهم بلا حَقٍّ لهم عليه سبحانه ، فهو متفضل فى

---

(١) الحسن بن الهيثم : محمد بن الحسن بن الهيثم أبو على ، مهندس من أهل البصرة ، يلقب ببطليموس الثانى ، له تصانيف فى الهندسة ، بلغ خبره الحاكم بأمر الله الفاطمى ونقل إليه : لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع فى حالتى زيادته ونقصه فدعاه إلى مصر ووصل إلى جنوب أسوان وأشار ببناء سد هناك ولكنه لم يستطع تنفيذه . كتبه كثيرة تزيد على السبعين منها المناظر . ولد ٣٥٤ هـ وتوفى نحو ٤٣٠ هـ . [الأعلام للزركلى ٦/٨٣] .

الإيجاد من عَدَم ، ومتفضل فى الإمداد من عُدْم ، ومتفضل فى التكليف ، نعم حتى فى التكليف متفضل ، كيف ؟

قالوا : لأنه حين كلّفك كلّفك بشىء يعود نفعه عليك أنت ، ولا ينتفع هو منه بشىء ، ثم بعد ذلك جازاك عليه ، وجعل لك ثواباً ، فكأنه سبحانه تفضَّل عليك فى التكليف مرتين .

وقوله : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ﴾ [غافر] هذا يعنى أن القلة هى الشاكرة ، ويُعرف الشكر بزيادة النعم ، فالشكر وزيادة النعمة متلازمان ، وقد وعد الحق سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم]

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ (٦٢) ﴾ [غافر] إشارة إليه سبحانه . أى : الذى فعل لكم كذا وكذا ، وتفضَّل عليكم هو الله ربكم ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ (٦٢) ﴾ [غافر] وهذه مسألة لم ينكرها أحد ، ولم يدَّعها أحدٌ لنفسه ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ (٦٢) ﴾ [غافر] هكذا حكم بها الحق سبحانه لنفسه بأنه لا إله إلا هو .

إذن : فأنت تؤمن بالله ، والله سبحانه آمن بذاته ، وشهد لنفسه بهذا ، شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو قبل أنْ يشهد بها أحد ، لذلك يطلق سبحانه كلمة كُنْ ، ويعلم أنها نافذة لأنها كلمته وليس لها معارض ، وليس هناك إله آخر يردّها أو يُعدِّلها أو يعترض عليها .

قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران] قالوا : شهد الله لنفسه سبحانه شهادةَ الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادةَ المشهد ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال .

والحق سبحانه ساعة يقول ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢) ﴾ [غافر] يطلقها هكذا قضية عامة على إطلاقها ، نقول : إما أنْ تكون قضية صادقة أو غير ذلك - وحاشا لله - فإنْ كانت صادقة فقد ثبتت الحجة ، وإنْ كانت غير ذلك فأين خالق كل شيء ؟

أين خالق هذا الكون إذا لم يَكُنْ الله هو خالقه ؟ مَنْ هو ؟ ولماذا سكت ولم يخبر عن نفسه ؟ إنْ كان لا يدرى بوجود الله فهو إله نائم غافل لا يصلح للألوهية ، وإنْ كان يدرى بوجود الله الذى أخبر هذا الخبر ولم يعارضه فهو عاجز ، والإله لا يكون أبداً عاجزاً .

لذلك قال سبحانهُ مؤكِّداً على صحة هذه القضية : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء] يعنى : لذهبوا إلى الإله الحق ليناقشوه كيف أخذ منهم الخَلْق ؟ وكيف ادعاه لنفسه ؟ وهذا لم يحدث .

وقوله : ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) ﴾ [غافر] أى : تُصرفون عن الحق الذى يقول به العقل وتثبته الحجج والبراهين والواقع ، فالحق فى هذه القضية واضح ، وقد أطلقت هذه القضية وأخبرت بها ولم يَقُمْ لها معارض ، ولم يدَّعها أحدٌ لنفسه ، ومعلوم أن القضية تثبت لصاحبها ما دام ليس لها معارضٌ .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة وقلنا : هَبْ أن جماعة جلسوا فى

مكان ، ولما انصرفوا وجد صاحب المكان محفظة نقود فقال لخادمه : ابحث عن صاحب هذه المحفظة ، فأخذ الخادم يتصل بهم واحداً واحداً فلم يقُلْ أحد منهم أنها لى ، ثم طرق البابَ واحدٌ منهم . وقال : والله لقد نسيتُ محفظتى هنا ، فلمن تكون إذن ؟ تكون لمن ادَّعاها إلى أنْ يظهر مُدَّعٍ آخر .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) ﴾ [غافر] أى : يُصرفون عن هذا الحق الواضح البيِّن ، ومعنى يجحدون الآيات . أى : ينكرونها كِبراً واستعلاءً ، فهم لا يجحدونها ولا ينكرونها لدليل عندهم ولا لمنطق يعتمدون عليه ، إنما يجحدونها لأنها آياتُ الله وهم لا يريدون الله ، ولا يريدون منهج الله .

إنهم يخافون هذا المنهج الذى يُؤدّب حركتهم فى الحياة ويُقيد شهواتهم ، إنهم يريدون أنْ ينطلقوا فى الحياة بشراسة القوة والبطش بالناس وبشراسة الشهوات التى لا ضابط لها ، فجحود الآيات هو سبب الانصراف عن الحق ، فكأنه أمر غير طبيعى منهم .

لذلك رأينا كفار قريش تكبروا عن قبول الحق وعاندوا رسول الله ، ولم ينطقوا أبداً بلا إله إلا الله ولو مجرد النطق بها ككلمة ، لماذا ؟ لأنهم يعرفون معناها تماماً ويعلمون مطلوباتها ، ولو كانوا يعلمون أنها مجرد كلمة تُقال لَقالوها ، لكنهم وهم العرب أصحاب هذه اللغة يعرفون أن معنى لا إله إلا الله : لا معبود إلا الله ، ولا سيادة ولا رأىَ إلا لله ، ولا حكم ولا خضوع إلا لله ، وكيف يقبلون بذلك وهم قد ألفوا السيادة على قبائل العرب ؟

وكلمة ﴿ يُؤْفَكُ (٦٣) ﴾ [غافر] من الإفك ، وهو الكذب وقَلْب

الحقائق ، والكذب أنْ تقول قضية مخالفة للواقع فكأنك تقلب الحقيقة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم] المؤتفكة : هى القرى[1] التى قَلَبها الله رأساً على عقب ، كذلك الكذب يقلب الحقائق ، فينكر الموجود ويثبت غير الموجود .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [غافر] أى : تُصرفون عن الحق الواضح كأن هذا أمر فطرى ، فبالفطرة يصل الإنسان إلى الله ، وما كان ينبغى أنْ يقف الإنسان أمام هذه القضية لأنها واضحة وعليها دليل ، وكل تعاليم العقائد كذلك أمور فطرية أولاً ، إنما ضَبَّب هذه الفطرة هوى النفوس والغفلة وأغيار الزمن .

فما جاء به الدليل والعقيدة أمور يصل إليها العقل بالفطرة والطبيعة الصافية ، بدليل أن الناس الذين لم يؤمنوا برسول فكَّروا فى هذه المسائل، وتوصَّلوا إلى وجود الخالق سبحانه لما تأملوا آياته فى كونه .

لذلك تجد مثلاً الفلاسفة الذين كانوا لا يحبون كلمة رسول ويقولون : نحن مهتدون بطبيعتنا ولسنا فى حاجة إلى رسل ، قالها سقراط[2] ، لذلك

---

(١) المؤتفكة هى قرى ومدائن قوم لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ولهذا قال : ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النجم] يعنى : من الحجارة التى أرسلها عليهم [ابن كثير فى تفسيره (٢٥٩/٤)] . قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة : أفك) : « الائتفاك عند أهل العربية : الانقلاب كقريات قوم لوط التى ائتفكت بأهلها أى انقلبت » .

(٢) سقراط : فيلسوف ومعلم يونانى ، ولد ٤٦٩ قبل الميلاد وعاش فى أثينا ، عُرف عنه تواضعه فى مأكله ومشربه وملبسه ، وكان يعلم الناس فى الشوارع والأسواق والملاعب معتمداً على توجيه الأسئلة إلى مستمعيه ، أعدم باحتساء السم بتهمة إفساد الشباب على حكامه ، توفى عام ٣٩٩ قبل الميلاد عن ٧٠ عاماً . (موسوعة ويكيبيديا) .

ناقشه فيها تلميذه (أرسطودين)[1] وعرض عليه من المسائل والآيات كما يعرض الدين تماماً .

قال له : انظر إلى نفسك وإلى تكوينك فى ذاتك ، وتأمل ما فيك من جوارح ، لا أقول لك : انظر إلى الآيات الكونية من حولك بل إلى نفسك وجوارحك فى ذاتك ، أليس لك حواس ؟ قال : بلى ، قال : اذكرها . قال : لى عين تبصر ، وأذن تسمع ، ولسان يتكلم ، ويد تلمس .. الخ .

قال : فلماذا خُلِق لك عينان وأذنان ولسان واحد ، أليس وراء ذلك حكمة ؟ تأمل هذه الحواس وتأمل الحكمة من خَلْقها على هذه الصورة ، خلق لك عينين لاستيعاب المرئيات من هنا ومن هنا ، وأذنين لاستيعاب المسموعات من هنا ومن هنا .

أما اللسان فيكفى فى القيام بمهمته لسان واحد به تتكلم وتعبِّر ، وبه تتذوق المطعومات ، اللسان على صِغَر حجمه تتذوَّق به الحار والبارد ، والحلو والمر ، ثم إذا التذَّ به ابتلعه ، وإذا لم يلتذ به يلفظه وكأنه (كنترول) على كل ما تتناوله ، ثم إن التذوق يحفزك على الأكل ويُرغِّبك فيه ، لأن به استبقاءَ الحياة والقوة التى نُحقِّق بها مطلوب الله منَّا .

---

(١) المقصود هو أرسطوقليس الملقب والمشتهر بـ (أفلاطون) بسبب ضخامة جسمه وهو أشهر فلاسفة اليونان على الإطلاق ، ولد فى أثينا فى عائلة أرسطوقراطية (عاش بين ٤٢٧ قبل الميلاد - ٣٤٧ ق.م.) ارتبط بمعلمه سقراط فى العشرين من عمره . تأثر كثيراً بإعدام معلمه بحكم جائر وبُنيت فلسفته على كيفية سياسة الدولة بالفلسفة فكتب كتابه (جمهورية أفلاطون) [انظر : قاموس ناتان الفلسفى - تأليف : جيرار دوروزوى وأندريه راسيل - تعريب : أكرم أنطاكى] .

ثم ألا ترى حكمة فى قُرْب مدخل الطعام من الأنف الذى يشمُّ ، والعين التى تبصر ؟ لقد خلقه الله على هذه الصورة البديعة لتتمكن من رؤيته ، ومن شَمِّ رائحته قبل أنْ تتناوله ، أما مخارج الطعام فأين هى ؟ بعيدة عن العين ، بعيدة عن الأنف ، حتى لا تؤذيك الفضلات . نعم ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات]

ثم تأمل العين الواحدة تجد لها جَفْناً ينقبض ، وينفتح حسب إرادتك ، وفوق العين حاجبٌ يمنع تساقط العرق داخل العين وتحت أهداب ورموش تدفع عن العين ما يؤذيها من الغبار والأتربة ، فإذا نفذ إلى العين شيء بعد ذلك ، جاءت الدموع لتمسح العين وتُطهِّرها كما تفعل (المسَّاحة) التى تمسح زجاج السيارة .

والأنف الذى نشم به الروائح الطيبة فى الطبيعة وبه نميز الأشياء ، والآن نستخدمه ونُوظف حاسة الشم عند الكلب مثلاً للكشف عن الجرائم والمجرمين .

هذا كله كلام نظرى يقوله بالفطرة إنسانٌ صَفَتْ نفسُه ، وسلمت فطرته ، فتوصَّل إلى الحق بقليل من التأمل .

إذن : فقوله تعالى ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [غافر] تحمل معنى التعجب من الانصراف عن الحق ، لأنه أمر لا ينبغى أن يكون وما كان يصح من أصحاب العقول أن ينصرفوا عن الحق وهو واضح .

لذلك قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة] هذا استفهام تعجبىّ إنكارىّ ، يعنى : قولوا لنا كيف يتأتى منكم الكفر مع وجود هذه الآيات الواضحات الدالة على قدرة الله تعالى ؟

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا (٦٤) ﴾ [غافر] أى : مستقراً لكم تعيشون عليها ، وكلمة (لَكُمْ) أى : لكل العباد ، وهذه يشرحها قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن] هكذا على العموم ، فأىّ أرض وأى أنام ؟ لم يحدد .

إذن : فالأرض كل الأرض للأنام كل الأنام[1] ، لكن أهذا المبدأ هو واقع حياتنا ؟ لا ، وما حَلَّ الفساد بالعالم ، وما وقع الناسُ فى الأزمات وضيق العيش إلا بسبب عدم تطبيق هذا المبدأ .

ففى الكون الآن أرض بلا رجال ، وفى مناطق أخرى رجال بلا أرض ، والسبب فى ذلك تلك الحواجز التى وضعها البشر تحُول بين عباد الله وأرضه .

ولك أنْ تقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧) ﴾ [النساء]

لكن يا رب ، كيف لنا أن نهاجر وقد جعلوا على الأبواب حواجزَ

---

(١) الأنام : الخَلْق . والأنام ما ظهر على الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [لسان العرب - مادة : أنم] .

وسدوداً وحدوداً وقوانينَ للدخـول ما أنزل الله بها من سلطان ؛ لذلك انظر إلى الخريطة وتأمل حدود الدول المختلفة تجدها حدوداً متداخلة وغـير منظمـة ، وفى بعض المناطق تجـد الحـدود غيـر واضحـة أو مُختلفاً عليها ، وفى بعض الـبلاد تجد الحدود بؤراً للخلاف والنزاعات بين الدول .

هذا إنْ دلَّ فإنمـا يدلّ على أن الأرض أرضٌ واحدة للجمـيع ، لما طرأ عليهـا الإنسان قسَّـمها وجـعل عليهـا حدوداً ، خلقهـا الله واحدة منفتحة واسعة ، حتى إذا ضـاقتْ عليك الأسبابُ فى بقعة منها فاذهب إلى أخرى وانطلق فى أرض الله ، وإذا لم يطبق هذا المبدأ الإلهى فلن تحلّ مشاكلنا ، وسوف تظلّ الأزمات تطحن الناس .

والاستقـرار فى الأرض على نوعين : استقرار للحيـاة والحركة ، واستقرار للراحة والهدوء ، فالواحد منا له بيت يعيش فيه ويأوى إليه وهو مُستقره ومكان راحته ومبيته ، لذلك نسميه بيتاً .

وله أرض يسعى فيـها ويطلب الرزق والحركة ؛ لذلك قـال سيدنا إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ (٣٧) ﴾ [إبراهيم] وقـال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا (١٢٦) ﴾ [البقرة] فـالأولى قرار للـمبـيت وللراحـة ، والأخرى قـرار للحركة والسعى .

وتلحظ أن قـرار المبـيت والراحة خـاصّ بك ، أما قـرار الحركـة فمـشترك مع غـيرك ، وأن الأرض ليست قـراراً لك فى حيـاتك الدنيا فحـسب ، إنما هى قـرار لك حتى بعـد موتك ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ (٥٥) ﴾ [طه]

وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً (٦٤) ﴾ [غافر] أى : بناءً محكماً لا اختلالَ فيه ، والبناء معروف أنه يقوم على عمد تحمله ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (٢) ﴾ [الرعد] إما بغير عمد موجودة أصلاً ، أو يوجد عمد تحملها لكنكم لا ترونها ، فالعمد موجودة لكن لا تدركها حواسُّكم .

فالسماء محمولة بقدرة الله سبحانه ، ولم لا والأرض التى نعيش عليها ما هى إلا كُرة مُعلّقة فى الهواء ، فلِمَ لا تقع رغم ثقلها ؟

اقرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ (٤١) ﴾ [فاطر] يعنى : لا أحدَ يمسكهما بعد الله .

ثم يعطينا الحق سبحانه مثلاً حسّياً يقرب لنا قدرة الله فى حمل السماء والأرض ، فيقول : خذوا من الحسِّيات التى تدركونها دليلاً على ما غاب عنكم ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ[1] وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَٰنُ (١٩) ﴾ [الملك]

نعم ، نحن نرى الطير فى جو السماء يقف فى الجو بلا حركة هكذا ، ومع ذلك لا يقع ، فمَنْ يمسكه ؟ يمسكه ربه عز وجل بقدرته ، كذلك يمسك السموات والأرض بقدرته .

وقوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ (٦٤) ﴾ [غافر] بعد أنْ تكلم سبحانه عن الأشياء الكونية الخارجة عنَّا كالليل والنهار

---

(١) صافات : باسطات أجنحتها . وصفَّت الطير فى السماء تصف : صفت أجنحتها ولم تحركها . [لسان العرب - مادة : صفف] .

والسماء والأرض يتكلم هنا عن شيء في أنفسنا ، لأنه قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

قوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] أي : جعل لكم شكلاً مميزاً تتميَّزون به ، ثم جعل لكم سمات خاصة تتميز بها الأشخاص ليتم التعريف بحيث لا يفعل أحد فعلاً ويستتر منه في آخر .

فتمييز الأشخاص هنا مهم حتى يُنسب الفعل إلى صاحبه ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] أي : جعلها أحسن صورة بين المخلوقات ، وكان سبحانه قادراً على أنْ يُصوِّر الإنسان على أية صورة ، كأنْ يمشي على أربع مثلاً مثل الحيوانات ، لكنه كرَّمه وأحسن شكله ، وجعله يمشي معتدلاً مرفوعَ القامة .

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار] يعني : في أحسن صورة وأجمل شكل وأعدله .

بعد ذلك ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] ذلك لاستبقاء الحياة بالقوت ، لكنه لم يذكر هنا الزواج الذي به استبقاء النوع ، فأعطانا هنا لمحةً وترك الأخرى لموضع آخر حتى لا يخلوَ مكان من كتابه من إعجاز في خَلْقه .

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] يعني : تنزَّه وتقدَّس

---

(١) الآفاق : جمع أفق وهو الناحية . وخط التقاء السماء بالأرض في رأى العين . ويستعار لمدى الاطلاع والذكاء . فيقال : هو واسع الأفق . [القاموس القويم ١/ ٢٢] .

وجاء منه البركة ، وجاء منه الفضل ، وجاء منه الإمداد .

وكلمة (تَبَارَكَ) أخذتْ حظّها من كتاب الله[1] ، نجدها للأمور المادية الحسِّية ، ونجدها للمعنويات وللمنهج الذى وضعه اللهُ لاستقامة حركة الحياة ، فالله جعل لك الجسمَ المادى ، وجعل لك الروح التى يعيش بها هذا الجسم .

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٦٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْحَيُّ (٦٥) ﴾ [غافر] كأن كلّ صفات الكمال الأصل فيها أنْ توجد بحياة ، فلا يمكن أنْ توجد قوة إلا بحياة ، ولا سمع إلا بحياة ، ولا بصر إلا بحياة . وكلمة (الحى) تعنى أن الله تعالى ليس من الأغيار ، فأنتم لكم وجود وحياة مرتبطة بهذا الوجود ، أما الحق سبحانه فحىٌّ بذاته ، الحىُّ صفة ذاته ، والمحيى صفة فعله ، وما دام الحىُّ صفة الذات ؛ فما بالذات لا يتخلف ، فهو حَىٌّ أى : لا يموت ، لكن صفة المحيى يقابلها صفة المميت ؛ فيُحيى هذا ويُميت هذا .

---

(١) ذكرت كلمة تبارك فى القرآن ٩ مرات : (الأعراف ٥٤) - (المؤمنون ١٤) - (الفرقان ١ ، ١٠ ، ٦١) - (غافر ٦٤) - (الزخرف ٨٥) - (الرحمن ٧٨) - (الملك ١)
قال السيوطى فى [الإتقان فى علوم القرآن ٢/١٨٨] : « تبارك : فعل لا يُستعمل إلا بلفظ الماضى ولا يُستعمل إلا لله » . ومعنى تبارك الله : تقدس وتنزه عن كل نقص ، أو كثر خيره على عباده . [القاموس القويم ١/٦٥] .

لذلك قالوا : الاسم انذى له مقابل (صفة فعل) ، والاسم الذى ليس له مقابل (صفة ذات) فقالوا فى الثناء عليه سبحانه : يا حى صفة ذاته ، ويا محيى صفة فعله ، وما بالذات لا يفوت ، وما بالفعل يحيا ويموت .

وما دام أنه سبحانه حَيٌّ ولا إله إلا هو ﴿ فَادْعُوهُ (٦٥) ﴾ [غافر] بشرط ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (٦٥)﴾ [غافر] يعنى : حين تدعوه لا يكون فى بالك غيره ، فإذا لم يكن فى بالك غيره حين تدعوه كان معك واستجاب لك .

نعم ﴿فَادْعُوهُ (٦٥)﴾ [غافر] لأنه قيوم يقول لك : نَمْ واسترح لأن ربك قيُّوم لا ينام ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ (٢٥٥)﴾ [البقرة] وكأنه سبحانه (بيدلع) مَنْ آمن به ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (٦٥) ﴾ [غافر] فإياك أنْ تقول : توكلت على الله وعليك ، أو توكلت على الله ثم عليك ، هذا كله كذب ، استكفِ بالله وكفى به وكيلاً .

وحين تدعوه مخلصاً له الدين فقد وضعتَ أمرك فى يد راحد ، هو الذى يملك أنْ يفعل ، لا أنْ تذبذبه فى يد مَنْ لا يستطيع ، ثم لاحظ فى الدعاء أن ربك أعطاك واستجاب لك قبل أنْ تدعو ، بل وقبل أن تعرف الدعاء ، بل وأعطاك قبل أنْ توجد أصلاً ، إذن : كل ما يريده منك هو إظهار ذل العبودية لعزِّ الربوبية .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)﴾ [غافر] يعنى : احمدوا الله أنْ تفضَّل عليكم بكلِّ هذه النعم بداية ، أوجدكم من عدم وأمدكم من

عُدْم ، إلى أنْ ينتهى بكم المطاف فى الجنة إنْ شاء الله ؛ لذلك ساعة ندخل الجنة نقول كما قال سبحانه : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑩ ﴾ [يونس]

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(قل) الخطاب لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [غافر] يعنى : المسألة ليستْ من عندى ، إنما هى نَهْى من الله جاءنى فى آيات بينات واضحات ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [غافر] أى : أُسْلم قيادى وأمرى لرب العالمين سبحانه ..

نعم ، لأن الإنسان منا حتى فى دنيا الناس حينما يكون لا يحسن شيئاً ولا تسعفه أسبابه يلجأ إلى مَنْ يقضى له حاجته ويقدر عليها ، كما نذهب مثلاً للمحامى فى رَفْع قضية أو نذهب للطبيب للتداوى .. الخ لأنك لا تستطيع أنْ تدافع عن نفسك أمام القاضى ، ولا تستطيع أن تداوى مرضك ، فإذا ما ذهبتَ إلى واحد من هؤلاء فلا شكَّ أنك تسلم له زمام أمرك ، وتُفوِّضه أنْ يفعل ما يراه صالحاً دون أنْ تناقشه أو تعترض عليه .

إذن : معنى ﴿ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) ﴾ [غافر] يعنى : إسلام الزمام من عاجز عن شىء لقادر على هذا الشىء ، فإذا أمرك ربك أمراً فخذ الأمر من منطلق إيمانك به ، كيف ؟ قال : مثل حالى مع الطبيب حين يصف لى الدواء المناسب لحالتى لا أناقشه فيه ، ولا أقول له : لم كتبت كذا وتركت كذا ؟ حتى حين أسأل عن الدواء أقول : والله كتبهُ لى الطبيب ، وألقى التبعة والمسئولية عليه .

فإذا كنت تُسلم أمرك وزمامك للطبيب وهو بشرٌ مثلك يخطىء ويُصيب ؛ لأنك رأيت له حكمة فوق حكمتك وعلماً ليس عندك ، كيف تفعل هذا معه ولا تفعله مع الله عز وجل ، وهو العليم الحكيم القادر ؟

إذن : ما أمرك به ربُّكَ فامتثل للأمر ونفِّذ دون نقاش أو اعتراض أو تبرُّم بما قضى عليك به . والحق سبحانه يعلمنا درس التسليم له سبحانه فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وكيف أنه أسلم وجهه ، وألقى زمام أمره لربه تعالى ، حينما أمره بذبح ولده إسماعيل الذى لم يُرزق به إلا على كبر[1] وبعد يأس ، لذلك قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

أراد المفسرون تقريب هذا المعنى ، فقالوا : المراد الحمد لله الذى

---

(١) ذُكِر فى العهد القديم – سفر التكوين أن عمر إبراهيم عليه السلام حين ولد له إسماعيل كان ٨٦ عاماً . [تكوين أصحاح ١٦ : ١٦] وقد كان بين إسماعيل وإسحاق ٤١ عاماً ، وكان عمر إبراهيم حينها ١٠٠ عام [تكوين ٢١ : ٥] .

وهب لى على الكِبَر ، فجعلوا على بمعنى مع[1] ، وفرْقٌ بين كلمة من حرفين ، وكلمة من ثلاثة أحرف ، ولا يعدل القرآن الكريم عن الحرفين ويختار الثلاثة إلا لملحظ يحتاجه المعنى ، فما هو ؟ قالوا : معنى (مع الكبر) أى : مظنة ألاَّ ينجب ، لكن مراد الله تعالى فوق هذه المظنة ، يعنى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم] لا مع الكبر .

كذلك فى قصة سيدنا زكريا عليه السلام قال : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا[2] وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ (٩) ﴾ [مريم]

إذن : فمعنى ﴿ عَلَى الْكِبَرِ (٣٩) ﴾ [إبراهيم] أن الكبر كان يقتضى عدم الإنجاب لكن مراد الله أعلى من الكبر وفوقه . ونفهم هذا المعنى أيضاً من قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ (٦) ﴾ [الرعد] البعض قال : يعنى مع ظلمهم ، وهذا لا يصح بل على ظلمهم كما أرادها الحق سبحانه ، لأن الظلم يقتضى العقاب ، لكن تأتى مغفرة الله وتعلو على الظلم ، وعلى قانون مجازاة الظالم بظلمه .

وقوله : ﴿ نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ (٦٦) ﴾ [غافر]

---

(١) ذكر جمال الدين بن هشام الأنصارى تسعة معان لـ (على) منها المصاحبة كـ (مع) نحو : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة] ونحو ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد] .

(٢) عقرت المرأة : أصيبت بالعقم فهى لا تلد فهى عاقر . [القاموس القويم ٢/ ٣٠] .

نهى لأنه مُحبّ له ، فقال له : وجِّه عبادتك لمن يقدر أنْ يفعل لك ، وهذا النصح لا يكون إلا من مُحب كما تنصح صاحبك وتدلّه على الخير ، ولولا حبك إياه ما نصحته .

وقوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [غافر] أسلم قيادى وزمام حركتى فى الحياة لربى أفعل ما أمر بفعله ، وأنتهى عما نهانى عنه ، أمر سكت عنه ولم يقل لى فيه : افعل ولا تفعل فأدخله فى مقام المباح ، ولو كان أمراً النفس العادية تنفر منه .

وحتى إنْ حكم عليك حكماً ترى فيه مشقة ظاهرية على نفسك فاعلم أنه يريد لك الخير من حيث لا تدرى ، كما قلنا فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وتعلمون أن سيدنا إبراهيم ابتلاه ربه بأمور كثيرة كلها مشقة : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة] ولما أتمهن ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة] فى شبابه ابتُلِى بالإحراق ، ولما كبر سنه ابتُلى بذبح ولده ، وهو فى حال ابنه أعزّ

---

(١) اختلف العلماء فى الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم على أقوال ، منها :

- ابتلاه الله بالمناسك . ابن عباس .
- ابتلاه بالطهارة : خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس : قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس . وفى الجسد : تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء . [ذكرهما ابن كثير فى تفسيره ١/١٦٥] .

عليه من نفسه ، لأن الإنسان حين يتقدم به سِنُّه ويقبل على الآخرة والنهاية يودّ أنْ يكون له امتداد فى ولده من بعده .

فابتُلِى إذن فى أول حياته فى ذاته بالإحراق ، ثم ابتُلى عند وجود الولد وبعد كِبَر السنّ بقتل الولد .

والابتلاء هنا ابتلاء مبالغة ، فلو أنه سيموت موتاً طبيعياً لكان ابتلاءً ، فما بالك حين يقول له : اذبحه بيديك ، عندها يكون الابتلاء أشدّ ، وهذا الابتلاء لم يأتِ بأمر مباشر ، إنما برؤيا منامية قابلة للتأويل ، ومع ذلك أذعن إبراهيمُ لمجرد الرؤيا لأنه يعلم أنها من الله .

لكن كيف أقبل سيدنا إبراهيم على تنفيذ هذا الأمر ؟ أأخذ ولده على غِرَّة ؟ لا بل أحب أنْ يُدخله معه فى مجال الابتلاء ، وألاَّ يحرمه ثواب التسليم معه لله ، فقال له : ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ فِى الْمَنَامِ (١٠٢) ﴾ [الصافات] أراد أنْ يعطيه فرصة لأنْ يقول : كيف تذبحنى يا أبى برؤيا منام ، فيكون له مجال لأنْ يعترض لكنه لم يفعل ﴿ قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وتصوَّر لو أن سيدنا إبراهيم أخذ ولده دون أنْ يخبره بشىء وألقاه على الأرض وأمسك بالسكين ليذبحه . ماذا سيكون شعور الولد نحو والده ؟ سيكرهه ويكره فعله ويغضب عليه ، وفى هذه

الحالة لا نصيبَ له فى ثواب هذا الابتلاء .

وتأمل قول إسماعيل فى الرد على أبيه : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ (١٠٢) ﴾ [الصافات] فيُذكِّره بالآمر يعنى : يا أبت افعل ما دام الأمر من أعلى منك ، وسبق أن قلنا : إن الفعل فى ذاته ينبغى ألاَّ يترتب عليه فرحٌ به ولا غضبٌ منه إلى أنْ تعرف الفاعل ، فإذا عرفتَ أن ربك هو الآمر ، فقد انتهتْ المسألة وليس إلا التسليم للأمر .

وهكذا رأينا التسليم منهما معاً ، لذلك قال : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا (١٠٣) ﴾ [الصافات] هكذا بصيغة المثنى ﴿ وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعنى : بدأ التنفيذ والانقياد بشكل عملى قال له ربه : ارفع يدك فقد نجحتَ فى الامتحان ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]

هكذا رفع البلاء ولا يُرفع قضاء حتى يُرْضَى به ، رفع عن إسماعيل القتل ونزل له الفداء وعوَّضه ربه عن الفزع الذى أصابه ، فبشّره بغلام آخر[2] ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ﴾ [الصافات] يعنى : كنا نريد أَخْذ إسماعيل ، فلما رضيتَ بقضائنا فيه

---

(١) تلّه : ألقاه على وجهه على الأرض ، أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض [القاموس القويم ١/١٠١] .

(٢) بشر الله إبراهيم عليه السلام بإسحاق وكان عمر إسماعيل حينئذ ثلاثة عشر عاماً . وقال سعيد بن المسيب : بشَّر الله إبراهيم بولد يكون نبياً بعد هذه القصة جزاءً لطاعته وصبره . [زاد المسير لابن الجوزى - سورة الصافات] .

زدناه بآخر ، ثم جعلناهما من الأنبياء ومن ذريتهما الأنبياء ، فتأمل ماذا جرَّ لك التسليمُ بالقضاء والرضا به ؟

إذن : أنت فى التسليم لله لا تأخذ الفعل لذاته ، إنما بضميمة صاحبه ، الآمر به .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ(١) ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

الحق سبحانه يعود بنا مرة أخرى إلى مسألة الخلق الأول ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [غافر] معلوم أن لنا خَلْقين : خلقاً من تراب لما خلق الله آدم وحواء ، وخلقاً من النسل الذى تناسل منهما .

لاحظ أن الله تعالى قال ﴿ مِّن تُرَابٍ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [غافر] وقال ﴿ مِّن طِينٍ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الأنعام] و ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر] وقال ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن] ، وهذه كلها مراحل للشىء الواحد ، فالتراب حين نضع عليه الماء يصير طيناً ، فإذا تركناه فترة

---

(١) العلقة : الدم الجامد الغليظ الذى يعلق بما يمسُّه . [القاموس القويم ٢/ ٣٢] . فالعلقة : قطعة دم منعقد غليظ .

تعطّن وتغيَّرتْ رائحته ، وهذا هو الحمأ المسنون[1] ، فإذا تركناه يجف يصير صلصالاً[2] .

وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ .. (٦٧)﴾ [غافر] لا يعنى أبانا آدم وحده ، إنما كلنا من تراب حتى مَنْ خُلِقوا بالزواج والتناسل ، لماذا ؟ لأن الميكروب الذى ستنشأ منه جرثومة الرجل وبويضة المرأة إنما تأتى مما نأكله من طعام ، والطعام يُؤخذ إما من نبات أو حيوان ، والنبات والحيوان منشؤهما تراب الأرض .

ولذلك رأينا فى عملية التحليل الكيماوى لعناصر الإنسان أنها هى نفسها عناصر التراب ، وهى العناصر الستة عشر المعروفة ، فكَوْنُ الإنسان خُلق من طين لها دليلٌ مادى معلوم لنا الآن ، إذن : كلنا من تراب ، وإنْ جئنا من زوجين ، لذلك قال ﷺ : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب »[3] .

---

(١) الحمأ : الطين الأسود المنتن . (تاج العروس من جواهر القاموس - مادة : حمأ) وقال : « وفى كتاب المقصور والممدود لأبى على القالى : الحمأ : الطين المتغير » . والمسنون : المتغير المنتن . فكأنه تأكيد للمعنى الذى فى الحمأ .

(٢) الصلصال : الطين الجاف لم تحرقه النار . [القاموس القويم ١/٣٨١] . فإذا مسته النار فهو حينئذ فخار . فالصلصال طين يابس يصِلّ من يبسه اى : يُصوِّت . [لسان العرب - مادة : صلل] .

(٣) أخرج الترمذى فى سننه أن ابن عمر قال : خطب رسول الله ﷺ الناس يوم الفتح فقال : يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها ، فالناس رجلان : بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هيِّن على الله ، الناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب . [سنن الترمذى حديث ٣٢٧٠] .

لذلك الحق سبحـانه لما تكلم عن الخَلْق قال : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] لأن خَلْق السموات والأرض سابقٌ على خَلْق الإنسان ، والإنسان طارئ عليهما ، ولما خُلِق آدم لم يكُنْ له تمييز ليعرف كيف خُلق .

ثم يأتى سبحانه بكلام يدل على الإعجاز وإفحام المعاندين ، فيقول : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

يعنى : ما أخذت منهم مساعدين لى ، ولا معينين لى فى عملية الخلق ، والمضلون هم الذين يُضللون الناس ، ويقدمون لهم الباطل فى ثوب الحق ، ويُراد بالمضلين المضلين فى مسألة الخلق كمَنْ يقول لنا الآن : إن الإنسان فى أصل خَلْقه الأول كان قرداً وتطور كما قال داروين(١) .

لكن الحق سبحانه يقطع عليهم طريق الضلال ، ويقول لهم : أنتم ما شهدتم الخَلْق لتخبروا الناس به ، وأنا الخالق وحدى ولم يكُنْ معى أحدٌ غيرى خبر بما حدث ، فإذا أردتُم أنْ تعرفوا كيفية الخلق فاسمعوا منى أخبركم به ، وقد أخبرنا الله به فى آيات كثيرة فى كتابه .

فإنْ قلت : هذا كلام أخبر الله به ولم نشهده ، نقول : تأمل واقع

---

(١) داروين : عالم حيوان ، إنجليزى الجنسية اشتهر بنظرية التطور حول نشأة الإنسان ، ولد فى انجلترا فى ١٢ فبراير ١٨٠٩ م وتوفى ١٩ أبريل ١٨٨٢ م عن ٧٣ عاماً ، درس الطب واللاهوت ، له كتاب « أصل الأنواع » ، « سلالة الإنسان » ، « دودة الأرض » .

الحياة فإنه يدلّ على صدق الله فيما قال ، فأنت لم تَرَ الخلْق لكن رأيتَ نقيضه وهو الموت ، ونَقْض الشيء يأتي على عكس بنائه ، فحين تبنى مثلاً بيتاً من أربعة أدوار تبدأ بالأول ، فإنْ أردتَ أنْ تهدم تهدم الرابع .

كذلك الموت ، يبدأ بخروج الروح وهي آخر شيء في خَلْق الإنسان بعد خروج الروح يتصلَّب الجسد ، ثم يرمّ ويتغيّر مثل الجيفة ، ثم يتبخَّر منه الماء الموجود فيه ، ثم يتحلل الباقي إلى تراب ، فجاء الموت ليصدق ما غاب عنك في بداية الخَلْق .

قوله : ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا .. (٦٧)﴾ [غافر] هذه مراحل في الخَلْق ، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً .. (٦٧)﴾ [غافر] قالوا : هو طفل طالما هو في مراحل النمو ، فإذا استوى وأخذ شكله النهائي واستقر على صورة كاملة فقد وصل إلى مرحلة البلوغ التي يستكمل فيها كلّ أجهزة الوجود ، لأنه بالبلوغ أصبح قادراً على إنجاب مثله .

يقول تعالى : ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ[1] فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٩)﴾ [النور] فالطفولة هي مرحلة النمو . ومرحلة البلوغ هي الأشد ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ .. (٦٧)﴾ [غافر] أي :

---

(١) الحُلم : البلوغ مبلغ الرجال . وهو أيضاً الاحتلام وهو الإنزال حال النوم . وغلام حالم إذا بلغ الحلم ، ومنه قول رسول الله . « غُسْلُ الجمعة واجب على كل حالم - وفي رواية : محتلم » . [جمهرة اللغة لابن دريد] .

قوتكم ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا .. (٦٧)﴾ [غافر] أى : تنحدرون مرة أخرى من القوة إلى الضعف وإلى الشيخوخة ، وهى مرحلة ضعف وهُزَال فى الجسم .

فإذا انتهتْ مرحلة النمو والزيادة بدأتْ مرحلةُ الضعف والهزال ، فى مرحلة النمو تجد أن ما يدخل له من الغذاء أكثرُ مما يخرج منه من الفضلات لذلك يزيد ، أما فى مرحلة الشيخوخة فتكون الفضلاتُ أكثر ، فيحدث له النقص والهزال ، وتأخذ قوته فى الانحدار وعضلاته فى الضمور ، إلى أنْ يصلَ إلى المخزن الأخير فى الجسم وهو العظام ، فتحدث فيها هشاشة وتتكسَّر لما يُمتص منها .

لذلك قال سيدنا زكريا : ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ[1] الرَّأْسُ شَيْبًا . (٤)﴾ [مريم] فذكر آخر مراحل الشيخوخة وهى وَهَن العظام . هذا فى الناحية الجسمية المادية ، أما فى الذاكرة والأشياء المعنوية فيعتريه النسيانُ ، كما قال سبحانه : ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٥)﴾ [الحج] فيصل به النسيانُ كأنه لم يعلم شيئاً فى حياته ، ثم نراه يحبو ويُحمل كما يُحمل الأطفال : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ[2] فِي الْخَلْقِ

---

(١) اشتعل الرأس شيباً : معناه انتشر فيه الشيب كالنار فى الحطب . [القاموس القويم ١/٣٥٠] . قال ابن منظور فى اللسان [مادة : شعل] : دخل فى قوله الرأس شعر الرأس واللحية لأنه كله من الرأس .

(٢) ننكس فى الخلق : أى أنه يرجع إلى حالة ضعفه جسمياً وعقلياً حينما كان طفلاً ، أو ننكس رأسه بانحناء ظهره . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨) ﴾ [يس]

وقوله : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ .. (٦٧) ﴾ [غافر] يعنى : منكم مَنْ يعاجله الموت فلا يصل إلى هذه المراحل ، ربما يموت الإنسانُ فى بطن أمه أو بعد ولادته أو فى طفولته ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى .. (٦٧) ﴾ [غافر]

فالأجل مختلف ومكتوب عند الله ، منا مَنْ عمره لحظة ، ومَنْ عمره دقائق ، ومَنْ عمره ساعات ، ومَنْ عمره أيام أو شهور ، ومن الخَلْق مَنْ لا يصل إلى تمام مراحل الخلق ، فيُؤخذ وهو علقة أو مضغة ولا يستكمل الخلق .

وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾ [غافر] يعنى : افهم أن الله حين يعطيك الأشدَّ ، وتصل إلى مرحلة القوة أنها ليستْ ذاتية فيك ، إنما هى موهوبة لك وكلُّ نعمة عندك موهوبة ليست ذاتية ، ويمكن أنْ تُسلبَ منك فى أىِّ لحظة ، وما دمت قد عرفتَ أنها موهوبة وقد تُسلَب منك فى أىِّ وقت ، فالزم أدبك مع مَنْ وهبك هذه النِّعم .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٦٨) ﴾

عرفنا أن الإنسان فى خَلْقه يمرُّ بمراحل عدة ، وأن عمره مظنون قد يموت فى أىِّ مرحلة من هذه المراحل ، فكيف نفهم قوله تعالى :

﴿كُن فَيكُونُ ۝٦٨﴾ [غافر] بالنسبة لمَنْ عمره لحظة مثلاً ، أو لمَنْ يموت فى بطن أمه ؟

قالوا : كُنْ هنا تُقَال لما يوجد عليه الإنسانُ ساعتها علقة أو مضغة أو غيرهما ، كأنه يقول له : كُنْ حياً . ثم تؤخذ الحياة منه بقانونها فى أزمانها التى لا يعلمها إلا الله .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝٦٩ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠﴾

قلنا : يجادلون فى آيات الله ، وهى على ثلاثة أنواع : آيات كونية كالشمس والقمر . وآيات المعجزات التى تصاحب بعثة الرسل . وآيات القرآن حاملة الأحكام . ورأينا أنهم جادلوا فى المعجزات فقالوا عنها : سحر . وقالوا : شعوذة . وجادلوا فى آيات الأحكام وقالوا : إنها غير مناسبة ، أما الآيات الكونية ، فليستْ محلاً للجدال .

قوله : ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝٦٩﴾ [غافر] أى : يُصرفون عن الحق وهو واضح فأين عقولهم المفكرة ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠﴾ [غافر] قال ﴿كَذَّبُوا .. ۝٧٠﴾ [غافر]

بزمن الماضى ، لكن فى الجزاء قال ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠)﴾ [غافر]

يعنى : فى المستقبل ، قالوا : لأن الجزاء ليس بالضرورة أن يكون فى نفس الوقت أو وهم موجودون فى سعة الحياة الدنيا ، يصح أن نؤخر لهم الجزاء فى الآخرة .

وكلمة سوف دلَّتْ على المستقبل سواء القريب فى الدنيا أو البعيد فى الأخرة ، فإذا لم يدركهم العذاب فى الدنيا فهو ينتظرهم فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يصلنا دائماً به وَصْلاً بحيث لا يأتى غيره على بالنا ، هذا الوصل يجعلك حينما تأتى الأشياء لا تظن أنك أخذتها بذاتيتك ، إنما هى موهوبة لك ، وللواهب أن يرجع فى هبته .

ولذلك ينبهنا سبحانه فيقول : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق] ثم يقول بعدها : ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨)﴾ [العلق] يعنى : تذكَّر مردّك إليه ووقوفك بين يديه .

وقوله (الكتاب) أى : الذى أنزله الله حاملاً لمنهجه ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا.. (٧٠)﴾ [غافر] أى : على ألسنة رسله ، فإنْ قلت الكتاب هو ما أرسلنا به رسلنا ، نقول : لا .. هناك فرق ، فالكتاب هو المنهج ، أما الرسول فقد أُرسل يحمل المنهج ويُبلِّغه وأُسْوة

تطبيقية لذات المنهج كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. (٢١) ﴾ [الأحزاب]

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ﴾

أى : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) ﴾ [غافر] متى ؟ يوم القيامة ﴿ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) ﴾ [غافر] تأمل مدى ما هم فيه من الإهانة ﴿ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ﴾ [غافر]

الأغلال جمع غل ، وهى قيود تُوضع فى الأيدى وتضمها إلى العنق ، والسلاسل أى : من حديد تُقيَّد بها الأرجل ، أىّ ذلة بعد هذا ؟

ومعنى الحميم أى : الماء الذى تَنَاهى حَرُّه ، يعنى : بلغ الدرجة القصوى فى حرارته ، ثم بعد ذلك يُسْجرون فى النار يعنى تُحْمى بهم ويصيرون وقوداً لها .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤) ﴾

تأمل هذا التبكيت للمشركين فى هذا الموقف العصيب : أين شركاؤكم الذين أشركتموهم مع الله ؟ ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب ، والله إنْ كانوا عبدوا أشخاصاً أمثالهم فسوف يرونَهم وقد سبقوهم إلى النار ، وإنْ كانوا عبدوا حجارة فسيرونَها أمامهم وقوداً لجهنم .

لذلك هم الذين سيقولون : ﴿ضَلُّوا عَنَّا .. (٧٤)﴾ [غافر] يعنى : لم يهتدوا إلينا ولم يعرفوا طريقنا ، ثم يرونَ أن الموقف أكبر من شركائهم فيكذبون ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا .. (٧٤)﴾ [غافر] سبحان الله يكذبون حتى فى هذا الموقف ، كما سبق أنْ أقسموا بالله أنهم ما أشركوا : ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾ [الأنعام]

لذلك يقول تعالى يصف هؤلاء الكذبة : ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ[1] الْعَظِيمِ (٤٦)﴾ [الواقعة] إذن : فهم ألفوا الكذب ، حتى إن موقف الحساب لم يردعهم عنه فيقولون : ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا .. (٧٤)﴾ [غافر] يعنى : ما أشركنا مع الله أحداً ، وقد يكونون صادقين فى هذا لأنهم لم يدعوا هذه الآلهة لأنهم يعرفون أنها لا تضر ولا تنفع ، وما عبدوها إلا ليُرضوا رغبة التديُّن عندهم بآلهة لا منهجَ لها ولا تكاليف .

---

(١) الحنث : الخُلْف فى اليمين ونقضها والنكث فيها . وهو من الحنث الإثم . وحنث فى يمينه أى : أثم . وحنث اليمين إذا لم تبرّ . والحنث : الذنب العظيم والإثم . فهم يصرون عليه ويدومون عليه . [لسان العرب - مادة - حنث] .

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [غافر] نعم الحق لا يُضل أىّ إنسان إنما يضل مَنْ كفر ، فمَنْ كفر كيف يهديه الله ؟ سبق أنْ مثَّلنا لذلك ولله المثل الأعلى قلنا : إن رجل المرور مثلاً حين تسأله عن الطريق يدلُّك ، فإنِ اعترضتَ عليه ولم تطاوعه أو سخرتَ من رأيه . وقلتَ له : أنت لا تعرف هذا المكان . تركك وتخلَّى عن إرشادك ، فإنْ أذعنتَ لرأيه وشكرته على صنيعه معك قال لك : لكن والله أمامك هناك على بُعد كذا كيلو عقبة أو تحويلة ، سأذهب معك حتى تمرّ منها ، إذن : هداه أولاً بالدلالة ، فشكره أنه هداه فلمَّا شكره استحقَّ معونته .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] وهنا ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [غافر] أى : الذين لا يستحقون الهداية ، لذلك قلنا أن مَنْ عشق الكفر وركن إليه واختاره لنفسه ، يقول الله له : أنا ربٌّ أعطيك ما تريد ، وما دُمْت أحببتَ الكفر فسوف أُعينك عليه وأختم على قلبك ، بحيث لا يدخله الإيمانُ ، ولا يخرج منه الكفر .

﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ﴾

﴿ ذَٰلِكُم ﴾ إشارة إلى ما وقع بهم من العذاب بالأغلال والسلاسل

والنار ، سببه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ[1] ﴿٧٥﴾﴾ [غافر]

الفرح : انبساط النفس بما يسرُّها ويُسعدها ، لكن الفرح الحقيقى أن تسعد وتسر بما يُعينها على غايتها الأصيلة ، فهناك فرح بأىِّ شىء ربما كان بالمعصية ، وفرح بحق هو أنْ تفرح بما يُعينك على غايتك ، أما الشىء الذى لا يعيننى على هذه الغاية ، بل يصادمها ، فهذه لذَّة عابرة تعقبها حسراتٌ ربما تفوق أضعاف اللذة التى حصلتْ من هذا الشىء .

واقرأ مثلاً فى الفرح الحقيقى قوله تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران]

نعم هذا هو الفرح بحقٍّ ، بل يتعدَّى الفرح للآخرين : ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران] فهذا فرح يتعدَّاك إلى غيرك فرح حقيقى ، لأنه يحقق الغاية الأصيلة فى الوجود .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس] هذا فرح بالفضل

---

(١) تمرحون : أى تبطرون وتأشرون . قاله مجاهد وغيره . وقال الضحاك : الفرح السرور والمرح العدوان . [تفسير القرطبى ٨/٥٩٨٣] .

وبالرحمة من الله لا بعملهم ، وهذا فرح مشروع .

ومن الفرح المشروع : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ .. (٣٦)﴾ [الرعد] لأنه جاء مُصدّقاً لما معهم ومؤيداً لمنطقهم فى الحق ، وهذا تفرح به لأنه يُعينك على الغاية الأصيلة فى الوجود .

ويقول تعالى : ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم] فكم فرح مشروع إذن ؟ فرح الشهداء بفضل الله وبرحمته ، وفرح الذين أُوتوا الكتاب برسول الله ، وفرح المؤمنين بنصرة منهج السماء على منهج الأرض .

وما عدا الفرح المشروع فرح أحمق ، ومنه قوله تعالى عن الكافرين : ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا .. (٥١)﴾ [التوبة] يعنى : ما أصابنا من الله محسوب لنا لا علينا .

وقال : ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾ [آل عمران]

وقال تعالى أيضاً فى الفرح غير المشروع أو الأحمق كما قلنا : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً .. (٤٤) ﴾ [الأنعام]

وقال تعالى : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا .. (١٨٨) ﴾ [آل عمران] يفرحون بأنهم آذوا المؤمنين وسخروا منهم ﴿ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ[1] مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) ﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) ﴾ [هود]

وقال : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا[2] كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) ﴾ [المؤمنون]

وما دامت قد تعددت الأحزاب ، وفَرِح كُلٌّ بما عنده ، فهو فرح باطل غير مشروع .

وقال أيضاً : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ

---

(١) المفازة : سميت الصحراء مفازة تفاؤلاً بالفوز فى اجتيازها والنجاة من أخطارها ، ومعنى الآية : فلا تحسبنهم بمكان فوز يفوزون فيه بالنجاة من العذاب أى : لا تحسبنهم بمنجاة منه . [القاموس القويم ٢/ ٩١] .

(٢) زُبُراً : جمع زُبْرة بمعنى القطعة . أى : تفرقوا فى دينهم . [لسان العرب – مادة : زبر] .

الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ[1] بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص]

إذن : عندنا فرح مشروع فى أربعة مواضع ، وفى تسعة مواضع ، فرح غير محمود وغير مشروع .

هنا يقول تعالى : ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. (٧٥)﴾ [غافر] هذا دليلٌ على أن هناك فرحاً بالحق وفرحاً بغير الحق ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥)﴾ [غافر] المرح : هو المبالغة فى الفرح والسَّيْر به فى بَطَر وتفاخر وخيلاء .

﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)﴾

﴿مَثْوَى﴾ مرجع ومستقر ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين تكبَّروا على الله الذى وهبهم الحياة ، ومع ذلك لم يؤمنوا به ، وهؤلاء تكبَّروا على الله فلم يؤمنوا به ، وتكبَّروا على رسله فلم يُصدِّقوهم ، وتكبَّروا على منهجه فلم يعملوا به ، اختاروا هواهم وأسلموا إليه قيادهم بدل أنْ يُسلموه لله .

---

(١) ناء الحمل بالبعير إذا أثقله . وقال ابن عباس : كانت خزائنه يحملها أربعون أقوياء ، وكانت أربعمائة ألف ، يحمل كل رجل عشرة آلاف . [البحر المحيط] وقال الشوكانى فى فتح القدير (٥/٤٢١) : « ناء بحمله : إذا نهض به مثقلاً . والمعنى : يثقلهم حمل المفاتح . قال أبو عبيدة : هذا من المقلوب . والمعنى : لتنوء بها العصبة . أى : تنهض بها ، وقال الفراء : تميلهم بثقلها » .

بعد ذلك يلتفت إلى رسوله ﷺ يقول له : ستواجه كثيراً من المتاعب تحتاج منك إلى صبر ، لأن مهمتك شاقة ، وسوف تُؤْذَى بكل لون من الإيذاء :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

نعم ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] أى : وعده بنصرة رسله وهو حق ، لأنه تعالى قادر على إنفاذ وعده ، وبيَّنا الفرق بين وعدك ووعد الله ، وعدك أنت غير الحق لأنك لا تملك أسباب الوفاء به وتضمنها ، أما الحق سبحانه فله صفات الكمال ، ولا يمنعه شىء من تحقيق وعده .

وقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] أى : من العذاب فى الدنيا . ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] تموت قبل أن ترى فيهم آية ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] أى : فى الآخرة حيث لا يفلتون من العذاب ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السجدة]

العذاب الأدنى ما يقع لهم فى الدنيا ، والعذاب الأكبر يوم القيامة ، يعنى : لا مفرَّ لهم .

ثم يُوضح سبحانه لنبيه ﷺ حقيقة الرسالة ، يقول له : اعلم يا

محـمد أنك لستَ بدعـاً من الرسل ، ولستَ أول مَنْ أُوذِى فى سـبيل دعوته ، فكل مَنْ سـبقك من إخوانك فى موكب الرســالات أُوذِى بقدر رسالته ، لذلك فأنت أشـدّهم إيذاءً ، لأنك نبىٌّ آخر الزمان ، ورسالتك عامة للناس كافة فى كل زمان ومكان ، فلا بُدَّ أنْ يكون ابتلاؤك أشدَّ ممَّنْ سبقوك .

يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ(١) وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

نعم ذكـر الحق سـبحـانه لرسـوله ﷺ أسـمـاء بعض الرسل ، وعددهم فى القرآن خمس وعشرون ، قال الناظم :

فِى تِلْك حجتنا منهم ثمانيةٌ   من بَعْد عشر ويَبْقَى سَبْعةٌ وَهُمُو

---

(١) ذكر السيوطى فى (الدر المنثـور فى التفسير بالمأثور) فى تفسـير آية غافر ٧٨ : أخرج الطبرانى فى الأوسط وابنِ مردويه عن على بن أبى طالب قال : بعث الله عبداً حبشياً نبياً ، فهو ممن لم يقصص على محمد ﷺ ، وقال الزمـخشرى فى تفسيره الكشاف : قيل : بعث الله ثمانية آلاف نبى : أربعة آلاف من بنى إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر الناس .

إدْريـس هُـود شُعَـيْب صَـالح ذُو الكفْل آدم بالمخْتَار قَدْ خُتموا

لكن الحق سبحانـه يقول فى موضع آخر : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيـهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر] وهذا يعنى أن الذين لم يُذكـروا من الرسل كثيرون .

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد] ما مناسبة هذه هنا ؟ قـالوا : لأنهم كانوا يقترحون عليـه الآيات ، كما قال سبحـانه : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء] يعنى : لتستديم هذه الجنة ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء] فماذا كان جوابه : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ

---

(١) الكِسْفَـة والكُسْفَـة من السحاب والثـوب : القطعة منه . والتكسـيف : التقطيع . [الصحاح للجوهرى] . وقد حدث من رؤساء قـريش فى حوار طويل مع رسول الله ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية ، وفـيه أنهم قالوا له : أسقط السماء علينا كسفـاً كما زعمت إن ربك إنْ شاء فـعل فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل . فـقال رسول الله : ذلك إلى الله إن شـاء أن يفعله بكم فعل . قالوا : يا محمد أفما علم ربك أنّا سنجلس معك ونسـألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب فيتقدم فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، إنه قد بلغنا أنك إنما يـعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وإنا والله لا نؤمن بالرحمـن أبداً فقد أعـذرنا إليك يا محمـد ، وإنا والله لا نتركك وما بـلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً (٩٣)﴾ [الإسراء] يعنى : ما أنا إلا رسول من الله أبلغ ما أرسلت به .

والحق سبحانه أوضح لنا حينما لا يجيبهم إلى ما طلبوا من الآيات أنهم لم يكتفوا بما عندهم ولم يقنعوا به ، فطلب الآيات بعد ذلك يُعَد طعناً فى الآية السابقة هذه واحدة ، وأيضاً هناك أُناس طلبوا الآيات فأجابهم الله ، ومع ذلك كفروا بها . إذن : كَوْنى أجاريهم فى طلب الآيات عبثٌ لا فائدة منه ، لذلك قال سبحانه : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء] أى : الآيات المطلوبة .

وقوله سبحانه : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾ [غافر] معنى ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ .. (٧٨)﴾ [غافر] ما دام القضاء بالحق ، فقد فاز المؤمنون وخسر ﴿هُنَالِكَ .. (٧٨)﴾ [غافر] أى : فى الآخرة ﴿الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾ [غافر] الكافرون أهل الباطل ، وهذه هى النهاية الطبيعية والجزاء من جنس العمل .

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠)﴾

﴿ الأنْعَام ﴾ هى : الإبل والبقر والغنم والماعز وهذه لها مهمة ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا .. (٧٩)﴾ [غافر] يعنى : منها ما يُركب وهو الإبل ، فلا نركب الخروف مثلاً ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩)﴾ [غافر] أى : اللحوم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ .. (٨٠)﴾ [غافر] أى : منافع أخرى غير الركوب والأكل ، كأن ننتفع منها بالجلود والأصواف والأوبار ، وكانوا يصنعون منها الملابس والأغطية والمفروشات والخيام ... الخ .

وتأمل هنا عظمة الأداء القرآنى ، ففى الركوب قال : ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا .. (٧٩)﴾ [غافر] وفى الأكل قال : ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩)﴾ [غافر] قالوا : لأن الأكل من المباحات ، أما الركوب فمن الضروريات .

وقوله : ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ .. (٨٠)﴾ [غافر] أى : أنها تُبلغكم حاجتكم فى السفر للحج مثلاً أو للتجارة وحمل الأثقال ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠)﴾ [غافر] عليها نعم لأننا نركبها ونضع عليها الأحمال .

أما ﴿عَلَى الْفُلْكِ .. (٨٠)﴾ [غافر] أى : السفن . فمعلوم أننا نركب فى السفينة كما قال تعالى فى سفينة سيدنا نوح عليه السلام : ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا .. (٤٠)﴾ [هود] ولم يَقُلْ عليها ، كيف ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه كأنه يُعطينا المراحل التى تمر بها صناعة السفن وكيفية الاستفادة منها ، فسفينة نوح كانت أولَ سفينة فكانتْ على صورة بسيطة ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُعلمنا

أن صناعة السفن ستتطور ، ويكون بها طوابق مختلفة فنركب عليها .

لذلك كنا سألناهم في سان فرانسيسكو[1] عن السفن العملاقة هذه ، متى صُنعت ؟ وكانوا لا يعرفون سنة بالتحديد ، فقال أحد الحضور : اعتبر أنها منذ قرن مثلاً ، قلت : نعم ، وفي القرآن الكريم إخبار بها ووصفٌ دقيق لها ، فهي متسعة من أسفل تضيق في كل دور من الأدوار إلى أعلى ، فتراها عملاقة على صفحة الماء مثل الجبل .

فكيف يقول الحق سبحانه في قرآنه وهو يُعدِّد نعمه علينا في سورة الرحمن : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) ﴾ [الرحمن] يعني : كالجبال ، ومعلوم أن محمداً ﷺ لم يركب البحر ولم يَرَ مثل هذه السفن العملاقة ، إنه دليلٌ على صدق محمد ﷺ في البلاغ عن ربه .

ثم قولوا لي : متى صُنعت هذه (الأسانسيرات) وهذه المصاعد الحديثة ؟ قالوا : من خمسين عاماً مثلاً ، قلت : فالحق سبحانه يقول في القرآن الكريم : ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ

---

(١) سان فرانسيسكو مدينة أمريكية في ولاية كاليفورنيا على المحيط الهادي ، سميت بهذا الاسم في ٣٠ يناير ١٨٤٧ م ، وهي المركز المالي والبنكي لشاطئ الولايات المتحدة الغربي ، وهي مدينة ليبرالية ويسارية أكثر من معظم مدن الولايات المتحدة . (موسوعة ويكيبيديا) .

بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ[1] عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

معارج يعنى : مصاعد كالتى عندكم منذ خمسين سنة ، أخبرنا الله بها منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان .

هذه كلها لقطات من كتاب الله ذكرها الحق سبحانه لتكون دليلاً على الإعجاز : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾

يعنى ﴿ آيَاتِهِ ﴾ فى هذه المخلوقات ، وآياته فى البحر حين تركبون السفن وترونَ عوالمَ أخرى فى البحر ، وآيات هى أعظم مما ترونَهُ على البر . والآن وبعد التقدم العلمى الحاصل رأيناهم يصنعون للفُلْك نوافذ من زجاج تحت سطح الماء ، ويصنعون زوارق زجاجية تُمكِّنك من رؤية الأعماق وما فيها من بديع صُنْع الله وآياته الدالة على قدرته ، لدرجة أنك تقول : سبحان الله ، كيف يكفر الكافر بعد رؤية هذه العوالم ؟

كذلك حين تركب الإبل فى البر وتتنقل بها عَبْر المسافات ترى كثيراً من آيات الله فى كونه ، فى الجمل الذى تركبه والصحراء

(١) المعارج : جمع معراج ومعرج : المصعد . والمعراج : الطريق الذى تصعد فيه الملائكة . والمعراج شبه سلَّم أو درجة تعرج الأرواح فيه إذا قبضت . [العين - للخليل بن أحمد الفراهيدى - مادة : عرج] .

والجبال التى تمر بها ، فى كل ما حولك ترى آية ، لذلك تجد الحق سبحانه وتعالى يطلب منَّا السير فى الأرض .

فيقول سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (٦٩) ﴾ [النمل]

ويقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١) ﴾ [الأنعام]

فكأن السير فى الأرض لاعتبارين : السير فى الأرض للاعتبار (فانظروا) والسير فى الأرض للتجارة والاستثمار فقال لكم : سيروا فى الأرض وابتغوا الرزق والاستثمار ، لكن لا تحرموا أنفسكم لذَّة الاعتبار والتأمل فى بديع خلق الله ، فقال : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١) ﴾ [الأنعام] ومعلوم أن الفاء للترتيب والتعقيب ، وثم للترتيب والتراخى[1] .

وقوله : ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾ [غافر] يعنى : هذه الآيات التى ترونها أيها تنكرون ، وكيف تنكرونها وهى واضحة

---

(١) تحقيق هذه المسألة أن الحق سبحانه :

- استخدم (الفاء) فى ٣ آيات للسير فى الأرض للاعتبار كيف كان عاقبة المكذبين والمجرمين والذين من قبل ، (النحل ٣٦) (النمل ٦٩) (الروم ٤٢) ، واستخدم (ثم) فى التعبير عن نفس المعنى فى آية واحدة ، وهى قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) ﴾ [الأنعام] .
- وأيضاً استخدم الفاء للتعبير عن المعنى الآخر وهو التأمل فى بديع خلق الله ، فى قوله ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت] . ولم يستخدم (ثم) كما قال الشيخ رحمه الله هنا ، فالآية الوحيدة التى وردت فيها (ثم) خاصة بالاعتبار بما حدث للمكذِّبين كما قلنا .

الدلالة على قدرة الله ، كما قال سبحانه فى سورة الآلاء (الرحمن) : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] كررها الحق سبحانه بعد كل نعمة من النعم ، والمراد أنها آيات لا ينبغى أن تُكذَّب ، ولا ينبغى أنْ تُنكَر .

لذلك قال النبى ﷺ لصحابته : لقد قرأتُ سورة الآلاء على إخوانكم الجن ، فكانوا أحسن استجابةً منكم ، كانوا إذا قرأتَ عليهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] نطقوا جميعاً : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذب[١] .

وجاء بلفظ (أى) للمذكر مع أن (آيات) مؤنث ولم يقُلْ آية قالوا : لأنها مؤنث مجازى جاء بصيغة الجمع ، فيجوز فيه التذكير ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي .. (٧٨) ﴾ [الأنعام] فقال : هذا مع أن الشمس مؤنث .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾

هذا سير كما قلنا للاعتبار ، والاعتبار هنا بمَنْ سبقهم من

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٦٩٠) وعزاه للترمذى وابن المنذر وأبى الشيخ فى العظمة والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

الأمم ، يُبين لهم الحق سبحانه أن مَنْ سبقكم من الأمم المكذِّبة كانوا أكثر منكم عدداً ، وأشدّ منكم قوة وآثاراً فى الأرض ، والآثار هى ما يتركه القوم بعدهم كالأهرام بالنسبة للفراعنة ، مثلاً يبقيها اللهُ شاهدةً عليهم .

وهناك آثار أخرى لم نَرَها لأنها مطمورة ، لكن أخبرنا الله عنها كما فى قوله سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر] هذه آثار باقية ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

فأين أنتم أيها العرب من هذه الحضارات الذاهبة ؟ لقد كان عليكم أن تفهموا الدرس من السابقين الذين كذَّبوا الرسل وعاندوهم ، أخذهم الله وهم أقوى منكم وأشدّ ونصر رسله ومنهجه ، وأنتم دون هؤلاء ولن تُعجزوا الله ، بل إن مسألتكم أسهل .

وقوله : ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾ [غافر] يعنى : هذه الحضارات وهذه العمارة التى تُعدُّ إعجازاً لم نصل إلى سِرِّه حتى الآن ، لم تنفع أصحابها .

ولنتكلم عن آثارهم فى مصر مثلاً ، عندنا آثار الفراعنة فى المعابد وفى الأهرام ، رأينا الألوان على الجدران كما هى وكأنها منقوشة فى العصر الحديث ، رأينا بعض الحبوب كما هى وقالوا إنها صالحة للإنبات بعد هذه الآلاف من السنين ، وتعلمون ما فى بناء

الأهرام من الأسرار التى لم نتوصل إليها حتى الآن .

كل هذا التقدم لم يستطع أصحابه حمايته ، ولم يستطيعوا الإبقاء على هذه الحضارة ، ولا حتى استطاعوا أنْ يتركوا لنا ما يُفسِّرها ، ولولا شامبليون[1] فكَّ لنا رموز حجر رشيد لما استطعنا التوصل إلى هذا التاريخ ولا معرفته .

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أى : جاءتهم رسلهم بالآيات الواضحات وبالمعجزات قال : لسنا فى حاجة إلى الرسل كما قلنا أن سقراط الفيلسوف قالها على الفطرة ، نحن قوم مهتدون بطبيعتنا ولسنا فى حاجة إلى رسل ، ومع ذلك حكموا عليه بالقتل .

لذلك قلنا : إنهم حكموا عليه ظلماً لأنهم لم يحتكموا فى ذلك إلى شىء منطقى ، فأنت سوىّ السلوك فى ذاتك ، لكن هل منع عنك سىء السلوك ؟ فكان يجب أنْ يوجد طرف محايد يراعى ما لى وما علىّ .

---

(١) هو : جان فرانسوا شامبليون ، ولد ١٧٩٠ م وتوفى عام ١٨٣٢ م عن ٤٢ عاماً ، عالم فرنسى ، كان صبياً عمره ٨ سنوات حين جاء مع الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م ، قضى ثلاث سنوات فى دراسة اللغات الشرقية والقبطية على يد كبار علماء ذلك العصر ، وشغل وظيفة أستاذ كرسى الآثار المصرية فى الكرليج دى فرانس .

قوله : ﴿ فَرِحُوا[1] بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ .. (٨٣) ﴾ [غافر] هذا نوع من الفرح الذى ذكرناه ، وقلنا : إنه غير مشروع وفرح أحمق . والمراد : فرحوا بما عندهم من العلم الذى يُحاجُّون به القرآن كقولهم : ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤) ﴾ [الجاثية] وهكذا يقول العلمانيون ، ومثل قولهم : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا .. (١٤٨) ﴾ [الأنعام]

فكل قضية تُعرض عليهم يريدون أنْ يعارضوها معارضةً هم مقتنعون بها رغم بطلانها ، وهذا نوع من العلم عندهم .

أو المعنى : فرحوا بما عندهم من العلم بظواهر الحياة والحضارات التى أقاموها ، فقالوا : لسنا فى حاجة إلى الرسل ، لأن ما عندنا من العلوم أى المادية فيه كفاية . ونقول : أنتم نظرتم إلى سطحيات الأمور وإلى الأشياء التى تبررون بها فكركم ، فقلتم : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا .. (١٤٨) ﴾ [الأنعام] يعنى : تتهم الله ، وهذا دليلٌ على أنك تريد ذلك .

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية :

المشار إليهم قولان :

- القول الأول : أنهم الأمم المكذِّبة قاله الجمهور ، ثم فى معنى الكلام قولان : أحدهما : أنهم قالوا : نحن أعلم منهم لن نُبعث ولن نحاسب ، قاله مجاهد . والثانى : فرحوا بما كان عندهم أنه علم ، قاله السدى .
- والقول الثانى : أنهم الرسل ، والمعنى : فرح الرسل لما هلك المكذبون ونجوا بما عندهم من العلم بالله إذ جاء تصديقه ، حكاه أبو سليمان وغيره .

والبعض يقول أن ﴿فَرِحُوا..(٨٣)﴾ [غافر] تعود على الرسل ، يفرحون أنْ جعلهم الله هُداة مهديين ، لكن هذا القول فيه خروج عن مقتضيات السياق فى الآية ، ويتعارض مع تذييل الآية ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)﴾ [غافر] أى : حَلَّ بهم ونزل بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)﴾ [غافر] يعنى : جزاءَ استهزائهم ، ومن الاستهزاء قولهم : ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦)﴾ [الأعراف]

وقالوا : ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]

ومعنى ﴿يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)﴾ [غافر] من هُزْء الباطل من الحق ، لماذا ؟ قالوا : لأن الباطل حين يرى حقاً يدفعه فلا بُدَّ له أنْ يفُتَّ فى عَضُد مَنْ يؤمن به ، لأنه لو لم يَفُت فى عضده جذبه هو إلى الحق ؛ ولذلك سمعناهم يقولون : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا[1] فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

والله لو لم يكونوا يعلمون حلاوة القرآن وأخْذه لمن سمعه واستيلاءه على الأسماع والقلوب ، ولولا خوفهم من أنْ يأخذ

---

(١) قال السمرقندى فى بحر العلوم فى تفسير الآية ٢٦ من سورة فصلت : « نزلت الآية فى أبى جهل وأصحابه فإنه قال : إذا تلا محمد القرآن فارفعوا أصواتكم بالأشعار والكلام فى وجوههم حتى تُلبِّسوا عليهم ، فذلك قوله ﴿وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت] يعنى : الغطوا واللغط هو الشغب والجلب » .

القرآنُ منهم سيادتهم لما قالوا هذا الكلام ، ولما حذَّروا الناس من سماعهم ، ولو كان كلاماً عادياً ما وقفوا منه هذا الموقف . إذن : فهموا أن القرآن حَقٌّ ، ومَنْ سمعه لا بدَّ أنْ يهتدى به . ومعنى سمعه يعنى : بمواجيده .

سمعنا كثيراً قصة إسلام[1] سيدنا عمر بن الخطاب ، وكان جباراً فى الجاهلية عنيداً غليظ القلب ، فماذا حدث له بعد سماع القرآن ؟ لقد سمعه أولاً من أخته فغضب ولطمها على وجهها ، فسال الدم من وجهها ، وعندها تحركت عاطفته نحو أخته ، فلما تحركت عاطفته غطتْ على لدد الخصومة عنده للإسلام ، ولما غطَّت على لدد الخصومة للإسلام وصل القرآنُ إلى قلبه بدون لدادة فأثَّر فيه فآمن .

وقد صوَّر لنا القرآنُ فى موضع آخر نموذجاً لاستهزاء أهل الباطل بأهل الحق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) ﴾ [المطففين]

---

(١) كان إسلام عمر بن الخطاب فى ذى الحجة سنة ست من بعثة رسول الله وعمره حينئذ ست وعشرون سنة فيما ذكره ابن سعد عن ابن المسيب . وقال أبو نعيم : كان إسلامه بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام . قال ابن إسحاق : كان المسلمون قريباً من أربعين من رجال ونساء . [انظر : سبل الهدى والرشاد - الباب ١٧ فى إسلام عمر بن الخطاب] .

ثم يذكر الحق سبحانه عاقبة هذا الاستهزاء ، واللقطة الأخيرة فى هذا الموقف ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) ﴾ [المطففين] ثم يسألنا ربنا ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين] يعنى : هل قدرنا أنْ نجازيهم بما يستحقون ؟

﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٥) ﴾

هذه الآية تُمثِّل نفس الموقف الذى مرَّ به فرعون لما أدركه الغرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ فردَّ الله عليه ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس]

يعنى : لا ينفعك الآن إيمانك . إذن : هناك فترة لا يمكن الرجوع فيها من الكفر إلى الإيمان ، وهى ساعة يحيق به الموتُ ، إنما يقبل منه الإيمان وهو فى سَعَة من أمره حين يؤمن وفى مكْنته ألاَّ يؤمن .

كذلك هؤلاء ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا .. (٨٤) ﴾ [غافر] أى : عذابنا حَلَّ بهم فى الدنيا ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) ﴾

[غافر] فهل هذا وقت يُقبَل منهم فيه إيمان ؟

يقرر الحق سبحانه : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا .. (٨٥) ﴾ [غافر] يعنى : ما كان يصح فى عُرْف العقل ، ولا فى عرف الحق أن ينفعهم هذا الإيمان ، وكيف والآن لم تعُدْ لهم حيلة فى أنْ يُصادموا منهج الله ولا قوةَ ، الآن ليؤمنوا ؟

ما كان ينبغى أبداً أنْ ينفعهم هذا الإيمان ، وهذا الإيمان بظنهم هم ، وإلا فهو إيمان باطل مردود ، ولا معنى له لأنه فى غير وقته .

وهذه ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ .. (٨٥) ﴾ [غافر] يعنى : مضتْ ﴿ فِي عِبَادِهِ .. (٨٥) ﴾ [غافر] وقد رأينا هذه السُّنة على مرِّ التاريخ ، فكما أخذ أقواماً بذنوبهم ، ولم يقبل منهم إيمانهم ساعةَ غرغرتهم ، أو ساعة نزول العذاب بهم ، كذلك أنتم ولن تتغير هذه السُّنة لأنها ثابتة ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾ [الأحزاب] ، وستظل سُنةُ الله جاريةً على الخَلْق أجمعين .

﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾ [غافر] وهذا هو الأمر الطبيعى والنهاية التى يستحقونها .